سرشناسه : نقوی قائنی، محمد تقی، ۱۳۰۸.

عنوان و نام پدیدآور : ضیاء الفرقان فی تفسیرالقرآن / لمؤلفه محمدتقی نقوی قائنی.

مشخصات نشر : تهران: قائن، ۱۳۹۶.

مشخصات ظاهری : ۱۸ج.

شابک : دوره 978-964-8981-24-7 ؛ ج. ۱۴: 978-964-8981-58-2

وضعیت فهرست نویسی : فیپا.

یادداشت : عربی.

موضوع : تفاسیر شیعه قرن ۱۴.

موضوع : Qur’an - - Shiite hermeneutics - - 20th century

رده‌بندی کنگره : BP ۹۸/ن۷ض۹ ۱۳۹۵

رده‌بندی دیویی : ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی : ۴۴۰۴۹۵۲

ضیاء الفرقان فی تفسیر القرآن مجلد الرابع عشر

المؤلف: محمد تقی نقوی قائنی

الکمیة: ۱۰۰۰

الطبعة: الاوّل

تاریخ الطبع: ۱۳۹۶ ش. – ۱۴۳۹ ق.

تنسیق الصفحات: محسن نقوی

لیتوغرافی: لوح محفوظ

المطبعة: گوهر اندیشه

انتشارات: قائن

تلفن: ۰۹۱۲۳۱۷۳۵۵۰

مرکز التوزیع: تهران - شارع انقلاب - بازارچه کتاب - رقم ۱۰ - دارالکتب الاسلامیة

[illegible]

شابک: ۲ – ۵۸ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

شابک دوره: ۷ – ۲۴ – ۸۹۸۱ – ۹۶۴ – ۹۷۸

وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلّٰهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صٰالِحًا
نُؤْتِهٰآ أَجْرَهٰا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنٰا لَهٰا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾
يٰا نِسٰآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ ٱلنِّسٰآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ
فَلاٰ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ
قُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لاٰ
تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجٰاهِلِيَّةِ ٱلْأُولىٰ وَ أَقِمْنَ ٱلصَّلٰوةَ وَ
اٰتينَ ٱلزَّكٰوةَ وَ أَطِعْنَ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ إِنَّمٰا يُرِيدُ
ٱللّٰهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَ ٱذْكُرْنَ مٰا يُتْلىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ
اٰيٰاتِ ٱللّٰهِ وَ ٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللّٰهَ كٰانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾
إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَ ٱلْمُسْلِمٰاتِ وَ ٱلْـمُؤْمِنِينَ وَ
ٱلْمُؤْمِنٰاتِ وَ ٱلْقٰانِتِينَ وَ ٱلْقٰانِتٰاتِ وَ ٱلصّٰادِقِينَ وَ
ٱلصّٰادِقٰاتِ وَ ٱلصّٰابِرِينَ وَ ٱلصّٰابِراٰتِ وَ ٱلْخٰاشِعِينَ
وَ ٱلْخٰاشِعٰاتِ وَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَ ٱلْمُتَصَدِّقٰاتِ وَ
ٱلصّٰآئِمِينَ وَ ٱلصّٰآئِمٰاتِ وَ ٱلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ
ٱلْحٰافِظٰاتِ وَ ٱلذّٰاكِرِينَ ٱللّٰهَ كَثِيرًا وَ ٱلذّٰاكِراٰتِ أَعَدَّ
ٱللّٰهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ
وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ
لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ
فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِينًا ﴿٣٦﴾ وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ

ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ
ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى
ٱلنَّاسَ وَ ٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَيٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا
وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ
فِيٓ أَزْوَاجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كَانَ
أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ
فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ
وَ كَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ
رِسَالَاتِ ٱللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا
ٱللَّهَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ
أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَ خَاتَمَ
ٱلنَّبِيِّينَ وَ كَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ آمَنُوا ٱذْكُرُوا ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَ
سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي
عَلَيْكُمْ وَ مَلَآئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ ٱلظُّلُمَاتِ إِلَى
ٱلنُّورِ وَ كَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ
يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَ أَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

◀ اللّغة

يَقْنُتْ: يقال قَنت قُنوتاً، القُنوت بضّم القاف لزوم الطّاعة مع الخضوع و فسّر بكلّ واحدٍ منهما.

فَلا تَخْضَعْنَ: الخضوع الخشوع.

قَرْنَ: قد يقرأ بكسر القاف من وَقَر و قاراً أي سكن والأمر منه، قر، و النّساء، قرن، و قد يقرأ بالفتح و علىٰ هذا فهو يكون من القرار تقول قَررت بـالمكان و الأمر منه، أقَر، و للنّساء.

أقِرنَ: بكسر الرّاء فحذفت الرّاء الأولىٰ تخفيفاً و نقلت حـركتها إلىٰ القـاف و إستغنىٰ عن ألف الوصل لتحرّك القاف.

وَ لَا تَبَرَّجْنَ: قيل إشتقاق التَّبرج من البُرج و هو السِّعة في العين يـقال فـي أسنانه برج إذا تفرّق ما بينهما.

ٱلرِّجْسَ: بكسر الرّاء و سكون الجيم و السّين الشّئ القذر.

مُبْدِيهِ: الإبداء الإظهار.

وَطَرًا: الوطر بفتح الواو و الطّاء الحاجة.

◀ الإعراب

وَ مَنْ يَقْنُتْ بالياء حملاً علىٰ لفظ، من، و بالتّاء علىٰ معناها و مثله تَـعْمَلْ صَٰلِحًا و منهم من قرَأ الأولىٰ بالتّاء و الثّانية بالياء قيل هذا ضـعيف لأنّ التـذكّير أصل فلا يجعل تبعاً للتّأنيث فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي يقرأ بفتح العين علىٰ جواب النّهي و بالكسر علىٰ نيّة الجزم عطفاً علىٰ تخضعن ٱلْخِيَرَةُ أنّما جمع لأنّ أوّل الآية يراد به العموم.

◀ التّفسير

وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ تَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا

أعلم أنّ هذه الأيات من قوله تعالىٰ: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ**[1] إلىٰ قوله: **وَ**

١- احزاب = ٢٨

كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا في شأن أزواج النّبي و لمّا تهددَّ و اللّه تعالىٰ نساء النّبي بأنّ من يأت منهنّ بفاحشةٍ حكمه كذا و كذا و من يأت بالطّاعة حكمه كذا و أخبر أنّ العذاب يضاعف لهن أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ الأجر و الثّواب أيضاً يضاعف في نساء النّبي، فقال: **وَ مَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ** أي من داوم مكننّ علىٰ الطّاعة لِلّه و رسوله علىٰ وجه الإنقياد و الخضوع و تعمل صالحاً من الأعمال نؤتها أجرها مرّتين كما أنّها لو عصت كان عقابها ضعفين و القنوت المداومة علىٰ العمل و منه القنوت في صلاة الوتر و في قوله: **لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ** إشارة إلىٰ أنّ العمل كان خالصاً لِلّه و رسوله و يستفاد هذا من قوله للّه، فأنّ اللاّم للإختصاص و معناه أنّ العمل كان خالصاً له مختصّاً به و قوله: **وَ تَعْمَلْ صَالِحًا** إشارة إلىٰ أنّ العمل إذا كان غير صالح فلا يفيد و بعبارةٍ أخرىٰ مجرّد العمل لا يكفي بل يشترط فيه الصّلاح و قد قالوا في تعريفه أنّ العمل الصّالح هو المستقيم الّذي يحسن أن يحمد عليه و إستّحق به الثّواب و الأجر و غير الصّالح بخلافه و لا شكّ أنّ الأجر و الثّواب يتوقّف علىٰ الصّالح من الأعمال.

و أمّا قوله: **نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ** فالوجه فيه أنّ أفعالهنّ تقع علىٰ وجهٍ يستحقّ مثلي ما لو إستعمل الغير لأنّه في مقابلة العذاب ضعفين و لا يجوز أن يضاعف ضعفين إلاّ مستحقّاً و كذلك الثّواب المقابل له هكذا قيل في الأجر مرّتين و يحتمل أن يكون المراد بقوله: **مَرَّتَيْنِ** مرّة في الدّنيا و مرّةً في الأخرة.

و قوله: **وَ أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا**، يعني أعددنا لها الثّواب الّذي لا يحسن الإبتداء بمثله و قيل الرّزق الكريم الجنّة و مافيها.

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا

أشار اللّه تعالىٰ في هذه الآية إلىٰ أنّ أزواج النّبي لمكانهنّ من رسول اللّه غير سائر النّساء من حيث جلالة القدر و عظم المنزلة بشرط أن يتقيّن عذاب اللّه باجتناب معاصيه و إمتثال أوامره و أنّما شرط ذلك لِئلا يعولنّ علىٰ الإنتساب بالنّبي فيرتكبنّ المعاصي إذ لولا الشّرط لكان الكلام موجباً لإغرائهنّ بالمعاصي لكونهنّ من أزواج النّبي و منطوق الآية يدلّ على عظم شأنهنّ بشرط التّقوىٰ و مفهومها أنّهن كغيرهنّ بل أخبث في صورة عدم التّقوىٰ.

و الحاصل أنّ ملاك الفضيلة في الإسلام عند اللّه التّقوىٰ لا غيرها و مجرّد الإنتساب لا يكفي في إثبات الفضيلة، و أمّا قوله: **فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ** الىٰ آخر الأية، أي لا تلين كلاً للرّجال بل يكون الكلام جزلاً و فصلاً و لا يكون على وجهٍ يظهر في القلب علاقة و محبّة لمن يسمع الكلام كما إذا كان بترخيم الصّوت و لينه فيطمع الّذي في قلبه مرض فيكنّ و أنّما قال تعالىٰ ذلك لأنّ صوت المرأة إذا كان علىٰ وجه الخضوع يوجب تحريك الشّهوة في الرّجال إلاّ من عصمه اللّه و في قوله: **وَ قُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا**، إشارة الىٰ أنّ الخضوع في القول منكر و عدمه معروفٌ بالنّسبة الىٰ المرأة و أمّا فى الرّجال فلا و هو واضح.

وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَ أَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَطِعْنَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

في الآية مسائل:

الأولىٰ: قرأ بعض المُفسّرين، قِرنَ بكسر القاف، و قَرأ عاصم و نافع بَفتحها فالقراءة الأولىٰ فيها إحتمالان:

أحدهما: أن يكون من الوقار تقول، و قر يقر و قاراً أي سكن والأمر منه، قر، للنّساء، قرن مِثل وَعد يَعد و الأمر منه، عِد، و للنسّاء عِدن.

و الإحتمال الثّاني أن يكون من القرار تقول قررت بالمكان بفتح الرّاء، و الأمر منه أقرَّ و للنسّاء أقرِرنَ بكسر الرّاء فحذفت الرّاء الأولىٰ تخفيفاً و نقلت حركتها الىٰ القاف و إستغنىٰ عن ألف الوصل لتحرّك القاف.

و أمّا القراءة الثّانية: و هى فتح القاف فهو بمعنىٰ، أقررنَ، في بيوتكنّ، من قرَرت في المكان أقرّ قراراً إلاّ أنّه نقل حركة العين الىٰ القاف فإنفتحت و سقطت الرّاء الأولىٰ لإلتقاء الساكنين كقولهم في ظللت ظلت و في أحسست أحسَست.

و قال الزّجاج فيه لغتان قرَرت في المكان و أقررت إذا عرفت هذا فالمعنىٰ على القول بكسر القاف، كنَّ أهل وقر، أي هدو و سكينَة من و قَر فلان في منزّله إذا هدأ فيه و إطمّأن، و علىٰ فتح القاف فهو بمعنىٰ الثّبات و الإستقرار و كلا المعنيين له وجه وجيه و الأمر واضح.

ثمّ أنّ الخطاب و أن كان لأزواج النّبي إلاّ أنّه يشمل الكلّ و أن شئت قلت مورد الآية خاصٌّ و المعنىٰ المراد بها في جميع نساء الأمّة من باب الإشتراك في التّكلّيف كما في قوله و أقمن الصّلٰوة و أتين الزّكٰوة و أطعن اللّه و رسوله و جميع الأحكام المذكورة في الآية نعم، الثّواب و العقاب في أزواج النّبي أكثر و أشدّ منهما في حقّ غيرهنّ من نساء الأمّة علىٰ ما مرَّ بيانه و هذا لا ينافي عموم الحكم في حقّ الجميع و ذلك لأنّ أزواج النَّبي أعظم منزلةً ففي الحقيقة ينبغي لسائر النّساء التأسّي بهنّ لكونهنّ أسوَة و لأجل هذا صار عقابهنّ ضعفين و أجرهنّ مرَّتين و أمّا أصل الحكم و هو قرار المرأة في بيتها فهو ثابت في جميع النّساء إلىٰ يوم القيامة و لعمري أنّ هذا الحُكم من أحسن الأحكام في حقّ النّساء و به تحصل سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين كما أنّ في خلافه خسران الدّنيا و الأخرة كما هو كذلك في زماننا هذا.

المَسألة الثّانية: قوله: **وَ لَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ** نصب تبَرّج علىٰ المصدر و المعنى مثل تبَرّج الجاهليّة الأولىٰ قبل الإسلام و قيل ما كان

بين أدم و نوح ما كان بين موسى و عيسىٰ، و قيل ما كان بين عيسى محمّد و قيل ما كان يفعله أهل الجاهليّة قال بعضهم هي الزّمن الّذي ولد فيها إبراهيم كانت المرأة تلبس الدِّرع من اللّؤلؤ فتمشي وسط الطّريق تعرض نفسها على الرّجال.

و قال الحكم بن عينية هي ثمان مائة سنة بعد موت أدم إلى زمن نوح.

و قال بعضهم أنّ المرأة كانت تلبس الدِّرع غير محيط الجانبين و تلبس الثّياب الرّقاق و لا تواري بينها.

و قال أبو العبّاس المبرّد و الجاهليّة الأولىٰ كما تقول الجاهليّة الجهلاء قال و كان النّساء في الجاهليّة الجهلاء يظهرون ما يقبح إظهاره حتّىٰ كانت المرأة تجلس مع زوجها و خلمها، أي صديقها و رفيقها فينفرد خلمها بما فوق الأزرار إلىٰ الأعلىٰ و ينفرد زوجها بما دون الأزرار إلىٰ الأسف و ربّما سأل أحدهما صاحبه البدل.

و قال مجاهد كان النّساء يتمشينَ بين الرّجال و ذلك التَّبرُّج و قال إبن عطيّة والّذي يظهر عندي أنّه أشار للجاهليّة الّتي لحقنها فأمرن بالنّقلة عن سيرتهنّ فيها و هی ما كان قبل الشّرع من سِيرة الكفرة لأنّهم كانوا لا غيرة عندهم و كان أمر النّساء دون حجاب و جعلها أولى بالنّسبة إلى ما كنَّ عليه و ليس المعنى أنّ ثمّ جاهليّة أخرىٰ و قد أوقع إسم الجاهلّية علىٰ تلك المدّة قبل الإسلام فقالوا جاهلّيّ في الشّعراء.

أقول هذه الأقوال الّتي أشرنا إليها لا بأس بها لدخلوها تحت الجاهليّة الأولىٰ و المقصود من الآية مخالفة من قبلهنّ من المشيّئة علىٰ تفتيح و تكسير و إظهار المحاسن للرّجال إلىٰ غير ذلك ممّا لا يجوز شرعاً و ذلك يشمل الأقوال كلّها فيلزمن البيوت و لا تخرجن منها إلاّ لضرورةٍ فأن مسَّت الحاجة إلىٰ الخرُوج فليكنّ علىٰ تبذّلٍ و تسترٍ تام.

تَنبيةٌ:

نقل القرطبي في تفسيره لهذه الآية بعد نقله ما نقلناه من الأقوال ماهذا لفظه:

الثّالثة: ذكر الثّعلبي و غيره أنّ عائشة كانت إذا قَرأت هذه الآية تبكي حتّىٰ تبُلّ خمارها و ذكر أنّ سودة قيل لها لم لا تحجّين و لا تعتمرين كما يفعل أخواتك فقالت قد حجّجت و إعتمرت و أمرني اللّه أن أقِّر في بيتي.

قال الرّاوي أيّام الجمل و حينئذٍ قد قال لها عمّار أنّ اللّه قد أمرك أن تقُّري في بيتك قال إبن العربي تعلّق الرّافضة لعنهم اللّه بهذه الآية علىٰ أمّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها إذ قالوا أنّها خالفت أمر رسول اللّه حين خرجت تقود الجيوش و تباشر الحروب و تقتحم مأزق الطّعن و الضّرب فيما لم يفرض عليها و لا يجوز لها قالوا لقد حصر عثمان فلمّا رأت ذلك أمر برواحلها فقّربت لتخرج إلىٰ مكّة فقال لها مروان أقيمي هنا يا أمّ المؤمنين و ردّي هؤلاء الرّعاع فأنّ الإصلاح بين النّاس خيرٌ من حجّك و قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم أنّ عائشة نذرت الحجّ قبل الفتنة فلم نر التخلّف عن نذرها ولو خرجت في تلك الثّائرة لكان ذلك ثواباً لها و أمّا خروجها لحرب الجمل فما خرجت لحربٍ و لكن تعلّق النّاس بها و شكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة و تهارج النّاس و رجوا بركتها و طمعوا في الإستحياء منها إذا وقفت إلىٰ الخلق و ظنّت هي ذلك فخرجت مقتديةً باللّه في قوله:

لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوٰهُمْ إلىٰ قوله **أَوْ إِصْلاٰحٍ بَيْنَ ٱلنّٰاس**(۱).

وَ إِنْ طٰآئِفَتٰانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمٰا(۲).

و الأمر بالإصلاح مخاطب به جميع النّاس من ذكرٍ أو أنثىٰ و حرٍّ أو عبدٍ فلم يرد اللّه تعالىٰ بسابق قضاءه و نافذ حكمه أن يقع إصلاح و لكن جرت

۱- النساء = ۱۱۴ ۲-الحجرات = ۹

مطاعنات و جراحات حتّىٰ كاد يفنىٰ الفريقان فعمد بعضهم إلىٰ الجمل فعرقبه فلمّا سقط الجمل لجنبه أدرك محمّد بن أبي بكر عائشة فإحتملها إلىٰ البصرة و خرجت في ثلاثين إمرأة قرنهنّ عليّ بها حتّىٰ أوصلوها إلىٰ المدينة برّةً نقيّةً مجتهدةً مصيبةً مثابة فيما تأوّلت مأجورة فيما فعلت إذ كلّ مجتهدٍ في الأحكام مصيبٌ و قد تقدّم في النّحل إسم هذا الجمل و به يعرف ذلك اليوم إنتهىٰ كلامه.

أقُول كتابنا هذا ليس موضوعاً لهذه المباحث و لكنّى لمّا أريت القُرطبي نقل في تفسيره لهذه الآية عن إبن العربي ما نقلناه عنه بألفاظه و عباراته تأييداً لِما إعتقد به وأردت أن أجيب عنه إجمالاً و من أراد الوقوف علىٰ تفصيل قضّية الجمل و خروج عائشة عن بيتها إلىٰ البصرة فعليه بالرّجوع إلىٰ الأثار و الأخبار الواردة في الباب من أهل الإنصاف و نحن قد أشبعنا الكلام فيها في شرحنا علىٰ نهج البلاغة عند ذكر أميرالمؤمنين قصّة الجمل و مع ذلك كلّه لابدّ لنا في المقام الإشارة إلىٰ ضعف هذا الإستدلال في خروج عائشة عن بيتها فنقول:

أمّا قول إبن عطيّة في سبب بكاء عائشة و هكذا قول عمّار لها فهو حقٌّ لا مرية فيه، إذ لا شكّ أنّها خالفت قوله تعالىٰ: **وَ قَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ** إلىٰ أخر. فأصل الخروج و أنّه مخالف للأية ممّا لا كلام لأحدٍ فيه ظاهراً فأنّ من أنكر شيئاً محسوساً فقد أنكر حسّه و من أنكر حسّه فهو مجنون و حيث أنّ خروج عائشة عن المدينة و سفرها إلىٰ البصرة لم يخف علىٰ أحدٍ فهو غير قابلٍ للإنكار.

و أمّا قول إبن العربي، تعلّق الرّافضة لعنهم اللّه بهذه الآية علىٰ أُمّ المؤمنين عائشة رضي اللّه عنها فنقول في جوابه نقل الأقوال لا يحتاج إلىٰ اللّعن إلاّ لمن كان جاهلاً فاسقاً عاجزاً عن الإستدلال أمثال القُرطبي و إبن العربي فلا معنىٰ لقوله في الرّافضة لعنهم اللّه، ألم يعلم القائل بهذه الكلمة الخبيثة النّاشئة عن

قلبه الخبيث و عدم طهارة مولده أنّه مسئولٌ عنه يوم القيامة أليس اللّه تعالىٰ يقول: **إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْبَصَرَ وَ ٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً** [١].

و أمّا قوله و لقد حصر عثمان فلمّا رأت ذلك أمرت برد أهلها لتخرج إلىٰ مكّة فقال لها مروان أقيمي هنا يا أُمّ المؤمنين إلىٰ قوله فأنّ الإصلاح بين النّاس خيرٌ من حجّك، والجواب عن هذا الكلام أنّ القائل به لم يعلم أنّ عائشة هي التّي نقمت علىٰ عثمان و قالت أقتلوا نعثلاً قتله اللّه، و هى التّي كانت تقول هذا قميص رسول اللّه صَلَّىٰ اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يبل و عثمان قد غيَّر دينه و هى التّي دعت المسلمين إلىٰ حفظ بيضة الإسلام من شرّ عثمان و أتباعه و أنصاره من أراذل بني أمّية فلمّا حضر المسلمون المدينة و صار عثمان محصوراً في بيته و علمت عائشة أنّهم قاتلوه لا محالة أمرت رواحلها فقرّبت لتخرج إلىٰ مكّة لعلمها بأنّها لو بقيت فيها تقع في البلّية التّي لا مخلص لها و هى أنّها قتلتها واقعاً فلاجرم إقتضت سياستها خروجها عن محلّ الفتنة التّي أوجدتها.

و أمّا ما نقله عن مروان و أنّه قال لعائشة أنّ الإصلاح بين النّاس خيرٌ من حجّك، فيقال له أوّلاً، أنّ مروان كان من أفسد المفسدين في زمانه و هو الوزغ بن وزغ لعنة اللّه عليه و قد لعنه رسول اللّه غير مرّةٍ فلا يستدلّ بقوله إلاّ من كان مثله، ثمّ يقال، لِمَ لَم تقبل عائشة و لم تنصرف عن سفرها بقول مروان لأنّها كانت عالمة بأنّ الفتنة نشأت منها و هى في رأسها هذا أوّلاً.

و أمّا ثانياً ما للمرأة و الإصلاح بين النّاس و لا سيّما المرأة التّي هي أساسها و لأجل هذا لم تسمع عائشة كلام مَروان و لم ترجع عن قصدها فأنّ العالم يرىٰ ما لا يراه الجاهل والّذي يقوّي في نفسي هو أنّ مروان بن الحكم أيضاً كان عالماً عازماً بمنشأ الفتنة و مع ذلك تجاهل و قال لعائشة ما قال.

و أمّا ما نقله عن إبن العربي من قوله، قال علماؤنا كذا و كذا، و أنّ عائشة نذرت الحجّ قبل الفتنة إلىٰ أخر ما قال.

١- الإسراء = ٣٦

فنقُول **أمّا أوّلاً**: من أين علم هو و أمثاله أنّها نذرت الحجّ قبل الفتنة و لم نسمع هذا الكلام إلىٰ الآن و لم نر في التّواريخ و السِّير منه عينٌ و لا أثر و أنّما وضع هذا الكلام من وضعه لتبرئة عائشة من إيجاد الفتنة و الحقّ أن يقال أنّها نذرت الفرار من النّار التّي أوقدها لئلا تحترق بها.

ثانياً: لو نذرت الحجّ فلم جمعت في مكّة من الفسّاق و الأراذل جمعاً كثيراً و خرجت إلىٰ البصرة و فعلت ما فعلت فأن كان المراد الحجّ المنذور هذا فلا كلام لنامعه، و أمّا قول القائل و أمّاخروجها إلىٰ حرب الجمل فما خرجت لحربٍ.

فنقول في جوابه إن لم تخرج لحربٍ، فمن جمع العسكر في مكّة ثمّ من قال عليّاً قاتل عثمان و أنّ عثمان قتل مظلوماً، و نحن نطلب ثاره من علّيٍ و أمثال هذه الأراجيف فيعلم بذلك أنّها ما خرجت عن المدينة إلاّ للحربِ و لذلك إختارت مكّة لإجتماع فيها.

و أمّا قوله و لكن تعلّق النّاس بها و شكوا إليها ما صاروا إليه من عظيم الفتنة.

فالجواب عنه أمّا أوّلاً من كانت عائشة في الإسلام حتّىٰ تعلَّق النّاس بها في هذه الأمور و أنّما هي كانت إمرأةٌ من نساء المسلمين في ظاهر الأمر و حكمها حكمهنّ و كانت مكلّفة بقعودها في بيتها كغيرها من الأزواج.

ثانياً: كيف تعلَّق النّاس بها و لم يتعلّقوا بغيرها من الأزواج مع أنّ الملاك في الكلّ واحد و هو الإنتساب برسول اللّه بسبب الزَّوجيّة.

ثالثاً: كيف تعلَّق النّاس بمن سمعوا منها مراراً أقتلوا نعثلاً قتله اللّه و هل يعقل تطهير الدَّم بالدَّم و النّجاسة بنجاسةٍ أخرىٰ.

رابعاً: الشّكاية من الفتنة إلىٰ إمرأةٍ لا تعلم الحرّ من البرّ لا معنى لها المعلوم أنّ الشّكوىٰ لا تكون إلاّ إلىٰ الحاكم القادر علىٰ رفع الفتنة أو دفعها لا إلىٰ النّساء اللاّتي قال رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فيهنّ **أنّ النّساء نواقص الإيمان و العقُول و الحظُوظ و حكم اللّه تعالىٰ بقعُودهنّ في بيُوتهنّ.**

و قول القائل رجُوا بركتها، من العجائب و كان عليه أن يبيّن بركاتها في الإسلام غير أنّها بنت أبي بكر و زوج النّبي، اللّهم إلاّ أن يقول القائل من بركاتها حرب الجمل و قتل أكثر من عشرة ألاف من المسلمين، و أعجب من جميع ما قال، قوله في أخر كلامه فخرجت مقتّدية باللّه في قوله:

لا خَيْرَ في كَثيرٍ مِنْ نَجْوٰهُمْ إلىٰ قوله: أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ ٱلنّاسِ[١].

و قوله: وَ إِنْ طآئِفَتانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنينَ ٱقْتَتَلُوا[٢].

أنظروا يا أهل الإنصاف كيف يلعبون أصحاب السَّقيفة بالأيات و يؤتونها علىٰ مقاصدهم و أهوائهم و لم يعلموا أنّ الإصلاح بين الرّجال من وظائف الرّجال المصلح لا للنّساء.

ثانياً: أنّ الإصلاح بين المقاتلين أنّما هو بعد وقوع القتال بَين الطّرفين لا قبله و المفروض أنّ المقاتلة وقعت بعد ورود أصحاب الجمل إلىٰ البصرة لا قبله و علىٰ هذا فكيف يعقل خروج عائشة للإصلاح و المفروض أنّ المقاتلة وقعت بعد خروجها فلو لم تخرج من بيتها كسائر أزواج النّبي لم يوجد حرب الجمل أصلاً، و هذا معلوم بشهادة التّواريخ فكأنّ القائل لم يطّلع عليها أو تجاهل فيما قال حبّاً لعائشة و بغضاً لأميرالمؤمنين فأنّ حبّ الشّئ يعمي و يصّم.

قال رسول اللّه ﷺ من فَسَّر القرأن برأيه فليَتَّبوأ مَقعده من النّار.

و لنختم الكلام في هذا الباب فأنّ هذه الأبحاث خارجة عن موضوع الكتاب و لولا أنّه تكلّم فيه في كتابه و إشترىٰ رضا المخلوق بسخط الخالق، ما تكلّمنا في هذا الموضوع و أنّما قلنا ما قلنا في المقام بطوله و تفصيله لأنّ المسئلة إعتقاديّة والسّكوت فيها يوجب إضلال الغير و في خاتمة البحث نقول:

١- النساء = ١١٤ ٢- الحجرات = ٩

إن كانت عائشة خرجت من بيتها مقتديةً للّه كما قال القائل فأجرها علىٰ اللّه مرَّةً لخروجها عن بيتها و مرَّةً لمخالفتها إمام زمانها و قتلها النّفوس المحترمة و غارة أموال بيت المال في البصرة و غير ذلك ممّا هو ثابت في التّواريخ، و أن كان خروجها لغير ذلك و أنّها خرجت لطلب الملك لنفسها أو لإبن أختها عبداللّه إبن الزُّبير كما عليه المؤرّخون و هو الحقّ، أو خرجت لقتل علّي بن أبى طالب في معركة القتال أو لغير ذلك من الأمور الّتي لا يعلمها إلاّ اللّه فحسابها علىٰ اللّه و هو أحكم الحاكمين فقد قال رسول اللّه فيما رواه الفريقان:

ياعلّي حَربك حَربي وسِلمك سِلمي من أحَبَّك فقد أحَبَّني و من أبغضك فقد أبغَضني

و غيره من الأحاديث الواردة في الباب و الحمد لِلّه علىٰ كلّ حالٍ و لنرجع إلىٰ تفسير ألفاظ الآية ونقول:

قوله تعالىٰ: **وَ لَا تَبَرَّجۡنَ تَبَرُّجَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ ٱلۡأُولَىٰ** و قد ظهر معناه و قصّة الجمل من أظهر مصاديق الجاهليّة فأنّ المرأة المسلمة المعتقدة بالتّوحيد و النّبوّة و المعاد لا تقود الجيوش و لا تباشر الحروب و لا تقتل النّفوس ذلك من الأمور القبيحة فأن كانت هذه الأمور من مصاديقها فهو الحقّ و إن لم تكن منها فلا مصداق لكلامه تعالىٰ إذ لا يعلم أمرٌ أشنع و أقبح للمرأة من تصدّي الجيوش و قتل النّفوس و هدم البيوت و محاربة اللّه و رسوله في الحقيقة.

و امّا قوله: **وَ أَقِمۡنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَ ءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَ أَطِعۡنَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ**

لمّا أمر اللّه تعالىٰ أزواج النّبي بالقرار في بيوتهنّ و نهاهنّ عن التّبرج بالجاهليّة الأولىٰ، أمرهنّ بعد ذلك بإقامة الصّلاة و إيتاء الزّكوة و إطاعة اللّه و رسوله، أمّا الصّلوة و الزّكوة فلا شكّ لأحدٍ من المسلمين أنّهما من أوجب الواجبات بل من ضرّوريات الدّين فمن أنكرهما خرج عن رقة المسلمين و دخل في حزب المرتّدين و قد تكلّمنا في و جوبها و عظم شأنهما في الإسلام فيما مضى غير مرَّةٍ فلا نعيد الكلام فيهما في المقام حذراً من الإطناب.

و أمّا إطاعة اللّه و رسُوله فمعناها أيضاً ظاهر اذ لا يتحقّق الإيمان بدون الإطاعة و المفروض أنّ نساء النّبي من جملة المؤمنات بل جعلهنّ اللّه أسوةً لغيرهنّ من النّساء فقوله تعالىٰ: **وَ أَطِعْنَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥٓ** في الحقيقة تأكيدٌ لما شاء منهنّ و أراد و أمر لهنّ بالمواظبة علىٰ حفظ الإيمان و مفهوم الكلام أنّ عدم الإطاعة يوجب خروجهنّ عن مقامهنّ و منزلتهنّ فأنّ مجّرد علقة الزّوجية لا يكفي و الإنصاف أنّ أزواج النّبي كنّ كذلك بعد موت النّبي فيما نعلم و لم نسمع و لم نر في الأثار غير الطّاعة و الإنقياد منهنّ حتّىٰ أنّ عائشة طلبت من حفصة الخروج معها و هكذا من أُمّ سلمة و لم تخرجا معها و أمّا عائشة فقد خرجت، فأن كان خروجها من طاعة اللّه و رسوله فمرحباً بها و هنيئاً لها في طاعتها و إنقيادها و وصولها إلىٰ الثّواب المضاعف كما هو معتقد الخصم، و أن كان خروجها بغير طاعة اللّه و رسوله فالمطلوب ثابت و هى خارجة عن مقام الأمومة للمؤمنين فمن قال أو إعتقد بأنّها أمّ المؤمنين فعليه وزره.

إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا

إعلم أنّ هذه الآية هي معركة الأراء بين العامّة و الخاصّة هل هي نزلت في شأن أزواج النّبي أو نزلت في شأن أهل البيت أعني بهم محمّد و علّي و فاطمة و الحسن و الحسين، و نحن نذكر أوّلاً أقوال العامّة في تفاسيرهم، ثمّ نتبعها بأقوال الخاصّة فأنّ المسألة من أعظم المسائل الإعتقادية في باب الإمامة و أن شئت قلت الإمامة و إثباتها عقلاً و شرعاً علىٰ مسلك الإماميّة متفرّعة عليها إذ بهذه الآية تثبت العصمة الّتي هي أساس المسألة في بحث الإمامة.

فنقول قال صاحب الكشّاف ما هذا لفظه أمرهنّ أمراً خاصّا بالصّلٰوة و الزّكٰوة ثمّ جاء به عامّاً في جميع الطّاعات و ساق الكلام الىٰ أن قال ثمّ بيّن أنّه أنّما أمرهنّ و نهاهنّ و و عظهنّ لئلا يقارف أهل بيت رسول اللّه المآثم و ليتّصونوا عنها بالتّقوىٰ و إستعار للذّنوب الرّجس و للتّقوىٰ الطُّهر لأنّ عرض المقترف

للمقبّحات يتلوّث بها و تدّنس كما يتلّوث بدنه بالأرجاس الىٰ أن قال و أهل البيت نصب علىٰ النداء أو على المدح و في هذا دليلٌ بينٌ علىٰ أنّ نساء النّبي من أهل بيته إنتهىٰ كلامه.

و الجواب أنّ هذه الملّفقات الّتي ذكرها صاحب الكشاف لا ربط لها بتفسير الآية و ذلك لأنّ قوله تعالىٰ: **لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ** أدلّ دليلٍ علىٰ أنّ المراد بالآية غير الأزواج إذ لو كان المراد نساء النّبي و أنهنّ من أهل البيت لقال تعالىٰ، عنكنّ، بدل، عليكم، كما فعل في جميع ما تقدَّم من الأيات نحو و قرن في بيوتكنّ، و لا تبرَّجن، و أطعن اللّه، و أقمن الصّلاة، و آتين الزّكٰوة، فذكر جميع ذلك بكناية المؤنث فكان يجب أن يقول في المقام، عنكنّ الرّجس أهل البيت و يطهّركن، فلمّا كنّىٰ بكناية المذكر دلَّ على أنّ النّساء لا مدخل لهنّ فيها و العجب من صاحب الكشّاف مع أنّه من علماء الأدب و سمّىٰ كتابه بالكشّاف و لم يتعرّض في كتابه ما ذكرناه و ليس منشأ ذلك غفلته عن خطاب المذّكر بل تركه عمداً ليدخل النّساء في الآية و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و لمّا تفطّن بعض علماء العامّة لهذا الإشكال، أجاب عنه بأنّ تذكير الخطاب من باب التغليب لأنّ رسول اللّه و عليّاً و حسناً و حسيناً فيهم و اذا إجتمع المذّكر و المؤنّث غلّب المذّكر فإقتضت الآية أنّ الزّوجات من أهل البيت لأنّ الآية فيهنّ و الخطاب لهنّ يدلّ عليه سياق الكلام إنتهىٰ كلامه.

و الجواب عنه:

أوّلاً: فبأنّ تذكير الخطاب من باب التّغليب لا دليل عليه و ذلك لانّ التغليب لا يعقل إلاّ بعد ثبوت أنّ المراد بالآية العموم و هذا لم يثبت و بعبارةٍ أخرىٰ لا يمكن إثبات العموم في الخطاب بإدّعاء التّغليب.

ثانياً: سياق الآية لا يدّل عليه بل السّياق علىٰ خلافه لأنّ الآية نزلت في أزواج النّبي ويدّل عليه تأنيث الضّمائر والخطابات و هو ظاهر.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه، و قالت فرقةٌ منهم الكلبي هم عليّ و فاطمة عليها السلام و الحسن عليه السلام و الحسين عليه السلام خاصّة و في هذا أحاديث عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم و إحتجّوا بقوله تعالىٰ: **لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا** بالميم و لو كان للنّساء خاصّة لكان عنكنّ و يطهّركن، إلاّ أنّه يحتمل أن يكون خَرج علىٰ لفظ الأهل كما يقول الرّجل لصاحبه كيف أهلك أي إمرأتك و نساءك فيقول هم بخير.

قال تعالىٰ: **أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَةُ ٱللَّهِ وَ بَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ**(١).

و الّذي يظهر من الآية عامّة في جميع أهل البيت من الأزواج و غيرهم و أنّما قال و يطّهركم لأنّ رسول اللّه و عليّاً و حسناً و حسيناً فيهم و اذا إجتمع المؤنّث و المذّكر غلب المذّكر، فإقتضت الآية أنّ الزّوجات من أهل البيت الىٰ آخر ما قال إنتهىٰ.

و الجواب عنه أمّا من جهة التّغليب فقد مرَّ الكلام فيه.

و أمّا من جهة الأهل بأن يكون التّذكير علىٰ لفظ الأهل فهو لا معنى له إذ لازم ذلك أن يكون المخاطب بقوله، عنكم، هو أهل البيت و اذا كان كذلك فذكر أهل البيت في الآية من التّكرار المستهجن في كلام الحكيم و هو كما ترىٰ.

و أمّا الآية الّتى ذكرها فهي خارجة عن مورد البحث، و أن أراد منها، ما أراد منها فالجواب الجواب و قال الرّازي في تفسيره ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ ترك خطاب المؤنّثات و خاطب بخطاب المذّكرين بقوله: **لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ** ليدخل فيه نساء أهل بيته و رجالهم و إختلف الأقوال في أهل البيت و الأولىٰ أن يقال هم أولاده و أزواجه و الحسن عليه السلام و الحسين عليه السلام منهم و عليّ عليه السلام منهم لأنّه كان من أهل بيته بسبب معاشرته ببنت النّبي و ملازمته له إنتهىٰ.

١- هُود = ٧٣

و ممّن تصدّى من المفسّرين البحث حول الآية هو الألوسي صاحب تفسير روح المعاني و هو من أعاظم علماءهم المتأخّرين.

و قد بسط الكلام حول الآية بما لا مزيد عليه و حاصل ما ذكره ما نقلناه عن غيره و لم يأت بشيءٍ جديد أن شئت الإطّلاع علىٰ ماذكره فعليك بكتابه و الّذي حصل لنا من أقوالهم و تحقيقاتهم حول الآية هو أنّهم لم يرضوا بخروج النّساء عن آية التّطهير فمنهم من خصّ الكلام بالنّساء و منهم من عمّم و قال بشمولها للنّساء و رسول اللّه و أميرالمؤمنين عليه‌السلام و فاطمة عليها‌السلام و الحسن عليه‌السلام و الحسين عليه‌السلام أيضاً و منهم من أدخل فيها أولاد عقيل و أولاد جعفر و أولاد العبّاس و جميع بني هاشم من الرّجال و النّساء و غرضهم من هذه الأقوال هو عدم ثبوت العصمة لهؤلاء الخمسة، و أنّهم كغيرهم من بني هاشم.

هذا و أمّا على مذهبنا فالآية نزلت في أهل البيت خاصّة و هم محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و علّى عليه‌السلام و فاطمة عليها‌السلام و الحَسَن عليه‌السلام و الحُسين عليه‌السلام والأئمة المعصومين من ذرّية الحسين عليهم السّلام و هم علّي بن الحسين عليه‌السلام و محمّد بن علّى عليه‌السلام و جعفر بن محمّد عليه‌السلام و موسى بن جعفر عليه‌السلام و علّي بن موسىٰ عليه‌السلام و محمّد بن علّي عليه‌السلام و علّي بن محمّد عليه‌السلام و الحَسن العَسكرى عليه‌السلام و القائم المهدى (عج) إلاّ أنّ شمول الآية لأصحاب الكساء و هم خمسة بالأصالة لأنّ شأن نزول الآية فيهم كما ستعرف الحال فيه و أمّا شمولها لسائر الأئمّة و هم تسعة من ذريّة الحسين لوحدة الملاك و أن شئت قلت لعدم القول بالفصل لأنّ ما ثبت في حقّ أميرالمؤمنين من شئون الإمامة و أوصافها ثبت في حقّ الكلّ إذ لا فرق بينهم من هذه الجهة و حيث أنّ الآية تدّل علىٰ عصمة الخمسة عندنا فهي تدّل علىٰ عصمة الجميع و نحن نشير أوّلاً الى ما يدّل علىٰ أنّ الآية خاصّة بهؤلاء الخمسة و لا تشمل نساء النّبي و لا سائر أقرباءه، ثمّ نتكلّم في معنى الآية و أنّها تدّل على العصمة فيهم فالبحث يقع في مقامين.

الأوّل: في إثبات إختصاص الآية بهم و عدم شمولها لغيرهم.

الثّاني: في دلالتها علىٰ العصمة.

أمّا البحث في المقام الأوّل فنقول الأحاديث الواردة في الباب الدّالة على أنّ الآية نزَلت في بيت أمّ سلمة و هى خاصّة بأهل البيت كثيرة من العامّة و الخاصّة و هى مصرّحة بأنّ المراد بأهل البيت علّي و فاطمة و الحسن و الحسين دون النّساء و نحن نشير أوّلاً الىٰ ما روته العامّة.

منها ما رواه السيّوطي في تفسيره المسمّىٰ بالدُّر المنثُور في التفسّير بالمأثور.

قال و أخرج إبن جرير و إبن المنذر و إبن أبي حاتم و الطّبرائي و إبن مردوية عن أمّ سلمة رضىٰ اللّه عنها زوجة النّبي صلى الله عليه وآله وسلم.

أنّ رسول اللّه كان ببيتها علىٰ منامة له عليه كساء خيبري فجائت فاطمة رضي الله عنها ببرقة فيها خنزيرة فقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أُدعي زَوجك و أبنيك حسناً وحسيناً فدعتهم فبينما هم يأكلون إذ نزّلت علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فَأخذ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بفضلة أزاره فغشّاهُم إيّاها ثمّ أخرج يده من الكساء وأومأ بها الى السّماء ثمّ قال اللّهم هٰؤلاء أهل بيتي و خاصّتي فأذهب عنهم الرّجس و طهَّرهم تطهيراً قالها ثلاث مرّات قالت أمّ سلمة رضي اللّه عنها فأدخلت رأسي في السّتر فقلت يا رسول اللّه و أَنا مَعَكُم فقال: إنّك على خيرٍ مرّتين إنتهىٰ.

و أخرج الطّبراني عن أمّ سلمة رضي اللّه عنها.

قالت جائت فاطمة رضي الله عنها أبيها بتريدة لها تحملها في طبق لها حتّىٰ وضعتها بين يديه فقال صلى الله عليه وآله وسلم لها أين إبن عمّك قالت هو في البيت

قال فأذهبي فأدعيه و إبنيك فجائت تقود إبنيها كلّ واحدٍ منهما في يدٍ و عليٌّ عليه السلام يمشي في أثرهما حتّى دخلوا علىٰ رسول اللّه فأجلسهما في حجره و جلس علّي رضى اللّه عنه يمينه و جلست فاطمة رضي الله عنها عن يساره قالت أمّ سلمة رضي الله عنها فأخذت من تحتي كِساء كان بساطناً علىٰ المنامة في البيت إنتهىٰ.

أخرج الطّبراني عن أمّ سلمة رضي الله عنها أنّ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لفاطمة رضي الله عنها إئتيني بزوجك و أبنيه فجائت بهم فألقىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عليهم كساء فدَّكياً ثمّ وضع يده عليهم ثمّ قال (اللّهم أنّ هٰؤلاء أهل مُحّمد) و في لفظٍ آل مُحّمد فأجعل صلواتك عليهم و بركاتك علىٰ مُحّمد و آل مُحّمد كما جعلتها علىٰ آل إبراهيم أنّك حميدٌ مَجيد قالت أُمّ سَلمة فرفعت الكساء لأدخل معهم فجذبه من يدي و قال إنّك علىٰ خيرٍ إنتهىٰ.

أخرج إبن مردويه عن أمّ سلمة قالت:

نزّلت هذه الآية في بَيتي إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا و في البيت سبعة جَبرئيل و ميكائيل عليهما السّلام و علّيٌ و فاطمة و الحَسن و الحُسين رضي اللّه عنهم وأنا علىٰ باب البيت قُلت يا رسول اللّه ألست من أهل البيت قال صلى الله عليه وآله وسلم إنّك علىٰ خير إنّك من أزواج النّبي صلى الله عليه وآله وسلم إنتهىٰ.

أخرج إبن مردويه و الخطيب عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال:

كان يوم أمّ سلمة أُمّ المؤمنين رضي اللّه عنها فنزل جبرئيل عليه السلام علىٰ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بهذه الآية إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا. قال فدعا رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بحَسَن و حُسين و فاطمة و علّي فضمهم إليه و

نشر عليهم الثّواب والحجاب علىٰ أُمّ سَلمة مضروب ثمّ قال ﷺ اللّهم هؤلاء أهل بيتي اللّهم أذهب عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً قالت أُمّ سَلمة فأنا معهم يانبيّ اللّه قال ﷺ أنت علىٰ مكانك و إنّك علىٰ خير إنتهىٰ.

أخرج التّرمذي و صححه و إبن جرير و ابن المنذر و الحاكم و إبن مردويه و البيهقي في سننه من طرق عن أُمّ سَلمة رضي اللّه عنها.

قالت في بَيتي إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ و في البيت فاطمة و علّي و الحَسن و الحسين فجلّلهم رسول اللّه بكساء كان عليه ثمّ قال هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرِّجس و طهّرهم تطهيراً إنتهىٰ.

أخرج إبن جرير و إبن أبي حاتم و الطّبراني عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال:

قال رسول اللّه ﷺ نَزلت هذه الآية في خمسة، فِيَّ وفي علّي و فاطمة و حَسن و حُسين إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

أخرج إبن أبي شيبة و أحمد و مسلم و إبن جرير و إبن أبي حاتم و الحاكم عن عائشة قالت:

خرج رسول اللّه ﷺ غداة و عليه مرط مرجّل من شعر أسود فجاء الحَسن و الحُسين رضي اللّه عنهما فأدخلهما مَعه ثمّ جاء علّيٌ فأدخله معه ثمّ قال: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

أخرج الحكيم التّرمذي و الطّبراني و إبن مردوية و أبو نعيم و البيهقي معاً في الدّلائل عن إبن عبّاس قال:

قال رسول اللّه ﷺ: أنّ اللّه قسَّم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً فذلك قوله و أصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة و أصحاب المشئمة ما أصحاب المشئمة والسّابقون السّابقون فأنا من السّابقين و أنا خير السّابقين ثمّ جعل ثلاث قبائل فَجعلني في خيرها قبيلةً و ذلك قوله و جعلناكم شعوباً و قبائل لتعارفوا أنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم و أنا أتقىٰ ولد أدم و أكرمهم علىٰ اللّه و لافخر ثمّ جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً فذلك قوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا فأنا وأهل بيتي مُطَّهرُون من الذّنُوب.

أخرج مردوية عن أبي سعيد الخدري رضي اللّه عنه قال:

لمّا دخل علىٰ رضي اللّه عنه بفاطمة رضي اللّه عنها جاء النّبي أربعين صباحاً إلىٰ بابها يقول: السّلام عليكم يا أهل البيت ورحمة اللّه وبركاته الصلواة رحمكم اللّه إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا أنا حَربٌ لمِا حارَبتُم وسلم لمن سالمتُم.

أقول لا شكّ أنّ عائشة حاربت علّياً في قصّة الجمل علىٰ هذا الحديث فرسول اللّه حربٌ لها و من كان رسول اللّه حربٌ له فكيف داخل في الآية فعائشة و طلحة و الزّبير و معاوية و كلّ من حارب علّياً فرسول اللّه حربٌ له.

أخرج إبن جرير وإبن مردوية عن أبي الحمراء قال: حفظت من رسول اللّه ثمانية أشهر بالمدينة ليس من مرَّةٍ يخرج إلىٰ صلاة الغداة إلاّ أتىٰ إلىٰ باب علّي فوضع يَدَه علىٰ جنبي الباب ثمّ قال ﷺ: الصّلٰوة، الصّلٰوة إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

و الأخبار في الباب كثيرة من طُرق العامّة و ما نقلناه في المقام نقلناه عن تفسير السّيوطي المسمّىٰ بالدُّر المنثُور[١] و هناك أخبار لم نتعرّض لها حذراً من الإطناب.

و قال الشّيخ سليمان البلخي الحنفي أنّ الآية خاصّة للنّبي و أهل بيته و هم علّي و فاطمة و الحَسَن و الحُسين و نقل في كتابه المسمّىٰ بينابيع المودّة أخباراً كثيرة من طرق العامّة و نحن نشير إلىٰ شطرٍ منها و من أراد الوقوف علىٰ تفصيلها فعليه بكتابه.

في صحيح مسلم عن عائشة أُمّ المؤمنين رضي الله عنها قالت:

خرج النّبي غداة غدٍ و عليه مرط مرجل من شعر أسود فجاء الحَسَن فأدخله ثمّ جاء الحُسين فأدخله ثمّ جائت فاطمة فأدخلها ثمّ جاء عليّ فأدخله ثمّ قال: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً.

حدَّثنا قتيبة بن سعيد قال حدَّثنا محمّد بن اليمان الأصبهاني عن يحيىٰ بن عُبيد عن عطا بن أبي سلمة ربيب النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قال:

نَزلت إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا في بيت أُمّ سَلمة فدعا النّبي علّياً و فاطمة و حسناً و حُسيناً فجلَّلهم بكساء و علّي خلف ظهره ثمّ قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً قالت أُمّ سَلَمة و أنا معهم يانبّي اللّه قال صلى الله عليه وآله وسلم: أنت علىٰ مكانك و أنت إلىٰ خيرٍ.

أقول نَقل صاحب الكتاب أخباراً كثيرة وفيما نقلناه كفاية و قال في أواخر الباب و في روايةٍ عن زينب أنّ النّبي لمّا رأىٰ الرّحمة هابطة من السّماء قال صلى الله عليه وآله وسلم:

١- ج ٥ ص ١٦٨

من يدعوا لِي علّياً و فاطمة قالت زينب أنا يارسول اللّه فدعتهم فجعلهم في كساءه فنزّل جبرئيل بـهذه الآيـة و دخـل مـعهم فـي الكساء.

و في رواية الحافظ جمال الدّين الزَّرندي عن الحافظ بن مَردُوية عن أُمّ سَلَمة قالت كان جبرئيل في الكساء معهم كما قال الحسين رضي اللّه عـنهم نـحنُ و جبرئيل غداسادسنا و لناالكعبة ثمّ الحرمين قـال المـحبّ الطّبري أنّ هـذا الفـعل منه صلّى الله عليه وآله وسلّم مكرَّر مرَّة في بيت أمّ سلمة و مرَّة في بيت فاطمة رضي اللّه عنهما.

و قال الشّريف السَّمهودي كلمة، أنّما، للحصر تـدّل عـلىٰ أنّ إرادتـه تـعالىٰ منحصرة علىٰ تطهيرهم و تأكيده بـالمفعول المـطلق دليـل عـلىٰ أنّ طـهارتهم طهارةٌ كاملة في أعلىٰ مراتب الطّهارة إنتهىٰ كلامه.

و نحن نقول فهذه نبذة من أخبار العامّة في الباب و ما تركناه من أخبارهم أكثر ممّا نقلناه عنهم أضعافاً و أمّا الأخبار من طريق أهل البيت فلا نقدر عـلىٰ إحصائها و كفاك في هذا أنّ المسئلة عندنا مـن المسـلّمات و لم يـختلف فـيها أحد و مع ذلك نشير إلىٰ بعضها تيمّناً و تبرّكاً بها.

ما رواه في البحار عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، قال عليه السلام: هذه الآية في رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم و علّي بن أبي طالب و فـاطمة و الحَسن و الحُسين و ذلك في بيت أُمّ سَلمة زوج النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم دعا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم علّياً وفاطمة والحَسَـن والحسـين ثـمّ ألبسـهم كساءً له خيبريّاً و دخل معهم فيه ثمّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم هؤلاء أهل بيتي وعدتني فيهم مـا وعـدتني اللّـهم أذهب عـنهم الرِّجس و طـهِّرهم تطهيراً فنزلت هذه الآية فقالت أُمّ سَلمة، و أنا معهم يارسول اللّه؟ فقال: أبشري يا أُمّ سَلمة إنّك علىٰ خيرٍ.

ما رواه بأسناده عن علّي عليه‌السلام قال: كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يأتينا كلّ غداةٍ فيقول الصّلاة رحمكم اللّه الصّلاة إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا.

ما رواه بأسناده عن عطيّة قال: سألت أبا سعيد الخدري عن قوله تعالىٰ: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، قال: نزلت في رسول اللّه و علّي و فاطمة و الحسن و الحسين.

بأسناد أخي دعبل عن الرّضا عن أباءه عن علّي بن الحسين عن أُمّ سَلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي و في يومي كان رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم عندي فدعا رسول اللّه صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم علّياً و فاطمة و الحَسن و الحسين و جاء جبرئيل فمدَّ عليهم كساءً فدكّياً ثمّ قال: اللّهم هؤلاء أهل بيتي اللّهم أذهب عنهم الرِّجس وطهّرهم تطهيراً، قال جبرئيل: و أنا منكم يا محمّد؟ قال النّبي: و أنت منّا يا جبرئيل. قالت أُمّ سَلمة قلتُ يا رسول اللّه: و أنا من أهل بَيتك جئت لأدخل معهم؟ فقال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم: كوني مكانك يا أُمّ سَلمة إنّك إلىٰ خير أنتِ من أزواج نبّي اللّه. فقال جبرئيل: يا محمّد! إقرأ: إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا في النّبي و علّي و فاطمة و الحَسن و الحُسين[1].

أقول الأخبار كثيرة و فيما ذكرناه كفاية و من أراد أكثر ممّا ذكرناه من طرق الخاصّة و العامّة فعليه بمراجعة الكتب الموضوعة لهذه الأبحاث و لولا أنّ المسألة من الأصول الإعتقاديّة في باب الأمامة إذ بها تثبت العصمة التّي هي الأصل في المقام، لما أطلنا الكلام في نقل الأخبار و اذا ثبت أنّ الآية خاصّة بهم فلنرجع إلىٰ تفسير ألفاظ الآية فنقول:

١- بحار الأنوار ج ٩ ط كمباني ص ٣٨

لا شكّ أنّ كلمة، أنّما، تفيد الحصر و هذا ممّا لم يختلف فيه أحد و لازم ذلك أنّ ما حكمت و دلّت عليه الآية منحصرٌ في محّمد و علّي و فاطمة و الحسن و الحُسين، فإدخال غيرهم فيها كائناً ما كان يحتاج الىٰ دليلٍ يدّل عليه و إذ ليس فليس، و الإرادة منه تعالىٰ علىٰ ضربين:

تكوينيّة، و تشريعيّة.

الاوّل: و قد يعبّر عن التكوينيّة بالإرادة الإيجادية و إلى هذه الإرادة أشار اللّه بقوله: **إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**[١].

و في هذه الإرادة لا يتخلّف المراد عنها أصلاً كما هو صريح الآية فكلّ شئ أراد اللّه إيجاده لا يقدر أحد علىٰ منعه فهو القاهر الغالب على كلّ شئٍ و ما سواه مقهور مغلوب له سواء تعلّقت بإيجاد موجودٍ أم إنزال حادثةٍ كالعذاب علىٰ قوم مثلاً و هو واضح ثابت عقلاً و شرعاً فأنّ اللّه علىٰ كلّ شئٍ قدير فتخلّف المراد عنها غير معقول.

الثّاني: الإرادة التّشريعية من الأوامر و النّواهي في الأحكام كالأمر بالصّلاة و الصّوم و الحّج و غيرها و كالنّهي عن شرب الخمر و الزّنا و الرّبا و الكذب و أمثالهما، و في هذه الإرادة قد يتخلّف المراد من الإرادة و قد لا يتخلّف كما نرىٰ أنّ المكلّف قد يصلّي و يصوم و قد لا يصّلي و لا يصوم، و هكذا في النّواهي قد يزني و قد لا يزني و قد يكذب و قد لا يكذب و هكذا و السّر في ذلك أنّ المأمور مختار فأنّ اللّه تعالىٰ أراد أن يعبد إختياراً لا إضطراراً خيّر العبد بين الفعل و التّرك ولو أراد عدم التخلّف منه لقدر و بعبارةٍ أخرىٰ أنّ اللّه تعالىٰ جعل العبد مختاراً في الفعل و التّرك لا أنّه بنفسه قادر عليهما إذ لو جعله مضطرّاً في فعل الواجبات و ترك المحرّمات ما كان قادراً علىٰ دفع الإضطرار و لكّن المصلحة كذلك و هو تعالىٰ لا يسئل عمّا يفعل و هم يسئلون إذا عرفت هذا و علمت الفرق بين الإرادتين فالإرادة منه تعالىٰ في قوله: **إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ**.

١- النحل = ٤٠

تشريعيّة، لا تكوينيّة، خلافاً لبعض المحققّين و ذلك لأن الإرادة في الآية لو كانت تكوينيّة فمعناها أنّه تعالىٰ أوجدهم و خلقهم مطّهراً عن الرّجس بمعنى أنّهم كانوا غير قادرين علىٰ التخلّف مجبورين على الطّاعة و الإنقياد معصومين عن الخَطأ و الإنحراف بحسب الخلقة و هذا مردود لوجوهٍ:

أحدهما: أنّ الطّهارة عن الرّجس حصلت لهم بدعاء الرّسول و نزول الآية بعد الدّعاء فلو فرضنا أنّهم خلقوا مطهّرين من الأرجاس فالدّعاء و نزول الآية من قبيل تحصيل الحاصل إذ المفروض أنّهم كانوا مطهّرين فما معنىٰ قوله صلى الله عليه وآله وسلم **(اللّهم هٰؤلاء أَهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس وطهَّرهُم تَطهيراً)** اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الدّعاء و الكساء لأجل معرفة النّاس إيّاهم و أنهّم غير سائر الخلق أجمعين و هو كما ترىٰ لا يساعده ظاهر الآية فأنّ الآية تدّل بظاهرها علىٰ أنّ الطّهارة من الرِّجس حصلت لهم بدعاء النبيّ و نزول الآية فالعصمة حصلت لهم بعد الدُّعاء.

إن قلت لازم هذا القول أن لا يكون النّبي أيضاً معصوماً لكونه صلى الله عليه وآله وسلم معهم قبل نزول الآية و بعد نزول الآية صاروا معصومين و اذا كان كذلك فبعث النّبي غير معصوم إلىٰ زمن نزول الآية و أنتم لا تقولون به بل الإجماع قائمٍ علىٰ عصمة النّبي من بدو البعثة.

قُلت ليس الأمر كما توهّمت فأنّ النّبي و أن كان معهم تحت الكساء قبل نزول الآية إلاّ أنّه كان معصوماً و الدّليل علىٰ ذلك أنّه صلى الله عليه وآله وسلم دعا لهم و قال **اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرّجس**، ولم يقل فأذهب عنّا الرّجس و هو دليل قاطع علىٰ أنّ الرّسول دعا لهم و طلب من ربّه العصمة لهم كما كانت ثابتة له صلى الله عليه وآله وسلم.

الثّاني: أنّ العصمة التّكوينية لا فضيلة فيها لأنّ العبد مجبور علىٰ الطّاعة بحسب الخلقة و هذا بخلاف التّشريعية لأنّ العبد قادر على المخالفة و العصيان بحسب الخلقة و مع ذلك لا يَعصي و لأجل ذلك فضّلنا الأنبياء و

الأوصياء المعصومين على الملائكة فأنّ دواعي الشّهوة و المعصية موجودة في الإنسان و الملك لا شهوة له و لا غضب و الفرق واضح لظهور الفرق بين الطّاعة و الإنقياد التسخيري و بين الطّاعة و الإنقياد الإختيارى.

و أمّا البحث في **الرِّجس**، قال الرّاغب في المفردات الرِّجس القذر غيره من أرباب اللّغة الرّجس العقاب و الغضب و قيل هو الشّطرنج و قول الزّور و الغناء و قيل هو فعل الحرام و قال بعض المحقّقين الرِّجس علىٰ أربعة أوجه:

إمّا من حيث الطّبع، و إمّا من جهة العقل، و إمّا من جهة الشّرع، و إمّا من كلّ ذلك كالميتة فأنّها تعاف عقلاً و شرعاً و طبعاً، ثمّ قال و أمّا الرّجس من جهة الشّرع فالخمر و الميسر و الشّرك و لحم الخنزير و أمثالها.

و أمّا الرّجس من جهة العقل كالكذب و الظّلم و غيرهما ممّا يحكم العقل بقبحه.

أقول لا نحتاج إلىٰ نقل هذه الأقوال فأنّ الرّجس هو الّذي يحكم العقل و الشّرع بقبحه و هو في كلّ شئٍ بحسبه لأنّه تارةً يكون في الأعيان الخارجيّة كالميتّة وتارةً في الأقوال كالكذب و التُّهمة و الفحش و تارةً في الأفعال و الأعمال القبيحة كالمعاصي فقوله تعالىٰ: **لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ** يشمل الكلّ و المعنى أذهب اللّه تعالىٰ عنهم القبائح قولاً و فعلاً و عملاً و ليس المراد بالإذهاب عدم قدرتهم عليه لأنّه ينافي الإختيار مع أنّ التكليف مشروط به بل المراد بالإذهاب توفيقهم علىٰ عدم الإتيان بالأرجاس و لا نعني بالعصمة إلاّ هذا فأنّ المعصوم من عصمه اللّه و حفظه عن الخطأ و النّسيان و غيرهما و علىٰ هذا فمعنىٰ قوله ليذهب عنكم الرّجس، يوفّقكم لتركها علىٰ سبيل الإختيار دون الإضطرار.

و قوله: **أَهْلَ ٱلْبَيْتِ** إشارة إلىٰ أنّ هذا الدّعاء مخصوصة بهم و لا يشمل غيرهم من أحاد الأمّة و أمّا شموله لسائر الأئمة الأثنى عشر فلعدم القول بالفصل بينهم في شرائط الإمامة و العصمة أصلها و أساسها فما ثبت في حقّ أحدهم ثبت في حقّ الجميع.

أمّا قوله تعالىٰ: وَ يُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا، فالمراد الطّهارة من الرُّجس ظاهراً و باطناً من البخل و الحسد و الكبر و الحقد و أمثالها من الأرجاس الباطنيّة.

أنّما قال تطهيراً لإفادة النّوعية و أنّ هذا التّطهير نوعٌ خاصّ مخصوص بهم و أنّما قلنا ذلك لأنّ المفعول المطلق يفيد النوعية تحصّل ممّا ذكرناه من البدو إلى الختم أنّ اللّه تعالىٰ قد خصَّ أهل البيت و هم علّي و فاطمة و الحَسن و الحسين و التّسعة من ولد الحسين بالعصمة بدعاء الرّسول و من كان معصوماً فهو اللاّئق بمقام خلافة المعصوم و هو النّبي و صورة القياس، الإمام بعد النّبي لا يكون إلاّ معصوماً فنقول هذا معصوم، و كل معصومٍ إمام، فهذا إمام، أو نقول هذا ليس بمعصوم، و كلّ غير معصوم ليس بإمام فهذا ليس بإمامٍ و قد تكلّمنا في شرحنا على نهج البلاغة و لا سيّما عند شرح الخطبة الشّقشقيّة في الإمامة بما لا مزيد عليه و الحمد لِلّه ربّ العالمين.

إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير بقيّة ألفاظ الأيات في باب الأزواج.

وَ ٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ ٱللَّهِ وَ ٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا

لخطاب في قوله: وَ ٱذْكُرْنَ للأزواج أمرهنّ اللّه تعالىٰ بأن يذكرن اللّه في بيوتهنّ بصفاته و بالدُّعاء و التَّضرع إليه و أن يتفكّرن في أيات اللّه التّي تتلىٰ في بيوتهنّ من القرأن المنزّل و يعملن بها و ما فيها من الحكمة أنّ اللّه كان لطيفاً خبيراً، في تدبير خلقه و إيصال المنافع إليه هكذا قيل في تفسير الآية.

قال القُرطبي في تفسيره لهذه الأية، وَ ٱذْكُرْنَ إبتداء مخاطبة اللّه أي مخاطبة أمر اللّه أزواج النّبي على جهة الموعظة و تعديد النّعمة بذكر ما يتلىٰ في بيوتهنّ من أيات اللّه و الحكمة قال أهل العلم بالتّأويل، و أيات اللّه، القرأن، و الحكمة السّنة، و الصّحيح أنّ قوله: وَ ٱذْكُرْنَ منسوق علىٰ ما قبله و قال: عَنكُمُ لقوله: أَهْلَ، فالأهل مذّكر فسمّاهنّ و أن كنّ أناثاً بإسم التّذكير

فلذلك صار، عنكم، و لا إعتبار بقول الكلبي و أتباعه و أشباهه في هذا التفسّير ما لو كان في زمن السَّلف الصّالح لمنعوه من ذلك و حجروا عليه فالأيات كلّها من قوله: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ** إلىٰ قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا** مَنسُوق بعضها علىٰ بعض فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهنّ، و أنما هذا شئ جرى في الأخبار أنّ النّبي لمّا نزّلت عليه هذه الآية دعا علّياً و فاطمة و الحَسن و الحسين فعمد النّبي كساء خلَّفها عليهم ثمّ ألوىٰ بيده إلىٰ السّماء فقال اللّهم هؤلاء أهل بيتي اللّهم أذهب عنهم الرّجس و طهّرهم تطهيراً فهذه دعوة من النّبي لهم بعد نزول الآية أحبَّ أن يدخلهم في الآية التّي خوطب بها الأزواج فذهب الكلبي و من وافقه فصّيرها لهم خاصّة و هى دعوةٌ لهم خارجة عن التَّنزيل، إنتهىٰ كلامه بألفاظه.

أنا أقول أنظروا يا أهل الإنصاف إلىٰ هذه الملَّفقات التّي لا طائل تحتها بل هي بكلمات المجانين أشبه منه بكلام الأدميّين فضلاً عمّن يدّعي العلم حيث قال و لا إعتبار بقول الكلبي و أشباهه ألم يقف هذا القائل علىٰ الأخبار الواردة في الباب في كتب الفريقين فكيف يقول و لا إعتبار بقول الكلبي و نحن نقلنا شطراً من الأخبار و لم نر فيه قول الكلبي و أعجب منه قوله لو كان في زمن السَّلف لمنعوه من ذلك و حجروا عليه، و لم يعلم أنّ هذا الأباطيل التّي ذكرها هذا القائل في كتابه المسمّىٰ بالتفسّير كلّها قول السَّلف لأنّ الخلف يتّبع السَّلف و ما ذنب الكلبي إلاّ أنّه قال الحقّ و من المعلوم أنّ الحقّ مرٌّ و لذلك لم يردّ أبوبكر فدكاً لفاطمة و هكذا منعه من إرثها لأنّها قالت الحقّ و لم يقبل شهادة أميرالمؤمنين لأنّه قال الحقّ فلا يبعد من القرطبي و أمثاله الإقتداء بالسَّلف الصّالح في عدم قبول الحقّ.

و أمّا قوله أنّ الأيات، منسوقة بعضها علىٰ بعض فكيف صار في الوسط كلاماً منفصلاً لغيرهنّ، فنقول في جوابه في المقام كلاماً منفصلاً لأنّ الأيات كلّها نزلت في النّبي و أزواجه ثمّ خصّ اللّه تعالىٰ نبيّه و أهل بيته بما ذكر في

الآية فأين الإنفصال أكان النّبي منفصلاً من أزواجه ألم يعلم القرطبي أنّ للنّبي حكمٌ و لأزواجه حكمٌ أخر، ثمّ أنّ قوله فهذه دعوة من النّبي لهم بعد نزول الأية، مخالف لإجماع الأمّة فأنّهم إتّفقوا علىٰ أنّ الآية نزلت بعد دعوة النّبي و لم يخالف فيه أحد اللّهم إلاّ أن يقال أنّه أي القُرطبي لم يرد رسول الإسلام بل أراد نبيّ القُرطبة، و في خاتمة البحث نقول معنىٰ الآية أنّ اللّه تعالىٰ أمرهنّ بالتّفكر و التأمّل في ما يتلىٰ في بيوتهنّ من أيات القرأن و الحكمة لأنهنّ أزواج النّبي و هنّ أولىٰ بالتّفكر فيها و العمل بها لمكانهنّ من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم و انهنّ اسوة لغيرهنّ و هو واضح.

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَ ٱلْمُسْلِمَاتِ وَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَ ٱلْقَانِتِينَ وَ ٱلْقَانِتَاتِ وَ ٱلصَّادِقِينَ وَ ٱلصَّادِقَاتِ وَ ٱلصَّابِرِينَ وَ ٱلصَّابِرَاتِ وَ ٱلْخَاشِعِينَ وَ ٱلْخَاشِعَاتِ وَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَ ٱلْمُتَصَدِّقَاتِ وَ ٱلصَّائِمِينَ وَ ٱلصَّائِمَاتِ وَ ٱلْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ ٱلْحَافِظَاتِ وَ ٱلذَّاكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَ ٱلذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَ أَجْرًا عَظِيمًا

روي أنّ أزواج النبى صلى الله عليه وآله وسلم قلن يا رسول اللّه ذكر اللّه الرّجال في القرأن بخيرٍ أفما فينا خير يذكر به أنّا نخاف أن لا تقبل منّا طاعة، و قيل السّائلة أمّ سَلمة و قيل لمّا نزل في نساء النّبي ما نزل قال نساء المسلمين فما نزل فينا شئ فنزّلت ذكره صاحب الكشّاف و غير من المفسّرين و لا إشكال فيه.

و الحقّ أنّ اللّه تبارك و تعالىٰ لمّا ذكر في الأيات السّابقة أوصاف أزواج النّبي أشار إلىٰ ما أعدّه اللّه لجميع الأُمّة من الرّجال و النّساء يوم القيامة لو عملوا بوظائفهم المقرّرة في الشّريعة و ذلك لقوله تعالىٰ: **إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثَىٰ** الى قوله: **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللَّهِ أَتْقَيٰكُمْ**(١).

١- الحجرات = ١٣

و هذا الحكم عامّ يشمل الجميع إلاّ أنّ تخصيص نساء النّبي بـالذّكـر و مـا أعدَّ اللّه لهنّ من الثّواب بشرط الطّاعة في هذا المقام صار مظنّة سؤالٍ في هـذا التّخصيص فقال اللّه تعالىٰ ما قال لرفع الإبهام و بيان أنّ الملاك في الثّواب هو التّقوىٰ و لا فرق في ذلك بين أزواج النّبي و غيرهنّ و كيف كان أشار اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ الأجر و الثّواب يوم القيامة ثابت لكلّ من كـان مـوصوفاً بـهذه الصّفات في دار الدُّنيا و هى كذا و كذا فقال: **إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَ ٱلْمُسْلِمَاتِ**، من الرّجال و النّساء **وَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ**، كذلك أي من الرّجال و النّساء.

قـال المـفسّرون المـراد بـالإسلام الإنـقياد و بـالإيمان التّصديق و إختاره صاحب الكشّاف، و قال في التّبيان هم الّذين إستسلموا لأوامر اللّه و إنـقادوا له و أظهروا الشّـهادتين و عـملوا بـموجبه، و المـؤمنين و المـؤمنات فـالإسلام و الإيمان واحد عند أكثر المفسّرين و أنّما كرّر لإختلاف اللفظين و في النّاس من قال المؤمن هو الّذي فعل جميع الواجبات و إنتَهىٰ عـن جـميع المـقبّحات، و المسلم هو الملتزم لشرائط الإسلام المستسلم لها إنتهىٰ.

و قال القرطبي بدأ اللّه تعالىٰ في هذه الآية بذكر الإسلام الّذي يعمّ الإيـمان و عمل الجوارح ثمّ ذكر الإيمان تخصيصاً له و تنبيهاً علىٰ أنّه عظم الإسـلام و دعامته، والّذي يـختلج بـالبال هـو أنّ الإسـلام عـبارةٌ عـن الإقـرار بـالشّهادتين باللّسان و أن لم يعتقد بالقلب و لم يعمل بالجوارح و عليه كـانت الدَّعـوة فـي بدو الأمر، و الإيمان عـبارة عـن الإقـرار بـاللّسان و الإعـتقاد بـالقلب و العمل بالأركان فالإسلام أعمّ من الإيمان و الإيمان أخصّ منه فلو اكتفى بالإسلام في الذّكر لزم منه الثّواب الموعود في الآية و لازم ذلك أنّ المسلم الّـذي لم يـعتقد بقلبه و لم يعمل بجوارحه مع المسـلم الّـذي يـعتقد و يـعمل كـانا سيّان يـوم القيامة في المغفرة و الأجر العظيم و هذا ظلم قبيح و الخالق الحكيم لا يـفعل ذلك و لأجل هذا قال بعد الإسلام، و المؤمنين و المـؤمنات إشـعاراً بأنّ المـراد

بالإسلام ليس مجّرد الشّهادتين بل المراد به الإيمان أعني به الإعتقاد و العمل بعد الإقرار فليس في المقام تكرار كما توّهم.

أمّا التّكرار في اللّفظ فلأنّ لفظ المسلمين و المسلمات لم يتكرّر، و أمّا التّكرار في المعنىٰ فهو أيضاً لم يحصل لأنّ الإسلام غير الإيمان معنىً فأين التّكرار و أنّما الكلام من ذكر الخاصّ بعد العامّ كما هو مقتضىٰ القاعدة، ألا ترىٰ أنّك إذا أردت إكرام العلماء علىٰ سبيل العموم تقول أكرم العلماء و اذا أردت نوعاً خاصاً منهم فلا بدّ لك من التّخصيص في الكلام فتقول أكرم علماء العدول في التّخصيص المتّصل أو تقول و لا تكرم الفسّاق منهم في المنفصل إذا عرفت هذا فلمّا قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَ ٱلْمُسْلِمَاتِ**، دَخَل فيه غير المعتقد بالقلب و غير العامل بالجوارح لأنّه أسلم ظاهراً و يحكم عليه بأحكام الإسلام و أن لم يعتقد و لم يعمل قطّ و هو لا يدخل الجنّة قطعاً، فقال بعد ذلك ما قال مشعراً بأنّ المراد بالإسلام الّذي يترتّب عليه الثّواب ليس مجرّد الإقرار بل المراد الإقرار و الإعتقاد و العمل و من المعلوم أنّ الإسلام يطلق عليه بطريقٍ أولى و يعبّر عنه بالمؤمن فتقدير الكلام أنّ المسلمين المؤمنين و المسلمات المؤمنات حكمهم كذا و كذا إلاّ أنّ التّخصيص جاء في الآية بدليلٍ منفصلٍ هذا ما فهمناه من الكلام.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ ٱلْقَانِتِينَ وَ ٱلْقَانِتَاتِ** فالقنوت لزوم الطّاعة مع الخُضوع و فسرّ بكلّ واحدٍ منهما فالقانت المطيع الخاضع و أنمّا قلنا لزوم الطّاعة ولم نقل الطّاعة لأنّ دوام الطّاعة شرط في تحقُّق القنوت و علىٰ هذا فالقانت المطيع الدّائم فمن أطاع اللّه في بعض الأوقات دون بعض ليس بقانتٍ سواء فيه الرّجل و المرأة لإشتراكهما في التكلّيف و قد مدح اللّه تعالىٰ القانتين في كثيرٍ من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **يٰا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِرَبِّكِ وَ ٱسْجُدِي وَ ٱرْكَعِي مَعَ ٱلرّٰاكِعِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَمَّنْ هُوَ قٰانِتٌ آنٰاءَ ٱللَّيْلِ سٰاجِدًا وَ قٰائِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّ إِبْرٰاهِيمَ كٰانَ أُمَّةً قٰانِتًا لِلّٰهِ حَنِيفًا وَ لَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَالصّٰالِحٰاتُ قٰانِتٰاتٌ حٰافِظٰاتٌ لِلْغَيْبِ بِمٰا حَفِظَ ٱللّٰهُ**(٤)

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُومُوا لِلّٰهِ قٰانِتِينَ**(٥).

و غيرها من الأيات.

و علىٰ هذا قيل أيُّ الصّلوٰة أفضل فقال عليه السلام طول القنوت أي الإشتغال بالعبادة و رفض كلّ ما سواه.

ثمّ قال تعالىٰ: **وَ ٱلصّٰادِقِينَ وَ ٱلصّٰادِقٰاتِ** الصّدق و الكذب أصلهما في القول ماضياً كان أو مستقبلاً و عملاً كان أو غيره و لا يكونان بالقصد الأوّل إلاّ في القول و لا يكونان في القول إلاّ في الخبر دون غيره من أصناف الكلام و لذلك.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ قِيلاً**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللّٰهِ حَدِيثًا**(٧).

و قد مدح اللّه الصّادقين في كثيرٍ من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا وَ أُولٰئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ**(٨).

١- آل عمران = ٤٣ ٢- الزّمر = ٩
٣- النّحل = ١٢٠ ٤- النّساء = ٣٤
٥- البقرة = ٢٣٨ ٦- النّساء = ١٢٢
٧- النّساء = ٨٧ ٨- البقرة = ١٧٧

قال اللّه تعالىٰ: **اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰادِقِينَ وَ اَلْقٰانِتِينَ وَ اَلْمُنْفِقِينَ وَ اَلْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحٰارِ** (١).

قال اللّه تعالىٰ: **هٰذٰا يَوْمُ يَنْفَعُ اَلصّٰادِقِينَ صِدْقُهُمْ** (٢).

و غيرها من الأيات و قد يستعمل الصّدق و الكذب في كلّ ما يحقّق و يحصل في الإعتقاد نحو صدق ظنّي و كذب و يستعملان في أفعال الجوارح أيضاً فيقال صدق في القتال و أوفى حقّه و فعل ما يجب كما يجب و الحاصل أنّ الصّادق الكامل من صدق في قوله و فعله و عهده و الأخبار في مدحه كثيرة جدّاً.

وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰابِرٰاتِ

الصَّبر بفتح الصّاد في الأصل الإمساك في ضيقٍ و يقال صبرت الدّابة بلا علف، و في الإصطلاح هو حبس النّفس علىٰ ما يقتضيه النّقل و الشّرع أو عمّا يقتضيان حبسه عنه فالصّبر لفظٌ عام و ربمّا خولف بين أسماءه بحسب إختلاف مواقعه فأن كان حبس النّفس لمصيبةٍ سمّي صبراً لا غير و يضاده الجزع و أن كان في محاربةٍ سمّي شجاعة و يضادّه الجبن، و أن كان في ناسئةٍ معجزة سمّي الصَّدر و يضادّه الضّجر، و أن كان في إمساك الكلام سمّي كتماناً و قد سمّىٰ اللّه تعالى كلّ ذلك صبراً و سمّي الصّوم صبراً لكونه كالنّوع له، فقول اللّه تعالىٰ: **وَ اَلصّٰابِرِينَ وَ اَلصّٰابِرٰاتِ** يشمل جميع الأقسام و قد تكلمّنا في معنى الصّبر و أقسامه و الأخبار في فضله كثيرة و لا نحتاج الىٰ ذكرها في المقام و لعل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً و لا شكّ في أنّ الصّبر من مكارم الأخلاق و لذلك مدح اللّه الصّابرين في كثير من الأيات و بشّرهم بالرَّحمة و المغفرة، والأجر يوم القيامة اللّهم إجعلنا من الصّابرين.

١- آل عمران = ١٧ ٢- المائدة = ١١٩

وَ ٱلْخَٰشِعِينَ وَ ٱلْخَٰشِعَٰتِ

الْخُشُوع بضمّ الخاء و الشّين الضّراعة و أكثر ما يستعمل الخشوع فيما يوجد علىٰ الجوارح كما أنّ الضّراعة أكثر ما تستعمل في القلب و لذلك قيل إذا ضرع القلب خشعت الجوارح و قد مدح اللّه الخاشعين أيضاً في كثيرٍ من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **لَوْ أَنْزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَٰشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ، ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ**(٤).

و غيرها من الأيات.

وَ ٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَ ٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ قيل في معناه، الّذين يخرجون الصّدقات و الزّكوات بعضهم معناه، المتصدّق بالفرض و النّفل.

و قال الزّمخشري **المُتّصدق،** الّذي يزّكىٰ ماله و لا يبخّل بالنّوافل، و قيل من تصدَّق في إسبوعٍ بدرهمٍ فهو من المتصدّقين و من صام البيض من كلّ شهرٍ فهو من الصّائمين.

أقول الظّاهر أنّه مأخوذ من التّصدق يقال تصدّق يتصدّق متصدّقاً و الصدّقة ما يخرجه الإنسان من ماله علىٰ وجه القربة كالزّكٰوة لكنّ الصدَّقة في الأصل للمتّطوع به والزّكٰوة للواجب قال اللّه تعالىٰ: **وَ تَصَدَّقْ عَلَيْنَآ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ**(٥).

وَ ٱلصَّٰٓئِمِينَ وَ ٱلصَّٰٓئِمَٰتِ

١- الحديد = ١٦
٢- الحَشر = ٢١
٣- المؤمنون = ٢ / ١
٤- البقرة = ٤٥
٥- يوسف = ٨٨

الصَّوم بفتح الصّاد في الأصل الإمساك عن الفعل مطلقاً و لذلك قيل لفرس الممسك من السَّير أو العلف صائم قال الشّاعر:

خيلٌ صيام وأُخرىٰ غير صائمةٍ

أمّا في الشّرع فهو إمساك المكلّف بالنّية من الخيط الأبيض الى الخيط الأسود عن المفطرات المقرّرة في الشّريعة من الأكل و الشّرب و الجماع و غيرها و كفىٰ في فضيلة الصوّم أنّه من ضرّوريات الّدين فمن أنكره صار مرتّداً خارجاً عن ربقة المسلمين و مع ذلك مدحه كثير و ثوابه عظيم و قد قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم:

الصَّوم جُنّة من النّار، قال اللّه تعالىٰ: يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ(١).

وَ ٱلْحٰافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَ ٱلْحٰافِظٰاتِ

الفَرج بفتح الفاء و سكون الرّاء و الجيم و **الفُرجة** بضمّ الفاء و سكون الرّاء و فتح الجيم في الأصل الشقّ بين الشَّيئين كفرجة الحائط ما بين الرِّجلين و كنّي به عن السَّوأة و كثر حتّىٰ صار كالصّريح فيه و المراد بحفظ الفرج الإجتناب من الزّناء و إرتكاب أنواع الفجور ممّا لا يحلّ شرعاً قال اللّه تعالىٰ في وصف المؤمنين.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حٰافِظُونَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصٰارِهِمْ وَ يَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُلْ لِلْمُؤْمِنٰاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصٰارِهِنَّ وَ يَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ**(٤).

١- البقرة = ١٨٣
٢- المؤمنون = ٥
٣- النّور = ٣٠
٤- النّور = ٣١

وَ ٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَ ٱلذَّٰكِرَٰتِ

الذِّكر بكسر الذّال تارةً يقال و يراد به هيئةٌ للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلاّ أنّ الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه و الذِّكر يقال إعتباراً بإستحضاره، و تارةٍ يقال لحضور الشّئ في القلب أو القول و لذلك قيل الذِّكر ذكران، ذكرٌ بالقلب و ذكر باللّسان و كلّ واحدٍ منهما ضربان، ذكر من نسيان، و ذكر لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ وكلّ قولٍ يقال له ذكرٌ، فمن الذِّكر باللّسان قوله تعالىٰ: **لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ**(١) و المراد بالذّكر في المقام هو توجّه العبد الىٰ معبوده على كلّ حالٍ لساناً و قلباً و حالاً.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا ٱللَّهَ وَ ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَ ذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا**(٣).

قال اللّه تعالىٰ: **فَاذْكُرُونِى أَذْكُرْكُمْ وَ ٱشْكُرُوا لِي وَ لا تَكْفُرُونِ**(٤).

قال اللّه تعالىٰ: **إِلَّا ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ وَ ذَكَرُوا ٱللَّهَ كَثِيرًا**(٥).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَ سَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِبْكَارِ**(٦).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً**(٧).

و الأيات في الذِّكر والحثّ عليه كثيرة و نحن نقول اللّهم إجعلنا من الذّاكرين، ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ وعد من يتّصف بهذه الأوصاف من الرّجال و النّساء بالمغفرة والأجر العظيم يوم القيامة فقال: **أعَدَّ اللّه لهُم مغفرةً وأجراً عَظيماً لا يُوازيه شئ.**

١- الأنبياء = ١٠
٢- الرّعد = ٢٨
٣- الأحزاب = ٢١
٤- البقرة = ١٥٢
٥- الشّعراء = ٢٢٧
٦- آل عمران = ٤١
٧- الأعراف = ٢٠٥

وَ مٰاكٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ إِذٰا قَضَى ٱللّٰهُ وَ رَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاٰلاً مُبِينًا

قال المفسّرون أنّ هذه الآية نزلت في زينب بنت جحش لمّا خطبها رسول اللّه لزيد بن حارثة فإمتنعت لنسبها من قريش و أنّ زيداً كان عبداً فأنزل اللّه الآية فرضيت به و قيل نزلت في أمّ كلثوم بنت عقبة إبن أبي معيط و كانت وهبت نفسها لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فزوّجها من زيد بن حارثة و قال بعضهم أنّ رسول اللّه خطب زينب بنت جحش و كانت بنت عمّته فظنّت أنّ الخطبة لنفسه صلّى الله عليه وآله وسلّم فلمّا تبيّن أنّه يريدها لزيد كرهت و أبت و إمتنعت فنزلت الآية فأذعنت زينب حينئذٍ و تزّوجته و في روايةٍ فإمتنعت و إمتنع أخوها عبد اللّه لنسبها من قريش و أنّ زيداً كان بالأمس عبداً الىٰ أن نزلت الآية فقال له أخوها مرني بما شئت فزوّجها من زيد، و قيل أنّ أمّ كلثوم كانت وهبت نفسها للنّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فزوّجها من زيد بن حارثة فكرهت ذلك هي و أخوها و قالا أنّما أردنا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فزوّجه غيرها فنزلت الآية بسبب ذلك فأجابا الىٰ تزويج زيد، و قال الحسن في معنىٰ الآية المراد أنّه ليس لمؤمنٍ و لا مؤمنةٍ إذا أمر اللّه عزّ وجلّ و رسوله صلّى الله عليه وآله وسلّم أن يعصياه و علىٰ هذا فالآية نزلت لبيان حكم كلّي.

أقول ما ذكره الحسن لا ينافي ما ذكروه فأنّ المورد خاصّ و الحكم عامّ كما في غيرها من الآيات إعلم أنّ لفظة، ما كان، و ما ينبغي و أمثالهما معناها الحظر و المنع فتجيئ لحظر الشّيئ و الحكم بأنّه لا يكون كما في هذه الآية فالمعنىٰ لا يكون لهم الخيرة و الخيرة بكسر الخاء و فتح الياء مصدر بمعنىٰ الإختيار و محصل الكلام في هذه الآية أنّ إختيار اللّه و رسوله مقدّم علىٰ إختيار العبد و القضاء هاهنا بمعنى الحكم أي إذا حَكَم اللّه و رسوله بشيئٍ فهو المتّبع و لا يجوز للمحكوم عليه ردّه.

قال الشّيخ في التّبيان و في ذلك دلالة على فساد مذهب المجبّرة في القضاء و القدر لأنّه لو كان اللّه تعالىٰ قضى المعاصي لم يكن لأحدٍ الخيرة و لوجب عليه الوفاء به و من خالف في ذلك كان عاصياً و ذلك خلاف الإجماع إنتهىٰ كلامه.

و قوله: **وَ مَنْ يَعْصِ ٱللّٰهَ وَ رَسُولَهُ** فيما قضيناه به فقد ضلّ عن الحقّ ضلالاً مبيناً ظاهراً.

وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللّٰهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ ٱتَّقِ ٱللّٰهَ وَ تُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللّٰهُ مُبْدِيهِ وَ تَخْشَى ٱلنَّاسَ وَ ٱللّٰهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشٰيهُ فَلَمَّا قَضٰى زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَرًا زَوَّجْنٰاكَهٰا لِكَيْ لٰا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوٰاجِ أَدْعِيٰآئِهِمْ إِذٰا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كٰانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ مَفْعُولاً

قال الطّبري في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه.

يقول تعالىٰ ذكره لنبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم عتاباً من اللّه له وأذكر يا مُحّمد إذ تقول لِلّذي أنعم اللّه عليه بالهداية (وهو زيد بن حارثة) و أنعمت عليه بالعتق (لأنّ النّبي أعتقه) و هو زيد بن حارثة مولى رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم، **أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ ٱتَّقِ ٱللّٰهَ** و ذلك أنّ زينب بنت جحش فيما ذكر رآها رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فأعجبته و هى في حبال مولاها فألقي في نفس زيد كراهتها لما علم اللّه ممّا وقع في نفس نبيّه ما وقع فأراد فراقهما فذكر ذلك لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم زيد فقال له رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إمسك عليك زوجك و هو صلّى الله عليه وآله وسلّم يحبّ أن تكون قد بانت منه لينكحها و أتقّ اللّه وخف اللّه في الواجب له عليك في زوجتك و تخفي في نفسك ما ألله مبديه يقول و تخفي في نفسك محبّة فراقه إيّاها لتتّزوجها إن هو فارقها و اللّه مبديه ما تخفي في نفسك من ذلك و تخشى النّاس واللّه أحق أَن تخشاه يقول تعالىٰ ذكره و تخاف أن يقول النّاس أمر رجلاً

بطلاق إمرأته و نكحها حين طلّقها واللّه أحقّ أن تخشاه من النّاس و ساق الكلام الىٰ أن قال.

قال الحسن ما أنزلت عليه آية أشدّ عليه صلّی الله عليه وآله وسلّم فيها الىٰ أن قال قال إبن زيد كان النّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم قد تزّوج زيد بن حارثة زينب بنت جحِش إبنة عمّه فخرج رسول اللّه يوماً يريده و على الباب سترٌ من شعر فرفعت الرّيح السّتر فأنكشف و هي في حجرتها حاسرة فوقع اعجابها في قلب النّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم فلّما وقع ذلك كرهت الى الآخر فجاء فقال يا رسول اللّه إنّي أريد أن أفارق صاحبتي قال صلّی الله عليه وآله وسلّم مالك أرابك منها شئ قال لا واللّه ما رابني منها شئ يا رسول اللّه رأيت إلاّ خيراً فقال له رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم امسك عليك زوجك و اتقّ اللّه فذلك قول اللّه و إذ تقول للّذي أنعم اللّه عليه و أنعمت عليه إمسك عليك زوجك و أتقّ اللّه و تخفي ما في نفسك ما أللّه مبديه تخفي في نفسك أن فارقتها زوجّتها إنتهىٰ، ما ذكره الطّبري و هو الأصل في جميع تفاسير العامّة.

و في تفسير علّي إبن إبراهيم في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجّل: وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ. قال عليه السلام: و ذلك أن رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم خطب علىٰ زيد بن حارثة، زينب بنت جحش الأسدية من بني أَسد بن خزيمة و هى بنت عمّة النَّبي صلّی الله عليه وآله وسلّم فقالت يا رسول اللّه حتّى أوأمر نفسي فأنزل اللّه تعالىٰ: وَ مٰا كٰانَ لِمُؤْمِنٍ وَ لاٰ مُؤْمِنَةٍ؟ فقالت يا رسول اللّه أمري بيدك فزَّوجها إيّاه فمكثت عند زيد ما شاء اللّه ثمّ أنّها تشاجرا في شئٍ الىٰ رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم فنظر إليها رسول اللّه فأعجبته فقال زيد يا رسول اللّه تأذن لي في طلاقها فأنّ فيها كبر أو أنّها لتؤذيني بلسانها فقال رسول اللّه صلّی الله عليه وآله وسلّم (إتّق اللّه وإمسك عليك زوجك و أحسن إليها) ثمّ أنّ زيداً طلّقها و أَنقضت عدّتها فأنزل اللّه عزّ وجّل

نكاحها علىٰ رسول اللّه فقال تعالىٰ فلّما قَضى زيد منها و طراً زوّجناكها إنتهىٰ.

و في عيون الأخبار في باب مجلس الرّضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات و ما أجاب به علّي بن جهم في عصمة الأنبياء عليهم السّلام حديث طويل و فيه يقول عليه السلام و أمّا مُحمّد صلى الله عليه وآله وسلم و قول اللّه عزّ وجّل و تُخفي في نَفسك مااللّه مبديه و تخشىٰ النّاس و اللّه أحقّ أن تخشاه، فأنّ اللّه تعالىٰ عرَّف نبِّيه أسماء أزواجه في دار الدّنيا و أسماء أزواجه في الآخرة و انهنّ أمّهات المؤمنين و منهنّ زينب بنت جحش و هى يومئذٍ تحت زيد بن حارثة فأخفى عليه السلام إسمها في نفسه و لم يبده لكيلا يقول أحد من المنافقين أنّه قال في إمرأةٍ في بيت رجلٍ أنّها أحد أزواجه من أمّهات المُؤمنين و خشي قول المنافقين قال اللّه تعالىٰ: وَ تَخْشَى ٱلنَّاسَ وَ ٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشيٰهُ يعني في نفسك وأنّ اللّه تعالىٰ ما تولّىٰ تزويج أحد من خلقه إلاّ تزويج حوّاء من أدم و زينب من رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم بقوله عزّ وجلّ: فَلَمَّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْهٰا وَطَـرًا زَوَّجْنٰاكَهٰا و فاطمة من علّي عليه السّلام قال فبكى علي بن محمّد الجهم و قال يابن رسول اللّه أنا تائب إلىٰ اللّه من أن أنطق في أنبياء اللّه عليهم السّلام بعد يومي هذا إلاّ بما ذكرته إنتهىٰ.

و فيه في باب ذكر مجلسٍ أخر للرّضا عليه السلام فأخبرني عن قول اللّه عزّ وجلّ: وَ إِذْ تَقُولُ لِلَّذىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَ تُخْفي في نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْديهِ وَ تَخْشَى ٱلنَّاسَ وَ ٱللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشيٰه. قال الرّضا عليه السلام: قَصد رسول اللّه دار زيد بن حارثة بن شارحيل الكلبي في أمرٍ أراده

فرأىٰ إمرأته تغتسل فقال لها سبحان اللّه الّذي خلقك و أنّما أراد بذلك تنزيه اللّه عن قول مَن زعم أنّ الملائكة بنات اللّه قال اللّه عزّ وجلّ: **أَفَأَصْفيٰكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنينَ وَ اتَّخَذَ مِنَ الْمَلآئِكَةِ إِناثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظيمًا**(١) فقال النّبي لمّا رأها تغتسل سبحان اللّه الّذي خَلقك أن يتّخذ ولداً يحتاج إلىٰ هذا التطهّير والإغتسال فلمّا جاء زيد إلى منزله أخبرته إمرأته بمجي الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم و قوله لها سبحان الّذي خلقك فلم يعلم زيد ما أراد بذلك فظنَّ أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال ذلك لما أعجبته من حُسن فجاء إلىٰ النّبي فقال: يارسول اللّه أنّ إمرأتي في خلقها سوء و أنّي أريد طلاقها فقال له النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم أمسك عليك زوجك و اتقّ اللّه و تخفي في نفسك ما اللّه مبديه و قد كان اللّه عزّ و جلّ عرَّفه عَدد أزواجه و أنّ تلك المرأة منهنّ فأخفىٰ ذلك في نفسه و لَم يبده لزيد و خشى النّاس أن يقولوا أنّ محمّداً يقول لمولاه أنّ إمرأتك ستكُون لي زوجة فيعيبونه بذلك فأنزل اللّه و اذ تقول للّذي أنعم اللّه عليه يعني بالإسلام و أنعمت عليه يعني بالعتق أمسك عليك زوجك إلىٰ قوله: أَنْ تَخْشيٰهُ ثمّ أنّ زيد بن حارثة طلّقها و إعتدت منه فزوّجها اللّه تعالىٰ من نبيّه و أنزل بذلك قرأناً فقال: **فَلَمّا قَضىٰ زَيْدٌ مِنْها وَطَرًا زَوَّجْناكَها لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنينَ حَرَجٌ فيٓ أَزْواجِ أَدْعِيآئِهِمْ إِذا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَ كانَ أَمْرُ اللّهِ مَفْعُولاً.** ثمّ عَلِم اللّه عزّ وجلّ أنّ المنافقين سيعيبونه بتزويجها فأنزل **ما كانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فيما فَرَضَ اللّهُ لَهُ،** فقال المأمون لقد شفيت صدري يابن رسوٍل اللّه و أوضحت لي ما كان ملتبساً علّي فجزاك اللّه عن أنبيائه و عن الإسلام خيراً إنتهىٰ.

١- الإسراء = ۴۰

أقول و هذا معنىٰ قول رسول اللّه أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه و عترتي أهَل بَيتي الخ، و هذا معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ**(١) فأنّ ما ذكروه في تفاسيرهم في تفسير الآية لا يناسب شأن النّبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ الّذي جَعَله اللّه معصوماً من كلّ عيبٍ و شين. قال القرطبي في المقام بعد نقله الأقوال من علماء العامّة في تفاسيرهم إرتضائه بها ما هذا لفظه:

و روي عن عليّ إبن الحسين أنّ النّبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ كان قد أوحى اللّه تعالىٰ إليه أنّ زيداً يطلّق زينب و أنّه يتزّوجها بتزويج اللّه إيّاها فلمّا تشكّىٰ زيد للنّبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ خلق زينب و أنّها لا تطيعه و أعلمه أنّه يُريد طلاقها قال له رسول اللّه صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِوَسَلَّمَ علىٰ جهة الأدَب والوصيّة، إتقّ اللّه في قولك و أمسك عليك زوجك، و هو يعلم أنّه سيفارقها و يتزوّجها و هذا هو الّذي أخفىٰ في نفسه و لم يرد أن يأمره بالطّلاق لما علم أنّه سيتزوّجها و خشىٰ رسول اللّه أن يلحقه قول من النّاس في أن يتزوّج زينب بعد زيد و هو مولاه و قد أمره بطلاقها فعاتبه اللّه على هذا القدر من أن خشي النّاس في شيٍ أباحه اللّه له، بأن قال أمسِك، مع علمه بأنّه يطلّق و أعلمه أنّ اللّه أحقّ بالخشية أي في كلّ حال.

قال علماؤنا رحمة اللّه عليهم و هذا القول أحسن ما قيل في تأويل هذه الآية و هو الّذي عليه التّحقيق من المفسّرين و العلماء الرّاسخين كالزُّهري و القاضي بكر بن العلاء القشيري و القاضي أبي بكر العربي و غيرهم إنتهىٰ كلام القُرطبي.

١-آل عمران = ٧

ثمّ قال فأمّا ما روي أنّ النّبيﷺ هوىٰ زينب إمرأة زيد و ربما أطلق بعض المحبّين لفظ، عشق، فهذا أنّما يصدر عن جاهلٍ بعصمة النّبيﷺ عن مثل هذا أو مستخفّ بحرمته.

قال التّرمذي في نوادر الأصول و أسند إلى علّي بن الحسين قوله، فعليّ بن الحسين جاء بهذا من خزانة العلم جوهراً من الجواهر و درّاً من الدُّرر أنّه أنّما عتب اللّه عليه في أنّه قد أعلمه أن ستكون هذه من أزواجك فكيف قال بعد ذلك أمسك عليك زوجك إنتهىٰ ما نقله عن التّرمذي.

أقول و قد ظهر لك بما ذكرناه تفسير ألفاظ الآية أيضاً و أمّا قصّة زيد بن حارثة فقد مرَّ الكلام فيها في أوائل السُّورة عند قوله تعالىٰ: **وَ مٰا جَعَلَ أَدْعِيٰآءَكُمْ أَبْنٰآءَكُمْ**[1].

مٰاكٰانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمٰا فَرَضَ ٱللّٰهُ لَهُ سُنَّةَ ٱللّٰهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كٰانَ أَمْرُ ٱللّٰهِ قَدَرًا مَقْدُورًا

هذه الآية في الحقيقة جواب المنافقين و الجهّال حيث عابوا علىٰ النّبي تزويجه زينب بنت جَحش وكانت تحت زيد بن حارثة، يقول اللّه عزّ وجلّ لم يكن عليهﷺ اثم في ما قدّره اللّه أن يتزوّج زينب زوجة زيد بعد أن طلّقها و أن كان زيد دعّياً له سابقاً علىٰ ما مرَّ الكلام فيه و ذلك لأنّ سنّة اللّه في الأنبياء و غيرهم قد جرت بذلك و بعبارةٍ أخرى ما أمرنا به محمّداًﷺ مثل سنّة من تقدّم من الأنبياء و ما أمرهم اللّه به فأنّه تعالىٰ أباح لكلّ نبّيٍ شيئاً خصَّه به و رفع شأنه من بين سائر الأمم و كان أمر اللّه قدراً مقدوراً، معناه أنّ أمر اللّه مسبوق بالقدر و ما قدَّر اللّه تعالىٰ فهو واقع لا محالة و لا يمكن ردّ قضاءه و

١- الأحزاب = ۴

قدره و الحاصل أنّ طلاق زيد إمرأته و تزوّج النّبي إيّاها ليس من الحوادث الّتي لا نظير له بل هو من العاديات و الرُّسومات و السُّنن الجارية فلا يحتاج إلىٰ البحث و هو كذلك و الحمدُ للّه ربّ العالمين.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ ٱللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا

لمّا حكم اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة بأنّه لا حرج على النّبي فيما فرض اللّه له من تزويج زينب إيّاه بعد أن طلّقها زيد و ذلك لأنّه من السُّنن الجارية علىٰ الأنبياء قبله من داود و سليمان و غيرهما بيَّن في هذه الآية أنّ الّذين خلوا من قبل كانوا من الأنبياء أيضاً و كانوا يبلّغون رسالات اللّه و يخشونه أي و يخشون اللّه و لا يخشون أحداً غيره و حكم الأمثال واحد فكان لداود النّبي مائة إمرأة و ثلاث مائة سريّة على ما قيل و لسليمان ثلاث مائة إمرأة و سبع مائة سرِّية و هكذا و حاصل الكلام في هاتين الأيتين هو أنّ اللّه تعالىٰ حكم ببراءة ساحة النّبي عن عيب و نقص و أنّ هذا من سُنن اللّه في حقّ الأنبياء و أنّ هذا لا ينافي عصمتهم و طهارتهم و لا ينقص من مقامهم شيئاً عند اللّه و لا يضرّ برسالتهم و تبليغهم أحكام اللّه فأنّهم عليهم السّلام كانوا لا يخشون أحداً إلاّ اللّه و لا يعتنون بما قال فيهم الجهّال و المنافقون.

و قوله: **وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا** أي كافياً و مجازياً و ينبغي التّنبيه على أمور:

أحَدها: أنّ اللّه تعالىٰ خصَّ أنبيائه بأمور مختصّة بهم منها كثرة الزّوجات فأنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان له أزواج كثيرة و قد مرَّ ذكرهنّ مفصّلاً و مات صلّى الله عليه وآله وسلّم عن تسعة و هذه من خصائصه صلّى الله عليه وآله وسلّم و لا يجوز لامّته أكثر من أربع في الدّائميات.

منها وجوب صلاة اللّيل علىٰ النّبي دون الأمّة.

منها عدم جواز نكاح أزواج النّبي بعد موته.

منها جواز هبة المرأة نفسها للنّبي و هكذا غيرها ممّا هو مذكور في محلّه و هذا دليل على عظم شأن النّبي و أنّه ممَّن لا يقاس به أحَد من أفراد الأمّة و العجب أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم كان مع ذلك في كمال العبوديّة و هذا من أكبر المعجزات.

الثّاني: أنّ تزويجه زينب بنت جحش و هى بنت عمّته و في نهاية الشّرف و النسب زيد بن حارثة الّذي كان عبداً أعتقه النّبي دليل علىٰ أنّ الكفاءة بين الزَّوجين في الإسلام أنّما هي في الدّين لا في المال و القبيلة و غيرهما و هذا أصل يعتمد عليه في الزوّج و الزَّوجة و نعم الأصل لو عمل به.

الثّالث: أنّه لا حرج في أزواج الأدعياء و لذلك فعل رسول اللّه ما فَعل في زينب بنت جَحش بعد أن طلَّقها زيد، و تزّوج بها رغماً لأنوف المنافقين.

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَٰكِنْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّينَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

لمّا تزَّوج رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم زينب علىٰ ما مَرَّ بيانه قال النّاس تزَّوج رسول اللّه إمرأة إبنه زيد، فنزلت الآية أي ليس هو بإبنه حتّىٰ يحرم عليه حليلته و قال بعض المفسّرين نزلت الآية في زيد بن حارثة قبل تزَّوج الرّسول بل قبل تزَّوج زيد، و ذلك لأنّ النّاس كانوا يسمّونه زيد بن محمّد فبيَّن اللّه تعالىٰ أنّ النّبي ليس بأب لهم من الرّجال و أمّا القاسم و الطّيب و المطّهر و إبراهيم كلّهم ماتوا في الصِّغر ولم يبلغوا مقام الرّجال فصَّح أن يقال ما كان محمّد أبا أحدٍ من رجالكم أي لم يبلغ من أولاده أحد مقام الرّجال و لذلك لم يقل من أبنائكم مثلاً و لكن رسول اللّه و خاتم النَّبيّن نَفىٰ اللّه تعالىٰ في هذه الآية عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم الأبّوة لِلرّجال المعاصرين و أثبت له حكمين:

أحدهما: أنّه رسول اللّه.

الثّاني: أنّه خاتم الأنبياء و كلاهما ثابتان له بلا كلام أمّا الّرسالة فلأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إدّعاها و أتىٰ بالمعجزات الدّالة علىٰ صدقه في زمانه و كفاك في هذا الباب هذا القرأن فأنّه معجزة باقية الىٰ يوم القيامة و ذلك لقوله تعالىٰ: **قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَ الْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَ لَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**[١] و لا نعني بالمعجزة إلاّ عجز البشر على الإتيان بمثل ما أتىٰ به الرّسول و اذا ثبت إعجاز القرأن و أنّه ليس من كلام البشر فهو كلام اللّه لا محالة و اذا كان كلام اللّه و قد صَرَّح برسالته و خاتميّته فهو رسول اللّه و خاتم الأنبياء و هو المطلوب.

و قوله: **وَ كَانَ اللّٰهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** أي أنّ اللّه يعلم مصالح العباد يخفى عليه شئ ممّا يحتاجون إليه فيكون الفعل الصّادر منه على أساس المصلحة.

يٰا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللّٰهَ ذِكْرًا كَثِيرًا، وَ سَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَ أَصِيلاً

أمر اللّه المؤمنين بالذّكر الكثير أوّلاً و بالتّسبيح بالغداة و العشي ثانياً، قيل المراد بالذّكر الكثير أن يذكره المؤمن بصفاته الّتي يختّص بها و لا يشاركه فيها غيره و تنزّهه عمّا لا يليق به.

و روي في الأخبار أنّ من قال سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر ثلاثين مرّةً فقد ذكر اللّه كثيراً ذكره الشّيخ في التّبيان.

أقول ما ذكره رحمه الله لا بأس به إذ لا شكّ أنّه من الذّكر المأمور به إلاّ أنّه ليس الذّكر الكثير نعم هو من الاذكار باللّسان و هو أحد أقسام الذّكر و الحقّ أنّ المراد بالذّكر معناه العامّ الشّامل للقلب و اللّسان و الحال و الجامع بين الأقسام التوجّه إلى المعبود في جميع الحالات و أن شئت قلت نسيان الغير.

قال بعض العُرفاء في قوله تعالىٰ: **وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذٰا نَسِيتَ**[٢] يعني إذا نسيت

١- الإسراء = ٨٨ ٢- الكهف = ٢۴

غيره و نسِيت نفسك في ذكرك ثمّ نسيت ذكرك في ذكرك ثمّ نسيت في ذكر الحقّ إيّاه.

و قال الأخر الذِّكر التَّخلّص من الغفلة و النّسيان.

و من المعلوم عند الخواصّ أنّ المراد بالذّكر وجدان المذكور و حضوره بالقلب لا ذكره باللّسان وحده مع غفلة القلب فأنّه غير مُعتبرٍ عند أهله و الكلام في الباب طويلٌ.

و قد تكلّمنا في معنىٰ الذّكر و أقسامه و كيفيّته غير مرّةٍ في ضمن الأيات أي الذّكر ممّا لا يخفى على أحدٍ و في رأس الاذكار قراءة القرأن والتّفكر في أياته و أمّا التّسبيح فمعناه تنزيهه تعالىٰ من كلّ نقصٍ و شين و بالجملة نفي ما لا يليق بشأنه من صفات المخلوق.

هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَآئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا، تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا

لمّا قال اللّه تعالىٰ في الآية السّابقة أذكروا اللّه كثيراً و سبّحوه بكرةً و أصيلاً قال في هذه الآية هو الّذي يصّلي عليكم ففي الحقيقة هذا جزاء الذّكر و التَّسبيح من العبد أي إذا كنتم من الذّاكرين السّابحين فأنّ اللّه تعالىٰ و ملائكته يصّلون عليكم و الصّلاة من اللّه الرّحمة و من الملائكة الإستغفار فأنّهم يستغفرون للّذين أمنوا ثمّ بيَّن اللّه تعالىٰ رحمته علىٰ العبد فقال ليخرجكم من الظُّلمات إلى النُّور أي من الضّلالة إلى الهدى و كان اللّه بالمؤمنين رحيماً، و لا شكّ أنّ هذا من أعظم النِّعم و أشرفها و أفضلها ثمّ قال تعالىٰ: **تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ** الضّمير في يلقونه يعود علىٰ اللّه تعالىٰ و أعدَّ أي هيَّأ لهم أجراً كريماً يوم القيامة بسبب ذكرهم و تسبيحهم في دار الدّنيا.

■

يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنٰاكَ شٰاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ
نَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَ داعِيًا إِلَى ٱللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِراجًا
مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ ٱللّٰهِ
فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَ لا تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَ
ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ دَعْ أَذيٰهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَ كَفىٰ
بِاللّٰهِ وَكِيلاً ﴿٤٨﴾ يٰٓ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوٓا إِذا نَكَحْتُمُ
ٱلْمُؤْمِنٰاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ
فَما لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهٰا فَمَتِّعُوهُنَّ وَ
سَرِّحُوهُنَّ سَراحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾ يٰٓ أَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ
أَحْلَلْنٰا لَكَ أَزْواجَكَ ٱلّٰتِىٓ اٰتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَ ما
مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفٰآءَ ٱللّٰهُ عَلَيْكَ وَ بَنٰاتِ
عَمِّكَ وَ بَنٰاتِ عَمّٰاتِكَ وَ بَنٰاتِ خٰالِكَ وَ بَنٰاتِ
خٰالاٰتِكَ ٱلّٰتِي هٰاجَرْنَ مَعَكَ وَ ٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ
وَهَبَتْ نَفْسَهٰا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرادَ ٱلنَّبِيُّ أَنْ
يَسْتَنْكِحَهٰا خٰالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ
عَلِمْنٰا ما فَرَضْنٰا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْواجِهِمْ وَ ما
مَلَكَتْ أَيْمٰانُهُمْ لِكَيْ لا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ
كٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٠﴾ تُرْجِي مَنْ تَشٰاءُ
مِنْهُنَّ وَ تُؤْوِىٓ إِلَيْكَ مَنْ تَشٰآءُ وَ مَنِ ٱبْتَغَيْتَ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنٰاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنىٰٓ أَنْ تَقَرَّ
أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمآ اٰتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ
وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ ما فِي قُلُوبِكُمْ وَ كٰانَ ٱللّٰهُ عَلِيمًا

حَلِيمًا ﴿۵۱﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنْ بَعْدُ وَ لَآ أَنْ
تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا
مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
رَقِيبًا ﴿۵۲﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ
ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ
إِنَاهُ وَ لَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ
فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي
مِنَ ٱلْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْئَلُوهُنَّ مِنْ
وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ
مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَ لَآ أَنْ
تَنْكِحُوٓا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿۵۳﴾ إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ
فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿۵۴﴾ لَا جُنَاحَ
عَلَيْهِنَّ فِيٓ آبَآئِهِنَّ وَ لَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَ لَآ إِخْوَانِهِنَّ وَ
لَآ أَبْنَآءِ إِخْوَانِهِنَّ وَ لَآ أَبْنَآءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَ لَا
نِسَآئِهِنَّ وَ لَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَ ٱتَّقِينَ ٱللَّهَ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿۵۵﴾ إِنَّ ٱللَّهَ
وَ مَلَآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ
آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿۵۶﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي
ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿۵۷﴾

◀ اللّغة

دَعْ: بفتح الدّال و سكون العين أمرٌ من وَدَعَ يَدَعُ بمعنى التّرك.

تَمَسُّوهُنَّ: المَسّ كناية عن الدّخول و هو في الأصل إدراكٌ بحاسّة اللّمس.

عِدَّةٍ: بكسر العين و فتح الدّال المشدّدة هي الشّئ المعدود وعدّة المرأة هي الأيّام التّي بإنقضائها يحلُّ لها التّزوج.

فَمَتِّعُوهُنَّ: المتوع الإمتداد و الإرتفاع يقال متع النّبات إذا إرتفع و المتاع إنتفاء مُمّتد الوقت يقال متّعه اللّه بكذا و أمتعه، و تمتّع به.

سَرَاحًا: السَّرح الإرسال.

أَفَآءَ ٱللَّهُ: الفئ الرّجُوع إلىٰ حالةٍ محمودة و منه فاء الظّلّ.

حَرَجٌ: بفتح الحاء و الرّاء المشّقة و قيل الضّيق و الإثم.

تُرْجِي: قرئ مهموزاً و غير مهموز يقال أرجيت الأمر و أرجأته إذا أخرته.

تُئْوِيٓ: أي تَضُّم يقال أوىٰ إليه ممدودة الألف و آوىٰ مقصورها، الضمّ إليه.

ٱبْتَغَيْتَ: الابتغاء الطَّلب.

عَزَلْتَ: العزلة الإزالة.

جُناح: بضمّ الجيم الميل.

آءَنَا: بكسر الألف أي بلوغه و قيل وقت نضجه.

◀ الإعراب

تَعْتَدُّونَهَا موضعه جرَّ علىٰ اللّفظ أو رفع علی الموضع و السّراح إسم للتّسريح و ليس بمصدرٍ.

وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً في النّاصب و جهان:

أحدهما: أحللنا في أوّل الآية.

الثّاني: أن ينتصب بفعلٍ محذوف أي و نحلّ لك إمرأةً. خَالِصَةً حال من

الضّمير في وهبت و يجوز أن تكون صفة لمصدرٍ محذوف أي هبةً خالصةً. **مَنِ ٱبْتَغَيْتَ** من في موضع نصب بإبتغيت و هى شرطيّة و الجواب **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ كُلُّهُنَّ** بالرّفع علىٰ توكيد الضّمير في يرضين و النّصب على توكيد المنصوب في أتيتهنّ **إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** في موضع رفع بدلاً من النّساء أو في موضع نصب علىٰ أصل الإستثناء و هو من الجنس و يجوز فيه الإنقطاع أيضاً **إِلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ** في موضع الحال و(غير) بالنّصب على الحال من الفاعل في، تدخلوا، أو من المجرور في لكم **وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ** معطوف على ناظرين.

◀ التّفسير

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَ مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا، وَ دَاعِيًا إِلَى ٱللّٰهِ بِإِذْنِهِ وَ سِرَاجًا مُنِيرًا

خاطب اللّه تعالىٰ نبيّه في هذه الآية بأمورٍ كلّها ثابت له و في الحقيقة أنّها أوصاف له ﷺ لا أسماء كما زعم بعضهم و أطال الكلام فيه و إدّعى أنّ له أسماء كثيرة و كيف كان فقد أثبت اللّه له ﷺ في هذه الآية أموراً:

أحدها: النبوة و النّبي يقال لمن أخبر عن اللّه تعالىٰ لأنّه من النّبأ و هو الخبر

ثانيهما: الرّسالة و الرّسول من أرسله اللّه إلىٰ خلقه ليهديهم إلى صراطٍ مستقيم و كلّ رسولٍ فهو نبّي و لا عكس و لذلك قال أرسلناك بعد تصريحه في الخطابٍ بنبوّته و فيه إشارة بل دلالة بأنّ اللّه تعالىٰ أعطاه النّبوّة و الرّسالة معاً و أنّما قدّم النّبوّة في الذّكر على الرّسالة لأنّ النّبوّة قبل الرّسالة كما أنّ العامّ قبل الخاصّ فمن ليس بنبيّ ليس برسولٍ قطعاً كما أنّ من لم يصلح للنّبوّة لم يصلح للرّسالة و لا عكس.

و أنّما قال يا أيّها النّبي و لم يقل يا أيّها الرّسول أنّا أرسلناك، حذراً من التّكرار في اللّفظ و إشارةً إلىٰ أنه ﷺ جامع بين المرتبتين، النّبوّة و الرّسالة،

و أنّ الرّسالة فوق النبوّة فمن لم يبلغ مقام النبوّة أوّلاً لم يبلغ مقام الرّسالة ثانياً.

و الفرق بين النّبي و الرّسول أنّ الرّسول صاحب شريعةٍ و كتاب و النّبي ليس كذلك، و النّبي تابع للرّسول و لا عكس، و النّبي يبعث إلىٰ قومٍ خاصٍّ و الرّسول ليس كذلك.

الثّانى: الرّسالة وإلىٰ ذلك أشار بقوله أنّا أرسلناك و ذلك لأنّه صلّی الله علیه و آله و سلّم كان صاحب شريعةٍ و كتابٍ و لم يكن تابعاً لغيره في رسالته، و كان مبعوثاً إلىٰ جميع الخلق من الجنّ و الإنس فهو صلّی الله علیه و آله و سلّم أفضل الأنبياء و المرسلين.

إن قلت مقام الرّسالة لم يكن منحصراً به صلّی الله علیه و آله و سلّم و بعبارةٍ أخرىٰ أفضليّته علىٰ الأنبياء لا كلام فيها لأنّ الرّسول أفضل من النّبي و أمّا أنّه صلّی الله علیه و آله و سلّم أفضل المرسلين أيضاً، فهو يحتاج إلى دليلٍ فأنّ أدم و نوح و عيسىٰ و موسىٰ، كلّهم من الرُّسل.

قُلت نعم إلاّ أنّ شرائعهم كانت محدودة بزمانٍ خاصٍّ و كذلك كانت أديانهم منسوخة فكلّ رسول منهم كانت شريعته ناسخة لشريعة من كان قبله من الرُّسل.

و أمّا شريعة الإسلام فغير محدودةٍ بزمانٍ خاصّ فأنّ حلال محمّدٍ حلال إلى يوم القيامة و حرامه كذلك و من كانت شريعته أوسع و أكمل فهو أفضل، مضافاً إلى أنّه صلّی الله علیه و آله و سلّم بمنزلة العلّة الغائيّة في دائرة التّشريع و تقدّم العلّة الغائيّة علىٰ المادّية و الصُّورية ممّا لا كلام فيه لأنّهما أي المادّيّة و الصّورية بمنزلة المقدّمة للغائيّة و من المعلوم أنّ ذي المقدّمة أشرف و أفضل من المقدّمة فهو صلّی الله علیه و آله و سلّم أفضل من الكلّ و هو المطلوب.

الثّالث: مقام الشّهادة في قوله تعالىٰ: **شَٰهِدًا**، و الشُّهود و الشّهادة الحضور مع المشاهدة إمّا بالبصر أو بالبصيرة و قد يقال للحضور مفرداً و منه قوله تعالىٰ: **عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَ ٱلشَّهَٰدَةِ**(١) لكنّ الشُّهود بالحضور المجرّد أولى، كما أنّ الشّهادة

١- الانعام = ٧٣

مع المشاهدة أولى، فالشّهادة قولٌ صادرٌ عن علم حصل بمشاهدة بصيرة أو بَصَرٍ إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالىٰ: **شَاهِدًا**، فقد قيل في معناه أي شاهداً علىٰ أمّتك في ما يفعلونه من طاعة اللّه أو معصيته أو إيمان به أو كفر لتشهد عليهم يوم القيامة أو لهم فأجازيهم بحسبه.

و قال بعضهم أي شاهداً علىٰ أمّته بالتّبليغ إليهم و على سائر الأمم تبليغ أنبيائهم و نحو ذلك و قيل شاهداً، علىٰ من بعث إليهم و علىٰ تكذيبهم و تصديقهم و غير ذلك من الأقوال والّذي أختاره صاحب الكشّاف هو أنّ شهادته مقبولة عند اللّه يوم القيامة سواء كانت لهم أو عليهم كما يقبل قول الشّاهد العدل في الحكم.

أقول ما ذكروه لا بأس به و لنا في المقام احتمال آخر أدَّق و أتقنّ لمن تدَّبر فيه و هو أنّ الشّاهد من الشُّهود و هو الحضور كما نقلناه عن الرّاغب في المفردات فعلى هذا لا يصدّق الشّاهد إلاّ علىٰ من كان حاضراً مشاهداً إمّا بالبصر أو بالبصيرة و لذلك لا يجوز الّشهادة على أساس العلم فأنّ الحضور معتبر في الشّهادة قطعاً و لعلّ الوجه في ذلك هو أنّ الإدراك قد يكون خطأ و الحسّ لا خطأ فيه.

ففي قوله تعالىٰ: **شَاهِدًا**، إشارة الىٰ انّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم يرى أعمال أمّته في حياته و بعد موته و لا يخفى عليه شئ منها و إلاّ كيف يكون شاهداً لهم أو عليهم يوم القيامة و المفروض أنّ الشّهادة بدون الحضور لا معنى لها بل لا تحقّق لها أصلاً و حيث أنّ علم النّبي بالأشياء حضوري بمعنى حضور المدرك لدى المدرك فكأنّه صلى الله عليه وآله وسلم حاضر و بعبارةٍ أخرى أعمالنا حاضرة عنده صلى الله عليه وآله وسلم لا حاصلة له و إذا ثبت الحضور حصل المطلوب فتأمّل في المقام فأنّه من مزال الأقدام.

الرّابع: قوله تعالىٰ: **وَ مُبَشِّرًا**، هذا لا يحتاج الىٰ بيان فأنّ النَّبي يبشّر أُمتّه برحمة اللّه و عنايته و أنّ اللّه يقبل التّوبة من عباده و بذلك يرّغبهم الى طاعته و عبادته و هو واضح.

الخامس: قوله: **وَ نَذِيرًا**، أي منذراً من عذاب اللّه و سخطه فالبشارة للمطيعين و الإنذار للعاصين و أعلم أنّ هذين الوصفين أعني بهما البشارة و الإنذار يقرّبان الإنسان الىٰ الكمال المطلوب و ذلك لأنّ الأفعال الصّادرة منه و هكذا الأقوال، إمّا لجلب منفعةٍ و إمّا لدفع مضرّة و لا ثالث في المقام فالحصر عقلّي فكلّ ما يرى الإنسان فيه منفعة يفعله و كلّ ما يرىٰ فيه مضرّة يتركه فالوصول الى المقاصد دنيويّة كانت أو أخرّوية لا يحصل إلاّ بالفعل و التَّرك ثمّ أنّ المقاصد و الآمال علىٰ قسمين: دُنيويّة وأُخرّوية.

أمّا الآمال الدنيويّة فهي فانية داثرة لا بقاء لها فأنّ الدّنيا دار بالبلاء محفوفة و بالغدر معروفة و أمّا الآخرة فليست كذلك لدوامها و بقائها فالعاقل لا يترك الآخرة لأجل الدّنيا بل يترك الدّنيا للآخرة و حيث أنّ الإنسان خلق للبقاء لا للفناء و لا عِلم له بما وراء المحسوسات فلا محالة يحتاج الى مرشدٍ الىٰ ما هو خارج عن حواسّها و إدراكها و هو النّبي الّذي يخبر عن اللّه تعالى و هو الّذي يرشده الىٰ الثّواب و ينهاه عمّا يوجب سقوطه و وقوعه في العذاب و لا نعني بِالبشارة و الإنذار إلاّ هذا فثبت و تحقّق أنّ الانسان يحتاج إليهما معاً.

السّادس: قوله تعالىٰ: **وَ داعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ** في هذا الكلام أشار اللّه تعالىٰ الىٰ أنّ النّبي مأمور بالدعّوة الىٰ اللّه و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **أُدْعُ إِلٰى سَبِيلِ رَبِّكَ بِـالْحِكْمَةِ وَ ٱلْـمَوْعِظَةِ ٱلْـحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتي هِىَ أَحْسَنُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **فَلِذٰلِكَ فَادْعُ وَ ٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْوآءَهُمْ**(٢).

١- النَّحل = ١٢٥ ٢- الشّورىٰ = ١٥

و إنّما قال: **داعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِ**، و لم يقل داعياً بإذنه لأنّ الدّعوة من الدّاعي علىٰ ثلاثة أقسام:

الدّعوة الى نفسه الدّعوة الى الغير، الدّعوة الىٰ اللّه، أمّا الدّعوة الىٰ نفسه فكما في فرعون و نمرود و أمثالهما ممّن كان يدعوا النّاس الىٰ نفسه و أكثر السّلاطين و الخلفاء و الحكّام في كلّ عهدٍ و زَمانٍ من هذا القبيل و هكذا المبدع في الدّين، و إنّما يدعوا النّاس الى أنفسهم لأنّ قصدهم الحكومة على النّاس و هى لا تحصل إلاّ بإجتماعهم على الباطل.

أمّا الدّعوة الى الغير فهي أكثر من أن تحصىٰ مثل دعوة عمر بن الخطّاب و أصحاب السّقيفة الىٰ أبى‌بكر و دعوة عمر بن العاص الىٰ معاوية و دعوة أبي مسلم الى السّفاح و أولاد العبّاس و هكذا الىٰ زماننا هذا.

أمّا الدّعوة الىٰ اللّه فهي منحصرة للأنبياء و الأوصياء و من حذى حذوهم قال الإمام الهادي عليه السلام في زيارة الجامعة الكَبيرة (**السَّلاٰمُ عَلَىَ الدُّعٰاةِ اِلَىَ اللّٰهِ وَالاَدِلاّٰءِ عَلىٰ مَرْضٰاةِ اللّٰهِ وَالْمُسْتَقِرّينَ فـي أَمْرِ اللّٰهِ وَالتّٰامّينَ فـي مَحَبَّةِ اللّٰهِ وَالْمُخْلَصينَ في تَوْحيدِ اللّٰهِ...**).

و على هذا فقوله تعالىٰ: **وَ داعِيًا إِلَى ٱللَّهِ** إشارة الىٰ أنّ دعوة الأنبياء ليست من سنخ دعوة النّاس بعضهم بعضاً بل نقول أنّ الدَّعوة الىٰ اللّه منحصرة الى دعوة الأنبياء و الأوصياء بمعنى أنّها لا توجد في غيرهم لأنّ الدَّعوة الخالصة عن الهوىٰ و شوب الرّياء لا تكون إلاّ لِلنّبي والوصّي و هذا ممّا لا شكّ فيه و أمّا غيرهم كائناً من كان فدعوته لا تخلوا من الهوىٰ و الرّياء و حبّ الجاه و لكنّ المدعوّين لا علم لهم بحال الدّاعي و أغراضه و لذلك كثيراً ما يقعون في المهلكة و يندمون على ما فعلوا و لكن لا ينفعهم النَّدم و يقال لهم و لا تحين مَناص **خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ**[1] والسِّر في

۱- الحجّ = ۱۱

ذلك أنّ الأنبياء و الأوصياء لمكان عصمتهم لا يكذبون و لا يمكرون و لا يتّبعون الهوى فينبغي للعاقل متابعتهم، في الأفعال و إجابة دعوتهم في الأقوال.

لقوله تعالىٰ: **وَ مٰآ اٰتٰيكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهٰيكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[١].

و في قوله: **بِإِذْنِهِ** إشارة الىٰ أنّ النّبي يدعوا النّاس الىٰ ربّهم بإذن اللّه لا مِن عند نفسه و ذلك إشارة أنّه الى رسول اللّه و الرّسول تابعٌ للمرسل و فيه إشارة الى قوله.

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا يَنْطِقُ عَنِ ٱلْهَوىٰ، إِنْ هُوَ إِلّٰا وَحْىٌ يُوحىٰ**[٢].

قال اللّه تعالى: **إِنْ أَتَّبِعُ إِلّٰا مٰا يُوحىٰ إِلَىَّ وَ مٰآ أَنَا إِلّٰا نَذِيرٌ مُبِينٌ**[٣].

كان كذلك فالدّاعي في الحقيقة هو اللّه فمن تبَع الرّسول فقد تبَع اللّه أجابه فقد أجابه و من خالفه فقد خالفه و من أنكر فقد أنكره.

السّابع: قوله تعالى: **وَ سِرٰاجًا مُنِيرًا**، السّراج الزّاهر بفتيلةٍ و دهنٍ و يعَبر به عن كلّ مضيئ.

قاله الرّاغب في المفردات و يقال له بالفارّسية (چراغ) و يستضاء به في الظُّلمات المحسُوسات كظلمة اللّيل و لذلك قيل النُّور ظاهر بذاته و مظهر لغيره، ثمّ أنّ الظُّلمة و ضدّها النُّور كلّ واحدٍ منهما على ضربين ظلمة محسوسة و ظلمة معنويّة عقلّية و هكذا النُّور، و الظّلمة المحسوسة كظلمة اللّيل مثلاً و العقلّية المعنويّة كظلمة الجهل و الظّلالة و الكفر و أمثالهما، و النُّور المحسوس كنور الشّمس و نور القمر و نور السّراج و النُّور العقلّي المعنوي كنور العلم و نور الإيمان و نور المعرفة و أمثالهما، فكما أنّ الإنسان في ظلمة اللّيل مثلاً يحتاج الىٰ النُّور كذلك في ظلمة الجهل يحتاج الىٰ نور العلم و في ظلمة الكفر الىٰ نور الإيمان و المعرفة إذا عرفت هذا.

١- الحَشر = ٧ ٢- النَّجم = ٣ / ۴

٣- الأحقاف = ٩

فنقول شبّه اللّه تعالى رسوله بالسّراج المنير الّذي يستضاء به في الظّلمات و تقدير الكلام كالسّراج المنير فالكاف محذوفة من الكلام لظهوره.

و قال بعض المفسّرين تقدير الكلام، أي ذا سِراجٍ منير، أي كتابٌ منير قاله القرطبي في تفسيره و هو كلام باطل أمّا أوّل فلأنّ الأصل عدم التّقدير.

ثانياً: أنّ اللّه تعالىٰ ذكر في هذه الآية أوصاف الرّسول فعُبّر عنه بالسّراج لا عن الكتاب و لو كان الأمر كما ذكره القُرطبي لقال و كتابا منيرً.

و الحقّ أنّ الكلام خرج مخرج الإستعارة و انّما حذفت الكاف للمبالغة في التّشبيه كما في قوله زيد أسد فأنّ التّقدير زيدٌ كالأسد إذ من المعلوم أنّه ليس نفس الأسد أعني به الحيوان المفترس فأنّ الإنسان لا يكون حيواناً مفترساً بل هو حيوان ناطق و إنّما هو كالأسد في الشّجاعة و إنّما حذفت الكاف و حمل الأسد علىٰ زيد للدّلالة علىٰ أنّ زيداً في الشّجاعة كأنّه نفس الأسد إدّعاءً نحو زيد عدلٌ أي أنّه لشدّة عدله صار نفس العدل إدّعاءً، و علىٰ هذا.

فقوله تعالىٰ: **سِرَاجًا مُّنِيرًا**، معناه أنّ الرّسول لِشدّة نورانيّته كأنّه نفس السّراج و فائدة حذف الكاف في هذه الموارد هو أنّ المشبّه به ليس أقوىٰ من المشبّه بل هو هو بعينه إدّعاءً، و أمّا إذا كان حرف التّشبيه مذكوراً في الكلام فالقاعدة تقتضي كون المشبّه به أقوىٰ من المشبّه و اللّه تعالىٰ لم يرد ذلك فأنّ النُّور الحسّي لا يكون أقوىٰ من النُّور العقلي بل الأمر بالعكس و هذا هو السِّر في حذف الكاف واللّه أعلم و أنّما وصف السّراج بكونه منيراً، لأنّه من السِّراج ما لا يضيء كما إذا قل تسليطه و دقَّت فتيلته و هذه الأوصاف السَّبعة الّتي أثبَتها اللّه لنبيّه من أحسن الأوصاف و الحقّ أنّ الرّسول ﷺ كان كذلك جزاه اللّه تعالىٰ عنّا و عن الإسلام خير الجزاء فأنّه تعالى بسببه أخرجنا من الظُّلمات إلىٰ النُّور و من الضّلال إلى الهدىٰ.

وَ بَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا

أمر اللّه نبيّه أن يبّشر المؤمنين باللّه و رسوله و اليوم الأخر بأنّ لهم من اللّه فضلاً كبيراً، و قد بيّن اللّه تعالى الفضل الكبير.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ فِي رَوْضٰاتِ ٱلْجَنّٰاتِ لَهُمْ مٰا يَشٰآؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ**(١).

قال اللّه تعالىٰ في موضعٍ أخر **وَ مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ بِإِذْنِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ**(٢).

فأنّ قوله: **لَهُمْ مٰا يَشٰآؤُنَ عِنْدَ رَبِّهِمْ** و قوله: **مِنْهُمْ سٰابِقٌ بِالْخَيْرٰاتِ**، لا فضل فوقه و لا غرو فيه فأنّ اللّه تعالى ذو الفضل العظيم و قد ثبت عقلاً أنّ الهدايا على مقدار مهديها ثمّ بعد أمره تعالى لنبيّه أن يبَّشر المؤمنين نهاه عن إطاعة الكفّار و المنافقين.

وَ لٰا تُطِعِ ٱلْكٰافِرِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ دَعْ أَذٰيهُمْ وَ تَوَكَّلْ عَلَى ٱللّٰهِ وَكَفٰى بِاللّٰهِ وَكِيلاً

نهى اللّه نبيّه عن طاعة الكفّار الجاحدين للّه و المنكرين لنبوته فقال و لا تطع الكافرين المتظاهرين بالكفر، و لا المنافقين الّذين يظهرون الإسلام و يبطنون الكفرتساعدهم على ما يريدونه، قيل المراد بالكفّار أبو سفيان و عكرمة بن أبي جهل و أبو الأعور السّلمي و بالمنافقين عبد اللّه بن أبيّ و عبد اللّه بن سعد و طعمة بن أبيرق أمّا الكفّار فقالوا لرسول اللّه يا محمّد لا تذكر ألهتنا بسوء نتَّبعك و أمّا المنافقون فقد حثوا النّبي على إجابة الكفّار و قالوا أنّ المصلحة في الإجابة ثمّ قال تعالى لنبيّه، ودع أذاهم، أي أعرض عن أذاهم و ذرهم في خوضهم يلعبون و توّكل على اللّه في جميع أمورك و كفى باللّه وكيلاً أي أنّ اللّه تعالى يكفيك و لا حاجة إلى غيره فأنّ من يتَّوكل على اللّه فهو

١- الشّورىٰ = ٢٢ ٢- فاطر = ٣٢

حسبه و هو على كلّ شيءٍ قدير و القادر المطلق لا يحتاج في إنفاذ أمره إلى غيره لأنّ الأحتياج نقص و هو تعالى منّزه عنه فمن توكّل على اللّه توكّل على القدرة التّي لا زوال لها و هو ظاهرٌ.

يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَ سَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا

خاطب اللّه المؤمنين في هذه الآية و قال إذا نكحتم المؤمنات، نكاحاً صحيحاً ثمّ طلّقتموهنّ من قبل أن تمسّوهنّ أي من قبل أن تدخلوا بهنّ بالجماع فما لكم أي ليس لكم عليهنّ أي على المطلّقات كذلك عدّة فيجوز للمطلّقة كذلك أي قبل الدّخول أن تتّزوج بغيره في الحال بأن إختارت زوجاً غيره ثمّ أمر المؤمنين بأن يمتعوهنّ و يسرحوهنّ سراحاً جميلاً أي يرسلونهنّ إلى بيت أهلهنّ و هذه المتّعة واجبة أن كان الزّوج لم يسّم لها مهراً و أمّا إن كان سمّى لها مهراً قلّ أو كثر ألزمه نصف المهر و يستحب المتعة مع ذلك بأن زاد على نصف المهر مثلاً أو أعطاها شيئاً أخر و المقصود إرسالها إلى بيت أهلها على الوجه الجميل.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال أن كان سمّى لها صداقاً فليس لها إلاّ نصف المهر و أن لم يكن سمّى لها صداقاً متّعها على قدر عسره أو يسره و هو السّراح الجميل و حكي عنه أيضاً أنّ هذه الآية منسوخة بإيجاب المهر المذكور في البقرة و هو قوله تعالى:

وَ إِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَ قَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ(١).

١- البقرة = ٢٣٧

و بهذا القول قال سعيد بن مسّيب أيضاً و قال البلخي القول بالنّسخ لا يصحّ لأنّ الآية الأولى تضّمنت حكم من لم يدخل بها و لم يسمّ مهراً إذا طلّقها و هذه الآية في سورة البقرة تضّمنت حكم التّي فرض لها صداق إذا طلّقت قبل الدّخول و أحد الحُكمين غير الأخر.

أقول ما ذكره البلخي حقّ لا مرية فيه و ذلك لأنّ قوله تعالىٰ: **إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ** يدلّ على أصل النّكاح و أنّه وقع بينهما و سكتت الآية عن فرض الصّادق و تعيينه و هذا بخلاف الآية المذكورة في البقرة فأنّها مصّرحة بفرض الصّداق فالحكم في إحدى الأيتين غيره في الآية الأخرى و على هذا فالنّسخ لا معنى له.

قال بعض المحقّقين في هذه الأية، النّكاح في قوله: **إِذَا نَكَحْتُمُ** هنا عبارة عن العقد فقط و المراد بالمّس الجماع قبلاً أو دبراً، و تعتدونها أي تستوفون عددها و السّراح هنا إخراجها من المنزل، و الجميل صنيع المعروف معها و ما تضّمنته العدّة في هذه الحال إنتهى كلامه.

تنبية

قد يفهم من المؤمنات في الآية أنّ أزواج الكافرات ليس الحكم فيهنّ كذلك و ظاهر الرّوايات و باقي الأيات أنّ الحكم في المؤمنات و غير المؤمنات واحد و هو المشهور بين الأصحاب بل قيل أنّه موضع وفاقٍ فلا يكون هذا المفهوم معتبراً و في قوله تعالىٰ: **ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ**، إشارة إلى أنّه لا طلاق قبل النّكاح فأن كلمة، ثمّ، تفيد التّأخير أي تأخير الطّلاق عن النّكاح ولو بلحظةٍ، فلو قال رجل لإمرأةٍ أن تزّوجتك فأنت طالق، لم يقع الطّلاق و قالت طائفة من علماء العامّة أنّ طلاق المعيّنة الشّخص، أو القبيلة أو البلد لازم قبل النّكاح منهم مالك و جميع أصحابه و جمعٌ عظيم من علماء الأمّة نقله القرطبي في تفسيره و قد صدق في نقله لأنّه أي القرطبي من أتباع مالك في

مذهبه و أهل البيت أدرى بما في البيت، ولكن في مذهب الشّيعة الأثنىٰ عشريّة لا يقع هذا الطّلاق إجماعاً.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

قيل أي أحللنا لك أزواجك اللاّتي عندك بالفعل عند نزول الآية و قيل المعنى أحللنا لك ما تزوّجت و ما شئت أن تتزوج من النّساء في المستقبل و هذا هو الحقّ في معنى الآية و يدلّ عليه ما رواه في الكافي في الصّحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: **سألتُه عن قول الله عزّ وجلّ: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ قلتُ كَم أحَلَّ الله له من النّساء قال عليه السلام ماشاء من شئ إنتهىٰ.**

و قوله: **آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ**، الأجور هي المهور لأنّ المهر أجر البضع و المراد بإيتاء الاجور مايشمل الأداء عاجلاً و ما إلتزم به أجلاً و ليس المراد إيتائها عاجلاً فقط، و قيل المراد به الأوّل خاصّة أي الإيتاء عاجلاً و إطلاق الآية يشمل الوجهين اللّهم إلاّ ان يقال أنّ قوله: **آتَيْتَ**، بلفظ الماضي ظاهرٌ في المعنى الأوّل إذ من إلتزم بالأداء آجلاً لا يقال له أنّه أعطى المهر.

أنا أقول أمّا في غير النّبي فلا خلاف أنّ الحليّة لا تتوقف على الإيتاء فعلاً فأن الإلتزام بإعطاء المهر في الأجل مع رضاية الزّوجة به يكفي نعم لو طالبته الزّوجة يجب على الزّوج إعطائه إيّاها و على هذا إستمرت السّيرة في الماضي و الحال.

و أمّا في أزواج النّبي فأن دلَّ دليلٌ على وجوب الإيتاء بالفعل و قلنا بأنّ حليّة الأزواج له ﷺ تتَّوقف عليه كما هو ظاهر الآية فلا كلام لأحدٍ فيه و إلاّ فالحكم على عمومه و لم نجد دليلاً يدلّ عليه و يجعله من مختّصات النّبي و كيف كان فالأمر سهل و على هذا فتقييد الحليّة به ليس لتَّوقف الحلّ عليه بل لبيان أنّ دفعه أمام الدّخول أفضل و يؤيّده أنّه المتعارف عند السَّلف فالحكم على عمومه.

و قوله: **وَ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ** فالواو للعطف أي و أحللنا لك أيضاً ما ملكت يمينك حال كونه ممّا أفاء اللّه عليك، من شيءٍ و الّذي أرجعه اللّه عليك من الغنائم و الأنفال و من مالٍ تشتري به جارية و يجوز أن يكون المراد بما أفاء اللّه القسمين الأولّين و يكون إستفادة مطلق المملوكة من دليلٍ آخر و من طريق الأولويّة و قد نقل أنّ مارية أمّ إبراهيم كانت من الغنائم و صفيّة و جويريّة من الأنفال أعتقهما رسول اللّه و تزوّجهما **وَ بَنَاتِ عَمِّكَ وَ بَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَ بَنَاتِ خَالِكَ وَ بَنَاتِ خَالَاتِكَ** يجوز أن يُراد به الخُّواص الّذين هم يرثهم و يرثونه، و يجوز أن يراد بالأوّل أي بنات العَّم و العّمات مطلق قريش و بالثّاني أي بنات الخال و الخالات مطلق بني زهرة من أقرباء أمّه ﷺ و على أيّ تقدير التّنصيص على ذلك لا يستلزم تحريم الغير عليه ﷺ بل لبيان أنّ التّزويج فيهم أفضل لصلة الرّحم و القرابة و كذا التّقييد بالمهاجرة في قوله: **ٱلَّٰتِي هَٰاجَرْنَ مَعَكَ** فأنّ التّزويج بالمهاجرة منهُّن أفضل من غيرها لقدم عهدها في الإسلام و الظّاهر أنّ القيود الثّلاثة في الآية للتوضيح لا للتّخصيص فأنّ دليل الخطاب ليس بحجّةٍ **وَ ٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ** أي و أحللنا لك أيضاً إمرأة مؤمنة إن وهبت فقوله، إن وهبت شرطٌ، و جزائه محذوف أي أحللناها.

و قوله: **خَالِصَةً** نصب على الحال و الهاء للمبالغة أو صفة لمصدر أي هبة خالصة لا يشاركك فيها أحد فالآية دالّة على أنّ هبة المرأة نفسها من خواصّه صلى الله عليه و آله و سلم و المراد بالهبة أنّه يستحل البضع و الوطي بدون إستحقاق المهر أي أنّها لا يجب لها مهرٌ بعد الدّخول كما لم يذكر في العقد و الأخبار الدالّة على أنّ هبة المرأة نفسها مختصّة به صلى الله عليه و آله و سلم كثيرة و بعد نصّ الآية لا نحتاج الى نقلها و لا سيّما قوله: **خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ** صريحة في عدم جواز ذلك لغيره صلى الله عليه و آله و سلم فما قاله بعض العامّة من إشتراك الأمّة له صلى الله عليه و آله و سلم في هذا الحكم لا معنى له.

و قوله: **قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ** و المعنى قد علمنا ما فرضنا و أوجبنا عليهم أي على المؤمنين في أزواجهم و هو أن لا يتزوجوا إلاّ أربع نسوة بمهرٍ و بيّنةٍ و وليٍ قاله أبّي إبن كعب و قتادة و قيل معناه أي لا نكاح إلاّ بوليٍ و شاهدين و صداق و قال قوم **مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ**، من النّفقة و القسمة و غير ذلك نقله الشّيخ في التّبيان عن العامّة ثمّ قال قدس سره و عندنا أنّ الشّاهدين ليسا من شرط صحّة العقد و لا الولّي إذا كانت المرأة بالغة رشيدة لأنّها وليّة نفسها و المعنى على مذهبنا أنّه قد علمنا ما فرضنا على الأزواج من مهرهّن و نفقتّهن و غير ذلك من الحقوق مع **وَ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ** يعني بيّنا حكم ملك اليمين في غير النّبي و تفصيل الكلام مقرّر في الكتب الفقهية.

و قوله تعالى: **لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا** أي بيّنا هذا البيان و شرحنا هذا الشّرح في الأزواج لكي لا يكون عليك ضيقٌ في أمرٍ تحتاج إليه من السّعة، و بعبارةٍ أخرىٰ قد و سّعنا لك في أمر الأزواج بما هو مختصّ بك **وَ كَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا**، أي كان اللّه ساتر الذّنب على المسيئين رحيماً و منعماً عليهم.

تُرْجِي مَنْ تَشٰآءُ مِنْهُنَّ وَ تُـٔوِيٓ إِلَيْكَ مَنْ تَشٰآءُ وَ مَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلا جُنٰاحَ عَلَيْكَ ذٰلِكَ أَدْنىٰٓ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمٰآ اٰتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ ٱللّٰهُ يَعْلَمُ مٰا فِي قُلُوبِكُمْ وَكٰانَ ٱللّٰهُ عَلِيمًا حَلِيمًا

قوله: **تُرْجِي مَنْ تَشٰآءُ**، قرئ مهموزاً و غير مهموزٍ و هما لغتان و المعنى فيهما واحد يقال أرجيت الأمر و أرجأته إذا أخرّته وَ **تُـٔوِيٓ** بضم التّاء يقال أوى إليه ممدود الألف، ضمَّ إليه، و أوى مقصورة الألف، إنضّم إليه ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في تفسير الآية و تأويلها.

قال الطّبري إختلف أهل التّأويل في قوله: **تُرْجِي مَنْ تَشٰآءُ** و **وَ تُـٔوِيٓ إِلَيْكَ مَنْ تَشٰآءُ**، فقال بعضهم عنى بقوله: **تُرْجِي**، تؤخّر وبقوله: **وَ تُـٔوِيٓ**، تضُّم و نسب هذا القول إلىٰ إبن عبّاس فانّه قال ترجى أي تؤخّر و نقل عن مجاهد أنّه قال: **تُرْجِي مَنْ تَشٰآءُ** منهنّ أي تعزل بغير طلاقٍ من أزواجك من تشاء وتؤوي إليك من تشاء معناه تردّها إليك.

و قال قتادة معناه جعله اللّه في حلٍّ من ذلك أن يدع من يشاء منهنّ و يأتي من يشاء منهنّ بغير قسم و كان نبّي اللّه يقسم.

ثمّ نقل بأسناده عن أبي رزين في قوله: ترجى و تؤوي، أنّه قال لمّا أشفقن أن يطلّقهن قلن يانبّي اللّه إجعل لنا من مالك و نفسك ما شئت فكان ممّن أرجأ منهنّ سودة بنت زمعة و جويريّة و صفيّة و أمّ حبيبة و ميمونة و كان ممّن أوى إليه عائشة و أمّ سلمة و حفصة و زينب.

و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال في قوله: **تُرْجِي مَنْ تَشٰآءُ**، منهنّ أمّهات المؤمنين **وَ تُـٔوِيٓ إِلَيْكَ مَنْ تَشٰآءُ**، يعني نساء النّبي و يعني بالإرجاء، يقول من شئت خلّيت سبيله منهنّ و يعني بالأيواء يقول من أحببت منهنّ و قال أخرون بل معنى ذلك تترك نكاح من شئت و تنكح من شئت من نساء أمّتك ثمّ أطال الكلام في الباب بنقل الأخبار و الأقوال و من أراد الوقوف عليها فعليه بمراجعة كتابه.

و قال القرطبي بعد قوله إختلف العلماء في تأويل هذه الآية ما هذا لفظه:

و أصّح ما قيل فيها التّوسعة على النّبي صلى الله عليه وآله وسلم في ترك القسم فكان لا يجب عليه القسم بين زوجاته و هذا القول هو الّذي يناسب ما مضى و هو الّذي ثبت معناه في الصّحيح عن عائشة رضي اللّه عنها قالت كنت أغار على اللاّئي و هبن أنفسهنّ لرسول اللّه.

أقول أو تهب المرأة نفسها للرّجل فلمّا أنزل اللّه تعالى: **تُرْجِي مَنْ تَشَآءُ** منهنّ إلى قوله: **مِمَّنْ عَزَلْتَ**، قالت قلت و اللّه ما أرى ربّك إلاّ يسارع في هواك.

قال إبن العربي هذا القول ثبت في الصّحيح و هو الّذي ينبغي أن يقول عليه و المعنى المراد هو أنّ النّبي كان مخيّراً في أزواجه إن شاء أن يقسم قسم و إن شاء أن يترك القسم فترك فخصّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن جعل الأمر إليه فيه إنتهى ما أردنا نقله عنه و قد أطالوا الكلام في تفاسيرهم في الباب.

و نقل الشّيخ قدس سره في التّبيان عن زيد بن أسلم أنّه قال نزلت الآية في اللاّئي وهبن أنفسهنّ فقال اللّه له تزّوج من شئت منهنّ و أترك من شئت و هو إختيار الطّبري و هو أليق بما تقدّم إنتهى كلامه.

أنا أقول لا يستفاد من الآية أنّها نزلت في اللاّئي وهبن أنفسهنّ فقط بل المستفاد منها معنى العامّ الشّامل لما وهبن أنفسهنّ و غيرهنّ من الأزواج فالمعنى أنّ اللّه تعالى جعل الخيار للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم في أمر الأزواج كلهن كما جعل اللّه لهنّ الخيار في زمن الّذي أنف اللّه تعالى له حين قلنّ له تلك المقالة التّي مرّ ذكرها و هو أنّ كلّ واحدةٍ منهنّ طلبت منه صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً فسألت أمّ سلمة ستراً معلّقاً و سألت ميمونة حلّة و هكذا و قد مرّ الكلام فيه عند تفسير قوله تعالى:

يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا[1].

١- الأحزاب = ٢٨

و نقلنا أقوال الأزواج و مطالباتهنّ من الرَّسول، فخيَّرهنّ بين البقاء على الزَّوجية و تركه بقوله: **فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَ أُسَرِّحْكُنَّ**(١) فلمّا خيَّرهن هناك خيَّر النّبي في المقام فالحكم في الأيتين مختلف فقوله تعالى: **تُرْجِي**، مهموزاً، و غير مهموزٍ التّأخير و المراد به في المقام المفارقة إمّا بالطّلاق أو بأيّ لفظٍ يدلّ عليه و يكون من خواصّه صلى الله عليه و آله و سلم و المراد بالإيواء ضمَّها إليه و نكاحها.

فقد روي في الكافي في الصّحيح عن الحَلبي عن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال من أوىٰ فقد نكح و من أرجىٰ فَلَم يَنكح الحديث.

و نقل هذا المتن في مجمع البيان عن الباقر عليه السلام و الصّادق عليه السلام و أمّا ما ذهب إليه الشّيخ و غيره و إختاره الطّبري من أنّ الآية نزلت في اللاّئي وهبن أنفسهنّ دون جميع الأزواج فلا دليل عليه فأنّ التّخصيص يحتاج إلى دليلٍ و قول الشّيخ قدس سره و هو أليق بما تقدّم لا أعرف مراده من هذا الكلام و لعلَّه أراد بما تقدّم قوله تعالىٰ: **وَ ٱمْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ**(٢) فرغنا عن تفسيرها أنفاً.

ففيه أنّ الواهبة واحدة و أعقبها تعالى بضمير المفرد و قال إن وهبت نفسها، و أمّا في المقام فعبَّر بلفظ الجمع فقال ترجى من تشاء منهنّ و هو من أظهر الدّلائل على أنّ المراد بقوله منهنّ جميع الأزواج فحمل الكلام على خصوص من وهبت نفسها لا دليل عليه و محصّل الكلام أنّ اللّه تعالى خيَّر نبيّه بين الإمساك و المفارقة في كلّ واحدةٍ منهنّ و اللّه أعلم.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ مَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ**، فكَلمة مَن، شرطيّة و مِمّن، بيان لها و جملة فلا جناح جوابه، حاصل المعنى أنّه لا جناح عليك في إيواء المعزولة المسترحة من نسائك بل لك إرجاعها وضمَّها إليك أيَّ وقتٍ شئت و لا يتّعين عليك إرجائها.

١- الاحزاب = ٢٨
٢- الاحزاب = ٥٠

و قوله: **ذٰلِكَ أَدْنىٰ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَ لا يَحْزَنَّ وَ يَرْضَيْنَ بِمآ آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَ اللّٰهُ يَعْلَمُ ما في قُلُوبِكُمْ وَ كانَ اللّٰهُ عَليمًا حَليمًا**، فذلك إشارة إلى التَّخيير بين الأمرين و أنّه أقرب إلى أن قرّت أعينهنّ و رضاهنّ و عدم حزنهنّ لأنّه حكمٌ يتساوين كلهنّ فيه فأن ساويت بينهنّ عرفنّ أنّ ذلك تفضّلٌ منك و مجّرد إحسانٍ و أن أرجيت بعضهنّ علمن أنه بحكم اللّه فلا يحزنَّ، و قيل معناه أنّهن إذا علمن أنّ له صلى الله عليه وآله وسلم ردهنّ إلى فراشه بعد ما إعتزلهنّ قرّت أعينهنّ و لم يحزنَّ و يرضين بما يفعله صلى الله عليه وآله وسلم من التّسوية و التّفضيل لأنّهنّ يعلمن أنّه لم يطّلقهن، و قيل أنّ الاشارة إلى نزول الرُّخصة منه سبحانه أقّر لعيونهنّ و أدنى إلى رضاهنّ لعلمهنّ بما لهنّ من الأجر و الثّواب في طاعة اللّه و لو كان ذلك من قبلك لحزنَّ و حملن ذلك إلى ميلك إلى بعضهنّ.

و قيل أنّ الإشارة إلى المعزولات و اللّه يعلم ما في قلوبكم من الرّضا و السّخط و الميل إلى بعض النّساء دون بعضٍ و كان اللّه عليماً بمصالح عباده حليماً في ترك معاجلتهم بالعقوبة و اللّه أعلم.

لا يَحِلُّ لَكَ النِّسآءُ مِنْ بَعْدُ وَ لآ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْواجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا ما مَلَكَتْ يَمينُكَ وَ كانَ اللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقيبًا

هذه الآية أيضاً معركة الأراء بين المفسّرين فمنهم من قال لا يحلّ لك النّساء من بعد، أي بعد التّسع اللاّئي كنّ عنده صلى الله عليه وآله وسلم و إخترنه مكافأةً لهنّ على إختيارهنّ اللّه و رسوله قاله إبن عبّاس و الحسن، و قال أبّي بن كعب لا يحلّ لك من بعد أي حرم عليك ما عدا اللّوائي ذكرن بالتّحليل في (إنّا أحللنا لك...) و هنّ ستّ أجناس النّساء اللاّئي هاجرن معك و إعطائهنّ مهورهنّ وبنات عمّه و بنات عّماته و بنات خاله و بنات خالاته اللاّئي هاجرن معه، و من وهبت نفسها بجميع ما شاء من العدد و لا يحلّ له غيرهنّ من النّساء.

و قال مجاهد، لا يحلّ لك من النّساء من أهل الكتاب و يحلّ لك المسلمات ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال القرطبي أنّ هذه الآية منسوخة بالسنّة و النّاسخ لها حديث عائشة قالت و ما مات رسول اللّه حتّى أحلّ له النّساء، و قيل أنّها منسوخة بأيةٍ أخرى.

روى الطّحاوي عن أمّ سلمة قالت لم يمت رسول اللّه حتّى أحلّ اللّه له من يتّزوج من النّساء من شاء، إلاّ ذات محرم و ذلك قوله تعالى: **تُرْجِي مَنْ تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَ تُـْوِيٓ إِلَيْكَ مَنْ تَشَآءُ**.

أقول ما ذكروه في قوله: **لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنْ بَعْدُ** لا يرجع إلىٰ محصلٍ و لا يعتمد عليه و الحقّ أنّ الآية غير منسوخة و النّبي صلى الله عليه وآله وسلم كغيره من أحاد الأمّة في هذا الحكم أعني به حرمة النّساء اللاّتي حرّمهن عليه فليس في هذه الآية ما يخصّه صلى الله عليه وآله وسلم و توضيح ذلك هو أنّ اللّه تعالى قال:

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالَاتُكُمْ وَ بَنَاتُ ٱلْأَخِ وَ بَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَ أُمَّهَاتُكُمُ ٱللَّاتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَ أَخَوَاتُكُم مِنَ ٱلرَّضَاعَةِ وَ أُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَ رَبَآئِبُكُمُ ٱللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَآئِكُمُ ٱللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَ حَلَآئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَ أَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا[١].

و قد فسّرنا الآية هناك مفصّلاً و الغرض من ذكرها في المقام هو أنّ اللّه تعالى فصلّ في هذه الآية المحرمّات في النّكاح و لا فرق بين النّبي و غيره في حرمة النّكاح فيما فصلّ و بيّن في الآية و بعبارةٍ أخرى المراد بالنّساء في قوله تعالى: **لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنْ بَعْدُ** ليس مطلق النّساء بل المراد النّساء المذكورات في أية التّحريم و عليه فاللاّم للعهد الذّكري و قوله: **مِنْ بَعْدُ** أي من بعد أن بيَّن اللّه ذلك و شرحه و يكون الغرض من التّكرار التّأكيد لما إشتهر عند

١- النّساء = ٢٣

الجاهليّة من إباحة ذلك كما هو معلوم للمتتبّع لأثار السّلف و يدلّ على ما ذكرناه ما رواه في الكافي في الصّحيح عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال:

سألته عن قول الله عزّ وجلّ: لَا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنْ بَعْدُ قال عليه السلام أنّما عنى بالنّساء اللاّئي حرّم عليه في هذه الأية، حرّمت عليكم أمّهاتكم الأية، ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحلّ لكم ما لم يحلّ له صلى الله عليه وآله وسلم أنّ أحدكم يستبدل كلّما أراد ولكن ليس الأمر كما تقولون أنّ الله عزّ وجلّ أحلّ لنبيّه ما أراد من النّساء إلاّ ما حرّم عليه في هذه الآية الّتي في النّساء إنتهى.

و في الكافي بأسناده عن أبي بكر الحضرمي عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عزّ وجلّ لا يحلّ لك النّساء من بعد، فقال عليه السلام عنى به لا يحلّ لك النّساء الّتي حرّم الله عليك في هذه الآية حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَ بَنَاتُكُمْ وَ أَخَوَاتُكُمْ وَ عَمَّاتُكُمْ وَ خَالاَتُكُمْ إلىٰ أخرها، ولو كان الأمر كما يقولون كان قد أحَلّ لكم ما لم يحلّ له صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ أحدكم ليستبدل كلّما أراد و لكنّ الأمر ليس كما يقولون أنّ الله عزّ وجلّ أحلّ لنبيّه أن ينكح من النّساء ما أراد إلاّ ما حرّم في هذه الآية في سورة النّساء إنتهى.

و قد روى في تفسير نور الثّقلين عدّة أحاديث بهذه المضامين و قد روي عن أبي بصير عن أبي عبد الله مثل ما ذكرناه و زاد فيه و لو كان الأمر كما تقولون أحاديث أل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم خلاف أحاديث النّاس و بذلك قد ظهر لك معنى قوله: **وَ لَآ أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَ لَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ** أي حسن ما حرّمه الله عليك في الآية المذكورة و ذلك لأنّ التبدّيل فرعٌ على الجواز فإذا كان النّكاح حراما فالتبدّيل بما حرّمه الله أيضاً حرام فالمعنى لا يحلّ لك أن تجعل ما حرّم من النّساء بدلاً من زوجةٍ محللّةٍ لك، فمن الجارّة متعلّقة بتبدّل و

على هذا فقوله: **إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ** كلمة إلاّ ليست للإستثناء بل هي عاطفة أي لا تجعل شيئاً من النّساء المحرّمات بدلاً عن جارية نكحتها بملك اليمين و على ما ذكرناه من البيان المدلول عليه من الأخبار ليس في هذه الآية ما يخصّه صلى الله عليه و آله و سلم.

و قوله: **وَ كَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا**. فالرّقيب الحفيظ و من المعلوم أنّه تعالى كذلك.

يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَ لَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ وَ إِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ وَ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللَّهِ وَ لَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا

قال بعض المفسّرين هذه الآية تضمّنت قصّتين:

إحدايهما: الأدب في أمر الطّعام و الجلوس.

الثّانية: أمر الحجاب.

فأمّا القصّة الأولى فالجمهور من المفسّرين علىٰ أنّ سببها أنّ رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم لمّا تزوّج زينب بنت جحش إمرأة زيد، أولم عليها فدعا النّاس فلمّا طعموا جلس طوائف منهم يتحدّثون في بيت رسول اللّه و زوجته مولّية وجهها إلى الحائط فثقلوا على رسول اللّه صلى الله عليه و آله و سلم قال أنس فما أدري أنا أخبرت النّبي أنّ القوم قد خرجوا أو أخبرني قال فإنطلق حتّى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى السّتر بيني و بينه و نزل الحجاب و قال و وعظ القوم بما وعظوا به و أنزل اللّه: **يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ** إلىٰ قوله **إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا**.

و قال قتادة و مقاتل أنّ هذا السبّب جرى في بيت أُمّ سلمة، و قال إبن عبّاس نزلت في ناسٍ من المؤمنين كانوا يتحيّنون طعام النّبي فيدخلون قبل أن يدرك الطّعام فيقعدون إلىٰ أن يدرك ثمّ يأكلون و لا يخرجون، و قيل هذا أدبٌ أدب اللّه به الثّقلاء.

أمّا قصّة الحجاب فقال أنس سببها أمر القعود في بيت زينب و قد نقلناها.

و قالت عائشة و جماعة سببها أنّ عمر قال قلت يارسول اللّه أنّ نسائك يدخل عليهنّ البّر و الفاجر فلو أمرت أن يحجبن فنزلت الأية.

و روي عن إبن عمر أنّه قال قال عمر وافقت ربّي في ثلاث، في مقام إبراهيم، و في الحجاب و في أسارى بدر هذا أصحّ ما قيل في أية الحجاب و ما عدا هذين القولين من الأقوال و الرّوايات فوّاهية لا يقوم شئ منها علىٰ ساقٍ و أضعفها ما روى إبن مسعود أنّ عمر أمر نساء النّبي بالحجاب فقالت زينب بنت جحش يا بن الخطّاب أنّك تغار علينا و الوحي ينزل في بيوتنا فأنزل اللّه تعالىٰ: **وَ إِذٰا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتٰاعًا فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰآءِ حِجٰابٍ** و هذا باطل لأنّ الحجاب نزل يوم البناء بزينب كما بيّناه أخرجه البخاري و مسلم و التّرمذي و غيرهم و قيل أنّ رسول اللّه كان يطعم و معه.

أصحابه فأصاب يد رجلٍ منهم يد عائشة فكره النّبي ﷺ فنزلت آية الحجاب، و قال إبن عطّية و كانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يبكر من شاء الىٰ الدّعوة ينتظرون طبخ الطّعام و نضجه و كذلك إذا فرغوا منه جلسوا كذلك فنهى اللّه المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النّبي ﷺ و دخل في النّهي سائر المؤمنين و إلتزم النّاس أدب اللّه في ذلك فمنعهم من الدَّخول إلاّ بإذنه عند الأكل لا قبله لأنتظار نضج الطّعام هذا ما ذكره القرطّبي في تفسيره و أنمّا نقلناه بطوله لتعلم أنّهم كيف يلعبون بكلام اللّه فينزلون آية الحجاب بموافقة عمر إبن الخطاب و كذا مقام إبراهيم و أسارى بدر و قد غفلوا عن قول رسول اللّه ﷺ من لا حياء له لا دين له و مستندهم في نقل

هذه الأكاذيب و الإفتراءات كتاب البخاري و مسلم و غيرهما من الكتب الّتي سمّوها بالصّحاح مع أنّ أكثر الأخبار الّتي دونّوها فيها عن أبي هريرة الدوّسي و أبي موسىٰ الأشعري و أنس بن مالك و أمثالهم من الكذّابين الوضّاعين الّذين كانوا مأمورين بوضع الحديث في صدر الإسلام فتارةً يقول البخاري في كتابه أنّ النّبي كان يبول قائماً بعض الأوقات و تارةً يقول أنّ جبرئيل قال للنّبي أنّ اللّه تعالىٰ يقرأ عائشة السّلام من جانب الحقّ و يقول إقرأ عائشة منّي السّلام و هكذا و لولا أنّ نقل هذه الأراجيف من قبيل إشاعة الفحشاء لنقلنا منها لك ما يعجبك من هذه الموهومات الموضوعات ما نقله القرطّبي في تفسير هذه الآية نقلاً عن عمر أنّه قال وافقت ربّي في ثلاث و قد مرَّ ذكره، و لم يعلم أنّ الأيات القرآنيّة لا يفسّر بهذه الأباطيل الّتي وضعوها لعمر و أبى بكر و عثمان و غيرهم حتّىٰ معاوية بن أبي سفيان.

و من كان عمر حتّىٰ وافقه ربّه واللّه تعالىٰ جعل أديانه و أحكامه على وفق المصلحة الّتي رآها فيها و لم يوافق فيها أحدٌ من خلقه من أنبياءه فضلاً عن عمر و أبىبكر و كيف لا يستحقّ من يدّعي الإسلام أن يقول أنّ عمر قال قلت يا رسول اللّه أنّ نساءك يدخل عليهنّ البرّ و الفاجر فلو أمرت أن يحجبين فنزلت الآية.

و لقائل أن يقول لو كانت المصلحة في الحجاب فلم لم ينزل اللّه الآية قبل قول عمر، و أن كانت المصلحة في تركه فكيف نزلت الآية بوجوبه أليس معنى هذا الكلام أنّ عمر كان أعلم من اللّه و أعرف بالمصالح و المفاسد منه و بعبارةٍ أخرى مسألة الحجاب لا تخلوا من أمرين:

أحدهما: أنّ الحجاب للنّساء أحسن من عدمه ففي وجوده مصلحة و ما كان في وجوده مصلحة فلا محالة في تركه مفسدة إذ الأمر دائرٌ بين النّفي و الإثبات و الحصر عقلّي فأن كانت المصلحة في الحجاب موجودة فلم لم يأمر اللّه به قبل قول عمر أليس هذا من الظُّلم منه تعالىٰ على العباد نعوذ باللّه منه، و أن لم

تكن المصلحة فيه موجودة فتكون المفسدة موجودة إذ الحكم لا يخلوا منهما، و اذا كانت المفسدة في الحجاب موجود فهو حرامٌ قطعاً إذ لانعني بالحرام إلاّ ما فيه مفسدة و اذا كان كذلك فكيف يأمر اللّه بما هو محرّم، اللّهم إلاّ أن يقال أنّ اللّه تعالى ما كان عالماً قبل كلام عمر بوجود المصلحة في الحجاب و عدمها و أنّما علم مصلحة الحجاب بقول عمر فحكم بوجوب الحجاب و هذا معنى قولنا أنّ لازم ما ذكره القرطبي و أمثاله أن يكون عمر أعلم و أعرف من اللّه تعالى و لا يبعد من القرطبي و أمثاله من المعاندين القول به إذا علموا أنّ ذلك يوجب إثبات فضيلةٍ لعمر و أبىبكر كما هو دأبهم و ديدنهم في كثيرٍ من الموارد و لنختم الكلام في هذا المقام فأنّ الكلام يجرّ الكلام و اللّه من وراء القصد.

فنقول أمّا مسألة الحجاب فهي مثل سائر الأحكام من الصّلٰوة و الصّوم و الزّكٰوة و الحجّ و الجهاد و غيرها فأنّ اللّه تعالىٰ جعل هذه الأحكام و كلّف عباده بها على طبق المصلحة الّتي رآها فيها كما أنّه حرّم الزّنا، و شرب الخمر و الرّباء و الكذب و أمثالها على طبق المفسدة الّتي رآها فيها هذا ممّا لا كلام فيه و لم يوافق أحداً في جَعل الأحكام حتّىٰ الأنبياء و الرسّل و من إعتقد في جعل الأحكام غير ما ذكرناه فهو ممّن لم يعرف اللّه و لم يتديّن بدينه و كما ثبت أنّ في جعل الحكم مصلحة أو مفسدة كذلك ثبت في إبلاغه بتوسّط النّبي في زمانٍ خاّص و من الواضح أنّ مقام الجعل غير مقام الإبلاغ لعمل به و لذلك كلّ واحدٍ منها نزل على النّبي في زمانٍ مخصوص به فوجوب الصّلوة على المكلّفين كان مقدّماً علىٰ الصوّم و غيره من الأحكام و هكذا فنزول الأحكام للعمل بها كان تدريجياً لمصلحةٍ إقتضته كما أنّ جعلها كان دفعيّاً في اللّوح المحفوظ لمصلحةٍ كذلك و الحاصل أنّ اللّه تعالىٰ لم يشارك أحداً في جعل الأحكام و لا في نزولها فجعل ما شاء و أراد و أنزل ما جعل، متىٰ شاء و أراد إذا عرفت فلنرجع الىٰ تفسير ألفاظ الأية: **يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ**

ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ الخطاب في الآية للمؤمنين نهاهم اللّه عن دخول بيت النّبي بغير إذنٍ منه و المقصود إذا دعاكم النّبي لأكل الطّعام الىٰ بيته فلا تدخلوا البيت بغير إذن النّبى.

و الحقّ أنّ النّهي في الآية عامّ للنّبي و غيره فأنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم و لذلك نقول لا يجوز لأحدٍ أن يدخل بيت غيره بدون إذنه إلاّ في موارد الضّرورة، نعم هو في بيت النّبي أعظم و أشدّ فأنّ بيته من البيوت الّتي أذن اللّه أن ترفع و يذكر فيها إسمه، ثمّ إستثنى اللّه من ذلك دعوة النّبي أيّاهم لأكل الطّعام ثمّ أنّ الدَّعوة من الرّسول لأكل الطّعام تتصوّر على قسمين: أحدهما أن تكون الدَّعوة الى طعام غير حاضر حين الدّعوة مثل أن يدعوهم في الصّبح لأكل الطّعام في الظُّهر مثلاً.

ثانيهما: أن تكون الدّعوة الىٰ طعامٍ حاضرٍ حين الدّعوة مثل إن يدعوهم في الظّهر للظّهر، ففي الصُّورة الأولى نهى اللّه المؤمنين المدعوّين إن يدخلوا بيت النّبي حين الدّعوة و هو الصّبح و يجلسون في البيت ينتظرون الظُّهر و بلوغ الطّعام أي وقت نضجه، و أمّا الصُّورة الثّانية فلا مانع من دخولهم كما قال:

وَ لَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَ لَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ أي إذا دعيتم الىٰ طعامٍ حاضرٍ فأدخلوا و لكن إذا طعمتم أي أكلتم و شبعتم فأنتشروا أي فأخرجوا من بيت النّبي و تفرّقوا و لا تقيموا فيه تسأتنسوا بطول الحديث و أنّما منعوا من الإستئناس من أجل طول الحديث لأنّ الجلوس يقتضي ذلك و الإستئناس ضدّ الإستيحاش و الأنس ضدّ الوحشة قيل أنّ سيرة القوم في صدر الإسلام كان كذلك أي كانوا يدخلون البيت و ينتظرون طبخ الطّعام و نضجه و بعد الفراغ كان يجلسون و يتحدّثون فنهاهم اللّه عن ذلك و علّله بأنّ فيه إيذاء للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال:

إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَ ٱللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ ٱلْحَقِّ و المعنىٰ أنّ الدُّخول في البيت قبل طبخ الطّعام، و الجلوس بعد الطّعام

كلّ ذلك ممّا يؤذي النّبي فيستحيي النّبي منكم أن يقول لكم أكلتم الغذاء فتفرّقوا و أخرجوا من البيت مثلاً، واللّه تعالىٰ لا يستحي من الحقّ فيقول لكم لا تدخلوا كذلك و لا تفعلوا.

أقول هذا الحكم من أحسن الأداب في المجالس و ينبغي لكلّ مؤمنٍ مراعاته ثمّ بعد ذلك أشار اللّه تعالىٰ الىٰ مسألة الحجاب فقال:

وَ إِذٰا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتٰاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَرٰاءِ حِجٰابٍ ذٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَ قُلُوبِهِنَّ أي إذا سألتم أزواج النّبي شيئاً تحتاجون اليه فأسألوهّن من وراء حجاب و ستر ذلكم أطهر و أطيب و أزكىٰ لقلوبكم و قلوب الأزواج من الميل الىٰ الفجور، و هذا الّذي ذكره اللّه هو في الحقيقة فلسفة الحجاب و علّته لأنّ مارأته العين يميل اليه القلب و اذا مال اليه القلب كاد ان يقع فى الفساد و لنعم ما قيل بالفارسّية:

زدست ديده و دل هر دو فرياد ‌‌ ‌ ‌ ‌ ‌ ‌ كه هر چه ديده بيند دل كند ياد

و لأجل ذلك جَعل اللّه الحجاب للنّساء من الواجبات و لمّا كان المسلمون لم يراعوا هذه القاعدة العقّلية و الشّرعية و تبعوا الكفّار في ذلك في بلادهم وقعوا في مصيبةٍ عظيمة و بليّةٍ فجيعة فنرى في زماننا هذا ما نعوذ باللّه منه **خَسِرَ ٱلدُّنْيا وَ ٱلْاٰخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرانُ ٱلْمُبِينُ**[1].

وَ مٰا كٰانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ ٱللّٰهِ بطول الجلوس عنده و مكالمة نساءه بدون ستر و حجاب.

وَ لاٰ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذٰلِكُمْ كٰانَ عِنْدَ ٱللّٰهِ عَظِيماً أي لا يحلّ لكم أيضاً أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً، و أنمّا قال من بعده ولم يقل من بعد موته لأنّ حرمة نكاح أزواج النّبي لا تختصّ بموته فلو طلّق النّبي زوجته لا يجوز نكاحها أيضاً و الحاصل أنّ نكاح أزواج النّبي لا يحلّ لأحدٍ بعد مفارقته أياهنّ بالموت أو بسبب آخر و هذا الحكم ممّا لم يختلف فيه أحد من

۱- الحجّ = ۱۱

العلماء لدلالة نصّ القرآن عليه و مع ذلك خالفوا فيه اللّه و رسوله كما خالفهما في سائر أحكامها و لنعم ما قال بعض الأجلة ما نهى اللّه عزّ وجلّ من شئٍ إلاّ و قد عصي فيه.

هو من العامّة أنّ رسول اللّه تزوّج إمرأةً من بني عامر بن صعصعة يقال لها سناه و كانت من أجمل أهل زمانها فلمّا نظرت إليها عائشة و حفصة قالتا لتغلبنا هذه علىٰ رسول اللّه بجمالها فقالتا لها لا يرىٰ منك رسول اللّه حرصاً فلمّا دخلت على رسول اللّه تناولها بيده فقالت أعوذ باللّه فإنقبضت يد رسول اللّه عنها فطلّقها وألَحَقها بأهلها و تزوّج رسول اللّه ﷺ إمرأةً من كندة بنت أبي الجون فلمّا مات إبراهيم بن رسول اللّه بن مارية القبطيّة قالت لو كان نبيّاً ما مات إبنه فألحقها رسول اللّه ﷺ بأهلها قبل أن يدخل بها فلمّا قبض ﷺ و ولّى النّاس أبوبكر أتته العامريّة و الكنديّة و خطبتا، فإجتمع أبوبكر و عمر و قالا لهما إختارا إن شئتما الحجاب و إن شئتما الباء فختارتا الباء فتزوّجتا فجزم أحدهما وجنّ الأخر.

أقول لعلّ أبوبكر و عمر إستفادا من الآية الحرمة بعد الدّخول و أمّا قبله فلا و حيث أنّ النّبي لم يدخل بهما فهما خارجان عن جمع الأزواج الّتي لا يحلّ نكاحهنّ و ذلك لإجتهادهما على مسلك أتباعهم فأنّهم يحملون خطايا الخلفاء على إجتهادهم كما قال به أين تيميّه في قصّة مالك بن نويرة و ما فعله خالد بن الوليد بإمرأته ليلة قتله من الزّناء يقول إقتضىٰ إجتهاد أبى‌بكر كذا و اجتهاد خالد كذافباب الإجتهادمفتوح لهم و أيّ بابٍ أوسع منه لستر الخطايا والمعاصى.

و أمّا أنّ الإجتهاد ما معناه و أين موضعه و كيف يحصل للإنسان فلا علم لهم بها، ولو علموا معنى الإجتهاد و لعلموا أنّه إستفراغ الوسع في إستنباط الأحكام الفرعيّة عن أدلّتها التّفصيلية و هذا لا يتصوّر في زمان حضور المعصوم، و أمّا موضعه، فما لا نصّ فيه فأنّ الإجتهاد في مقابل النّص لا معنى له و أيُّ نصٍّ أقوى من نصّ القرأن.

فقوله تعالىٰ: وَ لَآ أَنْ تَنْكِحُوٓا أَزْوٰجَهُ مِنْۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا نصٌ وأيُّ نَصٍ علّق حكم الحُرمة علىٰ صدق الزّوجية و الدّخول و عدمه لا ربط لهما بصدق الزَّوجية فأنّها تتحقّق بمجرّد العقد فيقال هذه زوجة فلان و اذا صدقت الزّوجية ثبتت الحرمة و في مقابل هذا النّص لا يجتهد إلاّ مجنون أو سفيه، و أمّا كيف يحصل الإجتهاد فنقول:

الإجتهاد لا يحتاج إلى التّعليم و التعلّم و إستفراغ الوسع و أمثال ذلك على مسلك هؤلاء القوم بل المجتهد عندهم، من صرَّح إبن تيميّة و القرطبي و الزّمخشري و الرّازي و أمثالهم بإجتهاده و إلاّ فأبوبكر و عمر و عثمان و معاوية و طلحة و الزّبير وأمثالهم كيف صاروا مجتهدين وكانوا لا يعلمون الجرّ من البّر.

ثمّ قال تعالىٰ: إِنَّ ذٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ذلكم إشارة إلى جميع ما ذكره اللّه تعالىٰ في الآية من أداب الجلوس عند النّبي و مكالمة نساءه و حرمة نكاح أزواجه، و أنّما قال عظيماً لأنّها توجب إيذاء النّبي مضافاً إلىٰ أنّه مخالف لنّص القرأن و أي ذنبٍ أعظم من إيذاء رسول اللّه و إيذاءه إيذاء اللّه أعاذنا اللّه منه هذا تمام الكلام في تفسير ألفاظ الآية.

بقي في المقام شئ و هو أنّ بيوت النّبي ما هي و ما المراد بهما في الآيـة و حيث ذَكر القُرطبي في تفسيره لهذه الآية ما ذكره و تبعه علىٰ ذلك غيره من مفسّرين العامّة في معنى البيوت و ما يراد منها فلابدّ لنا أيضاً من التَّعرض لها و الجواب، عمّا حقَّقه و بيَّنه بزعمه فنقول:

قال القُرطبي و إختلف العلماء في بيُوت النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إذ كان يسكن فيها أهله بعد موته هل هي ملك لهنّ أم لا على قولين:

فقالت طائفة كانت ملكاً لهنّ بدليل أنهنّ أمسكنّ فيها بعد موت النّبي إلىٰ وفاتهنّ و ذلك أنّ النّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وهب ذلك لهنّ في حياته.

الثّاني: أنّ ذلك كان إسكاناً كما يسكن الرّجل أهله و لم يكن هبة و تمادى

سكناهنّ بها إلى الموت و هذا هو الصّحيح و هو الّذي إرتضاه أبو عمروبن عبد البّر و إبن‌العربي و غيرهم فأنّ ذلك من مؤونتهنّ الّتي كان رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم إستثناها لهنّ نفقاتهنّ حين قال لا تقتسم ورثتي ديناراً و لا درهماً ما تركت بعد نفقة أهلي و مؤونة عاملي فهو صدقة هكذا قال أهل العلم قالوا و يدلّ على ذلك أنّ مساكنهنّ لم يرثها عنهنّ ورثتهنّ قالوا و لو كان ذلك ملكاً لهنّ كان لا شكّ قد ورثه عنهنّ ورثتهنّ قالوا و في ترك ذلك ورثتهنّ دليل علىٰ أنّها لم تكن لهنّ ملكاً و أنّما كان لهنّ سكنى حياتهنّ فلمّا توفّين جعل، ذلك زيادة في المسجد الّذي يعمّ المسلمين نفعه كما جُعل ذلك الّذي كان لهنّ من النّفقات في تركة رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم لما مضين لسبيلهنّ، فزيد إلى أصل المال فصرف في منافع المسلمين ممّا يعمّهم جميعهم نفعه واللّه الموّفق إنتهى كلامه بألفاظه و عباراته و يظهر منه عدم الملكيّة لهنّ كما صرّح في كلامه بعدم الهبة أيضاً.

و نحن نقول أن لم تكن البيوت ملكاً للأزواج و لا موهوبة لهنّ و أنّما كان للأزواج حقّ السكنى فقط فالملك باقٍ على ما كان عليه في حياة رسول اللّه و هو مالكيّته صلى الله عليه وآله وسلم له و علىٰ هذا فالبيُوت بيوت النّبي بعد موته كما كانت في حياته لا بيوت الأزواج.

فقوله تعالىٰ: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ** لا يختصّ بزمان حياته بل يشمل بعد موته أيضاً فدخول المؤمن في بيته صلى الله عليه وآله وسلم بعد موته بدون أذنه منهنّ عنه في الآية كما في حياته و هذا ممّا لا كلام فيه على ما يستفاد من كلام القُرطبي و من تبعه.

فنقول من جملة البيوت بيت الّذي دفن فيه الرّسول و دفن فيه أبوبكر و عمر أيضاً ظاهراً فلقائلٍ أن يقول من الّذي أذن لهما في دفنهما فيه فأن قيل أذن اللّه و رسوله فهو كذبٌ قطعاً و لم يدّعيه الخصم أيضاً و إن قيل أذنت عائشة فالمفروض أنّها لم تكن مالكة و لا غيرها منهنّ و إن قيل أنّ الإذن لهم بسبب

الولاية و الخلافة فأنّ إختيار أملاك النّبي بعد موته مختصّ بمن يقوم مقامه إذ المفروض أنّ ما تركه لا يورث بل صدقة تصرف في منافع المسلمين بأذن من قام مقامه و أبوبكر و بعده عمر كانا كذلك فأجازا لأنفسهما الدّفن فيه كما كانا كذلك في جميع ما تركه النّبى.

يقال في جواب المستدل هذا القول ينافي ما ذكروه في صحاحهم و غيرها و إتَّفقوا عليه من أنّ الدّفن كان بإذن عائشة فأنّها أذنت أن يدفن ابو٠ فيه أوّلاً و أذنت لدفن عمر ثانياً و قد صرّح البخاري و غيره من علمائهم أنّ عمر لمّا طعن و أيس من حياته أمر إبنه عبد اللّه أن يستأذن عائشة في دفن عمر في البيت و أنّه إستأذنها فبكت و قالت كنت إخترته لنفسي و الآن لاوثرنّ به علىٰ نفسي فإدفنوه فيه فدفن فيه، و هذا يناقض قولهم بأنّ الأزواج لم تكن لها إلاّ حقّ السكنى فيها، هذا أوّلاً.

أمّا ثانياً: فلو فرضنا أنّ البيوت كانت ملكاً لهنّ كما هو أحد الأقوال في المسئلة، فيقال هذا مناف لقولهم أنّ النّبي لا يورث ما تركه صدقة و لم يدلّ دليلٌ على أنّ النّبي ملّك البيوت لهنّ في حياته و لم يقل به أحد و على فرض ثبوت الملكيّة لا دليل على إختصاص كل بيت لمن كان ساكناً فيه بل جميع البيوت لجميع الأزواج على وجه المشاع فالبيت الّذي كانت عائشة ساكنة فيه لم يكن لها خاصّة كغيره من البيوت لقول عمر لإبنه عبد اللّه، إستأذن عائشة بل الحقّ أن يقول إستأذن الأزواج و لم يقل ذلك فثبت أنّ دفن عمر و أبىبكر في البيت كان بغير إذن الرّسول و هو كما ترى ينافي الآية اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الآية خاصّة بالمؤمنين و المخاطب بها هم لا غيرهم، و هذا أيضاً مردود، بدليل الأولّوية أو يقال أنّ اللّه نهىٰ عن الدّخول بغير إذنه والدّفن ليس من الدّخول بل هو من التصرّف في مال الغير و هذا ليس ببعيدٍ من الجاهل المعاند.

ثمّ أنّ الّذي ذكرناه حول كلام القُرطبي فهو على ما ذكره الخصم و إعترف به من عدم الملكيّة لِلأزواج، و أمّا على مذهبنا و هو الحقّ الحقيق بالإتّباع فلا شكّ أنّ الحديث الّذي رواه أبوبكر عن رسول اللّه نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة، و شهد بذلك من الرّجال عمر و من النّساء عائشة و حفصة، فهو مجعولٌ موضوع لا يزن عندنا جناح بعوضة، فما تركه النّبي لورثته كغيره من أحاد الأمّة و لا فرق في ذلك بين النّبي و غيره في الإسلام و قد أشبعنا الكلام فيه و ذكرنا الوجه في علّة جعل الحديث في شرحنا لخطبة فدك و قلنا هناك ما ينبغي أن يقال فلا نطيل الكلام بذكره في المقام لخروجه عن موضوع الكتاب و من أراد الوقوف عليه فعليه بشرح خطبة فَدك و غيره ممّا حقّقه أصحابنا في كتبهم، و علىٰ هذا فالبيوت كغيرها من أموال النّبي كانت لورثته و حيث كان وارثه منحصراً بالبنت و الأزواج و قد ثبت في مذهب أهل البيت أنّ الزّوجة لا ترث من الأرض بل ترث من البناء و الأشجار فالأرض كانت لفاطمة نهاية القول أنّ الأزواج لها حقّ السّكنىٰ لمكانها من النّبي مادام الحياة.

و أمّا علىٰ قول العامّة فأن قالوا بثبوت الإرث للزّوجة من الأرض فالثّمن يقسم بين الأزواج و كان لعائشة سهمها من الثمن و أمّا غير البيوت من غير المنقول فهو مختصّ بالزّهراء علىٰ ما قرّر في باب الإرث و إلىٰ ما ذكرناه أشار إبن عبّاس مخاطباً به لعائشة (لَك التّسع من الثمن وفي الكلّ تصّرفت) هذا تمام الكلام في تفسير هذه الآية و أنا معتذر من أخواني المؤمنين في إطالة الكلام حول الآية و الحمدُ لِلّه.

إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا

لأنّه تعالىٰ عالم السِّر والخَفيّات فضلاً عن ظاهر الأعمال فلا يخفىٰ عليه شئ لا في الأرض و لا في السّماء و ذلك لأنّ اللّه تعالىٰ خالق كلّ شئ و موجده و لا يعقل أن يكون الخالق جاهلاً بما خلق فأنّ الخلق و الإيجادَ لا يكون الاّ عن علمٍ كما ثبت في موضعه.

لا جُناحَ عَلَيْهِنَّ فيٓ اٰبٰآئِهِنَّ وَ لآ أَبْنٰآئِهِنَّ وَ لآإِخْوانِهِنَّ وَ لآ أَبْنآءِ إِخْوانِهِنَّ وَ لآ أَبْنٰآءِ أَخَواتِهِنَّ وَ لا نِسآئِهِنَّ وَ لا ما مَلَكَتْ أَيْمانُهُنَّ وَ اتَّقِينَ اللّٰهَ إِنَّ اللّٰهَ كانَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا

ثمّ إستثنىٰ لأزواج النّبي من يجوز لها محادثتهم و مكالمتهم فقال لا جناح عليهنّ في أبائهنّ و لا أبنائهنّ و لا أخواتهنّ و لا أبناء أخوانهنّ و لا أبناء أخواتهنّ و لا نسائهنّ و لا ما ملكت أيمانهنّ و لم يذكر العمّ و الخال لأنّه مفهوم من الكلام و لأنّ قرباتهم واحدة و المراد برفع الجناح هاهنا وضع الجلباب للمذكورين.

و قال قتادة ترك الإحتجاب ثمّ أمرهنّ بالتّقوى التّي هي خير زادٍ.

إِنَّ اللّٰهَ وَ مَلآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يآ أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا

لمّا نهى اللّه المؤمنين في الآية السّابقة عن إيذاء الرّسول بأيّ نحوٍ كان أمرهم في هذه الآية بالصّلاة عليه و التّسليم لأوامره و نواهيه، و قيل المراد بالتّسليم هو الدُّعاء بالسّلامة كقولهم سلّمك اللّه و السّلام عليك و رحمة اللّه و كقولك السّلام عليك يا رسول اللّه، فالبحث حول الآية يقع في مقامين:

المقام الأوّل: في الصّلاة عليه.

المقام الثّاني: في التّسليم و نحن نتكل م فيهما إجمالاً.

أمّا المقام الأوّل: و هو الصّلاة عليه فنقول:

قال الرّاغب في المفردات، الصّلاة قال كثير من أهل اللّغة في الأصل الدُّعاء و التّبريك و التّحميد يقال صلّيت عليه أي دعوت له و زكّيت إلىٰ أن قال و صلاة الرّسول و صلاة اللّه للمسلمين هو في التّحقيق تزكية إيّاهم و من الملائكة هي الدُّعاء و الإستغفار إنتهىٰ.

ثمّ أنّ قوله تعالىٰ: **إِنَّ ٱللَّهَ وَ مَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ** بمنزلة التّعليل لأصل الحُكم علىٰ أساس الأولّوية أي إذا كان اللّه و ملائكته يصّلون على النّبي فأنتم بطريق أولى أو المعنى إتّبعوا اللّه و ملائكته في ذلك و كيف كان فقد إتّفقوا على أنّها من اللّه رحمة و في الآية تشريف اللّه محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أبلغ من تشريف أدم بالسّجود.

روى في معاني الأخبار بسنده عن أبي حمزة عن أبيه قال سألت أبا عبد اللّه عن قول اللّه عزّ وجلّ عن هذه الآية فقال عليه السلام: **الصّلاة من اللّه رحمة ومن الملائكة تزكية و من النّاس الدُّعاء (دُعاء).**

و أمّا قوله: **وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا** يعنى؛ التّسليم فيما ورد عنه صلى الله عليه وآله وسلم قال:

و قلت كيف تصلّي على محمّدٍ و آله قال تقولون صلوات اللّه و صلوات ملائكته و أنبيائه و رسله و جميع خلقه علىٰ محمّدٍ و ال محمّدٍ و عليه و عليهم و رحمة اللّه و بركاته قال قلت و ما ثواب من صلّى على النّبي و اله بهذه الصّلوات قال الخروج من الذّنوب واللّه كيوم ولدته أمّه إنتهىٰ.

و في أصول الكافي بأسناده عن أبي عبد اللّه قال: قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما من قومٍ إجتمعوا في مجلس فلم يذكروا إسم اللّه عزّ وجلّ و لم يصلّوا علىٰ نَبيّهم إلاّ كان ذلك المجلس حسرة و وبالاً عليهم إنتهىٰ.

و في كتاب الخصال عن الأعمش عن جعفر بن محمّد عليه السلام قال: هذه شرائع الدّين إلىٰ أن قال والصّلاة على النّبي واجبة في كلّ المواطن و عند العطاس والرّياح و غير ذلك إنتهىٰ.

و في من لا يحضره الفقيه روى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال: و صلّ على النّبي كلّما ذكرته أو ذكره ذاكر عندك في أذانٍ أو غيره و الحديث طويل إنتهىٰ موضع الحاجة منه.

و الأخبار كثيرة في فضل الصّلاة علىٰ النّبي، ثمّ أنّ الصّلاة على النّبي ﷺ في الصّلاة عقيب الشّهادتين واجبة عند علمائنا أجمع و قال الشّيخ في الخلاف هي ركن في الصّلاة و أمّا في غير هذا الموضع فالمشهور على الإستحباب و هو الأقوىٰ و تفصيل الكلام في هذا الباب مقرّر في الفقه.

أمّا المقام الثاني: و هو التّسليم فقد قيل معناه السّلام عليه ﷺ عقيب الصّلاة عليه كما تقول اللّهم صلّ علىٰ محمّد و أل محمّد و السّلام عليك أيّها النّبي و رحمة اللّه و بركاته و يمكن أن يراد به الإنقياد له و التّسليم له في جميع ما جاء به سيّما في أمر الولاية فأنّه الصّادق الصّديق الأمين.

ففي تفسير علّي بن إبراهيم قوله تعالىٰ: **وَ سَلِّمُوا تَسْلِيمًا** يعنى؛ سلّموا له بالولاية و بما جاء به و الجمع بين القولين أحسن و أنفع.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَ ٱلْاٰخِرَةِ وَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا

قيل أذى اللّه هو أذى أوليائه و أنّما أضافه إلى نفسه تعظيماً لأوليائه و مبالغةً في عظم المعصية و أمّا إيذاء الرّسول فقد مرَّ الكلام فيه ثمّ حكم اللّه تعالى علىٰ هؤلاء باللّعن في الدّنيا و الأخرة و المعنى أنّهم يستحقّون اللّعنة من اللّه و اللّعن من اللّه هو الإبعاد عن رحمته و من كان كذلك فلامحالة معذّب في القيامة و لذلك قالو و اعدَّ لهم عذاباً مهيناً، أي مذّلاً لهو و الهوان الإحتقار.

و قال القرطبي إختلف العلماء في أذيّة اللّه بماذا تكون فقال الجمهور من العلماء معناه الكفر و نسبة الصّاحبة و الولد و الشّريك إليه و وصفه بما لا يليق كقول اليهود: يَد اللّه مغلُولة، و النّصارىٰ المسيح إبن اللّه، و المشركُون الملائكة بَنات اللّه و الأصنام شركاؤه إنتهى موضع الحاجة منه.

أقول الجمع بين الأقوال ممكنٌ لا مشاحة فيه فأن هذه المذكورات كلّها من مصاديق الإيذاء و الأمر سهل بعد وضوح المعنىٰ، و أمّا الرّسول فمن خالفه

فقد أذاه و من أنكر قوله أو نسب إليه ما لم يقل به أو نسب إليه الهذيان و قال أنّه ليهجر أو يهذي و أمثال ذلك ممّا لا يليق به أو تخلّف عن جيش أسامة أو نسب إليه أنّه قال مروا أبابكر يصّلي بالقوم و أمثال ذلك فهو ممّن أذىٰ الرّسول و هكذا بالنّسبة إلىٰ أهل بيته فمن أذاهم فقد أذاه قال رسول اللّه في إبنته فاطمة: **أنّها بضعتي من أذاها فقد أذاني**، بل هذا من أكبر مصاديق الأذىٰ فمن أحرق بيتها و لطم على وجهها و ضربها حتّىٰ ألقت ما في بطنها و ضرب بالسّياط علىٰ جنبها و هكذا فقد أذىٰ الرّسول قطعاً.

و العجب من القُرطبي و تمثيله في المقام بإنكار بعض أصحاب النّبي إمارة إسامة بن زيد وعدَّ هذا من مصاديق الكلام كأنّه لم يجد شيئاً أخر أو تجاهل به و لم يقل أنّ التخلّف عن جيش أسامة مع أنّ النّبي قال لعن اللّه من تخلّف عن جيش أسامة ذنبه أعظم من إنكار إمارته و هو واضح لا خفاء فيه.

ولو كان القُرطبي و أمثاله من المنصفين لقالوا من أنكر النّص على أميرالمؤمنين يوم الغدير و تخلّف عن جيش أسامة و صلّى بالنّاس إماماً بإذن عائشة و دفن في بيت النّبي كذلك و منع بنت رسول اللّه صَلَّىٰ اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ميراثها و هكذا فهو من أكبر مصاديق الآية و لكن حبّ الشّئ يعمي و يصمّ و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

■

وَ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا
ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَ إِثْمًا مُبِينًا «٥٨» يَآ
أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَ بَنَاتِكَ وَ نِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ
يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَنْ يُعْرَفْنَ
فَلَا يُؤْذَيْنَ وَ كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا «٥٩» لَئِنْ لَمْ
يَنْتَهِ ٱلْمُنَافِقُونَ وَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَ
ٱلْمُرْجِفُونَ فِي ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا
يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا «٦٠» مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا
ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا «٦١» سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي
ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا
«٦٢» يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ
ٱللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا «٦٣»
إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا «٦٤»
خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا «٦٥»
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا
ٱللَّهَ وَ أَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا «٦٦» وَ قَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا
سَادَتَنَا وَ كُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا «٦٧» رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ
ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَ ٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا «٦٨» يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ
ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهًا «٦٩» يَآ أَيُّهَا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا «٧٠»
يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ

يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا
عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ
فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا
ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِيُعَذِّبَ
ٱللَّهُ ٱلْمُنَافِقِينَ وَ ٱلْمُنَافِقَاتِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَ
ٱلْمُشْرِكَاتِ وَ يَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ
ٱلْمُؤْمِنَاتِ وَ كَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

◀ اللّغة

بُهْتَانًا: البُهتان بضمّ الباء الكذِب.

إِثْمًا: الإثم الذَّنب.

جَلَابِيبِهِنَّ: الجلابيب جمع جلباب و هو خمار المرأة و هى المقنعة تغطي جبينها و رأسها.

وَ ٱلْمُرْجِفُونَ: الإرجاف إشاعة الباطل للإغتمام به.

لَنُغْرِيَنَّكَ: الإغراء الدُّعاء إلىٰ تناول الشّيْ بالتَّحريض عليه.

ثُقِفُوٓا: الثَّقف الحذق في إدراك الشّيْ.

سَعِيرًا: السَّعير بفتح السّين النّار الّتي تستعر و تلتهب.

أَشْفَقْنَ: أي خفن.

ظَلُومًا جَهُولًا: مبالغتان في الظّلم و الجهل.

◀ الإعراب

مَلْعُونِينَ حال من الفاعل في يجاورونك. سُنَّةَ ٱللَّهِ منصوب على المصدر.
يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ ظرف لقوله: يَجِدُونَ و: نَصِيرًا.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَ إِثْمًا مُبِينًا

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة بإيذاء اللّه و رسوله و حكم بأنّ المؤذي ملعون في الدُّنيا و الأخرة أشار في هذه الآية الى الّذين يؤذون المؤمنين و المؤمنات في الدُّنيا بأنّهم إحتملوا بهتاناً أي كذباً و ذنباً عظيما و أنّما قيّد ذلك بقوله بغير ما إكتسبوا لأنّ المؤمن و المؤمنة قد يستحقّ العذاب في الدُّنيا من الحدّ و القصاص و الدّية و التّضرير و أمثال ذلك فمعنىٰ الآية أنّ الّذين يؤذونهم من غير إستحقاقٍ علىٰ شئ فعلوه يستوجبون به ذلك والتّعبير بالإكتساب إشارة الىٰ أنّ مايراه المؤمن من الأذىٰ كالتّضرير و الحدّ و غيرهما فهو ممّا إكتَسبه المؤمن بعمله و ما ربّك بظّلام للعبيد، فإذا سرق المؤمن مثلاً حكم اللّه بقطع يده فقال: **وَ ٱلسَّارِقُ وَ ٱلسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوٓا أَيْدِيَهُمَا**[1] فيحكم الحاكم بَقطع يَده و لا شكّ أنّه أي قطع اليد يوجب في حقّ المؤمن و لكنّه في الحقيقة سببٌ و باعث عليه و أن شئت قلت قد آذىٰ نفسه بعمله و هذا ممّا لا فيه و انّما الكلام كلام فيمن آذىٰ مؤمناً أو مؤمنة بغير جرم صدر منهما و بغير إستحقاقٍ فهو مثل من آذىٰ اللّه و رسوله.

فعن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة نادى منادٍ أين الصدّود لأوليائي فيقوم قوم ليس علىٰ وجوههم لحمٌ فيقول هؤلاء الّذين أذوا المؤمنين و نصبوا لهم و عادوهم و عنفوهم في دينهم ثمّ يأمر بهم الى جهنّم إنتهىٰ.

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: قال اللّه تبارك وتعالىٰ ويل لمن أهان ولّياً من أهان ولّياً فقد حاربني و يظنّ من حاربني أن يسبقني أو يعجزني وأنا الثّائر لأوليائي في الدُّنيا والأخرة إنتهىٰ.

١- المائده = ٣٨

و عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال: لا ينبغي للمؤمن أن يستوحش الىٰ أخيه المؤمن فمن دونه فأنّ المؤمن عزيز في دينه إنتهىٰ.

و عن إبراهيم الثّمالي عن أبي عبد اللّه عليه السلام قال عليه السلام: ما من مؤمن يخذل أخاه و هو يقدر على نصرته إلاّ خذله اللّه في الدُّنيا والأخرة و أن نصره كان أفضل من صيام شهر و إعتكافه في المسجد الحرام إنتهىٰ.

و عنه عليه السلام قال: قال رسول اللّه من نظر الى مؤمنٍ نظرة ليخيفه بها أخافه اللّه يوم لاظلّ إلاّ ظلّه إنتهىٰ.

و الأحاديث في الباب كثيرة و العامل بها قليل بل أقلّ و النّادر كالمعدوم و الأخبار نقلناها عن مشكاة الأنوار(١).

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوٰاجِكَ وَ بَنٰاتِكَ وَ نِسآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلٰابِيبِهِنَّ ذٰلِكَ أَدْنىٰٓ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلا يُؤْذَيْنَ وَكٰانَ ٱللّٰهُ غَفُورًا رَحِيمًا

أمر اللّه تعالىٰ نبيّه أن يأمر أزواجه و بناته و نساء المؤمنين أن يدنين مِن جلابيبهنّ أي يرخيها عليهنّ و يغطين بها وجوههنّ، فأنّ الأدناء في اللُّغة الإرخاء، يقال إذا زلّ الثّوب عن وجه المرأة أدني ثوبك على وجهك قيل أنّ النّساء كنّ في أوّل الإسلام على هجيراهنّ في الجاهلية مبتذلات تبرز المرأة في درعٍ و خمار لا فصل بين الحرّة والأمة و كان الفتيان و أهل الشّطارة يتعرضون إذا خرجنّ باللّيل الى مقاضي حوائجهنّ في النّخيل و الغطيان لِلإماء و ربمّا تعرضوا للحرّة بعلة الأمة يقولون حسبناها أمة فأمرن من اللّه ورسوله أن يخالفن بزينتهنّ عن زيّ الأماء بلبس الأردية و الملاحف و ستر الرّؤس والوجوه فلا يطمع فيهنّ طامع و ذلك قوله تعالى: **أَدْنىٰٓ أَنْ يُعْرَفْنَ** أي أولى واحذر بأن يعرفن فلا يتعرّض لهنّ ما يكرههن إنتهىٰ ما ذكره في الكشّاف.

١- مشكاة الأنوار ص ١٠٠ الىٰ ص ١٠٧

بعبارةٍ أخرى الجلابيب جمع جلباب و هي المقنعة تغطي جبين المرأة و رأسها إذا خرجت لحاجةٍ بخلاف خروج الأماء اللاّئي كنّ يخرجنّ مكشّفات الرّؤس و الجباء في قول إبن عبّاس و مجاهد و قال الحسن الجلابيب الملاحف تدنيها المرأة على وجهها و هذا معنىٰ قوله: **ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ** من ناحية الإرذال و العذّب و كانت المرأة من نساء المؤمنين قبل ذلك تتبرّز للحاجة فيتعرّض لها بعض الفجّار بظنّ أنّها أمة فنزّلت الآية بسبب ذلك.

أقول محصّل الكلام من الآية أنّ اللّه تعالىٰ أمر نساء الأمّة بمراعاة الحجاب و لا سيّما المؤمنات منهنّ و تخصيص المؤمنين و المؤمنات بالذّكر لا يدلّ علىٰ عدم وجوب مراعاة الحكم بالنّسبة الى غير المؤمنات بمعنى أنهنّ في فسحةٍ من ذلك الحكم و ذلك لأنّ الإشتراك في التّكلّيف يقتضي ثبوت الحكم لهنّ أيضاً حتّى الكافرات فأنّ الكافر أيضاً مكلّف بالفروع كما ثبت في الفقه، بل الوجه في تخصيص الخطاب للمؤمنات أنّ غير المؤمنات لاعتناء لهنّ بالأحكام لعدم المعرفة و انضمارهُن في المعاصي و اللّذات الحيوانيّة بل يستهزئن بأحكام الإسلام من الصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها و لا سيّما مسألة الحجاب كما نرى و نشاهد في زماننا هذا أنهنّ يخرجن من بيوتهنّ مكشّفات عاريات و قد صدق رسول اللّه صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث قال: **بدأ الإسلام غريباً وسيعُود غريباً أعاذنا اللّه من شرور الفِتن.**

و قوله: **وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**، بشارةٌ للعاصين و أن لا ييأسوا من رحمة اللّه **فإنّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا** و مع ذلك رحيمٌ بعباده بل هو أرحم الرّاحمين.

لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا

قيل نزلت هذه الآية في أمر النّساء و قيل نزلت في أصحاب الفواحش و الحقّ أنّها نزّلت في تهديد المنافقين الّذين في قلوبهم مرض و المرجفين و مع ذلك فيها بشارة للنّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و أتباعه من المؤمنين حيث أنّ اللّه تعالىٰ أخبر نبيّه بالتّسلط علىٰ المنافقين و المرجفين لو لم ينتهوا بنواهي اللّه و رسوله و إستمرّوا علىٰ ايذاء المؤمنين و المؤمنات فقال لو لم ينته المنافقون و المرجفون عمّا كانوا عليه لنغريّنك بهم أي لنسلّطنك عليهم ثمّ يجاورونك في المدينة إلاّ قليلاً يعني ينفون عن المدينة و المراد بالمرجفين هم الّذين كانوا يطرحون الأخبار الكاذبة بما يشغلون به قلوب المؤمنين و ذلك لأنّ الارجاف إشاعة الباطل للإغتمام به.

و أن شئت قلت هم المفسدون في الإعتقادات بسبب إشاعتهم الأخبار الّتي لا أصل لها فيقولون إذا خرجت سرايا رسول اللّه، أنّهم قد قتلوا أو هزموا و أنّ العدّو قد أتاكم أو يقولون أصحاب الصفّة قومٌ عزّابٌ و الحاصل أنّهم كانوا ينطقون بالأخبار الكاذبة حبّاً للفتنة.

مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا أُخِذُوا وَ قُتِّلُوا تَقْتِيلًا، سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا

ملعُونين نصب على الحال أي حال كون المنافقين و المرجفين، ملعونين مطرودين من رحمة اللّه ثمّ أشارَ الىٰ جزاءهم في الدُّنيا بقوله: **أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا** أي أدركوا و وجدوا و أخذوا و قتلوا تقتيلاً أي قتلاً يليق بهم (سُنّة اللّه) نصب علىٰ المصدر أي سنَّ اللّه عزّوجلّ فيمن أرجف الأنبياء و أظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل.

وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا أي تحويلاً و تغييراً، و قيل معناه من قتل بحقٍّ فلا دية علىٰ قاتله، و الأحسن أن يحمل الكلام علىٰ ظاهره و هو أنّ السنّة الّتي أراد اللّه أن يسنّها في عباده لا يقدر أحد علىٰ تغييرها و لا قلبها عن وجهها لأنّه القادر الّذي لا يمكن لأحدٍ منعه عمّا أراد و هذا ممّا لا خلاف فيه عقلاً و نقلاً.

يَسْئَلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ ٱللَّهِ وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا

المراد بالسّاعة يوم القيامة أمر اللّه نبيّه أن يقول في جواب من يسأله عن القيامة أنّما علمها عند اللّه و كلمة، أنّما، تفيد الحصر، أي العلم بيوم القيامة منحصر به تعالىٰ و قد وردت في الأخبار أنّه من العلم المكنون الّذي لم يعلمه أحداً من الملائكة المقرّبين و الأنبياء المرسلين و هذا هو المراد بقوله: **لا يعلم الغيب إلاّ هو**، و قد تكلّمنا سابقاً في علم اللّه و علم الأنبياء و الأوصياء و قلنا أنّهم كانوا يعلمون غير المكنون المخزون عند اللّه و نقلنا الأخبار الواردة في الباب.

و قوله: **وَ مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا**، أدّل دليل علىٰ أنّ علم السّاعة عند اللّه.

إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَافِرِينَ وَ أَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا، خَالِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَ لَا نَصِيرًا

اللّعن الطّرد و المعنى أنّ اللّه تعالىٰ أبعد الكافرين عن جوار رحمته و أعدّ لهم في الأخرة سعيراً، أي ناراً تستعر و تلتهب خالدين فيها، أي في النّار أبداً لا يخرجون منها لا يجدون فيها وليّاً ينصرهم نصيراً يدفع عنهم العذاب.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَ أَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا

قراءة العامّة، **تُقَلَّب** بضمّ التّاء و فتح اللاّم علىٰ الفعل المجهول و قرئ بنون و كسر اللاّم بصيغة المتكلّم مع الغير و المشهور هو القراءة الأولىٰ و عليها المصاحف و المراد بالتّقليب تغيير ألوانهم بالنّار فتسوّد مرّةً و تخضّر أخرىٰ بدّلت جلودهم يتمنّون أنّهم ما كفروا و يقولون يا ليتنا أطعنا اللّه و أطعنا الرّسولا، أي يا ليتنا لم نكفر فننجوا من هذا العذاب كما نجى المؤمنون.

وَ قَالُوا رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَ كُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا

السّادة جمع السيّد و ساداتنا جمع الجمع و السّادة و الكبراء بمعنى على ما قيل قال قتادة هم المطعمون في غزوة بدر و الأظهر العموم في القادة و الرُؤساء في الشِّرك و الضّلالة فأضّلونا السَّبيلا أي أضلّونا عن سبيل الطّاعة و التَّوحيد.

رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَ ٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا

هذا دعاء من المعذَّبين في النّار على من أضلّهم عن طريق الحقّ فيقولون ربّنا آتهم، ضعفين من العذاب أي عذّبهم عذابين، عذاب لضلالتهُم و كفرهم و عذاب لإضلالهم النّاس.

و قيل المراد عذاب الدّنيا و عذاب الآخرة و قيل عذاب الكفر و عذاب الإضلال و ألعنهم أي بعدّهم و أطردهم من جوار رحمتك.

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَ كَانَ عِنْدَ ٱللَّهِ وَجِيهًا

نهىٰ اللّه المُؤمنين عن إيذاء الرّسُول فخاطبهم و قال لهم لا تكونوا كالّذين آذوا مُوسىٰ و قد روي عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال رحم اللّه موسىٰ لقد أوذي بأثر من هذا فصبر.

إختلفوا فيما أوذي به محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و موسىٰ فحكي أنّ أذّية الكفّار و المنافقين محّمداً.

قولهم زيد بن محّمد إعتراضهم علىٰ القسمة في الأموال فقالوا أنّ هذه القسمة ما أريد به وجه اللّه و قيل أنّهم عابوا النّبي بإصطفائه صفّية بنت حيّ إبن أخطب غير ذلك من أنواع الأذى الّذي صدر عنهم.

أمّا أذّية موسىٰ فقيل أنّهم أشاعوا أنّ موسىٰ قتل هارون فأحياه اللّه تعالىٰ حتّى اخبرهم أنّ موسىٰ لم يقتله و أنّ اللّه تعالىٰ هو الّذي أماته عند إنقضاء

أجله و هو معنى قوله فبرّأه اللّه و قيل قالوا أنّ موسى أبرص و نقلوا عن أبي هريرة أنّه قال كان بنوا إسرائيل يغتسلون عراة و كان موسىٰ يتستر كثيراً و يخفي بدنه فقال قوم هُو آدر و أبرص أو به آفة فأنطلق ذات يومٍ يغتسل في عين أرض الشّام و جعل ثيابه على صخرة ففّر الحجر بثيابه و أتّبعه موسىٰ عرياناً يقول ثوبي حجر ثوبي حجر إنتهى الىٰ ملأٍ من بني إسرائيل فنظروا إليه و هو أحسنهم خلقاً و أعدلهم صورةً و ليس به الّذي قالوا فهو قوله تعالىٰ فبرّأه اللّه ممّا قالوا أخرجه النجاري و مسلم بمعناه و لفظ مسلم.

قال قال رسول اللّه ﷺ كانت بنو إسرائيل يغتسلون عراة ينظر بعضهم إلىٰ سوءة بعض و كان موسىٰ يغتسل وحده و ساق الحديث إلى أن قال حتّىٰ نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسى و قالوا واللّه ما بموسىٰ من بأسٍ[١].

أقُول هذا ما ذَكروه في تفسير الآية ونحن لا ننكر أنّهم أذوا موسى كما صرَّح به الآية و أمّا الحديث الّذي رواه أبو هريرة و صحَّحه البُخاري فليس بمعتمدٍ و أظنّ أنّه من الموضوعات فأنّ أبا هريرة في جملة الكذّابين الفاسقين و قد قال اللّه تعالىٰ: **إِنْ جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا**[٢] و كيف يرضى اللّه لَنبيّه المُرسَل و هو من أولي العظم منهم هذه الفضيحة التّي ستحيي منها الجاهل و أقبح منه ما نقله عن مسلم قال رسول اللّه كذا و كذا إلىٰ قوله حتّىٰ نظرت بنو إسرائيل إلى سوءة موسىٰ فيا للّه من هذه الأراجيف التّي يستحيي القلم عن ذكرها.

و الّذي يظهر من كلام القُرطبي أنّ ما نقله مسلم في كتابه رواه أبو هريرة المعلون لا غفر اللّه له، والّذي يدلّ عليه كلام اللّه هو أنّ قوم موسىٰ أذوه و هذا لا كلام فيه بل جميع الأنبياء كانو كذلك و الّذي يقوّي في النّفس أنّهم كذّبوا موسىٰ في نبوّته و عبدوا الطّاغوت و أنواع الأذىٰ كثيرة لا يمكن إحصائها.

١- تفسير القُرطبي ج ١٤ ص ٢٥٠

٢- الحجرات = ٦

يَآ أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَ قُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا

خاطب اللّه المؤمنين فأمرهم بالتّقوىٰ التّي هي خير زادٍ أوّلاً وأن يقولوا قولاً سديداً ثانياً و القول السَّديد معناه قول الحقّ، و قيل أي صواباً بريئاً من الفساد خالصاً من الكذب والتَّمويه و اللّغو و إلىٰ ذلك أشار أميرالمؤمنين حيث قال في خُطبة المتّقين:

فَالْمُتَّقُونَ فِيهَا هُمْ أَهْلُ الْفَضَائِلِ مَنْطِقُهُمْ الصَّوَابُ وَمَلْبَسُهُمُ الإِقْتِصَادُ وَمَشْيُهُمْ التَّوَاضُعُ[١] إلىٰ أخر ما ذكره والوجه فيه واضح فأنّ المتّقي لا يقول إلاّ حقّاً.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَ مَنْ يُطِعِ ٱللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا

قوله: **يُصْلِحْ**، جزم بأنّه جواب للأمر و فيه معنى الجزاء و تقديره إن فعلتم ما أمرتم به ليصلّح لكم أعمالكم و يغفر لكم ذنوكم إستظهر بعض المفسّرين من هذا الكلام أعني يغفر لكم ذنوبكم أنّ المراد بالقول السّديد هو التّوبة، و أنت ترىٰ أنّ التّوبة داخلة في الأقوال السّديدة بمعنى أنّها أي التّوبة أحد مصاديق القول السّديد لا أنّ القول السّديد مختصّ بها، ثمّ أخبر اللّه تعالىٰ بأنّ المطيع للّه و رسوله قولاً و عملاً أفلح فلاحاً عظيماً و ذلك لأنّ الدّين ليس إلاّ الطّاعة قولاً و فعلاً في الواجبات و المحرّمات.

إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا وَ حَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا

الأمانة هي العقد الّذي يلزم الوفاء به عمّا من شأنه أن يؤتّمن علىٰ صاحبه و قد عظم اللّه شأن الأمانة في هذه الآية و أمر بالوفاء بها و هو الّذي أمر به في

١- الخطبة ١٩٣

أوّل سورة المائدة بقوله: **يٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ**[١] و قيل في قوله و عرضنا الأمانة على السّموات و الأرض و الجبال مع أنّ هذه الأشياء جمادات لا يصّح تكليفها أقوال:

أحدها: أنّ المراد عرضنا على أهل السّموات و الأرض و الجبال.

ثانيها: أنّ المعنىٰ في ذلك تفخيم شأن الأمانة و تعظيم حقّها و عظم منزّلتها هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان و يظهر من كلامه أنّ المراد بالأمانة في الآية الأمانة المعهودة المعروفة بين النّاس و أنّها من العقود اللاّزمة التّي يَجب الوفاء بها.

و قال صاحب الكشّاف و هو يريد بالأمانة الطّاعة فعظم أمرها و فخم شأنها و فيه وجهان:

أحدهما: أنّ هذه الأجرام العظام من السّموات و الأرض و الجبال قد إنقادت لأمر اللّه عَزَّ وجلَّ و أمّا الإنسان فلم تَكن حاله فيما يصحّ منه من الطّاعات و يليق به من الإنقياد لأوامر اللّه ونواهيه و هو حيوان عاقل صالح للتّكليف مثل حال تلك الجمادات فيما يصحّ منها و يليق بها من الإنقياد الإمتناع و المراد بالأمانة الطّاعة لأنّها لازمة الوجود كما أنّ الأمانة لازمة الأداء و عرضها علىٰ الجمادات و إباؤُها و إشفاقها مجاز و أمّا حمل الأمانة فمن قولك فلان، حامل لِلأمانة إلىٰ أخر كلامه و قد ظهر من كلامه أنّه حملها على الطّاعة و الإنقياد في أوامر اللّه و نواهيه.

ثمّ قال الثّاني: أنّ ما كلّفه الإنسان بلغ من عظمه و ثقل محمله أنّه عُرض علىٰ أعظم ما خلق اللّه من الأجرام وأقواه وأشَدَّه أن يتحمّله و يستقلّ به فأبىٰ حمله و الإستقلال به و أشفق و أعرض منه و حمله الإنسان على ضعفه و رخاوة قوّته أنّه كان ظلُوماً جهولاً، حيث حمل الأمانة ثمّ لم يكف بها و ضمنها ثمّ خاس بضمانه فيها و نحو هذا من الكلام كثير في لسان العرب إنتهىٰ.

١- المائده = ١

و قال بعض المفسّرين أنّ اللّه تعالىٰ لمّاش أرشد المؤمنين في الأيات السّابقة إلىٰ ما أرشد من ترك الأذىٰ و إتّقاء اللّه و سداد القول و رتّب علىٰ الطّاعات ما رتّب، بيّن في هذه الآية أنّ ما كلَّفه الإنسان أمرٌ عظيم فقال أنّا عرضنا الأمانة تعظيماً لأمر التّكليف والأمانة الظّاهر أنّها كلّ ما يؤتمن عليه من أمرٍ و نهيٍ و شأن دينٍ و دنيا و الشّرع كلّه أمانة و هذا قول الجمهور إنتهىٰ.

و به قال القرطبي إلاّ أنّه فصل الكلام بما لا فائدة فيه و نحن بعد التّفحص في تفاسيرهم و كلماتهم حول الآية لم نجد شيئاً غير ما نقلناه عنهم نعم الألفاظ متغايرة و التّعابير مختلفة و لكنّ المأل فيها واحد و هو أنّ المراد بالأمانة التّكليف و العمل به و بعبارةٍ أخرىٰ الطّاعة و الإنقياد في جنب أوامر اللّه و نواهيه واللّه أعلم.

و قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

الأمانة أيّاً ما كانت شيئ يودع عند الغير ليحتفظ عليه ثمّ يردّه إلى من أودعه فهذه الأمانة المذكورة في الآية شئ إئتمن اللّه الإنسان عليه ليحفظ على سلامته و إستقامته ثمّ يردّه إليه سبحانه كما و أورعه و ساق الكلام إلىٰ أن قال فهل هو الإعتقاد الحقّ و الشّهادة علىٰ توّحده تعالىٰ أو مجموع الإعتقاد و العمل بمعنى أخذ الدّين الحقّ بتفاصيله مع الغّض عن العمل به أو التّلبّس بالعمل به أو الكمال الحاصل للإنسان من جهة التّلبس بواحدٍ من هذه الأمور و ليست هي الأوّل أعني التّوحيد فأنّ السّموات و الأرض و غيرهما من شئ توّحده تعالىٰ و تسبّح بحمده و قد قال تعالىٰ: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**(١) و الآية تصّرح بإبائها عنه، وليست هي الثّاني أعني الدّين الحقّ بتفاصيله فأنّ الآية تصّرح بحمل الإنسان كائناً من كان مِن مؤمنٍ و غيره و بهذا يظَر أنّها ليست بالثّالث و هو التّلبس بالعمل بالدّين الحقّ تفصيلاً، و ليست هي الكمال الحاصل من أخذ دين الحقّ و العمل به إذ لا يترتّب علىٰ نفس الإعتقاد الحقّ و

١- الإسراء = ٤٤

العلم بالتّكاليف الدّينية نفاق و لا شرك و لا إيمان و لا يستعقب سعادة شقاوة و أنّما يترتّب الأثر على الإلتزام بالإعتقاد الحقّ و التّلبس بالعمل، فبقي أنّها الكمال الحاصل له من جهة التّلبس بالإعتقاد و العمل الصّالح و سلوك سبيل الكمال بالإرتقاء من حضيض المادّة إلىٰ أوج الإخلاص الّذي هو أن يخلصه اللّه لنفسه فلا يشاركه فيه غيره فيتولّىٰ هو سبحانه تدبير أمره و هو الولاية الإلٰهيّة فالمراد بالولاية الأمانة الإلٰهيّة و بعرضها على هذه الأشياء إعتبارها مقيتةً عليها و المراد بحملها و الإباء عنه وجوه إستعدادها و صلاحيّة التّلبس بها و عدمه و هذا المعنى هو القابل لأنّ ينطق على الآية فالسماوات و الارض و الجبال على ما فيها من العظمة و الشدّة و القوة فاقدة لاستعداد حصولها فيها و هو المراد بابائهنّ من حملها و إشفاقهنّ منها لكنّ الإنسان الظّلوم الجهول لم يأب و لم يشفق من ثقلها و عظم خطرها فحملها علىٰ ما بها من الثّقل و عظم الخطر فتعقب ذلك أنّ إنقسم الإنسان من جهة الأمانة و عدمه بالخيانة إلىٰ منافق و مشرك و مؤمن بخلاف السّموات و الأرض و الجبال فما منها إلاّ مؤمنٌ و مطيع.

فإن قلت ما بال الحكيم العليم حمل على هذا المخلوق الظّلوم الجهول حملاً لا يتحمّله لثقله و عظم خطره السّموات و الأرض و الجبال على عظمتها و شدّتها و قوّتها و هو يعلم أنّه أضعف من أن يطيق حمله و أنّما حمله علىٰ قبولها لها ظلمه و جهله و أجرأه عليه غروره و غفلته عن عواقب الأمور فما تحميله الأمانة بإستدعائه لها ظلماً و جهلاً إلاّ كتقليد مجنون ولاية عامّة يأبىٰ قبولها العقلاء و يشفقون منها يستدعيها المجنون لفساد عقله و عدم إستقامة فكره.

قلتُ الظّلم و الجهل في الإنسان و أن كانا بوجهٍ ملاك اللّوم و العتاب فهما بعينهما مصحّح حمله الأمانة و الولاية الإلٰهيّة فأنّ الظّلم و الجهل أنّما يتّصف بهما من كان من شأنه الإتّصاف بالعدل و العلم فالجبال مثلاً لا تتّصف بالظّلم و

الجهل فلا يقال جبلٌ ظالم أو جاهل لعدم صحّة إتّصافه بالعدل و العلم و كذلك السّموات و الأرض لا يحمل عليها الظّلم و الجهل لعدم صحّة إتّصافها بالعدل و العلم بخلاف الإنسان و الأمانة المذكورة في الآية و هى الولاية الإلٰهيّة و كمال صفة العبوديّة أنّما تستحصل بالعمل باللّه و العمل الصّالح الذّي هو العدل و أنّما يتَّصف بهذين الوصفين أعني العلم و العدل الموضوع القابل للجهل و الظلم فكون الإنسان في حدّ نفسه و بحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحّح لحمل الأمانة الإلٰهيّة فإفهم ذلك إنتهىٰ كلامه.

أقُول أنّما ذكرنا في هذا المقام ما ذكره و فصَّله بعين ألفاظه و عباراته و طوله و تفصيله لأنّ المقام من مزّال الأقدام فلعلَّك تفهم من كلامه و تحقيقه غير ما فهمنا منه و ذلك لأنّه‌ؒ قد أتعب نفسه في حلّ المعضل بزعمه و لعلّه أيقن برفع الإبهام عن الآية و لذلك ختم كلامه بقوله، فإفهم ذلك، و أنّي إعترف بعدم الفهم و العجز و القصور عن درك مرامه و مقصده و لم أفهم منه ما يكشف النّقاب عن وجه الإبهام و ذلك لأنّ الإبهام في الآية هو أنّ الأمانة التّي عرضها علىٰ السّموات و الأرض و الجبال إلى أخر الأية، ما هي، هذا أوّلاً.

ثانياً: و ما معنىٰ عرضها عليها.

ثالثاً: و كيف أبين أن يحملنها و أشفقن منها.

رابعاً: و كيف حملها الإنسان.

خامساً: و ما معنىٰ كون الإنسان ظلوماً جهولاً.

سادساً: و هل هذا أي حمل الأمانة كان بإختيار منه أو لا.

سابعاً: و هل الآية نزلت في مدح الإنسان أو ذمّه.

فهذه الوجوه السَّبعة هي التّي عجزت الأفكار عن دركها إذا عرفت هذا فنقول:

ما المراد بالولاية الإلٰهيّة التّي كرَّرها في كلامه غير مرَّةٍ فأن كان المراد بها كونه أولىٰ بالتّصرف من غيره في شئُون خلقه فهذا لا شكّ فيه و لكن هذه

الأولوّية لا تختصّ بالإنسان فقط فأنّ اللّه تعالىٰ ولّى الكلّ و أن كان المراد بالولاية الإلٰهيّة غير ما ذكرناه فما هو و حاصل الكلام أنّ الولاية عامّة في الإنسان و السّماوات و الأرض و الجبال و غيرها فكيف يعقل أن يكون الإنسان قابلاً لها دون غيره من الجبال و الأرض، و من جعل الإنسان قابلاً لها، و بعبارةٍ أخرىٰ الولاية الإلٰهيّة علىٰ ضربين، تكوينيّة و تشريعيّة.

و نعني بالتّكوينية الولاية علىٰ الإيجاد.

و بالتّشريعية الولاية على التّكليف في الأحكام الشّرعية بمعنىٰ أنّه تعالىٰ جعل الإنسان مكلّفاً دون الحيوان و الجماد مثلاً، فأن كان مراد القائل بالولاية الإلٰهيّة الولاية التّكوينية الإيجادية فهي ثابتة في حقّ جميع الموجودات و علىٰ هذا فأن كان المراد بالأمانة في الآية الولاية بهذا المعنىٰ فلا معنىٰ لقوله فأبين أن يحملنها و أشفقن منها، و المفروض أنّ السّموات و الأرض و الجبال موجودة بهذه الولاية، و أن كان المراد بالأمانة الولاية الإلٰهيّة التّشريعية كما هو الظّاهر من كلام المستدل و غيره فنقول:

لازم ذلك أن يكون عرض الأمانة علىٰ المذكورين في الآية بعد وجود الإنسان و الجبال و الأرض مثلاً لا قبله إذ عَرض الأمانة علىٰ المعدوم لا معنىٰ له و علىٰ هذا فما ذنب الجبال و السّماوات و الأرض في عدم إستعدادها لقبول الأمانة و المفروض أنّها خلقت غير مستعدّة له و عرض التّكليف على فاقد الإستعداد لقبوله غير معقول و قول المستدّل في الجواب أنّ الجبال مثلاً لا تتّصف بالظُّلم و الجهل و كذلك السّماوات و الأرض بخلاف الإنسان، في غير محلّه فأنّ عدم إتّصافها بهما علىٰ أساس الخلقة فلو أراد اللّه قبولها لخلقها مستعدّة له.

فأنّ الإباء و الإشفاق و أمثال ذلك لا يعقل إلاّ للمختار و هو لا يكون إلاّ للعاقل و أما الجماد فلا.

و أمّا قوله في أخر كلامه، فكون الإنسان في نفسه و بحسب طبعه ظلوماً جهولاً هو المصحّح لحمل الأمانة الإلٰهيّة يقال في جوابه من خلق الإنسان ظلوما جهولاً غير اللّه تعالىٰ ألم يقدر أن يخلق جميع الموجودات من السّماء و الأرض و الجبال و غيرها ظلوما جهولا لتقبّل الأمانة كما قبلها الإنسان، و الحقّ أنّ اللّه تعالىٰ خلق الخلق على أصنافٍ من الملائكة و الإنسان و الجنّ و الحيوان و النّبات و الجماد و خصّ كلّ واحدٍ منها بخصوصيّة على طبق المصلحة التّي لا يعلمها إلاّ هو و جعل الإنسان مكلّفاً بالتّكاليف الشرعية دون الحيوان و الجماد مثلاً ثمّ عرض الأمانة عليها و هذ القدر من الآية مسلّمٌ عند الكلّ و لا خلاف فيه بين المفسّرين من العامّة و الخاصّة كيف لا و هو أعني قبول الأمانة منصوص في الآية حيث قال تعالى و حملها الإنسان، و أنّما الخلاف في أنّ الأمانة التّي حملها الإنسان و لم يقبلها غيره من السّماء والأرض و الجبال ما هي، هل هي الطّاعة و الإنقياد للّه تعالىٰ، أو المعرفة به، أو ما خَلَق اللّه في هذه الأشياء من الدّلائل علىٰ ربوبيّته و ظهور ذلك منها أو الولاية الإلٰهيّة أو غير ذلك ممّا قاله المفسّرون علىٰ حسب فهمهم و إستظهارهم من الآية و قد ذكرنا رؤس أقوالهم فيه و قلنا ما فيها من الضّعف والوهن علىٰ ما عرفت.

والّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال و رفع الإبهام عن الآية هو أنّ المراد واللّه أعلم.

بالأمانة العقل الّذي أودعه في الإنسان، الّذي به يفرق بين الحقّ و الباطل و أنّما أعطاه العقل ببركة روحه لا من جهة جسمه و بدنه و لذلك عدّ العقل من القوى الرُّوحانية لا من القوى الجسمانيّة التّي هي موجودة في الحيوان أيضاً و لذلك لم يأمر اللّه ملائكته بالسّجُود لأدم قبل تعلّق الرُّوح بالجسد المعلوم أنّ العقل من أعظم قواها بل هو أصلها و أساسها و سائر القوى من تبعاته و أثاره

فأنّ من لا عقل له لا فضيلة له و هو الّذي جعل اللّه تعالىٰ مدار الثّواب و العقاب في الأخرة عليه كما في الحديث بك أعاقب و بك أثيب الخ.

بل نقول أنّ فضيلة الرُّوح بالعقل و لا عكس ألا ترى أنّ المجنون الّذي لا عَقل له لا إعتبار بقوله وفعله بل لا قيمة له لَدىٰ الإجتماع و قد رفع اللّه قلم التّكليف عنه و محصّل الكلام أنّ العقل من أغلىٰ الجواهر الثَّمينة بل لا جوهر أعلىٰ منه لأنّه الّذي قال اللّه تعالىٰ **له أقبل فأقبَل ثمّ قال له أدبِر فأدبَر فقال تعالىٰ وعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أأحبَّ إلَّي منك الحديث.**

و الأيات في مدحه كثيرة و الأخبار و الأثار الواردة في مدحه لا تحصى نطول الكلام بذكر الأيات و الأخبار و ما قيل في شرف العقل و فضيلته لأنّه أظهر من الشّمس و أبين من الأمس إذا عرفت هذا فنقول:

قد ظهر لك بما ذكرناه على سبيل الإشارة الإجماليّة أنّ العقل من أشرف النِّعم الّتي أنعمها اللّه لعباده بعد نعمة الإيجاد فهو من أغلى الجواهر الثّمينة و أعلى المواهب الرّبانية و ما كان كذلك ينبغي أن يعبّر عنه بالأمانة الإلٰهّية في خزينة قلب الإنسان الّذي قال تعالىٰ فيه **(لا يَسَعني أَرضي و لا سَمائي ولكن يسعني قلب عبدي المُؤمن)** فهو الخزينة لهذه الأمانة فأنّ الأمانة تتعلّق بالجوهر الثّمين لا بالخزف و الحجر و المدر و اذا كان العقل أمانة اللّه أودعه اللّه في الإنسان لا في غيره من الجماد و الحيوان و النّبات من مواليد الأربعة فقد منَّ اللّه تعالىٰ بذلك على الإنسان.

فقوله تعالىٰ: **إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ** أعني بها العقل علىٰ السّموات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنَّها، معناه إمتنعن عن حملها تكويناً بلسان الإستعداد و ذلك لعدم وجود الرُّوح الّتي قال تعالىٰ فيها: **فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ**(١) في السّماء و الأرض و الجبال فأنّ الرُّوح الجمادي لا يليق

١- الحجر = ٢٩

به فالإباء و الإمتناع منها يرجع الىٰ عدم قابليتها و إستعدادها لقبوله، فالإسناد أي إسناد الإباء إليها ليس على سبيل الحقيقة بل هو علىٰ سبيل المجاز و هذا ممّا لا إشكال فيه كما يقال أبى الحجر و الشَّجر عن الجواب أو عن الكلام و قوله: **وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا** أي أعرضن و الإشفاق الإعراض وهذا الكلام في الحقيقة توضيح لقوله: **فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا** فأنّ الإشفاق من لوازم الإباء ثمّ قال تعالىٰ: **وَ حَمَلَهَا ٱلْإِنْسَانُ** يمكن أن يُقال، حملها أي خانها، لأنّ من خان الأمانة فقد حملها و كذلك كلّ من أثم فقد حمل الإثم كما قال تعالىٰ: **لَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ**(١).

و يمكن أن يحمل علىٰ ظاهره أي قبلها الإنسان بحسب قابلّيته و إستعداده فهذا القبول تكويّني أي أودعنا العقل فيه فهو حامله لا محالة و قابله و في قوله: **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** فليس معناه أنّ الإنسان بسبب قبول الأمانة صار كذلك بل الكلام إشارة الى ما هو مركوز في جبلّته و طبيعته البّشرية من الظّلم على النَّفس و الجهل بعواقب الأمور.

أمّا الظُّلم على النَّفس فلأنّه لا يتَّبع العقل في حكمه غالباً بل يتَّبع الشَّهوات و الأميال النَّفسانية و بعبارةٍ أخرى العقل لا يحكم بالظُّلم قطعاً فمن ظلم خرج عن طور عقله و كيف يحكم العقل بعبادة الوثن و الصَّنم و قتل النَّفوس بغير حقّ و العدول عن موازين العدل و الإتّصاف بالظّلم و المعاصي و هكذا مع إنّا نرى كثيراً من أفراد البشر بل أكثرهم يقولون بالكذب و يعملون القبائح و الحال أنّهم من العقلاء و ليس هذا إلاّ بسبب متابعتهم الهوى و إعراضهم عن حكم العقل و ليس هذا إلاّ من الظُّلم على أنفسهم فأنّ ربّك ليس بظّلامٍ للعبيد.

و أمّا قوله: **إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا** ففيه اشارة إلىٰ أنّ جهلهُ أكثر من علمه بمراتب، قال اللّه تعالٰى: **وَ مَآ أُوتِيتُمْ مِنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**(٢) فلو كان عالماً بعواقب

١- العنكبوت = ١٣ ٢- الاسراء = ٨٥

العصيان و الظّلم لما فعل ما فعل و هذان الأصلان من لوازم طبيعة البشر و جبلّته و لذلك جعل اللّه التّوبة وسيلة و سبباً لغفران الذّنوب لعلمه تعالى بأنّ البشر لا يخلو من الذّنب بمعناه العامّ الشّامل للصّغيرة و الكبير تقصيراً أو قصوراً هذا ما فهمناه من الآية و هو من إفاضات الرّبانية و أظنّ أنّ هذا الّذي ذكرناه في تفسير الآية أجمع و أشمل و أفيد ممّا ذكروه لأنّ طاعة اللّه بالعقل و معرفته بالعقل و ما خلق اللّه من الدّلائل على ربوبيّته بالعقل و الأولّوية الالٰهيّته بالعقل فالعقل هو الأصل و الأساس في الكلّ فهو الأمانة الإلٰهيّة فإفهم.

لِيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنٰافِقِينَ وَ ٱلْمُنٰافِقٰاتِ وَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَ ٱلْمُشْرِكٰاتِ وَ يَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَ ٱلْمُؤْمِنٰاتِ وَ كٰانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

و اللاّم، في، **ليُعذّب**، لام التّعليل على طريق المجاز لأنّ التّعذيب نتيجة حمل الأمانة و عدم حفظها و المعنىٰ أنّما جعلنا ذلك لتعذيب المنافق و المشرك حيث أنّهم مع كونهم من ذوي العقول عبدوا الأصنام و الأوثان أو نافقوا في دين اللّه و بذلك ظلموا على أنفسهم و لم يرجعوا عمّا كانوا عليه من النّفاق و الشّرك إلى الإيمان باللّه و رسوله و يتوب اللّه على المؤمنين أي يوفّقهم للتّوبة ثمّ يقبل توبتهم و كان اللّه غفوراً رحيماً، أي ستّاراً لعيوب خلقه رحيماً بهم في إسقاط عقابهم إذا تابوا و رجعوا إلىٰ الطّاعة و فيه إشارة إلى أنّ المؤمن قد يذنب و يعصي و بذلك يظلم على نفسه إلاّ أنّه يتداركه بالتّوبة و هو ظاهر.

سُورة سَبَأ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِي لَهُ مٰا فِي ٱلسَّمٰواٰتِ وَ مٰا فِي
ٱلْأَرْضِ وَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلْاٰخِرَةِ وَ هُوَ ٱلْحَكِيمُ
ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مٰا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مٰا يَخْرُجُ
مِنْهٰا وَ مٰا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ مٰا يَعْرُجُ فِيهٰا وَ
هُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لٰا
تَأْتِينَا ٱلسّٰاعَةُ قُلْ بَلٰى وَ رَبّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عٰالِمِ
ٱلْغَيْبِ لٰا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقٰالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمٰواٰتِ وَ
لٰا فِي ٱلْأَرْضِ وَ لٰآ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لٰآ أَكْبَرُ إِلّٰا
فِي كِتٰابٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا
ٱلصّٰالِحٰاتِ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾
وَ ٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ اٰيٰاتِنٰا مُعٰاجِزِينَ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ
عَذٰابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَ يَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا
ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَ
يَهْدِيٓ إِلٰى صِرٰاطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَ قٰالَ
ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلٰى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذٰا
مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

أَفْتَرىٰ عَلَى ٱللّٰهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ ٱلَّذينَ لٰا
يُؤْمِنُونَ بِالْاٰخِرَةِ فِي ٱلْعَذٰابِ وَ ٱلضَّلٰالِ ٱلْبَعيدِ
﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلىٰ مٰا بَيْنَ أَيْديهِمْ وَ مٰا خَلْفَهُمْ
مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ
ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ ٱلسَّمٰآءِ إِنَّ
فى ذٰلِكَ لَاٰيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنيبٍ ﴿٩﴾ وَ لَقَدْ اٰتَيْنٰا
داٰوُدَ مِنّٰا فَضْلًا يٰا جِبٰالُ أَوِّبي مَعَهُ وَ ٱلطَّيْرَ وَ
أَلَنّٰا لَهُ ٱلْحَديدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سٰابِغٰاتٍ وَ قَدِّرْ
فِي ٱلسَّرْدِ وَ ٱعْمَلُوا صٰالِحًا إِنّي بِمٰا تَعْمَلُونَ
بَصيرٌ ﴿١١﴾ وَ لِسُلَيْمٰانَ ٱلرّيحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ
رَواٰحُهٰا شَهْرٌ وَ أَسَلْنٰا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَ مِنَ ٱلْجِنِّ
مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ
عَنْ أَمْرِنٰا نُذِقْهُ مِنْ عَذٰابِ ٱلسَّعيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ
لَهُ مٰا يَشٰآءُ مِنْ مَحٰاريبَ وَ تَمٰاثيلَ وَ جِفٰانٍ
كَالْجَواٰبِ وَ قُدُورٍ راٰسِيٰاتٍ ٱعْمَلُوٓا اٰلَ داٰوُدَ
شُكْرًا وَ قَليلٌ مِنْ عِبٰادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمّٰا
قَضَيْنٰا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مٰا دَلَّهُمْ عَلىٰ مَوْتِهِٓ إِلّٰا داٰبَّةُ
ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّٰا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَنْ
لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مٰا لَبِثُوا فِي ٱلْعَذٰابِ
ٱلْمُهينِ ﴿١۴﴾ لَقَدْ كٰانَ لِسَبَإٍ في مَسْكَنِهِمْ اٰيَةٌ
جَنَّتٰانِ عَنْ يَمينٍ وَ شِمٰالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ
وَ ٱشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ ﴿١۵﴾

◀ اللّغة

مٰا يَلِجُ: الولوج الدّخُول.

يَعْرُجُ: العروج الصعود.

يَعْزُبُ: يقال عزب عنه إذا غاب عنه و العازب المتباعد في طلب الكلاء عن أهَله.

مُزِّقْتُمْ: التَّمزيق التَّفريق و المقصود تلاشي أجزاء البدن أي بليتم و تقطّعت أجسامكم.

نَخْسِفْ: يقال خسف القمر إذا ذهب ضوءه أو نقص و هو الكسوف أيضاً.

كِسَفًا: يقال كسفت الشّمس تكسف كسوفاً من باب ضرب إسوَّدت و الكسوف في الشّمس و الخسوف في القمر و المراد به في الآية أن تسقط عليه قطعة من السّماء.

مُنِيبٍ: الإنابة الرّجوع (أوِّبي) أي إرجعي بالتّسبيح معه معناه سبّحي معي، و قيل سيري معه.

سٰابِغٰاتٍ: السّابغ التّام من اللّباس فالسّابغات هي الدُّروع التّامة.

قَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ: سرد الحديد نظمه و قيل السَّرد حلق الدّرع و قيل السَّرد المسامير التّي في حلل الدَّرع و هو مأخوذ من سرد الكلام إذا تابع بين بعض حروفه.

غُدُوُّهٰا: أي جريها بالغداة.

رَوٰاحُهٰا: أي جريها بالعشّي.

أَسَلْنٰا: أي أذبنا و الأسل الذَّوب.

عَيْنَ ٱلْقِطْرِ: القطر بكسر القاف النُّحاس المذاب.

يَزِغْ: أي يعدل من العدول.

مَحٰارِيبَ: جمع محراب و هو شريف البيوت و قيل قصور و مساجد.

تَمٰاثِيلَ: جمع تمثال و هو صورة.
جِفٰانٍ: واحدها جفنة و هى القصعة الكبيرة.
كَالْجَوٰابِ: جمع جابية و هى الحوض الّذي يجئ الماء فيه و قيل الجوابي الحياض.
وَ قُدُورٍ رٰاسِيٰاتٍ: يعني عاليات.
مِنْسَأَتَهُ: المنسأة العصا بها ينساء لانّه أي يطرد و يؤخّر.
خَرَّ: أي سقط.

◀ الإعراب

فِي اَلْآخِرَةِ حال من الحمد و العامل فيه الظّرف. يَعْلَمُ حال مؤكّدة هو مستأنف. عٰالِمِ اَلْغَيْبِ بالرّفع أي هو عالِم الغيب و يجوز أن يكون مبتدأ و الخبر. و لاٰيَعْزُبُ صفة و علىٰ القول بالجرّ صفة، لربّي، أو بدلاً عنه. مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ بالجرّ صفة لرجزٍ و بالرّفع صفة لعذاب. وَ يَرَى معطوف علىٰ ليجزي أو هو مستأنف. اَلَّذِيَ أُنْزِلَ مفعول أوّل. هُوَ اَلْحَقَّ مفعول ثانٍ. إِذٰا مُزِّقْتُمْ العامل في، إذا، ما دلّ عليه خبر، إن، أي إذا مزّقتم بعثتم. وَ اَلطَّيْرَ بالنّصب هو معطوف على موضع جبال أو هو معطوف علىٰ فضلاً. وَ لِسُلَيْمٰانَ اَلرِّيحَ يقرأ بالنّصب أي و سخّرنا، و بالرّفع علىٰ الإبتداء. غُدُوُّهٰا شَهْرٌ جملة في موضع الحال من الرّيح.

وَ مِنَ اَلْجِنِّ في موضع نصب أي و سخّرنا له مِن الجنّ فريقاً، أو في موضع رفع على الإبتداء أو الفاعل. شُكْرًا مفعول له و الباقي واضح.

◀ التّفسير

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِي لَهُ مٰا فِي اَلسَّمٰاوٰاتِ وَ مٰا فِي اَلْأَرْضِ وَ لَهُ اَلْحَمْدُ فِي اَلْآخِرَةِ وَ هُوَ اَلْحَكِيمُ اَلْخَبِيرُ

قد مرَّ الكلام في معنىٰ الحمد في سورة الحمد بما لا مزيد عليه و قلنا هناك أنّ اللاّم فيه للجنس أو الإستغراق و المأل فيهما واحد و قلنا أيضاً أنّ اللّه علمٌ على الأصَّح للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و لا يطلق هذا الإسم على غيره مطلقاً واللاّم فيه للإختصاص أي أنّ الحمد مخصوص بالّذي له ما في السمّوات و ما في الأرض و هو ليس إلاّ اللّه تعالىٰ و فيه إشارة إلىٰ أنّ جميع المحامد ترجع إليه و اللاّم في، له الملك أي هو خالقهما و مالكهما فله التصرّف فيهما كيف يشاء و لا يقدر أحد على منعه منه و لا الإعتراض عليه هذا كلّه في الدُّنيا بسبب ما أنعم علىٰ عباده من فنون الإحسان و له الحمد في الأخرة أيضاً بما يفعل بهم من الثّواب و العوض و ضرُوب التّفضّل في الأخرة.

قال الزّمخشري لمّا قال وله الحمد في آلاخرة علم أنّه المحمود على نعم الأخرة و هو الثّواب.

فأن قلت ما الفَرق بين الحَمدَين.

قُلت أمّا الحمد في الدّنيا فواجب لأنّه علىٰ نعمةٍ مُتَفضلٍ بها و هو الطّريق إلىٰ تحصيل نعمة الأخرة و هى الثّواب.

و أمّا الحمد في الأخرة فليس بواجبٍ لأنّه علىٰ نعمةٍ واجبة الإيصال إلىٰ مستحقّها أنّما هو تتمّة سرور المؤمنين و تكملة إغتباطهم فيتلذّذون به كما يتلذّذ العطاش بالماء البارد إنتهىٰ كلامه.

و قال بعض المفسّرين أنّ الحقّ في الفرق بين الحمدين أنّ الأوّل عبادة مكَّلفة بها الثّانى غير مكلَّفٍ به و لا متكلّفٍ و أنّما هو في النّشأة الثّانية كالجبلّيات في النّشأة الأولىٰ و إلاّ فالنّعمة الأُولى كالثّانية بفضلٍ من اللّه لا عن إستحقاقٍ إنتهىٰ.

أقول الحمد لِلّه تعالىٰ هو الثّناء عليه بالفضيلة قاله الرّاغب في المفردات و قال غيره هو الثّناء بالجميل على قصد التّعظيم و التّبجيل للمدوح سواء النّعمة و غيرها و علىٰ هذا فحكم الحمد في الدّنيا حكمه في الأخرة و لا فرق بينهما و حيث أنّ الوجوب فيه عقلّيٌ فلا معنىٰ لقول الزّمخشري أنّ الحَمد في الدّنيا واجب.

أمّا في الأخرة ليس بواجب لأنّه علىٰ نعمةٍ واجبة الإيصال، و أيّ دليلٍ دلَّ من العقل و الشّرع على أنّ النّعم في الأخرة واجبة الإيصال دونها في الدّنيا فأنّ إيصال النّعم إلى العبد أن كان على سبيل الإستحقاق أو التّفضّل فهو في الدّنيا و الأخرة على حدّ سواء و اذا ثبت أنّ الوجوب فيه عقّلي فلا يمكن الفرق بين المقامين.

و لذلك صرَّح اللّه تعالىٰ في كثير من الأيات بعدم الفرق بين الحمد في الدّنيا و الحمد في الأخرة.

قال اللّه تعالىٰ: **ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَ ٱلْاخِرَةِ وَ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَ قِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ**(٢).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ قَالُوا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**(٣).

و هذا كلام أهل الجنّة بعد دخولهم فيها بدليل قوله تعالىٰ بعد ذلك: **ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ**(٤).

١- القصص = ٧٠
٢- الزّمر = ٧٥
٣- فاطر = ٣٤
٤- فاطر = ٣٥

و محصّل الكلام في المقام أنّ قوله تعالىٰ و له الحمد في الأخرة معناه كما له الحمد في الدّنيا و فيه إشعار بأنّ حمد الحامد لا يختصّ بالدّنيا بزعم أنّ الأخرة ليست بدار التّكليف فلا حمد فيها بل الحمد علىٰ النّعمة سواء كانت في الدّنيا أم في الأخرة و لا ربط له بالتّكليف أصلاً.

و قوله: **وَ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ**، معناه أنّ اللّه تعالىٰ حكيمٌ في جميع أفعاله لأنّها كُلّها واقعة مَوقع الحكمة، و خبيرٌ أي عالمٌ بجميع المعلومات و لا يخفىٰ عليه شئ.

يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَ مَا يَنْزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَ مَا يَعْرُجُ فيهَا وَ هُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ

هذه الآية يفسّر قوله: **وَ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ** فكأنّه قيل كيف يكون خبيرٌ، فقال تعالىٰ: **يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَا يَخْرُجُ مِنْهَا**، أي كيف لا يكون خبيراً و الحال أنّه يعلم ما يدخل في الأرض و ما يخرج منها قيل أي يعلم ما يلج في الأرض من المطر و ما يخرج منها من النَّبات فهو عالم بقطرات المطر و أنواع النّبات التّي تخرج من الأرض هكذا قيل و الأحسن حمل الآية على العموم ليدخل فيه دخول الميّت في القبر و خروجه عن الأرض بالبعث و بالجملة كلّ ما يدخل فيها و يخرج منها فهو قوله تعالىٰ يَعلَمه و هكذا يعلم ما ينزّل من السّماء و ما يعرج و يصعد فيها، قيل معناه ما ينزل من السّماء من الماء و الثَّلج و ما يعرج فيها من ملك، و الأحسن حمل الكلام على العموم أيضاً ليشمل جميع البركات النازّلة من السّماء حتّىٰ الأرزاق و المقادير و ما يعرج فيها من الملائكة و أعمال العباد كما قال تعالىٰ: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**، **وَ هُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ** يرحم عباده و يغفر ذنُوبهم عند التّوبة و ما ذكره في الآية من إحاطة علمه بجميع الأشياء مؤيّدٌ بالعقل أيضاً فأنّ الخالق لا يكون جاهلاً بخلقه و الاّ لايكون خالقاً له.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَ رَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَآ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

حكى اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن الكفّار أنّهم قالوا أو يقولون لا تأتينا السّاعة، أي القيامة و أنّما قالوا ذلك تكذيباً للنّبي أو إستهزاءً بما أخبرهم بأنّ السّاعة أتية و أنّ اللّه يَبعث من في القبور فأمر اللّه نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار، بلىٰ، أي نعم تأتيكم السّاعة و حقّ ربّي، الواو للقسم أي أقسم باللّه الّذي خلقني و خلقكم و أخرجنا من العدم إلىٰ الوجود، لتأتينّكم السّاعة البتّة أي لا تستعجلوا في مجيئها فأنّ المستقبل إذا كان محقّق الوقوع فهو في حكم الماضي (عالم الغيب) هو صفة لقوله، ربّي، بناءً علىٰ الكسر أي كسر الميم و هو في موضع جرٍّ بواو القسم، و في موضع رفع بناء على الإبتداء أو على أنّه خبر إبتداءً محذوف أي هو عالم الغيب و الغيب كلّ شيٍ غاب عن الإنسان علمه، لا يعزب عنه، أي لا يفوته و لا يغيب عنه.

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ لَا فِى ٱلْأَرْضِ وَ لَآ أَصْغَرُ مِنْ ذٰلِكَ وَ لَآ أَكْبَرُ، و ذلك لأنّه تعالىٰ خالق الكلّ و الخالق لا يكون جاهلاً بما خلقه و إلاّ يلزم أن لا يكون خالقاً له و قوله: **إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ** ، قيل المراد به اللّوح المحفوظ أي أثبت اللّه تعالىٰ فيه جميع ما هو كائن إلىٰ يوم القيامة.

لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ أُولٰٓئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ

قيل في معناها أنّما أثبت ذلك في الكتاب المبين ليجزي على ذلك الّذين أمنوا و عملوا الصّالحات، بنعيم الجنّة و هو قوله: **أُولٰٓئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ**، لذنوبهم و رزق كريم، و هى الجنّة وما فيها من النّعم الّتي لا زوال لها و لا تكدير.

أقُول ما ذكروه في تفسير الآية لا بأس به إلاّ أنّ الآية بصدد بيان شيءٍ أخر و هو أنّ السّاعة أو القيامة أو يوم الجزاء أو ما شئت فسمّه لابدّ من وقوعها و الدّليل عليه قوله تعالىٰ: **لِيَجْزِىَ**، فأنّ اللاّم فيه للتّعليل أو للغاية و توضيح ذلك أنّه تعالىٰ قال في الآية السّابقة، لتأتينّكم، بلام التّأكيد و النّون المثقّلة الدّالتان علىٰ وقوع القيامة قطعاً.

فكأنّ الكفّار قالوا لم تأتينا السّاعة و أيّة فائدةٍ في وجودها فقال تعالىٰ في جوابهم: **لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ** فعلّل اللّه تعالىٰ كلامه في الآية السّابقة بوجود الجزاء علىٰ الأعمال في هذه الآية وتوضيحه إجمالاً:

أنّ الدّنيا ليست بدار الجزاء بل هي دار العمل فقط و هذا معلومٌ لا خلاف فيه، ثمّ أنّ اللّه تعالىٰ خلق الخلق و من جملة الخلق الإنسان من المؤمن و الكافر و الرّجل و المرأة و الصّغير و الكبير و القويّ و الضّعيف و الظّالم و المظلوم و هكذا جميع أفراد البشر على إختلاف طبقاتهم و صفاتهم و هذا أيضاً ممّا لا خلاف فيه فأنّ الخالق واحدٌ في الكلّ، و أيضاً لا شكّ في وجود الظّالم و المظلوم و المؤمن و الكافر و العادل و الفاسق في أفراد البشر في كلّ عصرٍ و زمانٍ.

فإذا فرضنا أنّ المظلوم و الضّعيف في الدُّنيا لم يقدر على أخذ حقّه من الظّالم و عجز عن الدّفاع عن نفسه و مات الظّالم على ظلمه و المظلوم على مظلوميّته و مقهوريّته فأن قلنا بعدم وجود دار الجزاء بعد الموت لزم أن يكون اللّه تعالىٰ ظالماً علىٰ بعض العباد و ذلك لأنّ المفروض أنّ اللّه هو الخالق للظّالم و المظلوم و هو سلّط الظّالم على المظلوم بإعطاء القدرة إيّاه و أيّ ظلم أفحش منه من الخالق الحكيم على عبده الضّعيف.

و قد قال اللّه تعالىٰ: **شَهِدَ ٱللّٰهُ أَنَّهُ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ وَ أُولُو ٱلْعِلْمِ قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ**[١]، فالعدل يقتضي إيجاد دار الجزاء و هى الأخرة و هو المطلوب.

١- آل عمران = ١٨

و هكذا في المؤمن و الكافر و العادل و الفاسق و الصّادق و الأمين و غير ذلك فأنّ العقل يحكم بترجيح المطيع على العاصي و إذ ليس في الدّنيا فهو في عالم أخر و هو الآخرة هذا كلّه من جهة العقل.

و أمّاً النّقل فالأيات الدّالة على عالم الجزاء و أنّه في الأخرة كثيرة جدّاً و سيأتي الكلام في هذا الباب في المستقبل إن شاء اللّه.

وَ ٱلَّذِينَ سَعَوْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية أنّ الّذين يسعون في أيات اللّه معاجزين أي متعاونين في إبطال الأيات أولئك لهم عذابٌ من رجز أي رجسٍ مؤلمٍ عذاب النّار أعاذنا اللّه منها.

وَ يَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِيٓ أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَ يَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ

المراد بلا رؤيّة في هذه الآية هو بالرُّؤية القلبيّة الّتي تحصّل للإنسان ببركة العلم و تهذيب النّفس فأنّ هذه الرّؤية لا توجد في الجاهل الغافل و لذلك خصَّها اللّه تعالىٰ بأهل العلم، الّذي أنزل إليك من ربّك، هو القرأن و هو الحقّ و هو الّذي يهدي النّاس إلى صراط العزيز الحميد، يعني إلىٰ دين اللّه القادر الذّي لا يغالب و الحميد يعني المحمود على جميع أفعاله و ليس هو إلاّ اللّه تعالى و في هذه الآية دلالة واضحة علىٰ أنّ العالم يرى ما لا يراه الجاهل و لذلك رفع اللّه مقام العلم و العلماء في كثير من لأيات و أمر النّاس بإتباعهم و الإستضاءة بأنوار أفكارهم في دينهم و دنياهم.

قال اللّه تعالىٰ: **فَسْئَلُوٓا أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِى ٱللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ لا هُدًى وَ لا كِتَابٍ مُنِيرٍ**(٢).

١- الأنبياء = ٧ ٢- لقمان = ٢٠

قال اللّه تعالىٰ: **يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**[١].

و أمّا أنّ القرآن المُنزَل هو الحقّ.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**[٤].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ**[٥].

و أمّا أنّ القرآن يَهدي إلىٰ صراط العزيز الحَميد، و هو الصّراط المستقيم الّذي لا عِوَج فيه.

قال اللّه تعالىٰ: **يَمْحُوا ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَابِ**.

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**[٦].

قال اللّه تعالىٰ: **فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ**[٧].

و الأيات كثيرة و لا شكّ أنّ كلّ ما ذكره في الآية من ثمرات العلم فأنّ الجاهل بمعزل عن درك الحقائق المستورة في كتاب اللّه و لا حظّ له منه إلاّ تلاوة أياته أو حفظها.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ

نزلت الآية في منكري البعث من الكفّار الّذين قالوا و لا تأتينا السّاعة، أخبر اللّه تعالىٰ فيها أنّهم أي الكفّار قالوا لأبناء نوعهم من المنكرين هل نرشدكم إلىٰ

١- المجادلة = ١١
٢- يُونس = ١٠٨
٣- هُود = ١٧
٤- الرّعد = ١
٥- الحجّ = ٥٤
٦- محمّد = ٢٤
٧- ق = ٤٥

رجلٍ، ينبّئكم أي يخبركم و يقول لكم، أنّكم تبعثون بعد البلىٰ في القبور و هذا الكلام صادر عنهم عن فرط إنكارهم.

و المراد بالرّجل في الآية هو رسول اللّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم الّذي أخبرهم به و أنّما لم يسمّوا بإسمه و عبّروا عنه، برجلٍ، علىٰ وجه التّنكير تحقيراً له صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بزعمهم الفاسد و إنكاراً له برسالته و إلاّ كانوا يعرفونه كما كانوا يعرفون أبناءهم و قوله تعالىٰ: **مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ** أي فرّقتم كلّ تفريق، و المزق خرق الأشياء و المقصود من هذا الكلام أنّ الأجساد البالية المتّفرقة الأجزاء و الأعضاء في القبور كيف تكون خلقاً جديداً و لم يعلموا أنّ الخلق الجديد ليس بأصعب من الأوّل بل هو أسهل منه و ذلك لكون الأوّل علىٰ سبيل الإبداع بخلاف الثّاني و الإبداع هو إيجاد الشّئ بغير ألةٍ و لا مادّةٍ و لا زمانٍ و لا مكانٍ و لذلك ليس ذلك إلاّ للّه تعالىٰ و أمّا غيره تعالى فلا يقدر على هذا النّوع من الخلق.

و أمّا الخلق الثّاني فليس على سبيل الإبداع لوجود المادّة فيه و سنتكلّم في بحث المعاد في أقسام الخلق و ما يتعلّق به علىٰ وجهٍ أبسط إن شاء اللّه.

أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَ ٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ

قال قومٌ أسقط ألف الإستفهام من، أفترى و الأصل (أإفترىٰ) لدلالة، أم، عليه و قال الزّماني هذا غلط لأنّ ألف الإستفهام لا تحذف إلاّ في ضرورةٍ و أنّما القراءة بقطع الألف فألف الإستفهام ثابتة و ألف، إفتعل، أسقطت لأنّها زائدة و مثله.

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ**(٢).

١- ص = ٧٥ ٢- الصّافات = ١٥٣

قال اللّه تعالىٰ: **سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ**[١].

و غيرها من الأيات.

و معنىٰ الآية أنّ المشركين المنكرين للبعث الّذين كانوا يتعجّبون من قول النّبي أنّ اللّه يعيد الخلق بعد إماتتهم خلقاً جديداً يقولون هل كذب القائل بالبعث و هو النّبي، علىٰ اللّه حين نسب الإحياء بعد الإماتة إليه، أم به جنّة، أي جنون فأنّ العاقل لا يقول بالبعث و الحياة بعد الموت و الحاصل أنّ القائل بهذه المقالة أمّا كاذبٌ في دعواه أو مجنونٌ، ثمّ قال اللّه تعالىٰ رادّاً عليهم، بل الّذين لا يؤمنون بالأخرة في العذاب و الضّلال البعيد، أي ليس الأمر كما قالوا بل هو صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أصدق الصّادقين.

أمّا من ينكر البعث فهو غداً في العذاب و اليوم في الضّلال عن الصّواب هكذا قيل والأحسن حمل العذاب و الضّلال على العموم أي أنّهم في عذاب الجهل و الضّلالة في الدُّنيا أيضاً فضلاً عن الأخرة و الأمر سهل.

أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ

أي أفلم ينظروا هؤلاء ما بين أيديهم و ما خلفهم من السّماء و الارض، و أنّهما محيطتان بهم من كلّ جانبٍ، إن نشأ نخسف بهم الأرض كما فعل بقارون و أصحاب الأيكة، أو نسقط عليهم كسفاً أي قطعةً من السّماء أنّ في ذلك لأيةً و علامةً لكلّ عبدٍ منيب أي راجع الى اللّه تعالى.

قال بعض المفسّرين في وجه التّنبيه بالآية أنّهم لو تفكرّوا بعد النّظر في قدرة اللّه و أنّهم في قبضته لعلموا ذلك و لكن شغلتهم الدُّنيا و زخارفها عن التّفكر فوقعوا فيما وقعوا من الضّلالة فأنّ الغفلة توجب ذلك و هو واضح.

١- المنافقون = ٦

وَ لَقَدْ آتَيْنا داوُودَ مِنَّا فَضْلًا يا جِبالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ، أَنِ اعْمَلْ سابِغاتٍ وَ قَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَ اعْمَلُوا صالِحًا إِنِّي بِما تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

في هذه الآية أخبر اللّه تعالى عن قصّة داود النّبي و أنّ اللّه تعالى أتاه فضلاً و نحن نشير الى ما ذكره أرباب السّير في الباب ثمّ نتكلّم في ألفاظ الآية.

فنقول لقد بعث اللّه نبيّاً لبني إسرائيل يسمّى إشمويل و كان في عهده ملك الكنعانيّين وكان ملكه بين مصر و فلسطين فطغى ببني إسرائيل و ضرب عليهم الجزية و أخذ منهم التّوراة فدعوا اللّه أن يرسل اليهم نبيّاً يقاتلون معه و لمّا بعث اللّه إشمويل اليهم جعل يدعوهم الى اللّه تعالى و كان جالود و جنوده لمّا إنتزع منهم التّابوت أدخلوه بيت الأصنام فتنكسّت الأصنام بأجمعها و ضرّت للأرض على وجوهها فأخرجوه و أرادوا حمله الى مكانٍ مجهولٍ فلمّا حملوه و أخرجوه من مدينتهم حملته الملائكة و خطفته و رفعته بين السّماء و الأرض ورآه بنو إسرائيل عياناً ثمّ أنّ بني إسرائيل لمّا عظمت فيهم نكاية العمالقة و القبطيّين من جنود جالوت حتّى كادوا يهلكون توّسلوا الى نبيّهم إشمويل أن يدعوا اللّه تعالى حتّى يرسل لهم ملكاً يقاتلون معه جنود جالوت و ينتقمون منهم فشرط عليهم أشمويل النّبي أن يطيعوه إذا أمرهم بالحرب فعاهدوه على ذلك و قالوا كيف لا نجاهد و قد بلغنا من الذُّل مبلغاً عظيماً و أخرجنا من ديارنا فدعا أشمويل ربّه تعالى في ذلك فأجابه اللّه و أرسل إليه عصا و أوحى إليه أنّه من يكون طوله على قدر هذه العصا فهو ملك بني إسرائيل و جعل أشمويل يقيس عصا على بني إسرائيل فلم توافق واحداً منهم أبداً و إتّفق دخول طالوت عليهم و هو ليس من بني إسرائيل و هو من ذريّة أخ يوسف، بنيامين و كان رجلاً عالماً مطّلعاً قويّاً شجاعاً فلمّا رآه أشمويل قام إليه وقاسه بالعصا فإذا هي على طوله فبّشره بالملك و السّلطنة و

أخبر بني إسرائيل بأنّ اللّه بعث لهم طالوت ملكاً فلمّا سمع بنو إسرائيل ذلك من نبيّهم غضبوا و قالوا أنّه ليس من سبط النّبوة و لا من أبناء الملك و السلطنة فكيف يتّرأس علينا فأخذ أشمويل يعظهم و يخبرهم أنّ اللّه إختاره لذلك و شرّفه و فضّله و ميّزه عن غيره في العلم و الجسم و أنّ عليكم أن تطيعوا أمر اللّه فهو أعلم حيث يجعل الملك فلم يقنعهم كلامه إلى أن قالوا أتنا بأيةٍ فقال أنّ أية ملكه أن يعيد إليكم تابوت السّكينة فوافقوا على ذلك فنزلت الملائكة بالتّابوت نهاراً إلى طالوت و هم ينظرون إليه نازلاً من السّماء إلى الأرض فأقّروا عند ذلك بملكيّة طالوت و إتّبعوه كارهين و قد أشار اللّه تعالى إلى ذلك بقوله:

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنْ بَنِيٓ إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ(١).

ثمّ أنّهم لمّا رأوا التّابوت نزل على طالوت و وثقوا من نبيّهم أشمويل ملكهم طالوت أيقنوا بالنّصر و إجتمع حول طالوت سبعون ألف مقاتل و إستعدّوا للقتال ثمّ أوحى اللّه تعالى إلى نبيّهم أشمويل أنّ جالوت لن يقتل إلاّ بيد محاربٍ قوّي جسمه يوافق درع موسى و هو رجل من ولد لاوس بن يعقوب من أبناء راعي يدعى (أشي) و أخبر أشمويل بذلك طالوت فبعث طالوت إلى (أشي) و أمره بإحضار أولاده معه و كان له تسعة أولاد فأحضر ثمانية و بقي أصغرهم مع الغنم فجعل يقيس درع موسى عليهم فلم يوافق واحداً منهم فقال له هل بقي أحدٌ من أولادك غائباً قال نعم أصغرهم بقي مع الغنم فقال طالوت أئتني به فذهب أحد أخوانه و أرسله إلى أبيه و كان طالوت أخبر جنوده أنّ الّذي يقتل جالوت يدخل في هذا الدِّرع فيملأه و وعدهم أن يزّوجه إبنته فلمّا أقبل الصّغير و كان إسمه داود و كان هو أتى نادته ثلاثة أحجار صغيرة أن أخذنا معك يا داود و أقتل بنا جالوت فحملّهن في جيبه فلمّا دخل

١- البقرة = ٢٤٥

على طالوت جعل يتأمله و إستحضر الدِّرع و ألبسه إيّاه فإمتلأ منه فظهر لهم أنّه هو الّذي يقتل جالوت فسار طالوت بجنوده إلى قتال جالوت و كان في طريقهم بين فلسطين و الأردن نهر ماء و أراد اللّه تعالى إمتحان المطيعين و تمييزهم من العاصين من جنود طالوت فنهاهم عن شرب ماءه و أخبرهم كما قال اللّه تعالىٰ:

إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِنْهُمْ(١).

قيل كانت عدّتهم ثلاث مائة و ثلاثة عشر رجلاً لم يشربوا منه و أمّا الباقي فشربوا منه و إزدادوا بذلك عطشاً ثمّ جاوزوا النّهر و لمّا نظروا إلى جنود جالوت فزع منهم كلّ من عصى طالوت و شرب من النّهر و قالوا لا طاقة لنا على قتالهم فقال الّذين أطاعوا طالوت و تركوا الشّرب من النّهر.

كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّابِرِينَ(٢).

فإن عزل العصاة و بقي المطيعون المؤمنون و تقدّم داود بين عسكر طالوت حتّى وقف مقابل جالوت راكباً على الفيل و على رأسه تاج و في جبهته درّة يلمع ضوءها فأخذ داود حجراً من أحجاره و رمى به جالوت فوقع في ياقوتته فصَّكها ثمّ شقَّ جبهته حتّى وصل إلى دماغه فوقع على الأرض ميتاً لساعته ثمّ قذف حجراً عن يمين الجيش و حجراً عن يساره فوّلوا هاربين كما قال تعالى:

فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَ قَتَلَ داوُدُ جالُوتَ وَ ءاتيهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَ ٱلْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَهُ مِمَّا يَشَآءُ وَ لَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ(٣).

و لمّا قتل جالوت وصفا الملك لطالوت أقام داود عنده معزّزاً و زوّجه بنته و أجرى خاتمه في ملكه و مال النّاس إلى داود و أحبّوه إلى أن توّفى طالوت

١- البقرة = ٢٤٩
٢- البقرة = ٢٤٩
٣- البقرة = ٢٥١

فإجتمعت له ما لم يجتمع لأحدٍ قبله من النّبوة و الملك معاً إذا عرفت هذا فإعلم.

أنّ نبّي اللّه داود كان من ولد لاوي بن يعقوب و هو من الأنبياء الذّين حاربوا في سبيل اللّه بالسّيف كما أنّ منهم موسى بن عمران و نبينا محمّد سلام اللّه عليهم أجمعين و لنرجع إلى تفسير ألفاظ الآية فقوله تعالى: **وَ لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا** فقد علمت معناه ايّ فضلٍ أعلى و أشرف ممّا جعل اللّه الملك و النّبوة معاً و لم يحصل ذلك لأحدٍ من الأنبياء قبله فهو في الحقيقة جمع بفضل اللّه و عنايته بين الدّنيا و الأخرة و صار مصداقاً كاملاً لقول القائل:

وأخرُ فاز بكلتيهما قد جمع الدّنيا مع الأخرة

و قوله: **يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَ الطَّيْرَ** يعني قلنا يا جبال سجّي معه و إلى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرَاقِ**(١).

و قيل أوّبي، معناه التّسبيح بلسان الحبشة و التّأويب التّسبيح، و قيل معنى، أوّبي، سيري معه حيث شاء فأنّ التّأويب سير النّهار، و كيف كان لا شكّ في أنّ اللّه تعالى سخّر له الجبال أمّا بالتّسبيح و أمّا بالسّير معه حيث يشاء و هذا هو المقصود من الآية و قوله: **وَ الطَّيْرَ** فهو معطوف على الجبال أي سخّرنا له الجبال و الطّيور فأنّ اللاّم في **الطّير** للجنس، كان داود إذا قرأ الزّبور صوّتت الجبال معه و أصغت إليه الطّير فكأنّها فعلت ما فعل و الأقوال فيه كثيرة.

و قوله: **وَ أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**، قال قتادة كان الحديد في يده مثل الشّمع يصرفه كيف يشاء من غير نارٍ و لا تطريق و قال الحسن كالعجين و كان يفرغ من الدِّرع في بعض اليوم أو في بعض اللّيل ثمنها ألف درهم و كان سبب ذلك أنّ داود كان يدور في أنحاء مملكته متنكّراً يتّفقد أحوالهم فلقيه رجل فسأله داود كيف ترى سيرة داود فقال الرّجل نعم الرّجل هو لولا خصلة فيه قال داود و ما

١- ص = ١٨

هي قال أنّه يأكل من بيت مال المسلمين فإنتبه داود إلى ذلك و أثنى عليه ثمّ أقسم أن لا يأكل من بيت المال و كان الرّجل ملك من ملائكة اللّه تعالى، فألان اللّه له الحديد ليتّمكن من تحصيل قوته مع القيام بوظيفة المساكين و المملكة و الحكم فكان داود عليه السلام يعمل من الحديد دروعاً و يبيعها و يأكل من كسب يده و يطعم الفقراء.

و قوله: **أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَ قَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ**، فالسّابغ التّام من اللّباس و منه إسباغ النّعمة إتمامها و ثوب سابغ أي تامّ، و **السّرد** بفتح السّين المشدّدة النّظم يقال سرد الحديد نظمه و قيل السَّرد حلق الدّرع، و قيل السَّرد المسامير التّي في حلق الدِّرع و هو مأخوذ من سرد الكلام إذا تابع بين بعض حروفه و بعضٍ كالتّابعة في الحلق و المسامير و منه السَّرد للطّعام و غيره للإستسباع في خروج ما ليس منه.

و قال قتادة كانت الدروع قبله صفائح فكانت ثقالاً فلذلك أمره اللّه تعالى بالتّقدير فيما يجمع من الحفّة و الحصانة أي قدِّر ما تأخذ من هذين المعنيين بقسطه أي لا تقصد الحصانة فتثقل و لا الحفّة فتزيل المنعة.

و قال إبن زيد التّقدير الذّي أمر به هو في قدر الحلقة أي لا تجعلها صغيرة فتضعف فلا تقوى الدّروع على الدّفاع و لا تعملها كبيرة فينال لابسسها.

و قال إبن عبّاس التّقدير الذّي أمر به هو في المسمار أي لا تجعل مسمار الدِّرع رقيقاً فينفلق و لا غليظاً فيفصم الحلق و الأقوال كثيرة في معنى السَّرد و المراد به و الجامع بينهما هو أنّ اللّه تعالى أمره بالتّقدير في الدّروع أي مراعاة القسط في جميع شئونها من السِّعة و الضِّيق و غيرهما فأنّ السَّرد نسج حلق الدّروع و منه قيل لصانع حلق الدّروع، السَّراد و الزّراد تبدل من السّين الزّاي كما قيل سرّاط و زرّاط.

أمّا قوله تعالى: **وَ ٱعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**، قال المفسّرون هذا خطاب لداود و أهله أمرهم اللّه أن يعملوا صالحاً ثمّ أخبر اللّه تعالى بأنه

بصير بالأعمال لا يخفى عليه شئ قال الزّمخشري و الضّمير في إعملوا لداود و أهله و به قال جميعهم.

أقول لا بأس بما ذكروه و ظاهر الآية يؤيّده و الّذي يقوي في نفسي أنّ الواو للإستئناف و الضمير في إعملوا لجميع النّاس و المعنى إعملوا أيّها النّاس عملاً صالحاً سواء فيه عمل الدّرع و غيره و يدخل في الحكم أل داود أيضاً و على هذا فالحكم عامّ يشمل الكلّ و أنّما قلنا ذلك لعدم وجود الدلّيل على التّخصيص بأل داود فالحكم باق على عمومه و العمل الصّالح لا يختصّ بالعبادات و الخيرات بل يشمل جميع الأعمال إذا كانت مطابقة للعقل و الشّرع سواء كان من العبادات و الخيرات أم غيرها و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى فأنّ الإنسان ينبغي أن يراعي قانون العدل و الإنصاف في جميع أقواله و أفعاله، و حيث إنجّر الكلام إلى قصّة داود النّبي، و أنّه صار مشمولاً لعناية ربّه و أعطاه اللّه الملك و النّبوة فلا بأس بالإشارة إلى أحواله و سيرته في مدّة حياته إجمالاً:

فنقول أصاب النّاس في عصر داود طاعون شديد فتوسلوا به فخرج بهم إلى موضوع المسجد الأقدس لأنه عليه السلام كان يرى عروج الملائكة و هبوطهم منه فوقف عند موضع الصّخرة و دعا ربّه تعالى في كشف الطّاعون عن قومه فإستجاب دعوته فإتّخذ ذلك الموضع مسجداً و شرع في بناءه و كان ذلك في السّنة الحادية عشرة من ملكه و توفّى قبل أن يتّم بناءه فأوصى إبنه سليمان بإتمامه، و قد قسّم داود أيّامه أربعاً، فيومٌ منها للقضاء بين بني إسرائيل، و يومٌ لنسائه و ولده، و يومٌ يعتزّل النّاس فيه و يخلوا إلى ربّه و يتّعبد، و يومٌ رابع يقضيه في محرابه فيوافيه الرّهبان فيعتبرون فيه و يستعبرون لدينهم و دنياهم، و كانت له جارية تغلق عليه كلّ ليلةٍ جميع الأبواب ليخلوا إلى عبادة ربّه و مناجاته و للتّفكر في الأخرة فبينما هو في عبادته ذات ليلةٍ و قد أغلقت عليه الأبواب إذ رأى رجلاً في الدّار فقال له من أنت و من أدخلك الدّار فقال أنا

الّذي أدخل على الملوك بدون إستئذان قال داود أأنت ملك الموت قال نعم قال له فهلاّ أرسلت إلّي رسلاً فأستعد للموت قال أرسلنا إليك كثيراً قال داود من كان رسلك قال أبوك و أمّك و أخوك و جارك و معارفك، أين هم قال ماتوا قال أفما كفاك هؤلاء رسلاً هم كانوا رسلي إليك كما أنّك رسولي إلى من بعدك و كما ماتوا تموت ثمّ قبض روحه و له تسعة عشر ولداً و وارث منصبه في الملك و النّبوة هو ولده سليمان بنّصٍ من اللّه كما هي عادته في السَّلَف.

وَ لِسُلَيْمٰانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ رَوٰاحُهٰا شَهْرٌ وَ أَسَلْنٰا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَ مِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنٰا نُذِقْهُ مِنْ عَذٰابِ ٱلسَّعِيرِ

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة الى داود النّبي أردف كلامه بذكر سليمان النّبي بعد أبيه داود و ما أعطاه اللّه و هو الّذي أفاء اللّه عليه بنعم الدُّنيا و الأخرة معاً و جعل له ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعده فقد أكرمه بالنبوّة و جعل له الملك و زاده عليها بالحكمة حتّى لقّب بالحكيم ثمّ جعل ملكه شاملاً للبشر و الجنّ و الشّياطين و الحيوانات و الطُّيور و الحشرات فكان عليه السلام يفهم لغاتها جميعاً و كانت كلّها تأتمر بأمره و زاده سلطةً على السّحاب و الرّياح و مع هذا كلّه فأنّه لم يخرج عن تواضعه و لم يغادر خوف اللّه قلبه و لم يتعال على المساكين و كان يعمل بيده لقوت نفسه و سنشير الى سيرته و أحواله بعد تفسير ألفاظ الآية **وَ لِسُلَيْمٰانَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهٰا شَهْرٌ وَ رَوٰاحُهٰا شَهْرٌ** الواو للعطف قيل تقدير الكلام و سخرّنا لسليمان الرّيح أي سخرّنا الجبال و الطّير و الحديد لأبيه داود كذلك سخّرنا الرِّيح و عين القطر لأبنه سليمان ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في معنى غدوها شهر و رواحها شهر بعد إتّفاقهم على معنى الرّيح فقال قتادة كان مسيرها به الى إنتصاف النّهار مقدار مسير شهر، و رواحها شهر من إنتصاف النّهار الى اللّيل في مقدار مسير شهرٍ.

و قال الحسن في معناه، كان يغدوا من الشّام الى بيت المقدس فيقبل بإصطخر من أرض أصبهان و يروح منها فيكون بكابل و بينهما مسير شهر للمسرع.

و قال السُّدي كانت تسير به في اليوم مسيرة شهرين.

وَ أَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ الإسالة الإذابة و **القِطر** بكسر الطّاء النّحاس و المعنى أذبنا له النُّحاس، قيل لم يذب النُّحاس قبله لأحدٍ و كان لا يذوب وقته كان يذوب و أنّما ينتفع النّاس اليوم بما أخرج اللّه لسليمان، و قيل أنّه جعل النُّحاس لسليمان في معدنه عينا تسيل كعيون الماء دلالة على نبوّته.

و قال الخليل القطر النُّحاس المذاب.

أقول و على قول الخليل فالتّفسير الأخير و هو أنّ النُّحاس في معدنه عيناً تسيل كعيون الماء، في موضعه و اللّه أعلم بكيفيّة القضيّة.

وَ مِنَ ٱلْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ أصل **الجِنّ** بكسر الجيم ستر الشّيء عن الحّاسة يقال جنَّه اللّيل و أجنَّه و جنَّ عليه فجَّنه ستره، و الجنّ يقال على وجهين:

أحدهما: للروّحانيين المستترة عن الحوّاس كلّها بإزاء الإنس فعلى هذا تدخل فيه الملائكة و الشّياطين فكلّ ملكٍ جنّ من و ليس كلّ جنٍّ ملائكة و على هذا قال أبو صالح، الملائكة كلّها جنٌّ و قيل بل الجنّ بعض الرُّوحانيين أنّ الروحانيين ثلاثة:

أخيار و هم الملائكة.

أشراروهم الشّياطين.

أوساط فيهم أخيار و أشرار و هم الجنّ و قيل أنّ الجنّ يتّشكل بأشكال مختلفة حتّى الكلب و الخنزير.

و أمّا الملك فهو يتشكّل كذلك إلاّ الكلب و الخنزير، و ذلك لعدم وجود الأشرار في الملائكة و كيف كان أخبر اللّه تعالى في الآية أنّ من الجنّ من يعمل

بين يديه بإذن ربّه فكلمة، من للتبعيض في موضع نصب، بمعنى و سخرّنا له من الجنّ من يعمل، و يجوز أن يكون في موضع رفع و في قوله: **بِإِذْنِ رَبِّهِ** أشارة الى أنّ هذه المسخّرات لداود و سليمان، بإذن اللّه ثمّ أشار اللّه تعالى الى أنّ من يعدل عن هؤلاء الجنّ الّذين سخرّناهم له من طاعة سليمان بأن عصاه نعذّبه.

فقال: **وَ مَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنا نُذِقْهُ مِنْ عَذابِ ٱلسَّعِيرِ** يعني عذاب النّار في الأخرة و قيل في الدُّنيا و ذلك أنّ اللّه تعالى وكلَّ بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ عن أمر سليمان أي تمرَّد و عصى، ضربه بذلك السّوط ضربة من حيث لا يراه فأحرقته قاله السُّدي، و الجمهور على القول الأوّل، أعني به العذاب في الأخرة و اللّه أعلم.

ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّ الجنّ الّذين سخرَّهم اللّه لو كانوا:

يَعْمَلُونَ لَهُ ما يَشاءُ مِنْ مَحارِيبَ وَ تَماثِيلَ وَ جِفانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ ٱعْمَلُوا آلَ داوُدَ شُكْرًا وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ ٱلشَّكُورُ

مَحاريب، بفتح الميم جمع محراب بكسرها و هي في اللُّغة كلّ موضعٍ مرتفع، و قيل للّذي يصلّى فيه محراب لأنّه يجب أن يرفع و يعظّم.

و قال أبو عبيدة المحراب أشرف بيوت الدّار، و قيل هو ما يرقى اليه بالدَّرج كالغرفة الحسنة و قيل المراد بالمحاريب القصور و المساجد.

وَ تَماثِيلَ جمع تمثال و هو كلّ ما صوّر على مثل صورةٍ من حيوان أو غير حيوانٍ، كانت من زجاجٍ و نحاس و رخام تماثيل أشياء ليست بحيوانٍ و ذكر أنّها صوّر الأنبياء و العلماء و كانت تصوّر في المساجد ليراها النّاس فيزدادوا عبادةً و إجتهاداً و قد نقل بعض المفسّرين من العّامة في تفسيره، قال رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّ أولئك كان إذا مات فيهم الرّجل الصّالح بنوا على قبره مسجداً و صوّروا فيه تلك الصوّر إنتهى.

ثمّ قال النّاقل و هذا يدّل على أنّ التّصوير كان مباحاً في ذلك الزّمان ثمّ نسخ ذلك بشرع محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و قيل التّماثيل طلسمات كان يعملها و يحرم على كلّ مصوّر أن يتجاوزها فيعمل تمثالاً للذّباب أو للبعوض أو للتّماسيح في مكان و يأمرهم ألاّ يتجاوزوه و الأقوال في الباب كثيرة و ليس لهم دليل على صدق مدّعاهم و أنّما هي من مستخرجات أنفسهم و الّذي دلّت الآية عليه هو وجودها و أمّا كيّفيتها فلا يعلمها إلاّ اللّه تعالى.

و أمّا قوله: **وَ جِفَانٍ كَالْجَوابِ وَ قُدُورٍ راسِياتٍ** جفان بكسر الجيم واحدها جفنة و هى القصعة الكبيرة، و الجوابي جمع جافية و هى الحوض الّذي يجئ الماء فيه.

و قال إبن عبّاس الجوابي الحياض، و قدور راسيات قيل هي قدور النّحاس و قيل هي قدور تعمل من الجبال و معنى راسيات ثوابت لا تحمل و لا تحرّك لعظمها.

أقول قدور النّحاس يقال لها بالفارسية (ديگ هاي مس بزرگ) و أن كانت من الجبال يقال لها بالفارسية «ديگ هاي سنگى» مؤلّف.

ثمّ قال تعالى: **ٱعْمَلُوٓا آلَ داوُودَ شُكْرًا**، أمرهم بالشّكر على ما أنعم عليهم من أنواع النعم العجيبة و شكر المنعم واجب عقلاً و أنمّا أمر جميع آل داود بالشُّكر مع أنّ النِّعم كانت لداود و سليمان خاصّة لأنّ النّعمة على داود نعمة عليهم في الحقيقة.

و قوله: **وَ قَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ ٱلشَّكُورُ**، حكمٌ كلّيّ لا يختصّ بآل داود بل يشمل جميع أفراد البشر كما أنّ الشّكر أيضاً كذلك ففي الآية دلالة على وجوب شكر المنعم و قد تكلّمنا سابقاً في هذا الباب مفصّلاً و سنتكلّم فيه في المستقبل أيضاً إن شاء اللّه.

فَلَمّا قَضَيْنا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ ما دَلَّهُمْ عَلى مَوْتِهِۦٓ إِلّا دابَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَنْ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ ما لَبِثُوا فِى ٱلْعَذابِ ٱلْمُهِينِ

القضاء الحكم أي فلمّا حكمنا على سليمان بالموت ما دلَّهم، ما، نافية، أي لم يعلموا بذلك من حاله حتّى دلّهم على موته دابّة الأرض و هي الأرضة فأكلت عصاه فإنكسرت فوقع سليمان على الأرض روي أنّه عليه‌السلام قبض و هو في الصّلاة و كان قال للجنّ إعملوا ما دمتم تروني قائماً و إتّكأ على عصاه من قيامٍ و قبضه اللّه اليه و بقى مدّةً فيجئ الجنّ فيطالعونه فيرونه قائماً فيعودون فيعملون الى أن دبّت الأرضة فأكلت عصاه فوقع و خرَّفعلموا بموتِه وتبيَّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون ما غاب عنهم عن موت سليمان لم يلبثوا في العذاب المهين الّذي أهانهم و أذلّهم، و المنسأة العصا الكبيرة الّتي يسوق بها الرّاعي غنمه قال أبو عبيدة معنى، تبيَّنت الجنّ، أي أبانت الجنّ للنّاس أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين، فمن زعم أنّ الجنّ يعلم الغيب فقد أخطأ هذا تفسير ألفاظ الآية و نذكر في خاتمة الآية سيرة سليمان النّبي كما وعدناه.

فنقول قد ذكرنا أنّ داود النّبي عليه‌السلام قبض و له تسعة عشر ولد و وارث منصبه في ملكه و نبوّته سليمان و ذلك أنّ اللّه تعالى لمّا أمر داود أن يجعل الخلافة لولده سليمان من بعده و كان لا يزال حدثاً إبن ثلاث عشرة سنة فقط أنكر ذلك بنو إسرائيل و ضجّوا قائلين أنّ داود يستخلف فينا حدثاً لأنّه إبنه وفينا من هو أولى منه و أقدر على إدارة الحكم فدعا داود أكابرهم و أسباطهم و قال لهم قد بلغني ما قلتم من أنّ سليمان صبّي لا يليق للخلافة ولكن هذا أمر اللّه و أن شئتم أن تخبروا مقدرة سليمان و جدارته فوّجهوا اليه ما يقتضي به الإمتحان من الأسئلة ثمّ دعاه داود و أراد إمتحانه بحضرتهم ليبيّن لهم فضله و حكمته فوّجه اليه أسئلة كثيرة و قد أجاب عليها بأجمعها ممّا أخضع شوكة المعارضين لإستخلافه فمن جملة تلك الأسئلة أنّه قال له يا بنّي أيُّ شئٍ أبرد فقال سليمان عفو اللّه على عبده و عفو النّاس بعضهم عن بعضٍ فقال داود، أيّ شئٍ أحلى فأجاب سليمان المحبّة من اللّه في عباده فقال بعض كبار بني

إسرائيل له ما الشّئ الّذي إذا صلح صلح معه كلّ شئ في الإنسان و اذا فسد فسد كلّ شئ فيه فقال سليمان ذلك هو القلب.

و نقل أنّ كتاباً نزل من السّماء على نبّي اللّه داود و فيه ثلاث عشرة مسألة أمر اللّه داود أن يسأل عنه إبنه سليمان فتكون برهاناً له على تعيينه خليفة من اللّه تعالى فدعا داود سبعين قسّاً و سبعين حبراً و أجلس سليمان بينهم ثمّ وجّه اليه الأسئلة، فقال يا بنّي أخبرني ما أقرب الأشياء و ما أبعد الأشياء و ما آنس الأشياء وما أوحشها و ما أحسن الأشياء و ما أقبحها و ما أقلّ الأشياء و ما أكثرها و ما القائمان و ما المختلفان و المتباغضان و ما الأمر الّذي إذا ركبه الرّجل حمد آخره و ما الأمر الّذي ركبه الإنسان ذمّ آخره.

فقال سليمان: «أمّا أقرب الأشياء فالأخرة و أبعد الأشياء ما فاتك من الدُّنيا و أمّا آنس الأشياء فجسدٌ فيه روح ناطق و أوحشها جسد بلا روح و أمّا أحسن الأشياء فالإيمان بعد الكفر و أقبحها الكفر بعد الإيمان و أمّا أقلّ الأشياء فاليقين و أكثرها الشكّ و أمّا القائمان فالسّماء و الأرض و المختلفان فالليّل و النّهار و المتباغضان فالموت و الحياة و أمّا الّذي إذا ركبه الرّجل حمد آخره فالحلم عند الغضب و أمّا الّذي إذا ركبه ذمّ آخره فالحدّة عند الغضب».

و لمّا أتمّ سليمان الجواب عن جميع تلك الأسئلة فكّ داود خاتم الكتاب بحضرة القوم فإذاً المسائل مكتوبة فيه مع أجوبتها كما ذكرها سليمان و عند ذلك فسلم بنو إسرائيل لسليمان بالحكمة و الخلافة و ظهر لهم أهليّته و جدارته لما خصّه اللّه تعالى به و من جملة دلائل حكمة سليمان و إستحقاقه للخلافة بعد أبيه، حكمه في مسألة الغنم الّتي أكلت الكرم فحكم بنتاجها لصاحب الكرم تلك السّنة مقابل تلف ثمره بعد أن كان الحكم تمليك الغنم لصاحب الكرم كما أشار اللّه تعالى اليه حيث قال: **وَ داوُودَ وَ سُلَيْمانَ إِذْ يَحْكُمانِ فِى اَلْحَرْثِ**(١).

١- الأنبياء = ٧٨

و قد مرّ الكلام فيها هناك، و كان نبيّ اللّه سليمان يعتكف غالباً في مسجد بيت المقدس فلمّا بلغ من العمر ثلاثاً و خمسين سنة أي بعد أربعين سنة من توليّه الملك أحبَّ يوماً أن يصعد أعلى قصره و يتأمّل وحده بناء مسجده من علٍ، فأمر أن يمنع دخول أيّ شخصٍ وراءه و لو كان من خواصّه و جنوده ثمّ صعد وحده حتّى بلغ أعلى مطل تحت القبّة المصنوعة من قوارير و أطل على العمّال و هم يشيّدون المسجد و كان قد بقى من مدّة كمال بناءه ما يقرب من سنة و فجأة نظر فلمح شجرة خرنوب في ناحية من نواحي البلدة و كان متكأ على عصاه فإضطربت جوارحه لأنّ اللّه تعالى كان قد عرَّفه أنّ آية موته شجرة خرنوب من بيت المقدس و بعد هذا الإضطراب الّذي أصابه إلتفَّت فرآى شاباً جميل الوجه في زيّ حسن يخرج إليه فغضب و قال من أدخلك هذا القصر و من الّذي سمح لك في دخوله و من أنت، فقال، أنا الّذي أمرني بالدّخول فهو صاحب القصر و أمّا الإستئذان عليك فلم يكن لي عادة أن أستأذن في الدّخول على السّلاطين و الملوك فعلم سليمان أنّ هذا ملك الموت فسأله سليمان فيم جئت قال، جئت لأقبض روحك و عند ذلك سأل ربَّه أن يخفي عن الجِّن موته لجهتَّين:

الأولى: ليداوموا على أعمالهم في عمارة بيت المقدس.

الثّانية: ليعلموا هم و الإنس أنّهم لا يعلمون الغيب و أنّ علمه عند اللّه فأجابه اللّه تعالى و قبض عزرائيل روحه و قومه ينظرون إليه و هو متّكئ على عصاه و هم يحسبونه حيّاً مدّة سنةٍ كاملة و كان وزيره آصف بن برخيا خلال تلك المدّة يدّبر أمر المملكة و ينظم أعمال الجنّ و الإنس فلمّا كمل بناء المسجد بعد سنةٍ ولم يعد موجباً لبقاء جثمانه قائماً أرسل اللّه تعالى دودة الأرض فأكلت العصا فسقط إنتهى ما أردنا ذكره إجمالاً.

أقول يستفاد من قصّة داود و سليمان نقاط و لطائف لا بأس بالإشارة إليها ليعتبر بها من يعتبر.

الأُولى: أنّ الإنسان لا يعرفه احدٌ كما هو حقّه إلاّ خالقه الّذي خلقه و أخرجه من العدم إلى الوجود و لذلك نرى أنّ اللّه تعالى إصطفى عباده الصّالحين من بين البشر و إختارهم لخلافتهم و إمامتهم و لولا إختياره إيّاهم لم يكن للخلق طريق إلى معرفتهم و إحراز صلاحيّتهم و لذلك جعل اللّه تعالى تعيين النّبي و الوصّي بإختياره و لم يجعل لأحدٍ فيه حقّ و لا إختيار ألا ترى أنّ داود النّبي كان أصغر أولاد أبيه و مع ذلك إختاره اللّه للنّبوة و الملك و لم يجعل ذلك لغيره من أخوانه مع أنّهم كانوا أكبر منه ظاهراً.

الثّانية: أنّ الخلافة و الوصاية من المناصب الإلهيّة و لا ربط لها بالسِّن حتّى يقال من كان أكبر فهو أولى كما قال المسلمون في صدر الإسلام ألا ترى أنّ عبد الرّحمن بن عوّف بعد نصبه عثمان بن عفّان للخلافة في الشّورى.

قال لأمير المؤمنين، ما حاصله أنّك حدث السَّن و أبوبكر و عمر و عثمان كانوا أكبر سنّاً منك فهم أحقّ بها منك و لم يعلم هذا الرّجل الأحمق أنّ ذلك فضل اللّه يؤتيه من يشاء كما فعل في داود و بعده سليمان على ما مرَّ بيانه فأنّ العلم و الحكمة من مواهب اللّه و من أعطى داود و سليمان ما أعطاها غيره تعالى.

الثّالثة: أنّ النّبي لابدّ له من وصّي و خليفة بعد موته كما نرى في جميع الأنبياء و ليس تعيين ذلك بإختيار النّبي و ما على الرّسول إلاّ البلاغ كما في داود في حقّ سليمان و لا نعلم نبيّاً مات و لم يوص إلى وصٍّي بعده إلاّ نبّي الإسلام بزعم العامّة فأنّه صلى الله عليه وآله وسلم مات بلا وصّي أو جعل تعيين الخليفة على عهدة السَّقيفة و جعل ملاك الصلاحيّة لهذا المنصب العظيم كبر السِّن و طول اللحيّة على قول عبد الرّحمن بن عوف و أمثاله و هذا داود النّبي لم يعيّن وصيّه من بين أولاده إلاّ بتعيين اللّه إيّاه و أمّا رسول الإسلام فوّض أمر الخليفة و الوّصي بعد إلى أجلاف العرب و لا بعد فيه فأنّ من يهجر و يهدي قبل موته على قول عمر بن الخطّاب لا يكون خليفته إلاّ أبى‌بكر و بعده عمر و عثمان و

هلُّم جرّاً و بالجملة لم نرى في جميع الأنبياء من أدم إلى خاتم الرُّسل ما يشبه ذلك أفضل الرُّسل بلاكلام.

الرّابعة: القاعدة العقليّة و الشرعيّة تقتضي أن تكون خليفة كلّ سولٍ في مرتبة المستخلف عنه في جميع الصّفات و الكمالات أو قريباً منه إلاّ فيما إذا كان الرَّسول لا نبيّ بعده كما في نبي الإسلام و على هذا فكلّ نبّي يقاس به وصيّه فإذا كان النّبي أفضل الأنبياء فوصيّه أفضل الأوصياء و قد ثبت أنّ نبيّنا أفضل الأنبياء و لا خلاف فيه لأحدٍ من المسلمين، فينبغي أن يكون وصيّه أيضاً كذلك و لذلك نقول أنّ أوصياء النّبي و هم الأئمّة الأثنى عشر كانوا أفضل من جميع أنبياء السَّلف فضلاً عن أوصيائهم و لازم ما ذهبت العامّة إليه من أنّ أبابكر خليفة الرّسول هو ان يكون ابوبكر أفضل من جميع الأوصياء حتّى من سليمان وصّي داود النّبي، و لا أظنّ من قال أو يقول بهذه المقالة إلاّ من لا دين له واضح.

لَقَدْ كانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتانِ عَنْ يَمِينٍ وَ شِمالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَ رَبٌّ غَفُورٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قوم سبأ و هم قوم ينتسبون إلى سبأ إبن يشحب إبن يعرب بن قحطان بن عابر بن ثالح بن فخشذ بن سالم بن نوح عليه السّلام و إليه ينتسب العرب العاربة و منهم جرهم بن قحطان و كان سبأ و بنوه يسكنون بلاد الملكة بلقيس من نواحي اليمن و خلاصة تاريخ هذه الجماعة أنّهم كانوا مجموعة من قبائل تقطن منطقة جبليّة في بلاد اليمن ذات أودية و تربة خصبة و كان نبّي اللّه سليمان قد أمر في عهده بجرّ المياه العذبة إلى بلادهم و كانت المياه تسير في أوديتهم ثمّ إلى البحر و سرعان ما تنصب و تنتهر و يصبحوا في ضيقٍ و حرج من فقدان الماء أو قلتّه و أخيراً فكروا في بناء سدّ عالي في فم بعض الأودية نجحوا بذلك فقد تجَّمعت المياه في وقت

غزارتها و إنحصرت في تلك الوادي بواسطة السَّد الّذي صنعوه فكانوا يأخذون منه الماء عند الحاجة بقدر ما يريدون بواسطة أبواب محكمة جعلوها في السَّد و هكذا إستطاعوا أن يمّدوا مجاري المياه إلى أماكن بعيدة فيسقوا زرعهم طيلة السَّنة بدون نقصٍ فصارت بلادهم بذلك أطيب هواءً و أكثر نعماً و أوسع رقعة في الفواكه و الأثمار و البساتين و كان قوم سبأ يسكنون ثلاثة عشرة قرية كانت كلّها خضراء نزهة و كانت تقول بين هذه القرى و القرى المباركة في شمالهم ببلاد الحجاز و الشّام و كانت أمنة متقاربة تتوافر فيها وسائل الرّاحة بحيث أنّ المسافر بين قرى سبأ و قرى الشّمال التّي باركها اللّه تعالى كان يسكنه أن يكون في وقت الظّهر في قرية و عند العشاء في قريةٍ أخرى و كان الأمن سائداً بينهم و إليه الإشارة بقوله تعالى: **لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ**.

فقوله أية أي دلالة و علامة و جنّتان عن يمينٍ و شمال، فالمراد بهما هو القرى التّي كانوا يسكنون بها و القرى المباركة في شمالهم ببلاد الحجاز و الشّام.

كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَ اشْكُرُوا فيه إشارة إلى وجوب الشكر على النِّعم لقوله تعالى: **لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ**[١] و قوله: **بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ**، أي طَيّبة التُّربة و قيل المراد بها صنعاء أرضها طيّبة ليس فيها سبخة.

■

١- ابراهيم = ٧

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ
بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ
مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿۱۶﴾ ذٰلِكَ جَزَيْناهُمْ بِما كَفَرُوا وَ
هَلْ نُجازِي إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿۱۷﴾ وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ
بَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بارَكْنا فِيها قُرًى ظاهِرَةً وَ
قَدَّرْنا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيّامًا
آمِنِينَ ﴿۱۸﴾ فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ
ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ
كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ
شَكُورٍ ﴿۱۹﴾ وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ
فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۲۰﴾ وَ ما كانَ
لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ
بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْها فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلىٰ كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿۲۱﴾ قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ
دُونِ ٱللّٰهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمٰواتِ
وَ لا فِي ٱلْأَرْضِ وَ ما لَهُمْ فِيهِما مِنْ شِرْكٍ وَ ما
لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿۲۲﴾ وَ لا تَنْفَعُ ٱلشَّفاعَةُ عِنْدَهُ
إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّىٰ إِذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا
ماذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا ٱلْحَقَّ وَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ
﴿۲۳﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ
قُلِ ٱللّٰهُ وَ إِنّا أَوْ إِيّاكُمْ لَعَلىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلالٍ
مُبِينٍ ﴿۲۴﴾ قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمّا أَجْرَمْنا وَ لا

نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ
يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ هُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ
أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَآءَ كَلَّا بَلْ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً
لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا
يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ
عَنْهُ سَاعَةً وَ لَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾

◀ اللّغة

ٱلْعَرِمِ: بفتح العين و كسر الرّاء قيل هو السّد و التّقدير سيل العرم، و قيل هو إسم الوادي و قيل وادي سبأ.

خَمْطٍ: بفتح الخاء الأراك و قيل كلّ شجرٍ ذي شوكٍ فيه مرارة.

أَثْلٍ: الأثل ضربٌ من الخشب و قيل الأثل التّمر.

مَزَّقْنَاهُمْ: التّمزق التّفرق و التّشتت و الباقي واضح.

◀ الإعراب

قَلِيلٍ نعتٌ لأكل و يجوز أن يكون نعتاً لخمط و أثلٍ و سدرٍ. رَبَّنَا بالنّصب على النّداء و التّقدير يا ربّنا. مُمَزَّقٍ مصدر أو مكان ظَنَّهُ بالنّصب على أنه مفعول و التّقدير صدق في ظنّه. مَنْ يُؤْمِنُ موضعه رفع بالإبتداء. إِلَّا كَآفَّةً هو حال من المفعول في أرسلناك و الهاء زائدة للمبالغة. لِلنَّاسِ متعلّق به مِيعَادُ يَوْمٍ هو مصدر مضاف إلى الظّرف.

◀ التّفسير

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ

لمّا ذكر اللّه في الآية السّابقة ما أنعم اللّه على قوم سبأ من أنواع النِّعم و أمرهم بشكره، أخبر في هذه الآية أنّهم أعرضوا عن أمر ربّهم فلم يشكروه و كفروه و جحدوا نعمه و لم يقبلوا ممّن دعاهم إلى اللّه من أنبيائه و رسله جازاهم اللّه على ذلك فأنّ الجشع و كفران النِّعم سرعان ما طغت عليهم و غذاهم الشّيطان بالبطر و الغرور فشاع فيهم حب الإستئثار بخيراتهم و رغبوا في أن تقطع السُّبل بين قراهم و بين باقي القرى الّتي بارك اللّه فيها في شمالهم و جعل كبراءهم يزدادون عتواً و طغياناً و شاعت بينهم المفاسد الخلقيّة و الإنحرافات و البعد عن أوامر الدّين و نواهيه كما هو شأن المترفين فأرسل اللّه اليهم ثلاثة عشر نبيّاً في كلّ قريةٍ نبيٌّ خاصّ بها يعظهم و يحذّرهم غضب اللّه فلم ينفع فيهم وعظ و لا نصيحة و عند ذلك حقّ عليهم عذاب اللّه تعالى قيل كان فيهم كاهنة تسمّى طريقة فرأت في منامها أنّ السّد العظيم الّذي أقامه نبي اللّه سليمان لسبأ و كانوا يسمّونه سدَّ مأرب سينهار و يخرب و يهلك كلّ من في طريقه و أشارت عليهم بالرّحيل عن طريق هذا السّد فصدّقه قوم و إرتحلوا نحو الحجاز و أخرون نحو الشّام و أخرون نحو نجد و هكذا تفرّقوا أيادي سبأ و بقى أقوامٌ جرفهم السّيل و أخفى أثارهم و أمّا الّذين هاجروا و تفرّقوا في مكّة فأنّهم ما لبثوا أن ضعفت قواهم و أصابتهم الحمى فمنهم غار إلى الأقطار المختلفة فقد سافرت قبيلة الأزد إلى عمّان و سافرت خزاعة إلى الأراك و إتّجه الأوس و الخزرج إلى يثرب ولحق بنو غسّان ببصرى الشّام و قصد أخرون أرض العراق و هم أل جزيمة و منهم سكن الحيرة و هكذا فرّق اللّه شمل سبأ بكفرهم و طغيانهم فأغرق بعضاً و فرّق جموع بعضٍ حتّى جعلهم أحاديث

للنّاس و مثلاً لكلّ قومٍ تبعثر جماعتهم فيقال تفرّق القوم أيادي سبأ إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير ألفاظ الأيات الواردة في الباب فنقول:

قوله: **فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ**، أي أعرض قوم سبأ عن ذكر اللّه و كفروا بنعمته و كذّبوا رسله فأرسلنا عليهم سيل العرم، أي ماء كثير أرسله اللّه في السَّد فشقّه و هدمه و قيل العرم السَّد و التّقدير فأرسلنا عليهم سيل السَّد العرم و قيل العرم إسم الوادي و قيل غير ذلك و الحاصل أرسلنا عليهم سيلاً شقَّ سدَّهم و هدمه.

وَ بَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ و المراد بجنّتيهم جنّتي اليمين و الشّمال على ما مرَّ ذكره و **ذَوَاتَىْ** تثنية ذوات و، أكل، جمع الثّمار التّي يؤكل، و **الخَمط** بفتح الخاء نبتٌ قد أخذ طعماً من المرارة حتّى لا يمكن أكله و قيل هو كلّ شجرٍ ذي شوكٍ و قيل هو شجر الأراك، و الأثل الطّرفا و قيل هو التّمر و قيل هو ضربٌ من الخشب.

وَ شَىْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ أي فيهما مع الخمط و الأثل قليل من السِّدرة و حاصل معنى الآية أنّا بدَّلنا بسبب كفرهم و طغيانهم و إعراضهم عن الحقّ، جنَّتيهم، التّي فيها أنواع الفواكه و الخيرات بجنَّتين أخراوين سمّاها جنّتين لإزدواج الكلام ثمّ وصفهما بأنّهما ذواتي أكل خمطٍ، أي صاحبتي خمط و الأثل، أي بدَّلنا أشجارهم بشجر الأراك و أن شئت قلت الأخشاب التّي لا نفع فيها و الى ذلك أشار اللّه تعالى بقوله:

ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَ هَلْ نُجَازِى إِلَّا ٱلْكَفُورَ

ذلك إشارة إلى التَّبديل الّذي هو عذاب الدّنيا أي ما فعلنابهم إلاّ جزاء أعمالهم فأنّ جزاء الكفر ليس إلاّ العذاب في الدّارين و قوله، هل نجازي، الإستفهام للإنكار أي لا نجازي إلاّ الكفور، كما أنّ جزاء الإحسان إحسان و ما ربّك بظلامٍ للعبيد.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى عذاب أخر فقال: وَ جَعَلْنا بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بارَكْنا فِيها قُرًى ظاهِرَةً وَ قَدَّرْنا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا فِيها لَيالِيَ وَ أَيّامًا آمِنِينَ

الواو في **وجَعَلْنا** للعطف أي و جعلنا بينهم و بين القرى التّي باركنا فيها، و هى قرى الشّام أو بيت المقدّس و هى على ما قيل كانت أربعة ألاف و سبع مائة قرية بورك فيها بالشّجر و الثّمر و الماء (قرىً ظاهرة) أي متصلّة على طريق يغدون فيقيلون في قرية و يروحون فيبيتون في قريةٍ و قيل كان على كلّ ميلٍ قرية بسوق و هو سبب أمن الطّريق و قيل ظاهرة أي مرتفعة و أنّما قيل لها ظاهرة لظهورها أي إذا خرجت من هذه ظهرت لك الأخرى فكانت قرىً ظاهرة أي معروفة.

وَ قَدَّرْنا فِيهَا ٱلسَّيْرَ أي جعلنا السَّير بين قراهم و بين القرى التّي باركنا فيها سيراً مقدّراً من منزلٍ إلى منزلٍ و من قريةٍ إلى قريةٍ أي جعلنا بين كلّ قريتين نصف يومٍ حتّى يكون المقيل في قريةٍ و المبيت في قريةٍ أخرى و أنّما يبالغ الإنسان في السَّير، لعدم الزّاد و الماء و لخوف الطّريق فإذا إنتفت الأمور المذكورة لم يحتمل على نفسه المشّقة بسرعة السَّير بل نزل أينما أراد.

سِيرُوا فِيها أي و قلنا لهم سيروا فيها أي في هذه المسافة قيل هو أمر تمكينٍ أي كانوا يسيرون فيها إلى مقاصدهم إذا أرادوا أمنين فهو أمرٌ بمعنى الخبر و فيه إضمار القول **لَيالِيَ وَ أَيّامًا** ظرفان **آمِنِينَ** نصب على الحال و قال ليالي و أيّاماً على لفظ النّكرة تنبيهاً على قصر أسفارهم أي كانوا لا يحتاجون إلى طول السَّفر لوجود ما يحتاجون إليه.

فَقالُوا رَبَّنا باعِدْ بَيْنَ أَسْفارِنا وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْناهُمْ أَحادِيثَ وَ مَزَّقْناهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآياتٍ لِكُلِّ صَبّارٍ شَكُورٍ

لمّا بطروا و طغوا و سئموا الرّاحة و لم يصبروا على العافية تمنّوا طول الأسفار و الكدح في المعيشة فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا معناه أنّهم نظروا و

ملُّوا النّعمة فقالوا لو كان جني ثمارنا أبعد ممّا هي الآن كان أجدر أن نشتهيه و هذا من ثمرات الطّغيان كما قالت بنو إسرائيل لنبيّهم موسى عليه السلام: **فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا**(١) بَدَلاً من المنّ و السّلوىٰ ثمّ قال تعالىٰ: **وَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ** بكفران النّعمة فجعلناهم أحاديث **وَ مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ**، أي جعلناهم أحاديث للنّاس و فرّقناهم، و قيل معناه أهلكناهم و ألهمنا النّاس حديثهم ليعتبروا و يقولون تفرّقوا أيادي سبأ.

و في قوله: **إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَآيَاتٍ** و علامات لكلّ صبّارٍ شكورٍ أي لكلّ من يصبر على النّعمة و يشكر اللّه عليها ثمّ أخبر اللّه تعالى أنّ هذا من وسوسه الشّيطان فأنّه للإنسان عدوٌّ مبين.

وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ

أي صدق ظنّه فيهم بإجابتهم إلى معصية اللّه **فَاتَّبَعُوهُ**، أي فإتّبعوا الشّيطان إلاّ فريقاً من المؤمنين لم يتّبعوه فلم يقعوا فيما وقع هؤلاء المكذّبين فيه من التّفرق و النّكبة و العذاب.

تنبية

يستفاد من هذه القصّة أعني بها قصّة سبأ أمور لا بأس بالإشارة إليها.

الأوّل: أنّ هذه القصّة و غيرها من القصص المذكورة في القرأن و أن كانت مخصوصة بقومٍ خاصٍّ في الأزمنة السّالفة بحسب الظّاهر إلاّ أنّ الحكم فيها و الأثار المترتبة عليها عامٌّ شاملٌ جميع الأزمنة و كلّ أفراد البشر فأنّ حكم الأمثال واحد عقلاً فمورد الأيات النازلة فيها خاصّ و الحكم عامّ فأنّ خصوص المورد لا ينافي عموم الحكم و هذا أصلٌ أصيلٌ و فروعه كثيرة فإذا قال اللّه تعالى في قصّة قوم سبأ.

١- البقرة = ٦١

قوله تعالى: **وَ ظَلَمُوٓا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنٰاهُمْ أَحٰادِيثَ**، و قوله تعالى: **ذٰلِكَ جَزَيْنٰاهُمْ بِمٰا كَفَرُوا**، فالعاقل يفهم منه أنّ نزول العذاب معلول للظّلم و الكفر و الطّغيان، و اذا وجدت العلّة وجد المعلول قهراً و ما ربّك بظلامٍ للعبيد.

الثّاني: أنّ شكر المنعم واجب عقلاً فضلاً عن الشّرع و معنى الوجوب العقلي هو أنّ الشّكر على النّعمة علّة و سببٌ لبقاء النّعمة و إزديادها و قد ثبت أنّ المعلول ينتفي بإنتفاء علّته و سببه:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذٰابِي لَشَدِيدٌ**(١).

رتّب اللّه الزّيادة للنّعمة على الشّكر و العذاب على الكفران بها، فالشّكر موجب أو سببٌ أو علّةٌ لبقاء النّعمة كما أنّ الكفر أي عدم الشُّكر يوجب العذاب و على هذا فبين الشّكر و البقاء ملازمة عقليّة كما أنّ بين الكفر و العذاب كذلك قال اللّه تعالى:

وَ مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمٰا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَ مَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ(٢).

دلّت الآية على أنّ اللّه غير محتاج إلى الشّكر فأنّه غنيّ كريم ففائدة الشّكر في الحقيقة ترجع إلى الشّاكر وليست هي إلاّ بقاء النّعمة و زيادتها.

الثّالث: أنّ النِّعم التّي وجب الشّكر عليها على ضربين، ماديّة و معنويّة، و نعني بالماديّات ما يلتذّ به الجسم من قبيل المأكول و المشروب و غيرهما من مواهب الطَّبيعة و أن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها.

و بالمعنويّات ما يلتذّ به الرُّوح من العلم و الجود و الشّجاعة و الحلم و الصَّحة و الأمنيّة و أمثالها فأنّ هذه كلّها ممّا أنعم اللّه به على عباده و أوجب عليهم الشّكر عليها و في رأس جميع النِّعم نعمة الدّين التّي تحصل للإنسان بسبب المعرفة باللّه و رسوله و لذلك قال اللّه تعالى:

١- إبراهيم = ٧ ٢- النّمل = ٤٠

لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ايٰاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَ يُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ[1].

وَ مٰا كٰانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطٰانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِي شَكٍّ وَ رَبُّكَ عَلٰى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ

ما، نافية و السُّلطان القوّة و المعنى لم يقهرهم إبليس على الكفر و أنّما دعاهم إليه فقبلوه بإختيارهم، و قيل السّلطان الحجّة أي لم تكن له حجّة يستعتبهم بها و أنّما إتّبعوه بشهواتهم لا عن حجّةٍ و دليل.

إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهٰا فِي شَكٍّ، أي أنّا لم نمكّنه من إغوائهم و وسوستهم إلاّ لنميّز من يقبل منهم الحقّ و يؤمن بالأخرة يمتنع و يأبى متابعته فنعذّب من تابعه و نثيب من خالفه فعبَّر عن تمييزه بين الفريقين بالعلم و بعبارةٍ أخرى لولا الشّيطان و وساوسه لبني أدم لم يتّميز المطيع للّه عن العاصي و حيث أنّ اللّه قال في الآية السّابقة: **وَ لَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ** و كان هناك مظنّة سؤالٍ و هو أنّ اللّه تعالى لم خلق الشّيطان الّذي متابعته توجب الضّلالة، أجاب في هذه الآية بما حاصله أنّ الشّيطان لم يقهرهم على الكفر و الضّلالة و لم يجعل الإنسان مجبوراً على متابعته حتّى لزم الإشكال بل خلقه و أقدره على دعوته و وسوسته و خلق الإنسان قادراً على عدم قبول دعوته فإذا قبل الإنسان بسوء سريرته و إختياره ما دعاه الشّيطان إليه فما ذنب الشّيطان.

و أمّا أصل الوجود فيه فأنّ فيه مصلحة بل مصالح كثيرة أهمّها و أنفعها هو التّمييز بين الحقّ و الباطل و المطيع و العاصي و لولا ذلك لكان شرّاً محضاً و الشّر المحض لم يوجد ولن يوجد أبداً و لتفصيل الكلام في هذا الباب مقام أخر.

١- أل عمران = ١٦٤

و إعلم أنّهم إختلفوا في أنّ الإستثناء في قوله: **إِلَّا لِنَعْلَمَ** متصّلٌ أم منقطعٌ فقال قومٌ بالإنقطاع و على هذا ليس قوله: **إِلَّا لِنَعْلَمَ**، جواب **وَ مَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ** في ظاهره أنّما هو محمول على المعنى أي و ما جعلنا له سلطاناً إلاّ لنعلم فالإستثناء منقطع لعدم دخول المستثنى في المستثنى منه أي لا سلطان له عليهم و لكنّا إبتليناهم بوسوسته لنعلم، و على هذا فقوله: **إِلَّا**، بمعنى لكن.

و قيل هو متّصل أي ما كان له عليهم من سلطان غير أنّا سلّطناه عليهم ليتّم الإبتلاء و قيل، كان، زائدة أي و ماله عليهم من سلطانٍ.

و أمّا قوله: **لِنَعْلَمَ**، و المفروض أنّ اللّه بكلّ شئٍ عليم، فقيل معناه أي لنظهر، ما في ذواتهم و سرائرهم على النّاس و هذا هو المراد من الإختبار إذ الخالق لا يكون جاهلاً بما خلقه و أنّما يختبر خلقه لإظهار ما في قلوبهم و بواطنهم لغيرهم و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً بما لا مزيد عليه.

و قوله: **وَ رَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ**، أي أنّه يحفظ كلّ شئٍ على العبد حتّى يجازيه عليه و قيل معناه أنّه عالم بكلّ شئٍ.

قُلِ ٱدْعُوا ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ لَا فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَ مَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار، أدعوا الّذين زعمتم من دون اللّه، من الأصنام و الأوثان و غيرهما ممّا زعمتم أنّهم ألهة لكم من دون اللّه.

لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ لَا فِي ٱلْأَرْضِ و ذلك لأنّ السّموات و الأرض و ما فيهما من المخلوقات كلّها مخلوق لخالقه و الأوثان و الأصنام و غيرهما ممّا يعبد أيضاً في صنف المخلوق و مملوك له فلا يقدر على شئٍ فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه و اذا كان كذلك فأيّ ملكٍ للمخلوق

الّذي هو مملوك غيره و من كان كذلك فقدرته أيضاً مقهورٌ تحت قدرة خالقة فلا يقدر إلاّ على ما أقدره اللّه عليه فهو ضعيفٌ حقير **وَ مٰا لَهُمْ فِيهِمٰا مِنْ شِرْكٍ** أي و ليس لهؤلاء الّذين زعمتم أنّهم ألهة من شركٍ في خلق السّموات و الأرض و بعبارةٍ أخرى ما للّه في خلقها شريك بل هو المتّفرد بالإيجاد وجه الإستدلال بهذا الكلام على إثبات المدّعى هو أنّه قد ثبت بالدّلائل العقليّة و النقليّة في باب التّوحيد أنّه لا شريك له تعالى و اذا إنتفت الشّركة فكلّ ما سواه كائناً ما كان فهو مخلوق له و المخلوق لا يقدر على شيءٍ من قبل نفسه لفقره و ضعفه و إحتياجه، كما أنّ الخالق قادر على كلّ شيءٍ غنيّ عن جميع ما سواه و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ مٰا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ** أي و ليس للخالق الواحد الأحد القادر على كلّ شيءٍ منهم أي من الأصنام و الأوثان و غيرهما ممّا إتّخذوه معبوداً، من ظهير أي من ناصرٍ و معينٍ و اذا كان له ظهير لزم ضعفه و إحتياجه إلى غير و الخالق لا يكون ضعيفاً و لا محتاجاً إلى غيره لأنّ الإحتياج مساوق للإمكان و هو ينافي الوجوب و قد ثبت وجوبه بالدليل.

وَ لاٰ تَنْفَعُ اَلشَّفٰاعَةُ عِنْدَهُ إِلاّٰ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّٰى إِذٰا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قٰالُوا مٰاذٰا قٰالَ رَبُّكُمْ قٰالُوا اَلْحَقَّ وَ هُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ

أقول و الّذي يختلج بالبال في ذكر الشّفاعة في هذا المقام هو أنّهم أي الكفّار إدّعوا أنّ هؤلاء الأصنام و الأوثان شفعائهم عند اللّه كما حكى اللّه تعالى عنهم حيث قال:

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اَللّٰهِ مٰا لاٰ يَضُرُّهُمْ وَ لاٰ يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هٰؤُلاٰءِ شُفَعٰاؤُنٰا عِنْدَ اَللّٰهِ[١].

و على هذا فلقائلٍ أن يقول أنّهم لم يعبدوها بل جعلوها شفعاء عند اللّه

١- يُونس = ١٨

فالمعبود في الواقع عندهم هو اللّه. فأجاب اللّه تعالى في هذه الآية عنهم و قال لا تنفع الشّفاعة عنده، أي عند اللّه، إلاّ لمن أذن اللّه له فيها.

و من المعلوم أنّ اللّه لم يأذن بالشّفاعة لهؤلاء الأصنام و الأوثان لأنّها من سنخ الجمادات و كيف يعقل أن يكون الجماد شفيعاً لغيره و المفروض أنّه لا يعلم شيئاً، بل الحقّ أنّهم كاذبون في دعواهم هذه و ذلك لأنّهم يعبدونها و يخضعون لها و يطلبون الحاجة منها و يتّضرعون إليها و لا نعني بالمعبود إلاّ هذا و قد مرَّ الكلام منّا في الشّفاعة مفصّلاً و إلى ما ذكرناه في كذبهم أشار اللّه تعالى بقوله: **حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ** أي خلّي عن قلوبهم الفزع و الخوف، معناه حتّى كشف عن قلوبهم الغطاء يوم القيامة أي أنّ الشّفاعة لا تكون من أحد هؤلاء المعبودين من دون اللّه من الملائكة و الأنبياء و الأصنام إلاّ أنّ اللّه تعالى يأذن للأنبياء و الملائكة في الشّفاعة و هم على غاية الفزع من اللّه.

قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ

قال الحسن أي حتّى إذا كشف عن قلوب المشركين الفزع قالت الملائكة ماذا قال ربّكم، في الدّنيا **قَالُوا ٱلْحَقَّ وَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ**.

و قال بعض المفسّرين و تقدير قوله: **وَ لَا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ** أن يشفع له، فزع بسماعه أذنه حتّى إذا فزع عن قلوبهم و خلّي عنها و كشف الفزع عنهم قالوا ماذا قال ربّكم قالت الملائكة قال الحقّ و هو العليّ الكبير.

قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَ إِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار من يرزقكم من السّموات و الأرض، خصّهما بالذّكر لأنّ أرزاق العباد تصل إليهم منهما فمن السّموات المطر و الشّمس و

القمر و النّجوم و ما فيها من المنافع و من الأرض من الماء و النباتات الخارجة منها من الحنطة و الشّعير و أنواع الحبوبات و الفواكه و لا نعني بالأرزاق إلاّ ما يخرج منها و حيث لا يمكنهم أن يقولوا هذا فعل ألهتنا فلا جرم يقولون لا ندري من يرزقنا من السّموات و الأرض، فقل لهم انّ اللّه يرزقكم و هو يعلم ما في نفوسكم فان قالوا أنّ اللّه يرزقنا فقد تقرّرت الحجّة بأنّه الّذي ينبغي أن يعبد لا ما تعبدونه من الأصنام و الأوثان التّي لا تضرّ تنفع أو انّا أو إيّاكم لعلىٰ هدىً أو في ضلالٍ مبين، هذا كمال الإنصاف في الحجّة و توضيح ذلك إجمالاً:

أنّ النّاس في مقام العبوديّة على صنفين، صنفٌ منهم يعبدون اللّه الّذي لا إله إلاّ هو و هم أتباع الشّرائع الإلهيّة الّذين يعتقدون التّوحيد و النبوّة و القيامة و جميع ما جاء به النّبي في كلّ عصرٍ و زمان و يعبّر عنهم بالموّحدين والمؤمنين.

و صنفٌ أخر لا يعبدون اللّه و لا يعتقدون النّبوة و المعاد و هم على أصنافٍ شتّى من عبدة الأوثان و الأصنام و عبدة الكواكب و بالجملة غير المؤمنين بالشّرائع الإلهيّة و يعبّر عنهم بالكفّار و المشركين على إختلاف عقائدهم و أن شئت قلت النّاس في مقام العبوديّة على صنفين، مؤمنٌ، و كافر، إذا عرفت هذا فأعلم أنّ الكفر ضدّ الإيمان و بالعكس و نعني بالضّد هاهنا النَّقيض، و ذلك لأنّ الضّدين في الإصطلاح عبارة عن شيئين موجودين بينهما التّضاد كالسّواد و البياض فهما وجوديّان و من المعلوم أنّ الكفر لا وجود له لأنّه عدم الإيمان و إذا ثبت أنّ الكفر عدميّ لا وجود له فلا يكون ضدّاً للإيمان بل يكون نقيضاً له لأنّ نقيض كلّ شيئٍ رفعه نعم هما ضدّان عرفاً لا إصطلاحاً و كثيراً ما يعبّر عن النّقيض بالضّد في العرف و ما نحن فيه من هذا القبيل و على أيّ تقديرِ الإيمان و الكفر لا يجتمعان سواء قلنا بالتّضاد أم بالتّناقض و قد إشتهر بين الخاصّ و العامّ أنّ الضّدين و النّقيضين لا يجتمعان و عليه إجماع جميع العقلاء و لم يختلف فيه أحد إذا ظهر ذلك فقوله تعالى: **إِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ**، من أحسن الإحتجاج عقلاً و شرعاً.

و ذلك لأنّ المراد بقوله: **إِنَّآ**، هو المؤمنون و بقوله: **إِيَّاكُمْ**، الكفّار علىٰ أصنافهم و المعنى قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار أنـا أو إيّـاكـم لعلى هدىً، على سبيل منع الخلّو و منع الجمع، و لذلك قال أو إيّاكم، و لم يقل و إيّاكم، لأنّ الواو تفيد الجمع، و، أو، تفيد التّخيير فإذا قال القائل، أضرب زيداً و عمراً، معناه أضربهما و اذا قال، أو عمراً، معناه التّخيير على سبيل البدل أي أضرب أحدهما و أنت مخيّرٌ بينهما، تجمع بينهما في الضّرب.

فمعنى الكلام أنّ الهداية إمّا لنا أو لكم، فأنّ الشّقوق المحتملة ثلاثة، ثبوت الهداية لنا و لكم، عدم ثبوتها لنا و لكم، ثبوتها لأحد الصّنفين دون الأخر.

أمّا الأوّل: فلا سبيل إليه لأنّه من قبيل إجتماع النّقيضين فأنّ الإيمان و الكفر لا يجتمعان في شخصٍ واحدٍ كما قلنا من الإستحالة.

أمّا الثّانى: أعني به رفعهما عن الشّخص فهو أيضاً لا سبيل إليه لإستحالة إرتفاع النّقيضين أيضاً فإذا إنتفى القسمان بقى الثّالث و هو ثبوت الهداية لأحدهما و هو المطلوب و هكذا الكلام في قوله: **أو فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** فأنّ الإجتماع على الضّلالة إجتماع النّقيضين، و إرتفاع الضّلالة عنهما يوجب إرتفاع النّقيضين و كلاهما محال فبقى الثّالث و هو إتّصاف أحد الصّنفين بالهداية و الأخر بالضّلالة فقد ثبت أنّ أحدهما لا على التّعيين على هدىً و الأخر على ضلالٍ بحكم العقل و الآية لا تثبت أكثر من هذا.

بعبارةٍ أخرى الكلام يدلّ على ثبوت الهداية في أحد القسمين و أمّا تعيينها فيه فلا يستفاد من الكلام و هذا القدر لا يكفي في المقام بل المدّعي إثبات الهداية للمؤمن و الضّلالة للكافر فنقول:

لمّا قال اللّه تعالى في صدر الأية: **قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ**، أثبت بذلك أنّ الرّازق لجميع الخلق هو اللّه تعالى جملة الخلق الكفّار فثبت أنّ اللّه تعالى هو الرّازق لهم كما هو رازق لغيرهم، و إثبات الرازقيّة هو إثبات الخالقيّة و العقل يحكم حكماً قطعيّاً بوجوب شكر المنعم و

الشُّكر على النّعمة لا يعقل إلاّ بمعرفة صاحب النّعمة إذ لو لم يعرف العبد منعمه كيف يشكره و معرفة المنعم هي الإيمان به و الإيمان به إيمان بجميع ما حكم به و على هذا فيصير معنى الكلام أنّ المراد بالهداية معرفة اللّه و بالضلالّة إنكارها و حيث أنّ الكافر لا معرفة له فلا إيمان له و لا نعني بالضلالّة إلاّ عدم الإيمان و بذلك ثبت أنّ الهداية ثابتة للمؤمن باللّه و الضلالّة لغيره فالمؤمن على الحقّ و الكافر على الباطل و هو المطلوب.

قُلْ لا تُسْئَلُونَ عَمّآ أَجْرَمْنا وَ لا نُسْئَلُ عَمّا تَعْمَلُونَ

و ذلك لأنّه لا تزر وازرة وزر أخرى بل كلّ نفسٍ بما كسبت رهينة و الثّواب و العقاب على الأعمال إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً، و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد.

قال اللّه تعالى: **وَ ما ظَلَمْناهُمْ وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ ما ظَلَمُونا وَ لٰكِنْ كانُوٓا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**(٢).

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنا رَبُّنا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنا بِالْحَقِّ وَ هُوَ ٱلْفَتّاحُ ٱلْعَلِيمُ

لمّا أمر اللّه تعالى نبيّه أن يخاطب الكفّار و يقول لهم كلّ إنسانٍ يسأل عمّا عمله دون ما عمل غيره أمره ثانياً أن يخاطبهم و يقول لهم إنّ اللّه تعالى يجمع بيننا ثمّ يحكم بالحقّ يوم القيامة و هو الفتّاح العليم، أي الحاكم العليم بما يحكم به.

قال اللّه تعالى: **فَإِذا جآءَ أَمْرُ ٱللّٰهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَ خَسِرَ هُنالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ**(٣).

قُلْ أَرُونِيَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكآءَ كَلّا بَلْ هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ

و هذا أمرٌ ثالث أمر اللّه به نبيّه أن يخاطب الكفّار به و يقول لهم أروني الّذي ألحقتم به شركاء أي الّذين تعبدونهم مع اللّه و تشركون بينهم في العبادة من

١- النّحل = ١١٨
٢- الأعراف = ١٦٠
٣- غافر = ٧٨

الأصنام و الأوثان كلاّ معناه الرَّدع و التَّنبيه أي إرتدعوا عن هذا القول و تنبّهوا عن غيّكم و ضلالكم فأنّهم لا يستحقون العبادة بل الّذي يستحقّ أن يعبد هو اللّه العزيز الحكيم فأنّه الغالب الّذي لا يغالب و هو الحكيم في جميع أفعاله.

وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ لَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

أشار اللّه تعالى في هذه الآية إلى أمورٍ:

أحدها: أنّه رسول إلى جميع الخلق.

ثانيها: أنّه بشير، أي مبشراً بالرّحمة و نذيراً أي منذراً عن عقابه.

ثالثها: أنّ أكثر النّاس لا يعملون و نحن نتكلّم في هذه الأمور مراعياً للإختصار.

أمّا الأمر الأوّل: و هو قوله: **وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ**، فقال بعض المفسّرين أي و ما أرسلناك إلاّ للنّاس كافّة أي عامّة ففي الكلام تقديم و تأخير.

و قال الزّجاج أي وما أرسلناك إلاّ جامعاً للنّاس بالإنذار و الإبلاغ و الكافّة بمعنى الجامع، و قيل معناه كافئاً للنّاس تكفّهم عمّا هم فيه من الكفر و تدعوهم إلى الإسلام و الهاء للمبالغة، و قيل أي إلاّ إذا كافّة فحذف المضاف أي ذا منع للنّاس أن يشذّوا عن تبليغك أو ذا منع لهم من الكفر و منه كفّ الثّوب لأنّه ضمّ طرفيه.

و قال في التّبيان معناه أرسلناك إلى الخلق كافّةً بأجمعهم.

و قال الرّاغب في المفردات، الكفّ كفُّ الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط و تعورف الكفّ بالدّفع على أيّ وجهٍ كان بالكّف كان أو غيرها حتّى قيل رجل مكفوف لمن قبض بصره.

و قوله: **وَ مَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَآفَّةً لِلنَّاسِ**، أي كافاً لهم عن المعاصي و الهاء فيه للمبالغة كقولهم راوية علاّمة نسابّة إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف، إلاّ كافّة للنّاس، أي إلاّ إرسالةً عامّة لهم محيطة بهم لأنّها إذا شملتهم فقد كفتهم أن يخرج منها أحدٌ منهم ثمّ نقل قول الزّجاج و غيره و قد نقلناه.

أقول ما ذكروه في معنى الكلام لا بأس به و لكن أحسن الأقوال هو أنّ المعنى ما أرسلناك إلاّ لجميع النّاس من العرب و العجم و الأسود و الأبيض و الرّجال و النّساء و يمكن أن يستدلّ على المدّعى بأنّه صلى الله عليه وآله وسلم خاتم الأنبياء لايكون إلاّ مرسلاً إلى الجميع، أمّا أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان خاتم الأنبياء فلقوله تعالى:

مٰا كٰانَ مُحَمَّدٌ أَبٰآ أَحَدٍ مِنْ رِجٰالِكُمْ وَ لٰكِنْ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ خٰاتَمَ اَلنَّبِيِّينَ[1].

و هذا ممّا لا كلام فيه بعد تصريح الآية على المدّعى و اذا ثبت هذا ثبت ارساله إلى جميع النّاس إلى يوم القيامة توضيح ذلك أنّ النّاس يحتاجون إلى رسولٍ في كلّ عصرٍ و زمانٍ كما ثبت ذلك في النّبوة العامّة فلو لم يكن رسول الإسلام مرسلاً إلى جميع الخلق في زمانه و بعد زمانه إلى يوم القيامة لزم أن يرسل اللّه تعالى رسولاً أخر لغير من أرسله اللّه إليهم و هذا ينافي قوله تعالى: **وَ لٰكِنْ رَسُولَ اَللّٰهِ وَ خٰاتَمَ اَلنَّبِيِّينَ**، إذ معنى الآية أنّ النبوّة قد ختمت بوجوده و رسالته و لازم ذلك عدم وجود رسولٍ بعده و لا نعني بالإرسال إلى الجميع إلاّ هذا.

بعبارةٍ أخرى لا شكّ في نبوّته و رسالته عقلاً كما ثبت في النبوّة الخاصّة و نقلاً كما في الآية و هذا ممّا لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في سعة نبوّته إلى يوم القيامة و عدمها، و حينئذٍ نقول أمّا أن يكون مبعوثاً إلى الخلق إلى يوم القيامة أو لا يكون كذلك بل بعث إلى بعضٍ دون بعضٍ أو زمانٍ دون زمانٍ فعلى الأوّل ثبت المطلوب.

١- الأحزاب = ٤٠

و على الثّاني فليس بخاتم النّبيين بل يلزم على اللّه أن يرسل رسولاً أخر بعده و هو كما ترى ينافي العقل و النّقل هذا كلّه مضافاً إلى الأخبار الواردة في الباب المصرّحة بأنّه خاتم النبيين و أنّه لا نبّي بعده و كلّ من إدّعى النبوّة بعده صلى الله عليه وآله وسلم فدمه هدر و هو كافر مرتّد لا دين له و وجب قتله و من هذه الأحاديث.

قوله صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين عليه السلام ياعلّي أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبّي بعدي.

و هذا الحديث من المتواترات و كلمة لا، في قوله صلى الله عليه وآله وسلم: **لا نبّي بعدي** لنفي الجنس بالإتّفاق و اذا كان كذلك فكيف يمكن أن يقال بأنّه لم يبعث إلى جميع الخلق أليس لازم ذلك أن يبقى بعض الخلق في زمانه و بعد و فاته و لا حجّة للّه تعالى عليهم.

الأمر الثّاني: و هو انّه بشيرٌ و نذيرٌ أي أنّه مبشّرٌ بالرّحمة و منذرٌ من العقُوبة فهو أيضاً ثابتٌ في حقّه عقلاً و نقلاً.

أمّا عقلاً فأنّ العقل حاكم بأنّ النّبي لا يكون مبشّراً فقط أو منذراً كذلك لأنّ البشارة لا تكون إلاّ للمطيع كما أنّ الإنذار للعاصي و العبد لا يكون خارجاً عنهما، فأن كان النّبي مبشّراً غير منذرٍ لزم منه تجرّي العاصي في عصيانه و أن كان منذراً غير مبشّرٍا لزم منه عدم الاشتياق من المطيع الى الطّاعة فالعقل يحكم بترغيب المطيح و تخذير المعاصى ليدوم المطيع على طاعته و يجتنب العاصى عن معصيته.

بعبارةٍ أخرى الشّقوق المحتملة خمسة، تبشيرهما معاً، و انذارهما معاًو تركهما معاً و تبشير العاصى مع انذار المطيع و تبشير المطيع مع انذار العاصى، و الأوّل من إجتماع النّقيضين محال، و الثّانى، أيضاً كذلك و الثّالث إرتفاع النّقيضين و هو أيضاً محال و الرابع ايضاً محال لانّه خلاف حكم العقل فالعقل يحكم ببشارة المطيع و إنذار العاصي و هو المطلوب.

أمّا نقلاً فالأيات مصّرحة بأنّ النّبي متّصفٌ بهما معاً.

قال اللّه تعالى: **فَقَدْ جَآءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ ٱللّٰهُ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**[١].

قال اللّه تعالى: **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **إِنَّآ أَرْسَلْنٰاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا**[٣] وغيرها من الأيات.

علىٰ أيّ حالٍ لا شكّ أنّه كان كذلك بل هما من ألقابه الخاصّة به في الكتاب و السنّة بلا خلاف إذ هو الّذي يخبر عن اللّه لا غيره.

الأمر الثّالث: وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنّٰاسِ لٰا يَعْلَمُونَ، أي لا يعلمون صدق قوله و أنّه رسولٌ إليهم يجب عليهم قبول قوله، و قيل لا يعلمون ما عند اللّه قيل لأنّهم كانوا في ذلك الوقت أكثر عدداً من المؤمنين.

أقول و الآن أيضاً كذلك و الأحسن حمل الكلام على المعنى العامّ الشّامل لكلّ عهدٍ و زمانٍ بالنّسبة إلى تصديق النّبي و غيره و على هذا فالمعنى أنّ أكثر النّاس لا يعلمون خيرهم من شرّهم ولو علموا ذلك ما أنكروا الأنبياء الذّين أرسلهم اللّه تعالى إليهم لإرشادهم و هدايتهم إلى سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين و من المعلوم أنّ الجهل منشأ الشُّرور و الأفات.

وَ يَقُولُونَ مَتىٰ هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صٰادِقِينَ

و هذا دليلٌ على جهلهم و ذلك لأنّ النّبي يخوّفهم عن عذاب اللّه يوم القيامة و أنّهم يستبطئون العذاب و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين في قولكم هذا، و لم يعلموا أنّ لكلّ موعودٍ وقتٌ خاصّ به و هو بعد الموت و لذلك أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم في الجواب.

١- المائدة = ١٩ ٢- الأعراف = ١٨٨
٣- البقرة = ١١٩

قُلْ لَكُمْ مِيعٰادُ يَوْمٍ لاٰ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سٰاعَةً وَ لاٰ تَسْتَقْدِمُونَ

أي قل يا محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم لهؤلاء الكفّار الّذين يستعجلون بالعذاب، لكم ميعاد يوم ينزل عليكم ما وعدتم من الثّواب و العقاب و هو يوم القيامة إذ هو الّذي أعدّه اللّه للجزاء لا تستأخرون عنه، اى عن ذلك اليوم، ساعةً و لا تستقدمون أي لا تقديم فيه و لا تأخير، و من أصدق من اللّه قيلاً.

■

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ وَ لَا
بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظّٰالِمُونَ
مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا
لَوْلَآ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ
عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاۤءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾
وَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ
مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ
نَجْعَلَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا
ٱلْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ
كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَ
مَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ
إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَ قَالُوا نَحْنُ
أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾
قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ وَ
لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَ مَآ أَمْوَالُكُمْ
وَ لَآ أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ
اٰمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ
بِمَا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي ٱلْغُرُفَاتِ اٰمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَ
ٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ اٰيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولٰٓئِكَ فِي
ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ

ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشٰآءُ مِنْ عِبٰادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مٰآ
أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرّٰازِقِينَ
﴿٣٩﴾ وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاٰئِكَةِ
أَهٰؤُلاٰءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قٰالُوا سُبْحٰانَكَ
أَنْتَ وَلِيُّنٰا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ
أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لاٰ يَمْلِكُ
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَ لاٰ ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ
ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذٰابَ ٱلنّٰارِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِهٰا
تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَ إِذٰا تُتْلىٰ عَلَيْهِمْ اٰيٰاتُنٰا
بَيِّنٰاتٍ قٰالُوا مٰا هٰذٰآ إِلاّٰ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ
عَمّٰا كٰانَ يَعْبُدُ اٰبٰآؤُكُمْ وَ قٰالُوا مٰا هٰذٰآ إِلآّ إِفْكٌ
مُفْتَرًى وَ قٰالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّٰا جٰاءَهُمْ إِنْ
هٰذٰآ إِلاّٰ سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَ مٰآ اٰتَيْنٰاهُمْ مِنْ كُتُبٍ
يَدْرُسُونَهٰا وَ مٰآ أَرْسَلْنٰآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ
﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ
مٰآ اٰتَيْنٰاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾
قُلْ إِنَّمٰآ أَعِظُكُمْ بِوٰاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنىٰ وَ
فُرٰادىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ
إِلاّٰ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مٰا
سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاّٰ عَلَى
ٱللّٰهِ وَ هُوَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي
يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلاّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جٰاءَ ٱلْحَقُّ

وَ مٰا يُبْدِئُ ٱلْبٰاطِلُ وَ مٰا يُعِيدُ ﴿۴۹﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ
فَإِنَّمٰآ أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَ إِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمٰا
يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿۵۰﴾ وَ لَوْ تَرىٰٓ
إِذْ فَزِعُوا فَلاٰ فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ
﴿۵۱﴾ وَ قٰالُوٓا اٰمَنّٰا بِهِ وَ اَنّٰى لَهُمُ ٱلتَّنٰاوُشُ مِنْ
مَكٰانٍ بَعِيدٍ ﴿۵۲﴾ وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ
يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكٰانٍ بَعِيدٍ ﴿۵۳﴾ وَ حِيلَ
بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ مٰا يَشْتَهُونَ كَمٰا فُعِلَ بِأَشْيٰاعِهِمْ مِنْ
قَبْلُ إِنَّهُمْ كٰانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿۵۴﴾

◀ اللّغة

صَدَدْنٰاكُمْ: الصَّد المنع.
مُتْرَفُوهٰآ: المترف بضمّ الميم، المنعم البطر بالنّعمة.
زُلْفىٰٓ: أي قربى.
ٱلتَّنٰاوُشُ: يقال تناوش القوم إذا دنا بعضهم الى بعضٍ ولم يلتحم بينهم قتال.

◀ الإعراب

ميعٰادُ يَوْمٍ هو مصدر مضاف الى الظّرف. مَكْرُ ٱلَّيْلِ مثل ميعاد يوم. زُلْفىٰٓ مصدر على المعنى أي يقرّبكم قربى. إِلّٰا مَنْ اٰمَنَ في موقع نصب على أنّه إستثناء منقطع و يجوز أن يكون متصّلاً مستثنى من المفعول في، يقرّبكم، و أن يكون مرفوعاً بالإبتداء و ما بعده الخبر. وَ مٰآ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ما، شرطيّة في موضع نصب و الفاء جواب الشّرط، و قيل هو بمعنى الّذي في موضع رفع بالإبتداء و ما بعد الفاء الخبر أَهٰٓؤُلآٰءِ مبتدأ و إِيّٰاكُمْ في موضع

نصب و يَعْبُدُونَ خبر كان أَنْ تَقُومُوا في موضع جرٍّ بدلاً من واحدة أو رفع على تقدير، هي أن تقوموا، أو نصب على تقدير أعني بَيْنَ يَدَيْ ظرفٌ لنذير أو نعتاً له عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ بالرّفع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، أو خبر ثانٍ أو بدل من الضّمير في يقذف أو صفة على الموضع.

◀ التّفسير

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَ لَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ

أخبر اللّه تعالى عن هؤلاء الكفّار أنّهم قالوا لن نؤمن بهذا القرآن الّذي يدّعي محمّد أنّه من عند اللّه، و لا نؤمن أيضاً بالّذي بين يدي القرآن من أمر الأخرة و الثّواب و العقاب بعد الموت و على هذا فالضّمير في قوله بين يديه، راجع على القرآن، و قيل مرجع الضّمير الرّسول و المعنى لن نؤمن بالّذي بين يدي محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم من الكتب السّماوية و الأنبياء عليهم السّلام و هذا الإحتمال ضعيف و الحقّ أنّه يرجع على القرآن الّذي هو مذكور في الأية.

قال إبن جريح قائل ذلك أبو جهل بن هشام، و هذا أيضاً مردود و ذلك لأنّ الآية مصرّحة بأنّ القائل بهذا الكلام لم يكن شخصاً واحداً بل كان القائل هو و غيره من الكفّار و المشركين و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى و أنّ حكم الأمثال واحد، و أنّما أتوا بكلمة، لن، التّي لنفي الأبد للدّلالة على دوام الإنكار فيهم ثمّ أشار اللّه تعالى أحوال الكفّار في الأخرة فقال.

وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ ٱلظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ أي ولو ترى يامحمّد هؤلاء المنكرين الظالمين على أنفسهم و هم موقوفون أي محبوسون عند ربّهم يرجع بعضهم إلى بعض القول، و اللاّم في

القول للعهد الذّكري و المراد بالقول هو إنكارهم و كفرهم و أنّهم قالوا لن نؤمن بهذا القرأن في دار الدّنيا و قوله: **يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ**، معناه إنكار بعضهم و ردُّهم الإنكار إلى بعضٍ أخر ثمّ أوضح الكلام بقوله: **يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لَوْلَآ أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ** و هذا معنى إحالة الذّنب من بعض إلى بعض أخر و ذلك لأنّ المستضعفين يقولون للمستكبرين لولا أنتم، أي لولا إضلالكم إيّانا لكنّا مؤمنين فالذّنب لكم أوّلاً و لنا ثانياً.

قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ

الهَمزة في قوله أَنَحنُ، للإستفهام الإنكاري أي ما صددناكم، و معنى الآية أنّ المستكبرين يقولون في جواب المستضعفين أنحن صددناكم و معناكم عن متابعة الحقّ بعد تماميّة الحجّة عليكم من قبل النّبي بل كنتم مجرمين.

إعلم أنّ المراد بالمستضعفين المستضعفين بالعلم و هم العوام كالأنعام و بالمستكبرين رؤوسائهم أمثال أبىجهل و أبىسفيان و غيرهما و محصلّ الكلام في الأيتين أنّهم لمّا رأوا العذاب أحال كلّ صنفٍ منهم ذنبه على الأخر، فالعوام قالوا لا ذنب لنا و أنّما الذّنب لمن أضلّنا و قال المستكبر المضلّ الذّنب ثابت لكم إذ جاءكم الهدى بواسطة النّبي قبل إضلالنا إيّاكم فلم لم تقبلوا قول النّبي و قبلتم قولنا فما كان ضلالكم إلاّ بسوء سريرتكم و خبث باطنكم هذا تفسير ألفاظ الأيتين و هو ممّا لا خفاء فيه.

و نحن نقول الحقّ أنّ الذّنب ثابتٌ لهما معاً و هو ظاهر.

وَ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَ ٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا وَ أَسَرُّوا ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَ جَعَلْنَا ٱلْأَغْلَالَ فِيٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

لمّا قال المستكبرين للمستضعفين **أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ** أي ما نحن صددناكم، قال المستضعفون في جوابهم، بل مكر اللّيل و النّهار، إختلفوا في تفسيره فقال الأخفش هو على تقدير، هذا مكر اللّيل و النّهار.

و قال النّحاس بل مكركم في اللّيل و النّهار أي مسّارتكم إيّانا و دعاءكم لنا إلى الكفر حملنا على هذا، و قال الأخر في عملكم، أي بل عملكم في اللّيل و النّهار.

و قال قتادة، بل مكركم باللّيل و النّهار صدّنا فأضيف المكر إليها لوقوعه فيهما.

أقول **المَكر** بفتح الميم و سكون الكاف و الرّاء الإحتيال و الخديعة و المعنى أنّ إحتيالكم و خديعتكم إيّانا في اللّيل و النّهار صار باعثاً على إعراضنا عن الحقّ و متابعتنا لكم ففي قولهم مكر اللّيل و النّهار، إشارة إلى أنّ المستكبرين كانوا في تمام الأوقات مصرّين على إضلالهم و إغوائهم و الدّليل على ذلك قولهم.

إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَنْ نَكْفُرَ بِاللّٰهِ وَ نَجْعَلَ لَهُۥٓ أَنْدَادًا أي كُنتم أمِرين بالكُفر و هو إنكار التّوحيد و النّبوة و أن نجعل للّه أنداداً من الأصنام و الأوثان و النّدّ المثل ثمّ حكى اللّه تعالى عنهم أي عن هؤلاء الكفّار أنّهم أسرّوا النّدامة لمّا رأوا العذاب أي أخفوا النّدامة بينهم بعد رؤيتهم العذاب الّذي نزل بهم.

و قال الجبائي معناه أظهروا النّدامة و قال هو من الأضداد يكون بمعنى الإخفاء و الإبداء، و إعترض عليه بعض المحقّقين بأنّ الإخفاء مشترك لا الإسرار و جعل أحدهما على الأخر قياس في اللّغة و هو لا يجوز.

أقول لا نحتاج إلى هذه التكلّفات بعد وضوح المعنى و صحّة حمل اللّفظ على المعنى الظّاهر و هو الخفاء ضدّ الظّهور و على هذا فمعنى الكلام أنّهم لمّا

رأوا العذاب ندموا على ما إعتقدوا به في الدّنيا من الكفر إلاّ أنّهم أسرّوا بـه أي أخفوه في قلوبهم و لم يظهروا به كما هو شأن النّادم إذا خاف شماتة الأعداء.

و قوله: **وَ جَعَلْنَا ٱلْأَغْلاٰلَ فِيٓ أَعْنٰاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** الظّاهر أنّ الواو عاطفة و يحتمل أن تكون للإستئناف فعلى الأوّل معنى الكلام أنّهم أسرّوا النّدامة لمّا رأوا العذاب و رأوا أنّا جعلنا الأغلال في أعناق الكفّار.

على الثّاني: فالكلام تمّ في رأوا العذاب ثمّ إستأنف الكلام و أشار إلى كيفيّة العذاب و قال: **وَ جَعَلْنَا ٱلْأَغْلاٰلَ** الخ و الإستئناف أقوى في النّظر من العطف و ذلك لو كان قوله: **وَ جَعَلْنَا** عطفاً على ما سبق لم يحتج الكلام إلى ذكر (**وَ جَعَلْنَا**) بل حقّ الكلام أن يقال لمّا رأوا العذاب و الأغلال الّتي في أعناق الّذين كفروا و حيث لم يقل ذلك بل قال: **وَ جَعَلْنَا ٱلْأَغْلاٰلَ**، نكشف منه أنّه تعالى كان بصدد بيان كيفيّة العذاب و لعلّه لذلك أشار في أخر الآية بقوله: **هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ**، أي لا يجزون إلاّ ذلك و الّذى يظهر من كلمات المفسّرين أنّهم جعلوا الواو عاطفة و لا مشاحة فيه بعد ظهور المعنى على الإحتمالين.

وَ مٰآ أَرْسَلْنٰا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰآ إِنّٰا بِمٰآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ

المترف المنعم البطر بالنّعمة و النّذير هو الرّسول المرسل إلى الخلق.

و قال في المفردات الترفّة، التوسّع في النّعمة يقال أترف فلان فهو مترف، أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ المترفين أعني بهم المتوسّعين في النّعمة كانوا كذلك و فيه إشارة إلى أنّ الترفّه قد يصير باعثاً على الطّغيان و الكفر بالنّعمة في بعض الأشخاص أو جميعهم إلاّ من شذّ و ندر إذ ما من عامٍّ إلاّخصّ و الحكم دائماً بإعتبار الأعمّ و الأغلب إذا كان في الأوصاف كما في الآية فأنّ قوله تعالى: **إِلاّٰ قٰالَ مُتْرَفُوهٰآ إِنّٰا بِمٰآ أُرْسِلْتُمْ بِهِ كٰافِرُونَ** ليس

معناه أنّ كلّ متوسّعٍ في النّعمة كان كذلك إذ منهم من لم يكن كذلك و أن كانوا قليلين نعم أكثرهم كانوا كذلك اللّهم إلاّ أن يقال أنّ الحكم لم يتعلّق بكلّ متوّسع في النّعمة بقولٍ مطلق بل تعلّق بمتوّسعٍ كان بطراً بالنّعمة وكيف أفاد في الآية أنّ المترفين لم يؤمنوا بمن أرسل إليهم في باديُ الأمر و أنّما أمن منهم بعد اليأس عن المقابلة و المخالفة كما أنّ أبا سفيان و أمثاله لم يؤمنوا بالرّسول إلاّ بعد فتح مكّة و يأسهم عن المخالفة و القتال و السرّ في ذلك أنّ النّاس الّذين أرسل إليهم رسولاً من قبل اللّه على صنفين، الفقراء و الأغنياء أعني المترفين منهم.

و من المعلوم أنّ الفقير أقرب إلى قبول الدّعوة من الغنيّ لوجود المقتضى و عدم المانع فيه و أمّا الغنيّ فيمنعه عن القبول الترفّه و التوّسع في النّعمة فأنّها تخرج الإنسان عن قبول الحقّ غالباً ألا ترى أنّ نبيّ الإسلام لم يؤمن به من الأغنياء أحد في بدو بعثته حتّى عمّه العبّاس بقي في زمرة المشركين حتّى أسر يوم بدر و كان جميع من أمن به أو أكثرهم الفقراء الّذين عبّر عنهم بأصحاب الصفّة، و لم يكن فيهم من الأغنياء أحد و ذلك واضح لا يحتاج إلى إطالة الكلام فيه و إلى ذلك أشار:

قال اللّه تعالى: **كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيَطْغَىٰٓ، أَنْ رَاٰهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ أَمَّا مَنْ بَخِلَ وَ ٱسْتَغْنَىٰ، وَ كَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ**(٢).

و من أظهر الدّلائل على صدق المدّعى هو أنّ قارون مع كونه من أقرباء موسى عليه السلام خالفه و أنكره ولم يؤمن به بل نقول أنّهم في الإلتزام بالأحكام الشرعيّة بعد إيمانهم ظاهراً، من اللاّعبين بها يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم.

وَ قَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالًا وَ أَوْلادًا وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

١- العلق = ٧ / ٦ ٢- اللّيل = ٩ / ٨

حكى اللّه عنهم أنّهم قالوا كذلك أنظر إلى هذا الإستدلال فأنّه يدلّ على جهلهم بعواقب الأمر و أنّ كثرة الأموال و الأولاد لا تدُل على محبّة اللّه إيّاهم بل هي إختبار و إبتلاءٌ لهم لو كانوا يعلمون.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدادُوٓا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ**(١).

و على هذا فالإستدلال في نفي العذاب بكثرة الأموال و الأولاد من غاية الجهل.

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ وَ يَقْدِرُ وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يَعْلَمُونَ

هذه الآية في الحقيقة جواب عن الآية السّابقة و ذلك لأنّهم لمّا زعموا أنّ كثرة الأموال و الأولاد دليل على محبّة اللّه لصاحب المال و الأولاد فلا عذاب لهم في الأخرة، أجابهم بواسطة النّبي فقال تعالى قل يامحمّد لهؤلاء القوم ليس الأمر كما زعمتموه من أنّ كثرة المال و الأولاد دليل على محبّة اللّه إيّاكم بل الحقّ أنّ اللّه يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر أي يضيق لمن يشاء من عباده على أساس المصلحة التّي رأها فيه و لا ربط له بالمحبّة و عدمها إذ لو كان الأمر كما زعمتم و ظنّنتم لما وسع على الكافر في الدّنيا ضرورة أنّه لا يحبّ الكافر لأنّ الكافر باللّه لا يكون محبوباً له عقلاً.

و قوله: **وَ لٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**، معناه لا يعلمون المصلحة أو لا يعلمون أنّ أفعال اللّه تابعة للمصالح و المفاسد الواقعيّة التّي لا يعلمها إلاّ هو إذ لو كان الأمر كما ظنَّ هؤلاء الجهّال لكان قارون محبوباً للّه تعالى و موسى مبغوضاً له و ذلك لأنّه أعطى قارون ما أعطاه من الأموال ولم يعط موسى و هكذا القول في جميع الأنبياء و لا يقول بهذه المقالة إلاّ جاهلٌ.

١- أل عمران = ١٧٨

محصّل الكلام هو أنّ بسط الرّزق و ضيقه لا ربط لهما بمحبّة اللّه و عدمها فأنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم و إلى هذا المعنى أردف اللّه كلامه بقوله:

وَ مٰآ أَمْوٰالُكُمْ وَ لاَ أَوْلاٰدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفىٰ إِلاّٰ مَنْ اٰمَنَ وَ عَمِلَ صٰالِحًا فَأُولٰئِكَ لَهُمْ جَزٰآءُ ٱلضِّعْفِ بِمٰا عَمِلُوا وَ هُمْ فِي ٱلْغُرُفٰاتِ اٰمِنُونَ

زُلْفىٰ بضّم الزّاء قال مجاهد أي، قربى، و الزُّلفة القربة و قال الأخفش أي إزلافاً، و هو إسم المصدر فيكون موضع قربى، نصباً، كأنّه قال بالتّي تقرّبكم عندنا تقريباً.

و معنى الآية و ليست أموالكم و لا أولادكم من الأمور التّي تقرّبكم عند اللّه تقرّباً ليس لغيركم إلاّ من أمن منكم و عمل صالحاً فأولئك، أي من عمل صالحاً بعد الإيمان، لهم جزاء الضِّف بما عملوا أي نجازيهم أضعاف ما عملوا من الثّواب و هم في الغرفات، أي في غرفات الجنّة أمنون، من جميع الجهات و ملخصّ الكلام في الآية أنّ الّذي يوجب التّقرب إلى اللّه معنوياً هو الإيمان باللّه و رسله و اليوم الأخر ثمّ العمل بمقتضى الإيمان فمن كان كذلك فله جزاء الضِّعف و الأمن في غرفات الجنّة فالملاك كلّ الملاك في التّقرب إلى اللّه و دخول الجنّة هو العمل الصّالح المنبعث عن الإيمان فقط.

أمّا الأموال و الأولاد و العشيرة و غير ذلك فهى خارجة عن مورد البحث و الأصل في ذلك هو قوله تعالى:

إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثىٰ وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوبًا وَقَبٰآئِلَ لِتَعٰارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ(١).

و من المعلوم أنّ التقوى لا تحصل إلاّ بالإيمان و العمل الصّالح.

١- الحجرات = ١٣

وَ ٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُولَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ

هدَّد اللّه تعالى في هذه الآية الكفّار و قال و الّذين يسعون في أياتنا معاجزين أي مسابقين فيمن قرأ بألف.

أمّا على القراءة بدون ألِف (معجزين) فمعناه مثبطين غيرهم من أفعال الخير أولئك في العذاب محضرون أي يحصلون في عذاب النّار، و قيل أي في جهنّم تحضرهم الزّبانية فيها ففي الآية دلالة على أنّ المعاندين الّذين يسعون في إبطال الأدلّة و الحجّة ليمنعوا بذلك غيرهم عن الإيمان فذنبهم أعظم ممّن لم يؤمن ولم يسع في ذلك لوضوح الفرق بين الضّال و المضلّ.

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ يَقْدِرُ لَهُ وَ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَ هُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ

أنّما كرَّر قوله: **إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَنْ يَشَآءُ**، لإختلاف الفائدة و الأثر المترتّب عليه فأنّ الأوّل على معنى أنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر من غير أن يعلم أكثر النّاس لم فعل ذلك.

الثّاني: بمعنى أنّ ربّي يبسط الرّزق لمن يشاء و يقدر له على أنّ ما أنفقه في أبواب البّر فأنّه يخلفه عليه و هو قوله: **وَ مَآ أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ**، أي يعطيكم عوضه قاله في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين من العامّة في وجه التّكرار ما هذا لفظه:

كرّر تأكيداً أي قل يا محمّد لهؤلاء المغترّين بالأموال و الأولاد أنّ اللّه يوسّع على من يشاء و يضيّق على من يشاء فلا تغترّوا بالأموال و الأولاد بل أنفقوها في طاعة اللّه فأنّ ما أنفقتم في طاعة اللّه فهو يخلفه و فيه إضمار أي فهو يخلفه عليكم أي يعطيكم خلفه و بدله و ذلك البدل أمّا في الدّنيا و أمّا في الأخرة ثمّ ذكر أحاديث عن أبي هريرة عن النّبي في حسن الإنفاق و مدحه إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره أيضاً لا بأس به و المعنى واضح و الغرض من التّكرار لا خفاء فيه فأنّ البسط و الضّيق في الرّزق على وجه المصلحة شيءٌ و الإنفاق من المال في سبيل البّر و الطّاعة شيءٌ أخر فظهر الفرق و الّذي يختلج بالبال في حلّ الإشكال، هو أنّ قوله في الأوّل ردٌّ على قول الكفّار حيث زعموا أنّ كثرة الأموال و الأولاد تدلّ على محبّة اللّه ايّاهم و لذلك قالوا و ما نحن بمعذّبين و على هذا فيكون المال و الولد ممّا يقربهم إلى اللّه زلفى.

فأجاب اللّه تعالى عنهم بأنّ الأمر ليس كذلك فقال: **وَ مَآ أَمْوٰالُكُمْ وَ لَآ أَوْلٰادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنٰا زُلْفَىٰ** و أنّما الّذي يقرّبكم عندنا هو الإيمان و العمل الصّالح لا الأموال و الأولاد.

أمّا في هذه الآية أشار إلى شيءٍ أخر و هو أنّ العمل الصّالح في الأموال إنفاقها في سبيل البّر و الطّاعة فكأنّه قيل ما العمل الصّالح في الأموال، فقال تعالى هو إنفاق المال في سبيل الطّاعة و على هذا فهذه الآية بمنزلة التّفسير و التّوضيح لما ذكره سابقاً.

وَ يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلٰآئِكَةِ أَهٰٓؤُلَآءِ إِيّٰاكُمْ كٰانُوا يَعْبُدُونَ

يوم الحشر هو يوم القيامة و لذلك سمّي به فأنّ الحشر الجمع و المعنى يوم يحشر اللّه الخلائق و يجمعهم للحساب ثمّ يقول اللّه للملائكة الّذين عبدهم جماعة من الكفّار في دار الدّنيا، أهؤلاء، يعني الكفّار، إيّاكم كانوا يعبدون، فالإستفهام في قوله: **أَهٰٓؤُلَآءِ**، لتوبيخ العابدين.

قال بعض المفسّرين أنّ هذه الآية متصلّة بقوله: **وَ لَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظّٰالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ**[1] أي لو تراهم في هذه الحالة لرأيت أمراً فظيعاً ثمّ قال ولو تراهم أيضاً يوم يحشرهم جميعاً، إنتهى.

١- سبا = ٣١

قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية ما لفظه.

قال سعيد عن قتادة هذا إستفهام كقوله عزّ وجلّ لعيسى: **ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَ أُمِّيَ إِلٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ**(١).

أقول ما نقله عن قتادة لا وجه له و ذلك لأنّ المخاطب هناك عيسى إبن مريم، و أمّا في المقام فلم يقل ذلك مخاطباً للملائكة.

بعبارةٍ أخرى الإستفهام هناك عن المعبود و في المقام عن العابد، و كيف كان فقد أجاب الملائكة بقولهم: **سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا** تنزيهاً لك أن نعبد سواك و نتَّخذ معك معبوداً غيرك و أنت ياربّنا وليّنا و ناصرنا و أولى بنا منّا من دونهم، أي من دون هؤلاء الكفّار و نحن ما أمرناهم بهذا و لا رضينا به لهم.

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ بطاعتهم إيّاهم فيما يدعونهم إليه من عبادة الملائكة، قيل أنّهم صوَّروا لهم صورة قومٍ من الجنّ و قالوا هذه صورة الملائكة فأعبدوها، و قيل أنّهم أطاعوا إبليس و أعوانه، أنّ حيّاً يقال لهم بنو ملج من خزاعة كانوا يعبدون الجنّ و يزعمون أنّهم الملائكة و أنّهم بنات اللّه.

محصّل الكلام هو أنّهم و إن عبدوا الملائكة بزعمهم إلاّ أنّهم أي الملائكة لم يرضوا بعبادتهم إيّاهم و لا دعوهم إليها و أمّا الجنّ فأنّهم دعوهم إلى عبادتهم و رضوا به و على هذا فتوّجه الذّم إلى العابد و المعبود جميعاً.

أمّا في الملائكة فلا يستحقّ الذّم غير العابد و لذلك أضرب عن ذكر الملائكة و قال بل هم كانوا يعبدون الجنّ.

١- المائدة = ١١٦

فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَ لا ضَرًّا وَ نَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ

و اللاّم في اليوم، للعهد الذّكري أي اليوم الموعود المذكور في الكتاب، أو للعهد الحاضر و المعنى فاليوم الحاضر و هو يوم القيامة لا يملك بعضكم لبعضٍ نفعاً و لا ضرّاً، لعدم قدرتهم على النّفع و الضّر و إنتفاء العلّة توجب إنتفاء المعلول ثمّ يقول اللّه تعالى لهؤلاء الكفّار الّذين ظلموا على غيرهم و على نفوسهم بإرتكاب المعاصي، ذوقوا عذاب النّار التّي كنتم، في الدُّنيا بها تكذّبون أي كنتم تجحدونه و لا تعترفون به بل كنتم تستهزؤون بها.

وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ اٰياتُنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هٰذآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمّا كانَ يَعْبُدُ اٰباۤؤُكُمْ وَ قالُوا ما هٰذآ إِلّآ إِفْكٌ مُفْتَرًى وَ قالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاۤءَهُمْ إِنْ هٰذآ إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن كيفيّة تكذيبهم أيات اللّه و قال: **وَ إِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ اٰياتُنا بَيِّناتٍ** من كتاب اللّه بواسطة النّبي (**قالُوا ما هٰذآ**) أي ليس هذا الّذى يدّعي النبوّة (**إِلّا رَجُلٌ**) كغيره من الرّجال و لذلك نكّروه تحقيراً له بزعمهم (**يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ**) و يمنعكم فأنّ الصّد المنع (**عَمّا كانَ يَعْبُدُ اٰباۤؤُكُمْ**) من الأصنام و الأوثان و غيرها (**وَ قالُوا**) اى هؤلاء الكفّار (**ما هٰذآ إِلّآ إِفْكٌ مُفْتَرًى**) أي كذبٌ افتراه و نسبه الى اللّه (**وَ قالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جاۤءَهُمْ إِنْ هٰذآ إِلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ**) كلمة (**إِنْ**) نافية أي قال الكفّار الّذين أنكروا الحقّ لمّا جاءهم، أي لمّا جاءهم الحقّ، إن هذا، أي ليس هذا إلاّ سحرٌ مبين، أي ظاهر لا خفاء فيه.

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الكفّار الّذين إذا تتلى عليهم آيات الكتاب بواسطة النّبي ﷺ أنكروا ذلك و قالوا أنّه ليس بنبّي و أنّ الأيات المتلوّة ليست من كلام اللّه و هو أيضاً ليس مخبراً بها عن اللّه بل هو رجلٌ من الرّجال و

لا فرق بينه و بينهم و غرضه من ذكر الأيات و إنتسابها بها الى اللّه إضلالكم و منعكم عن عبادة الأوثان و الأصنام فليس هذا إلاّ، إفكٌ مفترى، ثمّ أخبر عن الّذين كفروا للحقّ أي القرآن لمّا جاءهم الحقّ قالوا ليس هذا إلاّ سحرٌ ظاهر، ففي هذه الآية أخبر اللّه عن فرقتين من الكفّار.

إن قلت ما الفرق بينهما حيث عطف فرقةً على فرقةٍ أخرى و من المعلوم المسلّم عند الكلّ أنّ المعطوف يغاير المعطوف عليه و في المقام لا فرق بينهما في الإنكار.

قلت أراد بالفرقة الأولى العوام و الجهّال منهم و بالثّانية علماؤهم و ذلك لأنّ قوله تعالى: **ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ** إشارة الى أنّهم عرفوا الحقّ ثمّ حملوه على السِّحر إذ من لا يعرف الحقّ عن الباطل شأنه التّكذيب و من عرف الحقّ يحمله على السِّحر و هو حيلةٌ خفيّة توهم المعجزة ألا ترى أنّ الفرقة الأولى تقول في مقام الإستدلال ما هذا إلاّ رجل يريد أن يصدّكم و يمنعكم عن دين آباءكم.

و أمّا الفرقة الثّانية تحمل الكلام على السِّحر ليشتبه الأمر على العوام الّذين لا يعرفون الفرق بين السِّحر و المعجزة و اللّه أعلم.

وَ مَآ ءَاتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَ مَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ

كلمة، ما، في الموضعين للنّفي، قالوا في معنى الآية أي ما آتيناهم من كتبٍ قبل هذا الكتاب أعني به القرآن فصدّقوا به و بما فيه إن هذا كما زعموا **وَ مَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ**، أي في عهد الجاهليّة **مِنْ نَذِيرٍ**، أي نبيّ، و قيل معناه ما أرسلنا اليهم قبلك يا محمّد من نذيرٍ إلاّ فعلوا به ما فعلوا بك و قالوا له مثل ما قالوا لك و حذف لدلالة الكلام عليه.

أقول و الّذي يختلج بالبال في معنى الآية هو أنّ التّكذيب لا بدّ له من وجهٍ يمكن أن يثبّت به و ما نحن فيه ليس من هذا القبيل و ذلك أنّهم لم يقرؤا في

كتابٍ أوتوه بطلان ما جئت بـه و لا سـمعوا مـن رسـولٍ بـعث اليـهم فـليس لتكذيبهم وجه فمن أين علموا أنّ هذه الأيات من المفتريات و معجزاتك مـن السِّحر و على هذا فالإنكار ليس في محلّه.

وَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ مٰا بَلَغُوا مِعْشٰارَ مٰآ آتَيْنٰاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ تكذيب الرُّسُل و ما جاؤوا بـه مـن الآيـات ليس منحصراً بهؤلاء القوم أعني بهم مشركي العرب بـل كـان التَّكـذيب جـارياً فـي الأمم السّالفة أيضاً الّذين كانوا أشدّ من هـؤلاء بـطشاً و أكـثر أمـوالاً و أولاداً و أوسع عيشاً بحيث ما بلغوا هؤلاء المشـركين مـعشار مـا آتـيناهم من القـوّة و المعشار و العشر سواء و هما لغتان و قيل المعشار عشر العشر و معشار الشّئ عشره و لا يقولون هـذا، فـي شـئٍ سـوى العشـر و حـاصل الكـلام أنّ هـؤلاء المشركين المنكرين للحَق بالنِّسبةً الى من قبلهم من الكفّار فـي الأمـم السّـالفة نسبتهم إليهم من حيث ألقوّة و كثرة الأموال نسبة المعشار الى العشر من جـهة القلّة و الضّعف فإذا لم يقدروا هؤلاء على إطفاء نور الحَق و أهلكهم اللّه فكيف بهؤلاء المشركين مع ضعفهم و قلّة عددهم.

بعبارةٍ اخرى إنّا أهلكنا قوم عادٍ و ثمود بسبب تكذيبهم الأنبياء ونحن على إهلاك المشركين أقدر و اذا كان المخلوق كائناً مـا كـان ضـعيفاً حـقيراً ذليـلاً لا يقدر على دفع العذاب عن نفسه في الدّنيا و الآخرة فكيف يكذّب آيات اللّه و أنبيائه و الى هذا المعنى أشار اللّه تعالى في آخر الآية حيث قال: **فَكَيْفَ كٰانَ نَكِيرِ** أي كيف كان تغييري و عقوبتي فأنّ الإهلاك و الإستئصال هو نكـير اللّـه في الدّنيا فالطّاعة و الإنقياد للعبد أولى و أحسن عقلاً و نقلاً و هو ظاهر.

قُلْ إِنَّمٰآ أَعِظُكُمْ بِواٰحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنٰى وَ فُراٰدٰى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ

قال الرّاغب في المفردات الوعظ زجرٌ مقترنٌ بتخويفٍ قال الخليل هو التّذكير بالخير فيما يرقّ له القلب و العظة والموعظة الإسم إنتهىٰ.

و قال الشّيخ في التّبيان الوعظ الدُّعاء إلى ما ينبغي أن يرغب فيما ينبغي أن يجوز منه ممّا يلين القلب إلى الإستجابة للحقّ بالنّبي هو أجلّ و أعظم و أكبر داعٍ بما أعطاه اللّه من الحكمة إنتهى.

خاطب اللّه في هذه الآية نبيّه أن يقول لهؤلاء الكفّار، **إِنَّمَآ أَعِظُكُمْ بِوٰاحِدَةٍ**، كلمة، أنّما، تفيد الحصر أي أنّ موعظتي إيّاكم منحصرة بواحدة لا ثاني لها و هي **أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنٰى وَ فُرٰادٰى**، أي إثنين إثنين، و واحداً واحداً، ليذاكر أحدهما صاحبه فيستغين برأيه على هذا الأمر (**ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مٰا بِصٰاحِبِكُمْ**) يعني محمّداً ﷺ (**مِنْ جِنَّةٍ**) أي جنون (**إِنْ هُوَ**) أي ليس النّبي (**إِلّٰا نَذِيرٌ**) أي مخوّفٍ من معاصي اللّه (**بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ**) يعني عذاب القيامة فهذا تفسير ألفاظ الآية و في الآية مسائل:

الأُولىٰ: ما المراد بواحدة في الآية فقيل معناها كلمة واحدة مشتملة على جميع الكلام تقتضي نفي الشّرك و إثبات الإلاه.

قال مجاهد هي لا إله إلاّ اللّه، المعبّر عنه بكلمة التوحيد إذ هي الأصل في الدّين و به قال إبن عبّاس و السُّدي، و قيل بطاعة اللّه، و قيل بالقرأن لأنّه يجمع كلّ المواعظ و قيل تقديره بخصلةٍ واحدة ثمّ بيّنها بقوله: **أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ مَثْنٰى وَ فُرٰادٰى** فتكون، أن، في موضع خفض على البدل من واحدة، أو في موضع رفع على إضمار مبتدأ أي هي أن تقوموا، او في موضع نصب بمعنى لأن تقوموا و لكلٍّ من الوجوه وجهٌ جميل.

الثّانية: أنّ هذا القيام معناه القيام لطلب الحقّ لا القيام الّذي هو ضدّ القعود و هو كما يقال قام فلان بأمر كذا، أي لوجه اللّه و التّقرّب إليه كقوله تعالى: **وَ أَنْ تَقُومُوا لِلْيَتٰامىٰ بِالْقِسْطِ**[1] فالمعنى في قوله: **أَنْ تَقُومُوا لِلّٰهِ**، أن يكون

١- النّساء = ١٢٧

قيامكم له تعالى لا لغيره من الوصول إلى الأغراض و الأميال الدُّنيوية فأنّ القيام بالأمر تارةً يكون للدُّنيا و تارةً للّه و التقرُّب إليه.

و ذلك لأنّ القيام من المفاهيم الكليّة المنطبقة على مصاديق كثيرة فهو بما هو هو لا فرق بين مصاديقه و أنّما الفرق في متعلّق القيام ألا ترى أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قام بالأمر، و معاوية و عثمان أيضاً قاما بالأمر و الفرق بين القيامين في مفهوم الأمر لا في نفس القيام فأن كان الأمر حقّاً فالقيام متصّف بالحقّ و أن كان باطلاً فالقيام متصّف بالبطلان و لأجل هذه الدّقيقة قال أن تقوموا للّه، حيث خصّ القيام له تعالى متقرّباً إليه و القيام بهذا المعنى هو منشأ الخيرات.

الثّالثة: قوله: **مَثْنٰى وَ فُرٰادٰى** يظهر من كلمات المفسّرين أنّ المعنى قوموا مثنى أي أثنين أثنين و واحداً واحداً ليذكر أحدهما صاحبه، بعضهم أي قوموا وحداناً و مجتمعين، و قيل منفرداً برأية و مشاوراً لغيره ثمّ تتّفكروا ما بصاحبكم من جنّةٍ و على هذا التّفسير فالوقف ليس على **ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** لأنّ المفروض أنّ القيام للتّفكر و أنّه **مٰا بِصٰاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلاّٰ نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذٰابٍ شَدِيدٍ**.

و في المقام إحتمال أخر هو أقوى في النَّظر ممّا ذكروه و اللّه أعلم و هو أنّ الوقف على قوله: **ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** و عليه فالكلام قد تمّ عند قوله: **وَ فُرٰادٰى**، و يؤيّد ما ذكرناه كلمة، **ثمّ**، التّي هي للتّرتيب الإنفصالي بخلاف الواو، التّي هي للتّرتيب الإتّصالي فلو كان الأمر كما ذكروه فحقّ الكلام أن يقال و تتّفكروا ليفيد الجمع بين المعطوف و المعطوف عليه و حيث لم يقل ذلك و أتى بكلمة، ثمّ، فيستفاد من الكلام أنّ المعطوف قوله: **تَتَفَكَّرُوا**، منفصلٌ عن المعطوف عليه و هو قوله: **مَثْنٰى وَ فُرٰادٰى**، و اذا أثبت الإنفصال بمقتضى العطف بكلمة ثمّ أثبت أنّ المعطوف حكمٌ أخر منفصلٌ عن المعطوف عليه فالمعطوف عليه هو القيام للّه مثنى و فراداى، و المعطوف التّفكر في أمر النّبي و هو شئٍ أخر

ضرورة أنّ التفكُّر غير القيام و القيام غير التفكّر و لا ملازمة بينهما أصلاً، و لا نعني بالانفصال الاّ هذا و عليه فقوله: **ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا** هو أوّل الكلام و أن شئت قلت أمرهم بالقيام للّه أوّلاً و بالتفكّر ثانياً ففي الآية دلالة على أنّ القيام لِلّه وظيفة العباد سواءٌ كانوا مجتمعين أو منفرين.

فأنّ المراد بالقيام في المقام هو الإتيان بوظائف العبوديّة التّي يجب على العبد عقلاً و شرعاً و من المعلوم أنّ هذا القيام لا يتحصّل له إلاّ بمتابعة النّبي الّذي هو واسطة بين الرَّب و العبد فإذا تفَكّر العبد في أحوال النّبي و ما جاء به من عند اللّه علم أنّه ليس مجنونٍ بل هو في كمال العقل والتَّدبير هذا ما حصل لنا في تفسير الآية بعد التّدبير فيها و اللّه أعلم.

و أمّا قوله: **إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ** فمعناه أنّ النّبي ليس إلاّ منذراً من عذاب اللّه في صورة المخالفة و العصيان و ليس له غرضٌ أخر من الإنذار و من كان كذلك لا يعدّ مجنوناً.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَ هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ

قال في التّبيان، و المعنى أنّي أبَلّغكم الرّسالة و لا أجر إلى نفسي عرضاً من أعراض الدّنيا بل ثمرة ذلك لكم و ليس أجري إلاّ على اللّه إنتهى.

و قال القرطبي **قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ** جعل على تبليغ الرّسالة فهو لكم، أي ذلك الجعل لكم إن كنت سألتكموه، و به قال صاحب الكشّاف قبله و لعلّه أي القرطبي أخذ منه.

قال الزّمخشري تقديره أيُّ شيئٍ سألتكم من أجرٍ فهو لكم.

أقول الأقوال مختلفة بحسب الألفاظ و مرجع الكلّ إلى شيئٍ واحدٍ أنّي ما سألتكم على الرّسالة من أجرٍ فأن تقولوا أنّي سألتكم شيئاً فهو لكم، إن أجري إلاّ على اللّه أي ليس أجري إلاّ عليه تعالى الّذي أرسلني إليكم على قاعدة

اللُّطف و من المعلوم عند العقل أنّ أجر المأمور على الأمر، و هو أي اللّه تعالى: **هُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ**، أي عالمٌ به و لا يخفى عليه شئ.

قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ ٱلْغُيُوبِ

أي قل يامحمّد لهم أنّ ربّي، يقذف، أي يلقي بالحقّ على الباطل و هو علاّم الغيوب، فالمبتدأ محذوف ولو نصب على أنه نعتٌ (لربّي) لا إشكال فيه أي أنّ ربّي علاّم الغيوب بل لا يعلم الغيب إلاّ هو ثمّ انّ المراد بإلقاء الحقّ علىٰ الباطل هو إرسال الرُّسل و إنزال الكتب و جعل الأحكام و الشّرائع و بالجملة كلّ ما فيه مصلحة للبشر المعنى أنّه تعالى يبيّن الحجّة و يظهرها.

و قال بعضهم المراد بالحقّ الوحي، و قيل هو القرأن و قال إبن عبّاس أي يقذف الباطل بالحقّ علاّم الغيوب.

قُلْ جٰاءَ ٱلْحَقُّ وَ مٰا يُبْدِئُ ٱلْبٰاطِلُ وَ مٰا يُعِيدُ

ثمّ أمر اللّه نبيّه أن يقول لهم جاء الحقّ و هو التّوحيد فلا يرجع الباطل و لا يعود أبداً و ذلك لأنّ الحقّ إذا جاء أذهب الباطل فلم يبق له بقيّة يبدء بها و يعيد.

قال اللّه تعالى: **بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى ٱلْبٰاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذٰا هُوَ زٰاهِقٌ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ قُلْ جٰاءَ ٱلْحَقُّ وَ زَهَقَ ٱلْبٰاطِلُ إِنَّ ٱلْبٰاطِلَ كٰانَ زَهُوقًا**(٢).

و قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **لِلحقّ دَولة وللباطل جَولة**، و السرّ في ذلك أنّ الحقّ هو الثّابت الّذي لا يتغيّر و لا يتبدّل و أن شئت قلت هو الثّابت العين، و الباطل بخلافه، و قيل الحقّ هو الّذي لا سبيل للبطلان إليه و الباطل بخلافه فأنّ الباطل نقيض الحقّ لا ضدّه على التّحقيق لأنّ الضّدين أمران وجوديّان و

١- الأنبياء = ١٨ ٢- الإسراء = ٨١

الباطل لا وجود له إستقلالاً و أنّما هو عدم الحقّ إلاّ أنّه كثيراً ما يطلقون عليه الضدّ في العرف فيقال حقٌّ و باطلٌ، و الباطل ضدّ الحقّ، أي مخالفٌ له و كيف كان لا شكّ أنّهما لا يجتمعان و لا يرتفعان فوجود أحدهما ينفي الأخر و على هذا فالمراد بزهوق الباطل بعد مجيئ الحقّ زهوق أثاره فالحقّ و الباطل كالنُّور و الظُّلمة إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **وَ مٰا يُبْدِئُ اَلْبٰاطِلُ وَ مٰا يُعِيدُ** حيث حكم بعدم عود الباطل بعد مجيئ الحقّ، إشارة إلى نكتةٍ خفيّةٍ على الأذهان و هى أنّ ما لا ذات له لا عود له و حيث أنّ الباطل أمرٌ عدميٌ لا ذات له مستقّلاً فلا يعقل فيه العود ألا ترى أنّك إذا قلت جاء زيدٌ و ذهب عمروٌ ليس معناه أنّ عمرواً لا يعود لأنّ الذّهاب ليس بمعنى البطلان حتّى لا يعقل عوده، و أمّا إذا قلت جاء زيدٌ و زهق نفسه أو نفس عمروٍ، فلا يعقل الرّجوع و العود بعد الزّهوق لأنّ الزّهوق البطلان و الهلاك و زهوق النّفس بطلانها فقوله تعالى: **وزَهَق الباطل** أي زال و بطل كان كذلك فليس هناك شئ يرجع أو يعود و لأجل هذه الدّقيقة قال تعالى و زهق الباطل و لم يقل و ذهب الباطل لأنّ الذّهاب لا يطلق إلاّ على ما له ذاتٌ و وجود و لذلك يرجى فيه العود بخلاف الزّهوق و حيث أنّ الباطل أمرٌ عدميٌ لا وجود له مستّقلاً و لا ذات بل هو عدم الحقّ قال تعالى و ما يبدئ الباطل و ما يعيد، أي لا يعيد مادام الحقّ قائماً.

قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمٰا أَضِلُّ عَلىٰ نَفْسِي وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمٰا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ

أي قل يامحمّد لهؤلاء الكفّار الإنسان لا يخلو من الضّلالة او الهداية فأن خالف الحقّ فهو ضالّ وإن تبعه فهو المهتدي و على هذا فأن ضللت في إدّعائي النّبوة و كنت كاذباً فيه كما تظنّون فأنّي ظالم على نفسي لأنّ اللّه لا يضلّ عبده و إن إهتديت فبما يوحي إليّ ربّي أي أنّه تعالى هداني إلى الحقّ أنّه

سميعٌ يسمع الكلام و قريبٌ بالعبد بل هو أقرب إليه من حبل الوريد، ففي هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى أصلين أصيلين في باب الإعتقادات.

أحدهما: أنّ الضّلالة ليست من اللّه تعالى بل هي مستندة إلى الإنسان نفسه و منشأها سوء السّريرة و خبث الطّينة و متابعة الشّيطان بسبب المعاصي و مع ذلك ضررها على نفس الإنسان و لا تضرّ اللّه شيئاً إذ لا تضرّهُ معصية من عصاه فمن نسب الضّلالة و الكفر إلى اللّه فقد ضلَّ ضلالاً بعيداً.

ثانيهما: أنّ الهداية و الإيمان بتوفيقٍ من اللّه و ذلك لأنّه تعالى فاعل الخيرات ففي الآية دلالة على فساد قول المجبّرة حيث أضافوا الضّلال و الهدي إلى اللّه و أنّ اللّه يجعلهما فيمن يشاء من عباده و لم يعلموا أنّ إضلال العبد ظلمٌ عليه و هو تعالى منزّهٌ عنه، و في قوله: **وَ إِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمٰا يُوحِيٓ إِلَيَّ رَبِّيٓ** إشارة نبوّته لأنّ الوحي مختصٌّ بمن أرسله اللّه إلى الخلق و قد مرَّ الكلام في الوحي سابقاً غير مرّةٍ.

وَ لَوْ تَرىٰٓ إِذْ فَزِعُوا فَلاٰ فَوْتَ وَ أُخِذُوا مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ

أي و لو ترى يا محمّد إذ فزعوا و خافوا من شدّة العذاب يوم القيامة، فلا فوت، أي لا مهرب لهم **وَ أُخِذُوا مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ** قيل هو عذاب الدّنيا، و قيل خروجهم من قبورهم، و قيل من بطن الأرض إلى ظهرها.

و قال بعض المفسّرين، هذا الفزع منهم عند الموت و المعنى ولو ترى يامحمّد إذ فزعوا عند الموت في الدّنيا.

أقول أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الفزع و لم يعيّن متعلّقه فيمكن حمله على جميع ما ذكروه سواء كان في الدّنيا أم في الأخرة و قوله: **مِنْ مَكٰانٍ قَرِيبٍ**، أي من حيث كانوا فهم من اللّه قريب لا يعزبون عنه و لا يفوتونه و كيف كان فجواب لو، في قوله: **وَ لَوْ تَرىٰٓ**، محذوف و التّقدير و لو ترى لرأيت ما تعتبر به عبرةً عظيمة أو غير ذلك.

وَ قالُوا آمَنّا بِهِ وَ أَنّى لَهُمُ التَّناوُشُ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ، وَ قَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَ يَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ

أي و يقولون ذلك الوقت أي حين رؤيتهم العذاب، أمنّا و صدّقنا به تعالى، و أنّى لهم التّناوش، أي أنّى لهم الرّجعة فأنّ التّناوش الرّجعة على قول إبن عبّاس و على هذا فالمعنى أنّهم يطلبون الرّجعة إلى الدّنيا ليؤمنوا و هيهات من ذلك.

و قال السُّدي التّناوش التَّوبة أي طلبوها و قد بعدت لأنّه أنما تقبل التّوبة في الدّنيا قبل الموت لا بعده، و قيل التّناوش، التّناول و على هذا فالمعنى أنّىٰ لهم تناول الإيمان في الأخرة و قد كفروا به في الدّنيا.

و قوله: **مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ**، فالمراد به الأخرة أي كيف لهم الرّجوع من الأخرة إلى الدُّنيا، و قد كفروا به، الواو للحال أي و الحال أنّهم قد كفروا به أي باللّه تعالى من قبل، أي من قبل الموت في الدّنيا، و يقذفون بالغيب، العرب تقول لكلّ من تكلّم بما لا يحقّه هو يقذف و يرجم بالغيب.

و قوله: **مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ** على جهة التَّمثيل لمن يرجم بالغيب و لا يصيب أي يرمون بالظّن و يقولون لا بعث و لا نشور و لا جنّة و لا نار رجماً منهم بالظَّن، و قيل يرمون في القرأن فيقولون سحرٌ و شعر و أساطير الأوّلين، و قيل في محمّد فيقولون ساحر شاعر كاهن مجنون و محصلّ الكلام في هاتين الأيتين هو أنّ علاج كلّ واقعةٍ قبل وقوعها لا بعده كما أنّ معالجة المريض قبل موته لا بعده و هذا معلوم لا خفاء فيه.

وَ حِيلَ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ

أي حيل و فرَّق بينهم و بين النّجاة من العذاب، فرّق بينهم و بين ما يشتهون في الدّنيا من أموالهم و أنفسهم و أهليهم كما فعل ذلك بأشياعهم و أتباعهم و

سورة فاطر

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ فٰاطِرِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ جٰاعِلِ
ٱلْمَلاٰئِكَةِ رُسُلًا أُولِى أَجْنِحَةٍ مَثْنٰى وَ ثُلاٰثَ وَ
رُبٰاعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مٰا يَشٰآءُ إِنَّ ٱللّٰهَ عَلٰى كُلِّ
شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مٰا يَفْتَحِ ٱللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ
فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ
بَعْدِهِ وَ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يٰآ أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ
ٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللّٰهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خٰالِقٍ غَيْرُ
ٱللّٰهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ ٱلْأَرْضِ لاٰ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ
فَأَنّٰى تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ
رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى ٱللّٰهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يٰآ
أَيُّهَا ٱلنّٰاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللّٰهِ حَقٌّ فَلاٰ تَغُرَّنَّكُمُ
ٱلْحَيٰوةُ ٱلدُّنْيٰا وَ لاٰ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّٰهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾ إِنَّ
ٱلشَّيْطٰانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمٰا يَدْعُوا
حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحٰابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ اَلَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا
ٱلصّٰالِحٰاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ

زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِى مَنْ يَشَآءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَ
ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ
إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ
ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ ٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَ ٱللَّهُ
خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ
أَزْوَاجًا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَ لَا تَضَعُ إِلَّا
بِعِلْمِهِ وَ مَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ
إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَ مَا
يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ
وَ هَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ
تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ
مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ
﴿١٢﴾ يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى
ٱللَّيْلِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ
مُسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَ ٱلَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ
تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا

ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ
وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ
ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾
إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَ مَا
ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾

◀ اللّغة

فَاطِرِ: أصل الفطر الشّق طولاً و الفطر الإبتداء و الإختراع.

ٱلسَّعِيرِ: بفتح السّين و كسر العين النّار المستعرة.

يَبُورُ: أي يفسد.

فُرَاتٌ: الفرات أعذب العذب.

أُجَاجٌ: بضمّ الألف أشدّ المرّ و هو مشتّق من أججت النّار كأنّه يحرق من مرارته.

مَوَاخِرَ: أي تشقّ الماء في جريانها شقّاً.

قِطْمِيرٍ: بكسر القاف قشر النّواة.

◀ الأعراب

رُسُلًا مفعول ثانٍ و أُولِي بدلاً من رسل أو نعتٌ له و مَثْنَى نعتٌ لأجنحة مَا يَفْتَحِ ٱللَّهُ ما، شرطيّة في موضع نصب بيفتح مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يقرأ بالرّفع و فيه وجهان:

أحدهما: هو صفة، لخالق، على الموضع و خالق، مبتدأ و الخبر محذوف تقديره، لكم، أو للأشياء.

الوجه الثّانى: أن يكون فاعل خالق، أي هل يخلق غير اللّه شيئاً، و قد يقرأ

بالجرّ على الصّفة لفظاً. يَرْزُقُكُمْ صفة لخالق. ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مبتدأ و ما بعده الخبر و قيل هو صفة، لحزبه، أو بدل منه، و قيل هو في موضع جرّ صفة لأصحاب السّعير أو بدل منه حَسَرَاتٍ حالٌ أو مفعولٌ له، كُلٌّ أُولئك مبتدأ و يَبُورُ الخَبَر.

◀ التّفسير

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

اللاّم في الحمد للجنس أو الإستغراق و قد مضى البحث فيه غير مرّة، و أمّا اللاّم في، للّه فهو للملك أو للإختصاص و الفاطر الخالق المبتدع المخترع فقوله: فَاطِرِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ أي خالقهما و مخترعهما، و هذا لا ينافي ما ذكروه في معنى الفطر و قالوا هو في الأصل الشّق طولاً كما ذكره الرّاغب في المفردات و ذلك لأنّ الفطر الشّق عن الشيئ بإظهاره للحسّ و معنى فطرهما خلقهما و إظهارهما للحسّ بعد أن لم تكونا ظاهرتين و ذلك لأنّ السّموات و الأرض كانتا رتقاً ففتقهما اللّه تعالى كما قال:

أَوَ لَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ(١).

و على هذا فقوله تعالى فاطر السّموات و الأرض يرجع الى فتقهما و فصلهما و أمّا إذا قلنا أنّ الفطر هو الخلق كما هو أحد الأقوال في المسألة فالأمر أوضح و على أيّ التّقادير لا شكّ أنّ اللّه تعالى هو الّذي خلقهما و هذا يكفينا في المقام و قوله: جَاعِلِ ٱلْمَلَآئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَ ثُلَاثَ وَ رُبَاعَ يدلّ على أنّ خلق الملائكة كان بعد خلق السّموات و الأرض كذلك فأنّ

١- الأنبياء = ٣٠

خلق المكان مقدّم على خلق المكين و قد مرَّ البحث في خلق الملائكة فيما مضى غير مرّةٍ.

و أنّما قال و جاعل الملائكة و لم يقل و خالق الملائكة مثلاً لأنّ الآية بصدد بيان رسالتهم لا إيجادهم و خلقهم و من المعلوم أنّ الرّسالة حيث أنّها من الصّفات فهي مجعولة لا مخلوقة و المعنى أنّ اللّه جعل الملائكة رسلاً بعضهم الى بعضٍ و بعضهم الى البشر ثمّ أشار الى كيفيّة خلقهم و قال: **أُولِي أَجْنِحَةٍ** أي أصحاب أجنحة مثنى و ثلاث و رباع، قيل أي إثنين إثنين و ثلاثة ثلاثة و أربعة أربعة، و أنمّا جعلهم أولي أجنحة، ليتمكّنوا بها من العروج الى السّماء النزول الى الأرض ثمّ قال تعالى: **وَ ثُلاٰثَ وَ رُبٰاعَ يَزِيدُ فِي اَلْخَلْقِ مٰا يَشٰاءُ إِنَّ اَللّٰهَ عَلىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** و ذلك لأنّ عموم قدرته تعالى قد ثبت عقلاً و نقلاً و من كان كذالك فهو قادرٌ على كلّ شيءٍ من الزّيادة و النّقيصة في خلقه و هو غير محتاج الى دليلٍ آخر.

مٰا يَفْتَحِ اَللّٰهُ لِلنّٰاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاٰ مُمْسِكَ لَهٰا وَ مٰا يُمْسِكْ فَلاٰ مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ

ما، موصولة أي الّذي يفتح اللّه للنّاس من نعمةٍ و رحمةٍ، فلا ممسك لها، أي فلا مانع للرحمة، و ما يمسك، و يمنع فلا مرسل له و المقصود أنّ الإعطاء و الإمساك بيده تعالى و تحت قدرته على أساس المصلحة الّتي يراها فيهما يقدر أحد على منعه عمّا أراد و قوله: **وَ هُوَ اَلْعَزِيزُ اَلْحَكِيمُ**، بمنزلة الإستدلال على المدّعى و ذلك لأنّ العزيز القادر الّذي لا يغلب و لا يقهر و الحكيم هو الّذي يضع الشّيء في موضعه اللائق به و المعنى كيف يقدر احد على منعه عمّا أراد و الحال أنّه تعالى هو القادر على كلّ شيءٍ فالعزيز يدلّ على قدرته و الحكيم على علمه بالمصالح و المفاسد فما شاء كان و ما لم يشأ لم يكن.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ

خاطب في هذه الآية جميع النّاس من غير إستثناء و أمرهم أن يذكروا نعمة اللّه الّتي لا يقدر على إحصاءها غير اللّه تعالى لكثرتها و هى على قسمين:

ماديّة محسوسة، و معنويّة عقليّة، و ذلك لأنّ الإنسان له جسمٌ و روحٌ، و الجسم ماديّ و الرُّوح تجرّدي و كلّ واحدٍ منهما يحتاج الى ما به قوامه و دوامه و من المعلوم أنّ قوام المادي بالنّعم الماديّة من المأكول و المشروب و الملبوس و المسكن و غير ذلك ممّا له تأثير في بقاء الجسم.

و أمّا الرُّوح المجرّد عن المادّة فليست كذلك فيكون بقاءه وكماله بما يليق به من العلم و السّخاوة و الشّجاعة و الصّداقة و الأمانة و العقل و غير ذلك شكّ أنّ الكلّ من نعم اللّه الّتي أنعم بها على عباده و حيث أنّ شكر المنعم واجب عقلاً فيجب على العبد الشُّكر على النِّعمة و هذا أعني الشُّكر على النِّعم هو المراد بقوله: **ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ** المراد بالذّكر ما يتلّفظ به أعني به الذكر اللّساني فقط فإذا توّجه العبد الى ما أشرنا اليه من النِّعم علم أنّ الرّازق هو اللّه تعالى و لمّا كان الرزّق بعد الخلق إذ المعدوم لا يرزق، قدَّم مقام الخالقيّة على الرازقيّة.

فقال تعالى: **هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ** الإستفهام للإنكار أي ليس في الوجود خالقٌ و لا رازق إلاّ اللّه تعالى و الّدليل على أنّه لا خالق إلاّ اللّه، هو أنّ الخالق لا بدّ أن يكون موجوداً لأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و حيث أنّه أعطى الوجود فهو كان موجوداً قبل الإيجاد هذا أوّلاً:

ثانياً: نقول لو لم يكن موجوداً فهو مَعدوم لا محالة لعدم الواسطة بين الوجود و العدم، و المعدوم كيف يكون علّة للموجود و هل يعقل أن يكون الشّئ علّة لنقيضه فثبت و تحقّق عقلاً أنّ الإنسان له خالق موجود، ثمّ أنّ الموجود على قسمين:

واجبٌ و ممكنٌ، و لا ثالث لهما لأنّ الموجود أن كان معلولاً لغيره فهو الممكن و أن لم يكن كذلك بل كان وجوده من ذاته لذاته بذاته فهو الواجب، و لا شكّ أنّ الإنسان ممكن الوجود لكونه مسبوقاً بالعلّة فلو كانت العلّة أيضاً ممكناً لتسلسل لأنّ حكم الأمثال واحد، و اذا كانت علّة الإيجاد فيه غير ممكنٍ فهو واجبٌ لعدم الواسطة بين الوجوب و الإمكان، و اذا كانت العلّة واجباً فهو اللّه تعالى و هذا معنى قوله: **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ** علىٰ سبيل الإنكارثبت الخالقيّة ثبتت الرازقيّة فالخالق هو الرازق لا غيره.

و الدّليل عليه من العقل أنّ الرّازق لو كان غير الخالق فأن كان الغير واجباً لزم تعدّد الواجب و قد ثبت إستحالة تعدّده و أن كان ممكناً فهو أيضاً مرزوق على الفرض فأنّ حكم الأمثال واحد فاللّه تعالى هو الخالق الرّازق و هو المطلوب.

و أمّا قوله: **مِنَ ٱلسَّمَآءِ**، ففيه إشارة الى أنّ الأرزاق الموجودة في الأرض من المأكول و المشروب و غيرهما ببركة الأمطار النازلة من السّماء على الأرض و هو واضح و ذلك لأنّ الأرزاق الواصلة الى النّاس تنزل من السّماء واقعاً سواء كانت من الماديّات أم المعنويّات إلاّ أنّ الأرزاق الماديّة ببركة الأمطار و المعنويّات ببركة عناية الرّب عن سماء الرّفعة و مقام الربوبى.

و قوله: **لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ** كلمة التّوحيد أي لا خالق و لا رازق إلاّ هو، فأنّى تؤفكون، أي كيف تقلبون عن طريق الحقّ الى الضّلال و تعبدون الأصنام و الأوثان و غيرهما ممّا لا يضرّ و لا ينفع.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ

ثمّ قال اللّه تعزيةً للنّبي و تسليةً له عن تكذيب قومه إيّاه، و إن يكذّبوك يا محمّد هؤلاء الكفّار و ينكرون نبوّتك فقد كذّبت رسلٌ من قبلك أيضاً و ليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و قد أشار اللّه تعالى الى ذلك في كثير من الأيات.

فقال عن نوح النّبي: عليه السلام **قالَ رَبِّ ٱنْصُرْني بِما كَذَّبُونِ، قالَ عَمّا قَليلٍ لَيُصْبِحُنَّ نادِمينَ**(١).

قال اللّه تعالى: **قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمي كَذَّبُونِ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِى ٱلْفُلْكِ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جآءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذابُ**(٤).

قال اللّه تعالى: **كُلَّما جآءَ أُمَّةً رَسُولُها كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضًا**(٥)

وفي صالح النّبي قال تعالى: **فَعَقَرُوها فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ**(٦).

و هكذا في موسى و عيسى و بالجملة في جميع الأنبياء كما شهد به القرآن و قوله: **وَ إِلَى ٱللّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ**، يعني ترد الأمور بالأخرة الى اللّه يوم القيامة أحكم الحاكمين.

يآ أَيُّهَا ٱلنّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيوةُ ٱلدُّنْيا وَ لا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللّهِ ٱلْغَرُورُ

خاطب اللّه في هذه الآية جميع النّاس و قال أنّ وعد اللّه من البعث و النُّشور و الجنّة و النّار و الثّواب و العقاب كلّها حقّ لا مرية فيه أصدق من اللّه قيلاً و أنّما قال، حقٌّ ولم يقل صدقٌ لأنّ الثّواب على الطّاعة حقّ المطيع كما أنّ العقاب على المعصية أيضاً حقّه و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد ثمّ نهاهم عن أمرين:

أحدهما: الإغترار بالحياة الدُّنيا.

ثانيهما: الإغترار برحمة اللّه.

فقال في الأوّل: فَلا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيوةُ ٱلدُّنْيا، فتغترّون بزخارفها و زينتها و مقامها و تتركون ما أمركم اللّه به و ذلك لأنّ الدُّنيا و ما فيها فانية لا بقاء لها و ما لا بقاء له لا يغترّ به العاقل بما.

١- المؤمنون = ٤٠ / ٣٩
٢- الشّعراء = ١١٧
٣- يُونُس = ٧٣
٤- النّحل = ١١٣
٥- المؤمنون = ٤٤
٦- الشّمس = ١٤

قال اللّه تعالى: **قُلْ مَتٰاعُ اَلدُّنْيٰا قَلِيلٌ وَ اَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اِتَّقىٰ**(١).

قال اللّه تعالى: **مَتٰاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ اَلْمِهٰادُ**(٢).

قال اللّه تعالى: **فَمٰا مَتٰاعُ اَلْحَيٰوةِ اَلدُّنْيٰا فِي اَلْآخِرَةِ إِلاّٰ قَلِيلٌ**(٣) وغيرها من الأيات.

و عبَّر اللّه تعالى عن الحياة الدُّنيا باللَّعب.

قال اللّه تعالى: **وَ مَا اَلْحَيٰوةُ اَلدُّنْيٰآ إِلاّٰ لَعِبٌ وَ لَهْوٌ**(٤).

قال في موضع آخر: **وَ ذَرِ اَلَّذِينَ اِتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِباً وَ لَهْواً وَ غَرَّتْهُمُ اَلْحَيٰوةُ اَلدُّنْيٰا**(٥).

و الأيات في ذمّ الدُّنيا والإغترار بها و الإعتماد عليها كثيرة جدّاً.

و الحقّ أنّ الدُّنيا لو كانت ذهباً يفنى و الأخرة خزفاً يبقى، فالأخرة خير من الدُّنيا فأنّ العاقل لا يختار الفاني و يترك الباقي و لنعم ما قيل:

يــا واقـفين ألم تكـونوا تـعلم ... أنّ الحـمام بكـم عـلينا قـادمُ
لو تــنزلون بشــعبنا لعـرفتم ... أنّ المـفرّط فـي التـزوُّد نـادمُ
لا تســتغرّوا بــالحياة فأنكـم ... تـبنون و المـوت المفرق هـادمُ
ساوي الرّدى ما بيننا فـي حـفرةٍ ... حيث المـخدّم واحـد و الخـادم

و قال الأخر:

أليس الى ذا صـار آخـر أمـرنا ... فلا كانت الدُّنيا القليل سـرورها
فلا تعجبي يـا نـفس مـمّا تـرينه ... فكلّ أمور النّاس هـذا مـصيرها

و نقول أن كنت في شكّ في ذلك فأين آدم أبو البشر و أيـن نـوح شيخ المرسلين و أين إدريس النّبي رفيع ربّ العالمين و أين إبراهيم خليل الرّحمن و أين موسى الكليم و أين عيسى روح اللّه و كلمته و أين محمّدٌ خاتم النّبين و

١- النّساء = ٧٧ ٢- ال عمران = ١٩٧
٣- التّوبة = ٣٨ ٤- الأنعام = ٣٢
٥- الأنعام = ٧٠

أين الأمم الماضية و أين الملوك السّالفة و أين القرون الخالية و أين الّذين دانت لهم المشارق و المغارب أين الذّين تمتّعوا باللّذات و المشارب أين الّذين تاهوا على الخلائق كبراً و عتيّاً أين الّذين إغترّوا بالأجناد أين أصحاب السطوّة و الأعوان أين الّذين تضعضعت لهم الأرض هيبةً و عزّاً هل تحسّ منهم أحداً أو تسمع لهم ركزاً أفناهم اللّه تعالى مفني الأمم و أبادهم مبيد الرِّمم و أخرجهم من سعة القصور إلى ضيق القبور تحت الجنادل و الصُّخور فاصبحوا لا يرى إلاّ مساكنهم ولم ينفعهم ما جمعوا عنهم هجرهم الإخوان و الأصفياء و نسيهم الأقرباء و البعداء لو نطقوا لأنشدوا لك:

مقيمٌ بالحجون رهين رمسٍ و أهلي راحلون بكلّ وادٍ
كأنّي لم أكن لهم حبيباً و لا كانوا الأحبّة في السّواد
فعوجوا بالسّلام فأن أبيتم فأمّوا بالسّلام على البعاد

و أمّا قوله: **وَ لَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ ٱلْغَرُورُ** الغرور باللّه أن يكون الإنسان يعمل بالمعاصي ثمّ يتَّمنى على اللّه المغفرة.

و قال بعض المفسّرين، **الغَرور** بفتح الغين الشّيطان أي لا يغرّنكم الشّيطان بوساوسه فيقول لكم مثلاً، لا تخف من العصيان أنّ اللّه غفورٌ رحيمٌ، أو أنّه يغفر الذّنوب جميعاً و أمثال ذلك من الوساوس.

إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ

أمّا أنّ الشّيطان عدّوٌ لأولاد أدم فهو ممّا لا شكّ فيه و قد صرَّح اللّه تعالى به في كثير من الأيات وكفانا في إثبات ذلك أنّه أخرج أدم و حوّاء عن الجنّة بوسوسته كما أخبر اللّه بذلك في قوله: **فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ**[1].

١- البقرة = ٣٦

و لذلك قد ورد في ذمّه و ذمّ من يتبعه ما لا يخفى على أحد قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ يَكُنِ ٱلشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا**[١] و هذا ممّا لا كلام فيه.

و أمّا قوله: **فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**، فالفاء للتّفريع أي إذا ثبت أنّه عدوّ لكم فإتّخذوه عدّواً، أي عاملوا معه معاملة العدّو فإجتنبوا منه و لا تتّبعوه في عقائدكم و أفعالكم فلا يوجدنّ منكم إلاّ ما يدلّ على معاداته في سرّكم و جهركم فأنّه يعدل بكم عن أفعال الخير و يدعوكم إلى ما فيه الهلكة و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله: **إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ ٱلسَّعِيرِ** أي أنّما يدعوا الشّيطان متابعيه و هم الّذين يقبلون منه ليكونوا من أصحاب السّعير أي أصحاب النّار المستعرة و هى نار جهنّم أعاذنا اللّه منها.

إن قلت كيف يقبلون منه أن يكونوا من أصحاب السَّعير.

قلت اللاّم في قوله: **لِيَكُونُوا**، للغاية أي غاية متابعتهم إيّاه قولاً و فعلاً أنّهم من أصحاب النّار.

بعبارةٍ أخرى أتباع الشّيطان لم يتابعوه ليكونوا من أصحاب السَّعير فأنّ العاقل لا يكون كذلك بل تابعوه لأجل الوصول إلى الخير يزعمهم ولكن وقعوا فيما وقعوا من العذاب و لذلك حذَّرهم اللّه عن متابعته.

ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ أَجْرٌ كَبِيرٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ الكافرين بأيات اللّه لهم عذابٌ شديدٌ يوم القيامة جزاءً على كفرهم و تكذيبهم و أمّا الّذين أمنوا باللّه و رسله و عملوا الصّالحات في دار الدّنيا فلهم مغفرةٌ من اللّه لذنوبهم و لهم أجر أي ثوابٌ كبير يوم القيامة ثمّ قرّر ذلك بقوله:

١- النّساء = ٣٨

أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ فَلَاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ

قيل يعني الكفّار زيَّنت نفوسهم لهم أعمالهم السَّيئة فتَّصوروها حسنة أو الشّيطان يزيّنها لهم فيميلهم إلى الشّبهة و ترك النّظر في الأدّلة الدّالة على الحقّ بإغوائه، قاله الشّيخ في التّبيان، و قال القرطبي و غيره من مفّسري العامّة أنّ في قوله: **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ** أربعة أقوال:

أحدها: أنّهم اليهود و النّصارى و المجوس قاله أبو قلابة و يكون سوء عمله معاندة الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.

الثّاني: أنّهم الخوارج رواه عمر بن القاسم و يكون سوء عمله تحريف التّأويل.

الثّالث: الشّيطان قاله الحسن و يكون سوء عمله الإغواء.

الرّابع: كفّار قريش قاله الكلبي و يكون سوء عمله الشِّرك و قال أنّها نزلت في العاص بن وائل السَّهمي و الأسود بن المطّلب و قال غيره في أبي جهل إنتهى كلامه.

و قال صاحب الكشّاف ولمّا ذكر الفريقين، الّذين كفروا و الّذين أمنوا، قال لنبيّه **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا** يعني أفمن زيّن له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزيّن له، فكأنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال لا، فقال تعالى: **فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ فَلَاتَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ**، و معنى تزيين العمل و الإضلال واحد و هو أن يكون العاصي على صفةٍ لا تجدي عليه المصالح حتّى يستوجب بذلك خذلان اللّه و تخليته و شأنه فعند ذلك يهيم في الضّلال إلى أخر ما قال إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول هذا رؤوس أقوال المفسّرين من العامّة و الخاصّة حول الآية و الّذي يختلج بالبال في تفسير الآية هو أنّ اللّه تعالى أخبر فيها عن حكم كليٍّ شامل لجميع الأفراد من الكفّار و المسلمين و إختصاص الآية بالكفّار و المشركين لا دليل عليه و الدليل على ما ذكرناه أنّ قوله: **أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوٓءُ عَمَلِهِ فَرَاٰهُ حَسَنًا** يشمل الجميع بدليل كلمة، من، الّتي يشمل الكافر و المسلم و التخصيص يحتاج إلى دليل هذا أوّلاً.

ثانياً: نقول أنّ جريان الحكم في المسلمين أظهر منه في الكفّار ألا ترى أنّ الإغترار بالعمل في المسلمين أكثر بل الكافر لا يغترّ بعمله لأنّه لا علم له بحسن عمله و هذا بخلاف المسلم و الحاصل أنّ الحكم عامّ في حقّ الجميع، و تقدير الكلام، أفمن زيّن له سوء عمله فرأه حسناً، كمن ليس كذلك أي لا يستويان.

أمّا قوله: **فَإِنَّ ٱللّٰهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ** فالضّلال العدول عن الطّريق المستقيم و يضّاده الهداية و قد يقال الضّلال العدول عن المنهج عمداً كان أو سهواً يسيراً كان أو كثيراً فأنّ الطّريق المستقيم الّذي هو المرتضى صعبٌ جدّاً.

قال بعض الحكماء كوننا مصيبين من وجهٍ و كوننا ضالّين من وجوهٍ كثيرة و إذا كان الضّلال ترك الطّريق المستقيم عمداً كان أو سهواً قليلاً أو كثيراً صحّ أن يستعمل لفظ الضّلال ممّن يكون منه خطأً ما و لذلك نسب الضّلال الى الأنبياء و الى الكفّار و أن كان بين الضّالين بونٌ بعيدٌ ألا ترى أنّ اللّه تعالى قال في النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم.

وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدٰى(١) أي غير مهتدٍ لما سبق إليك من النُّبوة، في يعقوب النّبي: **قَالُوا تَاللّٰهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلاٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ**(٢) و قال أولاده: **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلاٰلٍ**

١- الضحى = ٧
٢- يُوسف = ٩٥

مُبِينٍ[١] و قال تعالى عن موسى: قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَ أَنَا مِنَ ٱلضَّآلِّينَ[٢].

و قال بعض المحقّقين، الضّلال ضربان، ضلالٌ في العلوم النَّظرية كالضّلال في معرفة اللّه و معرفة النُّبوّة، و ضلالٌ في العلوم العمليّة كمعرفة الأحكام الشّرعية الّتي هي العبادات إذا عرفت معنى الضّلال فقوله: فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ ليس معناه أنّ اللّه يخلق الضّلالة و الهداية فيه حتّى يلزم الجبر و ذلك لأنّهما ليستا من الأمور المجعولة بمعنى تعلّق الجعل بهما فإنّهما من المفاهيم الإنتزاعيّة عن فعل المكلّف فأن عدل في فعله و قوله عن الطّريق المستقيم ينتزع منه الضّلال و أن لم يعدل ينتزع منه الهدى و العبد مختار في إختياره فمن ظنَّ أنّ اللّه تعالى جعل الضّلالة و الهداية في العبد و لذلك صار مجبوراً في فعله لم يفهم معناهما ولم يعلم أنّ الجعل يتعلّق بالأشياء المتأصلّة لا المفاهيم الإنتزاعيّة و قد مرّ الكلام في الباب فيما مضى.

إن قلت إن كان الجعل لا يتعلّق بالضّلالة و الهداية فلم نسبهما اللّه تعالى الى نفسه و قال: يُضِلُّ مَنْ يَشَآءُ وَ يَهْدِي مَنْ يَشَآءُ أليس معناه أنّ الضّلالة و الهداية في العبد بيده و قدرته.

قلت إضلال اللّه على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون سببه الضّلال و هو أن يضّل الإنسان فيحكم اللّه عليه بذلك في الدّنيا و يعدل به عن طريق الجنَّة الى النّار في الآخرة و ذلك إضلالٌ هو عدلٌ و حقٌّ، فالحكم على الضّال بضلاله و العدول به عن طريق الجنَّة الى النّار عدلٌ و حقٌّ.

الثّاني: من إضلال اللّه تعالى هو أنّ اللّه وضع جبلَّة على هيئةٍ إذا راعى طريقاً محموداً كان أو مذموماً أنفه و أستطابه و لزمه و تعدّ صرفه و انصرافه عنه و يصير ذلك كالطَّبع الّذي يأبى على النّاقل و لذلك قيل العادة طبعٌ فأن و

١- يُوسُف = ٨ ٢- الشّعراء = ٢٠

هذه القوّة في الإنسان فعلٌ إلهّي و اذا كان كذلك صحَّ نسبة ذلك الفعل إليه تعالى لأنّه تعالى جعل السَّبب في العبد و إسناد الفعل الى خالق السَّبب ممّا لا بأس به إلاّ أنّه مجازيّ لا حقيقيّ فنسبة الإضلال إليه تعالى بطريق المجاز و نظير هذا في الإستعمال كثيرٌ كما لا يخفى على من مارس خلال هذه الدّيار بل كثيراً ما يجعلون إسناد الفعل الى جاعل السَّبب كما يقال فعل الأمير كذا مع أنّه لم يفعله بشخصه و كما ينسبون صحَّة المريض الى الطّبيب المعالج و يقولون عالج الطّبيب المريض مع أنّه عالجه بسبب الدّواء و هكذا في نظائره و يمكن أن يستدلّ عليه بأنّ اللّه تعالى جعل الإضلال المنسوب الى نفسه للكافر و الفاسق دون المؤمن بل نفى عن نفسه إضلال المؤمن.

قال اللّه تعالى: **وَ ما كانَ اَللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ**(١) و قال للكافر

قال اللّه تعالى: **فَتَعْسًا لَهُمْ وَ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ ما يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ اَلْفاسِقِينَ**(٣).

و المعنى أنّه تعالى جعل سبب الضّلال في الكافر و الفاسق و لم يجعله في المؤمن، و جعل السَّبب ليس من الجبر لأنّ العبد و أن كان سبب الضّلال فيه موجوداً إلاّ أنّه مختار في ترتّب المسبّب و عدمه على السَّبب و هذا ممّا لا شكّ فيه.

و أمّا قوله تعالى: **فَلاٰ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرٰاتٍ إِنَّ اَللّٰهَ عَلِيمٌ بِمٰا يَصْنَعُونَ** ففيه تسليةٌ للنّبي و الحسرة شدّة الحزن على ما فات من الأمر و فيه إشارة الى أنّ النّبي كان محزوناً على عدم إيمان الكفّار بعد إرشادهم إيّاهُم فقال تعالى لا تحزن على كفرهم و عنادهم و عدم قبولهم دعوتك فأنّ اللّه عليمٌ بما يصنعون من المعاصي فيجازيهم بحسبها و لا يغفل عنهم أبداً فذرهم في خوضهم يلعبون و ما على الرّسول إلاّ البلاغ.

١- التّوبة = ١١٥ ٢- مُحّمد = ٨

٣- البقرة = ٢٦

وَ ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ

الإثارة الإنتشار يقال ثار الغبار و السّحاب و نحوهما، يثور، ثوراً، ثوراناً، إنتشر و قد أثرته و منه قوله تعالى:

وَ أَثَارُوا ٱلْأَرْضَ وَ عَمَرُوهَآ(١).

و قال تعالى: **قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ**(٢).

و معنى الآية أنّ اللّه تعالى هو الّذي أرسل الرّياح فتثير سحاباً أي تنشئه و تجمعه و تجئ به و تحرّكه، فسقناه، أي فساقه اللّه السّحاب بواسطة الرّياح الى بلدٍ ميّتٍ لم يمطر أي قحط و جدب فيمطر على تلك الأرض فيحيها بذلك الماء و المطر بعد موتها أي بعد أن لم يكن فيها زرعٌ فأنّ موت كلّ شئٍ بحسبه ثمّ قال تعالى: **كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ** أي كذلك ينشر الخلائق بعد موتهم و يحشرهم اللّه إلى الموقف للجزاء من ثوابٍ و عقابٍ و بعبارةٍ أخرى كما أنّ اللّه تعالى يحيي الأرض بسبب الأمطار بعد موتها كذلك يحيي الخلق بعد موتهم أنّه على كلّ شئٍ قدير فالحياة و الممات بيده لا بيد غيره و ليس إحياء الأموات من الخلائق بأصعب من إحياء الأرض فأنّ حكم الأمثال واحد.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَ ٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ

العِزّة بكسر العَين حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم أرضٌ عزاز أي صلبة قاله في المفردات فالعزيز الّذي يقهر و لا يقهر و يغلب و لا يغلب و هو اللّه تعالى لا غيره لأنّه القاهر الغالب على كلّ شئٍ و ما سواه مقهورٌ مغلوبٌ تحت قدرته كائناً ما كان و إلى ذلك أشار بقوله: **فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا**، و يحتمل

١- الرّوم = ٩

٢- البقرة = ٧١

أن يكون المراد أنّ اللّه تعالى خالق كلّ شيءٍ و من المعلوم أنّ العبد و ما في يده كان لمولاه فكلّ ما ثبت للعبد من الأوصاف فهو ثابت له تعالى أوّلاً و بالذّات فأنّ معطي الشّيء لا يكون فاقداً له فالعزّة له تعالى و لغيره ثانياً و هكذا العلم و القدرة و غيرها من الصّفات فجميع الكمالات حاصلة للّه تعالى بالفعل و لغيره بالإمكان ضرورة أنّ العلّة حاوية لجميع مراتب المعلول و لا عكس و هذا ظاهرٌ.

و قوله: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ**، الكَلِم جمع كلمة و الضمير في إليه، يرجع على اللّه و المعنى إلى اللّه يصعد الكلم الطّيب قيل الكلم الطّيب يؤول ببعضٍ الكلم الطّيب و هو تمجيد اللّه و تقديسه و تحميده و قيل هو كلمة الشّهادة و عن الصّادق عليه السلام أنّه قال: **الكلم الطّيب هو قول المؤمن لا إله إلاّ اللّه محمّدٌ رسول الله عليٌ ولّي اللّه و خليفة رسول اللّه و العمل الصّالح الإعتقاد بأنّ هذا هو الحقّ من عند اللّه لا شكّ فيه** و في تفسير الآية وجوهٌ من الإحتمالات.

فعن إبن عبّاس أنّ هذه الكلم لا تقبل و لا تصعد إلى السّماء فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة إلاّ إذا إقترن بها العمل الصّالح الّذي يحقّقها و يصدّقها فرفعها و أصعدها، و قيل الرّافع الكلم و المرفوع العمل لأنه لا يقبل عملٌ إلاّ من موحّدٍ، و قيل الرّافع هو اللّه تعالى و المرفوع العمل.

و عن النّبي صلى الله عليه وآله وسلم **الكلم الطّيب هو قول الرّجل سبحان اللّه و الحمد للّه و لا إله إلاّ اللّه و اللّه أكبر إذ قالها العبد عرج بها الملك إلى السّماء فإذا لم يكن عملٌ صالح لم يقبل منه.**

و في الحديث **لا يقبل اللّه قولاً إلاّ بعملٍ و لا يقبل قولاً و لا عملاً إلاّ بنيّةٍ يقبل قولاً و عملاً و نيّة إلاّ بإصابة السنّة**، و قرئ إليه يصعد الكلم الطّيب، على البناء للمفعول و إليه يصعد الكلم الطّيب على تسمية الفاعل من أصعد و المصعد هو الرّجل أي يصعد إلى اللّه الكلم الطّيب و إليه يصعد الكلم الطّيب،

و قرئ و العمل الصّالح يرفعه، بنصب العمل و الرّافع أمّا الكلم أو اللّه عزّ وجلّ إنتهى ما ذكره الزّمخشري في الكشّاف.

أقول في المقام إحتمال أخر و هو أنّ قوله: **إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ**، تمّ الكلام به و قوله: **وَ ٱلْعَمَلُ ٱلصَّالِحُ يَرْفَعُهُ** كلام مستأنف على معنى اللّه أو يرفع صاحبه و على هذا فالمعنى إلى اللّه يصعد الكلم الطّيب و أمّا العمل الصّالح فيرفعه اللّه أو أنّه يرفع صاحبه.

و أمّا قوله: **وَ ٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ وَ مَكْرُ أُولٰئِكَ هُوَ يَبُورُ** ففيه تهديدٌ و تخويفٌ للّذين يمكرون أي يحتالون لفعل السّيئات من الشّرك و الكبائر و قيل هم أصحاب الرّياء لهم عذابٌ شديد يوم القيامة و مكر أولئك هو يبور أي يفسد.

قال الرّاغب في المفردات البوار فرط الكساد و لمّا كان فرط الكساد يؤدّي إلى الفساد كما قيل كسد حتّى فسد عبّر بالبوار عن الهلاك إنتهى.

و على هذا فقوله: **هُوَ يَبُورُ** أي يهلك و يفسد عليهم الدُّنيا و الأخرة و محصلّ الكلام في الآية أنّ الكلم الطَّيب يصعد إلى اللّه و العمل الصّالح يرفعه بناءً على الإتّصال أو أنّ العمل الصّالح يرفعه اللّه أو يرفع صاحبه بناءً على الإنفصال و أن مكر الماكرين يوجب هلاكهم في الدّارين.

وَ ٱللّٰهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوٰاجًا وَ مٰا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثىٰ وَ لاٰ تَضَعُ إِلاّٰ بِعِلْمِهِ وَ مٰا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَ لاٰ يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلاّٰ فِي كِتٰابٍ إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللّٰهِ يَسِيرٌ

خاطب اللّه في هذه الآية جميع البشر و أنّه تعالى خلقهم من ترابٍ و ذلك لأنّ البشر من أولاد أدم و قد خلقه اللّه من ترابٍ إذ لم يكن له أبٌ و لا أمّ و قد مرّ تفصيل الكلام في كيفيّة خلقه سابقاً، فكأنّ تقدير الكلام و اللّه خلق أصلكم من ترابٍ و خلقكم منه بواسطة النُّطفة التّي جعلها اللّه في صلبه و إلى هذا

المعنى أشار بقوله ثمّ من نطفةٍ أي من النُّطفة الّتي أخرجها اللّه من ظهور أبائكم و قيل أنّ اللّه خلقهم من نطفةٍ تستحيل من الغذاء و الغذاء يستحيل من التّراب فكأنّه خلقهم من ترابٍ و صورة القياس هكذا، خلق اللّه البشر من نطفة، وكلّ نطفةٍ تحصل من التّراب و توجد منه فالبشر توجد منه.

و قوله: **ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْواجًا**، فقيل في معناه أي أشكالاً و قيل أي زوّج بعضكم بعضاً فالذّكر زوج الأنثى ليتُم البقاء في الدّنيا إلى إنقضاء مدّتها هكذا قيل و الحقّ أنّ المعنيين يرجعان إلى معنى واحد لأنّ المراد بالإشكال هو أنّ الزّوج هو الّذي معه أخر من شكله و الأثنان زوجان و كيف كان ففيه إشارة إلى قوله تعالى:

إِنّٰا خَلَقْنٰاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثٰى وَ جَعَلْنٰاكُمْ شُعُوبًا وَقَبٰآئِلَ لِتَعٰارَفُوٓا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ ٱللّٰهِ أَتْقٰيكُمْ(١).

نعم إستثنى منه عيسى إبن مريم فقال فيه:

إِنَّ مَثَلَ عيسٰى عِنْدَ ٱللّٰهِ كَمَثَلِ اٰدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرٰابٍ(٢).

و فيه إشارة بل دلالة علىٰ أنّ اللّه على كلّ شئٍ قدير ثمّ أشار اللّه تعالى إلىٰ عموم علمه و أنّه يعلم ما لا يعلمه أحد من خلقه فأنّه تعالى يعلم ما تحمله أنثى في بطنه أذكرٌ هو أم أنثى و يعلم أيضاً زمان وضعها حملها و لا يعلمه غيره و يعلم أيضاً مدّة الأجل للحياة و هو تفضّلٌ منه يختلف مقداره بحسب ما يعلم من المصلحة و لا ينقص من عمره إلاّ في كتاب، يمكن أن يكون المراد بالكتاب كتاب المحو و الإثبات و يمكن أن يكون اللّوح المحفوظ و الأوّل أقوى فى النّظر لأنّ زيادة العمر و نقصه في كتاب المحو و الإثبات:

قال اللّه تعالىٰ: **يَمْحُوا ٱللّٰهُ مٰا يَشٰآءُ وَ يُثْبِتُ وَ عِنْدَهُٓ أُمُّ ٱلْكِتٰابِ**(٣).

١- الحجرات = ١٣
٢- أل عمران = ٥٩
٣- الرّعد = ٣٩

و قد ورد في الأثار أنّ العمر يزيد و ينقص بسبب بعض الأعمال و في قوله: **إِنَّ ذٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ** إشارة إلى أنّ تعمير من يعمّره بسبب الزّيادة، و نقصان من ينقصه و اثبات ذلك في الكتاب سهلٌ على اللّه غير متعذّرٌ فأنّه يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون.

وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُ وَ هٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَ مِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَ تَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

لمّا أشار اللّه تعالى في الآية السّابقة إلى خلق الإنسان إلى أخر ما ذكره أشار في هذه الآية إلى نعمه التّي أنعم بها على عباده فقال ما يستوي البحران أحدهما عذبٌ فرات سائغٌ شرابه، و الأخر ملحٌ أجاج أشدّ المرّ كأنّه يحرق من مرارته، فكلمة، ما، نافية أي لا يستويان و مع ذلك تأكلون لحماً طريّاً، أي سمكاً منهما أي من البحرين مع إختلاف الماء فيهما من حيث العذوبة و المرارة و هو من العجائب إذ كيف يكون لحم السَّمك الّذي عاش في الماء المرّ مثل اللّحم الّذي عاش في الماء العذب، و تستخرجون حليّةٍ تلبسونها، من الّؤلؤ و المرجان **وَ تَرَى ٱلْفُلْكَ**، يعني السُّفن فيه، أي في البحر(مواخر) تنّشق الماء في جريانها شقّاً و قيل معناه أنّها تذهب و تجئ بلغة قريش و هذيل.

لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ أي أنّ اللّه تعالى خلق ذلك لتلتمسوا و تطلبوا من فضل اللّه و رحمته بركوب البحر للتّجارة و طلب المنافع و ما تخرجون منها من أنواع الأشياء لكي تشكروا اللّه على نعمه و تحمدوه على فضله فأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و شرعاً.

يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ

الإيلاج الإدخال و المعنى أنّه تعالى يدخل اللّيل في النّهار و يدخل النّهار في اللّيل بمعنى أنّ كلّ واحدٍ منهما يدخل على صاحبه و يتعقّبه و قيل معناه أنّه تعالى ينقص من اللّيل في النّهار عند منقلب الصّيف و من النّهار في اللّيل عند منقلب الشّتاء.

وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى التّسخير سياقة إلى الغرض المختصّ قهراً و من المعلوم أنّ اللّه تعالى هو القاهر على كلّ شيءٍ و ذلك لأنّ المخلوق كائناً ما كان فهو مسخّرٌ بقدرة الخالق و الشّمس و القمر و غيرهما من الكواكب مسخّرات بأمره تعالى و قد قدّر اللّه لهما و لغيرهما بحسب ما علم من مصالح خلقه إلى الوقت المعلوم قيل تسخير الشّمس نزولها في بروجٍ مخصوصة في أوقات مخصوصة و تسخير القمر جريانه على وتيرةٍ واحدة فيستدلّ به على السّنين و الشّهور و ذلك يدلّ على أنّ مدبّره عالمٌ حكيمٌ.

ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ أي أنّ الّذي يولج اللّيل في النّهار و يولج النّهار في اللّيل و سخّر الشّمس و القمر و خلق البحرين العذب و المالح و منع عن إختلاط أحدهما بالأخر هو ربّكم الّذي خلقكم و يستحق أن يعبد لا غيره من الأصنام و الأوثان و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **وَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ** و هو قشر النّواة فضلاً عن تسخير الشّمس و القمر و من لا يملك شيئاً و لا يقدر على شيءٍ فكيف يكون إلهاً بل وجوده كالعدم ظاهرٌ كما قال.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ وَ لَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ وَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ

هذه الآية بمنزلة الدّليل على إثبات ما ذكره في الآية السّابقة فكأنّه قيل ما الدّليل على أنّ الذّين يدعون من دونه ما يملكون من قطميرٍ، فقال تعالىٰ في الجواب الدلّيل على ذلك من وجوهٍ:

أحدها: **إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَآءَكُمْ**، و ذلك إذا كان المعبود من سنخ الجمادات كالأوثان و الأصنام فأنّ الجماد لا يسمع شيئاً.

ثانيها: **وَ لَوْ سَمِعُوا مَا ٱسْتَجَابُوا لَكُمْ**، و ذلك إذا كان المعبود يسمع إلاّ أنّه لا يقدر على الإستجابة كما إذا كان المعبود من سنخ الملائكة أو البشر فأنّه يسمع إلاّ أنّه لا يقدر على إستجابة الدُّعاء لضعفه و فقره.

ثالثها: **وَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ**، و هو دليل على عدم إستحقاقهم المعبوديّة و بعبارةٍ أخرى المعبود إمّا أن يكون من الجمادات أو لا يكون كذلك بل يكون من العقلاء، فالأوّل لا يسمع، و الثّاني يسمع و لكن لا يقدر على الإستجابة فهما في عدم الإنتفاع بهما على حدٍّ سواء إذ لا فرق بينهما في عدم القدرة على قضاء الحوائج و العاقل لا يعبد و لا يدعوا ما كان كذلك.

و أمّا قوله: **وَ لَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ** فالإنباء الإخبار أي لا يخبرك يامحمّد بحقيقة الشّئ مثل خبير أي مثل من هو عالم بما أخبر و هو اللّه تعالى فأنّه هو العالم بالأشياء على حقائقها.

يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن أمرين:

أحدهما: أنّ النّاس محتاجون إليه تعالى.

ثانيهما: أنّه تعالى غير محتاج إلى غيره بل هو غنيٌّ عن جميع ما سواه بذاته و إعلم أنّ كلّ واحدٍ من الفقر و الغنى على ضربين، ذاتيّ و عرضيّ، و نعني بالذّاتي ما هو من شئون ذات الشّئ و لوازمه التّي لا تنفكّ عنه كالحرارة للنّار و البرودة للماء، و بالعرضيّ ما يلحق الذّات بالعرض و لذلك يقبل الإنفكاك عن الذّات.

إذا عرفت هذا فنقول، الإنسان فقير بكلا المعنيين أي بالذّات و بالعرض، و اللّه تعالى غنيٌّ بالذّات فقط و لا يكون غنيّاً بالعرض لأنّ العرض حادث إذ يوجد بعد أن لم يكن، و ذات الواجب لا يكون محلاً للحادث لأنّه قديم و القديم لا يكون محلاً للحوادث إذ يلزم أن يكون الشّئ حادثاً و قديماً و إجتماع النّقيضين و الضّدين محال كما سيظهر لك فالبحث في فصلين.

الفصل الأوّل: في قوله: **يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ**.

الفصل الثّاني: في قوله: **وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**.

أمّا الكلام في الفصل الأوّل: فالخطاب عامّ يشمل جميع النّاس أثبت اللّه لهم الفقر إلى اللّه بكلا المعنيين أعني بهما الذّاتي و العرَضي، أمّا الفقر الذّاتي، فلأنّ الإنسان ممكن الوجود يعني نسبته إلى الوجود و العدم على حدٍّ سواء في ذاته و ذلك لأنّ المفاهيم ثلاثة واجب، و ممكن، و ممتنع، و لا رابع لها، فأنّ الموجود أن كان وجوده من ذاته لذاته فهو الواجب و أن كان الوجود فيه من غيره فهو ممكن، و إلاّ فهو ممتنعٌ و بعبارةٍ أخرى الشّئ أمّا أن يكون قابلاً للوجود فهو ممكن و أمّا أن لا يكون قابلاً له فهو ممتنع فالمعدوم أعمّ من الممتنع و الممتنع أخصّ من المعدوم إذ كلّ ممتنعٍ معدوم كشريك الباري و إجتماع النّقيضين و الضّدين، و ليس كلّ معدومٍ ممتنعاً فأنّ الإنسان الّذي لم يوجد إلى الآن معدوم و ليس بممتنع لامكان وجوده فثبت و تحقّق أنّ الموجود لا يخلوا من قسمين واجبٌ، و ممكنٌ.

و حيث أنّ الواجب منحصرٌ في اللّه تعالى إذ لا قديم سواه فما سواه كائناً ما كان ممكنٌ و منه الإنسان فهو داخل في سلسلةِ الممكنات و لمّا كان الممكن في حدّ ذاته يقتضي اللّيسية المحضة و بإعتبار علّته يقتضي الوجود كما قيل الممكن من شأنه أن يكون ليساً و من علّته أن يكون ايساً أي وجوداً، فهو في ذاته محتاج إلى العلّة لتخرجه عن حدّ الإستواء و تدخلّه في الموجودات و لا

نعني بالفقر الذّاتي إلاّ هذا و إنّما عبّرنا عن هذا الإحتياج بالفقر الذّاتي لأنّه من شُئون ذاته لا أنّه عرض على الذّات فلا يعقل إنفكاكه عنه و إلى هذا المعنى أشار النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم حيث قال: «**الفُقر سَواد الوَجه في الدّارين**» أي في الدّنيا و الآخرة فأنّ الإحتياج ثابت له و لا ينفكّ عنه في الدّنيا و الآخرة و لنعم ما.

قيل في الفارسية:

سيه روئى ز ممكن در دو عالم جدا هرگز نشد و اللّه أعلم

و ليس المراد بالفقر الفقر العرضي كما ظنّه كثير من أهل الظّاهر هذا تمام الكلام في الفقر الذّاتي الّذي يشمل جميع الممكنات.

أمّا الفقر العرضي فهو أيضاً ثابت للممكن المخلوق لأنّ المخلوق محتاج إلى رازقه في رزقه و جميع شئونه هكذا قيل، و الحقّ أنّ هذا القسم داخل في الفقر الذّاتي لأنّ إحتياج المخلوق إلى خالقه ذاتّي له سواء كان في مقام الإيجاد أم بعد الإيجاد، بل المراد بالفقر العرضي هو الفقر المعروف بين النّاس و هو عبارة عن عدم الغنى من حيث المال كما يقال فلان فقيرٌ و فلان غنّي، فأنّ الفقر و الغنى بهذا المعنى قد يعرض على الإنسان على أساس المصلحة التّي لا يعلمها إلاّ اللّه و قد لا يعرض.

و من المعلوم أنّ رفع هذا الفقر عن العبد أيضاً بيد اللّه و تحت قدرته فالعبد محتاج إلى اللّه في خروجه عن حدّ الإستواء المعبّر عنه بالفقر الذّاتي، و في خروجه عن الفقر العرفي المعبّر عنه بالفقر العرضي فهو محتاج إلى اللّه على كلّ حالٍ بقولٍ مطلق و هذا معنى قوله: **يَآ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ.**

الفَصل الثّاني: في تفسير قوله: **وَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** قد قسّمنا الفقر و الغنى في صدر البحث إلى الذّاتي و العرضي و قلنا أنّ المقصود من العرضى الفقر و الغنى بحسب إطلاق العرف لا بحسب اللّغة و الحقيقة و على هذا فإطلاق الفقر على من لا مال له و الغنى على من له مال و ثروة ليس على الحقيقة بل هو على سبيل المجاز و الآن نقول:

الغنّي بالذّات منحصر في الواجب تعالى شأنه و لا غنيّ سواه في عالم الوجود كما أنّ الفقر الذّاتي منحصر بالممكنات فالخالق غنّي بالذّات و المخلوق فقير بالذّات و الفقر العرفي قد يطلق على الإنسان.

أمّا الغنى العرفي لا يطلق على اللّه تعالى فهو تعالى غنيّ بذاته عمّا سواه بقولٍ مطلق و أن شئت قلت لا غنّي في ذاته و صفاته إلاّ اللّه تعالى فقوله: **هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ** يراد به الغنى من حيث الذّات و الدّليل على ذلك من العقل هو أنّ ضدّ الغنى الفقر فلو لم يكن اللّه غنيّاً بقولٍ مطلقٍ، فهو فقير لا محالة لإستحالة إرتفاع النّقيضين أو الضّدين فهو تعالى أمّا غنيّ مطلقاً و أمّا فقير مطلقاً لعدم وجود الواسطة بينهما فأن كان غنيّاً مطلقاً فالمطلوب ثابت، و إن كان فقيراً فهو ممكنٌ وليس بواجب إذ لا نعني بالممكن إلاّ المحتاج فهو ليس بواجب و المفروض أنّه واجب الوجود و هذا خلف فثبت و تحقّق أنّ اللّه تعالى غنيٌّ عمّا سواه فهو المحمود المستحقّ للحمد على جميع أفعاله و هو لا يفعل إلاّ ما يستحقّ له حمداً و هو المطلوب.

إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَ يَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن قدرته و قال: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ**، و يفنيكم و يأت بخلقٍ جديد ثمّ قال:

وَ مَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ

أي بممتنعٍ فأنّ اللّه قادرٌ على كلّ شيٍ و المعنى واضح إذ لو لم يقدر على ذلك لكان ضعيفاً و الضّعف من شئون الممكن.

■

وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ
إِلٰى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبٰى
إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ
أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ مَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمَا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهِ
وَ إِلَى ٱللّٰهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿۱۸﴾ وَ مَا يَسْتَوِي ٱلْأَعْمٰى وَ
ٱلْبَصِيرُ ﴿۱۹﴾ وَ لَا ٱلظُّلُمَاتُ وَ لَا ٱلنُّورُ ﴿۲۰﴾ وَ لَا
ٱلظِّلُّ وَ لَا ٱلْحَرُورُ ﴿۲۱﴾ وَ مَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَاءُ وَ
لَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللّٰهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَ مَا أَنْتَ
بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي ٱلْقُبُورِ ﴿۲۲﴾ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ
﴿۲۳﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ إِنْ مِنْ
أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿۲۴﴾ وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ ٱلْمُنِيرِ ﴿۲۵﴾ ثُمَّ
أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿۲۶﴾ أَلَمْ
تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ
ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَ مِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ
وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ ﴿۲۷﴾ وَ
مِنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱلدَّوَابِّ وَ ٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ
كَذٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللّٰهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمٰٓؤُا إِنَّ
ٱللّٰهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿۲۸﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ
ٱللّٰهِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿۲۹﴾

لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَ يَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ
غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَ ٱلَّذِيَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ
ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ
بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ
ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ
مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ
يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ
لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَ قَالُوا ٱلْحَمْدُ
لِلَّهِ ٱلَّذِيَ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيَ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ
لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾

◄ اللّغة

وَ لَا تَزِرُ: الوزر الثّقل و منه الوزير لتّحمله ثقل الملك.

وَ لَا ٱلْحَرُورُ: السّموم.

بِالزُّبُرِ: الزّبر الكتب.

ثَمَرَاتٍ: جمع ثمرة و هی ما يجتبی من الشّجر.

جُدَدٌ: بضّم الجيم و فتح الدّال جمع، جدّه نحو مدّة و مدد و أمّا جمع جديد فجدد بضمّ الدّال مثل سرير و سرر و الجدد الطّرائق.

غَرَابِيبُ: جمع غربيب و هو الّذي لونه كلون الغراب من شدّة سواده.

وَ ٱلدَّوَآبِّ: بفتح الدّال الّتي تدبّ على وجه الأرض.

وَٱلْأَنْعَٰمِ: كالإبل و البقر و الغنم.

لَنْ تَبُورَ: أي لن تكسد و قيل لا تفسد يقال بارت السُّوق إذا كسدت و بار الطّعام إذا فسد.

أَسَاوِرَ: جمع أسوار.

نَصَبٌ: بفتح النّون و الصّاد التعب.

لُغُوبٌ: اللُّغوب العناء.

◀ الإعراب

وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ يجوز أن يكون كان تامّة. جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ جال. أَلْوَانُهَا مرفوعٌ بمختلفٍ. كذلك في موضع نصب أي إختلافاً مثل ذلك. ٱلْعُلَمَٰٓؤُا بالرّفع يَرْجُونَ تِجَارَةً هو خبر إن جَنَّاتُ عَدْنٍ يجوز أن يكون خبراً ثانياً لذلك أو خبر مبتدأ محذوف أو مبتدأ و الخبر دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مفعول، أحلّنا لَا يَمَسُّنَا حال من المفعول الأوّل و الباقي واضح.

◀ التّفسير

وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ مَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ

قوله: وَازِرَةٌ، صفة لموصوفٍ محذوف أي و لا تزر نفسٌ وازرة أي حاملة وزر أخرى أي وزر نفس أخرى فتأنيث الفعل في الآية بإعتبار الموصوف المحذوف و أنّما ذكر الصّفة ولم يذكر الموصوف لأنّ المعنى أنّ كلّ نفسٍ لا ترى إلاّ حاملة وزرها لا وزر غيرها فلا يؤاخذ نفس بذنب نفسٍ كما يأخذ جبابرة الدّنيا الجار بالجار و الصّديق بالصّديق و القريب بالقريب فأنّ ذلك ظلمٌ

و اللّه تعالى منزّهٌ عنه فأنّه لا يظلم أحداً و العدل يقتضي أن لا يؤخد أحدٌ بذنب أخر.

و إنّما قال: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** و لم يقل و لا تزر نفسٌ وزر أخرى لأنّ المعنى أنّ النّفوس الوازرات لا ترى منهُن واحدة إلاّ حاملة وزرها لا وزر غيرها و أمّا قوله تعالى: **لَيَحْمِلُنَّ أَثْقالَهُمْ وَ أَثْقالاً مَعَ أَثْقالِهِمْ**(١) لأنّ الآية في الضّالين المُضّلين و أنّهم يحملون أثقال إضلال النّاس مع أثقال ضلالهم و ذلك كلّه أوزارهم ما فيها شيءٌ من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذّبهم اللّه في قولهم، إتبعُوا سبيلنا و لنحمل خطاياكم بقوله:

وَ ما هُمْ بِحامِلِينَ مِنْ خَطاياهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكاذِبُونَ(٢).

و الحاصل أنّ الضّلال شئ و الإضلال شئ آخر و ما نحن فيه من الضّلال لا من الإضلال و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

غيري جنى و أَنا المعاقب فيكم فكأنَّني سبابة المتَّندم

و قوله: **وَ إِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلىٰ حِمْلِها لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كانَ ذا قُرْبىٰ** أي و إن تدع مثقلة بالأثام غيرها لتحمل عنها بعض الإثم لا يحمل عنها شيئاً من آثامها و أن كان أقرب النّاس إليها لما في ذلك من مشقّة حمل الأثام و لو تحمّلته لم يقبل تحمُّلها لما فيه من مجانبة العدل و منافاته له فكلّ نفسٍ بما كسبت رهينة لا يؤاخذ أحدٌ بذنب غيره و لا يؤخذ إلاّ بجنايته و محصلّ الكلام إنّا لا نؤاخذ أحداً بذنب غيره و لا نقبل من غير الخاطي أن يحمل من خطايا غيره و أن كان الغير من أقربائه مثل أن يقول الأب مثلاً أنا أحمل بعض خطايا ولدي أو أحداً من أقربائي و ذلك لأنّه مخالفٌ للعدل أن نحمل أوزار نفسٍ على نفسٍ آخر.

أن قلت ما الفرق بين قوله: **وَ لا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرىٰ** و قوله: **وَ إِنْ تَدْعُ**

١- العنكبوت = ١٣ ٢- العنكبوت = ١٢

مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ أليس هذا من التّكرار.

قلت قد فرّق صاحب الكشّاف بين الجملتين.

بأنّ الأولىٰ: أعني بها و لا تزر وازرة وزر أخرى، تدّل على عدل اللّه في حكمه و أنّه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ذنبها.

الثّانية: تدلّ على أن لا غياث يومئذٍ لمن إستغاث حتّى أنّ نفساً قد أثقلتها الأوزار لودعت إلى أن يخفّف بعض وقرها لم تجب و لم تغث و أن كان المدعوّ بعض قرابتها من أبٍ أو ولدٍ أو أخٍ إنتهى.

أقول و الّذي عندي في الفرق بينهما، أنّ الجملة الأولى تدلّ على عدله تعالى و أنّه لا يظلم على أحد و أمّا الجملة الثّانية فهي من الإعانة على الظُّلم و من أعان ظالماً فقد ظلم و أن شئت قلت أنّها من قبيل الرّضا بالظُّلم و ذلك لأنّ حمل أوزار الغير ظلمٌ على الحامل و من رضي به فهو شريك الظّالم و المعين على الظُّلم وكيف كان فالأمر واضح.

إِنَّمَا تُنْذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلٰوةَ وَ مَنْ تَزَكّٰى فَإِنَّمَا يَتَزَكّٰى لِنَفْسِهِ وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ أشار اللّه تعالىٰ في هذه الكلمات إلى أمور ينبغي التّوجه إليها.

فنقول:

أحدهما: أنّ كلمة (إنّما) تفيد الحصر و الظّاهر أنّ الكلام من حصر الصِّفة على الموصوف لأنّ الإنذار مختصّ بالنّبي و قد وصفه اللّه تعالى بذلك في كثيرٍ من الآيات.

الثّاني: أنّ الإنذار لا يؤثّر في الجميع بل يؤثّر فيمن خشي ربَّه بالغيب، حال من الفاعل أو المفعول به فعلى الأوّل معناه يخشون ربّهم غافلين من عذابه.

علىٰ الثّاني: يخشون عذابه غائباً عنهم، و قيل في الغيب أي في السّر، و قيل في الغيب أي و هو بحال غيبه عنهم إنّما هي رسالة.

و قيل في الغيب معناه يخافون ربّهم في غيبتهم و خلواتهم فيجتنبون معاصيه في سرّهم و يصدّقون الآخرة، و الجامع بين الأقوال هو الخشية في السّر و العلن و إنّما خصّ الإنذار بذلك لأنّ الخشية من الرّب فرعٌ على معرفته فمن لا يعرف اللّه لا يخشى منه و لا يؤثّر الإنذار فيه قطعاً لعدم وجود القابليّة فيه و قد ثبت عقلاً أنّ شرط تأثير العلّة في المعلول قابليّة المعلول للتأثّر و إستعداده له فمن لا يعرف اللّه لا يخشى منه و من كان كذلك فكيف يؤثّر الإنذار فيه.

الثّالث: قوله: **وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ** و إنّما خصّها بالذّكر لعظم شأنها و أنّها عمود الدّين إن قبلت قبل ما سواها و أن ردّت ردّ ما سواها.

و هي أوّل ما يسئل عنه العبد يوم القيامة، و هى معراج المؤمن، و قربان كلّ تقيٍ، و هى الّتي قيل فيها، من ترك الصّلاة عمداً فقد كفر و غير ذلك ممّا ورد في فضلها و إنّما ذكرها في الآية بعد الخشية لأنّ إقامة الصّلاة فرعٌ على الخشية و لذلك قال و أقاموا الصّلاة إذ الإقامة بدون الخشية غير ممكن و لا معقول و لذلك لم يقل، و صلّوا مثلاً، فأنّ الإتيان بالصّلاة غير إقامتها.

الرّابع: قوله: **وَ مَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ** قيل في معناه أي من فعل الطّاعات و قام بما يجب عليه من الزّكاة و غيرها من الواجبات فإنّما يتزكّى لنفسه لأنّ ثواب ذلك و نفعه عائدٌ عليه.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **وَ مَنْ تَزَكَّىٰ** أي من تطّهر بفعل الطّاعات و ترك المعاصي.

أقول لاشكّ أنّ تزكية النّفس لا تحصل إلاّ بفعل الطّاعات و ترك المعاصي و لاشكّ أيضاً أنّ نفع التّزكية يرجع إلى المذكّى في الدّنيا و الآخرة و في قوله: **وَ إِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ** إشارة بل وعدٌ للمتزّكين بالثّواب يوم القيامة. **مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَ مَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**(1).

1- الفصّلت = ۴۶

وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَ ٱلْبَصِيرُ، وَ لَا ٱلظُّلُمَاتُ وَ لَا ٱلنُّورُ، وَ لَا ٱلظِّلُّ وَ لَا ٱلْحَرُورُ

ما، نافية و الأعمى يقال لمن إفتقد البصر و البصير ضدّه، و **الظُّلمات** بضمّ الظّاء و اللاّم جمع ظلمة و هى ضدّ النُّور و الظِّل ضدّ الضحّ أعمّ من الفيئ فأنّه يقال ظلّ اللّيل و ظلّ الجنّة و يقال لكلّ موضع لم تصل اليه الشّمس ظلّ و لا يقال الفيئ إلاّ لما زال عنه الشّمس، و الحرور السَّموم إلاّ أنّ السَّموم يكون بالنّهار و الحرور باللّيل و النّهار و قيل باللّيل خاصّة، إذا عرفت ما ذكرناه بحسب اللُّغة.

فأعلم أنّ المراد بها ليس معانيها اللُّغوية المحسوسة بل المرادِ بها معانيها العقليّة المعنويّة فالمراد بالأعمى من خرج عن طريق الحقّ و البصير من دخل فيه و المراد بالظُّلمة ظلمة القلب و ضدّها النُّور و المراد بالظّل ظلّ الجنّة و بالحرور النّار.

و على هذا فالأعمى و البصير مثلٌ للكافر و المؤمن كما ضرب البحرين فيما مضى مثلاً لهما، أو للصنّم و اللّه عزّ وجلّ.

و أمّا الظُّلمات و النُّور و الظِّل و الحرور مثلان للحقّ و الباطل و ما يؤديان اليه من الثّواب و العقاب و محصّل الكلام في المقام هو أنّ اللّه تعالى يقول كما لا يستوي الأعمى و البصير كذلك لا يستوي الكافر و المؤمن و كما لا يستوي الظُّلمة و النّور لا يستوي الحقّ و الباطل و كما لا يستوي الظِّل و الحرور كذلك لا تستوي الجنّة و النّار ثمّ قال تعالى:

وَ مَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَ لَا ٱلْأَمْوَاتُ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَآءُ وَ مَآ أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ

قيل هذا مثل للّذين دخلوا في الإسلام و الّذين لم يدخلوا فيه و أصرُّوا على الكفر.

قال صاحب الكشّاف و أنت ترى أنّ ما ذكره في تفسير الآية ليس بشيءٍ يعتمد عليه إذ لا دليل على ما ذكره لا عقلاً و نقلاً فأنّ مجرّد الدُّخول في الإسلام لا يكفي في صدق الأحياء عليه نعم لو دخل في الإيمان فهو من الأحياء و توضيح ذلك إجمالاً أنّ المراد بالأحياء و الأموات في الآية ليس معناهما اللُّغوي بل المراد بهما المؤمن و الكافر إذ حياة القلب بالإيمان كما أنّ موته بالكفر و الفسق و من المعلوم أنّ الإسلام المجرّد عن الإعتقاد و العمل لا يوجب حياة القلب اللّهم إلاّ أن يراد بالإسلام الإيمان لا مجرّد الشّهادتين فقول الزّمخشري هذا مثل للّذين دخلوا في الإسلام و الّذين لم يدخلوا فيه على إطلاقه لا معنى له إلاّ على مذهبه السّخيف من أنّ كلّ مسلم مؤمنٍ و بالعكس.

و لذلك تراهم يعدُّون أصحاب رسول اللّه كلّهم من المؤمنين حتّى يعدُّون معاوية و إبنه يزيد و بني المروان و أمثالهم من المؤمنين لأنّهم قالوا بالشّهادتين و قد صرَّح بذلك مؤلّف كتاب إحياء العلوم و حكم بحرمه لعن يزيد لكونه من المؤمنين و للحبث فيه مقام آخر.

و الّذي يستفاد من الآية أنّ الأحياء غير الأموات ظاهراً و واقعاً.

أمّا في الظّاهر فلأنّ الأثار مترتّبة على الحياة و أمّا من لا حياة له فلا أثر له لأنّه لا يقدر على شيٍ هذا إن أردنا بالأحياء و الأموات ما هو الظّاهر منها عرفاً و حسّاً.

و أمّا أن أردنا من الأحياء و الأموات المؤمن و الكافر فالمعنى أيضاً واضح فأنّ من كان قلبه حيّاً بالإيمان لا يساوي من كان قلبه ميّت بالكفر و الضّلال.

و أمّا أنّ حياة القلب تحصل بمجرّد الدّخول في الإسلام فهو أوّل الكلام فإنّا نرى كثيراً من المسلمين لولا أكثرهم من مصاديق الأموات بهذا المعنى مع دخولهم في الإسلام فتخصيص الأموات في الآية بالكفّار شططٌ من الكلام هذا كلّه إن قلنا بأنّ الآية بصدد التّمثيل كما ذكره صاحب الكشّاف.

أن قلنا أنّ الآية ليست بصدد التّمثيل بل المراد بالأحياء و الأموات ما هو الظّاهر منهما عند العرف أعني الطبيعي منهما، كما هو الأقوى عند التّأمل في الأية.

فالأمر أوضح و الّذي يقوّي في نفسي هو المعنى الثّاني بدليل قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَآءُ وَ مَآ أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى ٱلْقُبُورِ** إذ ليس في القبر إلاّ من يأت بالجسد و البدن، لا من مات قلبه، نعم يحتمل التّشبيه أو تشبيه أحدهما بالأخر و وجه الشَّبه فيهما عدم القبول من النّبي و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى و اللّه أعلم.

إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ، إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ

كلمة، إن، في الموضعين للنّفي أي لست أنت إلاّ نذير و ليست أمّة إلاّ خلا فيها نذير، وصف اللّه تعالى نبيّه في الآية الأولى بأنّه منذرٌ و في الآية الثّانية بالإنذار و البشارة معاً و من المعلوم أنّ الوصفين أعني البشارة و الإنذار من أوصاف النّبي و قوله: **وَ إِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** أي ليس من أُمّةٍ فيما مضى الا مضى فيها مخوِّفٌ من معاصي اللّه هكذا قال بعض المفسّرين و قال قوم، و المعنى، إلاّ خلا فيها نذير، منهم.

و قال آخرون، نذيرٌ من غيرهم و هو رسول اليهم.

أقوال الأمّة الجماعة الكثيرة و المعنى أنّ الدّعاء الى اللّه لم ينقطع عن كلّ أمّةٍ، إمّا بمباشرة أنبيائهم او بغيرهم إلى وقت بعثة محمّد صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و الأيات التّي تدلّ على أنّ قريشاً ماجاء نذير معناه لم يباشرهم و لا أباؤهم القريبين.

و أمّا أنّ النّذارة إنقطعت فلا ولما خفيت أثار النّذارة عليهم بعث اللّه محمّداً صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و ما قيل أو يقال من حال أهل الفترات فأنّ ذلك على حسب العرض لأنّه واقع و لا توجد أمّةٌ على وجه الأرض إلاّ و قد علّمت الدّعوة إلى

اللّه و عبادته و الحاصل أنّ الأرض لا تخلوا من حجّةٍ من بدو خلق الإنسان إلى يوم القيامة إذ لولا الحجّة لساخت الأرض بأهلها، هذا إذا قلنا بأنّ المراد بالمنذر أو المبشّر هو النّبي.

و أمّا إن قلنا بعدم إختصاصه بالنّبي بل قد يكون المنذر غير النّبي كالوصيّ و من قام مقام النّبي و الوصّي من علماء الأمّة فالأمر أسهل و أسهل و ملخصّ الكلام في الآية أنّ الأرض لا تخلو من الحجّة سواء كانت نبيّاً أو وصيّاً أو نائباً عنهما من علماء الأمّة فأنّهم حجج اللّه على عباده في زمان الفترة كما أنّهم حجج اللّه على العباد في زمان غيبة الوصّي كزماننا هذا و يستفاد من بعض الأخبار أنّ أبا طالب و قبله عبد المطّلب و قبله هاشم و قبله عبد مناف إلى زمان عيسى إبن مريم كانوا من الأوصياء و بهم تمّت الحجّة على الخلق إلى أن بعث اللّه تعالى محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم و أنّما سمّي عهد الجاهليّة بزمان الفترة أو بين عيسى و محمّد كذلك.

فالمراد بالفترة خلّو الزّمان بين الرّسولين من الرّسول المبعوث إلى الخلق لا خلوه عن الحجّة مطلقاً فأنّ مقام الوصاية امتدّ من عهد عيسى إلى زمان محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و بذلك قد تمّت الحجّة على الخلق و إلاّ يلزم العقاب بلا بيان و هو غير معقولٍ.

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جٰآءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنٰاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتٰابِ ٱلْمُنِيرِ

هذه الآية فيها تسلية للنّبي عن تكذيب قومه إيّاه و أنّه كان موجوداً في الأمم السّالفة في حقّ أنبيائهم فقال تعالى: و أن يكذّبوك يا محمّد هؤلاء الكفّار فقد كذّب الّذين من قبلهم أنبيائهم الّذين أرسلناهم إليهم بالبيّنات أي الدّلائل الواضحات و بالزّبر، يعني بالكتب و بالكتاب المنير الموضح للحقّ قيل في وجه تكرير الكتاب و عطف أحدهما على الأخر أنّه لإختلاف الصنفين، لأنّ

الزُّبر الكتابة الثّابتة كالنَّقر في الحجر، و قيل المراد بالبيّنات المعجزات، وبالزُّبر، الصُّحف و بالكتاب المنير نحو التّوراة و الإنجيل و الزَّبور و كيف كان ففي الآية مسلاةٌ للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم و الإخبار بأنّ تكذيب الأنبياء كان دابهم و ديدنهم في جميع الأزمنة.

ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ

أتى بكلمة، ثمّ، للدّلالة على التّراخي أي بعد إنكارهم الحقّ و إمهالنا إيّاهم للتّوبة، أخذت الّذين كفروا بالعذاب في الدّنيا و العقاب في الأخرة.

قال في المفردات فكيف كان نكير، أي إنكاري، و النُّكر الدُّهاء و الأمر الصَّعب الّذي لا يعرف ففي الآية إشارة إلى أنّ اللّه تعالى أهلكهم و دمَّر عليهم و أخذهم بالعذاب بعد إصرارهم على الإنكار و العناد كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَ مِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَ حُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ سُودٌ

الهَمَزة للإستفهام الإنكاري أي ترى قيل أي تعلم، أنّ اللّه أنزل من السّماء ماءً و هو المطر و الثّلج فأخرجنا به، أي بسبب الماء النّازل من السّماء، ثمراتٍ، جمع ثمرة و هى ما يجتنى من الشَّجر، مختلفاً ألوانها، لأنّ فيها الأحمر و الأبيض و الأخضر و الأصفر و غير ذلك و يحتمل أن يكون المراد بالألوان أجناسها و أنواعها من الرُّمان و التُّفاح و التّين و العنب و غيرهما ممّا لا يحصر و لم يذكر إختلاف طعومها و روائحها لدلالة الكلام عليه و من الجبال، جمع جبل، جددٌ بيض و حمرٌ جدد بضّم الجيم و فتح الدّال جمع جده نحو مدّة و مدد، و أمّا جمع جديد **فجُدُد** بضّم الدّال مثل سرير و سرر و الجدد الطّرائق و الخطط و يقال جدة الحمار للخطّة السّوداء على ظهره و غرابيب سود الغرابيب جمع غربيب و هو الّذي لونه كلون الغراب من شدّة سواده.

و عن عكرمة هي الجبال الطّوال السُّود.

و قال صاحب الكشّاف و لابدّ من تقدير حذف المضاف في قوله تعالىٰ: **وَ مِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ**، و التّقدير و من الجبال ذو جدد بيض و حمرٌ و سود حتّى يؤول إلى قولك و من الجبال مختلف ألوانه كما قال ثمرات مختلف ألوانها.

و المقصود أنّ من الجبال مخطّطٌ ذو جدد و منها ما هو على لونٍ واحد و هذه المذكورات في الآية كلّها من أثار قدرته تعالى و أنّه لا إله إلاّ هو ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أثار قدرته في النّاس و الدَّواب و الأنعام فقال:

وَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَ ٱلدَّوَآبِّ وَ ٱلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ

الدَّوابّ جمع دابّة، و هى التّي تدبّ على وجه الأرض و الأنعام كالإبل و البقر و الغنم مختلفٌ ألوانه، مثل ذلك ممّا في الجبال و الثّمار كذلك، أي مثل ما قدّمنا ذكره، أي كما أنّ الثّمرات مختلفة الألوان و الأنواع و الجبال مخطّطٌ ذُو جدد كذلك النّاس و الدوابّ و الأنعام مختلف ألوانها و أنواعها و أشكالها، و ذلك لأنّ الإختلاف في الألوان و الأشكال في جنسٍ واحدٍ أو نوع واحدٍ يدلّ على وجود الخالق القادر الحكيم و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ الطبيعة النوعيّة بما هي لا تقتضي ألواناً أو أشكالاً مختلفة فلا محالة إختلافها مستندٌ بما هو خارج عن طبيعتها المطلوب.

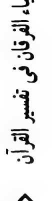

و أمّا قوله: **إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟**، فمعناه أنّ الخوف من اللّه يتوقّف على معرفته فمن لا يعرف اللّه لا يخافه و لا يعرف اللّه حقّ معرفته إلاّ العلماء و اذا كان كذلك فلا يخشاه إلاّ العالم العارف بذاته و صفاته و أمّا الجاهل فهو بمعزلٍ عن معرفته و خشيته و هو واضح لا خفاء فيه و لذلك قيل أنّ المعرفة كسبيّة.

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**، أي أنّه عزيزٌ في إنتقامه من أجل أنّه غفورٌ لأوليائه و التّائبين من خلقه.

قال الزّمخشري في الكشّاف في تفسير هذه الآية ما هذا لفظه، المراد العلماء به تعالى الّذين علمو بصفاته و وعدله و توحيده و ما يجوز عليه و ما لا يجوز فعظّموه و قدروه حقّ قدره و خشوه حقّ خشيته و من إزداد به علماً إزداد به خوفاً و من كان علمه به أقلّ كان آمن.

و في الحديث: **أعَلَمكم باللّه أشَدَّكم له خَشيةً**، و ساق الكلام إلى أن قال و قيل نزلت في أبى‌بكر الصدّيق رضي اللّه عنه و قد ظهرت عليه الخشية حتّى عرفت فيه إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول المراد بالعُلماء في الآية الشّريفة ليس ما ذكره الزّمخشري فأنّ العلم بذاته و صفاته و عدله و توحيده إلى أخر ما قال لا يكفي في المقامِ و إلاّ لدخل فيهم أمثال الزّمخشري و الرّازي و الغزالي و الطّوسي و إبن تيميّة و غيرهم ممّن علموا صفاته و عدله و توحيده ولم يخشوا اللّه تعالى طرفة عينٍ بل المراد بهم العلماء الّذين نوَّر اللّه قلوبهم بنور الإيمان إذ ليس العلم بكثرة التَّعليم و التَّعلم و لكنّ العلم نورٌ يقذفه اللّه في قلب من يشاء.

بعبارةٍ أخرى ليس كلّ عالمٍ يخشى اللّه بل كلّ من يخشى اللّه فهو عالم فقوله من ازداد علما إزداد به خوفاً أن كان مراده بالعلم ما هو مصطلحٌ بين النّاس فهو في حيّز المنع و أن كان مراده به معرفة اللّه بالنّورانية و أن كان من غير العلماء إصطلاحاً و عرفاً فهو ممّا لا كلام فيه و هكذا الكلام في الحديث الّذي إستدل به و هو قوله: **أعَلَمكم باللّه أشدَّكم خَشيَةً**، فأنّ هذا الحديث على فرض صحتّه و صحّة سنده لا يدلّ على مدّعاه فأنّ المراد بقوله: **أعَلَمكم**، أي أعرفكم، و الدّليل على ما ذكرناه هو أنّ كثيراً من العلماء لولا أكثرهم لا يخشون اللّه أصلاً مع علمهم بصفاته و عدله بل نقول لا يخفى على المنصف أنّ الإضلال فيهم أكثر من الإرشاد قولاً و فعلاً و من كان كذلك كيف يخشى اللّه.

ثمّ نقول لصاحب الكشّاف، أليس الشُّعبي و الزُّهري و مالك و أبو حنيفة و إبن حنبل و الشّافعي و من حذى حذوهم من العلماء فأن لم يكونوا منهم فمن العلماء و أن كانوامنهم فلم أبدعوا في الدّين ما أبدعوا و إخترع كلّ واحدٍ منهم مذهباً لنفسه غير ما إختاره الأخر أيزعم صاحب الكشّاف أنّ هذا من خشية اللّه و أعجب من ذلك كلّه قوله نزلت الآية في أبي‌بكر فكأنّ القائل بهذا لم يعرف معنى العلم أصلاً هذا أوّلاً.

ثانياً: أنّ الآية نزلت في حياة رسول اللّه فكيف كان أبوبكر مصداقاً لها دون النّبي أليس النّبي من العلماء أم كان أبوبكر أعلم منه فأن كان أعلم منه و أخشى فهو أولى و أخرى بمقام النّبوة ممّن ليس كذلك، أنظر إلى هذه الكلمات ثمّ أقض ما أنت قاض، و أمّا قوله: و **قد ظهرت عليه الخشية حتّى عرفت فيه**، فنقول في جوابه من أين علمت أنّ الخشية ظهرت عليه و لم تظهر على غيره أمثال سلمان و حذيفة و عمّار و غيرهم من الأصحاب.

و أمّا قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** قال الزّمخشري هو تعليلٌ لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة و قهرهم و إنابة أهل الطّاعة و العفو عنهم و المعاقب المشيب حقّه أنّ يخشى إنتهى كلامه.

و الحقّ أنّ قوله تعالى حكمٌ كليٌ و ليس فيه ما يدلّ على التّعليل و المعنى أنّ اللّه تعالى عزيزٌ أي قويٌ و قادرٌ على الإنتقام من أعداءه كما أنّه غفور لأولياءه و التّائبين من خلقه سواءٌ كانوا من العلماء أم لا.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ

الظّاهر أنّ هذه الآية بمنزلة التّفسير و البيان لما قبلها كأنّه قيل من العلماء الّذين يخشون اللّه، فقال تعالى في الجواب: **ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ ٱللَّهِ وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ** و يحتمل أن تكون الآية بصدد بيان حكمٍ أخر و هو أنّ التّالين

لكتاب اللّه إلى أخر ما ذكره في الآية و ما بعدها يوفّيهم اللّه أجورهم، و كيف كان وعد اللّه الّذين يتلون الكتاب و هم جميع المكلّفين بناءً على حمل الآية على العموم و من المعلوم أنّ المراد بتلاوة الكتاب هو قراءته و العمل به لا مجرّد القراءة كما يقرأه المنافقون.

وَ أَقَامُوا ٱلصَّلَوٰةَ أي الإتيان بها تامّ الأجزاء و الشّرائط، و أنفقوا ممّا رزقناهم، في طاعة اللّه في السرّ و العلانية، يرجون بذلك تجارةً لن تبور، أي لا تكد تفسد ثمّ بيّن اللّه تعالى أنّ قصدهم به أن يوفّيهم اللّه أجور ما عملوا من الطّاعات بالثّواب و يزيدهم من فضله زيادةً على قدر إستحقاقهم، أنّه غفورٌ بعباده شكورٌ أي يعامل بالإحسان معاملة الشّاكر و قيل وصفه بأنّه شكورٌ مجاز لا حقيقة لأنّ معناه أنّه يجازي على الطّاعات.

وَ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ

يقول اللّه تعالى لنبيّه و الّذي أوحينا إليك من الكتاب و هو القرأن هو الحقّ المطابق للواقع حال كونه مصدّقاً لما بين يديه من التّوراة و الإنجيل و غيرهما من الكتب السّماويّة موافقاً لما بشّرت به تلك الكتب أنّ اللّه بعبادة لخبيرٌ بصير أي أنّه تعالى عالمٌ بهم و بصيرٌ بأحوالهم لا يخفى عليه شئ و في هذه الآية إشارة إلى أنّ أصول الأديان واحد و جميع الكتب السّماوية لا ريب فيها من حيث أنّها كلام اللّه المنزل على أنبيائه لإرشاد الخلق و من المعلوم أنّ حكم الأمثال واحد و بعبارةٍ أخرى كما أنّ جميع الأنبياء كانوا على الحقّ كذلك ما أنزل إليهم و المؤمن ينبغي له الإيمان بالجميع و إلى هذا أشار اللّه تعالى بقوله:

وَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَ مَآ أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ[1].

۱- البقرة = ۴

و على هذا فمن أنكر نبياً من الأنبياء فهو أنكر الجميع و هكذا الحال بالنّسبة إلى الكتب المنزلة.

ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ

اللاّم في الكتاب للعهد الذّكري لتقدّم ذكره أي أنّ الكتاب الّذي هو الحقّ مصدّقاً لما بين يديه أعني به القرأن أورثناه الّذي إصطفينا وإخترنا من عبادنا.

قال بعض المفسّرين معنى الإرث إنتهاء الحكم إليه و مصيره لهم كما قال تعالى: **وَ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيَ أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**[1] و قيل معناه أورثناهم الإيمان بالكتب السّالفة وكان الميراث إنتقال شيءٍ من قومٍ إلى قومٍ و الإصطفاء الإختبار بإخراج الصَّفوة من العباد.

و قوله: **فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سابِقٌ بِالْخَيْراتِ**، قيل في معناه إصطفا اللّه المؤمن يحمل على ثلاث طبقات مؤمن ظالمٌ لنفسه يفعل الصّغيرة و مقتصد بالطّاعات في المرتبة الوسطى و سابق بالخيرات في الدّرجات و هم الّذين لم يرتكبوا شيئاً من المعاصي و كلٌّ وعد اللّه الحسنى، و الّذين إصطفاهم اللّه و أورثهم الكتاب قيل هم الأنبياء فمنهم ظالمٌ لنفسه نعني أصحاب الصّغائر و قيل هم أصحاب النّار و هذا قول من أجاز على الأنبياء الصّغائر دون الكبائر و أمّا من لا يجوّز عليهم شيئاً من المعاصي أصلاً لا صغيرة و لا كبيرة يقول معنى الآية أنّ اللّه أورث علم الكتاب الّذي هو القرأن للّذين إصطفاهم و إجتباهم على جميع الخلق من الأنبياء المعصومين و الأئمّة المنتجبين الّذين لا يجوز عليهم الخطأ و لا فعل القبيح لا صغيراً و لا كبيراً و يكون قوله: **فَمِنْهُمْ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ** راجعاً إلى عباده و تقديره فمن عبادنا ظالمٌ

١- الزّخرف = ٧٢

لنفسه و من عبادنا مقتصد و من عبادنا سابق بالخيرات لأنّ من إصطفاه اللّه لا يكون ظالماً لنفسه فلا يجوز أن ترجع اكناية إلى الّذين إصطفينا و أنّ قوله: **بِالْخَيْرٰاتِ** يعني يعلم من إقتصد أو ظلم نفسه أو سبق بالخيرات.

ثمّ قال: **ذٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ**، يعني السَّبق بالخيرات هو الفضل العظيم الّذي لا شيئ فوقه هذا ما ذكره الشّيخ في التّبيان عند تفسيره لهذه الآية ثمّ نقل عن إبن عبّاس أنّه قال، الّذين أورثهم اللّه الكتاب هم أمّة محمّد ورثهم اللّه كلّ كتاب أنزله فظالمهم يغفر له و مقتصدهم يحاسبهم حساباً يسيراً و سابقهم يدخلون الجنّة بغير حساب، و نقل أقوالاً غير ما نقلناه عنه أن شئت فراجعه.

و قال صاحب الكشّاف في قوله: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتٰابَ** ما هذا لفظه قلت فيه وجهان:

أحدهما: أوحينا إليك القرأن ثمّ أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه أو قال أورثناه و هو يريد نورثه لما عليه أخبار اللّه **ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا** و هم أمّته من الصّحابة و التّابعين و تابعيهم و من بعدهم إلى يوم القيامة لأنّ اللّه إصطفاهم على سائر الأمم و جعلهم أمّة وسطاً ليكونوا شهداء على النّاس و إختصّهم بكرامة الإنتماء إلى أفضل الرُّسل و حمل الكتاب الّذي هو أفضل كتب اللّه ثمّ قسَّمهم إلى ظالم لنفسه فجرم و هو المرجاء لأمر اللّه و مقتصد و هو الّذي خلط عملاً صالحاً و أخر سيئاً و سابق من السّابقين.

الوَجه الثّاني: أنّه قدّم إرساله في كلّ أمّةٍ رسولاً و أنّهم كذّبوا رسلهم جاؤهم بالبيّنات و الزُّبر و الكتاب المنير ثمّ قال: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتٰابَ ٱللّٰهِ**، فأثنى على التّالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكلّفين بها من سائر الأمم و إعترض بقوله: **وَ ٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنٰآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتٰابِ هُوَ ٱلْحَقُّ**.

ثمّ قال: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتٰابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنٰا مِنْ عِبٰادِنٰا** أي من بعد أولئك المذكورين يريد المصطفين من عباده أهل الملّة الحنيفية إنتهى كلامه.

بألفاظه و عباراته و قد أطالوا الكلام في تفسير الآية في كتبهم بما لا يرجع الى محصلٍ و ذلك لأنّ ما ذكره صاحب الكشّاف و هو زعيم مفسّري العامّة و إمامهم في قوله ثمّ أورثناه من بعدك أي حكمنا بتوريثه لا نفهم معناه.

فأن أراد من الإرث ألفاظ الكتاب و حروفه فلا كلام فيه و إن كان مراده توريث معاني القرآن و علمه فمن المعلوم أنّه لم يحصل للأمّة بعد الرّسول و الدّليل على ذلك ما ذكره الزّمخشري و غيره في تفسير الآية و غيرها من الأيات تحت عنوان تفسير الأيات و لم يعلموا أنّ أكثر ما ذكروه فيه أجنبيّ منه بل هو من مستخرجات أنفسهم و من مصاديق من فسَّر القرآن برأيه فليتبوّء مقعده من النّار و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ قوله ثمّ أورثناه من بعدك أو حكمنا بتوريثه من هذا القبيل ولم يعلم أنّ قوله تعالى: **ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا** يدلّ على أنّ علم الكتاب مختصّ بالّذين إصطفاهم اللّه و إختارهم من العباد أي من بعض العباد لا جميع الأمّة و هم الّذين يعبّر عنهم بالرّاسخين في العلم كما قال تعالى:

وَ مَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَ ٱلرَّاسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ[1].

و هم أئمة الأثنى عشر الّذين جعلهم الرّسول عدلاً للكتاب في قوله في الحديث المشهور «**أنّي تارك فيكم الثّقلين كتاب اللّه وعترتي**» و على هذا فالآية المبحوثة عنها نزلت فيهم و إختصّت بهم كما وردت الأخبار و الأثار في ذلك.

ما رواه في الكافي بأسناده عن أحمد بن عمر قال: سألت أبا الحسن الرّضا عليه السلام عن قول اللّه عزّ وجلّ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فقال عليه السلام: ولد فاطمة عليها السّلام، و السّابق بالخيرات الإمام، و المقتصد العارف بالإمام، و الظّالم لنفسه الّذي لا يعرف الإمام.

١–آل عمران = ٧

ما رواه بأسناده عن ابى الحسن الأوّل أنّه قال: و قد أورثنا نحن هذا القرآن الّذي فيه ما تسير به الجبال و تقطع به البلدان و تحيى به الموتى و نحن نعرف الماء تحت الهواء و أنّ في كتاب اللّه لأيات ما يراد بها أمرٌ إلاّ أن يأذن اللّه برفع ما قد يأذن اللّه ممّا كتبه الماضون جعله اللّه لنا في أمّ الكتاب أنّ اللّه يقول «وما من غائبةٍ في السّماء والأرض إلاّ في كتاب مبين» ثمّ قال عليه السلام: ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا، فنحن الّذين إصطفانا اللّه عزّ وجلّ، و أورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كلّ شئ.

ما رواه في بصائر الدّرجات بأسناده عن سورة بن كليب قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول اللّه تبارك و تعالى: ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا قال عليه السلام: السّابق بالخيرات الإمام إنتهى.

ما رواه بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال في هذه الآية السّابق بالخيرات الإمام فهي في ولد علّي و فاطمة عليها السّلام.

ما عن كتاب معاني الأخبار بأسناده عن أبي حمزة الثّمالي قال: كنت جالساً في المسجد الحرام مع أبي جعفر عليه السلام إذ أتاه رجلان من أهل البصرة فقالا له يا بن رسول اللّه إنّا نريد أن نسألك عن مسألة فقال عليه السلام: سلا عمّا أحببتما قالا أخبرنا عن قول اللّه عزّ وجلّ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَابَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا نزلت فينا أهل البيت قال أبو حمزة فقلت بأبي أنت و أمّي فمن الظّالم لنفسه قال عليه السلام: من إستوت حسناته و سيّئاته منّا أهل البيت فهو الظّالم لنفسه، فقلت المقتصد منكم، قال عليه السلام العابد للّه تعالى في الحالين حتّى يأتيه اليقين، فقلت من السّابق لكم بالخيرات قال عليه السلام من دعا و اللّه الى سبيل ربّه و أمر بالمعروف و نهى عن المنكر و لم يكن

للمضلّين عضداً و لا للخائنين خصيما و لم يرض بحكم الفاسقين إلاّ من خاف على نفسه و دينه ولم يجد أعواناً.

الأحاديث نقلناها عن تفسير نور الثقلين(١).

أقول الأحاديث الواردة في الباب كثيرة جدّاً و فيما نقلناه كفاية للأولي البصائر و الألباب هذا كلّه مضافاً الى أنّ العقل السليم أيضاً يحكم بأنّ المصطفين الأخيار من عباد اللّه محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و آله الأطهار الّذين أذهب اللّه عنهم الرّجس و طهرهم تطهيراً.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ

الظّاهر أنّ الداخلين فيها السّابق بالخيرات و المقتصد و أمّا الظّالم لنفسه فلا و ذلك لأنّ المذكور في الآية السّابقة، الظّالم، و المقتصد، و السّابق بالخيرات.

أمّا الظّالم فهو خارج عن الفوز و الفضل الكبير قطعاً.

و إن شئت قلت خروجه عن الفضل الكبير تخصّصى لا تخصيصي فالفضل الكبير ثابت للسّابق بالخيرات و المقتصد و قوله تعالى: **جَنَّاتُ عَدْنٍ**، بدل من الفضل الكبير و لذلك، رفع، جنّات، و على هذا فدخول الجنّات أيضاً ثابت للسّابق بالخيرات و المقتصد و هم الّذين يحلّون فيها، يعني يلبسون فيها الحليّ من أساور من ذهبٍ، أساور جمع أسوار، و لؤلؤٍ، فيمن جرّ، و من نصب لؤلؤاً و هو نافعٌ فعلى تقدير و يحلّون فيها لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير، و معنى الكلام أنّ ما يلبسه أهل الجنّة من اللّباس حريرٌ محض.

وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ

١- ج ٤ ص ٣٦١ الى ٦٤

أخبر اللّه تعالى عن حالهم بعد دخولهم الجنَّة و أنّهم يقولون الحمد للّه الّذي أذهب و إرتفع عنّا الحزن و الغمّ، و أنّما قالوا ذلك لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و أيّة نعمةٍ أحسن و أفضل من الجنَّة و ما أعدّ اللّه فيها من النِّعم و قولهم: **إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ**، معناه غفورٌ لذنوب عباده إذا تابوا مجاز لهم على شكرهم لنعمه و قيل أنّ مكافأته لهم على الشّكر لنعمه و القيام بطاعته جرى مجرى أن يشكره لهم و أن كان حقيقة لا يجوز عليه تعالى من حيث كان إعترافاً بالنّعمة و لا يصحّ عليه تعالى أن يكون منعماً عليه.

ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ

ثمّ وصفوا اللّه تعالى بأن قالوا، الّذي أحلّنا، أي أنزلنا، دار **المُقامة** بضّم الميم يعني دار الإقامة و الخلود و اذا فتحت الميم كان المراد موضع القيام، و قوله: **مِنْ فَضْلِهِ** إلى أخر، معناه لا يمسّنا فيها أي في الجنّة نصب، أي تعب و مشّقةٌ و قيل أي وجعٌ و لا يمسّنا فيها لغوب، يعني إعياء و قيل اللغوب العناء و الحاصل أنّ الجنّة دار أمنٍ و أبانٍ من جميع الأفات.

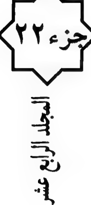

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمٰوٰتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَ مَكْرَ ٱلسَّيِّيءِ وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّيءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ

لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَاتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾

◀ اللّغة

لَا يُقْضَىٰ: القضاء الحكم.

يَصْطَرِخُونَ: الإصطراخ الصّيحة بالإستقامة.

خَلَائِفَ: بفتح الخاء جمع خليفة و خلفاء و جمع خليف قال قتادة معناها خلفاً بعد خلف.

مَقْتًا: المقت البغض و الغضب.

خَسَارًا: أي هلاكاً و ضلالاً و هو من الخسران بضّم الخاء.

مَكْرَ ٱلسَّيِّءِ: المكر الحيلة في الأفعال القبيحة و السَّيئ الشّرك و الباقي واضح لا خفاء فيه.

◀ الإعراب

فَيَمُوتُوا منصوب على جواز النّفي. عَنْهُمْ قائم مقام الفاعل. مِنْ عَذَابِهَا في موضع نصب و كذلك في موضع نصب نعتاً لمصدر. أَنْ تَزُولَا يجوز أن يكون مفعولاً له أي مخالفة أن تزولا. ٱسْتِكْبَارًا مفعول له و كذلك مكر السّئ.

◀ التّفسير

وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَ لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الأيات السّابقة من أحوال الأخرة و ما أعدَّه لأهل الجنّة من أنواع الثّواب أخبر في هذه الآية من حال الكفّار و ما أعدَّ لهم من أليم العذاب.

فقال تعالى: **وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** باللّه و رسوله لهم نار جهنّم عقوبةً على كفرهم بما جاء به النّبي من التّوحيد و النّبوة و المعاد و ما يتعلق بها لا يقضى عليهم فيموتوا، أي لا يقضى عليهم بالموت فيستريحوا بذلك من العذاب و أنّما لا يقضى عليهم بالموت لأنّ الأخرة دار البقاء و القرار فلا موت فيها أبداً و لا زوال لنعمها و عقابها أصلاً فمن كان في الجنّة فهو فيها أبداً و من كان في النّار من الكفّار فكذلك فلا يخفّف من عذابها أي من عذاب النّار كذلك نجزي، يوم القيامة كلّ كفور جاحد لوحدانيّته و مكذّب لأنبيائه.

وَ هُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ

الإصطراخ الصَّيحة بالإستغاثة أي أنّهم يتصايحون بها و أنّما يتصايحون و يستغيثون لشّدة العذاب فيقولون ربّنا أخرجنا نعمل صالحاً، أي أخرجنا من النّار و أرفع عنّا العذاب حتّى نعمل عملاً صالحاً غير ما كنّا فيه و عملنا سابقاً في دار الدّنيا و هو من قبيل قولهم ربّ أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت فيقال لهم كلاّ أنّها كلمةٌ هو قائلها و الّذي يستفاد من الأخبار أنّهم يقولون ذلك من ألم الوجع و أمّا الآية المبحوثة عنها فهي في القيامة بعد دخولهم النّار

أعاذنا اللّه منها و الجامع بين المقامين هو النّدم على ما مضى و من المعلوم أنّه لا ينفعهم أصلاً و هذا ظاهرٌ و لذلك يقال في جوابهم: **أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَ جَاءَكُمُ النَّذِيرُ**، الهَمزة للإنكار أي عمَّرناكم بقدر ما يتذكّر فيه من كان بصدد التذكُّر و جاءكم النَّذير في الدّنيا النّبي و بذلك قد تمَّت الحجّة عليكم فلا عذر لكم تعتذرون به و فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى لا يعذّب العبد يوم القيامة قبل تماميّة الحجّة عليه في الدُّنيا.

نعم لو كان العبد مات قبل التّكليف أو قبل مجئ النَّذير فلا يعذّب لقبح العقاب قبل البيان و أمّا من عمَّر في الدّنيا حتّى صار مكلّفاً و أدرك النَّذير فلا عذر له و يستفاد منه أنّ الحجّة لا تتّم إلاّ بهما أعني الحياة بعد التّكليف و وجود النّذير.

و أمّا الحياة بدون النّذير أو وجود النذير لمن لا حياة له فلا يترتّب عليه العذاب و لذلك قال تعالى: **فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ** أي أنّ العذاب متفرعٌ على المعصية إذا صدرت عن اللمكلّف بسوء سريرته و خبث طينته بغير عذرٍ شرعي أو عقلّي و ما ربّك بظّلامٍ للعبيد.

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ

في هذه الآية إشارة إلى أنّ علمه تعالى كاملٌ شاملٌ لجميع الأشياء ظاهراً و باطناً فلا يخفى عليه شئ ممّا غاب عن جميع الخلائق علمه و أنّه تعالى عليمٌ بذات الصُّدور فإتّقوه و أحذروا أن تضمروا في أنفسكم ما يكرهه اللّه تعالى فأنّه علاّم الغيوب.

و الدلّيل على ذلك من العقل هو أنّه تعالى خالق الأشياء و موجدها من العدم إلى الوجود و علم الخالق بمخلوقه و العلّة بمعلوله ضرّوري و إلاّ يلزم أن لا يكون خالقاً له.

هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا

هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض قال بعض المفسّرين معناه جعلكم معاشر الكفّار أمّةً بعد أمّةٍ و قرناً بعد قرنٍ و هو قول قتادة و به قال القرطبي أيضاً في تفسيره.

و قال الزّمخشري المعنى أنّه جعلكم خلفاء في أرضه قد ملّككم مقاليد التّعرف فيها و سلّطكم على ما فيها و أباح لكم منافعها لتشكروا بالتّوحيد و الطّاعة (فمن كفر) منكم و غمط مثل هذه النّعمة السّنية (فعليه كفره) أي فوبال كفره عليه إنتهى.

أقول ما ذكره الزّمخشري لا بأس به بل هو أولى من قول قتادة من أنّه جعل الكفّار أمّةً بعد أمّةٍ و قرناً بعد قرنٍ، و ذلك لأنّ الظّاهر من الخطاب في قوله، جعلكم، العموم لا خصوص الكفّار فقول قتادة جعلكم معاشر الكفّار كذا و كذا لا دليل عليه بل جميع النّاس من الكفّار و غيرهم كذلك أي جعلهم اللّه أمّة بعد أمّةٍ و قرناً بعد قرنٍ فتخصيص الخطاب بالكفّار يحتاج إلى المخصّص و إذ ليس فليس إذا عرفت هذا فنقول:

قوله تعالى: **هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ** عامّ يشمل جميع أولاد أدم فكأنّه قال هو الّذي جعلكم أي جعل أولاد أدم خلائف في الأرض و لا يبعد أنّه إشارة إلى قوله تعالى: **قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً** و لا ينبغي لمن كان خليفة للّه أن يعصيه و يخالفه بل ينبغي له الطّاعة و الإنقياد لأنّ اللّه تعالى شرّفه و فضّله على جميع خلقه قال في جواب الملائكة حيث: **قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا، إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**، و اذا كان كذلك فالمترّقب منه الطّاعة و أمّا من كفر باللّه، فوبال كفره عليه و فيه إشارة إلى أنّ

اللّه لا يحتاج إلى عبادة العبد و إيمانه لأنّه غنيٌّ بالذّات عن جميع ما عداه فمَن أمن أو كفر به لا ينفعه يضُّره لعدم إحتياجه فنفع الإيمان يرجع إلى المؤمن كما أنّ وبال الكفر على الكفار.

قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام في خطبة المتّقين:

اَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ اللّٰهَ سُبْحَانَهُ خَلَقَ الْخَلْقَ حِيْنَ خَلَقَهُمْ غَنِيّاً عَنْ طَاعَتِهِمْ آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ لِأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ الخ.

فقوله تعالىٰ: **فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ**، إشارة إلى عدم إحتياجه و إستغنائه عن طاعة العبد ثمّ قال تعالى: **وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَ لَا يَزِيدُ ٱلْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا** معناه أنّ كفرهم يوجب المقت و هو أشدَّ البغض و أيضاً يوجب الخسران و بعبارةٍ أخرى يتَّرتب على الكفر أمران:

أحدهما: المقت و هو شدّة البغض عند اللّه.

ثانيهما: الخسران بدخولهم النّار بدلاً من الجنّة.

و من المعلوم أنّ كلا الأمرين بضرر العبد و العاقل لا يفعل ذلك.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا

الخطاب للنّبي صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم أي قل يا محمّد لهؤلاء الكفّار أريأتم شركائكم الّذين تدعون من دون اللّه، و هى الأوثان و الأصنام، و قيل معناه شركائكم الذّين أشركتموهم في العبادة مع اللّه **أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ ٱلْأَرْضِ** من أصناف المخلوقات **أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمٰوَاتِ** أي في خلق السّموات على وجه المعاونة للّه تعالى **أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ** و المعنى أعطيناهم

كتاباً أمرناهم فيه بما يفعلونه حتّى يكونوا على بيّنةٍ منه، كلّ ذلك لم يكن فأنّ جميع ذلك محال لا يمكنهم إدّعاء شيءٍ منه، و اذا كان الأمر على هذا المنوال فكيف أخذتموها شركاء للّه تعالى و محصلّ الكلام في الآية أنّ المعبود ينبغي أن يكون قادراً و من لا يقدر على شيءٍ لا يكون معبوداً لأنّه لا يضرّ و لا ينفع.

وقوله: **بَلْ إِنْ يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا** كلمة، إن، نافية أي لا يعد الظّالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً، أي يغترّ بعضهم ببعضٍ لجهلهم و حماقتهم.

إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا

في هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى قدرته و عجز المخلوق كائناً من كان، فقال إنّ اللّه تعالى يمسك السّموات و الأرض، أي أنّ اللّه يحفظ السّموات عن السّقوط و يحفظ الأرض عن التّزلزل و الإضطراب و بعبارةٍ أخرى منعهما من أن تزولا عن مواضعهما مع أنّه لا عمد لهما، و لئن زالتا عن مواضعهما، قيل معنى، لئن، لو، و يوضع كلّ واحدٍ منهما مكان الأخر لأنّهما يحابان بجوابٍ واحد فالتّقدير و لو زالتا عن مواضعهما، **إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِۦٓ**، أي ليس يسكنهما أحد إذ لا يقدر عليه أحد بعد اللّه **إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا** و ذلك لأنّ من لا يقدر لا يكون حليماً و لا غفورًا لأنّ من ليس بقادرٍ لا يصحّ أن يعاقب فلا يحلم، و لا يصحّ أن يغفر، فليس غفوراً و الحاصل أنّهما من شئون القدرة و الغفور الكثير الغفران لذنوب عباده بالتّوبة و بالتّفضل لمن يشاء.

وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن هؤلاء الكفّار أنّهم أقسموا باللّه يعني حلفوا به، جهد أيمانهم قيل معناه غاية وسعهم و طاقتهم أن جاءهم نذيرٌ، من

عند اللّه، ليكوننّ هؤلاء، أهدى، أي أسرع قبولاً إليه، من إحدى الأمم الماضية فلمّا جاءهم نذير، من عند اللّه و هو النّبي، ما زادهم إلاّ نفوراً، من الحقّ و هرباً منه، ففي الآية إشارة إلى نفاقهم مضافاً إلى كفرهم و عنادهم و ذلك لأنّ المنافق يقول بلسانه ما ليس في قلبه و هؤلاء المقسمين كذلك يقولون بألسنتهم لو جاءنا نذير نتَّبعه و نطيعه فلمّا جاءهم نذير فرّوا منه فرار الذّئب من الأسد قيل الآية نزلت في مشركي قريشٍ فأنّهم كانوا كذلك و لمّا جاءهم الرّسول و هو نبّي الإسلام أنكروا نبوّته و رسالته و حملوا معجزاته على السِّحر و كتابه أعني به القرأن على أساطير الأوّلين و نسبوه بالجنون و الكذب و لا نعني بالنّفاق و العناد إلاّ هذا و ليس هذا من خصائص الكفّار فقط بل هو من الأمراض السّارية في جميع الطبقات و أصناف النّاس فأنّ النّاس عبيد الدُّنيا و من كان كذلك لا عهد له.

ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَ مَكْرَ ٱلسَّيِّىِٕ وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَ لَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا

قوله: **ٱسْتِكْبَارًا**، قيل أنّه بدل من قوله: **نُفُورًا**، و قيل أنّه مفعول له على معنى فما زادهم إلاّ أن نفروا إستكباراً و علوّاً، في الأرض و قيل أنّه حال بمعنىٰ مستكبرين:

فَعلىٰ الأوّل: نصب على البدليّة.

علىٰ الثّانى: على المفعوليّة.

علىٰ الثّالث: على الحاليّة.

لكلّ واحدٍ منها وجهٌ وجيه و المعنى أنّ نفورهم و إعراضهم عن الحَق لأجل إستكبارهم في الأرض و مكر السّيئ، قيل في معناه، أي حيلة الأفعال القبيحة و المعاصي لأنّهم قصدوا بذلك الفرار من إتّباع محمّد و الإيمان به، و السيّئ الشّرك في قول قتادة، و قرأ عبد اللّه بن مسعود، و مكراً سيّئاً.

أقول ما قاله قتادة في معنى ٱلسَّيِّىء لا تساعده اللُّغة و لا العرف فأنّ ٱلسَّيِّىء ضدّ الحسن يقال سيّئات الأعمال و حسناتها، و إن شئت قلت كلّما حكم العقل بحسنه فهو حسن و ما حكم بقبحه فهو قبيحٌ و سَّيِّىء و على هذا فالمكر ٱلسَّيِّىء معناه مكر القبيح، أن قلت ما معنى مكر القبيح و كلّ مكرٍ قبيحٌ.

قلت للقبيح مراتب شدّةً و ضعفاً و كمالاً و نقصاً و أعلى مراتب القبح في المكر، هو المكر في الدّين و هو المكر ٱلسَّيِّىء لأنّه يوجب إضلال النّاس و سوقهم الى الكفر و أمّا المكر الّذي أوجب إرشاد الغير و خروجه عن الكفر و دخوله في الدّين فهو ممدوحٌ و حيث أنّ هؤلاء الكفّار المشار إليهم في الآية مكروا في الدّين و ضلُّوا و أضّلوا فعبّر عن مكرهم بالسَّيِّىء و من المعلوم أنّ حمل الآية على ظاهرها أولى و أحسن.

أمّا قوله تعالىٰ: **وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ** فقالوا في مَعناه أي لا ينزل بأحدٍ جزاء المكر ٱلسَّيِّىء إلاّ بمن فعله و بعبارةٍ أخرى يرجع وباله إليه.

و قال الزّمخشري و يجوز أن يكون و مكر ٱلسَّيِّىء معطوفاً على نفوراً، فأن قلت فما وجه قوله: **وَ مَكْرَ ٱلسَّيِّىءِ**.

قلت أصله و إن مكروا ٱلسَّيِّىء إلى آخر ما قال و أنت ترى فهم الكلام لا يحتاج إلى هذه التكلُّفات الّتي هي أشبه شئ بالأكل من القفا و ذلك لأنّ الكلام لا خفاء فيه فقوله: **وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ**، معناه لا يُحيط وباله إلاّ بأهله أي بالماكر إذ لا تزر وازرةٌ وزر أخرى فمن حفر بئراً لأخيه وقع فيه و العجب من المفسّرين أنّهم لم يتفطنوا أنّ تقييد المكر في الآية بالسَّيِّىء دليل على أنّ المكر المذموم هو المكر المقيّد بكونه سيّئاً لا مطلق المكر فما.

نقله صاحب الكشّاف في تفسيره و تبعه عنّي واحدٍ من المفسّرين عن النّبى صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنّه قال:

و لا تمكروا و لا تعينوا ماكراً فأنّ اللّه يقول: وَ لَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّىءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ.

فهو على فرض صحته يحمل على المكر المُقيد كما هو مقتضى القاعدة لا مطلق المكر ضرورة أنّ المكر مع الكافر الحربي ممدوحٌ لا إشكال فيه و هكذا المكر الّذي صار باعثاً على إرشاد الغير و إخراجه من الضّلالة أو حفظ ماله و عرضه و نفسه و إن كان مسلماً مؤمناً و ملَّخص الكلام أنّ المكر المذموم في الشّرع و العقل هو المكر الّذي أوجب الإضرار على الغير في دينه و دنياه، و هو المكر ٱلسَّيِّىء الّذي يحكم العقل و الشَّرع بقبحه و الآية ناظرة إليه و أمّا المكر الَّذي أوجب الإحسان في الدّين و الدّنيا فلا ذمَّ فيه بل هو ممدوحٌ و قد يكون واجباً.

أمّا قوله: **وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا** ففيه إشارة إلى أنّ سنَّة اللّه جرت في حَّق الماكر ٱلسَّيِّىء بالعقاب في الدّنيا و الآخرة و إليه الإشارة.

بقوله: **فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ** أي هل ينظرون سنَّتهم من نزول العذاب بهم و حلول النِّقمة عليهم جزاءاً على كفرهم و مكرهم فأن كانوا ينتظرون ذلك فلن تجد يا محمّد لسنَّة اللّه تبديلاً، أي لا يغيّر اللّه عادته من عقوبة من يستحقّ العقوبة **وَ لَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا** أي تصييراً للشّئ في غير المكان الّذي كان فيه و التَّغيير تصير الشّئ على خلاف ما كان و التَّبديل، تصيير الشّئ مكان غيره، هكذا قيل في تفسير الآية ولنا في المقام كلامٌ.

و هو أنّهم فسّروا قوله: **يَنْظُرُونَ** بقولهم ينتظرون فقالوا (فهل ينظرون) أي فهل ينتظرون إلاّ سنَّة الأوّلين من نزول العذاب بهم، إلى آخر ما قالوا المعلوم أنّ النَّظر غير الإنتظار و الفرق بينهما أنّ النَّظر هو رؤية الشّئ بحاسّة العين بالفعل و الإنتظار هو النَّظر بالقُّوة في المستقبل فإذا قيل فلان ينظر معناه ينظر بالفعل أعني به حال التَّكلم و اذا قيل فلن ينتظر معناه أنّه يرجوا النَّظر في المستقبل و تفسير ما بالفعل بما هو بالقُّوة لا يكون صحيحاً إلاّ بضربٍ من المجاز إن قلنا بصحتّه.

قال الرّاغب في المفردات، النَّظر تقليب البصر و البصيرة لإدراك الشّئ و رؤيته و قد يراد به التأمُّل و الفحص و قد يراد به المعرفة الحاصلة بعد الفحص و هو الرُّؤية يقال نظرت فلم تنظر أي لم تتأمّل و لم تترو إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ تفسير، ينظرون، بقولهم هل ينتظرون لا معنى له و الأحسن أن يكون اللّفظ بحاله إلاّ أنّ النّظر يراد به البصيرة لإدراك الشّئ لا تقليب البصر و على هذا فالمعنى هل يدركون أو هل يتّأملون غير سنّة الأوّلين من نزول العقاب و النّقمة على الماكرين، فلن تجد لسنّة اللّه تبديلاً تغييراً أي كما فعلنا بالأوّلين من نزول العذاب نفعل بهم أيضاً، نعم إستعمال النَّظر في البصر أكثر عند العامّة و في البصيرة أكثر عند الخاصّة:

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**[١].

أي أفلا يتّأملون في خلقة الإبل:

قال اللّه تعالىٰ: **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ**[٢].

أي فهل يتّأملون غير السّاعة و أمثال هذه الأيات كثيرة.

و الحاصل أنّ النّظر في المقام معناه التّأمل و التّعمق لا تقليب البصر لا الإنتظار فتفسير النّظر بالانتظار لا معنى له هذا ما فهمناه منه و اللّه أعلم.

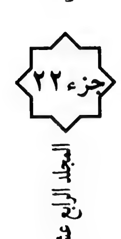

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا

النَّظر في هذه الآية أيضاً معناه التأمُّل و التدبُّر لا تقليب البصر و الهَمزة للإستفهام على سبيل الإنكار أو التّوبيخ و التّقريع، و المعنى أو لم يسيروا في

١- الغاشية = ١٧
٢- الزّخرف = ٦٦

الأرض فيتأملوا كيف كان عاقبة الكفّار من قبلهم و الحال أنّهم كانوا أشدَّ قوّةً و ليس اللّه بعاجزٍ بل هو على كلّ شيءٍ قدير فلا يقدر أحد على منعه عمّا أراد و شاء و قد مرَّ الكلام في العبر و الإعتبار في تضاعيف الأيات.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام:

اَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَاَبْنَاءُ الْعَمَالِقَةِ!اَيْنَ الْفَرَاعِنَةِ وَاَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ اَيْنَ اَصْحَابُ مَدَائِنِ الرَّسِّ الَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ وَاَطْفَاؤُا سُنَنَ الْمُرْسَلِينَ وَاَحْيَوا سُنَنَ الْجَبَّارِينَ! إلىٰ أخر ما قال.

و قد أشار اللّه تعالى إلى ذلك في كثيرٍ من الأيات و من أصدق من اللّه قيلاً:

قال اللّه تعالى: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا**(٢).

قال اللّه تعالى: **وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ**(٣) والأيات كثيرة.

و قوله: **إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا**، إشارة إلى أنّه عالم بكلّ شيءٍ و قادرٌ علىٰ كلّ شيءٍ و هو واضح و الدلّيل على المدّعى من العقل أنّ الجهل و الضعف من صفات المخلوق و الواجب منزّهٌ عن النّقائص الإمكانيّة و هو ثابتٌ عقلاً و نقلاً و في تقديم العلم على القدرة نكتةٍ خفيّة و هى أنّ القدرة في حقّه تعالى متفرّعة على علمه بالمصالح و المفاسد بخلاف القدرة في المخلوق فأنّها لا تكون ناشئة عن العلم بالمصلحة غالباً و لذلك قد تصير مذموماً.

وَ لَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَ لَٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا

١- الأنعام = ٦
٢- يُونس = ١٣
٣- الإسراء = ١٧

أخبر اللّٰه تعالى في هذه الآية عن علّة تأخير العذاب فهي في الحقيقة جواب عن سؤالٍ مقدَّر و هو أنّ اللّٰه تعالى لو أهلك الماضيين بسبب كفرهم و ظلمهم كما أشار إليه في الآية السّابقة فلم لم يعذّب الكفّار و المشركين الجاحدين بنبّوة محمّد ﷺ فقال تعالى في الجواب أنّ الأمور مرهونة بأوقاتها فأنّ في الإمهال مصلحة لا يعلمها إلاّ اللّٰه و منها أنّه تعالى لو يؤاخذ النّاس بما كسبوا من قبائح الأفعال من غير إمهالٍ لزم أن لا يبقى على وجه الأرض من دابّةٍ يدُّب عليها و هو خلاف المصلحة التّي إقتضت خلق الأرض و ما عليها من الموجودات و لكن يؤخّرهم إلى أجلٍ، يعني إلى الوقت المعلوم عند اللّٰه و هو الوقت الّذي قدَّره لتعذيبهم، فإذا جاء أجلهم يعني الوقت المقدّر فأنّ اللّٰه كان بعباده بصيراً، فيجازي كلّ إنسانٍ على قدر فعله من طاعةٍ أو معصيةٍ في الدّنيا و في الأخرة.

■

سُورة يٰس

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يٰسٓ ﴿١﴾ وَ ٱلْقُرْاٰنِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلٰى صِرٰاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنْزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنْذِرَ قَوْمًا مٰآ أُنْذِرَ اٰبٰآؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلٰىٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لٰا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنّٰا جَعَلْنٰا فِىٓ أَعْنٰاقِهِمْ أَغْلٰالًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقٰانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لٰا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَ سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لٰا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمٰا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَ خَشِىَ ٱلرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنّٰا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتٰى وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ اٰثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِىٓ إِمٰامٍ مُبِينٍ ﴿١٢﴾ وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحٰابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جٰآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمٰا فَعَزَّزْنٰا بِثٰالِثٍ فَقٰالُوٓا إِنّٰآ إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قٰالُوا مٰآ أَنْتُمْ إِلّٰا بَشَرٌ مِثْلُنٰا

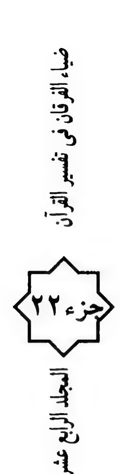

وَ مٰآ أَنْزَلَ ٱلرَّحْمٰنُ مِنْ شَىْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلّٰا تَكْذِبُونَ ﴿۱۵﴾ قٰالُوا رَبُّنٰا يَعْلَمُ إِنّٰآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿۱۶﴾ وَ مٰا عَلَيْنٰآ إِلَّا ٱلْبَلٰاغُ ٱلْمُبِينُ ﴿۱۷﴾ قٰالُوٓا إِنّٰا تَطَيَّرْنٰا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنّٰا عَذٰابٌ أَلِيمٌ ﴿۱۸﴾ قٰالُوا طٰآئِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ ﴿۱۹﴾ وَ جٰآءَ مِنْ أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعٰى قٰالَ يٰا قَوْمِ ٱتَّبِعُوا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿۲۰﴾ ٱتَّبِعُوا مَنْ لٰا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ ﴿۲۱﴾ وَ مٰا لِيَ لٰآ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿۲۲﴾ ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِٓ اٰلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لٰا تُغْنِ عَنِّى شَفٰاعَتُهُمْ شَيْئًا وَ لٰا يُنْقِذُونِ ﴿۲۳﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَفِي ضَلٰالٍ مُبِينٍ ﴿۲۴﴾ إِنِّىٓ اٰمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴿۲۵﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قٰالَ يٰا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿۲۶﴾ بِمٰا غَفَرَ لِي رَبِّى وَ جَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿۲۷﴾

◄ اللّغة

أَغْلٰالًا: جمع غلّ بضّم الغين.

ٱلْأَذْقٰان: جمع ذقن و هو مجمع اللّحيين.

مُقْمَحُونَ: القمح الغاضّ بصره بعد رفع رأسه.

فَأَغْشَيْنٰاهُمْ: الغشاء السّتر.

تَطَيَّرْنٰا: التّطير التّشاؤم.

◀ الإعراب

عَلٰى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ خبر ثانٍ لأنّ و يجوز أن يكون حالاً من الضّمير في الجارّ. تَنْزِيلَ ٱلْعَزِيزِ أي هو تنزيل العزيز و المصدر بمعنى المفعول أي منزّل العزيز. فَأَغْشَيْنٰاهُمْ بحذف المضاف أي أغشينا و أضعفنا بصائرهم عن إدراك الهدى. وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحٰابَ ٱلْقَرْيَةِ أصحاب مفعول أوّل، و مثلاً مفعول ثانٍ. لاٰ تُغْنِ عَنِّي هو جواب الشّرط. بِمٰا غَفَرَ لِي ما، مصدريّة، و قيل موصولة و قيل إستفهاميّة و لكلٍ منها وجهٌ وجيه.

◀ التّفسير

يٰسٓ، وَ ٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، عَلٰى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ

قد مرَّ الكلام غير مرّةٍ في الحروف المقطّعة في أوائل السُّور و قلنا أنّها من المتشابهات و لا يعلم تفسيرها **إِلَّا ٱللّٰهُ وَ ٱلرّٰاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ**(١) و المشهور عند المفسّرين أنّها أسماء للسُّور و قيل أنّها أسماء القرأن و قيل أنّها حروف إذا جمعت أنبأت عن إسم اللّه الأعظم و غير ذلك من الأقوال.

أقول ما ذكروه لا بأس به فيما إذا لم تكن هناك قرينة حاليّة أو مقاليّة على إرادة شخصٍ خاصّ و أمّا عند وجود القرينة فلا يمكن القول بالإبهام و الإجمال فيها بل تحمل على ما دلَّت عليه القرينة و على هذا فالحروف على قسمين، مبهمة و مبيَّنة.

فالأوّل: مثل قوله تعالى: أَلٓمٓ، أَلٓمٓرٰا، طٰسٓ و أمثال ذلك.

الثّاني: مثل قوله: **يٰسٓ** و: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ** و: **يٰٓا أَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ**و أمثالها.

بعبارةٍ أخرى كلّ حرفٍ منها وقع منادى فهو من المبيّن و إلاّ فهو مبهمٌ مجمل أن لم تكن هناك قرينة تدّل على التّعيين إذا عرفت هذا فنقول:

١-آل عمران = ٧

يٰسٓ من أسماء رسول اللّه و المراد به في المقام ليس إلاّ الرّسول و لا إبهام فيه أصلاً.

أمّا أوّلاً: فلوجود القرينة و هى القرأن، كاف الخطاب و من المعلوم أنّ القرأن منّزلٌ عليه صلى الله عليه وآله وسلم و هكذا كاف الخطاب إذ المخاطب بها هو الرّسول لا غيره.

ثانياً: أنّ المنادى لا يكون من غير ذوي العقول و هو المرسل من عند اللّه بدليل الخطاب و هو لا يكون إلاّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم و يؤيّده ما عن الصّادق عليه السلام:

أنّه قال، يٰس، إسم رسول اللّه و قد روي ذلك عن أميرالمؤمنين و علي بن موسى الرّضا و غيرهم من الأئمة.

و كيف كان فهو المنادى بالياء و المعنى يا مُحمّد.

و قوله: **وَ ٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ** فالواو للقسم و القرأن إسم للكتاب المنزل عليه قيل وصفه بأنّه حكيم من حيث أنّ فيه الحكمة فصار ذلك بمنزلة النّاطق به للبيان عن الحقّ الّذي يعمل به.

و قال القرطبي أقسم بالقرأن المحكم أنّ محمّداً من المرسلين و الحكيم المحكم حتّى لا يتّعرض لبطلان و تناقض كما قال تعالى: **أُحْكِمَتْ ءَايٰتُهُ**[1] و كذلك أحكم في نظمه و معانيه فلا يلحقه خلل إنتهى.

و قال صاحب الكشّاف، الحكيم ذو الحكمة أو لأنّه دليل ناطق بالحكمة كالحيّ أو لأنّه كلام حكيم فوصف بصفة المتكلّم به.

إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ أي أقسم بالقرأن الحكيم إنّك يامحمّد من المرسلين الّذين أرسلهم اللّه إلى عباده و قلنا سابقاً أنّ الرّسول صاحب شريعةٍ مستقلّةٍ و كتاب بخلاف النّبي فأنّه تابعٌ للرّسول كأنبياء بني إسرائيل و قد تجمع النّبوة و الرّسالة في شخصٍ واحدٍ فكلّ رسولٍ نبّي و لا عكس.

عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ و هو طريق الحقّ المستقيم الّذي لا عوج فيه و

۱- هود = ۱

يؤدّي إلى الجنّة و قد مرَّ الكلام في معناه في سورة الحمد عند قوله: **اَهْدِنَا اَلصِّراطَ اَلْمُسْتَقِيمَ**.

تَنْزِيلَ اَلْعَزِيزِ اَلرَّحِيمِ، لِتُنْذِرَ قَوْمًا مٰآ أُنْذِرَ اٰبٰآؤُهُمْ فَهُمْ غٰافِلُونَ

قرئ التَّنزيل بالرّفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف أي هو تنزيل العزيز، و بالنَّصب على أنّه مصدر أي نزّل تنزيلاً أو بتقدير، أعني، و بالجرّ على أنّه صفة للقرأن أو بدلٌ منه.

و قال بعضهم المصدر بمعنى المفعول أي منَّزل العزيز الرّحيم و على أيّ التّقادير المراد به القرأن سمّي بالتَّنزيل لكونه منزلاً من عند اللّه على سيّد البشر و اللّه تعالى هو العزيز الرَّحيم.

قوله: **لِتُنْذِرَ قَوْمًا**، اللاّم للغاية أي نزل القرأن لأجل الإنذار و المراد بالقوم قيل هو قوم قريش و قوله: **مٰآ أُنْذِرَ اٰبٰآؤُهُمْ** في، ما، وجوهٌ:

أحدها: أنّها نافية.

الثّاني: أنّها موصولة.

الثّالث: هي نكرة موصوفة.

الرّابع: أنّها زائدة.

فعلىٰ الأوّل: معنى الكلام لتنذر قوماً لم ينذر أباؤهم قبلهم يعني في زمان الفترة بين عيسى عليه السلام و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

علىٰ الثّاني: معناه لتنذر قوماً مثل الّذي أنذر أباؤهم.

علىٰ الثّالث: معناه لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير.

أمّا القول الرّابع: فلا وجه له إذ لا معنى للزّيادة في القرأن.

و في المقام قول خامس: هو أن تكون مصدريّة و عليه فالمعنى لتنذر قوماً إنذار أبائهم و الّذي يقوّي في نفسي من الوجوه المذكورة هو كونها مصدريّة كما لا يخفى حسنه على المتأمّل.

لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

أي وجب عليهم الوعيد و ثبت، فأنّ المراد بالقول الوعيد الّذي أوعد اللّه الكفّار به و الحقّ الثّبوت و الوجوب و المقصود أنّهم لا يؤمنون باللّه و رسوله فقد تمّت الحجّة عليهم و قد سبق في علم اللّه ذلك فهم يستحقّون العذاب و أنّما قال أكثرهم، لأنّ منهم من ليس كذلك و مثله قوله تعالى: **وَ يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَافِرِينَ**[1].

إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ

الأعناق جمع عنق و الأغلال جمع غلّ و الأذقان جمع ذقن، **مُقمَحُون** بضّم ميم و فتح الثّاني مفعول من، أقمح إقماحاً و القمح في الأصل الغاضّ بصره بعد رفع رأسه و قيل هو المقنع و هو الّذي يجذب ذقنه حتّى تصير في صدره ثمّ يرفع و القمح من هذا و هو رفع الشّيئ إلى الفم و البعير القامح الّذي إذا أورده الماء في الشّتاء رفع رأسه و شال به نصباً لشدّة البرد و قيل معناه قد رفعوا رؤوسهم و شخصوا بأبصارهم ذكره مجاهد و قيل مثل تصميمهم على الكفر و أنّهم لا يرعوون و لا يرجعون بأن جعلهم كالمغلولين المقمحين في أنّهم لا يلتفتون إلى الحقّ و لا يعطفون أعناقهم نحوه و لا يطأطئون رؤوسهم له و هم كالحاصلين بين سدّين لا يبصرون ما قدّامهم و لا ما خلفهم و أن لا تأمّل لهم تبصُّر.

قال صاحب الكشّاف فأن قلت ما معنى قوله فهي إلى الأذقان.

قلت معناه فالأغلال واصلة إلى الأذقان ملزوزةٌ إليها و ذلك أنّ طوق الغلّ الّذي في عنق المغلول يكون ملتقى طرفيه تحت الذّقن حلقة فيها رأس العمود نادراً من الحلقة إلى الذّقن فلا تخليه يطأطئ رأسه و يوطئ قذاله فلا يزال مقمحاً و المقمح الّذي يرفع رأسه و يغضّ بصره إنتهى.

١- يٰس = ٧٠

أقول ما ذكروه في تفسير ألفاظ الآية حقّ لا مرية فيه فأنّ المغلول لا يقدر على الإلتفات يميناً و شمالاً و هذا حال الكفّار في جهنّم أعاذنا اللّه منه.

وَ جَعَلْنٰا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ، وَ سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاٰ يُؤْمِنُونَ

السَّد بفتح السّين الحاجز المانع، أخبر اللّه في هذه الآية عن حال الكفّار الّذين أرادوا قتل النّبي بأنّ اللّه منعهم عن ذلك بأن جعل بينهم و بين النّبي حاجزاً مانعاً من رؤيتهم أيّاه، قيل نزلت الآية في أبي جهل لأنّه همّ بقتل النّبي صَلَّى اللّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فكان إذا خرج باللّيل لا يراه و يحول اللّه بينه و بينه، و قيل أنّ أبا جهل حلف لئن رأى محمّداً يصلّي ليرضخنّ رأسه فأتاه و هو يصلّي و معه حجرٌ ليدفعه به فلمّا رفع يده أثبت الى عنقه و لزق الحجر بيده حتّى فكّوه عنها بجهدٍ فرجع الى قومه فأخبرهم فقال مخزّوميٌ آخر أنا أقتله بهذا الحجر فذهب فأعمى اللّه عينيه.

أقول فعلى هذا كان جعل الغلّ في أعناقهم في الدُّنيا لمّا همُّوا بقتل النّبي و جعل اللّه بينهم و بين الرّسول سدّاً أي حاجزاً مانعاً من رؤيتهم أيّاه كما قال: **فَأَغْشَيْنٰاهُمْ فَهُمْ لاٰ يُبْصِرُونَ**، أي فأغشينا أبصارهم أي غطّيناها و جعلنا عليها غشاوة، و قرأ بالعين المهملة من العشاء و هو ما يلحق من ضعف البصر و المآل واحد.

و قوله: **وَ سَوٰآءٌ عَلَيْهِمْ** الى آخر آيه فيه إشارة الى جبث ذاتهم و قبح سريرتهم و من كان كذلك فلا يؤثّر فيه الإنذار لعدم قابليّته فالانذار و عدمه فيه على حدٍّ سواء، والوجه فيه أنّ من شرائط تأثير العلّة في المعلول إستعداد المعلوم و قابليّته للتأثر ألا ترى أنّ النّار لا تحرق الحجر و هذه القاعدة جارية في جميع العلل و المعلولات و حيث أنّ الكافر المعاند للحقّ غير مستعدٍ لقبول الإنذار فلا يؤثّر الإنذار فيه، و بهذه الآية و أمثالها تمسّك القائلون بالجبر مضى الكلام فيها في سورة البقرة عند قوله:

سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لا يُؤْمِنُونَ[١].

فلا نعيد الكلام فيها حذراً من الإطالة و الّذي نقول في المقام هو أنّ اللّه تعالى لم يخلق الكافر كذلك حتّى لزم الجبر و أنّما منعه عن قبول الحقّ عناده و لجاجه و هو أمرٌ عارضٌ عليه بسبب المعاصي و عدم الإلتفات و التفكُّر في عاقبة أمره فكلّ إنسانٍ بحسب فطرته الأوليّة مستعدٌّ و قابل لقبول الحقّ لولا الموانع العارضة الطّارية عليه من خارج ذاته و العقل يحكم بأنّ الإنسان مختار في قبول الحقّ و عدمه على ما مرَّ تفصيله فيما مضىٰ.

إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِيَ ٱلرَّحْمٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ

بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية من ينتفع بالإنذار فقال مخاطباً لنبيّه، أنمّا تنذر يا محمّد من إتبّع الذّكر قيل المراد به القرآن.

و خشي الرّحمٰن بالغيب أي خاف إرتكاب معاصيه في غيبه من النّاس، و قيل خشي الرّحمن فيما غاب عنه من الأخرة و أمرها.

أقول كلمة، أنّما، تفيد الحصر أي أنّ الإنذار و الإنتفاع به منحصرٌ في هذين الصِّنفين من النّاس.

أحدهما: من إتَّبع الذّكر.

الثّاني: من خشي الرّحمن بالغيب، فمفهوم الآية أنّ من لا يتّبع الذّكريخشى الرّحمن بالغيب لا يفيده الإنذار إذا عرفت هذا.

فنقول ما ذكروه في تفسير الآية لا يرجع الى محصل، أمّا أوّلاً، فلأنّه مستلزمٌ للدور و ذلك لأنّ متابعة الذّكر أعني به القرآن و خشية الرّحمن بالغيب، لا تحصل للإنسان إلاّ بعد قبوله الإنذار و تأثيره فيه فلو كان الإنذار حاصلاً بهما يلزم الدور.

١- البقرة = ٦

توضيحه إجمالاً أنّ كلمة، أنـمّا، تـفيد الحـصر أي حـصر الإنـذار أو حـصر الإنتفاع به في هذين الوصفين أعني بهما متابعة القرآن و الخشية مـن الرّحـمن بالغيب و معنى الحصر أنّ الإنذار لغير من إتَّصف بهما لا يحصل أو لا نفع فيه فحصول النّفع في الإنذار موقوف على متابعة القرآن و الخشية.

و من المعلوم المسلّم عند العقل أنّ متابعة القرآن و الخشـية مـوقوفٌ عـلى الإنذار و الإنتفاع به إذ لو لم ينتفع بالإنذار كيف يتّبع الذّكر و يـخشى اللّـه و لا نعني بالدور إلاّ هذا و معنى الدَّور توقّف الشّئ على نفسه هذا مع أنّـه لا دليـل على أنّ المراد بالذّكر هو القرآن نعم قد يطلق الذّكر على القرآن كما يطلق على غيره.

قال الرّاغب في المفردات الذّكر تارةً يقال و يراد به هيئةٌ للنّفس بها يـمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو كالحفظ إلاّ أنّ الحفظ يقال إعتباراً بإحرازه و الذِّكر يقال إعتباراً بإستحضاره، و تارةً يقال لحضور الشّئ للـقلب أو القول و لذلك قيل الذِّكر ذكران:

ذكرٌ بالقلب، و ذكرٌ باللّسان و كلّ واحدٍ منهما ضربان ذكرٌ عن نسيان و ذكرٌ لا عن نسيان بل عن إدامة الحفظ و كلّ قولٍ يقال له ذكرٌ فمن القول باللّسان الّذي يسمّى بالذّكر:

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ**[١].

و قد يقال و يراد به الشَّرف و منه.

قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَ لِقَوْمِكَ وَ سَوْفَ تُسْئَلُونَ**[٢].

أي شرفٌ لك و لقومك و قد يقال و يراد به الكتب المتقدّمة و منه.

قال اللّه تعالى: **قَدْ أَنْزَلَ ٱللّٰهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا، رَسُولاً**[٣].

قال اللّه تعالى: **لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ**[٤].

١- الأنبياء = ١٠ ٢- الزّخرف = ۴۴
٣- الطّلاق = ١٠ ۴- الصّافات = ١۶٨

فقوله تعالى: **ذِكْرًا، رَسُولًا**، فالذّكر هاهنا وصف للنّبي صلى الله عليه وآله وسلم كما أنّ الكلمة وصفٌ لعيسى عليه السلام من حيث أنّه بشّر به في الكتب المتقدّمة فيكون قوله رسولاً بدلاً منه.

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ كَتَبْنَا فِى الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ**[1].

و أمثال ذلك من الاطلاقات كثيرة فتخصيص الذّكر بالقرآن و حمل اللّفظ عليه يحتاج الى دليل و على هذا فقوله تعالى في المقام: **إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ** يحتمل أن يكون المراد بالذّكر هو الرّسول نفسه، أو الكتب المتقدّمة الّتي بشّرت به صلى الله عليه وآله وسلم أو غيرهما ممّا يطلق عليه الذّكر مع مراعاة المناسبة و الأنسب أن يراد به الكتب المتقدّمة كالتّوراة و الإنجيل و عليه فمعنى الآية أنّما تنذر يا محمّد من إتّبع الكتب المتقدّمة و البشارات الّتي فيها و أنّما قلنا هو أنسب لأنّ علماء اليهود و النّصارى كانوا عالمين بما في كتبهم و أكثر المشركين سمعوا منهم ما دوّن فيها و من المعلوم أنّ الإنذار يؤثّر فيهم في الأغلب و أمّا المشركون الّذين لا علم لهم به فلا ينفع الإنذار فيهم و هكذا الكلام في قوله: **وَ خَشِيَ الرَّحْمٰنَ بِالْغَيْبِ**، و حاصل الكلام يستفاد من الآية أنّها نزلت في أهل الكتاب لأنّهم كانوا أقرب بقبول الإنذار و الخشية من الرّحمن من غيرهم من عبدة الأصنام و الأوثان و غيرهم من فرق الكفّار و اللّه أعلم بما أراد.

إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتٰى وَ نَكْتُبُ مٰا قَدَّمُوا وَ آثٰارَهُمْ وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه يحيي الموتى يوم البعث و يكتب ما قدّموا من الطّاعات و العبادات و الخيرات و هكذا آثارهم الّتي تبقى بعدهم و يقتدى بهم فيها، في اللّوح المحفوظ.

فقوله تعالى: **وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِي إِمٰامٍ مُبِينٍ** معناه أنّ جميع

١- الأنبياء = ١٠٥

الأشياء محفوظة هناك و إختلفوا في قوله: **إِمٰامٍ مُبِينٍ**، فمنهم من قال هو الكتاب المقتدى به الّذي هو حجّةٌ على جميع النّاس.

و قيل المراد به اللّوح المحفوظ، و قيل صحائف الأعمال.

أقول قال الرّاغب في المفردات الإمام المؤتّم به إنساناً كان يقتدي بقوله أو فعله أو غير ذلك محقّاً كان أو مبطلاً و جمعه أئمة إنتهى.

و قال في المجمع الإمام من يأتّم به النّاس فيتّبعونه و يأخذون منه لأنّ النّاس يؤمّون أفعاله أي يقصدونها فيتبعونها إنتهى.

و هذا ممّا لا خلاف فيه بحسب اللّغة و أمّا في الإصطلاح فالإمام هو الإنسان الّذي يؤتّم به من نبّي أو وصّي أو إنسان آخر، فقولهم المراد بالإمام اللّوح المحفوظ أو صحائف الأعمال أو الكتاب المقتدى به، لا نفهم معناه.

أمّا اللّوح المحفوظ و صحائف الأعمال فلا يقتدى بهما و لا يؤتمّ بهما إذ لا معنى لإقتداء النّاس بصحائف أعمالهم و اللّوح المحفوظ و لا علم لهم بهما أصلاً و قول بعضهم أنّ الملائكة يأتمّون باللّوح المحفوظ فهو خارج عن مدار البحث و ذلك لأنّ إقتداء الملائكة بشئٍ غير إقتداء النّاس به فاللّوح المحفوظ إمامٌ لهم لا لنا.

و أمّا الكتاب فهو أيضاً لا يكون إماماً إلاّ لمن كان عالماً عارفاً به و أمّا الجاهل به فكيف يقتدي أو يأتّم بالكتاب الّذي لا يعلّم أسراره و أحكامه نعم الكتاب إمامٌ للنّبي و الوصيّ بمعنى أنّهما يتّبعانه، و الحقّ أنّ المراد بالإمام في الآية هو النّبي و الوّصي بعده، و يؤيدّه.

ما رواه في كتاب معاني الأخبار بأسناده عن أبي جعفر محمّد بن علّي الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه عليه السّلام قال: لمّا نزلت هذه الآية على رسول اللّه وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنٰاهُ فِيٓ إِمٰامٍ مُبِينٍ قام أبوبكر و عمر من مجلسهما و قالا يا رسول اللّه هو التّوراة

قال صلّى الله عليه وآله وسلّم لا قالا فهو الإنجيل قال صلّى الله عليه وآله وسلّم لا قالا فهو القرآن قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: لا قال فأقبل أميرالمؤمنين فقال رسول اللّه هو هذا أنّه الإمام الّذي أحصى اللّه فيه تبارك و تعالى عليك كلّ شئٍ إنتهى.

و عن تفسير علّي بن إبراهيم قال: و ذكر إبن عبّاس عن أميرالمؤمنين صلوات اللّه عليه أنّه قال: أنا و اللّه الإمام المبين، أبيّن الحقّ من الباطل ورثتّه من رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم إنتهى.

و عن كتاب الإجتماع للطبرسي عن النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم في حديث طويل يقول فيه معاشر النّاس ما من علمٍ إلاّ علمنّيه ربّي و أنا علَّمته عليّاً و قد أحصاه اللّه فيَّ و كلّ علم علمت فقد أحصيته في إمام المتقين و ما من علمٍ إلاّ علمتّه عليّاً إنتهى[١].

و في كتاب لوامع النّورانية بأسناده عن صالح بن سهل قال سمعت أبا عبد اللّه يقول: وَ كُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِيٓ إِمَامٍ مُبِينٍ قال عليه السلام: أميرالمؤمنين إنتهى.

و عن عمّار بن ياسر رضي اللّه عنه قال كنت مع أميرالمؤمنين في بعض غزواته فمررنا بوادٍ مملوٍ نملاً فقلت يا أميرالمؤمنين عليه السلام ترى يكون أحد من خلق اللّه يعلم كم عدد هذا النَّمل قال عليه السلام: نعم يا عمّار أنا أعرف رجلاً يعلم كم عدده و كم فيه من ذكرٍ وكم فيه من أنثى فقلت من ذلك يا مولاي الرّجل فقال يا عمّار ما قرأت في سورة يس، و كلّ شئٍ أحصيناه في إمامٍ مبين، فقلت بلى مولاي فقال عليه السلام: أنا ذلك الإمام المبين إنتهى.

و أيضاً بأسناده عن أبي ذر قال كنت سائراً في أغراض أميرالمؤمنين إذ مررنا بوادٍ و نمله كالسّيل سار فذهلت ممّا رأيت

١- نور الثّقلين ج ۴ ص ٣٧٩

فقلت اللّه أكبر جلّ محصيه فقال أميرالمؤمنين: لا تقلّ ذلك يا أبا ذر ولكن قل جلّ بارئه فو الّذي صوّرك أنّي أحصي عددهم و أعلم الذّكر منهم و الأنثى باذن اللّه عزّ وجلّ إنتهى(١).

فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَتَسْأَلُونِى عَنْ شَىءٍ فِيمَا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ السَّاعَةِ وَلاَ عَنْ فِئَةٍ تَهْدِى مِئَةً وَتُضِلُّ مِئَةً إِلَّا أَنْبَأْتُكُمْ بِنَاعِقِهَا وَقَائِدِهَا وَسَائِقِهَا وَمُنَاخِ رِكَابِهَا وَمَحَطِّ رِحَالِهَا وَمَنْ يُقْتَلُ مِنْ أَهْلِهَا قَتْلاً وَيَمُوتُ مِنْهُمْ مَوْتاً، إلىٰ أخر ما قال عليه السلام.

و الأحاديث في الباب كثيرة و فيما ذكرناه كفاية و الحمد للّه.

وَ ٱضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ

أمر اللّه تعالى نبيّه أن يضرب لهؤلاء الكفّار مثلاً فقال و أضرب يامحمّد لهم مثلاً أي إذكرلهم مثلاً، أو مثِّل لهم أو إجعل لهم مثلاً أصحاب القرية و هى إنطاكية على قول الفرّاء و عكرمة، إذ جاءها المرسلون، الّذين أرسلهم اللّه إلىٰ أهل القرية فالمضاف محذوف.

إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ

قيل أنّ الرّسولين المبعوثين إلى أهل القرية كانا رسولين عيسى ابن مريم أرسلهما إلى أهل القرية و كانا من حواريه، و قيل كانا من رسل اللّه و هذا هو الظّاهر من الآية و كيف كان لمّا وردا القرية كذّبوهما أهلها و لم يطيعوهما، فعزّزنا بثالثٍ، أي فعزّهما اللّه و قوّاهما و شدَّ ظهرهما برسولٍ ثالث.

فَقَالُوٓا إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ من اللّه تعالى أرسلنا إليم لنخرجكم من الظُّلمات إلى النُّور و من الضّلالة و الكفر إلى الهداية و الإيمان كما هو شأن النّبي.

١-لوامع النّورانية ص ٣٢٠

قالُوا ما أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنا وَ ما أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ

أي قالوا هؤلاء الكفّار في جواب الرُّسل ما أنتم إلاّ بشر مثلنا، ما، نافية أي لستم إلاّ مثلنا في البشّرية تأكلون و تشربون كما نأكل و نشرب فلا فرق بيننا و بينكم فكيف تدّعون النّبوة، و ما أنزل الرّحمن من شيءٍ أي أنّه تعالى لم يبعث رسولاً و لا نبيّاً، إن أنتم إلاّ تكذبون، إن، للنّفي بمعنىً، ليس أي لستم إلاّ من الكاذبين في دعواكم و الكاذب لا يطاع، و أنّما قالوا ذلك إمّا لأنّهم لم يعلموا أنّ النّبي أيضاً من البشر، أو علموا ذلك و لكنّهم أنكروا الأنبياء لعنادهم و حفظ مقامهم من الرّئاسة على العوام كما نرى أنّ أكثر المنكرين للحقّ يعرفونه كما يعرفون أبنائهم و مع ذلك ينكرونه لحفظ منافعهم.

قالُوا رَبُّنا يَعْلَمُ إِنّٰا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ

لمّا كذَّبهم أهل القرية قالوا في جوابهم، ربّنا الذّي أرسلنا إليكم يعلم صدقنا فيما ندَّعي و ندعوكم إليه.

وَ ما عَلَيْنٰا إِلَّا الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ

أي إنّا لا نجبركم و لا نلزمكم على قبول الدّعوة إذ لا إكراه في الدّين و ما على الرّسول إلاّ البلاغ و بعبارةٍ أخرى نحن مكلّفون من قبل ربّنا بالإبلاغ أي إبلاغ حكم اللّه إليكم إتماماً للحجّة ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيا من حيّ عنها كما:

قال اللّه تعالى: **ما عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلاٰغُ**[١].

قال اللّه تعالى: **فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوٓا أَنَّما عَلىٰ رَسُولِنَا الْبَلاٰغُ الْمُبِينُ**[٢].

١- المائدة = ٩٩
٢- المائدة = ٩٢

قال اللّه تعالى: **فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَاغُ ٱلْمُبِينُ**[١] وأمثالها من الأيات.

مضافاً إلى أنّ العقل أيضاً يحكم بذلك لثبوت الإختيار للبشر فلو كان البشر مكرهاً في قبول الدّين مجبوراً عليه فهو ليس بمختارٍ في فعله و المفروض خلافه عقلاً و نقلاً و هو ظاهر.

قَالُوٓا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ

التَّطيّر التَّشأم قال في المفردات تطيّر فلان و طيّر أصله التَّفاؤل بالطَّير ثمّ يستعمل في كلّ ما يتفال به و يتّشأم و لذلك قيل لا طير إلاّ طيرك:

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسٰى وَ مَنْ مَعَهُ**[٢].

قال اللّه تعالى: **قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَ بِمَنْ مَعَكَ**[٣].

فمعنى الآية أنّهم قالوا لمن أرسل إليهم أنّا تطيّرنا بكم، أي تشأمنا بكم أي لولا مكانكم فينا لما أصابتنا سيّئة، لئن لم تنتهوا، ممّا تدعونا إليه من النبوّة و الرّسالة، لنّرجمنّكم بالحجارة و قيل معناه لنشتمّنكم قاله مجاهد، و الظّاهر أنّ الرَّجم لا يكون إلاّ بالحجارة.

و قوله: **وَ لَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيم**، يدلّ على أنّهم كانوا بصدد إيذاء الرُّسل بأنواع العذاب و عند ذلك.

قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ

أي قال لهؤلاء الكفّار الرُّسل طائركم معكم، أي الشُّؤم معكم لا معنا و ذلك بسبب إقامتكم على الكفر باللّه و الإتيان بمعاصيه و من أشأم من الفاسق العاصي.

١- النّحل = ٣٥ ٢- الأعراف = ١٣١

٣- النّمل = ٤٧

و قال المبرّد يعني حظّكم و نصيبكم من الخير و الشّر معكم أينما كنتم في الدّنيا و الأخرة و قوله: **أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ** إشارة إلى غفلتهم عمّا كانوا عليه من الكفر و النّفاق و العصيان و لو كانوا من أهل الفكر و التدبُّر لم يقولوا ما قالوه من الطَّيرة و أمثال ذلك من أراجيف في حقّ الأنبياء الّذين طهّرهم اللّه تطهيراً و لذلك قال: **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** على أنفسكم أي متجاوزون حدّ العصيان و الكفر باللّه فأنّ الإسراف هو التّجاوز عن الحدّ.

وَ جٰاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعىٰ قٰالَ يٰا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ

أخبر اللّه تعالى أنّ رجلاً جاء هؤلاء الكفّار و هو يسعى أي يعدوا و يشتدّ فقال لهم قوم إتَّبعوا المرسلين، نهاهم عن مخالفة الأنبياء أو الرّسل و كان هذا الرّجل على ما قيل حبيب إبن إسرائيل النَّجار و كان ينحت الأصنام و هو ممّن أمنوا برسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم و بينهما ستّ مائة سنة كما أمن به تبّع الأكبر و ورقة بن نوفل و غيرهما و لم يؤمن بنبيٍّ إلاّ بعد ظهوره و قيل كان في غارٍ يعبد اللّه فلمّا بلغه خبر الرُّسل أتاهم و أظهر دينه و قاول الكفرة فقالوا له أو أنت تخالف ديننا فوثبوا عليه فقتلوه و قيل توطّئوه بأرجلهم حتّى خرج قصبه من دبره و قيل رجموه و هو يقول اللّه أهد قومي و قبره في سوق إنطاكية فلمّا قتل غضب اللّه عليهم فأهلكوا بصيحة جبرئيل عليه السّلام.

و عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا باللّه طرفة عينٍ، علّي بن أبي طالب، و صاحب يس، و مؤمن أل فرعون، إنتهى.

ما نقلناه عن الكشّاف و الغرض من النّقل ما ذكره في أخر كلامه بقوله سبّاق الأمم ثلاثة وعدَّ منهم علّي بن أبي طالب فنقول أليس هذا إقرارٌ منه بأنّ علّي بن أبي طالب لم يكفر باللّه طرفة عينٍ و من المعلوم أنّ المقرّ يؤخذ بإقراره في الدّنيا و الأخرة إن كان الإقرار صدر منه عن إختيارٍ و عقلٍ و على هذا لقائلٍ أن يقول لصاحب الكشّاف ما جوابك غداً يوم القيامة إذا سألت عن هذا و أنت لم

تكن مجبوراً على إقرارك فيما كتبته في المقام و لا مجنوناً على الفرض فلم تركت عليّاً و أخذت دينك عن أبي حنيفة و صرت حنفيّاً في الفروع و معتزليّاً في الأصول و جعلت أبابكر و عمر و عثمان أحقّ و أولى بالخلافة من عليّ بن أبىطاللب الّذي لم يكفر باللّه طرفة عينٍ مع إذعانك بأنّهم كانوا على عبادة الأصنام و الأوثان أكثر عمرهم قبل البعثة و اللّه من وراء القصد.

اِتَّبِعُوا مَنْ لا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا وَ هُمْ مُهْتَدُونَ

أي قال لهم الرّجل المؤمن إتّبعوا أي أطيعوا من لا يسألكم أجراً و هم مهتدون، من قبل اللّه في هذه الآية أشار اللّه تعالى إلى أصلين أصيلين ينبغي للعاقل أن يأخذ بهما في دينه.

أحدهما: أن يكون الهادي لا يسأل الأجر على الإبلاغ و الارشاد.

ثانهما: ان يكون من المهتدّين الّذين لا يحتاجون الى غيرهم ليهديهم.

امّا الاصل الاوّل: و هو عدم طلب الاجر من المهتدى و هو ادلّ على انّ المبلغ النّاصح يفعل ما يفعل طلباً لمرضاة اللّه و تقرّباً اليه و لانعنى بالنّاصح الشّفيق الا هذا فالعقل يحكم بقبول نصيحة.

قال سيدنا و مولانا الجواد عليه‌السلام المؤمن يحتاج الى ثلاث خصال: توفيق من اللّه، و اعض من نفسه و قبول ممّن ينصححه.

و ایّ ناصح اشفق و اصلح من الأنبياء و الرُّسل و اوصيائهم. و امّا انّهم لا يسئلون الأجر ای اجر الرّسالة و الدّعوة الى الحقّ من المدعوّين لا انّهم لا يسئلون الأجر بقولٍ مطلق حتّى من اللّه تعالى و ذالک لانّ المخلوق محتاج الا ربّه فی جميع شئونه و على هذا فالنّبى مأجور عنداللّه فی دعوته.

قال اللّه تعالى: **وَ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلٰى رَبِّ الْعٰالَمِينَ**[1] و الآيات كثيرة.

١- الشعراء = ١٠٩

الاصل الثّانى: فى تفسير قوله: **وَ هُمْ مُهْتَدُونَ** اشارة بل دلالة على انّ الأنبياء و كانوا مهتدين من عند ربّهم فلم يحتاجوا الى من يهديكم و يرشدكم من الخلق و الاّ يلزم الدّور المحال عقلاً، و الاصل فى هذا الحكم هو قوله تعالى:

أَفَمَنْ يَهْدِيَ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لا يَهِدِّيَ إِلَّآ أَنْ يُهْدىٰ فَمٰا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ(۱).

اذا عرفت هذا فنقول يمكن الأستدلال بهذه الآية على انّ وصّى الرسل و خليفته بعد موته ايضاً من المهتدين و ذلك لعدم القول بالفصل بين النبّى و وصيّه الاّ فى النّبوّة كما قال رسول اللّه صلّی‌اللّه‌علیه‌وآله‌وسلّم لعلىّ علیه‌السلام: «**يا على انت منّى بمنزلّة هارون من موسى الاّ انّه لا نبىّ بعدى**» دلّ الحديث على اشتراك الوصّى للنبّى فى جميع الاوصاف غير النبوّة و من جمله اوصاف النبّى هو انّه من المهتدين فالوصّى كذالك، قال اللّه تعالى مخاطباً لنبيّه: **إِنَّمٰآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ**(۲).

قال رسول اللّه يا على: انا المنذِر و انت الهادى و اذا ثبت فى حقّه انّه الهادى بعد رسول اللّه صلّی‌اللّه‌علیه‌وآله‌وسلّم فلابدّ ان يكون مهتديّاً فى نفسه و لازم ذالك اتبّاعه و محصل الكلام هو انّ الملاک فى النّبى و الوصّى واحدٌ و لتفصيل الكلام محلّ آخر.

وَ مٰا لِيَ لآَ أَعْبُدُ ٱلَّذِي فَطَرَنِي وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

معناه لم لا اعبداللّه الّذى فطرنى اى خلقنى و هدانى الى الحقّ **وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** يوم القيامة حيث لايملك الامر و النّهى غيره و انّما خاطب قومه بذالك لانّهم كانوا منكرين للتّوحيد و النبوّة و لذالك اردف كلامه ثانياً بقوله:

۱- يونس = ۳۵ ۲- الرعد = ۷

ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَ لَا يُنْقِذُونِ

الظّاهر انّ الاستفهام للانكارى اى لا اتّخذ من دون اللّه آلهة **إِنْ يُرِدْنِ ٱلرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ** من المرض و الفقر و امثال ذالك **لَّا تُغْنِ** الآلهة **عَنِّى شَفٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا** اى تقدّر الآلهة على دفع الضّر عنّى سبب الشفاعة عند الرّحمن **وَ لَا يُنْقِذُونِ** عن المهالک، و الكسرة فى النون فى قوله: **يُرِدْنِ** و قوله: **لَا تُغْنِ** وقوله: **لَا يُنْقِذُونِ** تدلّ على حذف الياء فيها و الاصل ان يردنى و لاتغنى و لاينقذونى فحذفت الياء و الكسرة تدلّ عليها و حاصل الكلام فى الاية انّ الآية و المعبود ينبغى ان يكون قادراً على كلّ شيىءٍ.

و امّا الأصنام و الاوثان الّتى اتَّخذتموها آلهة او جعلتها شفعاء الى اللّه فلاتضرّو و لا تنفع و العقل لا يتبع ما لا عقل له اذ لو تبعه لكان التّابع من الضّالين كما قال اللّه حكايةً عن القائل.

إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلٰلٍ مُّبِينٍ

اى انّى ان اتّخذ من دون اللّه القادر على كلّ شيىءٍ معبوداً غيره فانّى إذاً لفى ضلالٍ مبينٍ اى ضلال ظاهر و فيه خسران الدّنيا و الآخرة.

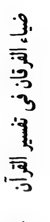

إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ

أي قال المؤمن و هو حبيب النّجار أنّي آمنت بربّكم فأسمعون، أي فإسمعوني، قيل الخطاب لقومه من الكفّار المنكرين و قيل الخطاب للرُّسل فعلى الأوّل معنى الآية إنّي أمنت بربّكم الّذي خلقكم و أوجدكم و أخرجكم من العدم إلى الوجود فإسمعوني، أي إسمعوا منّي ما أقول لكم أي إشهدوا بذلك أو المعنى إسمعوا قولي و أمنوا بمن أمنت به.

علىٰ الثّاني: أي كون الخطاب للرُّسل فالمعنى إشهدوا بهذا القول عند اللّه تعالى.

قال إبن مسعود إنّ قومه لمّا سمعوا منه هذا القول وطئوه بأرجلهم حتّى مات و قيل رجموه حتّى قتلوه.

قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه قيل لحبيب النّجار بعد قتله بأيدي الأشرار، إدخل الجنّة.

قال بعض المفسّرين القائل بهذه البشارة هو الملائكة من قبل اللّه تعالى، و قال بعضهم القائل المبشّر هو اللّه تعالى على سبيل الإلهام وكيف كان فهو بشّر بالجنّة بسبب إيمانه و شهادته في طريق الحقّ ثمّ أنّه بعد البشارة قال ياليت قومي يعلمون ثمرة الإيمان و أنّما تمّنى علم قومه بحاله ليكون علمهم بها سبباً لإكتساب مثلها لأنفسهم بالتّوبة عن الكفر والدّخول في الإيمان و العمل الصّالح المفضيين بأهلها إلى الجنّة قيل و يجوز أن يتمنّى ذلك ليعلموا أنّهم كانوا على خطأ عظيم في أمره و أنّه كان على صوابٍ و نصيحة و شفقة و أنّ عداوتهم لم تكسبه إلاّ فوزاً و لم تعقبه إلاّ سعادة لأنّ في ذلك زيادة غبطةٍ له و تضاعف لذةٍ و سرورٍ.

بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَ جَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ

كلمة ماء في قوله: **بِمَا** مصدريّة أو موصولة و يحتمل أن تكون إستفهاميّة يعني بأيّ شئٍ غفرلي ربّي و بالذّي غفرلي من الذّنوب و معنى الآية ياليت قومي يعلمونّ بالذّي غفرلي ربّي و جعلني من المكرمين المقّربين عنده و هو الإيمان باللّه و رسوله و الإستقامة عليه كما:

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَآئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَ أَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ**[١].

١- فصّلت = ٣٠

قال اللّه تعالى: **وَ مَنْ أَوْفٰى بِعَهْدِهِ مِنَ اَللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا**[۱].

و الأيات في مدح الإيمان و ثمراته في الدّنياو الأخرة في القرأن كثيرة كما لا يخفى.

و الحمدللّه ربّ العالمين و صلى اللّه على محمّدٍ و أله الطّاهرين هذا أخر الكلام في تفسير الجزء الثّاني و العشرين من القرأن الكريم و يتلوه الجزء الثّالث و العشرون.

■

۱- التّوبة = ۱۱۱

الجزء

الثالث والعشرون

وَ مٰآ أَنْزَلْنٰا عَلٰى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ ٱلسَّمٰآءِ وَ مٰا كُنّٰا مُنْزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنْ كٰانَتْ إِلّٰا صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ خٰامِدُونَ ﴿٢٩﴾ يٰا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبٰادِ مٰا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلّٰا كٰانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لٰا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَ إِنْ كُلٌّ لَمّٰا جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾ وَ آيَةٌ لَهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَ جَعَلْنٰا فِيهٰا جَنّٰاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنٰابٍ وَ فَجَّرْنٰا فِيهٰا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مٰا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلٰا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحٰانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَ آيَةٌ لَهُمُ ٱللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهٰارَ فَإِذٰا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهٰا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنٰاهُ مَنٰازِلَ حَتّٰى عٰادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهٰآ أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَ لَا ٱللَّيْلُ سٰابِقُ ٱلنَّهٰارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنّٰا حَمَلْنٰا ذُرِّيَّتَهُمْ

فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ
ما يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ
لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعًا
إِلى حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَ إِذا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا ما بَيْنَ
أَيْدِيكُمْ وَ ما خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَ ما
تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آياتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كانُوا عَنْها
مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَ إِذا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ
ٱللَّهُ قالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ
يَشاءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلالٍ مُبِينٍ
﴿٤٧﴾ وَ يَقُولُونَ مَتى هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ
صادِقِينَ ﴿٤٨﴾ ما يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً
تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾ فَلا يَسْتَطِيعُونَ
تَوْصِيَةً وَ لا إِلى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَ نُفِخَ فِى
ٱلصُّورِ فَإِذا هُمْ مِنَ ٱلْأَجْداثِ إِلى رَبِّهِمْ
يَنْسِلُونَ ﴿٥١﴾ قالُوا يا وَيْلَنا مَنْ بَعَثَنا مِنْ مَرْقَدِنا
هٰذا ما وَعَدَ ٱلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾
إِنْ كانَتْ إِلَّا صَيْحَةً واحِدَةً فَإِذا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنا
مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ لا
تُجْزَوْنَ إِلَّا ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحابَ
ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فى شُغُلٍ فاكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَ
أَزْواجُهُمْ فى ظِلالٍ عَلَى ٱلْأَرآئِكِ مُتَّكِؤُنَ ﴿٥٦﴾
لَهُمْ فِيها فاكِهَةٌ وَ لَهُمْ ما يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلامٌ

قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَ ٱمْتَازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِيَ ادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾

◀ اللّغة

خَامِدُونَ: خمدت النّار خموداً طفئ لهيبها، فقوله: **خَامِدُون** كناية عن موتهم.

أَعْنَابٍ: جمع عنبٌ.

نَسْلَخُ: أي نخرج.

كَالْعُرْجُونِ: بضّم العين و الجيم العذق الّذي فيه الشّماريخ و قال الفّراء العرجون ما بين الشّماريخ إلى المنابت في النّخلة من العذق.

ٱلْقَدِيمِ: الّذي أشرف على حولٍ.

يَسْبَحُونَ: السَّبح السّير في الماء يقال له بالفارسيّة، شنا.

ٱلْمَشْحُونِ: المملّؤ يقال شحنت الثّغر بالرّجال إذا ملأته.

فَلَا صَرِيخَ: الصَّريخ المغيث.

ٱلْأَجْدَاثِ: جمع جدث القبر.

يَنْسِلُونَ: النُّسول الإسراع في الخروج.

ٱلْأَرَائِكِ: جمع أريكةالحجلة على السَّرير.

◀ الأعراب

وَ مَآ أَنْزَلْنَا ما، نافية إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً إسم كان مضمرٌ أي ما كانت الصَّيحة إلاّ صيحة و إذا للمناجاة. يَا حَسْرَةً منادى و علىٰ تتعَّلق بحسرة و قيل المنادى محذوف و حسرة مصدر أي أتّحسر حسرة. وَ اٰيَةٌ لَهُمْ مبتدأ و خبر

ٱلْأَرْضُ مبتدأ و أَحْيَيْنَاهَا الخبر و قيل الأرض مبتدأ، و آية خبر مقدّم وَ مَا عَمِلَتْهُ في موضع جرٍّ عطفاً على ثمرة أو نصباً على موضع من ثمره. وَ ٱلْقَمَرَ بالرّفع مبتدأ و قَدَّرْنَاهُ الخبر و يجوز في القمر النّصب على ضلٍ مضمرٍ أي و قدّرنا القمر مَنَازِلَ حال أو مفعول ثانٍ لأنّ، قدّرنا بمعنى صيّرنا إِنّا خبر مبتدأ محذوف أي هي إنّا و قيل هي مبتدأ. وَ آيَةٌ لَهُمُ الخبر إِلَّا رَحْمَةً مِنّا هي مفعول له أو مصدر و هذا مبتدأ و مَا وَعَدَ الخبر و ما موصولة نكرة موصوفة فِي شُغُلٍ هو خبر إن، و فَاكِهُونَ خبر ثابتٍ.

فِي ظِلَالٍ خبر هُم و قيل الخبر مُتَّكِؤُنَ و في ضلال حال و وعَلَى ٱلْأَرَائِكِ منصوب بمتّكئون و الباقي واضح.

◀ التّفسير

وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ ٱلسَّمَاءِ وَ مَا كُنَّا مُنْزِلِينَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عمّا نزل بهؤلاء الكفّار الّذين قتلوا حبيب النّجار و كانوا من قومه من العذاب و الإستئصال فقال: وَ مَا أَنْزَلْنَا، أي أنّ اللّه تعالى لم ينزل لإهلاكهم جنداً من جنود السّماء من الملائكة كما فعل يوم بدر و الخندق بل أهلكهم بصيحةٍ واحدة كما قال:

إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ

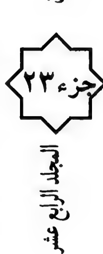

إسم كان مضمر أي ما كانت الصّيحة إلاّ صيحةً واحدة فإذا هم خامدون، أي هالكون و اذا للمفاجأة، و حاصل المعنى في الآيتين هو أنّ كان إهلاكهم من أوّلهم الى آخرهم بأسير أمرٍ و ما كنّا منزلين عليهم جنداً من السّماء لإهلاكهم إلاّ صيحةً واحدة و فيه إيماء الى كمال قدرة الحّق و ضعف هؤلاء القوم.

يَا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ

يجوز أن تكون، حسرة، منادى أي يا حسرة أحضري فهذا وقتك، و على، تتعلّق بحسرة فلذلك نصبت كقولك يا ضارباً رجلاً و يجوز أن يكون المنادى محذوفاً و حسرة مصدر أي أتّحسر حسرةً، و في المقام شقٌ ثالث و هو أن يكون مضافاً الى المفعول أي أتّحسر على العباد، و أختلفوا في القائل بهذا الكلام، فقيل هو قول الّذي جاء من أقصى المدينة و قد حكى اللّه تعالى عنه أنّه قال: **يٰا حَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبٰادِ** أي إنّي أتّحسر، عليهم، ما يأتيهم، ما نافية أي لم يأتهم رسول إلاّ كانوا هؤلاء الكفّار به يستهزؤن، و الإستهزاء السُّخرية، و يحتمل أن يكون القائل هو اللّه تعالى و قد أخبر في هذه الآية عن فعل الكفّار و إنكارهم الأنبياء و الإستهزاء بهم و عدم توجّه الكفّار بأنّ الأنبياء بمنزلة الأطّباء المعالجين لهم فينبغي أن يكونوا من الشّاكرين لهذه النِّعمة الّتي أنعم اللّه بها عليهم و الوجه في التَّحسر هو أنّ اللّه تعالى لطيفٌ بعباده و لذلك أرسل اللّه الرُّسل و أنزل الكتب السّماوية و جعلهم مكلّفين بالعمل بها كلّ ذلك على أساس قاعدة اللُّطف و من المعلوم أنّ ضرر الإنكار يرجع إليهم و على هذا فمعنى الكلام يا حسرةً من العباد على أنفسهم، و قيل معناه أنّهم قد حلُّوا محّل من يتّحسر عليه.

و قال إبن عبّاس معناه يا ويلاً للعباد.

أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنٰا قَبْلَهُمْ مِنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لاٰ يَرْجِعُونَ

قيل المراد بالرؤيّة العلم الّذي يعبّر عنه بالرُّؤية القلبيّة أي ألم يعلموا كم أهلكنا قبلهم من القرون أي من الأمم، و **القُرُون** بضّم القاف جمع، قرن، و أهل كلّ عصرٍ سمُّي قرناً لإقترانهم في الوجوه، و أنّهم أي الّذين أهلكناهم، إليهم لا يرجعون، أي لا رجعة لهم أبداً و هم كقوم عاد و ثمود و نوح و أمثالهم، و قد ثبت عقلاً أنّ حكم الأمثال واحد، و اذا كان كذلك فأنّهم أهلكوا بسبب طغيانهم و عصيانهم و إنكارهم التّوحيد و النُّبوة اتّعاظهم بمواعظ الأنبياء فمن

كان كذلك فحكمه حكم في نزول العذاب عليهم هذا إذا حملنا الرُّؤية على الرُّؤية بالقلب و هى العلم، و عندي أنّ الرُّؤية في الآية لو حملت على ظاهرها و هو الرُّؤية بالعين لا إشكال فيه أيضاً و على هذا فالمعنى أو لم ينظروا إلى أثارهم الباقية بعد موتهم الدالّة على أنّهم ماتوا بسبب عصيانهم و كفرهم.

فعن أبي عبد اللّه عليه السلام أنّه قال: مرَّ عيسى بن مريم صلوات اللّه عليه على قريةٍ قد مات أهلها و طيرها و دوابّها فقال عليه السلام أما أنّهم لم يموتوا إلاّ بسخطه ولو ماتوا متَّفرقين لتَّدافنوا فقال الحواريّون يا روح اللّه و كلمته أدع اللّه أن يحييهم لنا فيخبرونا ما كانت أعمالهم فنتَّجنبها فدعا عيسى ربّه فنودي من اتلجوّ أن نادهم فقام عيسى صلوات اللّه عليه باللّيل على شرف من الأرض فقال ياأهل هذه القرية فأجابه عنهم مجيبٌ لبيّك ياروح اللّه و كلمته فقال عليه السلام و يحكم ما كانت أعمالكم قال عبادة الطّاغوت و حبّ الدّنيا مع خوفٍ قليلٍ و أملٍ بعيد في غفلةٍ و لهوٍ و لعبٍ قال عليه السلام كيف حبّكم الدّنيا قال كحبّ الصَّبي لأمّه إذا أقبلت إلينا فرحنا و سررنا أدبرت عنّا بكينا و حزنا، قال كيف عبادتكم للطّاغوت قال الطّاعة لأهل المعاصي قال عليه السلام: كيف كانت عاقبة أمركم، قال بتنا ليلة في عافيةٍ و أصبحنا في الهاوية إلى أخر الحديث[1].

وَ إِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنا مُحْضَرُونَ

قال صاحب الكشّاف، لمّا بالتشديد بمعنى، إلاّ، و إن، نافية و التّنوين في، كلّ، هو الّذي يقع عوضاً عن المضاف إليه كقولك مررت بكلٍّ قائماً و المعنى أنّ كلّهم محشورون مجموعون محضرون للحساب يوم القيامة و قيل محضرون معذّبون إنتهى.

١- مشكاة الأنوار ص ٢٦٣

أقول قرأ عاصم و حمزة و إبن عامر بتثقيل لمّا و باقي السَّبعة بتخفيفها فمن ثقلّها كانت عنده بمعنى إلاّ، و إن نافية أي ما كلّهم إلاّ جميعٌ لدينا محضرون أي محشورون قاله قتادة.

و قال إبن سلام معذّبون و هذا هو الّذي إختاره صاحب الكشّاف كما نقلناه عنه.

و أمّا على قراءة التّخفيف في، لما، فما ذكره الزّمخشري لا يستقيم لأنّ من خفّف، لما، جعل، إن، المخَّففة من الثقيلة و ما، زائدة أي و أنّ كلّ الجميع لدينا محضرون و هذا على مذهب البّصريين، و القول الأوّل أقوى و أشهر عندهم، و ذلك لأنّ لمّا المشدّدة بمعنى، إلاّ، ثابت في لسان العرب بنقل المشقّاة و لا يلتفت إلى زعم الكسائي أنّه لا يعرف ذلك و قد يستدّل على هذا بأنّ، لمّا، كأنّها حرفا نفيٍ جميعاً و هما، لم، ما، فتأكّد النّفي و، إلاّ، كأنّها حرفا نفيٍ و هما، إن، و لا، فإستعمل أحدهما مكان الأخر قاله الفّراء في، إلاّ، الإستثنائيّة أنّها مركّبة من، إن، و لا، و قد أطالوا الكلام فيه بما لا فائدة في نقله .

وَ اٰيَةٌ لَهُمُ اَلْأَرْضُ اَلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنٰاهٰا وَ أَخْرَجْنٰا مِنْهٰا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

قيل، أية، مبتدأ ولهم، الخبر، و الأرض مبتدأ و أحييناها الخبر و الجملة تفسير للأية، و قيل، الأرض مبتدأ و أية خبر مقدّم و أحييناها تفسير الآية و، لهم، صفة، و الآية العلامة.

أقول القول الثّاني أوفق بسياق الكلام و عليه فالتّقدير الأرض الميتة أيةٌ و علامةٌ دالّة على ربوبيّته، و على هذا فقوله: **أَحْيَيْنٰاهٰا** إستئناف بيان لكون الأرض الميتة أية و يجوز أن يكون أحييناها صفة الأرض و علامة و أخرجنا منها، أي من الأرض حبّاً و أي الشّئ الّذي يتعلّق به معظم العيش كالحنطة و الشّعير و الذّرة و العدس و غيرها من الحبوب التّي قوام العيش بها و الوجه في كونه أية ظاهر لا خفاء فيه إذ لا يقدر أحد على إخراج الحبّ من الأرض الميتة

إلاّ خالق الأرض و السّماء و ما بينهما من المخلوق فأنّه على كلّ شئٍ قدير و لنعم ما قيل:

تفكّر فى نبات الأرض و أنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزَّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكُ

و هذا معنى الآية و قوله: **فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ**، معناه واضح فأنّ الحياة و البقاء موقوفٌ على الأكل و الشُّرب فإذا قلَّ الحبّ جاء القحط و وقع الضّر و اذا فقد جاء الهلاك و نزل لا بلاء.

وَ جَعَلْنا فيها جَنّاتٍ مِنْ نَخيلٍ وَ أَعْنابٍ وَ فَجَّرْنا فيها مِنَ الْعُيُونِ، لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ ما عَمِلَتْهُ أَيْديهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ

لمّا أفاد في الآية السّابقة أنّ الأرض الميتة أحياها اللّه بالمطر و أخرج منها حبّاً من الحنطة و الشّعير و غيرهما أشار في هذه الآية إلى الأشجار المثمرة و تفجير العيون من الأرض فالأرض يوجد منها الحبّ و الشَّجر يوجد منها الثَّمر و تفجير العيون يحصل به الإعتماد على تحصل الزّرع و الثَّمر و لو كان من السّماء لم يدر أين يغرس و لا أين يقع المطر و المعنى جعلنا في الأرض جنّات و أعناب ليأكلوا من ثمره و ما عملته أيديهم، أي ليأكلوا من الّذي عملته و من عمل أيديهم من أنواع الطّعوم الّذي أنبتوه بأيديهم من أنواع الأشجار المثمرة لأنواع الفواكه و من الذّي يطحنونه و يخبزونه، وا لضّمير في ثمره عائد على الماء لدلالة العيون عليه و لكونه على حذف مضافٍ أي من ماء العيون و قيل عائد على النَّخيل و قال الزّمخشري و أصله من ثمرنا كما قال و جعلنا و فجّرنا فنقل الكلام من التّكلم إلى الغيبة على طريق الإلتفات و المعنى ليأكلوا ممّا خلقه اللّه من الثَّمر و ممّا عملته أيديهم من الغرس و السَّقي و الأبار و غير ذلك من الأعمال إلى أن بلغ الثّمر منها و لمّا عدَّد اللّه تعالى هذه النِّعم و إمتَّن بها على عباده حضَّ على الشّكر و رغَّب فيه فقال أفلا تشكرون، و ذلك لأنّ شكر

المنعم واجب عقلاً سواء كانت النِّعمة ماديّة كما أشار اللّه تعالى بها في هذه الأيات، أم معنويّة عقليّة كإرسال الرُّسل و إنزال الكتب و جعل الشّرائع و الأديان المراد بالشُّكر شكر اللّفظي فقط بل المراد به الشُّكر بجميع أقسامه من اللّفظي و الحالي و القلبي.

و أن شئت قلت عرّف العبد جميع ما أنعمه اللّه عليه فيما ينبغي أن يصرف فيه و حيث أنّ الكفّار لم يشكروا على النِّعم بل كفروا بخالقها و أنكروا التّوحيد و النّبوة و المعاد، قال أفلا يشكرون على سبيل التّوبيخ و المعنى هلاّ تشكرونه على هذه النِّعم الكثيرة التّي أشرنا إليها بل ما ذكرناه قليل بالنّسبة إلىٰ ما لم نذكره كيف، و أن تعُدّوا نعمة اللّه لا تحصوها، ثمّ أشار اللّه تعالى إلى قسمٍ أخر فقال:

سُبْحٰانَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْأَزْواٰجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمّٰا لاٰ يَعْلَمُونَ

السَّبح في الأصل المرَّ السَّريع في الماء و منه السّباحة و في الهواء و منه **تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمٰواٰتُ ٱلسَّبْعُ**(١) و منه قوله: **وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ** و لجري الفرس نحو: **وَ ٱلسّٰابِحٰاتِ سَبْحًا**(٢) و لسرعة الذّهاب في العمل نحو قوله: **إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهٰارِ سَبْحًا طَوِيلًا**(٣) و التَّسبيح تَنزيه اللّه تعالى و أصله المرَّ السَّريع في عبادة اللّه و جعل ذلك في فعل الخير كما جعل الإبعاد في الشَّر فقيل أبعده اللّه و جعل التَّسبيح عامّاً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو بنيّةٍ و معنى الأية، منّزهٌ عن العيوب و النقائص الإمكانيّة من خلق الأزواج، أي الأجناس و الأصناف كلّها ممّا تنبت الأرض و قيل الأزواج الأشكال و الحيوان على مشاكلة الذَّكر للأنثى و كذلك النَّخل و الحبوب أشكال، و التّين و الكرم و نحوه أشكال فلذلك قال

١- الاسراء = ٤٤
٢- النازعات = ٣
٣- المزمل = ٧

ممّا تنبت الأرض يعني من سائر النّبات، أنفسهم من الذّكر و الأنثى، و ممّا لا يعلمون، أي ممّا لم يشاهدوه و لم يصل خبره إليهم، ذكره في التّبيان.

و به قال صاحب الكشّاف إلاّ أنّه زاد في تفسيره، ولو كانت بهم إليه حاجة لأعلمهم بما لا يعلمون كما أعلمهم بوجود ما يعلمون و نقل عن إبن عبّاس أنّه قال، لم يسبحهم، و في الحديث ما لا عينٌ رأت و لا أذنٌ سمعت و لا خطر على قلب بشرٍ ثمّ ساق الكلام بما لا نحتاج إلى ذكره.

و قال بعض المفسّرين ما هذا لفظه، ثمّ نزّه تعالى نفسه عن كلّ ما يلحد به ملحدٌ أو يشرك به مشرك فذكر إنشاء الأزواج و هى الأنواع من جميع الأشياء ممّا تنبت الأرض من النّخل و الشّجر و الزّرع و الثّمر و غير ذلك و كلّ صنفٍ زوج مختلف لوناً و طعماً و شكلاً و كبراً و صغراً و من أنفسهم، ذكوراً و أناثاً و ممّا لا يعلمون أعلموا بوجوده و لم يعلموا ماهو إذ لا يتعلّق علمهم بما أمر محتاج إليه في دين و لا دنيا و في إعلامه بكثرة مخلوقاته دليل على إتساع ملكه و عظم قدرته إنتهى.

أقول ما ذكره هذا القائل أخذه عن الكشّاف بتغيير ألفاظه و عباراته.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا بأس به لأنّهم فسّروا الآية بمقتضى عقولهم و أفهامهم من الآية و لا يكلّف اللّه نفساً إلاّ وسعها و لا عيب للإنسان إذا لم يفهم كلام الخالق، أين التّراب و ربّ الأرباب و نحن أيضاً نقّر بذلك ندّعي فهم كلام اللّه تعالى على ما ينبغي و مع ذلك نقول في تفسير الآية ما خطر ببالنا و قبل بيان المقصود لابدّ لنا من تفسير الزّوج فنقول:

مستعيناً به الزّوج يقال لكلّ واحدٍ من القرينين من الذّكر و الأنثى في الحيوانات المتزاوجة و لكلّ قرزينين فيها غيرها زوجٌ كالخفّ و النّعل و لكلّ ما يقترن بأخر مماثلاً له أو مضّاد زوج، و أمّا الزّوجة فهي لغة رديئة و جمعها زوجات، و جمع الزّوج أزواج و لرداءة لغة الزّوجة لم يستعملها في القرأن و أنّما أستعمل فيه لفظ الزّوج و الأزواج.

قال اللّه تعالى: **وَ قُلْنٰا يٰآ اٰدَمُ اَسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ اَلْجَنَّةَ**[١].

قال اللّه تعالى: **وَ اَلَّذي خَلَقَ اَلْأَزْوٰاجَ كُلَّهٰا وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ اَلْفُلْكِ وَ اَلْأَنْعٰامِ مٰا تَرْكَبُونَ**[٢].

قال اللّه تعالى: **وَ أَنْزَلَ مِنَ اَلسَّمٰآءِ مٰآءً فَأَخْرَجْنٰا بِهِ أَزْوٰاجًا مِنْ نَبٰاتٍ شَتّٰى**[٣].

و الأيات كثيرة و الحاصل أنّ الأزواج في الأصل الأقران و الأشباه إذا عرفت هذا فلنرجع إلى تفسير الآية على حسب ما خطر ببالنا و هو أنّه لا يبعد أن يكون المراد بالأزواج في الآية تركيب الموجودات من جوهرٍ و عرضٍ و مادّة و صورة و أن لا شئ يتّعرى من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً و أنّه لابدّ له من صانعٍ تنبيهاً على أنّه تعالى هو الفرد المنّزه عن التّركيب لبساطته و أمّا ما سواه فهو مخلوق له و كلّ مخلوقٍ داخل في سلسلة الممكنات و قد تثبت في العلوم العقليّة أنّ كلّ ممكنٍ زوجٌ تركيبي له ماهيّة و وجود، و هذا أصلٌ أصيل لا يمكن لأحدٍ الخدشة فيه إذ لا مجّرد حقّاً إلاّ اللّه تعالى و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ الوجود لا يخلو من الوجوب و الإمكان و الحصر عقلّي لأنّ الموجود أمّا أن يكون وجوده من نفسه و بنفسه و لنفسه أو لا يكون كذلك بل وجوده من غيره.

فالأوّل: هو الواجب.

الثّاني: هو الممكن و لا يتصوّر في المقام شقٌّ ثالث.

ثمّ أنّ الواجب لا مهيّة له إذ لو كان الواجب ذا مهيّةٍ لزم غروض وجوده عليها لأنّ الوجود عارض على الماهيّة فالماهيّة موجودة به و قد ثبت أنّ كلّ

١- البقرة = ٢۴

٢- الزّخرف = ١٢

٣- طه = ۵٣

عرّضي معلّل و كلّ معلّلٍ مخلوق و المفروض أنّه واجب الوجود و أمّا الممكن فقد قالوا في تعريفه أنّه زوجٌ تركيبي له ماهيّة و وجود أي أنّه مركّبٌ منهما و لكّ مركّب محتاج و لكّ محتاج مخلوق فالممكن كائناً ما كان مخلوق لغيره منحصرٌ في جوهر و عرض و الجوهر ماهيّة إذا وجدت في الخارج كانت لا في موضوع بخلاف العرض فأنّه في الموضوع و إلاّ لا يوجد في الخارج، ثمّ أنّ المادّة الّتي خلق اللّه المخلوق منها أمّا أن تكون ممّا تنبته الأرض و إمّا أن تكون من الأنفس و إمّا أن تكون من غيرها ممّا لا نعلمه.

فالأوّل: كالنّخل و الحبوب و التين و الكرم و غيرها ممّا تنبته الأرض من النّباتات.

الثّاني: مثل الأولاد في الإنسان و الحيوان و بالجملة كلّ ما يولد.

الثّالث: مثل العقول و النفوس المجرّدة التّي لا نعلم مادّة خلقتها، فقوله تعالى: **خَلَقَ ٱلْأَزْوٰجَ كُلَّهٰا مِمّٰا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ** إشارة إلى الأشجار و الحبوب و غيرهما.

و قوله: **وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** و من أنفسهم، إشارة إلى ما يولد، و قوله و ممّا لا يعلمون، إشارة إلى الأزواج التّي خلقها اللّه تعالى لا من الأرض و لا من الأنفس بل خلقها ممّا لا يعلمه إلاّ هو.

و محصلّ الكلام هو أنّ ما سوى اللّه مخلوق له تعالى كائناً ما كان، و على هذا فقوله تعالى: **وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ** إشارة إلى المخلوق الّذي يوجد بحسب التّوالد و التّناسل و إلى هذا أشار اللّه بقوله:

وَ مِنْ اٰيٰاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا لِتَسْكُنُوٓا إِلَيْهٰا[١].

و قال تعالى: **وَ ٱللّٰهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**[٢].

و قوله: **وَ مِمّٰا لاٰ يَعْلَمُونَ**، إشارة إلى العقول و النّفوس و الملائكة فأنّا لا

١- الرّوم = ٢١ ٢- النّحل = ٧٢

نعلم منها شيئاً غير وجودها و لا علم لنا بما خلقها اللّه تعالى منه و هو ظاهر هذا ما خطر ببالنا في فهم كلام اللّه و هو تعالى أعلم بما أراد.

وَ ءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى في الآية السّابقة أنّه خالق الأشياء كلّها أشار في هذه الآية و ما بعدها إلى ما يثبت خلاقيّته من الأيات و العلامات لمن تفكّر فيها حقّ التّفكر فقال: **وَ ءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ**، قيل أية، مبتدأ ولَهم، خَبر واللّيل مبتدأ و ما بعده خبر.

أقول و الأحَسن أن يقال، اللّيل، مبتدأ و، أية، خبر مقدّم، ولهم، صفة أيـة، و المعنى اللّيل أيةٌ لهم لو تدّبروا فيه لأنّا نسلخ أي نخرج منه النّهار و الضيّاء ففيه دلالة واضحة على قدرته و السَّلخ إخراج الشّئ من لباسه و منه إخراج الحيوان من جلده و يستفاد من الآية أنّ الظلمة كانت قبل النور و في التعبير بالسلخ إشارة إلى أنّ النّهار و هو الضياء بمنزلة الجلد للظلمة و المخرج هو اللّه تعالى و لا يقدر أحد على إخراج النُّور منها إلاّ اللّه و فيه دلالة على حدوث العالم و أنّه مسبوق بالعدم و الحدوث زمانّي فالعالم حادث زماناً و أنّما قلنا ذلك لقوله تعالى: **نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ**، فلو لم تكن الظُّلمة سابقة على النّهار فما معنىٰ الكلام، و قوله مظلمون، أي داخلون في الظّلام يقال أظلم الرَّجل إذا دخل فيه كما يقال أصبح و أمسي إذا دخل في الصُّبح و المساء، و إذا، قيل أنّها للمفاجأة فالمعنى داخلون في الظُّلمة لا ضياء فيه بالشّمس و المقصود أنّ مجئ النّهار بعد اللّيل و مجئ اللّيل بعد النّهار من أيات اللّه و هو ظاهر لا يحتاج إلى إقامة البرهان عليه لكونه من المحسوسات التّي ليعرفها العاقل و أن كان قليل العقل.

وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ

و هذه أية أخرى أشار اللّه إليها و الإنصاف أنّها من أكبر الأيات.

قال المفسّرون في معنى المستقّر وجوهٌ:

أحدها: إنتهاء أمرها إلى إنقضاء الدُّنيا، أي أنّها تجري إلى إنقضاء الدّنيا و هذا الجري هو مستقرّها الّذي جعله اللّه لها.

الثّاني: أنّ معناه أنّها تجري لوقتٍ واحدٍ لهما لا تعدوه و لا تختلف.

الثّالث: تجري إلى أبعد منازلها في الغروب.

و قال المبّرد معنى لمستّقرٍ لها، أي تجري إلى ما قدّر لها و من قال أنّ الشمس لا تستقّر بل تتّحرك أبداً قال معنى لمستقّرٍ لها، أنّها كلّما إنتهت إلى منقلب الصّيف عادت في الرّجوع و اذا بلغت منقلب الشّتاء عادت إلى الصّعود ثمّ قال ذلك تقدير العزيز العليم أي من قدّر الشّمس على ذلك إلاّ القادر الّذي لا يضام و العالم بما يفعله إنتهى ما ذكره الشّيخ في التّبيان.

و قال الزّمخشري في الكشّاف لمستقّرٍ لها، أي لحدٍّ لها مؤقتٍ مقدّر انتهي إليه من فلكها في أخر السّنة شبّه بمستّقر المسافر إذا قطع مسيره أو لمنتهىً لها من المشارق و المغارب لأنّها تتّقصاها مشرقاً و مغرباً حتّى تبلغ أقصاها ثمّ ترجع فذلك حدّها و مستّقرها لأنّها لا تعدوه، أو لحدٍّ لها من مسيرها كلّ يومٍ في مرأى عيوننا و هو المغرب و قيل مستقّرها أجلها الّذي أقّر اللّه عليه أمرها في جريها فإستقّرت عليه و هو أخر السّنة و قيل الوقت الّذي تستقّر فيه و ينقطع جريها و هو يوم القيامة إنتهى.

أقول أنّما نقلنا ما نقلناه عن هذين العلمين أحدهما من الخاصّة و الثّاني من العامّة ليعلم القارئ أنّ كلّما قيل في الباب في التّفاسير فهو مأخوذٌ منهما و ليس فيها شيئ يعتمد عليه فأنّ هذه الأقوال من الموهومات و المستخرجات الظّنية و لم ينقلوا شيئاً من المعصوم حتّى يعتمد عليه.

و من المعلوم أنّ أفكار المبّرد و أمثاله لا تنال إلى ما نحن بصدد إثباته و الإنصاف أنّ العقول لا تنال إليه فأنّ الكرات السماويّة على كثرتها من عجائب المخلوقات و لا نعلم منها إلاّ وجودها و كونها معلّقة في الفضاء و أمّا كيفيّة خلقها و حركاتها و سكناتها و عددها و ماهيّتها فلا يعلم البشر منها شيئاً إلاّ

على سبيل الحدس و الظّن و قد ثبت أنّ الظّن لا يغني عن الحقّ شيئاً و مع ذلك كلّه فما ذكره المتّأخرون من علماء الهيئة أوثق و أقرب إلى الواقع ممّا ذكره المتقدّمون من علماء الهيئة و ذلك لأنّ الأسباب و الألات التّي إخترعوها لم تكن موجودة في زمان بطليموس و من تبعه و مع هذا قد إعترفوا في عصرنا هذا بعجزهم عن البلوغ إلى ما قصدوه من العلم بحقيقة الكرات في جميع شئونها و كتابنا هذا ليس موضوعاً للبحث فيها و من أراد الوقوف على تفصيل كلمات القوم في الباب فعليه بالكتب الموضوعة لهذا العلم و حيث أنّ اللّه تعالى أشار في المقام إلى الشّمس و القمر فلابدّ لنا من البحث فيهما على سبيل الإختصار فنقول:

الشّمس هي مركز مجموعتنا الشمسيّة و هى إحدى النّجوم السّابحة في الفضاء التّي يقدّر عددها أربعين مليوناً و هى غير الكواكب و السيّارات و المذنبّات، و الأرض دائرةٌ حول الشّمس هي و كثير من الكواكب كالزُّهرة و العطارد و المشتري و المريخ و الزُّحل و القمر و حجم الشّمس كبير جدّاً بحيث لو عبّر عنه بالأقمار لكان أبعده بعيداً عن التّصور، و أنّ النُّور الّذي يقطع عادةً في كلّ ثانية، ثلاث مائة ألف كيلو متر (٣٠٠٠٠٠) لا يصل إلينا من الشّمس عند أوّل بزوغها إلاّ بعد مضي ثمانية دقائق (٤٨٠) ثانية و على هذا فالمسافة بين الشّمس و الأرض (١٤/٤٠٠٠/٠٠٠) مليون فرسخ تحصل من (٣٠٠٠٠٠×٤٨٠) قالوا أنّ سطح الشّمس أكثر من سطح الأرض (١٢٥٤٤ مرّة) و أنّ حجمها أكبر من حجم الأرض (١٤٠٤٠٩٢٨) مرّة، و قد ثبت في عصرنا أنّ الشّمس من الثّوابت إنتهى.

ما أردنا ذكره عن دائرة المعارف فريد وجدي[1].

إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى: **وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** لا يدّل على أنّها من السيّارات كما هو مذهب القدماء من علماء الهيّئة حيث جعلوا

١- دائرة المعارَف فريد وجدي ج ٥ ص ٤٠٨

الأرض من الثّوابت و الشّمس من السيّارات الّتي تدور مدار الأرض بل الأمر بالعكس نعم للشمس حركة حول نفسها من الغرب الى الشرق حسب أن تتم في كلّ (٢٥ يوماً) دورة على نفسها و لا يبعد أن يكون المراد من الآية هذه الحركة.

فقوله تعالى: **وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا** معناه تجري و تتحّرك حول نفسها و يستفاد عند التأمّل في الإستقرار هذا المعنى أي أنّها تجري في مكانها الّذي إستقرّت فيه و لا تتجاوز عنه و بعبارة أخرى الإستقرار معناه القرار و الثّبات و اللّه أعلم.

و قوله: **ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ** معناه أنّ هذا القسم من الحركة ممّا قدّره اللّه لها و لا يقدر على ذلك أحد إلاّ اللّه جلّ جلاله.

و أمّا القمر: فهو كوكبٌ دائرٌ حول الأرض في فلكٍ أهل يلجي و بعده عن الأرض يتفاوت دائماً و بعده الأوسط عن الأرض (١٣٨٠٠٠ ميل) و هو يتّم دورانه النّجمي في (٢٧ يوماً) و ثلث يوم و لكن دورانه القانوني يزيد على ذلك فأكثر من يومين بسبب تقدُّم الأرض في فلكها مدّة دوران القمر، قطر القمر (٢٢٦٠ ميلاً) أي أنّه أصغر من الأرض بنحو خمسين ضعفاً، القمر يستّمد نوره من الشّمس و هو لا يزيد عن جزء من (٣٠٠ ألف جزء من نور الشّمس) قالوا و للقمر منازل قدّروها (٢٨ مَنزل) و الى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ.**

معنى الآية قدّرنا مسيره منازّل و هى ثمانية و عشرون منزلاً ينزل القمر كلّ ليلةٍ في واحدٍ منها لا يتخطاه و لا تتقاصر عنه و هذه المنازل هي مواقع النّجوم الّتي نسبت اليها العرب الأنواء المستّمرة و هي، الشّرطان البطين، الثريا، الدبّران، الهقعة، الهنقة، الذّراع، النّثرة، الطّرف، الجبهة، الزّبرة، الطّرفة، العوا، السّماك، الغفر، الزّماني، الأكليل، القلب، الشوّلة، النّعائم، البلدة، سعد الذّابح، سعد السُّعود، سعد الأجنبية، فرغ الدُّلو المقدّم، فرغ الدّلو المؤخر، الرّشا،

ذكره صاحب الكشّاف في تفسيره و مثله أبو الفتوح الرّازي في تفسيره، و قوله تعالى: **حَتّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ** و هو عود العذق ما بين شماريخه الى مبته من النّخلة.

و قال الزّجاج هو فعلون من الإنعراج و هو الإنعطاف و القديم، الّذي أشرف على الحول.

لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

قيل في معناه لا يدرك أحدهما ضوء الأخر، و قيل حتّى يكون نقصان ضوءها كنقصان القمر، و قيل في سرعة سيره، و لا اللّيل سابق النّهار، قيل معناه لا يسبق اللّيل النّهار قيل أنّ أحدهما لا يذهب الى معنى الأخر و كلٌّ له مقادير قدَّره اللّه عليه، و كلٌّ في فلكٍ يسبحون، يعني الشّمس و القمر و الكواكب يسبحون في الفلك و أنّما جمعها بالواو و النّون لما أضاف اليها أفعال الأدميّين، ذكر هذه الوجوه في التبّيان و أنت إذا تأمّلت في هذه الوجوه الّتي ذكروها في معنى الإدراك لدريت أنّها لا محصلّ لها فلا معنى لقوله لا يدرك أحدهما ضوء الأخر، و قد ثبت عند الكلّ أنّ نور القمر من نور الشّمس فالقمر يدرك نور الشّمس فكيف لا يدرك أحدهما ضوء الأخر و المفروض أنّ نور القمر من الشّمس، و هكذا قوله نقصان ضوءها كنقصان القمر فأنّ هذا كلام لا طائل تحته، و أشنع منه قول القائل، في سرعة سيره، و المفروض أنّ الشّمس لا سير لها لأنّها من الثّوابت، و الحقّ في معنى الآية أنّ كلّ واحدٍ من الكواكب لا يتّجاوز عمّا قدّر له و هو ظاهر.

و هكذا الأمر في اللّيل و النّهار و محصلّ الكلام هو أنّ اللّه تعالى وضع كلّ واحدٍ في موضعه الخّاص به و هو ممّا لا شكّ فيه و هذا النّظم الخّاص يدلّ على حكمة خالقها و أنّه لا إله إلاّ هو و هو على كلّ شيءٍ قدير.

وَ آيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ

الفُلك بضمّ الفاء و سكون اللاّم السُّفن، و المعنى إنّا حملنا ذريّتهم، أي قوّيناهم و هديناهم في الفلك المشحون، أي المملوء قال قتادة و الضّحاك، المراد سفينة نوح فأنّها حملت قوم نوح و ذريّتهم، و حمل الكلام على العموم أولى إذ لا دليل على التّخصيص اللّهم إلاّ أن يقال أنّ سفينة نوح كانت من أكبر آيات اللّه و ذلك لأنّ من لم يدخل فيها غرق دخل فيها نجى.

وَ خَلَقْنا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ ما يَرْكَبُونَ

قيل المراد به الإبل و هى سفن البّر.

حمل الكلام على جميع المراكب أولى من تخصيصه بالإبل لأنّ اللّه تعالى في كلامه هذا أشار الى ما يركبون أيّ مركبٍ كان فأنّ حكم الأمثال واحد.

وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ

يقول اللّه تعالى أن أردنا أن نغرق من في الفلك فلا صريخ لهم أي فلا مغيث و لا معين لهم صارخ بالإستغاثة فأنّ من هلك لا صراخ له و قوله: **وَ لا هُمْ يُنْقَذُونَ**، فالإنقاذ الإخراج أي و لا هم يخرجون و لا يخلصون من الغرق ففي الآية إشارة الى قدرته تعالى على كلّ شيءٍ و هو ممّا لا كلام فيه فأنّ الخالق كذلك ثمّ إستثنى من ذلك من شمله رحمته الواسعة فقال:

إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتاعاً إِلى حِينٍ

أي إلاّ أن نرحمهم و نمتّعهم متاعاً الى حين أي الى زمانٍ قدّرناه لهم و المقصود الى وقت بلوغ آجالهم فعند ذلك لا يستأخرون ساعةً و لا يستقدمون و في هذا الكلام إشارة الى نقطةٍ و هى أنّ إمهالنا أيّاهم و عدم غرقهم في البحر لا يدّل على ضعف الخالق عن إهلاكهم كما ظنّه بعض من لا خبرة له و أنّما نؤخّرهم ليوم تشخص فيه القلوب و الأبصار.

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مٰا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مٰا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ

أي إذا قيل لهؤلاء الكفّار إتّقوا ما بين أيديكم، من عذاب اللّه و ما خلفكم من أمر السّاعة قاله بعض المفسّرين و قال الأخر ما بين أيديكم يعني ما مضى من الذّنوب و ما خلفكم، ما يأتي منها، و يقلب، ما مضى من أجلكم و ما خلفكم ما بقي منه، و قيل ما بين أيديكم من الدّنيا و ما خلفكم من عذاب الأخرة ذلك من الأقوال:

أقول و الأحسن أن يقال، إتّقوا ما بين أيديكم ممّا تفعلون به من سوء الأعمال و ما خلفكم أي و إتّقوا ما فعلتم فيما مضى فواظبوا في أعمالكم و أقوالكم في المستقبل و بادروا بالتّوبة فيما مضى عنكم من المعاصي.

و حاصل الكلام لا تغترّوا في دار الدُّنيا فأنّها فانية داثرة و لابدّ لكم من الورود على المحشر و هو اليوم الّذي لا ينفع فيه مالٌ و لا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم.

و قوله: **لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** معناه لكي ترحمون أن فعلتم ذلك، و جواب (إذا) محذوف أي إذا قيل لهم ذلك، أعرضوا عنه كما هو شأن الكافر المعاند ففي هذه الآية إيقاظٌ عن نوم الغفلة و حثٌّ على الطّاعة و الإنقياد ظاهر.

وَ مٰا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيٰاتِ رَبِّهِمْ إِلاّٰ كٰانُوا عَنْهٰا مُعْرِضِينَ

و هذه الآية في الحقيقة توبيخٌ لهم، و كلمة، ما، نافية أي أنّهم كانوا من أيات ربّهم معرضين إذ ما تأتيهم من أيةٍ إلاّ أعرضوا عنها و لم يتّنبهوا بها و ذلك لجهلهم و عنادهم فأنّ الجهل إذا خلط بالعناد فلا دواء له إلاّ الموت الّذي بعده العذاب و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد.

وَ إِذٰا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمّٰا رَزَقَكُمُ اللّٰهُ قٰالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَنْ لَوْ يَشٰاءُ اللّٰهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلاّٰ فِي ضَلاٰلٍ مُبِينٍ

و المعنى إذا قيل لهؤلاء القوم أنفقوا في سبيل اللّه ممّا رزقكم اللّه من النِّعم إلى الفقراء قال الكفّار المخاطبين بالإنفاق للمؤمنين من الفقراء، أنطعم من لو يشاء اللّه أطعمه، الهَمَزة للإنكار أي لا نطعم الفقير و ذلك لأنّ اللّه لم يطعمه و كان قادراً على إطعامه فلو شاء اللّه إطعامه أطعمه، و هذا إحتجاج للكفّار في منعهم الحقوق الواجبة عليهم و لم يعلموا أنّ اللّه تعبَّدهم بذلك لما فيه من المصلحة و حفظ النّظام و اللُّطف في فعل الواجبات و ترك المقبّحات فلذلك كلّفهم إطعام غيرهم.

قال بعض المفسّرين هم المشركون، قال لهم فقراء أصحاب النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم أعطونا ما زعمتم من أموالكم أنّها للّه فجرموهم و قالوا لو شاء اللّه أطعمكم إستهزاءً فلا نطعمكم حتّى ترجعوا إلى ديننا، أي إذا كان الّه رزقنا كما تزعمون فهو قادر على أن يرزقكم فلم تلتمسون الرّزق منّا.

و قوله: **إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**، قيل هو من قول الكفّار للمؤمنين، أي في سؤالِ المال و في إتّباعكم محمّداً صلّى اللّه عليه و آله و سلّم و قيل هو من قول أصحاب النّبي، أي أنّكم في إحتجاجكم في ضلالٍ مبين، و قيل هو من قول اللّه تعالى للكفّار حين ردّوا بهذا الجواب و قال القشيري و الماوردي أنّ الآية نزلت في قومٍ من الزّنادقة و قد كان فيهم أقواماً يتزبذقون فلا يؤمنون بالصّانع و إستهزؤا بالمسلمين بهذا القول و أنت ترى أنّ حمل الآية على العموم أولى و أنسب و كلمة، إن في قوله: **إِنْ أَنْتُمْ**، نافية بمعنى ليس و، ما، أي ما أنتم إلاّ في ضلالٍ ظاهر.

وَ يَقُولُونَ مَتَى هٰذَا ٱلْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

أخبر اللّه تعالى عن الكفّار أنّهم يقولون للمؤمنين متى هذا الوعد الّذي تدعونا إليه من نزول العذاب بنا أنّما قالوا ذلك إستهزاءً بما أخبر به النّبي، **إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**، في ما تدعون إليه و تخوّفونا به فقال اللّه تعالى في جوابهم:

مٰا يَنْظُرُونَ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَ هُمْ يَخِصِّمُونَ

أي لا ينتظرون هؤلاء الكفّار إلاّ صيحةً واحدةً، و هي نفخة إسرافيل تأخذهم الصَّيحة و هم يخصّمون، أي يختصمون في أمور دنياهم فيموتون في مكانهم و هذه نفخة الصَّفق و أنّما فسِّر ينظرون ينتظرون كأنّ من يلتمس الوعد يكون منتظراً لما وعد به.

فَلاٰ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَ لاٰ إِلىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ

أي تأخذهم الصَّيحة في حال خصامهم فلا يستطيعون و لا يقدرون توصية، بأن يوصي بعضهم إلى بعضٍ و لا إلى أهلهم يرجعون، لأنّهم يموتون في مكانهم فلا يرجعون إلى أهلهم فيوصون إليهم و هذه الصَّيحة في الدّنيا عند قيام السّاعة تأتيهم بغتةً و الرّجل يسقي إبله و أخر يبيع سلعه و هكذا و بالجلملة لكّ واحدٍ من النّاس مشغول بشغله ثمّ أشار اللّه تعالى إلى نفخةٍ أخرى فقال:

وَ نُفِخَ فِي اَلصُّورِ فَإِذٰا هُمْ مِنَ اَلْأَجْدٰاثِ إِلىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ

هذه النَّفخة الثّانية للنّشأة و فيها يبَث اللّه من في القبور، فأنّ الأجداث جمع جدث، و هو القبر و كلمة، إذا، للمفاجأة و النُسول الإسراع في الخروج و المعنى لمّا نفخ في الصُّور، و النّافخ إسرافيل، فإذا هم، أي الأموات من قبورهم إلى ربّهم ينسلون أي يسرعون.

قٰالُوا يٰا وَيْلَنٰا مَنْ بَعَثَنٰا مِنْ مَرْقَدِنٰا هٰذٰا مٰا وَعَدَ اَلرَّحْمٰنُ وَ صَدَقَ اَلْمُرْسَلُونَ

حكى اللّه تعالى عنهم إذا حشروا في النَّفخة الثانيّة للحساب أنّهم يقولون، من بعثنا من مرقدنا، أي من أحيانا من قبورنا، هذا، أي الإحياء بعد الموت ما وعد الرّحمن (ما) موصولة أي هذا الإحياء هو الّذي وعد الرّحمن في كتابه و

صدق المرسلون في أخبارهم إيّانا في دار الدّنيا و نحن كذّبناهم و أنكرناهم كفراً و عناداً.

إِنْ كٰانَتْ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً فَإِذٰا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنٰا مُحْضَرُونَ

إن، نافية أي ما كانت الصَّيحة إلاّ صيحة واحدة، و قيل ليست المدّة إلاّ مدّة صيحةٍ واحدة فإذا هم جميعٌ لدينا محضرون.

فَالْيَوْمَ لاٰ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

اللاّم للعهد الحاضر و المعنى هذا اليوم الحاضر أعني به يوم البعث للحساب لا تظلم نفسٌ شيئاً، لأنّ اللّه تعالى منّزهٌ عن الظُّلم، **وَ لاٰ تُجْزَوْنَ إِلاّٰ مٰا كُنْتُمْ** و لا تجزون إلاّ ما كنتم، في دار الدّنيا، تعملون به، فلا يجازى الإنسان إلاّ على قدر عمله أن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشّراً كما هو مقتضى العدل و هذا هو الّذي وعد الرّحمن و أخبر به المرسلون و سيأتي الكلام في هذا الباب بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه في موضعه.

إِنَّ أَصْحٰابَ اَلْجَنَّةِ اَلْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فٰاكِهُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و ما يليها عن أحولا المتّقين فقال أنّ أصحاب الجنّة اليوم، و هو يوم القيامة في شغلٍ، يعني يشغلهم النَّعيم الّذي يغمرهم بسرورهم به من غيره، و قيل الشُّغل كناية عن إفتضاض الأبكار، و قيل إستماع الألحان، فاكهون أي فرحون مسرورون، و قيل يفاكهون النّساء و يلاعبوهنّ.

و قال سعيد بن المسيب أنّ أصحاب الجنّة في شغلٍ بما هم فيه من اللّذات و النّعيم عن الإهتمام بأهل المعاصي و مصيرهم إلى النّار و ما هم فيه من أليم العذاب و أن كان فيهم أقرباؤهم و أهلوهم، و قيل في شغلٍ، أي في زيارة بعضهم بعضاً و قيل في ضيافة اللّه، و الأقوال كثيرة و الجامع بين الأقوال هو أنّ أهل الجنَّة مشغولون بما هم فيه من النِّعم فلا يلتفتون إلى غيرهم.

هُمْ وَ أَزْوٰاجُهُمْ فِي ظِلاٰلٍ عَلَى ٱلْأَرٰائِكِ مُتَّكِؤُنَ

أزواج جمع زوج و أنّما أتى بصيغة الجمع لأنّ أهل الجنّة لهم أزواج كثيرة لا يعلمها إلاّ اللّه، و **الظّلال** بكسر الظّاء و الألف و قرأ الكسائي و حَمزة و خلف و يحيى في ظلَلٍ بضّم الظّاء من غير ألف فالظّلال جمع ظلّ، و ظلل جمع ظلّة.

ٱلْأَرٰائِكِ جمع أريكة مثل سفائن و سفينة، قيل الظّلال، السّتار عن وهج الشّمس و سمومها فأهل الجنّة في مثل ذلك الحال في الطّيبة من الظّلال الّذي لا حرَّ فيه و لا برد، و الأريكة هي الوسادة و جمعها و سائد و يجمع أيضاً على أرك، مثل سفينة و سفن و سفائن و كيف كان فهذه جلسة الملوك و العظماء من النّاس الأرائك العرش.

و قال قتادة و عكرمة، الأرائك الحجال على السُّرر (متكئون) إسم مفعول من الإتّكاء من، توّكأن، إلاّ أنّ الواو أبدلت تاءً، و الإتّكاء بالفارسيّة (تكية زدن).

لَهُمْ فيهٰا فٰاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مٰا يَدَّعُونَ

أي لأهل الجنّة فيها فاكهة ولهم ما يدّعون، أي ما يتّمنون من النِّعم.

سَلاٰمٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحيمٍ

أي ولهم سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم، يسمعونه من اللّه.

و قيل معناه ولهم أن يسلّم اللّه علَيهم و يؤذنهم بدوام الأمن و السّلامة عن جميع الأفات و البّليات مع سبوغ النّعمة و الكرامة هنيئاً لأرباب النّعيم نعيمهم.

وَ ٱمْتٰازُوا ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ

قال قتادة معناه إعتزلوا معاشر العصاة عن كلّ خيرٍ، و قال الأخرون، إنفصلوا معاشر العصاة و إمتازوا الّذين أجرموا و إرتكبوا من المعاصي من جملة المؤمنين وكيف كان فالخطاب للمجرمين العصاة الذّين أنكروا التّوحيد و

النّبوة و المعاد و كذّبوا الأنبياء فلمّا وقعوا فيما وقعوا من العذاب الأليم خاطبهم اللّه بذلك و أعلمهم أنّ العذاب يوم القيامة نتيجة أعمالهم.

أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِيٓ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا ٱلشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ

الهمزة للإنكار أي عهدت إليكم بواسطة الأنبياء و حذّرتكم عن متابعة الشّيطان و أعلمتكم أنّه لكم عدوٌّ مبين، أي ظاهر لا خفاء فيه و المقصود إنّي أتممت عليكم حجّتي في الدُّنيا عقلاً و نقلاً كتاباً و سنّةً ليهلك من هلك عن بيّنةٍ و يحيا من حيّ عنها.

قال بعض المفسّرين المراد بالعَهد هُنا الوصَّية أي ألم أوصيكم و أبلَّغكم على ألسنة الرُّسل أن لا تعبدوا الشّيطان، أي لا تطيعوه في معصيتي إنتهى.

إن قلت أنّهم لم يعبدوا الشّيطان و أنّما عبدوا الأوثان و الأصنام فكيف يقول اللّه أن لا تعبدوا الشّيطان.

قلت أنّ عبادتهم الأصنام و الأوثان كانت بأمر الشّيطان و إغواءه.

قد قال الصّادق عليه السلام من أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده فأن كان النّاطق عن اللّه فقد عبد اللّه و أن كان النّاطق من إبليس فقد عبد إبليس، و هؤلاء القوم قد أصغوا إلى إبليس ففي الحقيقة عبدوه.

و أمّا العهد فقد يكون بواسطة الغير و ما نحن فيه من هذا القبيل فأنّ اللّه تعالى قد عهد إلى بني أدم بواسطة أنبيائه و يحتمل أن يكون المراد بالعهد، عالم الذّر، حيث قال تعالى: **أَلَستُ بِرَبّكُم قالوا بلىٰ** و كيف كان فالأمر واضح.

■

وَ أَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذاٰ صِراٰطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَ لَقَدْ
أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ
﴿٦٢﴾ هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾
ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِماٰ كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ
نَخْتِمُ عَلىٰٓ أَفْواٰهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنآ أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ
أَرْجُلُهُمْ بِماٰ كاٰنُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَ لَوْ نَشآٰءُ
لَطَمَسْناٰ عَلىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّراٰطَ فَأَنّٰى
يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَ لَوْ نَشآٰءُ لَمَسَخْناٰهُمْ عَلىٰ
مَكاٰنَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطاٰعُوا مُضِيًّا وَ لاٰ يَرْجِعُونَ
﴿٦٧﴾ وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلاٰ يَعْقِلُونَ
﴿٦٨﴾ وَ ماٰ عَلَّمْناٰهُ ٱلشِّعْرَ وَ ماٰ يَنْبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلاَّ
ذِكْرٌ وَ قُرْاٰنٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنْذِرَ مَنْ كاٰنَ حَيًّا وَ
يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكاٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنّاٰ
خَلَقْناٰ لَهُمْ مِمّاٰ عَمِلَتْ أَيْدِينآ أَنْعاٰمًا فَهُمْ لَهاٰ
ماٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَ ذَلَّلْناٰهاٰ لَهُمْ فَمِنْهاٰ رَكُوبُهُمْ وَ
مِنْهاٰ يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَ لَهُمْ فِيهاٰ مَناٰفِعُ وَ مَشاٰرِبُ
أَفَلاٰ يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ اٰلِهَةً
لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لاٰ يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ
لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلاٰ يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنّاٰ
نَعْلَمُ ماٰ يُسِرُّونَ وَ ماٰ يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَ لَمْ يَرَ
ٱلْإِنْساٰنُ أَنّاٰ خَلَقْناٰهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذاٰ هُوَ خَصِيمٌ
مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَ ضَرَبَ لَناٰ مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قاٰلَ

مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِقٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

◄ اللّغة

جِبِلًّا: بكسر الجيم و الباء أي جماعة كثيرة.

ٱصْلَوْهَا: الصَّلو اللُّزوم أي إلزموا العذاب.

لَطَمَسْنَا: الطَّمس محو الشّيْ حتّى يذهب أثره.

لَمَسَخْنَاهُمْ: المسخ قلب الصُّورة إلى خلقةٍ مشوّهةٍ.

مَكَانَتِهِمْ: المكانة و المكان واحد.

نُنَكِّسْهُ: من نكّست الشّيْ فإنتكس النّكس قلب الشّيْ على رأسه و منه نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه و الباقي واضح.

◄ الإعراب

جِبِلًّا مفعول به كَثِيرًا حال هذه مبتدأ جَهَنَّمُ خبره وَ هِيَ رَمِيمٌ مبتدأ و خبر و الجملة وقعت حالاً و هُوَ مبتدأ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ صفة و موصوف و الجملة خبر نَارًا مفعول به أي جعل ناراً أَوَ لَيْسَ الهَمزة للإنكار.

◄ التّفسير

وَ أَنِ ٱعْبُدُونِي هٰذاٰ صِراٰطٌ مُسْتَقِيمٌ

الواوللعطف و الآية معطوفة على سابقتها و التقدير **أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يا بَنِيٓ اٰدَمَ** أن أعبدوني، أن أعبدوني، ففي المقام نـهيٌ مـن اللّـه و أمـرٌ مـنه بـحسب العهد الّذي وصل إلى بني آدم من اللّـه تـعالى بـواسـطة أنـبيائه، فألنّـهي تـعَّلق بإطاعة الشّيطان و متابعته و هو الآية السّابقة، و الأمر تعَّلق بعبادة اللّـه تـعالى و هو هذه الآية ثمّ أنّ الطّاعة و الإنقياد للعبد.

أمّا أن تكون للّه تعالى و أمّا أن تكون لغيره و الحصر عقلّي لا ثـالث له فأن كانت الطّاعة للّه تعالى فهو المطلوب و أن كانت لغيره فـهو للشّـيطان و طـاعة العبد لا تخلو منهما فمن عبد الشّيطان لم يـعبد اللّـه و مـن عـبد اللّـه لم يـعبد الشّيطان و العبد مختار في إختياره و العقل يـحكم بـعبادة اللّـه الواحـد الأحـد الّذي خلق العبد لأنّ شكر المنعم واجب عقلاً و لا نـعمة أشـرف و عـظم مـن نعمة الإيجاد فمن عبد غيره خالف عقله و مـن خـالف عـقله فـهو أضّـل مـن الحيوان الّذي لا عقل له و لذلك عبَّر اللّه عنه بالصّراط المستقيم الّذي لا عـوج له، قال اللّه تعالى في سورة الحمد:

اَهْدِنَا اَلصِراٰطَ اَلْمُسْتَقِيمَ، صِراٰطَ اَلّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ اَلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا اَلضّاۤلّينَ.

و هذا ممّا لا كلام فيه، إلاّ أنّ الطّريق المستقيم واحد لا ثاني له و لا تعّدد فيه و السّالك إلى اللّه لابُّد له من تشخيص الطّريق و تعيينه ثـمّ المشـي فـيه بـقدم المعرفة فمن لا يعرف الطّريق كيف يصل الى المطلوب و حيث أنّ المـوضوع في المقام من أعلى الموضوعات فـي الدّيـن فـلابُّد لنا مـن التّكـلم فـيه عـلى حسب إقتضاء المقام.

فنقول لاشكّ لأحدٍ من العقلاء أنّ العبوديّة وظيفة العبد عقلاً و شرعاً و لاشكّ أيضاً عندهم أنّ العبوديّة بعد المعرفة فمن لم يعرف المعبود كيف عبده، ثمّ أنّ المعرفة على قسمين:

أحدهما: المعرفة الإجماليَّة الّتي تحصل لكُلّ عاقلٍ بحسب الفطرة العلم بأنّ له خالقاً لا محالة و أمّا أنّ موجودٌ أو معدومٌ بعد الإيجاد متّصف بالصّفات الكماليّة من العلم و القدرة و الإرادة و غيرهما أو غير متّصف بها، أزلّيٌ، أبدّيٌ، أو ليس كذلك، قابل للرؤيّة بالإبصار أو غير قابل لها و أمثال ذلك من الأوصاف فأنّ العلم بهذه الأمور ليس من الفطريّات و لذلك عبَّرنا عن هذه المعرفة، بالمعرفة الإجماليّة و هى الّتي متمركزة في الأذهان المستقيمة الخارجة عن التَّعصب و العناد و قد يعَّبر عنها بالمعرفة الفطريّة و هذا القدر من المعرفة ثابتة لأكثر النّاس من العوام.

ثانيهُما: المعرفة التَّفصلية بحسب الطّاقة البشريّة من العلم بوجود الخالق الحَّي الأزلّي الأبدّي الّذي لا يرى بالأبصار و هو يدرك الأبصار عليمٌ حكيمٌ، مريدٌ متكلّم ليس بجسم و لا جسمّاني منزَّه عن الظُّلم و العيب و جميع النّقائص الإمكانيّة و المعرفة بهذا المعنى لا تحصل إلاّ لأحّدي من النّاس و تحصيل هذه المعرفة يحتاج إلى مرشدٍ كاملٍ و معَّرف بصير فأنّ المعَّرف يكون أجلى و أعرف من المعرّف و إلاّ لا تحصل المعرفة، فثبت و تحقَّق أنّ المعرفة لا تحصل للعبد إلاّ بواسطة معرّف كاملٍ عارف بالطّريق الموصل إلى المطلوب و هذا لا يكون إلاّ نبّياً أو وصيّاً، و ذلك لأنّ غير النَّبي و الوصّي، كائناً من كان حكمه حكم غيره من احد النّاس و قد ثبت أنّ حكم الأمثال واحد و ضَّم المعدوم إلى المعدوم لا يفيد شيئاً و لذلك أمرنا اللّه تعالى في كتابه بإطاعتهما و متابعتهما بعد إطاعة اللّه فقال: **أَطِيعُوا اَللّٰهَ وَ أَطِيعُوا اَلرَّسُولَ وَ أُولِي اَلْأَمْرِ مِنْكُمْ**[١] و هذه الإطاعة مأمورة بها في جميع الشّئون سواء كانت في الفروع أم في الأصول.

١- النّساء = ٥٨

و من المعلوم أنّ الأصول الإعتقاديّة أهمّ و أشرف من الفروع فلابدّ للعبد أن يأخذ طريق المعرفه منهما، فأنّ المعبود الحقيقي واحد لا ثاني له، و طريق الوصول إليه أيضاً واحد لا ثاني له، فمن زعم أنّ الطُّرق إلى اللّه متكثّرة لم يعلم أنّ الطُّرق ليست بمتكثّرة بل الظّروف و أعني بها الأذهان و الأوهام متكثّرة فأنّ كثرة الطُّرُق من مبدعات الأوهام ضرورة أنّ صرف الحقيقة لا تكثُّر فيه و هذا معنى الحديث المشهور المرّوي عن المعصوم حيث قال: **الطُّرق إلىٰ اللّه بعدد أنفاس الخلائق** لا ما فهمه بعض المحدّثين، من كثرة الطُّرق و محصّل الكلام أنّ تعدَّد الطُّرُق و تكثّرها من مخترعات الأوهام المتعدّدة كما أنّ تعدَّد المياه بالظّروف فالطّريق الموصل إلى المطلوب في باب المعرفة و العبوديّة ليس إلاّ واحداً و هو طريق الأنبياء و الأوصياء الّذين طهَّرهم اللّه عن الزَّلل و الخطأ و السَّهو و النّسيان و الجهل و هذا هو الطّريق المستقيم الّذي لا عوج فيه فالعبادة الكاملة لا تحصل إلاّ به.

وَ لَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية بأنّ الشّيطان أضلَّ منكم جبّلاً كثيراً، أي خلقاً كثيراً من بني أدم، **أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ** الهَمزة للتّوبيخ أي أفلم تكونوا تعقلون أنّ الشّيطان كما أغواهم و أضلّهم قادرٌ على إغوائكم و إضلالكم أيضاً و من كان كذلك يجب الإجتناب منه.

هٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

في الدُّنيا و كذّبتم بها و الآن تشاهدونها.

ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ

قيل في معناه إلزموا العذاب بها و أصل الصِّلو اللّزوم و سميّت الصّلاة صلاةً للزوم الدّعاء فيها.

أقول قال الرّاغب في المفردات، أصل الصَّلي لإيقاد النّار و يقال صلي بالنّار و بكذا أي بلي بها و إصطلى بها و صلّيت الشّاة شويتها و هى مصلية و ساق الكلام إلى أن قال:

قال اللّه تعالى: **لا يَصْليٰهآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى، ٱلَّذي كَذَّبَ وَ تَوَلّىٰ**(١).

فقد قيل معناه لا يصطلي بها إلاّ الأشقى الّذى.

قال الخليل صلي الكافر النّار قاسى حرَّها و قيل صلى النّار دخل فيها إنتهى.

و قال بعض أهل اللّغة، إصلوها، إحترقوا بها يقال صليت النّار و بالنّار إذا نالك حرَّها إنتهى.

أقول إذا عرفت هذا فقوله إصلوها اليوم معناه أوقدوا النّار اليوم بما كنتم تكفرون، و حمل اللّفظ على معناه الأصلي أولى من حمله على غيره فقولهم في تفسير اللّفظ ألزموا العذاب، أو أدخلوا في نار جهنّم و أمثال ذلك من التّعابير و أن كان ممّا لا إشكال فيه إلاّ أنّه يوجب صرف اللّفظ عن معناه الأصلي من غير حاجةٍ إليه.

إن قلت ما معنى أوقدوا النّار أليس اللّه أوقد نار جهنّم .

قلت معناه أنّ أعمالهم في الدُّنيا صارت سبباً لإيقاد النّار في جهنّم فكأنّهم أوقدوها بإختيارهم فهو من قبيل ذكر اللاّزم و إرادة الملزوم فمن كفر باللّه أو قتل نفساً بغير حقٍّ مثلاً فكأنّما أوقد نار جهنّم ليحترق فيها و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد و هذا الّذي ذكرناه لا نافي أن تكون الجنّة و النّار مخلوقين للّه تعالى كما دلَّت عليه الأيات بل يدلّ على أنّ الجنّة و النّار خلقهما اللّه بسبب أعمالنا في الدّنيا ضرروة أنّ المعصية سبب للعذاب في النّار كما أنّ الطّاعة سبب لدخول الجنّة فلولا معصية العصاة و الكفر باللّه لم يخلق اللّه جهنّم، قطعاً لعدم الحاجة إليها و يمكن الإستدلال به من الأيات أيضاً:

١- اللّيل = ١٦ / ١٥

قال اللّه تعالى: **وَ يَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى، ٱلَّذِي يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ**[۱].

و دَلَّت الآية على أنّ الأشقى هو الّذي يصلى أي يوقد النّار الكبرى، قال تعالى: **سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**[۲] و هذه الآية صريحة في المدّعى فأنّ قوله سيصلى يدُّل على أنّ ايقاد النّار في المستقبل بسبب أعماله في الدّنيا أي أنّ الكافر و هو أبو لهب مثلاً سيوقد ناراً ذات لهب بسبب كفره.

قال اللّه تعالى: **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ ٱلْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَ سَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا**[۳].

و من المعلوم أنّهم لا يأكلون النّار في دار الدّنيا و مع ذلك حكم اللّه في الآية بأنّهم يأكلون في بطونهم ناراً، على سبيل الحصر المستفاد من كلمة، أنّما، ثمّ قال و سيصلون سعيراً، غداً يوم القيامة في جهنّم و أمثال ذلك من الأيات كثيرة و سنتكلّم في الباب في المستقبل بوجهٍ أبسط إن شاء اللّه و نذكر هناك ما ورد فيه من الأخبار و الأثار فأنّ تجّسم الأعمال ثابت عقلاً و شرعاً.

ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَاهِهِمْ وَ تُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

اللاّم للعهد الحاضر أي يوم الحساب نختم على أفواههم فلا يقدرون على الكلام و النطق بما شاءوا و أرادوا و تكّلمنا أيديهم و تشهد أرجلهم، **بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** أي يعملون في الدّنيا من الأعمال و إختلف المفسّرون في معنى الشّهادة على أقوالٍ:

أحدها: أنّ اللّه تعالى يخلقها خلقةً يمكنها أن تتكلّم و تنطق و تعترف بذنوبها.

۱- الأعلىٰ = ۱۲
۲- المَسَد = ۳
۳- النّساء = ۱۰

الثّاني: أنّه يجعل اللّه فيها كلاماً و نسبه إليها لما ظهر من جهتها.

الثّالث: قال قوم أنّه يظهر فيها من الإمارات ما تدلّ على أنّ أصحابها عصوا و جنوا بها أقبح الجنايات فسمّي ذلك شهادة كما يقال عيناك بكذا، ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و نحت نقول لا نحتاج إلى هذه الوجوه السَّخيفة في إثبات الشّهادة أصلاً و ذلك لأنّ البحث تارةً يقع في صدور الكلام و النَّطق من الأرجل و الأيدي، و أخرى في وجه تسمية النّطق منها بالشّهادة.

أمّا الأوّل: و هو صدور الكلام و النُّطق فقد أجاب اللّه تعالى عنه في موضع أخر حيث قال:

حَتّٰى إِذٰا مٰا جٰآءُوهٰا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَ أَبْصٰارُهُمْ وَ جُلُودُهُمْ بِمٰا كٰانُوا يَعْمَلُونَ، وَ قٰالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنٰا قٰالُوٓا أَنْطَقَنَا ٱللّٰهُ ٱلَّذِيٓ أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ[١].

وجه الإستدلال ظاهر و هو أنّ اللّه يقدر على إنطاق كلّ شيءٍ كما يقدر على إيجاده فمن قدر على الإيجاد قدر على الإنطاق بطريقٍ أولى.

و أن شئت قلت كما أنّ اللّه تعالى قادر على إنطاق البشر كذلك قادرٌ على إنطاق أعضاءه و جوارحه إذ لا فرق بين الموضعين.

أمّا الثّاني: و هو تسمية النُّطق بالشّهادة و بعبارةٍ أخرى معنى شهادة الأيدي فنقول الشُّهود الحضور.

قال في المفردات، الشُّهود و الشّهادة الحضور مع المشاهدة أمّا بالبصر أو بالبصيرة و اذا ثبت النُّطق في الأعضاء و الجوارح ثبتت الشّهادة بمعنى الحضور لحضور الأعضاء عند العمل و من المعلوم أنّ حضور كلّ شيءٍ بحسبه و هذا ممّا لا ريب فيه أصلاً إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ هذه الآية و أمثالها

١- فصّلت = ٢١ / ٢٠

عند التأمّل فيها ممّا تقشّعر به الجلود و تضطرب العقول فعلى المكلّف العاقل أن يواظب على نفسه حقّ المواظبة لئلا يقع في المهلكة.

وَ لَوْ نَشٰآءُ لَطَمَسْنٰا عَلٰىٓ أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا ٱلصِّرٰاطَ فَأَنّٰى يُبْصِرُونَ

الطّمس محو الشّيئ حتّى يذهب أثره.

قال إبن عبّاس معناه إنّا لو شئنا أعميناهم عن الهدى.

و قال قتادة معناه لتركناهم عمياً يتردّدون و المعنى لأعميناهم فلا يبصرون طريقاً الى تصّرفهم في منازلهم و لا غيرها و هذا إختيار الطّبري.

أقول إذا كان الطّمس معناه إزالة الأثر بالمحو فالمعنى ولو نشاء أزلنا ضواءها و صورتها كما يطمس الأثر ثمّ قال فأستبقوا الصراطّ أي إستبقوا الطّريق ليجوزوا فأنّى يبصرون.

و قال بعض المفسّرين: المعنى ولو نشاء لفقأنا أعين ضلالتهم و أعميناهم عن عنيّهم و حوّلنا أبصارهم من الضّلالة الى الهدى فأهتدوا و أبصروا رشدهم و تبادروا الى طريق الأخرة، ثمّ قال فأنّى يبصرون، فلم نفعل ذلك بهم، أي فكيف يهتدون و عين الهدى مطموسة على الضّلال باقية إنتهى كلامه.

فعلى هذا المراد بالعين في الآية عين الضّلالة.

أقول ما ذكروه في تفسير الآية لا إشكال فيه إلاّ أنّه من قبيل الأكل من القفا مضافاً الى أنّ حمل العين على عين الضّلالة خلاف ظاهر الآية و لا دليل لهم على لزوم صرف الكلام عن ظاهره و قد إتّفق أهل اللُّغة على أنّ العين هي الجارحة الّتي بها يبصر و إرادة غير هذا المعنى منها تحتاج الى قرنية دالّة على عدم إرادة معناها الحقيقي.

و أمّا في المقام فقال اللّه تعالى: **وَ لَوْ نَشٰآءُ لَطَمَسْنٰا عَلٰىٓ أَعْيُنِهِمْ**، و الطّمس إزالة الأثر بالمحو، و أثر العين الإبصار بها و إن شئت قلت أثر العين الرؤيّة بها، و طمسنا إزالة الرؤية عنها بمعنى أنّها مع كونها صحيحة قابلة للرّؤية

بها لا يرى بها شيئاً فقوله: **لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ**، مثل قوله: **وَ عَلَىٰٓ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**، و الّدليل على ذلك أنّه تعالى لم يقل لطمسنا أعينهم، بل قال لطمسنا على أعينهم فكلمة، على، تدلّ على أنّ هناك مانعٌ عن الرّؤية كقوله تعالى: **فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ** ألا ترى أنّ النّبي صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا أراد الهجرة من مكّة الى المدينة و كان محصوراً في داره و حوله المشركون خرج من بينهم و هم أعني المشركين لم يروه بقدرة اللّه تعالى وهذا هو الطّمس على الأعين، لا محو الباصرة بالكليّة المعبّر عنه بالعمى.

إذا عرفت هذا فمعنى الآية ولو نشاء لأزلنا عن أعينهم أثر الرّؤية أصلاً و لكن لم نفعل بهم ذلك رحمةً منّا عليهم و إتماماً للحجّة ولو فعلنا بهم ذلك فأستبقوا الصراطّ فأنّى يبصرون و الحاصل أنّهم من مصاديق قوله تعالى: **وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا** و لمّا كان في ذلك كفران النّعمة فأستحقّوا بذلك اللّوم و الذّم.

وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ

المَسخ، بفتح **الميم** و سكون **السّين** و **الخاء**، تشويه الخلق و الخُلق و تحويلهما من صورةٍ الى صورةٍ أخرى، و قيل هو قلب الصوّرة الى خلقةٍ مشوّهة.

قال بعض الحكماء المسخ قولان:

مسخٌ خاّص، و هو مسخ الخلق.

و مسخٌ قد يحصل في كلّ زمانٍ و هو مسخ الخلق، و ذلك أن يصير الإنسان متخلّقاً بخلقٍ ذميم من أخلاق بعض الحيوانات نحو أن يصير في شدّة الحرص كالذّئب و الكلب و في الشّره، كالخنزير، و في الحيلة كالثّعلب و هكذا.

فمن الأوّل و هو المسخ الخّاص أعني به قلب الصوّرة و تشويه الخلق.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ**[1].

١- البقرة = ٦٥

قال اللّٰه تعالىٰ: **مَنْ لَعَنَهُ ٱللّٰهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَ ٱلْخَنٰازِيرَ**(١).

قال اللّٰه تعالىٰ: **فَلَمّٰا عَتَوْا عَنْ مٰا نُهُوا عَنْهُ قُلْنٰا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خٰاسِئِينَ**(٢).

من الثّاني: و هو مسخ الخلق ما نرى و نشاهد في أكثر النّاس من وجود الحرص و البخل و الحسد و الشِّره و غير ذلك من الأخلاق الرّديئة الذّميمة فيهم إذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **وَ لَوْ نَشٰآءُ لَمَسَخْنٰاهُمْ عَلٰى مَكٰانَتِهِمْ** الىٰ آخر الأية.

يحتمل فيه الأمران مسخ الخلق و مسخ الخلق إلاّ أنّ الآية في الأوّل أعني به مسخ الخلق أظهر و علىٰ هذا فمعنى الآية ولو نشاء لسمخناهم، أي غيّرنا صوّرهم و شوَّهنا خلقهم و صوّرناهم بصورة الحيوان كما فعلنا بالأمم السّالفة، و قوله: **عَلٰى مَكٰانَتِهِمْ**، قيل أي علىٰ مكانتهم فأنّ المكان و المكانة بمعنىٰ و لو فعلنا بهم ذلك فما إستطاعوا أي فلم يقدروا أن يذهبوا أصلاً و لا أن يجيئوا.

قال الزّمخشرى، المكانة و المكان واحد كالمقامة و المقام أي لمسخناهم مَسخاً يحمدهم مكانهم لا يقدرون أن يبرحوه إنتهىٰ.

أقول هكذا فسَّروا الآية و لنا في المقام كلام معَ هؤلاء الأعلام و هو أنّ المكانة في الآية لو كانت بمعنىٰ المكان كما عليه الجمهور فحقّ الكلام أن يقال في مكانهم لأنّه أسهل و أفصح من المكانة هذا أوّلاً.

ثانياً: لم قال علىٰ مكانتهم و لم يقل في مكانتهم أي في مكانهم مع أنّ المسخ وقع عليهم في مكانهم، يقال ضربته في مكانه، و لا يقال ضربته علىٰ مكانه، و حيث أنّ اللّٰه تعالىٰ عدل، عن كلمة، في، الىٰ كلمة، علىٰ، مع أنّ المكانة بمعنى المكان، و مسخناهم في مكانهم أفصح من علىٰ مكانهم، علمنا

١- المائدة = ٦٠ ٢- الأعراف = ١٦٦

بذلك أنّ في الآية نقطة خفيت على المفسّرين و هى أنّ المكانة بمعنىٰ القدر و المنزلة و القُدرة و الإستطاعة و أمثال ذلك و الجامع التَّمكن.

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ يا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ إِنّى عامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **قُلْ لِلَّذينَ لا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا عَلىٰ مَكانَتِكُمْ إِنّا عامِلُونَ**[٢].

و المعنى قل يا قوم إعملوا على غاية تمكّنكم و إستطاعتكم و قدرتكم في الدُّنيا، فلو كانت المكانة و المكان واحداً يصير المعنىٰ إعملوا علىٰ مكانكم و هو كما ترىٰ لا معنىٰ له، إذا عرفت هذا فقوله تعالىٰ: **وَ لَوْ نَشآءُ لَمَسَخْناهُمْ عَلىٰ مَكانَتِهِمْ**، معناه علىٰ قدرتهم و تمكّنهم جسماً و مالاً و منزلةً بين النّاس و فيه إشارة الىٰ قدرة اللّه و أنّهم كانوا مغرورين بأموالهم و أقدارهم و لَم يعلموا أنّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير.

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنّاهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ**[٣].

و إذا كان كذلك فحقّ الكلاک علىٰ مكانتكم، أي على قدرتكم و تمكّنكم، هذا ما فهمناه منها واللّه أعلم.

وَ مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلا يَعْقِلُونَ

النَّكَس بفتح النُّون و سكون الكاف و السّين قلب الشّيءِ علىٰ رأسه و منه، نكس الولد إذا خرج رجله قبل رأسه و النَّكس في المرض أن يعود في مرضه بعد إفاقته، و معنى الآية من طوّلنا عمره نصيّره بعد القوّة الىٰ الضّعف و بعد زيادة الجسم الى النُّقصان و هكذا و قيل معناه نصيّره و نردّه الىٰ حال الهرم الّتي تشبه حال الصّبي و غروب العلم و ضعف القوى قاله قتادة.

١- الأنعام = ١٣٥
٢- هُود = ١٢١
٣- الأنعام = ٦

أقول الأصل فيه هو أنّ كلّ شئ يرجع الىٰ أصله، فالإنسان خلق من ضعفٍ ثمّ جعل اللّه فيه من بعد ضعفٍ قوّة ثمّ جعل من بعد قوّةٍ فيه ضعفاً، و هذا قلب الشّئ علىٰ رأسه.

قال اللّه تعالىٰ: **اَللّٰهُ اَلَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ وَ هُوَ اَلْعَليمُ اَلْقَديرُ**[1].

و أنمّا قلنا الأصل فيه هو أنّ كلّ شئ يرجع الىٰ أصله، لأنّ هذا الحكم لا يختصّ بالإنسان فقط بل هو سارٍ في جميع المخلوقات من الملائكة و الإنسان و الجنّ و الحيوان و النّبات و الجماد و بالجملة جميع الموجودات الحادثة حتّىٰ العقول و النُّفوس فأنّ كلّ مخلوقٍ له قوسين، قوس صعود، و قوس نزولٍ، ثبت أنّ كمال كلّ شئ بحسبه فإذا بلغ الموجود الى كماله المترقّب منه لا محالة يرجع الى ما كان أوّلاً من النّقص و ليس معنى الآية أنّ طول العمر يوجب تشويه الوجه و الجسم و الأعضاء كما توّهمه الجّهال بل معنى الآية **مَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ** أي نرجعه و نقلّبه الىٰ ما كان أوّلاً من الضّعف بحسب الخلقة فالخلق بمعنى الخلقة لا بمعنى المخلوق و قوله: **أَفَلا يَعْقِلُونَ**، معناه أفلا يتدبَّرون فيه، ليعلموا:

أِنَّ اللّٰه عَلىٰ كُلِّ شئٍ قَديرِ إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ، كُلُّ شَيْءٍ هٰالِكٌ إِلّٰا وَجْهَهُ.

وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ ٱلشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّٰا ذِكْرٌ وَ قُرْاٰنٌ مُبينٌ، لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكٰافِرينَ

أخبَر اللّه تعالىٰ عن نبيّه **وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ ٱلشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغي لَهُ**، إختلفوا في وجه عدم التّعليم، فقال قوم لأنّه لو علّمه ذلك لدخلت به الشُّبهة على قومٍ في

۱- الرّوم = ۵۴

ما أتى به من القرآن و أنّه قدر علىٰ ذلك لما في طبعه من الفطنة للشّعر، و قيل لمّا لم يعط اللّه نبيّه العلم بالشّعر و إنشاءه لم يكن قد علّمه الشّعر لأنّه الّذي يعطي فطنة ذلك من يشاء من عباده ذكر هذين الوجهين في التّبيان و لا يخفى عليك ضعف القولين فأنّ القرآن ليس من الشّعر حتّى دخلت الشّبهة على قوم بذلك في القرآن.

و قال الزّمخشري في الكّشاف كانوا يقولون لرسول اللّه شاعر.

و روي أنّ القائل عقبة بن أبي معيط فقال تعالىٰ: **وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ ٱلشِّعْرَ**، أي و ما علمّناه بتعليم القرآن الشّعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعرٍ و ما هو من الشّعر في شيءٍ و ساق الكلام الىٰ أن قال في قوله تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُ** و ما يصّح له و لا يتطلب لو طلبه أي جعلناه بحيث لو أراد قرض الشّعر لم يتأت له و لم يتسهل كما جعلناه أمّياً لا يهتدي للخطّ و لا يحسنه لتكون الحجّة أثبت و الشّبهة أدحض.

و نقل عن الخليل أنّه قال كان الشّعر أحبّ الىٰ رسول اللّه من كثيرٍ من الكلام و لكن كان لا يتأتّىٰ له إنتهىٰ ما في الكشّاف.

أقول معنىٰ الآية لا يحتاج الىٰ هذه التكلّفات السّخيفة الباردة الّتي ينفر الطّبع منها و ذلك لأنّ الآية جواب عن الكفّار و اللمشركين الّذين حكى اللّه عنهم في كتابه حيث قال:

قال اللّه تعالى: **بَلْ قٰالُوٓا أَضْغٰاثُ أَحْلٰامٍ بَلِ ٱفْتَرٰيهُ بَلْ هُوَ شٰاعِرٌ**[١].

أَئِنّٰا لَتٰارِكُوٓا اٰلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ[٢].

أَمْ يَقُولُونَ شٰاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ[٣].

و يظهر من هذه الأيات أنّ المشركين جعلوا النّبي من الشّعراء الّذين قال اللّه تعالىٰ فيهم:

١- الأنبياء = ٥
٢- الصّافات = ٣٦
٣- الطّور = ٣٠

قال اللّه تعالى: **وَ ٱلشُّعَرٰآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغٰاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فـي كُـلِّ وٰادٍ يَهِيمُونَ، وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مٰا لا يَفْعَلُونَ**(١).

و إذا كان الشّاعر غير قابلٍ للإتّباع في قوله: (ولا يَتَّبعه إلاّ الغاوون) فكيف نتَّبعه، و صورة القياس علىٰ زعم المشركين هكذا، هذا شاعرٌ، و كلّ شاعرٍ لا يتَّبع بدليل الأية، فهذا لا يتّبع، فأجاب اللّه تعالى عن قولهم هذا بأنّ صغرى القضيّة و هى قولهم هذا شاعرٌ مخدوشة فالقياس باطل وجه الخدشة أنّ محمّداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ليس بشاعرٍ و لا ينبغي أن يكون شاعراً لأنّه أجلّ شأناً و أرفع مقاماً من أن يكون شاعراً.

روي أنّ المأمون قال لأبي علي المنقري بلغني أنّك أمّي و أنّك لا تقيم الشّعر و أنّك تلحن، فقال في جواب المأمون، أمّا اللَّحن فربّما سبق لساني منه بشئٍ و أمّا الأمّية و كسر الشّعر فقد كان رسول اللّه لا يكتب و لا يقيم الشِّعر فقال المأموم سألتك عن ثلاثة عيوب فيك فزدتني رابعاً و هو الجهل، ياجاهل أنّ ذلك كان للنّبي فضيلة و هو فيك و في أمثالك نقيصة و أنّما منع النّبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ذلك لنفي الظّنة عنه لا لعيب في الشّعر و الكتابة.

أقول ما ذكره المأمون حقّ فأنّ كلّ واحدٍ من الكتابة والشِّعر كمال في حدّ ذاته و عدمه نقص، أمّا الكتابة فمعلوم لا كلام فيها و أمّا الشّعر فهو أيضاً كذلك إذا كان عارياً عن الكذب و التَّملّق و الرّياء ألا ترى أنّ اللّه تعالىٰ بعد قوله: **وَ ٱلشُّعَرٰآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغٰاوُونَ**، الأيات إستثنى منها من كان مؤمناً صالحاً فقال:

إِلَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ ذَكَرُوا ٱللّٰهَ كَثِيرًا(٢).

يستفاد من الآية أنّ الشّاعر إذا كان مؤمناً صالحاً في أعماله ذاكراً للّه تعالىٰ في أشعاره فهو ممدوحٌ محبوبٌ عند اللّه و رسوله و على هذا فالذَّم لم يتعلّق بالشّعر و الشّاعر بقولٍ مطلق و اذا لم يتعلّق الذّم به شرعاً و عقلاً بقولٍ مطلق

١- الشُّعراء = ٢٢٤ إلىٰ ٢٢٦

٢- الشّعراء = ٢٢٧

فهو ممدوحٌ في حدّ ذاته لعدم الواسطة بين المدح و الذّم و اذا ثبت مدحه و حسنه في ذاته فهو كمال للإنسان إذ لا نعني بالكمال إلاّ هذا و العقل أيضاً يحكم بحسنه إذا عرفت هذه المقدّمة فنقول:

كلّ شيءٍ حكم العقل و الشّرع بحسنه فهو مأمورٌ به شرعاً و عقلاً و كلّ شيءٍ حكم الشّرع بقبحه فهو مذموم منهيٌ به شرعاً و عقلاً و هذا حكمٌ لا إستثناء فيه.

و من المعلوم أنّ الشّعر الصّحيح الخالي عن الكذب و الفساد حسن لا ذمّ فيه عقلاً و شرعاً فهو مأمورٌ به لا منهيٌّ عنه، و هذا مثل قول لبيد الشّاعر فأنّه لمّا أنشد في حضور النّبي قوله:

ألا كلّ شيءٍ ما خلا اللّه باطلُ   وكلّ نعيم لا محالة زائلُ

إستحسنه النّبي و قال صلّى الله عليه وآله وسلّم هو أصدق شعرٍ قالّته العرب و منه قول السّعدي بالفارسيّة حيث قال:

برگ درختان سبز در نظر هوشيار
هر ورقش دفترى است معرفت كردگار

و منه قول الأخر:

ما إن مدحت محمّداً بمقالتى   لكن مدحت مقالتي بمحمّدٍ

و الأشعار بهذه المضامين عند العرب و العجم و غيرهما كثيرة و كيف يمكن الحكم بقبح الشّعر و ذمّ الشّاعر بقولٍ مطلق نعم الشّاعر الفاسق الهازل الّذي يقول الشّعر لأجل المنافع الدّنيوية و يمدح الفسّاق و الفّجار و يتملّق في شعره لجلب الحطام الدّنيوية أو لأغراضٍ أخر، و هو مذمومٌ قطعاً و شعره مردودٌ مطرود جدّاً و لا يعدّ الشّعر بهذا المعنى من الكمال بل هو من أرذل الصّفات و شاعره من أخبث النّاس و هذا معلوم و لا كلام لنا فيه.

و أمّا الشّاعر المؤمن الصّالح إذا أتى بشعرٍ فيه موعظة كما أشرنا إلى شطرٍ منه فهو ممدوحٌ و شعره مطلوب و ربّما يكون أوقع في النّفوس من النّثر و هذا

هو الكمال المطلوب من الشّاعر و هذا ممّا لا خلاف فيه و لا أظنّ عاقلاً قال بقبح الشِّعر مطلقاً و أنّه ليس من الكمال بشيءٍ أو أنّه نقصٌ لقائله.

إن قلت إذا كان الأمر على هذا المنوال و حكمت بأنّ الشِّعر في حدّ ذاته كمال فما معنىٰ قوله تعالىٰ: **وَ مٰا عَلَّمْنٰاهُ ٱلشِّعْرَ وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُ** أليس قوله: **وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُ** دالاًّ علىٰ نقصه و عيبه و بعبارةٍ أخرى كيف منع اللّه و رسوله عن كمالٍ من الكمالات.

قلتُ الكمال و النَّقص من الأمور الإضافية التّي تتفاوت بالنّسبة إلى الأشخاص و بعبارةٍ أخرى لهما عنوانان، أوَّلي و ثانوي، فقد يكون الشّيئ بعنوانه الأوّلي كمالٌ و بعنوانه الثّانوي نقص حتّى في بشخصٍ واحد فضلاً عن أشخاصٍ متعددة كالصِّدق و الكذب مثلاً، إذ لا شكّ لأحدٍ أنّ الصِّدق حسن ممدوح عقلاً و شرعاً و الكذب قبيح كذلك ذاتاً فالصّادق ممدوحٌ و الكاذب مذمومٌ و الصّدق مأمور به و الكذب منّهى عنه، و أمّا إذا كان الصِّدق موجباً و باعثاً لقتل مؤمنٍ فهو مذمومٌ و الصّادق ملعونٌ مطرود ففي أمثال هذه الموارد يجب الكذب قطعاً فيصير الصّدق مذموماً و الكذب ممدوحاً و هذ هو العنوان الثّانوي في مورد خاصّ.

و العنوان الأوّلي محفوظ لا يتغيّر و لا يتبدّل و اذا كان الوصف في شخصٍ واحد هكذا فما ظنّك في تغيير الحكم إذا قيس بأشخاص متعدّدة فهو أولىٰ بأن يكون في حقّ شخصٍ كمالاً و في شخص أخر نقصاً من حيث الإضافة لا بما هو هو و بعبارةٍ أخرىٰ بعنوانه الثّانوي لا بعنوان الأوّلي و الشِّعر من هذا القبيل فأنّه أي الشِّعر إذا أضيف إلى زيد و عمر كان كمالاً لهما و اذا أنسب إلىٰ الرّسول كان نقصاً له ففي المثال يكون النّقص من جانب الإضافة لا من جانب الشِّعر و نظائره كثيرة ألا ترىٰ أنّ التّقية من من الأعداء كمال في حدّ ذاته نقص في حقّ الرّسول فأنّ الرّسول لا تقيّة له و أمّا في غير الرّسول فهي واجبة عقلاً و شرعاً كما قال المعصوم عليه السلام من لا تقيّة له لا دين له فأن كانت التّقية في حدّ

ذاتها قبيحة فلم أمرنا اللّه و رسوله بها و أن كانت حسنة فلم لا تجوز للرّسول و الجواب يستفاد ممّا ذكرناه و هو أنّها حسنة و غير حسنة بإعتبارين و لهذه الدّقيقة.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مٰا يَنْبَغِي لَهُ** أي للرّسول لا لغيره هذ كلّه في الشّعر وأمّا الكتابة فقد مرَّ الكلام فيها سابقاً و لا كلام لنا فيها فعلاً و ملّخص الكلام هو أنّ النّبي كان جامعاً لجميع الصّفات عارفاً عالماً بجميع ما يحتاج اليه البشر الى يوم القيامة إلاّ أنّ مقام العلم غير مقام الإظهار و هو واضح.

و قوله تعالىٰ: **إِنْ هُوَ إِلّٰا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ** إن، نافية، والمعنىٰ ليس الّذي يتلوه عليكم من الأيات إلاّ ذكرٌ و قرآن مبين و ليس من الشّعر بشيٍء.

لِيُنْذِرَ مَنْ كٰانَ حَيًّا وَ يَحِقَّ اَلْقَوْلُ عَلَى اَلْكٰافِرِينَ أي أنّما أنزلنا القرآن عليه لينذر به من كان حيّاً، أي مؤمناً متّصفاً بحياة القلب و أمّا الكفّار فأنّهم أموات غير أحياء، و يحقّ القول على الكافرين، إذا لم يقبلوا و خالفوا فيه و بعبارة أخرىٰ إتماماً للحجّة عليهم ففي الآية إشارة الىٰ أنّ الإنذار من النّبي له فائدتان:

الأولىٰ: بالنّسبة الىٰ المؤمن الموّحد و هو الّذي قلبه متّصفٌ بالحياة المعنّوي واقعاً.

الثّانية: بالنسّبة الىٰ الكافر في تمّامية الحجّة عليه و أنمّا فسّرنا الحياة في الآية بالمؤمن لأنّ الحياة الواقعي حياة القلب بنور الإيمان فمن لا إيمان له لا حياة له واقعاً و أن كان حيّاً ظاهراً وأنمّا خصّ الإنذار بمن كان حيّاً قلباً لأنّ شرط تأثير العلّة في المعلول قابليّته و إستعداده لقبول التأّثر و المؤمن بسبب إيمانه قابلٌ له بخلاف الكافر و لذلك قال من كان حيّاً ألا ترى أنّ أباسفيان و معاوية و أمثالهما من المنافقين لم يقبلوا إنذار النّبي بل إزدادوا كفراً و عتّواً، بخلاف سلمان و أباذر و مقداد و أمثالهم ممّن كانوا متّصفين بحياة الإيمان و لنعم ما قيل بالفارّسية:

درختی که تلخ است ویراسه شت	گرش بر نشانی بباغ بهشت
دار از جوی خلدش بهنگام آب	به بیخ انگبین ریزی وشهد ناب
سر انجام گوهر ببار آورد	همان میؤه تلخ بار آورد

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنا لَهُمْ مِمّا عَمِلَتْ أَيْدِينا أَنْعاماً فَهُمْ لَها مالِكُونَ، وَ ذَلَّلْناها لَهُمْ فَمِنْها رَكُوبُهُمْ وَ مِنْها يَأْكُلُونَ

و المعنى أو لم يروا هؤلاء الكفّار أنّا خلقنا لهم ممّا عملت أيدينا أنعاماً، قيل في معنى، ممّا عملت أيدينا، أي ممّا توّلينا نحن إحداثه و لم يقدر علىٰ توّليه غيرنا و عمل الأيدي إستعارة من عمل من يعملون بالأيدي قاله الكشّاف و قال غيره معناه أنّا عملناه من غير أن نكله الى غيرنا.

فهو بمنزلة ما يعمله العباد بأيديهم في أنّهم تولّوا فعله و لم يكلوه الىٰ غيرهم و تقديره إنّا توّلينا خلق الأنعام لهم بأنفسنا، قاله الشّيخ في التّبيان و تبعهما العامّة والخاصّة في تفاسيرهم بألفاظٍ مختلفة و المآل فيها واحد.

نعم قال بعض المفسّرين من المعاصرين في تفسيره لهذه الأية، المراد بكون الأنعام ممّا عملته أيدي اللّه تعالى عدم إشراكهم في خلقها و إختصاصه به تعالىٰ فعمل الأيدي كناية عن الإختصاص إنتهىٰ.

أقول ما ذكروه في تفسير الكلام لا بأس به إلاّ أنّه ليس تفسيراً للّفظ أعني به الأيدي والّذي يختلج بالبال هو أنّ اليد هنا كناية عن القدرة و الجمع للتّعظيم فهو من قبيل قوله تعالىٰ: **يَدُ اَللّٰهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**[1] أي قدرة اللّه فوق قُدرتهم فمعنى الآية أو لم يروا، أي أو لم يعلموا أنّا خلقنا و أوجدنا لهم ممّا عملت أيدينا أي قدرتنا، أنعاماً لهم أي لأجل الإنتفاع بها فَهم لها، أي للأنعام مالكون، في الدُّنيا كما يقال هذا مالك الغنم هذا مالك الأبل و هكذا و فيه إيماء الىٰ أنّ

١- الفتح = ١٠

المالك الحقيقي لها هو اللّه الّذي خلقها فالمالكيّة فيهم إعتبّارية لا حقيقّية ثمّ أشار الىٰ ما يتّرتب عليها من النّفع.

فقال: **وَ ذَلَّلْنٰاهٰا**، أي سخرناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون، الأنعام جمع نعم و هى الأبل والبقر و الغنم، فالأبل الّركوب والأكل و البقر و الغنم للأكل، و أنّما قال تعالىٰ: **أَنْعٰامًا**، و لم يقل حيواناً، مثلاً لنقطةٍ و هى أنّ الآية بصدد بيان الإنتفاع من الحيوان بالرُّكوب و الأكل و ليس كلّ حيوان قابلاً للرُّكوب أو قابلاً للأكل، أو لأنّ الإبل والبقر و الغنم من أنفع الحيوانات إذ لا يوجد في الحيوان ما يصلح للرُّكوب والأكل معاً إلاّ بعضها و لهذا أتى بكلمة، مِن، الّتي تفيد التّبعيض و قال: **فَمِنْهٰا رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهٰا يَأْكُلُونَ**، أي من بعض الحيوانات و كيف كان فتخصيص الخلق في الآية بالأنعام الثّلاثة للإشارة إلىٰ أنّ هذه الثّلاثة أنفع و أفيد من غيرها من حيث المنافع.

و قوله تعالىٰ: **وَ ذَلَّلْنٰاهٰا**، أي سخّرناها لهم محسوس لا يحتاج إلىٰ دليلٍ ألا ترىٰ الإبل مع عظم جثّتها يقودها الصَّبي و يضربه و يصرّفه كيف يشاء و هى لا تخرج من طاعته و هكذا البقر.

قال اللّه تعالىٰ: **سُبْحٰانَ اَلَّذِي سَخَّرَ لَنٰا هٰذٰا وَ مٰا كُنّٰا لَهُ مُقْرِنِينَ**[١].

وَ لَهُمْ فِيهٰا مَنٰافِعُ وَ مَشٰارِبُ أَفَلاٰ يَشْكُرُونَ

أي و للنّاس في الأنعام منافع ومشارب غير ما ذكرناه من الرّكوب والأكل، من أصوافها و أوبارها و أشعارها و شحومها و جلودها و غير ذلك و قوله: **وَ مَشٰارِبُ**، إشارة إلىٰ شرب ألبانها، أفلا يشكرون النّاس علىٰ نعمه الّتي أنعم اللّه بها عليهم وإن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها.

أنا أقول و إن تعدّوا كفران العباد كذلك.

١- الزّخرف = ١٣

تنبية:

أنظر أيّها الإنسان إلىٰ نعم اللّه التّي أنعم اللّه بها عليك، ثمّ أنظر إلىٰ العباد و شكرهم على النّعم ثمّ أقض ما أنت قاض، فأنّ البشر الذّي يدّعي أنّه أشرف المخلوق يعبد البقر و لا يعبد خالقه و يسجد للشّمس و القمر و الأصنام و الأوثان و لا يسجد للّه الخالق الجبّار فإذا أمعنت النّظر فيما ذكرناه تعرف سرّ.

قال اللّه تعالىٰ: **لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِها وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِها وَ لَهُمْ اٰذانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهآ أُولـٰئِكَ كَالْأَنْعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولـٰئِكَ هُمُ اَلْغافِلُونَ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ اَلْقُرْاٰنَ أَمْ عَلىٰ قُلُوبٍ أَقْفالُهآ**[2].

فإعتبروا يا أولي الأبصار و لأجل هذه الدّقيقة أشار اللّه تعالىٰ بعد ذكر النّعم إلىٰ قوله:

وَ اَتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اَللّٰهِ اٰلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ، لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَ هُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ، فَلا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ إِنّٰا نَعْلَمُ مٰا يُسِرُّونَ وَ مٰا يُعْلِنُونَ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الأيات بعد ذكره النّعم التّي أنعمهم بها و أوجب عليهم الشّكر بها له تعالى، إنّ هؤلاء الكفّار بدل الشُّكر، إتّخذوا من دونه اٰلِهةً غير خالقهم و منعمهم، لعلّهم ينصرون، بها بزعمهم و لم يعلموا أنّ الألهة الّتي إتَّخذوها معبودين لأنفسهم لا يستطيعون نصرهم و هم لهؤلاء المعبودين بمنزلة الجند، فلا يحزنك قولهم يا محمّد أنّا نعلم ما في قلوبهم من الأسرار و ما يظهرون منها فلا يخفى ممّا يسرّون و يعلنون، شئ علينا و سيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون.

١- الأعراف = ١٧٩
٢- محمّد = ٢٤

أَوَ لَمْ يَرَ ٱلْإِنْسٰانُ أَنّٰا خَلَقْنٰاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذٰا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ

أي أو لم يعلم الإنسان أنّا خلقناه من نطفةٍ و هى اليسير من الماء، فإذا هو خصيم مبين أي ظاهر، في هذه الآية نقاط و لطائف:

الأُولىٰ: أنّ مادّة خلقة الإنسان هي النُّطفة و هى الماء الصّافي و يعبّر عنها بماء الرّجل تارةً و بالمعنى أخرىٰ:

قال اللّه تعالىٰ: **أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنىٰ**[١].

و النُّطفة من التّراب:

قال اللّه تعالىٰ: **هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرٰابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ**[٢].

و في هذا النّوع من الخلق أشار إلىٰ قدرته و أنّه من يقدر أن يخلق من الماء إنساناً له عقلٌ و فهم و إدراك يرى بالشَّحم و يبصر باللَّحم و هكذا و لذلك:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ فِيٓ أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**[٣].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنْسٰانَ مِنْ سُلاٰلَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنٰاهُ نُطْفَةً فِي قَرٰارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظٰامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظٰامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنٰاهُ خَلْقًا اٰخَرَ فَتَبٰارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ ٱلْخٰالِقِينَ**[٤].

ففي هذه الأيات ذكر اللّه مراحل الخلقة و قد تكلّمنا فيها سابقاً بما لا مزيد عليه و غرضنا من ذكرها في المقام هو التذّكر و التّنبه و أنّه ليس في عالم الخلقة موجود أعجب خلقاً من الإنسان الّذي سخَّر له ما في الأرض جميعاً بل ما في السمّاوات أيضاً لو عرف قدره و لم يتجاوز طوره و مع ذلك قد يكون أضّل من الحيوان لو غفل عن نفسه و إتّبع هواه و لم يعرف ربّه الّذي خلقه و أنعم عليه ما أنعم.

١- القيامة = ٣٧
٢- غافر = ٦٧
٣- الذّاريات = ٢١
٤- المؤمنون = ١٢ إلىٰ ١٤

الثّانية: أنّه أي الإنسان كثير المخاصمة و إلىٰ هذا أشار بقوله: **خَصِيمٌ**، فأنّه أي الخصيم مبالغةٌ في الخصومة و الجدال و المنازعة فلا يقبل الحقّ إذا كان على خلاف طبعه و ميله و لا يقنع بذلك بل كثيراً ما يستدلّ و يبرهن علىٰ الباطل مع علمه ببطلانه كلّ ذلك لعناده و خصومته للحقّ، و إلاّ فالحقّ ظاهر لا خفاء فيه كالشّمس في رابعة النّهار.

الثّالثة: أنّ اللّه تعالى أعطى الإنسان العقل و العلم للتّدبر والتّفكر لا للخصومة و الجدال فلو تدبّر العاقل في خلق الإنسان الّذي هو منهم أيضاً لم يبق له شكّ في أنّه تعالى علىٰ كلّ شئٍ قدير.

الرّابعة: أنّ وبال الخصومة عليه في الدّنيا و الأخرة والوجه فيه هو أنّ غرضه منها إظهار الباطل و إطفاء الحقّ و من كان فقد خسر خسراناً مبيناً و هذا ظاهر لا خفاء فيه للمتأمّل.

وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ

هذه الآية في الحقيقة تفسير لسابقتها، فكأنّه قيل ما معنى كونه خصيماً مبيناً ثمّ ما الدّليل علىٰ أنّه كذلك فقال اللّه تعالىٰ الدّليل عليه، قوله: **مَنْ يُحْيِ ٱلْعِظَامَ** و هي رميم، توضيحه أنّ منكر البعث ضرب مثلاً و نسي خلقه فلو تدبّر في خلقته و أنصف من نفسه لم يضرب لنا المثل بل ينبغي أن يقول إنّه يحي الموتى كما أحيانا و أوجدنا و حكم الأمثال واحد و حيث لم يقل ذلك بل قال من يحي العظام و هى رميم، فكأنّه نسي خلقه و لم يعلم أنّ اللّه خلقه من نطفةٍ الّتي خلقت من التّراب و أيُّ فرقٍ بين الخلق من التّراب و الخلق و الإيجاد من الرّميم الّذي هو التّراب بعينه و إلى هذا المعنىٰ أشار بقوله:

قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنْشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

أي قل يا محمّد في جوابه يحيها أي يحي العظام، الّذي أنشأها و أوجدها أوّل مرّةٍ من ترابٍ و هو بكلّ خلقٍ عليم، أي أنّه تعالىٰ عالمٌ بخلقه قادرٌ عليه و

ليست الإعادة بأصعب و أشكل من الإبتداء بل الأمر بالعكس فمن قدر على الإبتداء قدر على الإعادة بطريقٍ أولى لأنّ مادّة الخلقة في الثّانية موجودة بخلافها في الأولى فأنّ الإنشاء هو الإيجاد الإبتدائي بخلاف الإعادة و قد مرَّ الكلام فيه سابقاً و سيجئ البحث فيه تفصيلاً إن شاء اللّه.

ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ

قيل هذه الآية بيان لقوله: **ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ** بيَّن في هذه الآية أنّ من قدر علىٰ أن يجعل في الشّجر الأخضر ناراً مع أنّ الشّجر الأخضر في غاية الرُّطوبة و هى أي الرُّطوبة مضّادة للنّار يقدر علىٰ الإيجاد و الإعادة.

قال بعض المفسّرين نبَّه تعالىٰ على وحدّانيته و دلَّ على كمال قدرته في إحياء الموتى بما يشاهدونه من إخراج المحرق اليابس من العود النّدي الرَّطب و ذلك أنّ الكافر قال النُّطفة حارّة رطبة بطبع الحياة فخرج منها الحياة و العظم باردٌ يابس بطبع الموت فكيف تخرج منه الحياة فأنزل اللّه تعالىٰ: **ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا**، أي أنّ الشّجر الأخضر من الماء و الماء باردٌ رطب ضدّ النّار و هما لا يجتمعان فأخرج اللّه منه النّار فهو القادر على إخراج الضِّد من الضِّد و هو على كلّ شيءٍ قدير و يعني من الآية ما في المرخ و العفار و هى زنادة العرب و منه قولهم كلُّ شجرٍ نارٍ و إستمجد المرخ و العفار، فالعفار الزّد و هو الأعلى و المرخ الزّندة و هى الأسفل يؤخذ منهما غصنان مثل المسواكين يقطران ماء فيحك بعضهما إلىٰ بعضٍ فيخرج منهما النّار من الشّجر الأخضر و لم يقل الخضراء و هو جمع لأنّه ردَّه إلىٰ اللّفظ العرب من يقول الشّجر الخضراء.

و قوله: **فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ**، أي توقدون النّار و محصّل الكلام هو أنّ اللّه قادر علىٰ كلّ شيءٍ و عموم القدرة فيه تعالىٰ قد ثبت عقلاً و شرعاً و ضدّ القدرة العجز و الضّعف و هما من شئون المخلوق.

أَوَ لَيْسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ

الهمزة للإستفهام الإنكاري، مثل قوله تعالىٰ: **أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ**[١] أي كافٍ، و معنىٰ الآية أليس اللّه الّذي خلق السّموات و الأرض و ما فيهما، بقادرٍ على أن يخلق مثلهم بلى أنّه قادر و بعبارةٍ أخرىٰ من قدر على إختراع السّموات والأرض كيف لا يقدر على خلق أمثاله.

بَلَىٰ وَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ أي هو خالقٌ وعالم بكيفيّة الإعادة بعد الموت.

إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُنْ فَيَكُونُ

لمّا أثبت اللّه تعالىٰ قدرته أشار في هذه الآية إلى كيفيّة أعمال القدرة فقال أنّما أمره إذا أراد شيئاً، أي إذا أراد إيجاده. **أَنْ يَقُولَ لَهُۥ كُنْ فَيَكُونُ**، أشار بذلك عن سهولة الفعل عليه لا أنّه يقول، كن، مثلاً بل إذا أراد كون الشّئ، كان، فليس هناك صوت و لا نداء.

وإعلم أنّ للّه تعالىٰ أمرين تكوينّي و تشريعّي، و نعني بالتّكويني الأمر الإيجادي و هو الأمر الّذي لا يتخلّف فيه المراد عن الإرادة قطعاً و إلىٰ هذا الأمر أشار الشّبستري بالفارسيّة بقوله:

توانائى كه در يک طرفة العين   زكاف ونون پديد آورد كونين

چه قاف قدرتش دم بر قلم زد   هزاران نقش بر لوح عدم زد

و أمّا الأمر التّشريعي و هو الّذي يتّعلق بالأحكام الشّرعية كالأمر بالصّلاة و الصّوم و الحجّ و الجهاد و أمثالها من الأحكام، ففيه قد يتخلّف المراد عن الإرادة و قد لا يتخلّف كما أنّ المكلّف المأمور بالصّلاة قد يصّلي و قد لا يصّلي و قد يصوم و قد لا يصوم و هكذا و أنّما يتخلّف المراد فيه عن الإرادة أحياناً

١- الزمر = ٣٦

لأنّ إختيار المكلّف في إيجاد الفعل و عدمه واسطة بين الإرادة و المراد فأن إختار الفعل لا يتخلّف و إن إختار التّرك يتخلّف و حيث أنّ كثيراً ممّن يدعون العلم في زماننا هذا و فيما مضى لم يفرقوا بين الأمرين وقعوا في خبطٍ عظيم و قالوا قد يأمر اللّه المكلّف بالصّلاة مثلاً و لكن لم يردها منه و لذلك لا يصّلي و قد يأمر بها و أرادها منه فيصّلي، و لم يعلموا أنّ الأمر بعد الإرادة لا قبلها فمَن لم يرد كيف أمر، و الحاصل أنّ عدم الفرق أوقعهم في الجبر و الحقّ ما ذكرناه و للبحث فيه مقام أخر و فيما ذكرناه كفاية في المقام.

فَسُبْحٰانَ ٱلَّذي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

مختصّ بملك اللّه تعالىٰ و هو مصدر ملك أدخلت فيه التّاء نحو رحموت، و رهبوت، و قال بعضهم الملكوت العزّة و السّلطان و المملكة، و المعنى سبحان الّذي بيده أي بقدرته ملكوت كلّ شيئٍ أي مالك كلّ شيٍ و إليه ترجعون، يوم القيامة فيجازكم على قدر طاعاتكم و يحاسبكم علىٰ أعمالكم و هو اليوم الّذي لا أمر و لا نهي إلاّ للّه تعالى فيفعل ما يشاء و يحكم ما يريد و لا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون و الحمد للّه ربّ العالمين.

سورة الصافات

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَ ٱلصّٰٓافّٰاتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَالزّٰاجِراتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَالتّٰالِياتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَواٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَبُّ ٱلسَّمٰواٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ رَبُّ ٱلْمَشٰارِقِ ﴿٥﴾ إِنّٰا زَيَّنَّا ٱلسَّمٰآءَ ٱلدُّنْيا بِزِينَةٍ ٱلْكَواٰكِبِ ﴿٦﴾ وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ ﴿٧﴾ لاٰ يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلٰى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذاٰبٌ واٰصِبٌ ﴿٩﴾ إِلّٰا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهٰابٌ ثٰاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنآ إِنّٰا خَلَقْنٰاهُمْ مِنْ طِينٍ لاٰزِبٍ ﴿١١﴾ بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَ إِذاٰ ذُكِّرُوا لاٰ يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَ إِذاٰ رَأَوْا اٰيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَ قٰالُوٓا إِنْ هٰذآٰ إِلّٰا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَءِذاٰ مِتْنٰا وَ كُنّٰا تُرابًا وَ عِظٰامًا أَءِنّٰا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَ اٰبٰآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داٰخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمٰا هِيَ زَجْرَةٌ واٰحِدَةٌ فَإِذاٰ هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾ وَ قٰالُوا يٰا

وَيْلَنَا هٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ اُحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ وَ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ هُمُ ٱلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٢٩﴾ وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ ﴿٣١﴾

◀ اللّغة

ٱلصَّآفَّاتِ: الصَّف أن تجعل الشّيء على خطٍّ مستوٍ كالنّاس و الأشجار و نحو ذلك و قد يجعل بمعنى الصّاف، و الصّافات جمع الجمع يقال جماعة صافّة ثمّ يجمع صافّات.

فَالزَّاجِرَاتِ: الزَّجر المنع و قيل الزَّجر طردٌ بصوت يقال زجرته فأنزجر ثمّ يستعمل في الطَّرد تارَّةً و في الصَّوت أخرىٰ.

فَالتَّالِيَاتِ: من التّلاوة قيل هم الملائكة و قيل هو ما يتلى و هو القرآن.

مَارِدٍ: المارد الخارج إلى الفساد العظيم و هو وصف للشّياطين. يُقْذَفُونَ القذف الرّمي.

دُحُورًا: الدُّحور الدَّفع بعنفٍ.

واصِبٌ: أي دائِم.

خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ: الخطفة الإستلاب بسرعةٍ.

شِهَابٌ ثَاقِبٌ: الشّهاب كالعمود من نارٍ، و ثاقب أي مضيئ يقال حسبٌ ثاقب أي مضيئ شريف.

فَاسْتَفْتِهِمْ: الإستفتاء طلب الحكم.

لَازِبٍ: معناه لازم فأبدلت الميم باءً، لأنّها من مخرجها.

داخِرُونَ: أي صاغرون أذلّاء.

◀ الإعراب

ٱلصَّآفَّاتِ الواو للقسم و جواب القسم **أنّ إلٰهكُم لواحِد**. و صَفًّا مصدر مؤكّد و كذلك زَجْرًا و قيل صفّاً مفعولٌ به لأنّ الصَّف قد يقع على المصفوف رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ بدلٌ من واحدٍ، أو خبر مبتدأ محذوف أي هو ربُّ السّموات بِزِينَةٍ ٱلْكَوٰاكِبِ من إضافة النَّوع إلى الجنس كقولك باب جديد فالزّينة كواكب و يجوز أن تكون الزّينة مصدراً أضيف إلى الفاعل و قيل إلى المفعول وَ حِفْظًا أي حفظناها حفظاً، فهو مفعول مطلق (ومن) يتعلّق بالفعل المحذوف لَا يَسَّمَّعُونَ جمع على معنى، كلّ، و موضع الجملة، جرٌ على الصفّة أو نصب على الحال، أو مستأنف، دُحُورًا مصدر في موضع الحال أو مفعولاً له و يجوز أن يكون جمع، داحر، مثل قاعد و قعود فيكون حالاً إِلَّا مَنْ إستثناء من الجنس ٱلْخَطْفَةَ مصدر واللاّم فيها للجنس أو للمعهود منهم وَ أَزْوٰاجَهُمْ الجمهور على النَّصب أي و أحشروا أزواجهم أو هو بمعنى، مع، و هو في المعنى أقوى لَا تَنَاصَرُونَ في موضع الحال يَتَسَآءَلُونَ حال و الإعراب في الباقي واضح كما لا يخفى على النّاقد البصير.

◀ التَّفسير

وَ ٱلصّٰٓافّٰٓاتِ صَفًّا

الواو للقسم و الصّافات قيل هم الملائكة مصطفّون في السّماء يسبّحون اللّه و قيل صفوف الملائكة في صلاتهم عند ربّهم و قيل هم الملائكة تصّف أجنحتها في الهواء واقفة حتّىٰ يأمرهم اللّه بما يريد، و الصّافات جمع صافّة يقال جماعة صافّة ثمّ يجمع، صافّات فالصّافات جمع الجمع و المعنى أقسم بالصّافات.

فَالزّٰاجِراٰتِ زَجْرًا

و الزَّجر الطَّرد و المنع و قيل هو طردٌ بصوتٍ قيل هم الملائكة أيضاً يزجرون الخلق عن المعاصي زجراً، و قيل أنّها تزجر السّحاب في سوقها لتمطر في مواضعها المقرّرة هي آيات القرآن تزجر عن معاصي اللّه بالمواعظ و النَّصائح.

فَالتّٰالِيٰاتِ ذِكْرًا

قيل هم الملائكة، تقرأ كتاب اللّه، و قيل المراد بهم جبرئيل وحده فذكر بلفظ الجمع لأنّه كبير الملائكة فلا يخلو من جنودٍ و أتباع و قيل المراد كلّ من تلا ذكر اللّه و كتبه و قيل هي آيات القرآن وصفها بالتّلاوة و يجوز أن يقال لآيات القرآن تالِيات لأنّ بعض الحروف يتّبع بعضاً.

و قيل المراد الأنبياء يتلون الذِّكر على أممهم، ثمّ أنّ الفاء في الزّاجرات و التّاليات للعطف و المعنى أقسم بهذه الثّلاثة.

أن قُلت ما معنى القسم من اللّه تعالى.

قُلتُ يجوز أن يقسم اللّه بما شاء من خلقه و ليس لخلقه أن يحلفوا إلاّ به، و قيل إنّما جاز أن يقسم اللّه تعالىٰ بهذه الأشياء لأنّها تبنى عن تعظيمه بما فيها من القدرة الدّالة على ربّها.

و قال بعضهم التّقدير، و ربَّ الصّافات لما ثبت من أنّ التّعظيم بالقسم للّه تعالىٰ و كيف كان فقد أقسم اللّه بهذه الأشياء و هى الصّافات و الزّاجرات و التّاليت، و جواب القسم قوله: **إِنَّ إِلٰهَكُمْ لَوٰاحِدٌ** لا ثاني له في وجوده ووجوبه لأنّه واجب الوجوب و ما سواه ممكن الوجود فالوجود فيه تعالى عين ذاته و في غيره زائد على الذّات عارض عليه و قد ثبت أنّ كلّ عرضٍ معلّلٌ محتاجٌ الى الغير، و على هذا لو فرضنا تعدّد الآلِهة، فإمّا أن يكونوا موجودين أو معدومين لا سبيل إلى الثّاني لأنّ المعدوم لا يكون إلهاً إذ معطي الشّئ لا يكون فاقدً و حيث أنّه نعطي الوجود لِغيره كما هو المفروض فهو موجود، و على فرض التعدّد فهم موجودون جميعاً، ثمّ أنّ الموجود أمّا أن يكون واجباً أو ممكناً و لا ثالث في المقام إذ الموجود لا يخلو منهما، لا سبيل إلىٰ اللإمكان لأنّ الممكن لا يكون إلهاً لغيره خالقاً له فأنّ حكم الأمثال واحد و أمّا على فرض الواجوب في الإلٰهّية بأن يكون الإلٰه جميعاً واجب الوجود فهو غير معقول لأنّ مفهوم الوجوب واحد و هو لا ينتزع عن الأمور المتَّعددة مع حفظ قيد التَّعدد و التَّكثر و قد مضى الكلام فيه غير مرَّةٍ في تضاعيف الآيات و لعَّل اللّه يحدث بعد ذلك أمراً.

رَبُّ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا وَ رَبُّ ٱلْمَشٰارِقِ

هذا بيان لقوله و إلهكم إلهٌ واحد، كافّة قيل ما الإله الواحد.

قال في الجواب ربّ السّمٰوات و الأرض الآية أي الّذي خلق السّمٰوات و الأرض و ما بينهما من أنواع الموجودات من الملائكة و الإنسان و الحيوان و النّبات و الجماد و ربّ المشارق، قيل في معناه أي ربّ مطالع الشّمس فأنّ للشّمس في كلّ يوم مشرق و مغرب، و المشارق هي المطالع بعدد أيّام السّنة ثلاث مائة و ستّون مشرقاً و ثلاث مائة و ستّون مغرباً هكذا قيل و الحقّ أن يقال أنّ المشرق و المغرب إذا جئ بهما بالأفراد فإشارة إلىٰ ناحيتي الشَّرق و الغرب و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لَيْسَ ٱلْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَ ٱلْمَغْرِبِ**[٢].

أي ناحيتي المشرق و المغرب، و اذا جئ بهما بلفظ التّثنية فإشارةٌ إلىٰ مطلعي و مغربي الشّتاء و الصّيف و منه:

قال اللّه تعالىٰ: رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَ رَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ، فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمٰا تُكَذِّبٰانِ[٣].

و إذا جئ بهما بلفظ الجمع فإشارة بمطالع كلّ يومٍ و مغربه و منه:

قال اللّه تعالىٰ: **فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشٰارِقِ وَ ٱلْمَغٰارِبِ إِنّٰا لَقٰادِرُونَ**[۴].

و ما نحن فيه من هذا القبيل فقوله ربّ المشارق يعني ربّ مطالع الشّمس في كلّ يومٍ وفيه إشارة إلىٰ أنّ طلوع الشّمس تحت قدرته تعالىٰ كذلك غروبها و بذلك إحتجّ إبراهيم الخليل عليه‌السلام علىٰ نمرود حيث قال تعالىٰ حكايةً عنه:

قال اللّه تعالىٰ: **قَالَ إِبْرٰاهِيمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهٰا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذي كَفَرَ**[۵].

وجه الإستدلال هو أنّك تدّعي الألوهيّة فأن كنت صادقاً في قولك فأت بالشّمس من المغرب كما أنّ خلاق العالم أتى بها من المشرق و حيث لا تقدر على ذلك فلست بصادقٍ في إدّعاءك الألوهيّة و هو المطلوب.

إِنّٰا زَيَّنّٰا ٱلسَّمٰآءَ ٱلدُّنْيٰا بِزِينَةٍ ٱلْكَوٰاكِبِ

التزيين التّحسين للشّئ وجعل صورة تميل إليها النّفس و قد ثبت أنّ لكلّ موجودٍ زينة و زينة كلّ شئٍ بحسبه و الزّينة هي الّتي تجلب النّفوس إلىٰ الشّئ المزّين في جميع الأشياء و هذا واضح محسوسٌ.

١- المعارج = ۴٠

٢- البقرة = ١٧٧

٣ - الرّحمٰن = ١٨ / ١٧

۴- المعارج = ۴٠

۵- البقرة = ٢۵٨

قال في المفردات سماء كلّ شئٍ أعلاه و قال بعضهم كلّ سماءٍ بالإضافة إلىٰ ما دونها فسماء و بالإضافة إلىٰ ما فوقها فأرض إلاّ السّماء العليا فأنّها سماء بلا أرض و قد مرَّ الكلام في معنى السّماء و الأرض سابقاً.

و معنى الآية أنّ الكواكب بمنزلة الزّينة للسّماء و إن شئت قلت زينة السّماء بالكواكب و هى النّجوم المعلّقة في الفضاء فوق رؤوسكم لتهتدوا بها في ظلمات اللّيل و فيه دلالة على قدرة الخالق الّذي خلقها و جعلها كذلك بلا عمد ترونها.

وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطٰانٍ مٰارِدٍ

أي حفظناها من كلّ شيطانٍ مارد، أي الخارج إلى الفساد العظيم، و قيل هو وصفٌ للشّياطين و هم المردة و المارد المتجرّد من الخير و المقصود من الحفظ أنّ اللّه تعالى منع الشّياطين عن دخولهم في الملاء الأعلىٰ كما قال:

لٰا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلٰى وَ يُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جٰانِبٍ

قرأ عاصم و حمزة في رواية حفص «**لا يَسَّمَّعُون**» بتشديد السّين و الميم من التّسميع و عليها المصاحف، و قرأ الجمهور «**يَسمَعُون**» بسكون السّين و تخفيف الميم فالمعنى على القراءة الأولى قراءة التّشدّيد لا يقع منهم إستماعٌ أو سماعٌ أي كانوا يتسمعون و لكن لا يسمعون، و المعنى على القراءة الأخرىٰ و هى قراءة التّخفيف هو عدم سماعهم و أن كانوا يستمعون و يؤيّد هذه القراءة قوله تعالىٰ: **إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ**[1] و كيف كان فالأصل في «**يَسَّمَّعُون**» يتسّمعون فأدغمت التّاء في السّين لقربها منها و الغرض أنّ الشّياطين لا يقدرون على السّماع أو التّسمع إلىٰ الملاء الأعلى فلا يطّلعون علىٰ ما فيه من الأخبار و ذلك لأنّهم يقذفون أي يُرمَون من كلّ جانب بالشّهب.

١- الشُّعراء = ٢١٢

دُحُورًا وَ لَهُمْ عَذابٌ واصِبٌ

الدَّحر الطَّرد يقال دحرته دحراً و دحوراً أي طردته، و قيل الدَّحر الطَّرد بالعنف فقوله: **دُحُورًا** أي دفعاً لهم بعنفٍ و معنى الآية أنّهم يرمون بالشّهب المحرقة من كلّ جانبٍ إذا أرادوا الصّعود إلى السّماء للإستماع و لهم عذابٌ واصبٌ، أي دائمٌ إلى يوم القيامة، ثمّ إستثنىٰ من ذلك فقال:

إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهابٌ ثاقِبٌ

لمّا أخبر اللّه تعالىٰ أنّ الشّياطين لا يسمعون إلى الملاء الأعلى و أنّهم متى راموا ذلك رموا من كلّ جانبٍ دفعاً لهم على أشدَّ الوجوه قال إلاّ من خطف الخطفة أي إلاّ من إستلب السّماع إستلاباً و الخطفة الإستلاب بسرعةٍ فمتى فعل أحدهم ذلك أتبعه شهابٌ ثاقب، كالعمود من النّار، و الثّاقب المضيء يقال شهاب ثاقب أي مضيء و قيل المراد كواكب النّار تتبعهم حتّىٰ تسقطهم.

و قال إبن عبّاس في الشُّهب ترحقهم من يغر موتٍ و ليست الشُّعب التّي يرجم النّاس بها من الكواكب الثّابت و محصّل الكلام في هذه الأيات أنّ الشّياطين منعهم اللّه من السّماع و الإستماع إلى الملاء الأعلى فلا يعلمون ما في الملاء الأعلىٰ من الأخبار.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنآ إِنَّا خَلَقْناهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ

أمر من الإستثناء و هو طلب الحكم و المعنى سلهم يا محمّد، يعني سل المشركين منهم أهم أشدَّ خلقاً أم من خلقنا، أي من خلقنا من السّموات و الأرض و الجبال و البحار و قيل يدخل فيه الملائكة و من سلف من الأمم الماضية إنّا خلقناهم من طينٍ لازبٍ أي لاصِقٍ، و قال عكرمة لازب أي لزج.

و قال سعيد بن جبير، أي جيّدٌ قيل نّ الآية نزلت في أبي الأشدّ بن كلدة و كنّي لذلك لشدّة بَطشه و قوّته فالضّمير في قوله، هم، لمشركي قريش أمر نبيّه

أن يستخبرهم و يسأل عنهم أهم، أشدَّ خلقاً أم غيرهم ممّا خلقناهم من عجائب المخلوقات.

إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ، قيل هو شهادة عليهم بالضَّعف والرِّخاوة لأنّ ما يصنع من الطّين غير موصوفٍ بالصّلابة و القوّة، و يحتمل أن تكون الآية إحتجاجاً عليهم بأنّ الطّين اللاّزب الّذي خلقوا منه تراب فمن أين إستكروا أن يخلقوا من ترابٍ مثله حيث قالوا: **أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا**[1].

أقُول هذا ما ذكروه في تفسير الآية و لا بأس به والذّي يقوي في النّظر في تفسيرها و المراد بها هو أنّ مشركي قريش كانوا مغرورين بكثرتهم و قدرتهم و شجاعتهم فلمّا بعث النّبي و دعاهم إلىٰ التّوحيد و النبوّة مع عدم الأنصار و الأعوان هدَّدوه بالقتل فأمر اللّه نبيّه أن يسألهم أهم أشدَّ خلقاً من حيث الجسم و البطش أم غيرهم ممّن خلقنا قبلهم من قوم نوح و قوم عاد و قوم ثمود و غيرهم، فلمّا أهلكناهم بذنوبهم و طغيانهم لم يقدروا علىٰ شيٍ و حكم الأمثال واحد فكما أهلكناهم كذلك نهلكهم بطريقٍ أولى و قد صدق اللّه في وعده و وعيده و من أصدق من اللّه قيلاً.

بَلْ عَجِبْتَ وَ يَسْخَرُونَ

أي أنّك عجبت من قدرة اللّه و هم يسخرون منك و من تعجّبك و ما نريهم من أثار قدرة اللّه أو من إنكارهم البعث و هم يسخرون من أمر البعث و قيل معناه بل عجبت ممّا نزل عليك القرأن و هم يسخرون و يستهزؤن، هذا على قراءة الفتح في التّاء و أن يكون المخاطب النّبي، و قرأ بعض القرّاء بضّم التّاء و أنكره بعضهم و قالوا أنّ اللّه لا يعجب من شيءٍ و أنّما يعجب من لا يعلم، و قيل المعنى بل عجبت من إنكارهم البعث.

١- الرعد = ٥

وَ إِذا ذُكِّرُوا لا يَذْكُرُونَ

ذُ كِّروا، بكسر الكاف المشددة من التَّذكر و التَّذكير و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار إذا ذكِّروا بأيات اللّه و خوّفوا بها لا يذكرون أي لا يتفكّرون و لا ينتفعون بها و بعبارةٍ أخرى سواءٌ عليهم الإنذار و عدمه.

وَ إِذا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ

أي يسخرون و هما لغتان و قيل التّاء في يَستَخسرون للطّلب أي يطلب بعضهم من بعضٍ أن يسخروا و يهزؤا بأيات الّله و بهذا ظهر الفرق و الأمر سهل.

وَ قالُوا إِنْ هٰذآ إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ

إن، نافية أي ليس هذا إلاّ سحرٌ ظاهرٌ و من المعلوم أنّ حمل المعجزة على السِّحر كالإستهزاء أو هو نفسه.

أَءِذا مِتْنا وَ كُنّا تُراباً وَ عِظاماً أَءِنّا لَمَبْعُوثُونَ

و هذا من قول الكفّارا المنكرين للبعث و النُّشور فأنّهم قالوا ءإذا كنّا تراباً، بعد الموت في قبورنا و لم يبق منّا فيها إلاّ العظام، ءإنّا لمبعوثون، من القبور بعد ذلك و محشورون و مجازون على أعمالنا.

أَوَ آباؤُنَا الْأَوَّلُونَ

الّذين ماتوا قبل ذلك فعلىٰ قراءة الجمهور ألف الإستفهام دخلت على حرف العطف و هو الواو و المعنى أو أبائنا الأولون، كذلك يبعثون و أنّما قالوا ذلك على سبيل الإنكار أي ليس كذلك.

و قرأ افع، أو أبائنا الأولون، بسكون الواو على سبيل العطف بأو، و على هذا فليس في الكلام ألف الإستفهام، و الجملة معطوفة على سابقتها أي ءإنّا

أو أبائنا لمبعوثون و المعنى على القرائتين واحد لا فرق منهما إلاّ الإستفهام الإنكاري في الجملة الثانيّة و عدمه و أنّما قالوا ذلك على سبيل التّعجب و الإنكار فقال تعالى في جوابهم على لسان نبيّه.

قُلْ نَعَمْ وَ أَنْتُمْ داٰخِرُونَ

أي صاغرون أذلاّء، على رغم أنوفكم فأنّ البعث حقّ لا ريب فيه.

فَإِنَّما هِيَ زَجْرَةٌ واٰحِدَةٌ فَإِذاٰ هُمْ يَنْظُرُونَ

قيل أي صيحة واحدة و هي النّفخة الثّانية و سميّت الصّيحة زجرة لأنّ مقصودها الزَّجر أي أنّ المبعوث يزجر بها كزجر الإبل و الخيل عند السَّوق فكما أنّ الإبل يساق قهراً و لا يسوق بميله و طبعه كذلك الأموات يبعثون و يساقون إلى المحشر و هم مكرهون، و قوله، ينظرون، أي ينظر بعضهم إلى بعضٍ، و قيل معناه ينتظرون ما يفعل بهم و قيل ينظرون إلى البعث الّذي أنكروه في دار الدّنيا وإستهزؤا به.

وَ قاٰلُوا ياٰ وَيْلَنا هٰذاٰ يَوْمُ ٱلدِّينِ

الدّين هنا بمعنى الجزاء و **الوَيل** بفتح الواو و سكون الياء و اللاّم كلمة يقولها القائل إذا وقع في الهلكة و مثله يا ويلتي، و يا حسرتي و يا عجبا و معنى الآية أنّهم نادوا على أنفسهم بالويل لأنّهم يومئذٍ يعلمون ما حلَّ بهم من سوء العاقبة و العذاب و هو منصوب على أنّه مصدر عند البّصريين.

و نقل عن الفّراء أنّ تقديره (ياوي لنا) و وي بمعنى حزن.

هٰذاٰ يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ٱلَّذي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ

لمّا أخبر اللّه تعالى عنهم أنّهم قالوا يا ويلنا هذا يوم الدّين حكى ما يقول اللّه لهم هذا يوم الفصل بين النّاس و الحكم و تميّز الحقّ من الباطل و لذلك

سمّي يوم القيامة يوم الفصل و هو اليوم الّذي كنتم تكذّبون به في دار الدّنيا بل كنتم تستهزؤن به و تجحدونه.

أُحْشُرُوا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوٰاجَهُمْ وَ مٰا كٰانُوا يَعْبُدُونَ

أي يقول اللّه للملائكة أحشروا المشركين و أزواجهم أي أشياعهم و أتباعهم في الشِّرك و الشِّرك ظلمٌ عظيم.

قال قتادة فيحشر الكافر مع الكافر و نقل بعض المفسّرين من العامّة عن عمر بن الخطّاب أنّه قال الزّاني مع الزّاني و شارب الخمر مع شارب الخمر و صاحب السّرقة مع صاحب السّرقة، و قيل المراد بأزواجهم نسائهم الموافقات على الكفر و قيل قرنائهم من الشّياطين و ما كانوا يعبدون، أي أحشروا كلّ عابدٍ مع معبوده.

مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ فَاهْدُوهُمْ إِلىٰ صِراطِ ٱلْجَحِيمِ

أي سوقوهم إلى النّار و قيل فأهدوهم أي دلُّوهم يقال هديته الطّريق أي دلَّلته عليه و أنّما عبَّر عن ذلك بالهداية و قال، فأهدوهم، من حيث كان بدلاً من الهداية إلى الجنّة، كما قال تعالى: **فَبَشِّرْهُمْ بِعَذٰابٍ أَلِيمٍ**[١] ثمّ حكى اللّه تعالى ما يقوله للملائكة الموكلّين بهم و قال:

وَ قِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ

الوقف الحبس أي إحبسوهم أنّهم مسئولون، عمّا كلَّفهم اللّه في الدّنيا من الواجبات و المحرّمات و أنّما قال تعالى لهم ما قال على وجه التّكبيت و التّقرير دون الإستعلام قيل في الكلام تقديم و تأخير أي قفوهم للحساب ثمّ سوَّقوهم إلى النّار، و هذه الآية و أمثالها دليل على أنّ الكافر يحاسب يوم القيامة كالمؤمن المسلم عند العامّة و الخاصّة.

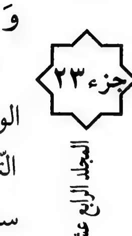

١- أل عمران = ٢١

و لعلَّ الوجه في أنّ الكافر يحاسب هو ما ذهب إليه أهل الحقّ أعني بهم الشيعة و هو أنّ الكفّار في الدّنيا مكلّفون بالفروع كما أنّهم مكلّفون بالأصول.

إن قلت كيف يُعقَل أن يكون الكافر مكلّفاً بالفروع و هو لا يقدر على قصد القربة في العبادات كالصّلاة و الصّوم و الحجّ و غيرها في حال كفره و هي بدون القربة باطلة بالإتّفاق.

قلت نعم لكن قولكم لا يقدر على قصد القربة في حيّز المنع إذ يقدر أن يؤمن باللّه و رسوله و يقصد القربة و قد ثبت أنّ الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار فله أن يسلم و يقصد القربة.

مٰا لَكُمْ لاٰ تَنٰاصَرُونَ

أي لا تتّناصرون و لذلك شدَّد بعضهم التّاء و من لم يشدّد حذف إحدايهما و على هذا فالمعنى لم لا يدافع بعضكم عن بعضٍ أو لا ينصر بعضكم بعضاً إن قدرتم عليه ثمّ قال اللّه تعالى:

بَلْ هُمُ اَلْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ

أي أنّهم لا يقدرون على التّناصر و التّدافع بعضهم عن بعضٍ بل هم اليوم مستسلمون، أي مطيعون منقادون و قيل معناه مستحدثون مسترسلون، و قيل خاضعون ذليلون و المعاني متقاربة.

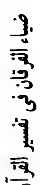

وَ أَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلٰى بَعْضٍ يَتَسٰاءَلُونَ

أي يتّخاصمون أي يسأل بعضهم بعضاً و يوّبخه في أنّه أضّله أو فتح له باباً من المعصية فيقول كلّ واحدٍ منهم لصاحبه لم أغويتني أو لم عزّرتني يقول ذلك على وجه التّأنيب و التّضعيف و يقول له صاحبه لم قبلت عنّي ألم تكن من العقلاء في الدّنيا.

قَالُوٓا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ ٱلْيَمِينِ

قيل معناه أنّكم تأتوننا عن طريق الخير و تصّدوننا عن الحقّ و قيل معناه تأتوننا عن اليمين أي من جهة النَّصيحة و اليمن و البركة فلذلك إغتررنا بكم و العرب تيَّمن بما جاء من جهة اليمين، و قيل المراد باليمين القوّة أي أنّک كنتم تأتوننا من أقوى الوجوه فقبلنا قولكم، فأجابوا بما حكى اللّه عنهم:

قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ

مصدّقين باللّه و رسوله و لهذا وقعتم فيما وقعتم من الهلكة و ذلك لأنّ المؤمن لا يخدع بقول الكافر في دينه لعلمه بأنّ الكافر عدّوه و من يقبل النُّصح من العدّو فهو مجنون.

وَ مَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا طَاغِينَ

هذا بمنزلة الإستدلال لهم على عدم إيمانهم و أنّ العلّة هي عدم الإيمان و تقرير الإستدلال أنّه لم يكن لنا عليكم في ترك الحقّ من سلطان و لا قدرة فلا تسقطوا اللَّوم عن أنفسكم فأنّه لازمٌ لكم بل كنتم قوماً طاغين أي باغين متجاوزين عن الحقّ و طغيانهم كفرهم باللّه و تجاوزهم عن الحدّ و منشأ ذلك كلّه هو حبّ الدّنيا.

فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ

أي وجب علينا قول ربّنا إنّا لا نؤمن و نموت على الكفر و قيل معناه وجب علينا قول ربّنا بالعذاب الذّي يستّحق على الكفر و الإغواء و إنّا لذائقون العذاب يعني ندركه كما ندرك الطّعوم بالذَّوق و في هذا الكلام إقرارٌ لهم على أنفسهم بالذّنب.

فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَائِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُولَٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَاكِهُ وَهُمْ مُكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ ﴿٤٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ

نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ ٱلشَّيَاطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾

◄ اللّغة

غَاوِينَ: الإغواء الدُّعاء الى الغّي و الغّي نقيض الرُّشد.

سُرُرٍ: جمع سرير.

مَعِينٍ: بفتح الميم و كسر العين هو الماء الشّديد الجري من أمعن الأمر إذا إشتّد دخوله فيه.

غَوْلٌ: بفتح الغَين الفساد الّذي يلحق الفعل خفيّاً يقال إغتاله إغتيالاً إذا أفسد عليه أمره و منه الغيلة و هى القتل سرّاً.

يُنْزَفُونَ: التّنزيف السّكران لأنّه ينزف عقله.

قَاصِرَاتُ ٱلطَّرْفِ: أي راضيات الطَّرف.

عِينٌ: الواسعة العين.

قَرِينٌ: بمعنى صاحب.

لَتُرْدِينِ: من ردى يردى إذا هلك يقال أرداه غيره إذا هلكه.

شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ: الزّقوم ثمر شجرة منكرة و قيل ثمرة مرّة خشنة منتنة الرّائحة.

لَشَوْبًا: الشّوب خلط الشّيء بما ليس منه ممّا هو شرٌّ منه.

◀ الإعراب

فَوَٰكِهُ بدل من رزق أو على تقدير، هو، فِي جَنَّٰتِ يجوز أن يكون ظرفاً أو حالاً أو خبراً ثانياً و كذا على سررٍ. مُتَقَٰبِلِينَ حال من مكرمون أو من الضّمير في الجارّ مِن مَّعِينٍ نعتٌ لكأس و كذلك بَيْضَآءَ و عنها، يتعلّق بينزفون. إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ هو مصدر من إسم الفاعل و قيل هو إستثناء نُزُلاً (نزلاً) تمييز لَشَوْبًا بمعنى مشوب أو هو مصدر على بابه.

◀ التّفسير

فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ

أي دعوناكم إلى الغَّي و الضّلالة فغوينا نحن أيضاً و ذلك لأنّ من أغوى غيره فهو أيضاً متصّف بالغواية فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له بل هو أغوى ممّن يغويه فأنّ المضِّل أضّل من الضّال.

فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ

أي أنّ الغاوين و المغوين مشتركون في العذاب يوم القيامة و الوجه فيه أنّ المغوي صار سبباً لإضلال غيره، و الغير صار تابعاً له بقبوله الغواية فالتّابع و المتبوع كلاهما في النّار.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِالْمُجْرِمِينَ

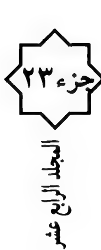

إذ ليس جزاء الجرم إلاّ العقاب مقتضى العدل كما أنّ جزاء الطّاعة و الإنقياد هو الجنّة.

إِنَّهُمْ كَانُوٓا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ

هذا جواب عن سؤالٍ مقدّر كأنّه قيل ما كان جرمهم في الدّنيا فقال تعالى في الجواب أنّهم كانوا في الدّنيا من المستكبرين عن توحيد اللّه و عبادته و أيُّ

إستكباراً أعظم و أشنع من إنكار التّوحيد فأنّ إنكاره مساوقٌ لإنكار الفطرة التّي فطر النّاس عليها.

وَ يَقُولُونَ أَئِنَّا لَتارِكُوٓا اٰلِهَتِنٰا لِشٰاعِرٍ مَجْنُونٍ

أي يقولون هؤلاء المستكبرين ءإنّا لتاركوا ألهتنا، من الأصنام و الأوثان و غيرهما لشاعرٍ مجنون يدعونا إلى خلافه و يعنون بذلك النّبي الذّي دعاهم إلى التّوحيد يرمونه بالشّعر تارةً و بالجنون أخرى و هذا يدلّ على فرط جهلهم و حماقتهم و عنادهم حتّى قالوا ما قالوا في حقّ النّبي المعصوم عن الأرجاس كأنّهم لم يعلموا أنّ المجنون لا عقله لأنّ الجنون أفة يغطّي على العقل حتّىٰ يظهر التخليط في فعل المجنون فالمجنون في الحقيقة من لا يقبل الحقّ فأنّه مكابر عقله و أيُّ فرقٍ بين فاقد العقل رأساً و بين من لا ينتفع بعقله و غطّاه بإختياره و لذلك ردّ اللّه تعالى عليهم بقوله:

بَلْ جٰآءَ بِالْحَقِّ وَ صَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ

أي ليس الأمر على ما قالوه بل لانّبي جاء بالحقّ من عند اللّه و صدَّق المرسلين الذّي أرسلهم اللّه إلى خلقه في سالف الزَّمن من أدم إلى خاتم الأنبياء، و وجه الرَّد أنّه لو كان مجنوناً لم يجئ بالحقّ ولم يصدّق المرسلين، فأنّ المجنون لا يعرف الحقّ لا يعرف الحقّ كيف يقول به و هكذا في تصديقه الأنبياء.

و الحاصل أنّ الفعل و القول يدُّلان على العقل و الجنون فمن كان فعله حقّاً فهو عاقل و إلاّ فهو مجنون من حيث لا يشعر به فأنّ الجنون فنون و له مراتب شدّةً و ضعفاً و نقصاً و كمالاً، و حيث النّبي لا يقول إلاّ حقّاً و لا يفعل إلاّ حسناً فهو عاقل و كلّما كان القول و الفعل أتقن و أحكم فصاحبهما أعقل و بالعكس بالعكس.

إِنَّكُمْ لَذٰآئِقُوا ٱلْعَذٰابِ ٱلْأَلِيمِ

و هو العذاب المؤلم الموجع بتكذيبكم النّبي و ما جاء به من الأحكام و متابعتكم الشّيطان و عبادتكم الأصنام و الأوثان و إنكاركم الحقّ.

وَ مٰا تُجْزَوْنَ إِلّٰا مٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

ما، نافية أي لا تجزون إلاّ ما كنتم تعملون، في الدّنيا من المعاصي و سوء الأعمال و الأقوال فذلك العذاب و الجزاء بما كسبت أيديكم و ما ربّك بظلّامٍ للعبيد و لنعم ما قال الشّاعر بالفارسيّة:

از مكافات عمل غافل مشو گندم از گندم بروید جو ز جو

و قال الأخر:

دهقان سالخورده چه خوش گفت با پسر

كای نور چشم من بجز از كشته ندروى

إِلّٰا عِبٰادَ ٱللّٰهِ ٱلْمُخْلَصِينَ

ثمّ أنّ اللّه تعالى إستثنى من المخاطبين عباد اللّه المخلصين الّذين أخلصوا العبادة للّه تعالى ولم يشركوا به أحداً.

أُولٰئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَعْلُومٌ

أي أولئك الّذين خلصوا في عبادتهم ولم يشركوا به شيئاً لهم رزقٌ معلومٌ عند اللّه في الجنّة ثمّ فصَّل الرّزق و بيَّنه بقوله:

فَوٰاكِهُ وَ هُمْ مُكْرَمُونَ

و هى جمع فاكهة و هى تكون رطباً و يابساً يتَّفكهون بها في الجنّة فأنّ فواكه الجنّة لا تقاس بفواكه الدُّنيا و قوله: **وَ هُمْ مُكْرَمُونَ**، أي معظّمون عند اللّه متوجّون بتاج الكرامة و الشَّرف فمن أكرمه اللّه فاز فوزاً عظيماً و ضدّ الإكرام

الإهانة و المعنى أنّهم يرزقون الفواكه في الجنّة مع كونهم مكرمين معزّزين عند اللّه.

فِي جَنَّاتِ ٱلنَّعِيمِ

أي بساتين فيها أنواع النِّعم من الفواكه و غيرها و هم مع ذلك.

عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ

أي أنّهم يجلسون على سررٍ متقابلين، يستمتع بعضهم بالنّظر إلى وجوه البعض فهم يلتذّون بنعمة الرّؤية و المحادثة و الأنس و أيّة نعمةٍ أفضل منها.

يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ

قيل الكأس إناء فيه شراب و إلاّ فهو إناء و قوله: **يُطَافُ عَلَيْهِمْ**، بصيغة المجهول و قوله: **مَعِينٍ** بفتح الميم و كسر العين فهو الماء الجاري على وجه الأرض و على هذا فالمعنى يطاف لعيهم بكأسٍ من خمر تجري كما تجري العيون قاله الزّجاج.

و قيل هو الماء الشّديد الجري من أمعن في الأرض إذا إشتّد دخوله فيه هكذا قيل و عندي إحتمال أخر و هو أنّ المعين يقال للماء الموافق للطّبع من حيث الحلاوة و الطّعم و يقال له بالفارسيّة (گوارای وجود) و من المعلوم أنّ الخمر في الجنّة كذلك ثمّ وصف الخمر في الكأس.

بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ

قال بعضهم، بيضاء صفة للخمر و قيل صفة للكأس فعلى الأوّل معنى الكلام أنّ الخمر موصوف بالبياض لأنّها تجري في أنهار و هى خمرٌ فيها اللّذة و الإمتاع فترى بيضاء صافية في نهاية الرّقة و اللّطافة مع النُّورية التّي لها و الشّفافة.

و على القول الثّاني، و هو أن تكون بيضاء صفة للكأس فالمعنى أنّ الكأس متصّفٌ بالبياض و اذا كانت الخمر أو الكأس كذلك فالشّارب يلتذّ بها ففي الكلام إشارة إلى أنّ الظَّرف له مدخل في اللذّة و هو كذلك.

لا فيها غَوْلٌ وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ

الغَول بفتح الغين الفساد أي لا يكون في ذلك الشّراب غولٌ و لا فساد و المقصود أنّه ليس بفاسد و لا يقبل الفساد أيضاً و قوله: **وَ لا هُمْ عَنْها يُنْزَفُونَ** أي لا يسكرون به لأنّ السّكر ينزف العقل، و بعبارةٍ أخرى أنّه ليس كشراب الدُّنيا الّذي حكم الشَّرع بحرمته لأنّه منكرٌ و مزيلٌ للعقل بخلاف شراب الجنّة فأنّه ليس بمنكرٍ

وَ عِنْدَهُمْ قاصِراتُ الطَّرْفِ عِينٌ

قيل معنى قاصرات الطِّرف، تقصر طرفهنّ فهُن على أزواجهنّ، و قيل معناه راضيات.

و قال إبن عبّاس قاصرات الطّرف، أي قصرن طرفهنّ على أزواجهن فلا ينظرن إلى غيرهم و قيل قاصرات الطّرف، أي محبوسات على أزواجهنّ غير ذلك.

أقول قاصرات مأخوذ من قولهم قد إقتصر على كذا إذا إقتنع به و عدل عن غيره.

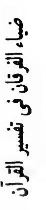

قال إمرؤ القيس:

من القاصرات الطّرف لو دبَّ محولٌ

من الذُر فوق الأنب منها لأثّرا

و قوله: **عِينٌ**، بكسر العين عظام العيون الواحدة عيناء، و قيل عين، حسان العيون، و قيل الشّديدات بياض العين، و قيل الشّديدات سوادها يقال رجلٌ

أعين واسع العين بيّن العين و الجمع، عين، و أصله فعل بالضّم فكسرت العين لئّلا تنقلب الواو ياء و منه قيل لبقر الوحش عين، و الثّور أعين، و البقرة عيناء ثمّ وصف اللّه تعالى قاصرات الطّرف بقوله:

كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ

أي مصون شبَّههن ببعض النّعام تكنّها النُّعامة بالرّيش من الرّيح و الغبار فلونها أبيض في صفرة و هو أحسن ألوان النّساء هكذا قيل و قال سعيد بن جبير شبّهن ببطن البيض قبل أن يقشر و تمَّسه الأيدي.

و قال الطّبري هو القشر الرّقيق الذّي على البيضة بين ذلك و العرب تشبه المرأة بالبيضة لصفائها و بياضها.

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ

يعني أنّ أهل الجنّة يتسائلون بعضهم على بعضٍ عمّا تفَّضل اللّه عليهم من أنواع اللّذات و الكرامات.

قَالَ قَآئِلٌ مِنْهُمْ إِنِّى كَانَ لِي قَرِينٌ

أي صاحب يختصّ بي، إمّا من الإنس أو من الجنّ.

يَقُولُ ءَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ

بيوم القيامة و البعث و الحساب و غير ذلك و تعتقد أنّ اللّه يبعث من في القبور بعد أن يصيروا تراباً و عظاماً فيها و أنّهم يحشرون بعد ذلك و يجازون على أعمالهم إن خيراً فخيراً و ان شرّاً فشرّاً.

ءَإِذَا مِتْنَا وَ كُنَّا تُرَابًا وَ عِظَامًا ءَإِنَّا لَمَدِينُونَ

إشارة إلى ما ذكرناه لمدينون أي يجازون.

قَالَ هَلْ أَنْتُم مُطَّلِعُونَ

إختلفوا في المراد بالقائل في هذه الآية فقال بعضهم هو من قول المؤمن لأخوانه في الجنّة هل أنتم مطّلعون إلى النّار لننظر كيف حال ذلك القرين الّذي قال لي ءإنّك لمن المصدّقين بيوم القيامة و ما يقع فيه من الحساب و الجزاء.

و قال بعض المفسّرين هو من قول الملائكة، و ليس قوله: **هَلْ أَنْتُمْ مُطَّلِعُونَ** إستفهام بل هو بمعنى الأمر أي إطّلعوا.

و قال الشّيخ في التّبيان، أي يؤمرون أن يروا مكان هذا القرين في النّار و الآمر هو اللّه بواسطة الملائكة فيقول نعم فيقال له إطلّع في النّار فيطلّع في الجحيم فيراه في سواءه أي وسطه، و قرأ إبن عبّاس، **مُطْلِعُون**، بإسكان الطّاء خفيفة على معنى هل أنتم مقبلون.

و قال الزّجاج طلع و إطلّع و أطلع بمعنى واحد.

أقول الظّاهر أنّ القائل بهذا الكلام هو اللّه تعالى بواسطة الملائكة و الدليّل عليه قوله: **أَنْتُمْ**، ولو كان القائل هو المؤمن لقال أنت، لأنّ المخاطب واحد على الغرض اللّهم إلاّ أن يقال أنّ المخاطب بهذا الكلام جميع أخوانه و كيف كان فالأمر سهل بعد وضوح المعنى.

فَاطَّلَعَ فَرَاٰهُ فِي سَوٰآءِ ٱلْجَحِيمِ، قٰالَ تَاللّٰهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينِ

إن مخفّفة من الثّقيلة دخلت على، كاد كما تدخل، على كان، و اللاّم في قوله: **لَتُرْدِينِ**، هي الفارقة بينها و بين النّافية و قوله: **لَتُرْدِينِ**، من ردىٰ، يردي إذا هلك، أو أرداه إذا أهلكه فقوله تردين، من أردى يردي و التّاء للخطاب و المعنى تاللّه أي أقسم باللّه إن كدت لتهلكني في الدنيا حيث قلت لي ما قلت فلو أطعتك لهلكت كما قال تعالى:

وَ لَوْلاٰ نِعْمَةُ رَبّى لَكُنْتُ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ

أي لولا رحمة ربّي و لطفه و عنايته في ترك متابعتك لأتّبعتك و قبلت قولك و كنت من المحضرين معك في النّار.

أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ، إِلَّا مَوْتَتَنَا ٱلْأُولَىٰ وَ مَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ

الإستفهام لِلإنكار و قيل للتّوبيخ لمّا كان القَرين قال له في الدّنيا، ءإنّك لمن المصدقين ءإذا متنا و كنّا تراباً و عظاماً ءإنّا لمدينون حيث أنكر البعث و الحساب و الجزاء، قال المؤمن له بعد أن رأه في وسط الجحيم، أفما نحن بميَّتيين إلاّ الموتة الأولى و ما نحن بمعذّبين كما قلت في الدّنيا و كنت معتقداً به و قد رأيت الموتة الثّانية و العذاب يوم القيامة.

و الحاصل أنّ المؤمن و بخَّه على قوله و إعتقاده في الدّنيا و شكر اللّه على أن جعله من المرحومين بعدم قبول قول القرين كما قال تعالى:

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ

و أيُّ فوزٍ أعظم و أشرف من لطف الرَّب و عنايته بعبده بتركه متابعة الشّيطان و قبوله متابعة الحقّ.

لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَامِلُونَ

هذا أيضاً من قول المؤمن للكافر و المعنى لمثل هذا الثّواب، و المثل هذا اليوم الّذي لا ينفع فيه مال و لا بنون إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم، فليعمل العاملون في الدُّنيا فأنّ الدُّنيا مزرعة الأخرة.

قال أميرالمؤمنين عليه‌السلام: اليوم عَمَلٌ و لا حساب وغداً حسابٌ عَمَل.

أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ

الزَّقوم قيل هو ثمر شجرةٍ منكرة جدّاً من قولهم يزقم هذا الطّعام إذا كان تناوله على مشقّةٍ شديدة لكونه منافياً للطّبع، و قيل شجرة الزّقوم ثمرها مرّة خشنة منتنة الرّائحة، و قيل شجرة الزّقوم مشتّقة من التَّزقم و هو البلع على جهدٍ لكراهتها و نتنها، و قيل أنّها تحيا بلهب النّار كما تحيا الشّجرة في الدّنيا

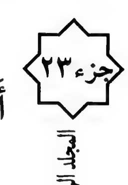

ببرد الماء فلابدّ لأهل النّار من أن ينحدر إليها من كان فوقها فيأكلون منها و كذلك يصعد إليها من كان أسفل.

إذا عرفت هذا فالمعنى، أذلك، أي نعيم الجنّة خيرٌ نزلاً، أي رزقاً فأنّ النُّزل في اللّغة الرّزق الّذي له سعة، أم شجرة الزّقوم، و من المعلوم أنّ نزل الجنَّة خير فالإستفهام للإنكار أي ذلك خير، و في الآية تنبيهٌ على أنّ العاقل لا يأخذ إلاّ بما هو أنفع له في الدّنيا و الأخرة و حيث أنّ الدّنيا مزرعة الأخرة فلا يزرع فيها إلاّ ماله ثمرٌ طيّب و هو العمل الصّالح فأنّه شجرة ثمرها الجنّة و نعيمها و أن شئت قلت هو شجرة طوبى كما أنّ الكفر و العصيان شجرة الزّقوم و أنّما قلنا ذلك لأنّ أصل الشّجرة في الدّنيا و ثمرها في الأخرة فالمؤمن يغرس شجرة طوبى و الكافر يغرس شجرة الزّقوم ذلك بما كسبت أيديهم و ما ربّك بظلامٍ للعبيد.

إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ

أي إنّا جعلنا شجرة الزّقوم فتنةً أي محنةً لشّدة التّعبد، قيل أنّ المشركين قالوا كيف تنبت هذه الشَّجرة في النّار و لم يعلموا أنّ اللّه قادر على منع النّار من إحراقها حتّى تنبت الشّجرة فيها معناه إنّها عذاب للظّالمين.

إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِيٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ، طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ ٱلشَّيَاطِينِ

هذه الآية في الحقيقة بيان و تفسير لشجرة الزّقوم كأنّه قيل و ما شجرة الزّقوم، قال تعالى شجرةٌ تخرج في أصل الجحيم و هذا يدلّ على أنّ الشَّجرة من النّار فقول المشرك كيف تنبت هذه الشّجرة في النّار لا معنى له فأنّ الشَّجرة إذا كانت من جنس النّار لا إشكال في خروجها منها، و قوله: **طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُسُ ٱلشَّيَاطِينِ**، أي ثمرها يسمّى طلعاً لطلوعه شبّه ثمرها برؤوس الشّياطين لم تر قطّ قيل فيه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنّ قبح صورة الشّياطين متّصورٌ في النّفس و لذلك يقولون لشئٍ يستقبحونه جدّاً كأنّه شيطان، و يقولون رأسه رأس شيطان.

الثّانى: أنّه شبّه برأس حيّة يسمّيها العرب شيطاناً و منه قول الشّاعر:

فــنجردُ يــحلف حــين أحــلق   كـمثل شـيطانٍ الحـماط أعـرف

الثّالث: أنّه شبّه بنبتٍ معروف برؤوس الشّياطين و قيل قد دلَّ اللّه عـلى أنّ يشوّه خلق الشّياطين في النّار حتّى لو رأهـم راءٍ مـن العباد لإستوحش مـنهم غاية الإستيحاش فلذلك يشبه برؤوسهم، هذه الوجوه ذكرها في التّبيان.

و قال في الكشّاف و شبّه برؤوس الشّياطين دلالة على تناهيه في الكراهة و قبح المنظر لأنّ الشيطان مكروهٌ مستقبحٌ في طباع النّاس إلى أخر ما قال إنتهى.

أقول أقوال المفسّرين في المقام متّحدة المعنى مختلفة الألفـاظ و العـبارات و ذلك أنّهم أخذوا بعضهم من بعض و ليت شعري ما أرادوا بذلك و أيّة فائدةٍ في هذه الملّفقات التّي لا أصل لها و لا يساعده العقل السّليم.

والّذي نقول في المقام هو أنّ اللّه تعالى شبّه ثمر الشَّجرة برؤوس الشياطين و هذا ممّا لا كلام فيه، فالمشّبه هو الثَّمر والمشبّه به رؤوس الشّياطين و حرف التَّشبيه الكاف و أنّما الكلام في وجه الشَّبه و لا يجب على المخاطب أن يعلم وجه الشَّبة و أنّما يجب العلم به للمشبّه و هـو فـي المـقام ليس إلاّ اللّـه تـعالى شكّ أنّه يعلم كيف رؤوس الشّياطين لأنّه خلقهم و عـلمه تـعالى بـوجه الشَّـبه كافٍ في صحّة التَّشبيه و أمّا أنّ رؤوس الشّياطين كيف تكون، فاللّه أعلم.

فَإِنَّهُمْ لَآكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِئُونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ

أخبر اللّه تعالى أنّ أهل النّار يأكلون من تـلك الشَّـجرة الخـبيثة و يـملأون بطونهم منها لشّدة ما يلحقهم من ألم الجوع و في التّعبير بالملأ و هو الطّرح في الوعاء بما لا يحتمل الزّيادة عليه، إشارة إلىٰ قوله:

ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ

الشَّوب بفتح الشّين خلط الشّيْ بما ليس منه ممّا هو شرَّ منه يقال هذا الطّعام مشوب و قد شابه شيْ من الفساد و الحميم الماء الحارّ ليكون أشنع.

قال اللّه تعالى: **وَ سُقُوا مٰاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعٰاءَهُمْ**[١].

قال اللّه تعالى: **لا يَذُوقُونَ فِيهٰا بَرْدًا وَ لا شَرٰابًا، إِلّا حَمِيمًا وَ غَسّٰاقًا**[٢].

و قيل يمزج لهم الزّقوم بالحميم ليجمع بين مرارة الزّقوم و حرارة الحميم تغليظاً لعذابهم.

و قال بعض المفسّرين إذا شاب و خلط الزّقوم إجتمعت المكاره فيه من المرارة و الخشونة و نتن الرّائحة و الحرارة المحرقة نعوذ باللّه منها و الحميم الحار الّذي له من الإحراق المهلك، و الضّمير في عليها، راجع إلى الشَّجرة.

ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ

أي أنّهم يردون بعد ذلك العذاب إلى النّار الموقدة.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَآءَهُمْ ضَآلِّينَ

أي أنّهم صادفوا أباءهم ضالّين عن طريق الحقّ فإقتدوا بهم في الدّنيا كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله: **إِنّٰا وَجَدْنٰا آبٰاءَنٰا عَلٰى أُمَّةٍ وَ إِنّٰا عَلٰى آثٰارِهِمْ مُهْتَدُونَ**[٣] و إلى هذا المعنى أشار اللّه تعالى بقوله:

فَهُمْ عَلَىٰ آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ

أي يسرعون إلى أثارهم و يقتدون بها.

أقول يستفاد من هذه الآية و أمثالها أنّ التّقليد في أصول الدّين أعني بها التّوحيد و النّبوة و المعاد و الإمامة و العدل على مذهب الشّيعة و في الثّلاثة الأولى أعني التّوحيد و النّبوة و المعاد على مذهب العامّة لا يصحّ سواء كان

١- محمّد = ١٥
٢- النّبأ = ٢٥ / ٢٤
٣- الزُّخرف = ٢٢

التّقليد فيها من المقلّد الحيّ أم من الميّت فالتّقليد في التّوحيد و النّبوة و المعاد حرام بإجماع المسلمين و يؤيّده العقل فأنّه يحكم بأنّ معرفة اللّه و رسوله و الإعتقاد بما جاء به الرّسول منوطٌ بالعقل و ليست من الأحكام الشّرعية التّي لا سبيل للعقل إلى البلوغ إليها لأنّ كثيراً من الأحكام لولا أكثرها تعبّديٌ محض و الفروع الفقهيّة تحتاج إلى الإستنباط من الأصول كما قرّر في محلّه و على هذا فالمكلّف لابدّ له من التقليد أو العمل بالإحتياط لو كان عالماً به أو التّقليد من المجتّهد الّذي يقدر على الإستنباط و أمّا الأصول الإعتقاديّة فيجب على كلّ مكلّفٍ العلم بها من طريق العقل بقدر الطّاقة البّشرية، لا يكلّف اللّه نفساً إلاّ وسعها إذا عرفت هذا فإعلم.

أنّ الأصول الإعتقاديّة في الشّريعة المقدّسة ثلاثة، التّوحيد و النّبوة و المعاد، هذا بإجماع المسلمين و أمّا عندنا فهي خمسة بزيادة العدل و الإمامة و للبحث فيه مقام أخر و الذّي نقول به في المقام هو أنّ التقليد في غير الأحكام الفرعيّة لا معنى له و هذا ممّا إتّفق عليه جميع العقلاء من المسلمين و ما أقبح بالرَّجل العاقل أن يكون مقلّداً لغيره في إعتقاده و اذا كان التّقليد في الإعتقادات غير معقولٍ في حقّ العاقل فما ظنُّك بمن يدّعي العلم و الإجتهاد و هو مقلّد لغيره في دينه و يقول لمّا فعل الأسلاف كذلك و إعتقدوا به فنحن أيضاً نتّبعهم و نقتدي بهم و هل هذا إلاّ من قبيل قول المشركين:

إِنَّا وَجَدْنَآ اٰبَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَ إِنَّا عَلَىٰٓ اٰثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ[١].

و نحن نرى أنّ أكثر المسلمين و هم جميع المذاهب غير مذهب الشّيعة من مصاديق هذه الآية حتّى في التّوحيد و النّبوة و المعاد فضلاً عن العدل و الإمامة كما هو ظاهر على من مارس خلال هذه الدّيار فأنّهم أخذوا توحيدهم و نبُّوتهم و معادهم و إمامتهم من أبي هريرة و أنس بن مالك و عائشة و أمثالهم

١- الزّخرف = ٢٣

و لو كان ما ذكروه غير مطابقٍ للعقل و لا نعني بالتقليد في الإعتقاد إلاّ هذا و إنّي حين إشتغالي بتأليف مفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة رأيت كلاماً من إبـن أبي الحديد المعتزلي و هو أحد شرّاح الكتاب و تعجّبت منه.

و محصّل كلامه أنّا لا نشكّ في أنّ أميرالمؤمنين علي بن أبي طالب كان بعد النّبي من أفضل المسلمين و أعلمهم و أعدلهم و أزهدهم و أولى و أحقّ بالخلافة من غيره كائناً من كان إلاّ لحسن ظنّنا بأسلافنا من المسلمين في صدر الإسلام تابعناهم و قلنا بصحّة خلافة أبى‌بكر و عمر و ذلك لأنّ الحاضر يرى ما لا يراه الغائب فلعلّهم يروا مصلحة الإسلام في خلافة أبى‌بكر و لا يصحّ لنا تخطأتهم في ذلك فأنّهم كانوا عقلاء موثّقين في ديانتهم هذا محصّل كلامه و هو من علماء العامّة و قد إعترفوا بفضله و علمه و نحن أيضاً لا ننكر فضله، أترى أنّ هذا الكلام لا يدلّ على أنّه من مصاديق الآية.

■

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿۷۱﴾ وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿۷۲﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴿۷۳﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿۷۴﴾ وَ لَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿۷۵﴾ وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿۷۶﴾ وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿۷۷﴾ وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴿۷۸﴾ سَلَامٌ عَلَى نُوحٍ فِي ٱلْعَالَمِينَ ﴿۷۹﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿۸۰﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿۸۱﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿۸۲﴾ وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿۸۳﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿۸۴﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿۸۵﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿۸۶﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿۸۷﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿۸۸﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿۸۹﴾ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿۹۰﴾ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿۹۱﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ ﴿۹۲﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿۹۳﴾ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿۹۴﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿۹۵﴾ وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿۹۶﴾ قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي ٱلْجَحِيمِ ﴿۹۷﴾ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿۹۸﴾ وَ قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿۹۹﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ ﴿۱۰۰﴾

فَبَشَّرْناهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قالَ يا بُنَيَّ إِنِّيَ أَرىٰ فِي ٱلْمَنامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ ماذا تَرىٰ قالَ يآ أَبَتِ ٱفْعَلْ ما تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيَ إِنْ شآءَ ٱللّٰهُ مِنَ ٱلصّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمّآ أَسْلَما وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَ نادَيْناهُ أَنْ يآ إِبْراهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيآ إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هٰذا لَهُوَ ٱلْبَلٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَ فَدَيْناهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلامٌ عَلىٰ إِبْراهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَ بَشَّرْناهُ بِإِسْحاقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَ بارَكْنا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِما مُحْسِنٌ وَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَ لَقَدْ مَنَنّا عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَ نَجَّيْناهُما وَ قَوْمَهُما مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَ نَصَرْناهُمْ فَكانُوا هُمُ ٱلْغالِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَ آتَيْناهُمَا ٱلْكِتابَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَ هَدَيْناهُمَا ٱلصِّراطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَ تَرَكْنا عَلَيْهِما فِى ٱلْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلامٌ عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنّا كَذٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُما مِنْ عِبادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَ إِنَّ إِلْياسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَلا تَتَّقُونَ

﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَالِقِينَ
﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ اٰبَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾
فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْاٰخِرِينَ
﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذٰلِكَ
نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا
ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَ إِنَّ لُوطًا لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾
إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى
ٱلْغَابِرِينَ ﴿١٣٥﴾ ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْاٰخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَ إِنَّكُمْ
لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَ بِاللَّيْلِ أَفَلَا
تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾
إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ
مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَ هُوَ
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾
لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَاهُ
بِالْعَرَآءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَ أَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً
مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ
يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾
فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَ لَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ
خَلَقْنَا ٱلْمَلَآئِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ
إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَ إِنَّهُمْ
لَكَاذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ

﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَ مَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾ وَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّافُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ ٱلْمُنْذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَ سَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾

◀ اللّغة

ٱلْكَرْبِ: الحزن الثَّقيل على القلب.
أَئِفْكًا: الإفك هو أشنع الكذب و أقبحه.
فَرَاغَ: أي قال والرّواغ الحياد.
يَزِفُّونَ: يقال وزف يزف إذا أسرع.
تَلَّهُ لِلْجَبِينِ: أي كبّه و حوّل وجهه إلى القبلة، و قيل معنى، تلّه، أي صرعه، أضجعه.

◀ الإعراب

فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ المخصوص بالمدح محذوف أي نحن سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ مبتدأ و خبر في موضع نصب، بتركنا وكذلك نعتٌ لمصدر محذوف أي جزاءً كذلك أَئِفْكًا منصوب، بتريدون، و ءَالِهَةً بدل منه ضَرْبًا مصدر من فراغ لأنّ معناه ضرب و يجوز أن يكون في موضع الحال مَا تَعْمَلُونَ ما مصدريّة و قيل موصولة نَبِيًّا حال من إسحاق.

◀ التَّفسير

وَ لَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ

و اللاّم في لَقَد، لام القسم و هى تدخل على الجواب كقولك و اللّه كان كذا، و قد تدخل للتّأكيد هكذا قيل و المعنى اقسم أنّه لقد ضلّ قبلهم، أي قبل هٰؤلاء الكفّار الّذين كانوا فى عصر النّبي، أكثر الأوّلين كقوم نوح و قوم عاد و ثمود و غيرهم ممّن ضلّ عن طريق الحقّ و إتّباع الهدى فأنّ الضّلال الذّهاب عن الحّق إلى طريق الباطل.

وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ

ثمّ أقسم أنّه أرسل إلى الأمم السّالفة منذرين، من الأنبياء و الرُّسل إلاّ أن أكثرهم كذّبوا الرُّسل و أنكروا رسالتهم كما كذّبك قومك.

فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْذَرِينَ

أي فأنظر يا محّمد كيف كان عاقبة **المُنذَرِين** بفتح الذّال أي الّذين أنذروا بواسطة الأنبياء. و المعنى فأنظر يا محّمد عاقبة تكذيبهم أنّهم **خَسِرَ ٱلدُّنْيا وَ ٱلْآخِرَةَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرانُ ٱلْمُبِينُ**(١).

إِلَّا عِبَادَ ٱللّٰهِ ٱلْمُخْلَصِينَ

و هم الّذين كانوا مطيعين منقادين للأنبياء و قبلوا منهم دعوتهم و لم ينكروهم و أخلصوا عبادتهم للّه تعالى ولم يشركوا به شيئاً فأنّ اللّه خلّصهم و نجّاهم من العذاب و وعدهم الثّواب على خلوصهم يوم القيامة.

وَ لَقَدْ نَادَيْنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّ نوحاً نادى ربّه و أستنصره على قومه و اللّه تعالى أجابه و نصره و هو نعم المجيب فالمخصوص بالمدح و هو، نعم محذوف.

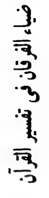

وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ

ٱلْكَرْبِ بفتح الكاف الحزن الثّقيل على القلب و إلى هذا المعنى أشار الشّاعر بقوله:

عسى الكرب الّذي أمسيت فيه   يكون ورائه فرجُ قريبُ

نوح النّبي أوّل نبيّ بعد جدّه إدريس النّبي و كان إسمه عبد الغفّار إنّما سمّي نوحاً لكثرة نواحه و بكائه مدّة خمس مائة سنة خوفاً من اللّه تعالى ثمّ

١- الحجّ = ١١

تحسّره على ضلال أمّته و هو أوّل الأنبياء الخمسة أولي العزم المبعوثين إلى الجنّ و الإنس كافّة و الأربعة بعد نوح، إبراهيم، و موسى و عيسى و محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم سيّدهم و أفضلهم و كان نوح عظيم القدر و المشهور أنّه عاش (٢٥٠٠ سنة) و قيل غير ذلك و قد مرَّ الكلام في قصّة نوح و عمره و غير ذلك من أحواله مفصّلاً.

و قوله تعالى: **وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ**، الظّاهر أنّ المراد بالكرب العظيم هو الطُّوفان العظيم الّذي غرق فيه خلق كثير بل جميع الخلق إلاّ من ركب معه السَّفينة على ما مرَّ بيانه سابقاً.

وَ جَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ

لمّا فرغ نوح من عمل السَّفينة في مدّة ثمانين سنة و ركب فيها من ركب من الحيوانات و الوحوش و الطُّيور و المؤمنين الّذين إستقاموا معه دعا نوح سائر من معه من أهل بيته و أولاده و قومه المؤمنين فأجابوه و دخلوا السَّفينة بأجمعهم ماعدا إبنه الكافر و إسمه كنعان و زوجته الخائنة أمّ كنعان و إسمها (واخلة) و كانت خيانتها أنّها لم تؤمن به و كانت تنسبه إلى الجنون.

ثمّ أنّه ركب السَّفينة بمن معه وكان فيهم بنوه الثّلاثة، سام و حام و يافث، و زوجته عمورية أمّ أولاده الصّالحين و هؤلاء من أولاده و أهله نجوا من الغرق و لعلَّ المراد بالذريّة في الآية هو هم فأنّهم بقوا بعد الطّوفان في الأرض و تناسلوا و بنوا مدائن و بلاداً بمرور الأيام، قيل أنّ الرُّوم، و فارس و أصناف العجم ولد سام، و السُّئدان من الحبش و الزّنج و غيرهم ولد حام، و التُّرك و الصِّين و الصقاليّة ولد يافث و لعلّ المراد بالذريّة الباقية في الآية هو ما ذكرناه من أولاده الثّلاثة الّذين بقوا بعده و يحتمل أن يكون المراد بالباقيين من ذريّته أولادهم إلى يوم القيامة.

فأنّ المشهور أنّ البشر الموجود كلّهم من ذريّة المؤمنين الّذين ركبوا السفينة مع نوح و اللّه أعلم بحقيقة الحال.

و الّذي نقطع به هو أنّ أولاد نوح الّذين كانوا معه في السَّفينة كانت لهم ذريّة لا محالة و الأنبياء و الأوصياء و الصلحاء بعد نوح كانوا من أولاد سام الّذي كان وصيّ أبيه و أمر نوح سائر أولاده و ذراريه بإتباعه و بشّرهم بنبيّ اللّه هود من بعده و أنّما قلنا ذلك لأنّ اولاد حام، و يافث تجبروا و حسدوا على ولد سام بما أتاهم اللّه من فضله و محصل الكلام أنّ ذريّة نوح كانت باقية إلى يوم القيامة و هذا ممّا لا خلاف فيه و هو من أعظم بركاته و عناياته في حقّه.

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِى ٱلْآخِرِينَ

إختلفوا في معنى الآية بعد إتّفاقهم على أنّ الضّمير في عليه، يرجع إلى نوح، فقال مجاهد و قتادة يعني أبقينا عليه ذكراً جميلاً و أثنينا عليه في أمّة محمّد و معنى تركنا،أبقينافيكون قوله: **سَلٰامٌ عَلٰى نُوحٍ فِى ٱلْعٰالَمِينَ** على غيرجهةالحكاية.

و قال الفرّاء معناه، تركنا عليه قولاً هو أن يقال في أخر الأمم سلامٌ على نوح في العالمين، و قيل معناه تركنا عليه ثناءً حسناً في كلّ أمّةٍ فأنّه محبَّبٌ إلىٰ الجميع حتّى في المجوس من يقول أنّه، أفريدون.

و قال صاحب الكشّاف و تركنا عليه في الأخرين، من الأمم هذه الكلمة.

سَلٰامٌ عَلٰى نُوحٍ فِى ٱلْعٰالَمِينَ

يعني يسلّمونً عليه تسليماً و يدعون له، و قال في العالمين، معناه، الدُّعاء بثبوت هذه التَّحية فيهم جميعاً و أن لا يخلوا أحد منهم منها إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

أقول الظّاهر أنّ المفعول به في الكلام محذوف و التّقدير و تركنا عليه ثناءً في الأخرين أو مدحاً و هو سلامٌ على نوح في العالمين، فحذف المفعول به في الآية الأولى و المبتدأ في الثّانية.

إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

كما فعلنا بنوح من الثّناء و البقاء في ذريّته.

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

هذه الآية بمنزلة التّعليل لقوله تعالى: **وَ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ** الى قوله: **فِى ٱلْعَالَمِينَ**، أي أنّما نجيّناه من الكرب وجعلنا البقاء في ذريّته و المدح و الثّناء في الأخرين لأنّه كان من عبادنا المؤمنين، كأنّه قيل بما إستحقّ نوح ذلك قال تعالى: **إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ** و من كان كذلك فهو يستحقّ هذه الألطاف و العنايات و البركات و أنّما قال من عبادنا، لأنّ العبوديّة من أعلى المقامات و لا مقام فوقها و قيّدها بالإيمان لأنّها لا تحصل إلاّ به.

ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْآخَرِينَ

و هم الّذين تخلّفوا عن ركوب السَّفينة و لم يؤمنوا بنوح فأنّ اللّه تعالى أغرقهم جميعاً.

وَ إِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ

الشِّيعة الجماعة التّابعة لرئيس لهم هكذا فسَّرها بعضهم و الحقّ أنّ الشّيعة الجماعة التّابعة لغيره رئيساً كان أو غيره يقال شايعه إذا تبعه، و المعنى أنّ من شيعة نوح إبراهيم لأنّه أي إبراهيم تابعه في مناجه و سنته في التّوحيد و العدل و إتّباع الحقّ، و كلمة، من، للتّبعيض أي أنّ إبراهيم بعض شيعته و ذلك لأنّ جميع الأنبياء بعد نوح كانوا من شيعة نوح في إتّباع الحقّ أي سلكوا في طريق العبوديّة و الصَّبر على الأذى في طريق الحقّ مسلك نوح و السِّر فيه أنّ الأنبياء كلّهم كانوا يدعون النّاس الى التَّوحيد و هذا هو الغاية و المقصد الأعلى في النبوّة و الرّسالة و بهذا المعنى يصدق أنّ النّبي المتأخّر زماناً يتبع المتقدّم نعني بالشِّيعة إلاّ هذا.

و أمّا إختلاف الطّرق و المسالك للوصول الى هذا المقصد لا ينافي أصل المدّعى فأنّ مقتضيات الزّمان يوجب إختلاف الطُّرق قطعاً و النّسخ في الأديان لا ينافي المتابعة لانّ النَّسخ في الأحكام الفرعيّة الّتي تختلف بإختلاف الزّمان ليس في الأصول الإعتقاديّة و ئأنمّا هو في الفروع و هو ظاهرٌ.

إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ

أي جاء إبراهيم الى الموضع الّذي أمره اللّه تعالى بالرّجوع اليه بقلبٍ سليمٍ عن الشّرك بريءٌ عن المعاصي قاله في التّبيان.

و قيل القلب السّليم النّاصح للّه عزّ وجلّ في خلقه، و قيل أن يعلم أنّ اللّه حقّ و أنّ السّاعة قائمة و أنّ اللّه يبعث من في القبور و غير ذلك من الإحتمالات، و يظهر من كلمات أهل اللّغة أنّ السَّليم، السّالم فقوله: **بِقَلْبٍ سَلِيمٍ**، أي سالم عن حبّ الدُّنيا و زخارفها.

بعبارةٍ أخرى كان قلبه سالماً عن كلّ ما سوى اللّه لم يتعلّق بشيءٍ غيره أو سالماً من كلّ شكّ و ريب في معرفة اللّه و توحيده و إبراهيم الخليل كان كذلك بل جميع الأنبياء كانوا كذلك فأنّ إثبات الشّيءِ لشيءٍ لا ينفي ما عداه إلاّ أنّ القلوب متفاوتة و الإدراكات و الإستعدادات ليست في الإنسان على نمطٍ واحد حتّى في الأنبياء و الى هذا أشار اللّه تعالى بقوله: **تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ**(١) و قد ثبت عقلاً و شرعاً أنّ مراتب الفضيلة في الإنسان بإتّصافه بالكمالات و هى تختلف شدّةً و ضعفاً و كمالاً و نقصاً و الأصل في جميع الكمالات هو المعرفة باللّه تعالى فمن كان أعرف بها فهو أفضل.

إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ

إبراهيم الخليل عليه السّلام هو جدّ نبّينا محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: **و اذا كان يوم القيامة يأتي النِّداء مِن قِبَل اللّه سُبحانه يا مُحمّد نِعمَ الأب أبوك إبراهيم**

١- البقرة = ٢٥٣

ونِعم الأخ أخوك علّي بن أبي طالب و لا شكّ أنّ إبراهيم عليه السلام كان أفضل من جميع الأنبياء بعد نبيّنا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و لقد إتّفقت كلمة جميع أهل الأديان المختلفة من اليهود و النّصارى و المسلمين و غيرهم على نبوّته و تعظيمه و جعل النبوّة في صلبه و ذريّته و جعل نبيّنا من ولده و نسله و كان عليه السّلام قدوةً و معلّماً للخير و إمام هدىً للنّاس من غير معلّم و لا مربٍّ سوى اللّه تعالى و إنفرد في عصره بالتّوحيد و جميع أهل عصره كفرة، و كان كثير السُّجود على الأرض و كثير الصّلوة على نبيّنا محمّد صلى الله عليه و آله و سلم و كثير الخضوع لربّه و كان عليه السلام مضيافاً يحبّ الضُّيوف و فضائله كثيرة و الأيات تشهد بها.

كان إبراهيم عليه السّلام إبناً لتارخ و كان أبوه تارخ مؤمناً موّحداً للّه تعالىٰ لم يسجد لصنمٍ قطّ و هذا ممّا لا خلاف فيه عند الشّيعة تبعاً لأئمّة أهل البيت عليهم السّلام.

أمّا العامّة فقد حملوا الآية و أمثالها على ما يفهم منه عرف العوام و قالوا أنّ أباه كان آذر و كان كافراً باللّه و إستدلّوا بظواهر الأيات و لم يعلموا أنّ لفظ الأب قد يراد به العمّ أيضاً و هذه الآية و أمثالها من هذا القبيل و الدّليل على ما ذكرناه من القرآن.

قال اللّه تعالى: **أَمْ كُنْتُمْ شُهَدٰآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قٰالَ لِبَنِيهِ مٰا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قٰالُوا نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَ إِلٰهَ اٰبٰآئِكَ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْمٰاعِيلَ وَ إِسْحٰاقَ إِلٰهًا واٰحِدًا وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**[١].

عدّ في الآية إسماعيل من آباء يعقوب و من المعلوم أنّ إسماعيل كان عمّاً له و هذا دليل على أنّ الأب قد يراد به العمّ و يمكن أن يستدلّ على المدّعى.

قال اللّه تعالى: **اَلَّذِي يَرٰيكَ حِينَ تَقُومُ، وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسّٰاجِدِينَ**[٢].

كيّفية الإستدّلال بها أنّ قوله: **وَ تَقَلُّبَكَ فِى ٱلسّٰاجِدِينَ**، معناه تقلّب النُّطفة الّتي خلقت منها في السّاجدين أي كانت النُّطفة تنتقل من صلب ساجدٍ الى

١- البقرة = ١٣٢   ٢- الشّعراء = ٢١٩ / ٢١٨

صلب ساجدٍ حتّى إنتهت الى صلب عبد اللّه و من المعلوم أنّ الكافر لا يكون ساجداً للّه و حيث أنّ إبراهيم عليه السلام كان جدّ النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فلا محالة كانت النُّطفة التّي خلق منها النّبي في صلبه و قبله في صلب أبيه فلو كان أبوه كافراً حاملاً للنُّطفة التّي خلق منها إبراهيم لزم منه أن يكون النّبي مخلوقاً من نطفة الكافر و هو خلاف ما يستفاد من الآية هذا كلّه من حيث الإستدلال بالقرأن الّذي لا يمكن لأحدٍ إنكاره و أمّا الأخبار من طرق أهل البيت فهي أيضاً كثيرة مثل قولهم: **أشهد أنّك كُنتَ نُوراً في الأصلاب الشّامخة والأرحام المُطّهرة،** إلىٰ أخر ما قال ثمّ أنّ هذه الأيات و الأخبار مؤيّدة بحكم العقل أيضاً إذا كان سالماً عن الأفات و هذا القدر ممّا ذكرناه يكفي في إثبات المدّعى و هو أنّ المراد بأبيه في الآية عمّه، و كان إبراهيم في كفالته و إطلاق الأب على العمّ شائع عند العرب خاصّة إذا كان العمّ قائماً بكفالة إبن أخيه و لذلك كانوا يقولون لزيد بن حارثة، زيد بن محمّد، لكفالته صلى الله عليه وآله وسلم إيّاه و لنرجع إلى تفسير الآية و نقول:

قال إبراهيم لعمّه و قومه **مٰاذاٰ تَـعْبُدُونَ،** أي أيُّ، شيٍ تعبدونه و المراد الأصنام و الأوثان و أنّما عبّر عن الأصنام بالشّيْ المستفاد من ما الإستفهاميّة تحقيراً لها كما يقال للشّيْ الحقير، ما هذا أو أيُّ شيٍ فعيَّرهم و وبَّخهم على عبادتهم و خضوعهم للأصنام التّي لا تنفع عبادتها و لا تضرّ تركها و المقصود أنّ الموجود العاقل لا يتّبع إلاّ عقله و العقل لا يحكم بمتابعة العاقل للجماد الّذي لا حياة له فضلاً عن العقل فمن تبع الجماد فهو أجمد و أخسّ من معبوده.

أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ

الإفك بسكون الفاء قيل في معناه هو أسوء الكذب و هو الّذي لا يثبت و يضطرب قاله المبّرد.

و قال في المفردات الإفك كل مصروفٍ عن وجه الّذي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلة عن المهابّ مؤتفكة إنتهى.

و الألهة جمع إله، و هو الّذي يتألّه الخلق إليه أي يرجع إليه في المصائب والحوائج و لذلك سمّي الإله إلهاً.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللّٰهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ اَنّٰى يُؤْفَكُونَ**[٢].

أي يصرفون عن الحقّ في الإعتقاد الى الباطل و من الصدّق في المقال الى الكذب و من الجميل في الفعل الى القبيح.

فقوله تعالى: **أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللّٰهِ تُرِيدُونَ** يصحّ أن يجعل تقديره، أتريدون آلهةً من الإفك و يصحّ أن يجعل، إفكاً، مفعول تريدون و يجعل آلهة بدلاً منه، و يجوز أن يكون، إفكاً، حالاً، و المعنى أتريدون آلهةً من دون اللّه آفكين كاذبين صارفين عن الحقّ.

فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أي ما ظنّكم به تعالى الى يوم الحساب و قد عبدتم غيره، و يحتمّل أن يكون المعنى أيُّ شيءٍ ظنُّكم به سوء ظنٍّ.

فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ، فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ

قيل معناه أنّه إستدلّ بها على وقت حمى كانت تعتاده فقال إنّي سقيم، و من أشرف على شيءٍ جاز أن يقال أنّه فيه كما قال اللّه تعالى: **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ**[٣] و قيل أرسل اليه ملكهم أنّ غداً عيدنا فأخرج معنا فنظر الى نجم طالع فقال أنّ هذا يطلع مع سقمي و كان علم النّجوم مستعملاً عندهم منظوراً فيه فأوهمهم هو من تلك الجهة و أراهم من معتقدهم عذراً لنفسه و ذلك أنّهم كانوا أهل رعاية و فلاحة و هاتان المعيشتان يحتاج فيهما الى نظرٍ في النّجوم و الأقوال في المقام كثيرة.

١- الزّخرف = ٨٧ ٢- المنافقون = ٤
٣- الزّمر = ٣٠

أقول أمّا قوله: **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ**، فالنُّجوم يكون جمع نجم كما يطلق على نجوم السّماء يطلق على نجوم الأرض أعني بها النّبات قال اللّه تعالى: **وَ ٱلنَّجْمُ وَ ٱلشَّجَرُ يَسْجُدانِ**(١) و لا دليل على أنّ المراد بالنُّجوم في الآية نجوم السّماء.

و أمّا قوله: **إِنِّى سَقِيمٌ**، معناه إنّي سقيم القلب لكفرهم و عنادهم و عبادتهم الأصنام.

و أمّا ما رواه العامّة في تفاسيرهم عن النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم: أنّه قال لم يكذب إبراهيم النّبي عليه السّلام إلاّ ثلاث كذبات يحاجز بها عن ربّه، قوله: إِنِّى سَقِيمٌ ولم يكن كذلك و قوله: بل فعله كبيرهم هذا، و قوله: في سارة، أنّها أختي وكانت زوجته.

فقال الشّيخ في التّبيان، أوّل ما فيه أنّه خبر واحد لا يعوَّل عليه و النّبي أعرف بما يجوز على الأنبياء و ما لا يجوز من كلّ أحدٍ و قد دلّت الأدلّة العقليّة على أنّ الأنبياء لا يجوز عليهم أن يكذبوا في ما يؤدّونه عن اللّه من حيث أنّه كان يؤدّي الى أن لا يوثق بشيءٍ من أخبارهم و الى أن لا ينزاح علّة المكلّفين، و لا في غير ما يؤدّونه من اللّه من حيث أنّ تجويز ذلك ينفر عن قبول قولهم فإذاً يجب أن يقطع أنّ الخبر لا أصل له إنتهى ما ذكره قدّس سرّه و هو متينٌ جدّاً.

إن قلت فما تقول في صورة التّقية على مذهب الشّيعة فأنّ المتّقي قد يكذب ولو كان معصوماً.

قلت نعم هذا ثابت في غير النّبي و أمّا النّبي صلّى اللّه عليه و آله و سلّم فلا تقيّة له و أنمّا التقيّة ثابتة في حقّ الوصيّ و غيره من المؤمنين و ليس كلامنا فيه فعلاً و من المعلوم أنّ إبراهيم كان نبيّاً.

فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ

١- الرحمن = ٦

أي أعرضوا عن إبراهيم لمّا قال لهم إنّي سقيم و خرجوا الى عيدهم.

فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ

قال السُّدي ذهب اليهم، و قيل جاء اليهم، و قيل مال اليهم، و قيل أقبل اليهم و قيل عدل و المعنى متقارب يقال راغ يروغ روغاً و روغاناً إذ مال و طريق رائغ أي مائل فالمعنى مال إبراهيم الى آلهتهم.

قال الشّاعر:

و يريك من طرف اللّسان حلاوةً   و يروغ عنك كما يروغ الثّعلب

فلماّ مال إبراهيم الى آلهتهم قال (ألا تأكلون) خاطبها بخطاب من يعقل لأنّهم أي الكفّار أنزلوها بتلك المنزلة و كذا قوله (مالكم لا تنطقون) و أنمّا خاطبهم بذلك مع أنّه كان عالماً بأنّ الجماد لا يأكل، لأنّ الكفّار جعلوا بين يدي الأصنام طعاماً ليأكلوه إذا رجعوا من العيد و أنمّا تركوه لتصيبه بركة أصنامهم بزعمهم و قيل تركوه للسّدنة.

و قيل قرّب ابراهيم اليها طعاماً على جهة الإستهزاء، فقال: **أَلَا تَأْكُلُونَ، مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ.**

فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ

خصَّ الضّرب باليمين لأنّها أقوى و الضّرب بها أشدّ.

و قيل المراد باليمين القوّة و قيل العدل، و اليمين ها هنا العدل كما أنّ الجور الشّمال، و لا يبعد أن يكون المراد باليمين الّتي حلفها حين قال: **وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ**[1].

فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ

١- الانبياء = ٥٧

يَزِفُّونَ بتشديد الفاء و تخفيفها فعلى الأوّل هو من زفّ يزفّ زفّاً، و أصل الزّفيف في هبوب الرّيح و سرعة النّعام، يقال زفزف النّعام إذا أسرع و منه إستعير زفّ العروس و إستعارة ما يقتضي السُّرعة، و على التّخفيف، فهو من وزف يزف مثل وزن يزن، إذا أسرع قاله أبو إسحاق.

و قال الكسائي و الفرّاء لا نعرف التّخفيف في القراءة و به قال النّحاس.

أقول الأقوى قراءة التّشديد و عليها المصاحف و معناه السُّرعة و على هذا فمعنى الآية فأقبلوا اليه أي الى إبراهيم مسرعين فلمّا أقبلوا اليه قال إبراهيم لهم على وجه الإنكار.

قٰالَ أَتَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ

الإستفهام للإنكار على وجه التّوبيخ أي كيف يصحّ أن يعبد الإنسان العاقل ما يعمله بيده و أنمّا قال ذلك لأنّهم كانوا ينحتون الأصنام بأيديهم ثمّ نبهّهم و قال: وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ الواو للحال أي كيف تعبدون ما تنحتُون بأيديكم و الحال أنّ اللّه تعالى خلقكم و خلق الّذي تعملون بأيديكم من الأصنام، و ها هنا إشكالٌ لابدّ لنا من التّنبيه عليه و هو أنّ قوله: أَتَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ يدلّ على أنّ الأصنام المنحوتة من أعمال العباد كغيره من الأعمال، و أمّا قوله:

وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ

صريحٌ في أنّ أعمال العباد مخلوقة للّه تعالى و اذا كان عمل العبد مخلوقاً له تعالى فما ذنب العبد في عمله فقال الشّيخ في التّبيان لأنّها أي الأصنام المنحوتة أجسام و اللّه تعالى هو المحدث لها و ليس للمجبّرة أن تتعلّق بقوله: وَ اَللّٰهُ خَلَقَكُمْ وَ مٰا تَعْمَلُونَ فتقول المجبرّة ذلك يدّل على أنّ اللّه خالق لأفعالنا لأمورٍ:

أحدها: أنّ موضوع كلام إبراهيم لهم بني على التّقريع لهم لعبادتهم الأصنام و لو كان ذلك من فعله تعالى لما توجّه اليهم العيب بل كان لهم أن يقولوا لم توبّخنا على عبادتنا للأصنام واللّه هو الفاعل لذلك فكانت تكون الحجّة لهم لا عليهم.

الثّاني: أنّ قال لهم **أَتَعْبُدُونَ مٰا تَنْحِتُونَ** و نحن نعلم أنّهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الّذي هو فعلهم و أنمّا يعبدون الأصنام الّتي هي أجسام فعل اللّه بلا شكّ فقال لهم، و اللّه خلقكم، و خلق هذه الأجسام و ساق الكلام الى آخر ما قال أن أردت الوقوف على ما ذكره على تفصيله فعليك بالتّبيان.

و نحن نقول ما ذكرهقدّس سرّه في الجواب عن الإشكال لا يخلوا من الضّعف تحسم به مادّة الإشكال، و ذلك لأنّ جوابه الأوّل في الحقيقة من قبيل المصادرة بالمطلوب إذ للقائل بالجبر أن يقول نحن نلتزم بكون الحجّة لهم لا عليهم و هذا أصل الإشكال.

و أمّا الوجه الثّاني ممّا ذكره في الجواب فهو أيضاً لا يرجع الى محصلٍ، قوله أنّهم لم يكونوا يعبدون نحتهم الّذي هو فعلهم و أنمّا كانوا يعبدون الأصنام الّتي هي أجسام و هى فعل اللّه بلا شكّ، فللجبري أن يقول نحن لم نقل أنّهم كانوا يعبدون نحتهم بل قلنا أنّهم كانوا يعبدون الأجسام المنحوتة لا الأجسام بما هي أجسام أعني بها الخشب و الحديد، قولكم هي فعل اللّه بلا شكّ لا يضرّنا و ذلك لأنّ الأجسام بما هي أجسام قبل النّحت فعل اللّه و أمّا بعد النَّحت فهي فعل العبد.

بعبارةٍ أخرى الأجسام المطلقة فعل اللّه دون المقيّدة و كلامنا في الثّاني دون الأوّل فأنّ عابد الصّنم لا يعبد الخشب بما هو هو بل يعبد الخشب بعد نحته فهو يعبد الخشب المقيّد بالنَّحت و هذا فعل العبد قطعاً و لا يلزم من كون المطلق فعل اللّه أن يكون المقيّد أيضاً كذلك فالإشكال باقٍ بحاله و هو أنّ

الآية تدلّ على أنّ فعل العبد فعل اللّه فالنّحت فعل اللّه كما أنّ الخشب فعله و إذا كان العمل فعل اللّه فما ذنب العبد و المفروض أنّه عبد شيئاً خلقه اللّه و أنمّا الذّم يثبت له فيما إذا عمل شيئاً بإختياره ثمّ عبده.

و حاصل الكلام أنّ الصّنم الّذي يعبده العبد إمّا فعل اللّه أو فعل العبد، فأن كان فعل اللّه فلا ذنب عليه لأنّه عبد ما خلقه اللّه لعبادته و أن كان العمل فعل العبد فما معنى قوله: **وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ**، أليس معناه و اللّه خلقكم و أعمالكم، و أن شئت قلت بناءً على ظاهر الآية أنّ اللّه تعالى جعل الخشب صنماً ليعبد لا العبد.

و قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية تبعاً لصاحب الكشّاف ما هذا لفظه **وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ** أي خلقكم و خلق ما تعملونه من الأصنام قال في الكشّاف فأن قلت كيف يكون الشّيء الواحد مخلوقاً للّه معمولاً لهم حيث أوقع خلقه و عملهم عليها جميعاً.

قلت هذا كما يقال عمل النّجار الباب و الكرسي و عمل الصّائغ السّوار و الخلخال و المراد عمل إشكال هذه الأشياء و صورها دون جواهرها و الأصنام جواهر و إشكال فخالق جواهرها اللّه و عاملوا إشكالها الّذين يشكّلونها بنحتهم و حذفهم بعض أجزاءها حتّى يستوي التّشكيل الّذي يريدونه و ساق الكلام إلى أن قال أنّ اللّه تعالى قد إحتجّ عليهم بأنّ العابد و المعبود جميعاً خلق اللّه و كيف يعبد المخلوق المخلوق على أنّ العابد منهما هو الّذي عمل صورة المعبود و شكله و لولاه لمّا قدر أن يصوّر نفسه و يشكّلها إلى آخر ما حال بتفصيله إنتهى.

أقول إنّما نقلنا أقوالهم في المقام بألفاظها و عباراتها حفظاً للأمانة و أن تعلَم أنّ الإشكال قويٌّ لا يمكن التخلُّص عنه بسهولةٍ و الّذي نقول في الباب بعون الملك الوهّاب هو أنّ الفعل الصّادر من العبد له وجهان:

وجهٌ إلى الرَّب و وجهٌ إلى العبد.

فمن جهة أنّ العبد سببٌ لإيجاده في الخارج فهو ينسب إليه و من جهة أنّ اللّه تعالى علَّة الإيجاد فهو ينسب إليه تعالى و الفرق بين السَّبب و العلَّة أنّ السَّبب واسطة في الفعل و العلَّة موجدة إيّاه و السّر في ذلك أنّ العالم و ما فيه عالم الأسباب و المسَّببات، **أبىٰ اللّه أن يجري الأمور إلاّ بأسبابها** لا أنّه تعالى لا يقدر على الإيجاد بغير الأسباب فأنّه على كلّ شئٍ قدير بل لأجل أنّه جعل عالم المادّة كذلك بمشيئته و إرادته لمصلحة لا علم لنا بها و هو تعالى أعلم بها و على هذا فمن حيث أنّ السَّبب مباشر للفعل يقال هذا فعل العبد و من حيث أنّ اللّه علَّة الإيجاد يقال هذا فعل اللّه فالنّسبة إليهما بإعتبارين فقوله تعالى: **وَ ٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ** أي ما تعملون بعنوان السببيّة لا بعنوان الخالقيّة و حيث أنّ السَّبب مباشر للفعل فضرّه و نفعه راجع إليه و لذلك يقتل مباشر القتل في القصاص لا من أمره به و لا من قبض روح المقتول فأنّ الجرم ثابت للمباشر في الدّنيا و الآخرة فتحصّل ممّا ذكرناه أنّ نسبة الفعل الى الخالق لا إشكال فيه.

فقول الجبري إذا كان الفعل مخلوقاً له فما ذنب العبد لا معنى له و ذلك لأنّ الفعل مخلوق له تعالى من جهة العلّية و الإيجاد لا من جهة المباشرة و السببيّة فأنّه من هذه الجهة منسوبٌ إلى العبد و لذلك تكون تبعات الفعل من الضَّر و النَّفع في الدّنيا و الآخرة راجعة إلى العبد أن خيراً فخيراً و أن شرَّاً فشّراً، هذا أوّلاً.

ثانياً: لاشكّ أنّ الصَّنم فعل العبد ظاهراً و لا شكّ أنّ العبد فعل اللّه و فعل الفعل فعله و هذا يرجع إلى أنّ السَّبب فعل اللّه لأنّ اللّه جعله سبباً ففعله فعله حقيقتاً و أن لم يكن فعله ظاهراً و هذا كما يقال إبن الإبن إبنٌ، فزيد مثلاً إبن لعمرو ظاهراً لأنّه أولده من جهة السببيّة و المواقعة و هو أي زيد إبن لخالد

واقعاً إذ لو لم يكن خالد لم يكن عمرو و اذا لم يكن عمرو لم يكن زيد ثبتت الولاية للجدّ.

ثالثاً: لاشكّ أنّ الفعل مخلوق حادث سواء كان مخلوقاً للّه أم كان مخلوقاً للعبد، و المخلوق لا يكون معبوداً كائناً ما كان لأنّه من التَّرجيح بلا مرجّح فأنّ حكم الأمثال واحد و العقل يحكم ببطلانه هذا ما فهمناه من الآية و اللّه أعلم.

قَالُوا ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ

حكى اللّه تعالى في هذه الآية أنّ قوم إبراهيم قال بعضهم لبعضٍ، **ٱبْنُوا لَهُ بُنْيَانًا** قيل أنّهم بنوا له شبه الحظيرة و قيل مثل التّنور ثمّ أحجموا فيه ناراً ليلقوه فيها و البناء وضع الشئ على غيره على وجه مخصوص **فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ** يعني اطرحوه في النّار و الجحيم عند العرب النّار الّتي تجتمع بعضها على بعضٍ.

و قال إبن عبّاس بنوا حائطاً من حجارة طوله في السّماء ثلاثون ذراعاً و ملئوه ناراً و اطرحوه فيها و اللاّم في **الجَحيم** تدلّ على الكناية أي ألقوه في جحيمه أي جحيم ذلك البنيان.

فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ

الكَيد بفتح الكاف الحيلة و المكر و الخدعة و المعنى أنّ القوم و هم الكفّار أرادوا به أي بإبراهيم كيداً و مكراً فجعلناهم الأسفلين، أي أهلكهم اللّه، و قيل معناه جعلناهم المقهورين المغلوبين فلم ينفذ فيه مكرهم و لا كيدهم و قد مرّ الكلام فيه سابقاً فلا نعيده ثانياً.

وَ قَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّى سَيَهْدِينِ

قيل هذه الآية أصل في الهجرة و العزلة و أوّل من فعل ذلك إبراهيم و ذلك حين خلّصه اللّه من النّار قال إنّي ذاهبٌ إلى ربّي، أي مهاجر من بلد قومي و

مولدي إلى مكانٍ أتمكّن من عبادة ربّي فأنّه سيهديني إلى الطّريق المستقيم فأنّه بعباده رؤوفٌ رحيمٌ.

فعن مقاتل هو أوّل من هاجر من الخلق مع لوط و سارة إلى الأرض المقدّسة و هي الشّام، و قيل معناه ذاهبٌ بعملي و عبادتي و قلبي و نيّتي فعلى هذا ذهابه بالعمل لا بالبدن.

أقول ما ذكروه في معنى الآية لا بأس به و الأحسن أن يقال مراده عليه السّلام بالذّهاب إلى ربّه الذّهاب إلى مكانٍ يقدر فيه لعبادة ربّه و هو الأرض المقدّسة و فيه إشارة إلى أنّ المؤمن موظّفٌ بحفظ دينه فإذا كان في مكانٍ لا يقدر على حفظه يجب عليه الإنتقال منه إلى مكانٍ يقدر على حفظه و عبادة ربّه فأنّ أرض اللّه واسعة و الرّزق بيده و التّوفيق منه.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ، فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ

لمّا خلّصه اللّه من النّار و حفظه من كيد الفجّار و شرّ الأشرار و أراد الذّهاب إلى ربّه ليتخلّى للعبادة دعا ربّه و طلب منه ولداً صالحاً يأنس به في غربته و يكون له من الباقيات الصّالحات و لذلك لم يقل ربّ هب لي ولداً قال من الصّالحين فأنّ الولد إذا لم يكن صالحاً فلا خير فيه بل عدمه اولى من وجوده، فأجابه اللّه تعالى إلى ذلك فبشّروه بغلامٍ حليم، قيل الحليم هو الّذي لا يعمل في الأمور قبل وقتها ففي ذلك بشارة له على بقاء الغلام حتّى يصير حليماً هكذا قيل و الأمر سهلٌ.

فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّيَ أَرَى فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيَ أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيَ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّابِرِينَ

لمّا أجاب اللّه دعوة إبراهيم و أعطاه ولداً ذكراً سويّاً إختبر عبده إبراهيم و ابتلاه بقصّة الذّبح أي ذبح ولده الذّي بشّره اللّه به و أعطاه بيده مشكلٌ جدّاً لا

يقدر على إجراءه إلاّ من أتى اللّه بقلبٍ سليم فأخبر اللّه في هذه الآيـة أنّـه لمّـا بلغ الغلام معه أي مع أبيه السَّعي في طاعة اللّه أو للعمل الّذي تقوم به الحّجة، أو الإحتلام على قول إبن عبّاس و غير ذلك من الأقوال.

قال، أي قال أبوه، يا بنيّ إنّى أرى في المنام إنّي أذبحكك فأنظر ماذا تـرى، قال في التّبيان و كان اللّه تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليـقظة و تـعبّده أي يمضي ما يأمر به في حال نومه من حيث أنّ منامات الأنبياء لا تكون إلاّصحيحة و لو لم يأمره به في اليقظة لما جاز أن يعمل على المنامات إنتهى ما ذكره.

و قال مقاتل رأىٰ ذلك إبراهيم ثلاث ليال متتاليات (متتابعات) و قال محمّد بن كعب كانت الرُّسل يأتيهم الوحي من اللّه أيقاظاً و رقوداً فأنّ الأنبياء لاتنام قلوبهم وهذا ثابت في الخبر المرفوع.

قال رسول اللّه ﷺ إنّا معاشر الأنبياء تنام أعيننا و لا تنام قلوبنا إنتهى.

و قال إبن عبّاس رؤيا الأنبياء وحيٌ، و إستدلّ بهذه الآية.

و قال السّدي لمّا بشّر إبراهيم به قبل أن يولد قال هو إذاً للّه ذبيحٌ فقيل له في منامه قد نذرت نذراً ففِ بنذرك.

أقول أمّا مسألة المنام فهو كما ذكره الشّيخ في التّبيان و عليه إتّفاق الشّيعة فيما نعلم و للبحث فيه مقام أخر و أمّا قول القائل أنّه نذر قبل أن يولد الولد أنّه ذبيح فهو ممّا لا دليل عليه وكيف كان لا شكّ أنّ إبراهيم عزم على ذبح ولده و كان عمره ثلاث عشرة سنة فلمّا قال له أبوه يابنيّ أنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فأنظر ماذا ترى، أحبَّ أن يعلم حال إبنه في صبره على أمر اللّه و عزيمته على طاعته.

قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِنْ شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ أي قال الولد في جواب أبيه، ياأبت إفعل ما تؤمر من جانب اللّه ستجدني إن شاء اللّه من الصّابرين، على ذلك البلاء فأنّ العبد و ما في يده كان لمولاه.

فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ، وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَآ إِبْرَاهِيمُ، قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ

أي فلمّا إستلما و رضيا بالحكم أخذ إبراهيم إبنه و تلّه للجبين، معنى تلّه، أي صرعه و الجبين عبارة عن يمين الجبهة أو شمالها، و قيل معناه كبّه و حوّل وجهه إلى القبلة و أضجعه على الأرض.

روي أنّ الذّبيح قال لإبراهيم لمّا أراد ذبحه ياأبت أشدد رباطي حتّى لا أضطرب، و أكفف ثيابك لئّلا ينتضح عليها شئ من دمي فتراه أمّي فتحزن و أسرع مرَّ السكّين على حلقي ليكون الموت أهون عليّ، و أقذفني للوجه لئّلا تنظر إلى وجهي فترحمني و لئلاّ أنظر إلى الشّفرة فأجزع و اذا أتيت إلى أمّي فأقرأها منّي السّلام، فلمّا جرَّ إبراهيم السكّين على حلقه لم تعمل السكّين شيئاً ثمّ ضرب به على جبينه و حزَّ في قفاه فلم تعمل السكّين شيئاً.

وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَآ إِبْرَاهِيمُ

هو جواب، لمّا، قال الفّراء العرب تدخل الواو في جواب فلمّا، و حتّى، و إذا، و لذلك قال: **وَ نَادَيْنَاهُ** انّ **صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ** (ياإبراهيم) **إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ**، و معنى صدّقت الرّؤيا، فعلت ما أمرت به في المنام.

إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا ٱلْمُبِينُ

أي الإختيار الظّاهر و قيل هو النّعمة البيّنة الظّاهرة و سمّي النّعمة بلاءً كما سمّي النّقمة بلاءً.

وَ فَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ

يعني فدينا الولد بذبح عظيم و الفداء جعل الشّئ مكان غيره لدفع الضّرر عنه و العظيم هو الكبير إتّفقوا على أنّ الفداء كان كبشاً أتاه جبرئيل من الجنّة و هو قول أكثر المفسّرين.

وَ تَرَكْنا عَلَيْهِ فِي ٱلْآخِرِينَ، سَلامٌ عَلَىٰ إِبْراهِيمَ، كَذٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ

يعني أثبتنا أو أبقينا عليه أي على إبراهيم في الأخرين الثّناء الجميل و هو قولهم سلامٌ على إبراهيم، و قد مرَّ الكلام في مثله في قصّة نوح ثمّ قال تعالى هكذا نجزي كلّ محسنٍ.

إِنَّهُ مِنْ عِبادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ

أي أنّ إبراهيم كان كذلك كما كان نوح أيضاً كذلك و قد مضى شرحه هذا تفسير ألفاظ الأيات في قصّة إبراهيم و أنّه صار مأموراً بذبح ولده إلى قوله تعالى: **وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** و هذا ممّا لا خلاف فيه و أنّما الخلاف في الولد الّذي أمر بذبحه في المنام هل هو إسماعيل أو إسحاق و لابدّ لنا من تعيين الذَّبيح على ما يظهر في الأخبار و الأثار في الباب فنقول:

أكثر العامّة و قاطبتهم على أنّ الذّبيح كان إسحاق، و أمّا الشّيعة قد إتّفقت على أنّ الذّبيح كان إسماعيل و لم يختلف فيه أحد تبعاً لأهل البيت الذّين هم أدرى بما في البيت و نحن نذكر ما قالته العامّة أوّلاً ثمّ نتبعه بما قالته الشّيعة ثانياً فنقول:

قال القرطبي و هو من أعيان العامّة في تفسيره ما هذا لفظه، و إختلف العلماء في المأمور بذبحه فقال الاكثر الذَّبيح إسحاق و ممّن قال بذلك العبّاس بن عبد المطلب و إبنه عبد اللّه و هو الصَّحيح عنه.

روى الثّوري وابن جريح يرفعانه إلى إبن عبّاس أنّه قال الذّبيح إسحاق الصّحيح عن عبد اللّه بن مسعود أنّ رجلاً قاله له يابن الأشياخ الكرام فقال عبد اللّه ذلك يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح اللّه بن إبراهيم خليل اللّه.

و قد روى حمّاد بن زيد يرفعه إلى رسول اللّه صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أنّ الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم.

و روى أبو الزُّبير عن جابر قال الذّبيح إسحاق و ذلك مروي عن علّي بن أبي طالب و عن عبد اللّه بن عمر أنّ الذّبيح إسحاق و هو قول عمر، فهؤلاء سبعة من الصحابة و قال به من التّابعين و غيرهم علقمة و الشُّعبي و مجاهد و سعيد بن جبير و كعب الأحبار و قتادة و مسروق و عكرمة و القاسم بن أبي بزّة و عطاء و مقاتل و الزُّهري و السُّدي و مالك إبن أنس كلّهم قالوا الذّبيح إسحاق و عليه أهل الكتابين اليهود و النّصارى و إختاره غير واحدٍ منهم النّحاس و الطّبري و غيرهما إنتهى ما ذكره في المقام.

و قال في موضع أخر ما هذا لفظه، و إحتجّوا بأنّ اللّه عزّ وجلّ قد أخبر عن إبراهيم حين فارق قومه فهاجر إلى الشّام مع إمرأته سارة و إبن أخيه لوط فقال: **إِنِّى ذاهِبٌ إِلٰى رَبِّى سَيَهْدِينِ** أنّه دعا فقال: **رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّالِحِينَ** فقال تعالى: **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَ مٰا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللّٰهِ وَهَبْنٰا لَهُ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ**(۱)، و لأنّ اللّه قال: **وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ** فذكر أنّ الفداء فى الغلام الحليم الّذي بشّر به إبراهيم و أنّما بشّر بإسحاق لأنّه قال: **وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ** و قال هنا **بِغُلٰامٍ حَلِيمٍ** و ذلك قبل أن يتزوّج هاجر و قبل أن يولد له إسماعيل و ليس في القرأن أنّه بشّر بولدٍ إلاّ إسحاق إنتهى كلامه.

أقول أمّا ما نقله عن العبّاس و إبنه عبد اللّه و الثُّوري إلى أخرهم فهو على فرض صحّة النّقل لا يعتمد عليه لأنّ قصّة إبراهيم و قصّة الذّبح و بالجملة جميع ما ذكره اللّه تعالى في كتابه من أحوال الأنبياء و غير الأنبياء ليس ممّا يعلم إلاّ من طريق أهل البيت فأنّهم أدرى بما في البيت و أنّما قلنا ذلك لأنّ الثُّوري و إبن جريح و مقاتل و أمثالهم من أين علموا أنّ الذّبيح كان إسحاق و أنّما قالوا ذلك من عند أنفسهم، و أمّا ما ذكره من الإحتجاج على إثبات المدّعى فهو كما ترى أوهن من بيوت العنكبوت و ذلك لانّه لم يستدلّ في إثبات مدّعاه بشيءٍ يعتنى به و أنّما لفّق ملفّقات لا أصل لها ألا ترى أنّه يقول أنّ

۱- مريم = ۴۹

إبراهيم هاجر إلى الشّام مع إمرأته سارة و إبن أخيه لوط ولم يعلم أنّ لوطاً كان إبن خالته لا إبن أخيه كما أنّ سارة أيضاً كانت إبنة خالته و هى أخت لوط و هما إبنا هاران، و إستدلاله بأنّ اللّه قال وهبنا له إسحاق و يعقوب، لا يدلّ على أنّه هو الذّبيح بل يدلّ على أنّ اللّه وهب إسحاق و يعقوب له في زمانه.

و قوله: **وَ فَدَيْنٰاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ**، و أنّ الفداء في الغلام الحليم الّذي بشّر به إبراهيم، فهو ممّا لا خلاف فيه فأنّ البشارة كانت في الغلام الحليم بصريح الآية و أمّا أنّ الغلام الحليم هو إسحاق فلا تدلّ الآية عليه و قول المستدل أنّه بشّر باسحاق نقول بشّر به بعد ما بشّر بالغلام الحليم ألا ترى أنّه تعالى بعد قوله: **فَبَشَّرْنٰاهُ بِغُلاٰمٍ حَلِيمٍ** ذكر أوصاف الغلام و أنّه صبر على المحنة و الأذى في قصّة الذّبح و بذلك سمّي حليماً و بعد ذكر القصّة و نزول الفداء له، قال و بشّرناه بإسحاق نبيّاً من الصّالحين.

و قوله، و ذلك قبل أن يتزوّج هاجر و قبل أن يولد له إسماعيل، فهو دليل على جهل المستدلّ و أنّه لم يعلم أنّ هاجر كانت أمة لسارة وهبتها سارة لإبراهيم فولد إسماعيل منها و لم يكن لسارة ولد أصلاً و ذلك أنّ إبراهيم عليه السلام سار حتّى نزل بأرض فلسطين و خلف لوطاً في الشّامات و أقام مع زوجته سارة دهراً طويلاً لم يولد لهما ولد حتّى بلغ من العمر مائة و عشرين سنة و بلغت سارة تسعين سنة فقال عليه السلام لسارة لو بعتيني هاجر لعلّ اللّه أن يرزقنا منها ولداً يكون لنا خلفاً، فأجابته سارة إلى ذلك و باعته هاجر فحملت بإسماعيل و لمّا ولدته إغتمّت سارة من ذلك و غلب عليها ما يأخذ النّساء من الغيرة حتّى جعلت تؤذيه فشكى إبراهيم ما تفعله سارة معه إلى ربّه فأمر اللّه تعالى جبرئيل أن ينزل بالبراق و يحمل إبراهيم و هاجر و إبنها إسماعيل و يسير بهم إلى مكّة المكرّمة فأنزلهم في موضع البيت بين جبالٍ شامخة ليس فيها أنيس و لا ماء و لا زرع و البيت يومئذٍ ربوةٌ من المدر فلمّا أنزل إبراهيم عليه السلام هاجر و ولدها بين تلك الجبال الموحشة و أراد الإنصراف دون أن يترك لهاجر و إبنها إلاّ شيئاً

قليلاً من الزّاد إعترضته هاجر صارخةً باكية و قالت له إلى من تدعنا هنا فقال إبراهيم عليه السلام أدعكما إلى ربّي الّذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان و هو حاضر معكما يكفيكما ثمّ رفع رأسه إلى السّماء و قال:

رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوادٍ غَيْرِ ذي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ[١].

ثمّ انصرف عنهما كما أمره ربّه و قد ذكرنا قصّة هاجر و إسماعيل مفصّلاً فيما مضى عند قوله تعالى: **رَبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنْتُ** و لا نطيل الكلام بذكرها ثانياً.

و أمّا قصّة سارة و إسحاق.

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ جٰآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرىٰ قٰالُوا سَلاٰمًا قٰالَ سَلاٰمٌ فَما لَبِثَ أَنْ جٰآءَ بِعِجْلٍ حَنيذٍ، فَلَمّٰا رَآ أَيْدِيَهُمْ لاٰ تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خيفَةً قٰالُوا لاٰ تَخَفْ إِنّٰآ أُرْسِلْنٰآ إِلىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَ ٱمْرَأَتُهُ قٰآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنٰاهٰا بِإِسْحٰاقَ وَ مِنْ وَرٰآءِ إِسْحٰاقَ يَعْقُوبَ، قٰالَتْ يٰا وَيْلَتىٰ ءَأَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هٰذا بَعْلي شَيْخًا إِنَّ هٰذا لَشَيْءٌ عَجيبٌ،قٰالُوٓا أَتَعْجَبينَ مِنْ أَمْرِ ٱللّٰهِ رَحْمَةُ ٱللّٰهِ وَ بَرَكٰاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَميدٌ مَجيدٌ**[٢].

و أنّما ذكرنا الأيات ليعلم القارئ أنّ المستدّل كأنّه كان أجنبيّاً من القرأن ولَم يقرأ هذه الأيات و أنّ سارة حملت بإسحاق بعد تسعين سنة مضت من عمرها و قد ولد إسحاق بأرض فلسطين و لم ير مكّة المكرّمة فضلاً عن كونه ذبيحاً فيها و أظنّ أنّ إسماعيل كان أكبر من إسحاق بثلاثين سنة أو أقلّ أو أكثر و كانت ولادة إسحاق بعد بناء البيت.

و قد روي عن الأصمعي أنّه قال سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذّبيح فقال يا أصمعي أين عزب عنك عقلك و متى كان إسحاق بمكّة و أنّما كان إسماعيل بها و هو الّذي بنى البيت مع أبيه و المنحر بمكّة.

١- إبراهيم = ٣٧

٢- هُود = ٦٩ إلىٰ ٧٣

و أمّا الأخبار الواردة من أهل البيت في هذا الباب فكثيرة جدّاً و قد نقل علماء الفريقين عن رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: **أنّه قال أنا إبن الذّبيحين**، و قد فسّروا الحديث بأنّ المراد بهما إسماعيل و عبد اللّه بن عبد المطلب، ولو كان الذّبيح إسحاق، لم يصحّ هذا الحديث لأنّ رسول اللّه لم يكن من أولاد إسحاق بل كان من أولاد إسماعيل بالإتّفاق.

روى في تفسير نور الثّقلين بأسناده عن إبن فضّال عن أبيه قال سألت أبا الحسن عليّ بن موسى الرّضا عليه السلام عن معنى قول النّبي أنا إبن الذَّبيحين قال عليه السلام: يعني إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام و عبد اللّه بن عبد المطلب أمّا إسماعيل فهو الغلام الحليم الّذي بشّر اللّه تعالى به إبراهيم فلمّا بلغ معه السَّعي و هو لمّا عمل مثل عمله قال يا بنيّ أنّي أرى في المنام إنّي أذبحك فأنظر ماذا ترى قال أبت إفعل ما تؤمر ولم يقل إفعل ما رأيت ستجدني إن شاء اللّه من الصّابرين، فلمّا عزم على ذبحه فداه اللّه بذبحٍ عظيم، بكبشٍ أملح يأكل في سواد و يشرب في سواد و ينظر في سواد و يمشي في سواد و يبول و يبعر في سوادٍ و كان يرتع قبل ذلك في رياض الجنّة أربعين عاماً و ما خرج من رحم أنثى و أنّما قال اللّه تعالى له كن فيكون (فكان) ليفتدي به إسماعيل فكلّ ما يذبح في منىً فدية لإسماعيل إلى يوم القيامة فهذا أحد الذَّبيحين إلى قوله عليه السلام و العلّة التّي من أجلها دفع اللّه الذّبح عن إسماعيل هي العلّة التّي من أجلها دفع اللّه الذّبح عن عبد اللّه و هى كون النّبي و الأئمّة صلوات اللّه عليهم أجميعن في صلبهما فببركة النّبي و الأئمة عليهم السّلام دفع اللّه الذّبح عنهما فلم تجز السنّة في النّاس تقتل أولادهم ولولا ذلك لوجب على النّاس كلّ أضحى التّقرب إلى اللّه تعالى ذكره بقتل

أولادهم وكلّما يتّقرب به النّاس إلى اللّه عزّ وجلّ من أضحية فهو فداء لإسماعيل إلى يوم القيامة و الحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة(١).

و نقل فيه أيضاً عن كتاب الخصال بأسناده عن الحسن بن علّي قال عليه السلام: كان علّي بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة في الجامع إذ قام إليه رجل من أهل الشّام فسأله عن مسائل فكان فيما سأله أخبرني عن ستّة لم يركضوا في رحم فقال عليه السلام: أدم و حوّاء و كبش إسماعيل الحديث.

و عن الكافي بأسناده عن أبي الحسن الرّضا عليه السلام قال: لو خلق اللّه عزّ وجلّ مضغةً هي أطيّب من الضّان لفدى بها إسماعيل إنتهى.

وفي حديثٍ أخر لو علم اللّه عزّ وجلّ شيئاً أكرم من الضّان لفدى به إسماعيل إنتهى(٢).

و سئل عن إبن عبّاس عن الذّبيح فقال زعمت اليهود أنّه إسحاق و كذبت اليهود في ذلك، ولنعم ما قاله أبو سعيد الضرير لمّا سئل عن الذّبيح حيث قال:

أنّ الذّبيح هديت إسماعيلُ | نطق الكتاب بذاك و التّنزيل
شرفٌ به خصّ الإله نبيّنا | و أتى به التّفسير و التّأويل
إن كنت أمّته فلا تنكر له | شرفاً به قد خصّه التّفضيل

وَ بَشَّرْنٰاهُ بِإِسْحٰاقَ نَبِيًّا مِنَ ٱلصّٰالِحِينَ

لمّا ذكر اللّه تعالى قصّة إسماعيل أشار إلى قصّة إسحاق و أخبر أنّه كان نبيّاً من الصّالحين و قد أشرنا إلى أولاده إسحاق و لمّا توّفى إبراهيم الخليل في فلسطين قام بعده ولده إسحاق و إنتقلت إليه النّبوة فصار نبيّاً بعد أبيه و دعا قومه إلى اللّه و من المعلوم أنّ النّبي صالحٌ قولاً و فعلاً.

١- نور الثّقلين ج ۴ ص ۴٣٠ ٢- نور الثّقلين ص ۴٣١

وَ بٰارَكْنٰا عَلَيْهِ وَ عَلىٰ إِسْحٰاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن البركات النّازلة على إبراهيم و إسحاق، و أيّة بركةٍ أعظم من النبوّة لهما و جعلها في ذريّتهما فأنّ أنبياء بنى اسرائيل كانوا من ذريّة إسحاق بن إبراهيم ثمّ قال تعالى: **وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمٰا مُحْسِنٌ وَ ظٰالِمٌ لِنَفْسِهِ**، من، تبعيضيّة أي بعض ذريّتهما كانوا محسنين و بعضهم ظالمين و ذلك أنّه تزوّج بزوجات و صار له منهنّ أولاد و أحفاد و كان أحبّهم إليه إبنه يعقوب المعروف بلقب إسرائيل و معناه عبد اللّه و كان إبنه الأخر عيص سقيّاً يحسد أخاه يعقوب و لمّا إنتهت أيّام أبيهما إسحاق بعد ما عاش مائة و ثمانين سنة أوصى إسحاق إلى يعقوب و أودعه ودائع النّبوة ثمّ أمره بالخروج إلى الشّام حذراً من أخيه عيص فخرج يعقوب بعد وفاة أبيه إلى الشّام و نزل عند خالٍ له يقال له (ليابن قاهر) و بعد مدّةٍ من إقامته خطب إلى خاله صغرى بنتيه و إسمها راحيل أمّ يوسف الصّديق فقوله تعالى و من ذريّته محسنٌ، إشارة إلى يعقوب النّبي، و قوله: **ظٰالِمٌ** إشارة إلى عيص و هلمّ جراً في أولادهما إلى يوم القيامة.

وَ لَقَدْ مَنَنّٰا عَلىٰ مُوسىٰ وَ هٰرُونَ

موسى و هارون كانا أخوين، أبوهما عمران بن يصهر بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام و كان بين موسى و إبراهيم خمس مائة سنة و كان أخوه هارون أكبر سنّاً منه و توفّى قبل موسى و كان له شريكاً في النُّبوة بمعنى أنّه لو كان حيّاً بعد موسى لكان نبيّاً و عاش موسى مائتين و أربعين سنة و هو أوّل رسولٍ أرسل من بني إسرائيل و من تقدّمه كانوا أنبياء غير رسلٍ و آخر رسل بني إسرائيل عيسى بن مريم قيل كان في لسان موسى عقدة و ثقل و كان أخوه هارون أفصح منه لساناً و كان لهارون ولدان أحدهما، شبير، و الثّاني،

شبَّر، و أمّ موسى إسمها بوخائيد أو فاحية أو نخيب على إختلاف الرّوايات و هى بنت إشموئيل من ولد إبراهيم و لم يكن لموسى ولد و إنّما الخلافة كانت لولد هارون كما أنّ نبيّنا مُّحمد صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يكن له ولد و إنّما الخلافة كانت لولد أخيه و إبن عمّه عليّ بن أبي طالب قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم في خطبته الغديريّة:

مَعاشر النّاس أنّ اللّه تعالىٰ جَعَل ذُرِّية كلّ نَبّي في وُلدِه وجَعَل ذُرِّيتي مِن صُلب علّي بن أبي طالب.

و لذلك سمي الحسن و الحسين بإسم ولدي هارون فأنّ، شبَّر، سريانيّ و بالعربيّة، حسن، و شبير، الحسين، و كان الوحي من اللّه ينزل على موسى لكونه أفضل من أخيه و هو يخبر أخاه بما يوحى إليه.
(كما أنّ الوحي من اللّه كان ينزل على رسول اللّه و هو صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يخبر أخاه علّي بن أبي طالب) و اذا غاب موسى عن قومه كان خليفة موسى فيهم هارون و هو أخوه من أمّه و أبيه، و قوله تعالى: **وَ لَقَدْ مَنَنَّا** معناه منّنا على موسى و هارون بالنُّبوة حيث جعلناهما نبيّاً و هى من أعظم المنن.

وَ نَجَّيْنٰاهُمٰا وَ قَوْمَهُمٰا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ

أي و نجّينا موسى و هارون و قومهما يعني بني إسرائيل من الكرب العظيم، و هو تسَّلط فرعون عليهم كان يذِّبحون أبنائهم و يستحيون نسائهم و قد مرّ الكلام فيه مفصّلاً فيما مضى غير مرّةٍ.

وَ نَصَرْنٰاهُمْ فَكٰانُوا هُمُ ٱلْغٰالِبِينَ

أي و نصرنا موسى و هارون و قومهما و خلَّصناهم من ظلم فرعون و أتباعه فكانوا أي كان موسى و أتباعه غالبين على أعدائهم ظاهراً و باطناً.
أمّا ظاهراً فلأنّ اللّه تعالى أغرق فرعون و أتباعه و أمّا باطناً فلغلبة موسى على السَّحرة بالآيات و الحجج الظّاهرةالىٰ ما بينّاه في موضعه.

وَ ءَاتَيْنَاهُمَا ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسْتَبِينَ

و المراد بالكتاب التّوراة وصف الكتاب بالإستبانة لأنّ فيه من البيان بالمحاسن الّتي يظهر منه في الإستماع و الحكم المودَّعة فيها من المواعظ و بيان الأحكام ما لا يخفى.

وَ هَدَيْنَاهُمَا ٱلصِّرَاطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ

أي هدينا موسى و هارون إلى الصّراط المستقيم، قيل الصّراط المستقيم الإسلام قاله قتادة و قيل معناه إنّا أرسلنا موسى و هارون و دللّناهما على الطّريق المؤدي إلى الحَق الموصل إلى الجَّنة.

وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْآخِرِينَ

المدح العظيم و الثّناء الجميل قلنا.

سَلَامٌ عَلَى مُوسَى وَ هَرُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ، إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ، وَ إِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

و هل جزاء الإحسان إلاّ الإحسان و قد ثبت عقلاً و شرعاً أنّ الجزاء يتَّرتب على العمل الصّالح و من المعلوم أنّ الأنبياء عليهم السّلام في رأس الصّالحين قولاً و فعلاً و لا ينال إلى هذا المقام أحد إلاّ بمتابعة الأنبياء و هو ممّا لا خفاء فيه.

وَ إِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

إلياس بكسر الألف من أنبياء بني إسرائيل و موجز القول فيه أنّ بني إسرائيل بعد أن أسكنهم يوشع بن نون وصَّي موسى، أرض الشّام و أنقسموا أسباطاً، سكن كلّ سبطٍ فيهم ناحية، و صل منهم أرض بعلبك و فيه إلياس و هو أعبد عبّادهم و زهادهم فبعثه اللّه نبّياً إليهم و كان عليهم يومئذٍ ملك أمرهم بعبادة صنمٍ له يقال له بعل و كانت له زوجة فاجرة متَّعسفة يدير أمورها كاتبٌ

حكيم صالح كان قد إستنقذ منها ثلاث مائة مؤمنٍ أرادت قتلهم و لمّا بعث إلياس إلى الملك و قومه و وعظهم و نصحهم و بلَّغ أحكام اللّه تعالى و دعاهم إلى طاعته كذّبوه و طردوه و أهانوه وهددُّوه بالقتل و لكّنه صبر على أذاهم و أستَّمر في دعوته إلاّ أنّهم كانوا لا يزدادون إلاّ طغياناً و كفراً إلى أن أوحى اللّه تعالى إليه أن يخبر الملك و زوجته الزّانية أنّه تعالى الى على نفسه هلاكهما إن لم يتوبا إلى اللّه تعالى و لمّا أخبرهم إلياس بذلك إشتَّد غضبهم عليه و همُّوا بقتله و تعذيبه فخرج إلى جبلٍ بعيدٍ عنهم فصعد و أختفى فيه وحيداً سبع سنين يأكل من نبات الأرض و حشيشهما و ثمار الأشجار و أخفى اللّه تعالى مكانه عن القوم و لم يمكّنهم من إرتقاء ذلك الجبل و أجدبت أرضهم و كان لملك ولد مرض عرضاً أعجز الأطّباء شفاءه فأضطّروا إلى الخروج وراء إلياس فعاهدوه بالتّباعة و الإيمان بدينه و ربَّه فنزل معهم و دعا لولد الملك فشفى و سقى اللّه تعالى أرضهم و أخرجت خيراتها ببركة نبّي اللّه إلياس عليه السلام و كان إلياس و من كان قبله و بعده إلى أن بعث عيسى إبن مريم، من الأنبياء الّذين كانوا يدعون النّاس إلى شريعة موسى ولم يكن لهم كتاب إلاّ التّوراة و لم يكن أحد منهم صاحب كتابٍ و شريعة فقوله تعالى: **وَ إِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ** معناه أنّ اللّه تعالى أرسله إلى النّاس كغيره من الأنبياء و ليس معناه أنّه كان مثل موسى و عيسى صاحب كتاب و شريعة ناسخة شريعة من قبله.

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ

من اللّه تعالى بترك المعاصى.

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ

أي أتعبدون بعلاً، و هو صنمٌ كانوا يعبدونه كما مرَّ، قيل البعل في لغة أهل اليمن هو الرَّب يقولون من بعل هذا الثّوب أي من ربّه و قوله: **وَ تَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ** أي تتركون عبادته و طاعته أحسن الخالقين و بعبارةٍ أخرى

هو أحسن من يقال له خالق، بل في الحقيقة لا خالق إلاّ هو فهو الّذي يستحّق أن يعبد لا غيره كما قال:

اَللّٰهَ رَبَّكُمْ وَ رَبَّ اٰبآئِكُمُ اَلْأَوَّلِينَ

اللّه، علم على الأصّح للذّات الواحب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و هو ربّ السّموات و الأرضين و ما بينهما و ربّ العرش العظيم.

قال اللّه تعالى: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ اَلْعٰالَمِينَ** و المعنىٰ هو الّذي خلقكم و دبّركم و ربّاكم فكيف تدعون غيره.

فَكَذَّبُوهُ فَاِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

حكى اللّه تعالى عنهم أنّهم كذّبوا نبيّهم ولم يصدّقوه في دعوته إيّاهم إلى طاعة ربّهم فأهلكهم اللّه و أنّهم لمحضرون عذاب النّار ثمّ إستثنى منهم عباده الّذين أخلصوا في عبادتهم و طاعتهم للّه فقال:

إِلاّٰ عِبٰادَ اَللّٰهِ اَلْمُخْلَصِينَ

فأنّهم في كنف حماية اللّه و عنايته في الدّنيا و الأخرة.

وَ تَرَكْنٰا عَلَيْهِ فِى اَلْاٰخِرِينَ

الثّناء الجميل في أخر الأمم بأن قال:

سَلاٰمٌ عَلىٰ إِلْ يٰاسِينَ

أي سلامٌ على أل محمّد، و ياسين من أسماءه قالوا أنّ أل محمّد كلّ من أل إليه بحسب أو قرابةٍ و قال قوم أل محمّد كلّ من كان على دينه، و لا خلاف بين النّحويين أنّ أصل أل أهل فغلبوا الهاء همزة و جعلوها مدّة لئلا يجتمع ساكنان ألا ترى أنّك إذا صغّرت أل قلت، أهيل يجوز أويل لأنّه ردٌّ إلى الأصل لا إلى اللّفظ فعلى هذا أل الرّسول أهل بيته الطّاهرين لا كلّ من كان على دينه.

و إعلم أنّ قوله تعالى: **سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ**، قد كثر الكلام فيه و صار **(إِلْ يَاسِينَ)** معركة الأراء بين المفسّرين.

قال الزّمخشري في الكشّاف قرئَ على إل ياسين بكسر الألف و ادريسين على أنّها لغات في إلياس و إدريس و لعلَّ لزيادة الياء و النُّون في السِّريانية مَعنىٰ و قرئَ على لياسين، بالوصل على أنّه جمع يراد به إلياس و قومه و ساق الكلام الى أن قال و أمّا من قرأ على آل ياسين فعلى أنّ ياسين إسم أبي إلياس، يقال إلياس بن ياسين، أضيف اليه الآل إنتهى كلامه.

و قال أبو الفتوح الرّازي في تفسيره ما تعريبه قرأ إبن عامر و نافع و يعقوب آل ياسين، بالمدّ و قرأالباقون الياسين بكسر الألف، فمن قرأ آل ياسين قال معناه على آل محمّد و ياسين إسمٌ من أسماءه، و من قرأ إلياسين بكسر الألف قال هو لغة في إلياس كقولهم، إسمعيل، و إسماعين، و ميكائيل و ميكائين و ميكال.

أقول الحقّ ما ذكرناه و أنّ آل ياسين، آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و، ياسين، من أسماءه.

فعن كتاب معاني الأخبار بأسناده الىٰ قادح عن الصّادق جعفر بن محمّد عليه السلام عن أبيه عن آباءه عن علّي عليهم السّلام في قول اللّه عزّ وجلّ: سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ قال عليه السلام: يس محمّد ونحن آل يس إنتهى.

و عن عيون الأخبار في باب ذكر مجلس الرّضا مع المأمون في الفرق بين العترة و الأمّة حديث طويل و في أثناءه قال المأمون فهل عندك في الآل شئ أوضح من هذا في القرآن قال أبو الحسن الرّضا عليه السلام: نعم أخبروني عن قول اللّه تعالى: يٰسٓ، وَ ٱلْقُرْآنِ ٱلْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ[1]، فمَن عَنِيَ بقوله يٰس قالوا محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لم يشكّ فيه أحَد قال الرّضا عليه السلام فأنّ اللّه عزّ وجلّ أعطى محمّداً و آل محمّد من ذلك فضلاً لا يبلغ أحد كنه وصفه إلاّ

۱- يس = ۱ الى ۴

من عقله و ذلك أنّ اللّه عزّ وجلّ لم يسلّم على أحدٍ إلاّ على الأنبياء صلوات اللّه عليهم فقال تعالىٰ: سَلَامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَالَمِينَ و قال: سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وقال: سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ و لم يقل سلام على آل نوح ولم يقل سلام على آل إبراهيم ولم يقل سلام على آل موسى و هارون، وقال: سَلَامٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ يعني آل محمّد فقال المأمون قد علمت أنّ في معدن النبوّة شرح هذا و بيانه إنتهىٰ[1].

وَ إِنَّ لُوطًا لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

لُوط بضمّ اللاّم هو إبن هارون أخو سارة زوجة إبراهيم عليه السلام و هما أي لوط و سارة إبنا خالته كما أنّهما أوّل من آمن به و قد كان لوط رجلاً سخيّاً كريماً يقري الضُّيوف إذا نزلوا به يحذّرهم قومه لأنّهم كانوا بخلاء يكرهون نزول الضَّيف بهم و كانوا في قريةٍ على طريق السّيارة من الشّام الى مصر و كان إبراهيم عليه السلام قد أقام لوطاً عندهم يدعوهم الى اللّه تعالى و يعظّمهم و يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر و يحذّرهم عذاب اللّه و لكنّ القوم لم يقبلوا قوله و أنكروا عليه أشدّ الإنكار و كانوا لا يتطهرون من الغائط و الجنابة و كانت مجالسهم في أندية تشتمل على أنواع المناكير كالشّتم و القمار و ضرب المعازف و كشف العورات كما قال تعالى حكايةً عنهم: **وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلْمُنْكَرَ**[2].

إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ، إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَابِرِينَ

أي نجيّناه و أهله إلاّ إمرأته من قومه قبل نزول العذاب عليهم و قد مرَّت قصّة قوم لوط في سورة العنكبوت مفصّلاً و نشير اليها في المقام إجمالاً، لبث لوط في قومه ثلاثين سنة يدعوا قومه الى اللّه و يحذّرهم عذابه و نقمته و

١- نور الثّقلين ج ٤ ص ٤٣١ ٢- العنكبوت = ٢٩

كانت بلادهم عامرة كثيرة الشَّجر و النّبات و الخير و كانت طريق القوافل الى اليمن و الشّام عليها و كان فيها أربع مدن هي سدوم، و صدام، و ونداء، و عميراء، أو عمورة و كان أعظمها سدوم الّتي يسكنها لوط و كانت تلك البلدان قريبة من مسكن إبراهيم في الأردن و كانوا إذا مرَّت بهم القوافل أخذوا الأموال و أنكحوا الرّجال في أدبارهم و أسلبوا ثيابهم فشاع أمرهم في القرى و حذّرهم القوافل و كانت زوجة لوط كافرة باللّه و بزوجها مثل زوجة نوح النّبي عليه السلام و هى الّتي كانت تخبر القوم بنزول الأضياف حتّى يهجموا على الضَّيف و ينكحوه و لمّا تمادى القوم في الكفر و الطُّغيان و طالت المدّة بهم ضاق لوط بهم ذرعاً و غمّاً فعند ذلك دعا عليهم بالهلاك و نزول العذاب و أجابه اللّه تعالى الى ذلك فنزل جبرئيل بأمر اللّه مع ثلاثة آخرين و أهلكهم اللّه تعالى: **وَ مَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ**[1] و المراد بالعجوز في الآية هو إمرأة لوط و قوله: **فِي ٱلْغَٰبِرِينَ**، أي في الباقين الّذين أهلكوا فالغابر الباقي قليلاً بعد ما مضىٰ **ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْأٓخَرِينَ** التّدمير الإهلاك على وجه التّنكيل، يقال دمَّر عليهم إذا غيّر حالهم الى حالِ التَّشويه.

وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ، وَ بِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

في هاتين الأيتين توبيخٌ من اللّه للكُفّار بل لمطلق العاصين، و المعنى أنّكم لتمَّرون عليهم، أي على بلادهم صباحاً و مساءً و لا تعتبرون بها أفلا تعقلون، ففي هذا الكلام تعنيفٌ لهؤلاء الكفّار على ترك إعتبارهم و إيقاظهم بمواضع هؤلاء الّذين أهلكهم اللّه بسبب عصيانهم و طغيانهم و حيث أنّهم رأوا آثارهم و لم يعتبروا بها ذمَّهم اللّه.

بقوله: **أَفَلَا تَعْقِلُونَ** فأنّ الهمزة و أن كانت للإنكار إلاّ أنّ التّوبيخ و التّقريع فيها أظهر، قال أميرالمؤمنين عليه السلام: **ما أكثر العبر و أقلّ الإعتبار و الأيات بهذا**

١- هود = ٨٣

المضمون في القرآن كثيرة مضافاً الى أنّ العقل السّليم أيضاً يحكم به بل لا نفع للعقل إلاّ هذا.

وَ إِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ

كان، متّى أبو يونس رجلاً زاهداً كثير الإيمان يعيش من الإحتطاب ويبيعها للنّاس و يروىٰ أنّ داود النّبي سأل ربّه أن يعرّفه قينه في الجنّة و نظيره في منزلته فيها فأوحى اللّه تعالى اليه أنّ ذلك، متّى أبو يونس و كان متّى يقطن بيتاً من سعف النّخل و يتعيّش من ثمن الحطب ببيعها ثمّ يشتري بثمنها شعيراً يطحنه و يخبزه بيده و يتناوله مع الحمد و الشّكر و كانت إقامته بنينوا من ديار العراق و لمّا كبر ولده يونس و صار له من العمر ثلاثون سنة أوحى اللّه تعالى اليه و بعثه نبّياً الى قومه يدعوهم الى عبادة اللّه الواحد الأحد فدعاهم يونس الى اللّه و إستمرّ على ذلك الوعظ و الإرشاد ثلاثاً و ثلاثين سنة و لم يجبه الى ذلك من قومه إلاّ إثنان منهم كان أحدهما صاحب غنم يتعيّش منها و يدعى، روبيل، و هو من أهل بيت علمٍ و حكمة و كان قديم الصُّبحة ليونس قبل بعثه، و كان الآخر يدعى تنوخا و لمْ يكن كزميله على شيءٍ من الحكمة و العلم بل كان حطّاباً مستضعفاً عابداً زاهداً لا همَّ له إلاّ العبادة، فلمّا طالت مدّة دعوته و طال إذا هم ليونس ضاقت نفسه و ضجر من تطاول القوم فشكاهم الى ربّه و سأله الإنتقام منهم بإنزال العذاب عليهم فأمره اللّه بالصّبر و الرِّفق بهم فقال يونس يا ربّ أنمّا غضبت عليهم فيك و دعوت عليهم حين عصوك و إنكارهم بنبوّتي فأجابه اللّه الى طلبه و وعده بإنزال العذاب نهار الأربعاء يوم النِّصف من شوال بعد طلوع الشّمس و أمره أن يعلمهم بذلك فسَّر يونس بهذا الأمر و سارع الى تنوخا و بشَّره بالخبر ففرح بذلك ثمّ إنطلق يونس و تنوخا الى روبيل ليخبراه بالأمر فإنزعج روبيل من نبأ العذاب و ساءه الخبر و قال ليونس يا نبّي اللّه إرجع الى ربّك وسله أن يصرف العذاب عن قومنا فأنّه رؤفٌ رحيمٌ.

و لكم يونس أصرَّ على العذاب و إنصرف الى القوم ليخبرهم بأمر العذاب كما أمره اللّه تعالى فلمّا أخبر القوم بذلك و أعلمهم بكيفيّة العذاب و أنّ وجوههم تصبح مصفّرة في يوم العذاب ثمّ تسوّد إستنكروا قوله و كذّبوه و أخرجوه من القرية فتنَّحى عنهم مع تنوخا في مكانٍ غير بعيد ينتظران موعد العذاب أمّا روبيل فسكت في مكانه الى أن دخل شهر شوّال الّذي وعد اللّه يونس بنزول العذاب فصعد روبيل الى مرتفع و جعل ينادي قومه أنّي بكم شفيقٌ.

يا قوم أنّ نبّي اللّه يونس أخبركم بما أوحى اللّه اليه من نزول العذاب في شوّال و قد دخل و نبّي اللّه لا يكذب و اللّه لا يخلف وعده و رسله فتوبوا الى ربّكم و أرجعوا الى رشدكم فجعل اللّه لكلامه هيبّةً في نفوسهم فأخذتهم الرّهبة و أخذت أقوال روبيل بمجامع قلوبهم حتّى غلب عليهم خوف شديد فأقبلوا الى روبيل يتوسّلون به و يقولون له أنّك يا روبيل رجلٌ عالمٌ حكيمٌ فمرنا بأمرك و أشر علينا إن كان هناك مجال للتّوبة.

فقال روبيل أنّ اللّه غفورٌ و أنّني أرى أن تخرجوا من البلدة قبل طلوع الفجر الى قبّة الجبل المشرف على قريتنا على أن تفرقوا بين الأمّهات و الرُّضع من الأطفال فتتركوا الأطفال الى أسفل الوادي و تصعد الأمّهات معكم الى أعلى الجبل و كذا تفرقوا بين البهائم و أولادها و أن تبكوا جميعاً ندماء و توبوا بين يدي اللّه عسى أن يرحمكم اللّه و يدفع عنكم العذاب.

فأجابوه الى إقتراحه و أظهروا النَّدم الصّادق و خاصّة بعد أن بدت بوادر العذاب تظهر قبل الوقت المحدّد بيومين فلمّا كان يوم الأربعاء خرجوا جميعاً من البلدة و عددهم أكثر من مائة ألف و فعلوا ما أعلمهم روبيل من تفرّق الأطفال و الأمّهات و تابوا الى اللّه جميعاً و عند ذلك قبل اللّه توبتهم و أقالهم عثرتهم و دفع عنهم العذاب.

و الى ذلك أشار اللّه تعالى في كتابه:

قال اللّه تعالى: **فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَها إيمانُها إلّا قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الْخِزْيِ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ مَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ**[١].

و قد ذكرنا القصّة هناك بوجهٍ أبسط و غرضنا في المقام الإشارة فقط.

إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ، فَساهَمَ فَكانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ

قال المبرّد أصل، أبق، تباعد و منه غلام غلام آبق، و قال غيره أنّما قيل ليونس آبق لأنّه خرج بغير أمر اللّه مستراً من النّاس، و **الفُلك** بضمّ الفاء و سكون اللاّم السّفينة، يذّكر و يؤّنث، و يكون واحداً و جمعاً.

و قوله: **فَساهَمَ**، أي قارع، من المدحضين، أي من المغلوبين.

و المعنى أنّ نبّي اللّه يونس فرّ من قومه و هرب الى السّفينة المملُوءة من النّاس فساهم أي قارع بيتهم فكان من المغلوبين و لذلك ألقي في البحر و إلتقمه الحوت، لمّا رفع اللّه تعالى عن قوم يونس العذاب على ما مرَّ بيانه أتى يونس و صديقه تنوخا الى القرية في اليوم التّالي، أي في يوم الخميس، و نظر الى القرية بحالها و أنّ أهلها لم يمسَّهم سوء فدهش يونس و سأل بعض لقيه عن حال البلدة و أهلها فأخبره بما فعل أهل القرية من التّوبة و هو لا يعرف يونس فإمتنع يونس أن يدخل القرية و قال لصاحبه أدخل وحدك، أمّا تنوخا فعاد الى القرية و توّجه الى روبيل قائلاً له آمنت الآن أنّ العلم نعمةٌ كبرى لا يغني عنه الإيمان وحده و أمّا نبّي اللّه يونس فأنّه مضى وحده متألّماً متأسّفاً على ما وقع و قطع البراري طول سبعة أيّام حتّى إنتهى الى ساحل البحر فإذا بسفينةٍ مشحونة أي مملوءةً مشرفةً على الإقلاع للسّفر فسألهم أن يحملوه معهم فأجابوه و أدخلوه فيها فلمّا توسّطوا البحر برز لهم حوتٌ عظيم يسمّى

١- يُونس = ٩٨

(نون) فأعترض السّفينة و حبسها عن المسير فأضطرب القوم و خافوا و كان أكثرهم خوفاً يونس ففهم القوم حسب عادتهم أنّ السّفينة فيها مذنب و كان من عادتهم أنّهم يقذفون المذنب إذا كان ذلك في البحر فأقرعوا فيما بينهم فخرجت القرعة بإسم الضّيف يونس فصعب عليهم ذلك فأعادوها ثانية و ثالثة فلم تخرج إلاّ بإسمه فعند ذلك وطّن، يونس نفسه على أن يرتمي الى البحر و تقدّم و ألقى بنفسه فإذا بالحوت قد إلتقمه و غاص في الماء و جرت السّفينة و هذا معنى قوله تعالى: **فَسٰاهَمَ فَكٰانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ.**

فَالْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَ هُوَ مُلِيمٌ

أي إلتقم الحوت نبّي اللّه يونس و هو مليم، أي أتى بما يلائم عليه، و ذلك أنّ الحوت كان مأموراً من قبل اللّه بحفظ يونس في بطنه و لم يكن طعمة له.

فَلَوْلاٰ أَنَّهُ كٰانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ، لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ

أي فلولا أنّ يونس كان من المسبّحين للّه تعالى للبث، و مكث في بطن الحوت الى يوم البعث، و فيه إشارة الى أنّ تسبيحه و تقديسه ربّه في بطن الحوت هو الّذي أخرجه منها سالماً و هو إشارة الى قوله تعالى:

وَ ذَا ٱلنُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغٰاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنٰادىٰ فِي ٱلظُّلُمٰاتِ أَنْ لآ إِلٰهَ إِلاّٰ أَنْتَ سُبْحٰانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ ٱلظّٰالِمِينَ، فَاسْتَجَبْنٰا لَهُ وَ نَجَّيْنٰاهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَ كَذٰلِكَ نُنْجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ[١].

فَنَبَذْنٰاهُ بِالْعَرٰاءِ وَ هُوَ سَقِيمٌ

العراء الفضاء الّذي لا يواريه شجر غيره و النّبذ الطّرح أي طرحناه بالفضاء الخالي من الشّجر و هو سقيم، الواو للحال أي و الحال أنّه كان مريضاً حين إلقاء الحوت إيّاه على الأرض.

١- الأنبياء = ٨٨ / ٨٧

وَ أَنْبَتْنا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ

تحفظه من حرارة الشّمس و اليقطين كلّ شجرةٍ ليس لها ساق يبقى من الشّتاء إلى الصّيف و قال إبن عبّاس و قتادة هو القرع.

و قال مجاهد و سعيد بن جبير هو كلّ شجرٍ لا يقوم على ساق كالبَّطيخ و الدّباء و القرع فهو يقطين و هو تفعيل من قطن بالمكان إذا أقام إقامةً و قيل أنّ اليقطين كلّ شجرةٍ لها ورقٌ عريض.

وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ

بعد إفاقته عن سقمه الّذي عرض عليه في بطن الحوت فلمّا أفاق أمره اللّه تعالى بالرّجوع إلى قومه فرجع يونس و جعل يمشي نحو القرية سبعة أيّام حتّى إنتهى إليها فكان مجموع غيبته عنهم أربعة أسابيع، أسبوعٌ في ذهابه و أسبوع في بطن الحوت، و إسبوع على ساحل البحر تحت الشّجرة و أسبوع في رجوعه إلى نينوا لإرشاد قومه، و يحتمل أن يكون المراد بقوله تعالى: **وَ أَرْسَلْناهُ إِلى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ** إرساله إلى القوم في بدو الأمر و إنكارهم عليه وكيف كان فالأمر سهل.

فَآمَنُوا فَمَتَّعْناهُمْ إِلى حِينٍ

و هذه الآية قرينة بل دليل على أنّ المراد بالإرسال هو بعد رجوعه إلى قومه لا قبله بدليل قوله، فأمنوا، إذ لم يؤمنوا به قبل ذلك كما مرَّ و لذلك دعا عليهم و هو ظاهر.

روي أنّه لمّا رجع إلى قومه بأمرٍ من اللّه و قرب القرية إستحيى من دخولها و مواجهة أهلها فلقى راعياً و قال له أدخل القرية وقل لأهلها أنّ يونس قد جاء فغضب الرّاعي و قال له أما تستحي أن تكذب أنّ يونس قد غرق في البحر فلم يزل يونس يؤكّد قوله أنّه هو النّبي الغريق و الرّاعي لا يصدّق إلى أن إستشهد

على صدقه ببعض الأغنام التّي للرّاعي و شهدت له الشّاة بذلك بأذن اللّه تعالى بلسان طلقٍ زلق فدهش الرّاعي من ذلك ثمّ أقبل يعدو راكضاً نحو البلد و جعل ينادي في النّاس برجوع نبيّهم يونس حيّاً سالماً فإجتمعوا عليه و كذّبوه و زجروه فأخبرهم بشهادة الشّاة ثمّ إستشهد مرّةً ثانية بمحضر القوم فأعادت الشّاة شهادتها فبهت القوم من كلامها ثمّ تهافتوا راكضين إلى خارج البلد حتّى إنتهوا إليه فخضعوا له و جدَّدوا إيمانهم على يديه و حسن إيمانهم باللّه تعالى و أتوا به إلى القرية مكرّماً معزّزاً و متَّعهم اللّه بذلك دهراً طويلاً إلى حين إنتهاء آجالهم أمنين و إلى هذا أشار بقوله: **فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ**.

فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَ لَهُمُ ٱلْبَنُونَ، أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَآئِكَةَ إِنَاثًا وَ هُمْ شَاهِدُونَ

قيل أنّ قريشاً كانت تقول الملائكة بنات اللّه فأمر اللّه نبيّه و قال له فإستفتهم، أي أطلب الحكم منهم في هذه القضِّية فأنّ الإستفتاء طلب الحكم، ألربّك البنات ولهم البنون، الإستفهام للتّقريع و التّوبيخ أي كيف يقولون ذلك و من أين علموا أنّ الملائكة كانوا أناثاً، و على فرض كون الملائكة أناثاً كيف جعلوا الأناث للّه و الذّكور لأنفسهم، فما قالوه من كون الملائكة أناثاً و هم بنات اللّه.

هو كذبٌ و إفتراء نشأ من جهلهم و حماقتهم و أنّهم لم يعرفوا اللّه قاسوه على خلقه و لم يعلموا أنّه لم يلد و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد و إلى هذا العنى أشار اللّه تعالى بقوله:

أَلَآ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ ٱللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ

الإفك بكسر الألف كلّ مصروفٍ عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه و منه قيل للرّياح العادلة عن المّهاب مؤتفكة، و قيل الإفك الإعراض عن الحقّ في

الإعتقاد إلى الباطل و من الصِّدق في المقال إلى الكذب و من الجميل في العمل إلى القبيح، فقوله تعالى: **أَلَآ إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ، وَلَدَ ٱللَّهُ** معناه أنّهم أعرضوا عن الحقّ و أخذوا بالباطل في إعتقادهم هذا إذا عرفت معنى الإفك و الكذب فنقول:

الدّليل على كذبهم في قولهم، ولد اللّه، هو أنّ التّوالد و التّناسل من شئون الجسم و أمّا الموجود و المجّرد عن المادّة كيف يلد اذ لو كان له ولد فهو أيضاً مولود لغيره و كلّ مولود لغيره فهو حادث و كلّ حادث ممكن الوجود و كلّ ممكنٍ مخلوق، و المفروض أنّه خالق لما سواه و واجب الوجود.

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ

هذا من قطع همزة الإستفهام أي ءإصطفى البنات، و الإستفهام للإنكار أي كيف يكون هذا و كيف يختار البنات على البنين و في الآية إشارة إلى نقطةٍ خفيّة و هى أنّ البنين أفضل من البنات بزعمكم و اذا كان كذلك فكيف يعقل إختيار الأدون من الخالق القادر على كلّ شيئ على الأفضل ففي قولهم هذا كذبان:

أحدهما: قولهم بأنّ له تعالى ولد.

الثّاني: أنّه إصطفى الأدون على الأفضل و إلى هذا المعنى أشار بقوله:

مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ، أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

كلمة، ما، إستفهاميّة للتّوبيخ أي أيُّ شيئٍ لكم كيف تحكمون بأنّ اللّه له ولد و إصطفى البنات على البنين أفلا تذّكرون أي أفلا تعقلون، فأنّ العاقل لا يقول بلسانه ما حكم العقل بكذبه.

أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ

السُّلطان الحجّة و البرهان و المعنى، أم لكم حجّة ظاهرة و برهان قوّي على ما تدّعونه و تحكمون به، فأن كذلك فأتوا به وإذ ليس فليس و المقصود من هذا الكلام أنّ العاقل لا بقول بما ليس فيه سلطان و حجّة على صحّة قوله فمن قال بشيءٍ لا دليل عليه هو جاهلٌ أو مجنون و إليه الإشارة بقوله تعالى:

فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

في دعواكم أي بكتابكم الّذي أنزل إليكم.

و من المعلوم أنّكم لا تقدرون على ذلك أبداً ثمّ أنّهم أي الكفّار زادوا في الطُّنبور نغمةً أخرى كما حكى اللّه تعالى عنهم بقوله:

وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا وَ لَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ

الجِنّة بكسر الجيم جماعة الجنّ قال اللّه تعالى: **مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاس** و أصل الجنّ ستر الشّيْ عن الحاسّة يقال جنّه اللّيل و أجنَّه و جنَّ عليه فجنَّه ستره، ثمّ أنّ الجنّ يقال على وجهين:

أحدهما: للرُّوحانيين المستترة عن الحواسّ كلّها بأزاء الإنس، فعلى هذا تدخل الملائكة فيه و الشّياطين فكلّ ملائكة جنّ و ليس كلّ جنّ ملائكة و على هذا قيل الملائكة كلّها جنّ، و قيل بل الجنّ بعض الرُّوحانيين و ذلك أنّ الرُّوحانيين ثلاثة، أخيارٌ و هم الملائكة، و أشرار و هم الشّياطين، و أوساط فيهم أخيار و أشرار و هم الجنّ إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قوله تعالى: **وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا**، أي بينه و بين جماعةٍ من الجنّ لا كلّهم يتمكن أن يراد بالجماعة الشّياطين و يمكن أن يراد بها الملائكة.

قال الحسن معناه أشركوا الشّيطان في عبادة اللّه و هو النَّسب الّذي جعلوه.

و قال قوم أنّه تعالى تزّوج من الجنّ تعالى اللّه عنه و قيل هؤلاء الكفّار جعلوا الملائكة بنات اللّه و بذلك جعلوا بينه تعالى و بين الملائكة نسباً.

و قال القرطبي أكثر أهل التّفسير على أنّ الجنّة هاهنا الملائكة و ذلك أنّ كفّار قريش قالوا الملائكة بنات اللّه قيل لهم فمن أمّهاتهن قالوا مخدّرات الجنّ أهل الإشتقاق قيل لهم جنّة لأنّهم لا يرون.

و قال مجاهد أنّهم بطنٌ من بطون الملائكة يقال لهم الجنّة.

أقول الأقوال حول الكلمة كثيرة جدّاً و الذّي ينبغي أن يعتمد عليه هو أنّ المراد بالجنّة في الآية طائفة من الجنّ المقابل للإنس لا مطلق ما يستتر عن الحوّاس فالملائكة غير مرادة فقول من قال أشركوا الشّيطان في عبادة اللّه فهو النّسب الّذي جعلوه، لا نفهم معناه إذ لا يطلق النّسب على الشّرك في العبادة لا لغةً و لا عرفاً و هكذا الكلام فيمن قال المراد بالجنّة الملائكة لإستتارهم من العيون.

و معنى الآية أنّهم جعلوا الملائكة بنات اللّه و ذلك لأنّ هذا التّعبير مذكورٌ في كثير من الأيات بلفظ الملائكة فلو كان المراد بالجنّة الملائكة لقال، جعلوا بينه و بين الملائكة نسباً، فلمّا لم يقولوا هذا علمنا أنّ الملائكة غير مرادة، و الّذي يقوي في النّفس في معنى المراد هو أنّ المراد تزّوجه من الجنّ، تعالى اللّه عنه و أنّما قلنا ذلك لوجهين:

أحدهما: أنّ النّسب لا يتّحقق بدون التّزوج.

الثّاني: أنّ الكفّار أثبتوا بزعمهم التّزوج من الإنس في قولهم: **وَلَدَ ٱللَّـهُ** و قولهم: **أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ** فجعلوا بينه و بين الإنس نسباً بذلك، ثمّ قالوا بالتّزوج من الجنّ و جعلوا بينه و بين الجنّ نسباً و أنّما قالوا ذلك لأنّهم علموا أنّ الملك لتّجرده عن المادّة و الجسميّة لا توالد فيه و أمّا الجنّ فليس كذلك إذ التّوالد و التّناسل ثابت في الجنّ كما في الإنس هذا ما فهمناه من ألفاظ الآية و اللّه أعلم بما أراد من كلامه.

و أمّا قوله: **وَ لَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ** فقيل أنّ الضّمير في

أنّهم، يرجع على قائل هذا القول و عليه فالمعنى لقد علمت الجنّة أنّهم، أي من قال ذلك لمحضرون في النّار، و قيل مرجع الضّمير هو الجنّة، أي و لقد علمت الجنّة أنّهم يحضرون الحساب كغيرهم فكيف يكون بينه و بينهم نسباً و هذا في الحقيقة ردٌّ على الكفّار القائلين بالنَّسب و ذلك لأنّ النَّسب لو كان ثابتاً بين الجنّة و بينه تعالى لما كان لإحضارهم للحساب معنى، و حيث أنّهم أي الجنّ علموا بالحضور للحساب يوم القيامة كغيرهم من أبناء الإنس و لا فرق بين الخلق من هذه الجهة فالإنتساب لا معنى له ثمّ أشار اللّه تعالى إلى قبح هذا القول و قال:

سُبْحَانَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ

اي أنّه تعالى منّزهٌ عن هذه الأوصاف القبيحة الرَّديئة التّي لا تليق بشأنه.

إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ

إستثنى عن هذه الأراجيف عباده الّذين أخلصوا في عبادتهم و وصفوه بما يليق بشأنه و نزّهوه عن القبائح و النّقائص الإمكانيّة و يقولون ليس كمثله شئ و هو السّميع البصير فاطر السَّموات و الأرض و ما بينهما و اليه المصير.

فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ، مَآ أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ

الفاتِن الدّاعي الى الضلالة بالتّزيين فكلّ من دعا الى عبادة غير اللّه بالإغواء و التّزيين فهو، فاتن، لأنّه يخرجه الى الهلاك.

و معنى الآية **فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ**، من الأصنام و الأوثان ما أنتم عليه بفاتنين أي بمفتنين و مضلّين، قيل معناه ما أنتم بمضلّين أحداً إلاّ من قدّر اللّه عزّ وجلّ عليه أن يضّل.

و قال الزّمخشري معناه، ما أنتم بباعثين أو حاملين على طريق الفتنة و الإضلال إلاّ من هو ضّالٌ مثلكم إنتهى كلامه.

ما، في و ما تعبدون، موصولة بمعنى، الّذي، أو مصدريّة أي فأنّكم و عبادتكم لهذه الأصنام، و قال بعضهم أي فأنّكم مع ما تعبدون، من دون اللّه.

إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ

هذا إستثناء من قوله بفاتنين، أي لستم بمضلّين إلاّ من هو صال الجحيم أي بينهم النّار و يحترق بها، و إن شئت قلت **إِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ** من الأصنام لا تقدرون على إضلال عبادي المخلصين إلاّ من إتّبعكم من الغاوين الفاسقين كما أنّ الشّياطين لا يصلون الى إضلال أحدٍ من المؤمنين المخلصين.

وَ مَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ

هذا من قول الملائكة تعظيماً للّه تعالى و إنكاراً منهم عبادة من عبدهم الكفّار و التّقدير ما منّا ملكٌ إلاّ له مقامٌ معلومٌ، و قيل التّقدير أحدٌ، و المآل واحد فأنّ المراد بالأحد الملك و كيف كان فالموصوف محذوف.

وَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ، وَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ

من أوصاف الملائكة أيضاً كما قال اللّه تعالىٰ: **وَ جَآءَ رَبُّكَ وَ ٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا**(١) قال بعض المفسّرين هذه الأيات نزلت و رسول اللّه عند سدرة المنتهى فتأخّر جبرئيل فقال له النّبي أهنا تفارقني فقال ما أستطيع أن أتّقدم عن مكاني و أنزل اللّه حكايةً عن قول الملائكة **وَ مَا مِنَّآ إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ**.

وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ، لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ ٱلْأَوَّلِينَ، لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ، فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ

حكى اللّه تعالى عن الكفّار في هذه الأيات.

و قال: **وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ** إن هذه المخفّفة من الثقيلة بدليل دخول اللاّم

١- الفجر = ٢٢

في خبرها ليفرق بين، إن، الثّقيلة و الخفيفة الّتي هي للجحد و المعنى أنّ هؤلاء الكفّار كانوا يقولون لو أنّ عندنا، ذكراً، أي كتاباً فيه ذكر من الأوّلين أي من كتبهم أو من و ما حالاتهم و ما فعل اللّه بهم، لكنّا، نحن أيضاً من عباد اللّه المخلصين، فكفروا به أي بالذّكر و هو القرآن بعد طلبهم الذّكر.

بعبارةٍ أخرى أنّهم قالوا لو جاءنا ذكرٌ كما جاء الأوّلين كالتّوراة و الإنجيل مثلاً لأخلصنا العبادة للّه فلمّا جاءهم الذّكر أنكروه و كفروا به فسوف يعلمون مغبّة كفرهم و المقصود أنّهم كانوا كاذبين في دعواهم مستهزئين بالقرآن كما هو شأن الكافر المعاند و إلاّ فأيُّ ذكرٍ أحسن من القرآن و فيه قصص الأوّلين و الأخرين.

وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنْصُورُونَ، وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ

اللاّم في قوله: **وَ لَقَدْ**، لام القسم، و المراد بالكلمة الّتي سبقت المشيّئة و الإرادة أخبر اللّه تعالى في هذه الأيات بالنّصر و الغلبة على الأعداء لبعاه المرسلين إلى خلقه و قد أشار اللّه تعالى بذلك في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالى: **وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا**(١).

قال اللّه تعالى: **وَ لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللّٰهُ بِبَدْرٍ وَ أَنْتُمْ أَذِلَّةٌ**(٢).

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللّٰهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ**(٣).

قال اللّه تعالى: **وَ نَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ ٱلْغَالِبِينَ**(٤).

قال اللّه تعالى: **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ ٱلَّذِينَ آمَنُوا فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا**(٥).

قال اللّه تعالى: **وَ إِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَ ٱللّٰهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**(٦).

١- الأنبياء = ٧٧
٢- أل عمران = ١٢٣
٣- التّوبة = ٢٥
٤- الصّافات = ١١٦
٥- غافر = ٥١
٦- الحشر = ١١

و الأيات كثيرة و السِّر في ذلك أنّ الأنبياء كانوا على الحقّ و اللّه تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلق، و ما سواه باطل كائناً ما كان و الحقّ لا ينصر إلاّ الحقّ كما أنّ الباطل لا ينصر إلاّ الباطل و حيث أنّ الأنبياء بعثوا من قبل اللّه تعالى لإرشاد الخلق و هدايتهم إلى الصّراط المستقيم أعني به الدّين القويم فحقٌّ على اللّه أن ينصرهم و ينصر من تبعهم من المؤمنين و إلى هذا المعنى أشار بقوله: **جُنْدَنَا لَهُمُ ٱلْغَالِبُونَ** أي الأنبياء و من معهم و تابعهم من المؤمنين و ذلك أنّ الجند بضّم الجيم لا يطلق على الفرد و يحتمل أن يكون المراد بالجند جميع الأنبياء فأنّهم جند اللّه بلا شكّ و في هذه الأيات وأمثالها إشارة إلى دولة الحقّ ودوامه وبقاءه وبطلان الباطل.

قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم للحقّ دولة و للباطل جولة.

و من المعلوم أنّ الحقّ المطلق و هو اللّه تعالى لا فناء له فكذلك ما كان مؤيّداً و منصوراً من عنده و هو ظاهر.

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ

التّولي الإعراض أمر اللّه نبيّه بالإعراض عن المشركين و المراد بالإعراض ترك دعوتهم و عدم الإعتناء بهم و ذلك لأنّهم طينتهم و سوء سريرتهم و كثرة معاصيهم و عنادهم لا يقبلون الحقّ فذرهم في خوضهم يلعبون، فأنّ الحجّة قد تمّت عليهم و ما على الرّسول إلاّ البلاغ.

و قوله: **حَتَّىٰ حِينٍ**، قيل معناه حتّى أمرك بقتالهم يعني يوم بدر، و قيل المراد حين الموت و قال قوم، يوم القيامة، و الجامع بين الأقوال هو إنقضاء مدّة الإمهال.

وَ أَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

قيل الإبصار الإنظار أي نظرهم فسوف يبصرون نزول العذاب عليهم، و قال بعضهم، في قوله: **فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**، معناه حين لا ينفعهم الإبصار، و قيل فسوف يبصرون يوم القيامة.

أقول معنى الكلام لا خفاء فيه و الظّاهر أنّ المراد بقوله: **يُبْصِرُونَ**، أي يبصرون العذاب في الدّنيا أو في الأخرة و الدّليل على ما ذكرناه هو قوله بعد ذلك:

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ

أي أنّهم ينتظرون العذاب و يستعجلون به.

فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ

أي إذا نزل العذاب بفنائهم و هلاكهم فساء صباح المنذرين أي بئس الصّباح صباحهم أي صباح الّذين أنذروا بالعذاب ففي الكلام إضمارٌ، أي فساء الصّباح صباحهم، قيل و خصّ الصّباح لأنّ العذاب كان يأتيهم فيه هكذا قيل، و الحقّ أنّ المراد بالصّباح هو المستقبل و بالعذاب معناه العامّ الشّامل لعذاب الدّنيا و عذاب الأخرة و المقصود من الآية و أمثالها أنّ ما وعد اللّه حقّ لا مرية فيه، و السّاعة في الأصل ناحية الدّار و هو فنائها و هو الفناء الواسع.

وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ

أي أعرض عنهم حتّى حان حين العذاب.

وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ

العذاب

إن قلت ما وجه التّكرير في الآية.

قلت ذكروا في وجه التّكرير وجهين:

أحدهما: التّأكيد بوقوع الميعاد و أنّه واقع بهم قطعاً.

ثانيهما: أريد بأحدهما عذاب الدُّنيا و بالأخر عذاب الأخرة.

أقول ما ذكروه لا دليل عليه إذ لم يدلّ دليل على أنّ المراد بأحدهما عذاب

الدّنيا و بالأخر عذاب الأخرة و أنّما قالوه من عند أنفسهم كيف و الآية ساكتة عن هذا التّخصيص و أنّما دلَّت على العذاب بقولٍ مطلق سواء كان في الدّنيا أم في الأخرة، و قولهم بالتّأكيد أيضاً لا معنى له إذ ما وعد اللّه حقّ غير محتاج إلى التّأكيد.

و الّذي ظهر لي في المقام هو الفرق بين الأيتين و ذلك لأنّ المفعول في الآية الأولى مذكورٌ و هو هم، و في الثّانية محذوف فقال في الأولى: **وَ أَبْصِرْهُمْ** و في الثّانية: **وَ أَبْصِرْ** فأين التّكرار فيها، و توضيح ذلك إجمالاً:

هو أنّ اللّه تعالى أمر نبيّه بإبصار الكفّار فقال له و أبصرهم أي أبصر الكفّار و أرشدهم بذلك، و في الآية الثّانية لم يأمره بإبصار الكفّار بل قال: **وَ أَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ**.

قال بعض المعاصرين في تفسيره لهذه الآية بعد نقله ما نقلناه عن المفسّرين في وجه التّكرير من القول بالتّأكيد أو تفريق العذاب ما هذا لفظه يخلو من وجهٍ فأنّ الواقع في الأية، و أبصر من غير مفعولٍ كما في الآية السّابقة من قوله: **وَ أَبْصِرْهُمْ**، و الحذف يشعر بالعموم و أنّ المراد بإبصار ما عليه عامّة النّاس من الكفر و الفسوق و يناسبه التّهديد بعذاب يوم القيامة إنتهى كلامه.

و لقائلٍ أن يقول ما الدّليل على أنّ حذف المفعول يشعر بالعموم بل دلالته على الخصوص أولى من دلالته على العموم و هو ممّا يظهر بالتّأمل و مجرد الإدّعاء لا يكفي لإثبات المدّعى و كيف كان فالمعنى واضح.

سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ، وَسَلَامٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ، وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ

أي أنّ ربّك منزّهٌ عمّا يصفونه ممّا لا يليق به من الصّفات، و سلامٌ من الّله تعالى على المرسلين الّذين أرسلهم الّله إلى عباده لينقذوهم عن الضّلالة و

الغواية و يرشدهم إلى طريق الحقّ، و الحمد، أي جنس الحمد أو كلّ الحمد للّه الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و المنّزه عن جميع العيوب و النّقائص الإمكانيّة الّذي خلق الخلق و هو على كلّ شيءٍ قدير ليس كمثله شيء و هو السّميع البصير.

■

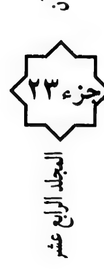

سُورَةُ صٓ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَ ٱلْقُرْاٰنِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَ عَجِبُوٓا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ ٱلْكَافِرُونَ هٰذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْاٰلِهَةَ إِلٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَ ٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَ ٱصْبِرُوا عَلٰىٓ اٰلِهَتِكُمْ إِنَّ هٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْاٰخِرَةِ إِنْ هٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَاقٌ ﴿٧﴾ ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ مِنْ ذِكْرِى بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ مُلْكُ ٱلسَّمٰوَاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾ جُنْدٌ مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ الايْكَةِ أُولٰٓئِكَ

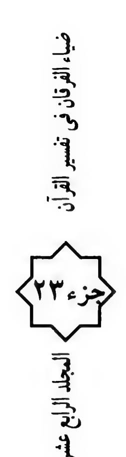

ٱلْأَحْزٰابُ ﴿۱۳﴾ إِنْ كُلٌّ إِلاّٰ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقٰابِ ﴿۱۴﴾ وَ مٰا يَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ ﴿۱۵﴾ وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسٰابِ ﴿۱۶﴾ اِصْبِرْ عَلىٰ مٰا يَقُولُونَ وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنٰا دٰاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ ﴿۱۷﴾ إِنّٰا سَخَّرْنَا ٱلْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ ٱلْإِشْرٰاقِ ﴿۱۸﴾ وَ ٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ ﴿۱۹﴾ وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ وَ آتَيْنٰاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ ٱلْخِطٰابِ ﴿۲۰﴾ وَ هَلْ أَتٰيكَ نَبَؤُا ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا ٱلْمِحْرٰابَ ﴿۲۱﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلىٰ دٰاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قٰالُوا لاٰ تَخَفْ خَصْمٰانِ بَغىٰ بَعْضُنٰا عَلىٰ بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنٰا بِالْحَقِّ وَ لاٰ تُشْطِطْ وَ ٱهْدِنٰا إِلىٰ سَوٰاءِ ٱلصِّرٰاطِ ﴿۲۲﴾ إِنَّ هٰذٰا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِيَ نَعْجَةٌ وٰاحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِي فِي ٱلْخِطٰابِ ﴿۲۳﴾ قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطٰاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلاَّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِيلٌ مٰا هُمْ وَ ظَنَّ دٰاوُودُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ رٰاكِعًا وَ أَنٰابَ ﴿۲۴﴾ فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ وَ حُسْنَ مَآبٍ ﴿۲۵﴾ يٰا دٰاوُودُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ

ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿۲۶﴾

◀ اللّغة

فِي عِزَّةٍ: العِزّة بكسر العين عند العرب الغلبة و القهر.

شِقَاقٍ: بكسر الشّين من الشّق كأنّ هذا في شقٍّ و ذلك في شقٍّ أي في إظهار خلافٍ و مباينة.

قَرْنٍ: بفتح القاف و سكون الرّاء و النُّون القوم.

مَنَاصٍ: بفتح الميم الفرار.

ٱخْتِلَاقٌ: مصدر يقال إختلق إختلاقاً و هو الكذب.

الأيْكَةِ: بفتح الكاف الأحزاب يعني أحزاب إبليس.

فَوَاقٍ: بفتح الفاء الإفاقة و قيل هو الفتور.

قِطَّنَا: القطّ بكسر القاف و سكون الطّاء المشدّدة الحظّ و النَّصيب.

ذَا ٱلْأَيْدِ: الأيد بفتح الألف و سكون الياء و الدّال القوّة.

أَوَّابٌ: من أب يؤب أي رجع.

نَبَؤُا ٱلْخَصْمِ: النَّبأ الخبر.

تَسَوَّرُوا: أي صعدوا.

بَغَى: البغي الظُّلم.

فَفَزِعَ: الفزع الخوف.

تُشْطِطْ: يقال أشط في حكمه إذا جار.

نَعْجَةً: بفتح النُّون و سكون العين و فتح الجيم الأنثى من الضّأن و البقر و الوحش و الشّاة و جمعها نعاج.

عَزَّنِى: أي غلبنى.
فَتَنَّاهُ: الفتنة الإبتلاء و الإختبار.
خَرَّ: بفتح الخاء و فتح الرّاء المشّددة أي سقط.
أَنَابَ: بفتح الألف من الإنابة و هى الرّجوع.
لَزُلْفَى: بضّم الزّاء معناه القربة بعد المغفرة.
حُسْنَ مَـَٔابٍ: المأب المرجع من أب يؤب إذا رجع.

◀ الإعراب

وَ ٱلْقُرْءَانِ الواو للقسم و قيل هو معطوف على القسم و هو، صاد، و الجواب محذوف، أي لقد جاءكم الحقّ، و قيل الجواب معنى بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أي و حقّ القرأن لقد خالف الكفّار و تكّبروا عن الإيمان و قيل الجواب كَمْ أَهْلَكْنَا و قيل غير ذلك وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ الأصل لا، زيدت عليها التّاء كما زيدت على، ربّ، و ثّم، جُنْدٌ مبتدأ هُنَالِكَ نعتٌ له و مَهْزُومٌ الخبر مِنَ ٱلْأَحْزَابِ نعتٌ لجندٌ و قيل نعتٌ لمهزومٌ أُولَٰئِكَ ٱلْأَحْزَابُ يجوز أن يكون مستأنفاً و أن يكون خبراً، و المبتدأ من قوله، و عاد، و أن يكون من ثمود و ٱلْخَصْمِ هو مصدر في الأصل وصف به إِذْ تَسَوَّرُوا إذ، ظرف لنبأ إِذْ دَخَلُوا هو أيضاً ظرف أو بدل من، إذ، الأولى رَاكِعًا حال مقدّرة ذلك مفعول غفرنا و قيل هو خبر مبتدأ أي الأمر ذلك.

◀ التّفسير

صٓ

إختلف المفسّرون في معنى، ص، كما إختلفوا في غيرها من حروف المقّطعة في أوائل السُّور فقيل أنّها من أسماء اللّه و قيل أنّها أسماء للسُّور و

غير ذلك من الأقوال و الحقّ أنّها رموز في أوائل السُّور لا يعلم معناها إلاّ اللّه تعالى.

وَ ٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ

الواو للقسم أي أقسم بالقرأن الموصوف بالذّكر، قيل أي بالشَّرف أي أنّه ذي الشَّرف، و قيل أي ذي التَّذكر و قيل ذي الذّكر للبيان و البرهان المؤدّي إلى الحقّ نقل هذه الأقوال في التّبيان.

و جواب القسم محذوف أي لجأ الحقّ و ظهر.

أقول وصف اللّه القرأن بكونه ذي الذِّكر و هو حقّ و ذلك أنّ الذّكر على ضربين، قلبّيّ و لساني، فالقلبّي منه هيئة للنّفس بها يمكن للإنسان أن يحفظ ما يقتنيه من المعرفة و هو بهذا المعنى كالحفظ إلاّ أنّ الحفظ يقال بإعتبار إحرازه و الذّكر يقال إعتباراً بإستحضاره وتراةً يقال لحضور الشّئ في القلب أو القول إذا عرفت هذا فنقول:

القرأن ذكرٌ بكلا المعنيين فكونه ذكراً باللّسان تلاوته، و كونه ذكراً بالقلب لأنّ تلاوته و التَّدبر في أياته توجب المعرفة و تَنُور القلب بها فقوله تعالى: وَ ٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ قد ظهر معناه و أيُّ ذكرٍ أحسن منه.

بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ

قالوا في معناه أنّ هؤلاء الكفّار قد مكّنهم اللّه و أعطاهم القوّة ليقووا بها على الطّاعات فيقووا بسوء إختيارهم على المعاصي، و قيل معناه أنّ الكفّار في تكّبر و إمتناعٍ من قبول الحقّ و أنّهم في شقاقٍ أي في إظهار خلافٍ و مباينةٍ و كيف كان نزلت الآية في ذمّهم و أنّهم لم يشكروا اللّه على نعمه التّي أعطاهم بل كفروا به تعالى و إختاروا الشّقاق و الإفساد و مجانبة الحقّ.

كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوْا وَ لَاتَ حِينَ مَنَاصٍ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه أهلك أمماً كثيرة فلمّا نزل بهم العذاب إستغاثوا باللّه ولات حين مناصٍ و فراً من العذاب إذ بعد نزول العذاب لا يمكن الفرار منه فائدة في الإستغاثة و التّوبة و الندامة و غير ذلك و في الآية إشارة إلى لزوم التّوجه قبل نزول العذاب أو قبل الموت و هو ممّا يحكم به العقل أيضاًيحتاج إلى إقامة دليلٍ أو نقل من الكتاب و السنّة لوضوح الأمر حتّى عند العوام، و ذلك لأنّه من المحسوسات.

وَ عَجِبُوٓا أَنْ جَآءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ

أي و عجب الكفّار أن جاءهم منذرٌ، أي نبيٌّ من قبل اللّه، منهم، أي من جنس البشر و قال الكافرون هذا الّذي يدّعي النّبوة ليس بنبّي بل هو ساحرٌ في فعله، كذّابٌ في قوله يظهر من الآية أنّ الوجه في إنكارهم النّبوة هو أنّ النّبي لا يكون من جنس البشر فأنّ حكم الأمثال واحد بل ينبغي أن يكون من جنس الملك مثلاً، ولم يعلموا أنّ النّبي و أن كان ظاهراً في صورة البشر إلاّ أنّه واقعاً في سيرة الملك لعصمته و طهارته من الذّنوب و المعاصي و لذلك يوحى إليه من اللّه تعالى و لا يوحى إلى غيره من أفراد البشر.

أَجَعَلَ ٱلْأٓلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ

كأنّهم جعلوا قولهم هذا دليلاً على إثبات مدّعاهم و تقريب إستدلالهم أنّه لو كان نبيّاً مرسلاً من عند اللّه لما قال ذلك و حيث قال فهو ليس بنّبي لأنّه أتى بشئٍ عجيب لم يقل أحدٌ مثله و لذلك قالوا لأبي طالب أنّ إبن أخيك سفّه أحلامنا و شتم الألهة إلى أخر ما قالوا، و لم يعلموا أنّ هذا ليس من العجائب بل العجيب عند العقل هو الشّرك بالخالق الواحد الأحد الّذي لم يدل و لم يولد و لم يكن له كفواً أحد و أعجب منه قولهم بألوهيّة الصّنم و الوثن فأنّ الموجود العاقل كيف يعبد الجماد الّذي لا حياة له فضلاً عن العقل و الفهم بل

كيف يعبد موجوداً أخر من صنف المخلوقات ولو كان من الملائكة أليس حكم الأمثال في الضَّعف و الفقر واحد، أليس الإله هو الّذي يتّأله إليه و يستعان به في الشّدائد.

و من المعلوم أنّ الجماد جماد فما فعله النّبي من جعل الألهة إلهاً واحداً مطابق للعقل السّليم و لا عجب فيه بخلاف ما فعلوه من عبادة الجماد الّذي لا شعور له و هذا شيءٌ عجاب إلاّ أنّ مرض الجهل لا دواء له.

وَ ٱنْطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا وَ ٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ

الإنطلاق الذّهاب بسرعةٍ و الملاء الجماع، و قيل الملاء الأشراف و الأعيان من القوم و أن شئت قلت رؤوساء القوم.

و معنى الآية أنّهم لمّا سمعوا من النّبي ما سمعوا من التّوحيد و ترك عبادة الأصنام إنطلق أي ذهب الأشارف و الرُّؤوساء من عند النّبي و قالوا لقومهم، أن أمشوا أي أمضوا على ما كنتم عليه من عبادة الأصنام و لا تدخلوا في دينه تسمعوا قوله: **وَ ٱصْبِرُوا عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ**، أي دوموا على عبادة الأصنام و الأوثان و أنّما عبّروا عنه بالصَّبر لأنّ الصَّبر هو تحَّمل المشقّة على شيءٍ مكروه و ترك الإلهة كان عندهم من المشّاق و المكروهات النّفسانية.

قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية فيه إشارة إلى مشيهم إلى أبي طالب في مرضه كما سبق، ثمّ ذكر أنّهم جاءوا إلى أبي طالب فقالوا أنت سيّدنا و أنصفنا في أنفسنا فأكفنا أمر إبن أخيك و سفهاء معه فقد تركوا ألهتنا و طعنوا في ديننا فأرسل أبو طالب إلى النّبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال أنّ قومك يدعوك إلى السّواء و النّصفة فقال النّبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّما أدعوهم إلى كلمةٍ واحدة تقولون لا إله إلاّ اللّه فقاموا و قالوا، أجعل الألهة إلهاً واحداً الأيات إنتهى.

و قوله تعالى: **إِنَّ هٰذاٰ لَشَىْءٌ يُراٰدُ** قيل معناه يراد بأهل الأرض من زوال ما هم عليه من الشِّرك، و قيل هذه كلمة تحذير أي يريد محمّد الإنقياد له ليغلوا علينا و نكون له أتباعاً فيحكم فينا بما يريد.

مٰا سَمِعْنٰا بِهٰذاٰ فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْاٰخِرَةِ إِنْ هٰذٰآ إِلَّا ٱخْتِلاٰقٌ

قيل المراد بالملّة الأخرة النّصارى و ذلك لزعمهم أنّ عيسى بن مريم أخر الأنبياء و قومه و أتباعه أخر الملل إلى يوم القيامة، و على هذا فمعنى الآية ما سمعنا من النّصارى ما نسمع من محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم من التّوحيد و خلع الأنداد و حصر الألهة في إلهٍ واحدٍ بل النّصارى يجعلون مع اللّه إلهاً، و قيل معنى الآية ما سمعنا من أهل الكتاب أنّ محمّداً رسول اللّه، إن هذا إلاّ إختلاق، أي ليس هذا إلاّ إدّعاء من محمّدٍ إلاّ إختلاق، أي كذبٌ و تخّرضٌ.

و قال في الكشّاف معناه، ما سمعنا بهذا كائناً في الملّة الأخرة على أن يجعل في الملّة الأخرة حالاً من هذا و لا تعلّقه بما سمعنا، و المعنى أنّا لم نسمع من أهل الكتاب و لا من الكهان أنّه يحدث في الملّة الأخرة توحيد اللّه.

ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنٰا بَلْ هُمْ فى شَكٍّ مِنْ ذِكْرى بَلْ لَمّٰا يَذُوقُوا عَذاٰبِ

أي قالوا هؤلاء الكفّار على سبيل التّعجب ءأنزل عليه، أي على محمّدٍ الذِّكر و هو القرأن من بيننا و ليس هو من أفضل القوم و أشرفهم و ينبغي أن يكون النّبي أفضل القوم و أشرفهم فأنكروا إختصاصه صلّى الله عليه وآله وسلّم بالشّرف من بين رؤسائهم و إشرافهم و أن ينزل عليه الكتاب من بينهم كما حكى اللّه تعالى عنهم.

بقوله: **لَوْلا نُزِّلَ هٰذَا ٱلْقُرْاٰنُ عَلٰى رَجُلٍ مِنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظيمٍ**[١] و لَم يَعلمُوا أنّ الشّرف و الفضيلة في الإنسان ليس بالمال و الجاه و العظمة عند الخلق بل

١- الزّخرف = ٣١

الشَّرف و السّيادة في الإنسان بإتّصافه بالكمالات النَّفسانية كالعلم و الحلم و الشجاعة و السّخاوة و الأصالة من حيث النَّسب و رسول اللّه صلّى الله عليه و آله و سلّم كان كذلك فلم يكن في القوم مثله فضلاً عن الأفضل منه.

قال أميرالمؤمنين عليه السلام في الخطبة ۹۳ الّتي خطب بها في أوصاف الأنبياء عليهم السّلام ما هذا لفظه:

فَاسْتَوْدَعَهُمْ فِى اَفْضَلِ مُسْتَوْدَعٍ، وَ أَقَرَّهُمْ فِى خَيْرِ مُسْتَقَرٍّ، تَنَاسَخَتْهُمْ كَرَائِمُ الأَصْلاَبِ اِلىٰ مُطَهَّرَاتِ الأَرْحَامِ، كُلَّمَا مَضَىٰ مِنْهُمْ سَلَفٌ قَامَ مِنْهُمْ بِدِينِ اللهِ خَلَفٌ. حَتَّىٰ أَفْضَتْ كَرَامَةُ اللهِ سُبْحَانَهُ اِلىٰ مُحَمَّدٍ صلّى الله عليه و آله و سلّم فَأَخْرَجَهُ مِنْ أَفْضَلِ الْمَعَادِنِ مَنْبِتاً، وَأَعَزِّ الأَرُومَاتِ مَغْرِساً، مِنَ الشَّجَرَةِ الَّتِى صَدَعَ مِنْهَا أَنْبِيَاءَهُ، وَانْتَجَبَ مِنْهَا أُمَنَاءَهُ، عِتْرَتُهُ خَيْرُ الْعِتَرِ، وَأُسْرَتُهُ خَيْرُ الأُسَرِ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ الشَّجَرِ، نَبَتَتْ فِى حَرَمٍ، وَبَسَقَتْ فِى كَرَمٍ، لَهَا فُرُوعٌ طِوَالٌ، وَثَمَرٌ لايُنَالُ، فَهُوَ اِمَامُ مَنِ اتَّقَىٰ، وَبَصِيرَةُ مَنِ اهْتَدَىٰ، سِرَاجٌ لَمَعَ ضَوْؤُهُ، وَشِهَابٌ سَطَعَ نُورُهُ، وَزَنْدٌ بَرَقَ لَمْعُهُ، سِيرَتُهُ الْقَصْدُ، وَسُنَّتُهُ الرُّشْدُ، وَكَلاَمُهُ الْفَصْلُ، وَحُكْمُهُ العَدْلُ، أَرْسَلَهُ عَلىٰ حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَهَفْوَةٍ عَنِ العَمَلِ، وَغَبَاوَةٍ مِنَ الأُمَمِ. إلىٰ آخر ما قال.

و قال عليه السلام في خطبة ۹۵ في وصف الرّسول:

مُسْتَقَرُّهُ خَيْرُ مُسْتَقَرٍّ، وَمَنْبِتُهُ أَشْرَفُ مَنْبِتٍ، فِى مَعَادِنِ الْكَرَامَةِ، وَمَمَاهِدِ السَّلاَمَةِ، قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْئِدَةُ الأَبْرَارِ، وَثُنِيَتْ اِلَيْهِ أَزِمَّةُ الأَبْصَارِ، دَفَنَ بِهِ الضَّغَائِنَ، وَأَطْفَاءَ بِهِ الثَّوَائِرِ، أَلَّفَ بِهِ اِخْوَاناً، وَفَرَّقَ بِهِ أَقْرَاناً، أَعَزَّ بِهِ الذِّلَّة، وَأَذَلَّ بِهِ الْعِزَّةَ، كَلاَمُهُ بَيَانٌ، وَصَمْتُهُ لِسَانٌ.

أقول هذا بعض ما ذكره أميرالمؤمنين عليه السلام و هو أقرب النّاس إلى رسول اللّه و أعرفهم بأحواله و صفاته ولسانا فعلاً بصدد البحث حول شخصّيته و عظمته و إن تعرف معنى هذه الكلمات فعليك بشرحنا على نهج البلاغة فأنّك تجده بحراً لا ساحل له و مع ذلك نقول:

ما إن مدحت محّمداً بمقالتى   لكن مدحت مقالتي بمحّمدٍ

إذا عرفت هذا فقد علمت أنّ قول الكفّار **ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنٰا** دليل على جهلهم و أنّهم كانوا يعرفون الرّجال بالمال و كثرة أفراد القبائل و متابعة العوام كالأنعام عنهم في دنياهم، لا بالفصائل و الكمالات و هذا داءٌ لا دواء له في كلّ عصرٍ و زمانٍ، ثمّ قال تعالى: **بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمّٰا يَذُوقُوا عَذٰابِ** بل للإستدراك و المعنى أنّ الباعث على هذا القول منهم هو شكّهم في الذِّكر الّذي أنزل عليه و هو القرآن ثمّ إستدرك ثانياً و قال: **بَلْ لَمّٰا يَذُوقُوا عَذٰابِ**، أي بل قالوا ذلك لأنّهم لم يذقوا عذابي ولو ذاقوا عذابي على الشِّرك لزال عنهم الشكّ و لّما قالوا ذلك.

و بعبارةٍ أخرى أنّهم إغتَّروا بطول الإمهال و على هذا، فلّما، بمعنى، لم، و كلمة، ما، زائدة هكذا قيل، و الحَّق أنّ الزّيادة لا معنى لها و، لمّا، بحالها و المعنى أنّهم لم يذوقوا العذاب الى الحال و سيذوقوه في المستقبل إن كانوا على الكفر و ماتوا عليه فهو من قبيل.

قال اللّه تعالىٰ: **قٰالَتِ ٱلْأَعْرٰابُ اٰمَنّٰا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَ لٰكِنْ قُولُوٓا أَسْلَمْنٰا وَ لَمّٰا يَدْخُلِ ٱلْاِيمٰانُ فِي قُلُوبِكُمْ**[1].

أي و لّما يدخل الإيمان في قلوبكم إلى حين التكّلم و أمّا في المستقبل فيمكن أن يدخل الإيمان في قلوبهم و أمّا أن لا يدخل و الآية ساكتة عنه و هذا هو الفرق بين، ما، النّافية، و لّما، مع أنّهما تفيدان النّفي في باديء الأمر، إلاّ أنّ لمّا، يتّرقب حدوث الفعل في المستقبل بخلاف، لم، و حيث أنّ الكافر يتّرقب منه الإيمان فيقال، لمّا، و ما نحن فيه من هذا القبيل فالقول بأنّ اللاّم زائدة لا معنى له إذ لو كانت زائدة لقال ما يذوقون العذاب، و حيث قال، لمّا، يستفاد من اللاّم ما ذكرناه من ترّقب الفعل.

۱- الحُجَرات = ۱۴

أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَآئِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ٱلْعَزِيزِ ٱلْوَهَّابِ

قال الفرّاء الإستفهام إذا توّسط الكلام إبتدأ بألف، و، أم، و اذا لم يبق كلام لم يكن إلاّ، بألف، أو، هل و ما نحن فيه من قبيل الأوّل و لذلك إبتدأ، بأم، ثمّ أنّ الوجه في إتّصال هذا القول بما تقدَّم هو إتّصال الإنكار و معنى الآية أم عندهم أي عند الكفّار خزائن رحمة ربّك، أي مقدوراته الّتي يقدر بها على أن ينعم عليهم، ثمّ وصف الرَّب بالعِّزة الّتي هي القدرة المطلقة على كلّ شيءٍ بحيث لا يغالب و لا يقهر، و الوّهاب مبالغة في الهبة أي أنّه تعالى يهب لمن يشاء بما يشاء و لا يقدر أحد على منعه و لا نهاية لإعطائه و إنعامه و ذلك لأنّ أزّقة الأمور بيده و ما سواه محتاج إليه مستعينٌ به.

أَمْ لَهُمْ مُلْكُ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبٰابِ

الأسباب جمع سبب و هو كلّ ما يتوصّل به إلى المطلوب المعلوم أنّ اللّه تعالى هو مسَّبب الأسباب و أن شئت قلت هو خالق الأسباب و موجدها لا غيره، و الإرتقاء الصّعود، قيل معنى الآية أن كانت لهم ملك السّموات و الأرض و ما بينهما فليصعدوا إلى السّموات و ليمنعوا الملائكة من إنزال الوحي على محّمد، و قيل المراد بالأسباب أبواب السّماء الّتي تنزل الملائكة منها، و قيل الأسباب، السّموات نفسها أي فليصعدوا سماء، سماء.

و قال السّدي في الأسباب أي في الفضل و الدّين.

و قال أبو عبيدة أي فليعلموا في أسباب القوّة إن ظنُّوا أنّها مانعة، معنى الكلام، أن وجدوا حبلاً أو سبباً يصعدون فيه إلى السّماء فليرتقوا و الأقوال المحتملة حول الآية كثيرة و فهم معنى الآية لا يحتاج إلى هذه التّكلفات الّتي لا تناسبها، و ذلك لأنّ اللّه تعالى أشار في الآية إلى نقطةٍ خفيّةٍ و هي أنّ السّموات و الأرض و ما بينهما للّه تعالى لا لغيره فيفعل في ملكه ما يشاء و

يحكم ما يريد كما هو شأن المالك في ملكه و لو كانت السّموات و الأرض و ما بينهما لهؤلاء الكفّار فليرتقوا أي فليصعدوا في الأسباب أي أسباب المنع عمّا شاء اللّه و أراد و حيث أنّهم لا يقدرون على منعه فهم مقهورون تحت قدرته و على هذا فقوله: **فَلْيَرْتَقُوا فِى ٱلْأَسْبٰابِ**، أمر توبيخ و تعجيز.

جُنْدٌ مٰا هُنٰالِكَ مَهْزُومٌ مِنَ ٱلْأَحْزٰابِ

ما، صلة و تقدير الكلام هم جندٌ، فقوله: **جُنْدٌ**، خبر مبتدأٍ محذوف، و المهزوم، المقموع الذّليل و منه، هزمت الجيش أي كسرته، و **الأحزاب** جمع حزب بكسر الحاء و هى الطّائفة و الجماعة.

و قوله: **هُنٰالِكَ**، قيل هو إشارة إلى، بدر و هو موضع تحزّبهم لقتال محمّد صلّى الله عليه و آله و سلّم و قيل المراد بالأحزاب الذّين أتوا المدينة و تحزّبوا علىٰ النّبي صلّى الله عليه و آله و سلّم و قيل المراد به حزب إبليس و أتباعه و الأحزاب الجند.

معنى الآية هم أي الكفّار أعني بهم أبو جهل و أتباعه، جندٌ ما هنالك أي في غزوة بدر مهزومون مغلوبون فالآية في الحقيقة تسليةٌ للنّبي أي لا تغمّك يا محمّد عزّتهم و شقاقهم فأنّي أهزم جمعهم و أسلب عزّهم و قد فعل بهم هذا في يوم بدر و أن شئت قلت تقدير الأية، هم جندٌ أمّا من الأحزاب هنالك أي في يوم بدر مهزومٌ مغلوب.

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ فِرْعَوْنُ ذُو ٱلْأَوْتٰادِ، وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحٰابُ الايْكَةِ أُولٰئِكَ ٱلْأَحْزٰابُ

جزء ٢٣

أخبر اللّه تعالى في هذه الأيات أنّ التّكذيب لا ينحصر بقومك بل الأنبياء قبلك أيضاً كذّبوهم أقوامهم ألا ترى أنّ قوم نوح كذّبته و هكذا قوم عاد و قوم ثمود و قوم لوط و أصحاب الأيكة كلّهم كذّبوا رسلهم و قد حكى اللّـه تعالى تكذيبهم الأنبياء في الكتاب و قد تقدّم الكلام في الجميع عند قوله تعالى:

وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عٰادٌ وَ ثَمُودُ[1].

قال اللّه تعالى: **كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ اَلْمُرْسَلِينَ**[2].

قال اللّه تعالى: **كَذَّبَتْ عٰادٌ اَلْمُرْسَلِينَ**[3].

قال اللّه تعالى: **كَذَّبَتْ ثَمُودُ اَلْمُرْسَلِينَ**[4].

قال اللّه تعالى: **كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ اَلْمُرْسَلِينَ**[5].

و هكذا غيرهم من الأنبياء بل نقول لم يرسل اللّه رسولاً إلاّ كذّبته قومه فليس هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام و السّر في الجميع حبّ الدُّنيا و متابعة الهوى و أنّ الأديان كانت على خلاف أميالهم و أهوائهم و هو واضح لا خفاء فيه و لا يحتاج إلى البرهان فأنّ الحقّ مرٌّ و أمَّر منه العمل به و إلى عموم التّكذيب من النّاس أشار اللّه تعالى بقوله:

إِنْ كُلٌّ إِلاّٰ كَذَّبَ اَلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقٰابِ، وَ مٰا يَنْظُرُ هٰؤُلاٰءِ إِلاّٰ صَيْحَةً وٰاحِدَةً مٰا لَهٰا مِنْ فَوٰاقٍ

كلمة، إن، نافية بمعنى ليس أي ليس كلّهم إلاّ كذّبوا أنبياء اللّه و جحدوا نبوّتهم، فحقّ عقاب، أي فإستّحقوا عقابي بذلك أو أنّ العقاب حقٌّ لهم لأنّه أي العذاب ثمرة الكفر و العصيان، و ما ينظر هؤلاء الكفّار أي لا نظرون إلاّ صيحةً واحدة فيها هلاكهم، مالها من فواق، أي من فتور كما يفيق المريض و المقصود أنّ دواءهم الموت و بعده العذاب فأنّ مرض الكفر و العناد لا دواء له إلاّ الموت ذلك بما كسبت أيديهم و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد.

وَ قٰالُوا رَبَّنٰا عَجِّلْ لَنٰا قِطَّنٰا قَبْلَ يَوْمِ اَلْحِسٰابِ

۱- الحجّ = ۴۲
۲- الشّعراء = ۱۰۵
۳- الشّعراء = ۱۲۳
۴- الشّعراء = ۱۴۱
۵- الشّعراء = ۱۶۰

حكى اللّه عن الكفّار أنّهم قالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا أي حظّنا و نصيبنا من العذاب قبل يوم الحساب و هو يوم القيامة، أي أنزل علينا العذاب في الدّنيا و أنّما قالوا ذلك على وجه الإستهزاء.

و قال السُّدي أنّما سألوا أن يريهم حظّهم من النّعيم في الجنّة حتّى يؤمنوا، و قيل أنّما سألوا أن يعجّل كتبهم أي كتب أعمالهم التّي يقرأونها في الأخرة، إستهزاءً منهم بهذا الوعيد.

قال الرّاغب في المفردات، القطّ الصَّحيفة و هو إسم للمكتوب و المكتوب فيه ثمّ قد يسمّى المكتوب بذلك كما يسمّى الكتاب كلاماً و بالعكس و أصل القطّ الشّئ المقطوع به عرضاً كما أنّ القدّ هو المقطوع طولاً، و القطّ النَّصيب المغرور إنتهى.

أقول يظهر من كلام الرّاغب أنّ الإحتمالات في تفسير الآية لا بأس بها و هو كذلك فأنّ لكلّ واحدٍ منها وجهٌ وجيه.

اِصْبِرْ عَلٰى مٰا يَقُولُونَ وَ اذْكُرْ عَبْدَنٰا داٰوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوّٰابٌ

أي إصبر يامحمّد على أذاهم و إحبس نفسك على أقوالهم و إذكر عبدنا داود ذا الأيد، أي ذا القوّة أنّه أوّابٌ، من أب يؤب أي رجع و المعنى أنّه رجع إلى ربّه في جميع أموره و هذا مدحٌ عظيم في حقّه فأنّ من يتّوكل على اللّه فهو حسبه و قيل أنّه أوّابٌ أي توّابٌ و لا مشاحة فيه فأنّ التّوبة الرّجوع إلى اللّه من الذّنب.

و المقصود، فوَّض أمرك إلى اللّه يامحمّد كما فعل ذلك داود النَّبي و أصبر على أذى القوم كما صبر داود و غيره من الأنبياء.

إِنّٰا سَخَّرْنَا الْجِبٰالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَ الْإِشْرٰاقِ، وَ الطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوّٰابٌ، وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ وَ آتَيْنٰاهُ الْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ الْخِطٰابِ

أشار اللّه تعالى في هذه الأيات إلى ما أعطى داود النّبي من النِّعم.

قوله: **إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ** قال في التّبيان معناه أنّها كانت تسير بأمر اللّه معه يسبّحن بالعشّي و الإشراق أي بالغداة فسَّمى اللّـه ذلك تسبيحاً لما في ذلك دلالة على قدرته و غناه من خلقه و صفاته التّي لا يشاركه فيها غيره و الإشراق وقت طلوع الشّمس إنتهى.

و قال القرطبي من العامّة في تفسيره، يسبّحن في موضع نصب على الحال ذكر اللّه تعالى ما أتاه اللّه من البرهان و المعجزة و هو تسبيح الجبال معه قال مقاتل كان داود إذا ذكر اللّه جلَّ و عزَّ ذكرت الجبال معه و كان يفقه تسبيح الجبال.

و قال إبن عبّاس، يسبّحن يصلّين، و أنّما يكون هذا معجزة إذا رأه النّاس و عرفوه.

و قال محمّد بن إسحاق أوتي داود من حسن الصّوت ما يكون له في الجبال دوّي حسن وما تصغي لحسنه الطّير وتصّوت معه فهذا تسبيح الجبال و الطَّير و قيل سخّرها اللّه عزّ وجلّ لتسير معه فذلك تسبيحها لأنّها دالّة على تنزيه اللّه عن شبه المخلوقين إنتهى ما ذكره.

أقول الأولى حمل الآية على ظاهرها و أنّ المراد بالتَّسبيح هو التنزيه و التَّقديس و من المعلوم أنّ جميع الموجودات من الملائكة و الجنّ و الإنس و الجماد و النّبات و الحيوان يسبّحون اللّه و يقدّسونه و ينزّهونه عن مشابهة غيره و الأصل في هذا الحكم هو:

قوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لٰكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**[١] و قوله تعالىٰ: **كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاٰتَهُ وَ تَسْبِيحَهُ وَ ٱللّٰهُ عَلِيمٌ بِمٰا يَفْعَلُونَ**[٢].

١- الإسراء = ٤٤ ٢- النُّور = ٤١

و قال في تسبيح الملائكة: **وَ تَرَى ٱلْمَلَآئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**[١].

و قال اللّه تعالى: **وَ يُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَ ٱلْمَلَآئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ**[٢]

و قال في الجميع: **أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِى ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَآفَّاتٍ**[٣].

و الأيات في الباب كثيرة و هذا ممّا لا شكّ فيه و اذا ثبت التَّسبيح في حقّ الجميع بنّص الكتاب فنقول.

التَّسبيح في كلّ موجودٍ بحسبه و من جملة الموجوات الجبال و غيرها من الجمادات و لا شكّ أنّها داخلة في سلسلة الأشياء بمعنى أنّ الشّئ يطلق عليها كما يطلق على غيرها من أنواع الموجودات و على هذا فقوله تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ**[۴] يشمل الجماد أيضاً و الآية لا تدلّ على أكثر من ثبوت التَّسبيح للجبال و أمّا أنّه كيف هو، فالآية ساكتة عنه فلابدّ لنا من حمل الآية على ظاهرها و هو ثبوت التَّسبيح الدالّ على تقديسه تعالى و تنزيهه بحسب حال المسبِّح و أمّا سير الجبال لا يسمّى تسبيحاً لا عقلاً و لا عرفاًفي اللُّغة و هكذا لا يراد بالتَّسبيح الصّلوة فأنّ أعمّ منها ألا ترىٰ أنّ المصلّي لا يقال أنّه مسبّحٌ بل يقال أنّ يصلّي فما نقله القرطبي عن إبن عبّاس أنّه قال يسبّحن، أي يصلّين، ليس على ما ينبغي.

إن قلت لو كان المراد بالتَّسبيح معناه اللّغوي أو العرفي فلم لا نسمع تسبيح الجماد و النّبات و الحيوان كما نسمع تسبيح الإنسان مثلاً.

قلت ليس من شرائط صحّة التَّسبيح أن يسمعه كلّ النّاس إذ لا نطق هناك باللّسان و أنمّا هو بلسان الحال لا بالمقال ولنعم ما قيل في المقام:

١- الزّمر = ٧۵
٢- الرّعد = ١٣
٣- النُّور = ۴١
۴- الإسراء = ۴۴

نطق آب ونطق خاك ونطق گل هست محسوس حوّاس أهل دل

و الأنبياء و الأوصياء و الأولياء يعرفونه و يسمعونه و هو يكفي في إثبات المدّعى و منهم داود النبي عليه السلام فأنّه كان يسمع التّسبيح من الجبال و لذلك قال اللّه تعالىٰ: **إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ** و المعيّة تقتضي سماع التّسبيح من الطّرفين فكما أنّ داود كان يسمع تسبيح الجبال كانت الجبال أيضاً تسمع تسبيح النّبي داود إذ لو لم تسمع تسبيحه فكيف تسبّح معه بالعشّي و الإشراق ثمّ أنّ العشّي غروب الشمس و الإشراق طلوعها هذا بحسب اللُّغة و أمّا تخصيص التّسبيح في الآية بالعشّي و الإشراق.

و إن شئت قلت باللّيل و طلوع الشّمس فهو ممّا خفي وجهه على المفسّرين و ذلك لأنّ ظاهر الآية أنّ الجبال كانت يسبّحن معه في هذين الوقتين أعني بهما العشّي و الإشراق و مفهومها عدم التّسبيح معه في غير العشّي و الإشراق أو أنّ تسبيح داود كان فيهما لا في غيرهما و اللّه أعلم.

قال صاحب الكشّاف في قوله تعالى: **وَٱلْإِشْرَاقِ** وقت الإشراق حين تشرق الشّمس أي تضئ و يصفوا شعاعها و هى وقت الضحّى و أمّا شروقها فطلوعها يقال شرقت الشّمس و لا تشرق إنتهى.

أقول يظهر من كلامه الفرق بين الإشراق و الشُّروق فالمراد بالإشراق وقت الضُّحى و على هذا فقوله تعالى: **بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ** معناه باللّيل و الظّهر قالوا أنّ داود كان لا يصلّي صلاة الضُّحى ثمّ صلاّها بعد، و أنت ترى أنّ الآية لا تدلّ على ما ذكرناه و أمّا أنّ الإشراق صلاة الضُّحى، أو أنّ داود كان لا يصلّي صلاة الضُّحى ثمّ صلاّها بعد، كلّ ذلك لا دليل عليه.

وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ هذه نعمة ثانية أعطاها اللّه تعالى داود النّبي و هى أنّ اللّه سخّر له الطُّيور كما سخّر له الجبال و تقدير الآية و سخّرنا الطّير محشورة أي مجموعة من كلّ ناحية اليه، قوله: **أَوَّابٌ**، من آب يوب إذا رجع، أي رجّاع الى ما يريد، و قيل مسخّرة، ذكره قتادة.

قال إبن عبّاس كان داود إذا سبَّح جاوبته الجبال و إجتمعت اليه الطّير فسبَّحت معه فإجتماعها اليه حشرها و حاصل الكلام هو أنّ الجبال و الطَّير كانتا تحت تسخيره.

وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ وَ آتَيْنٰاهُ ٱلْحِكْمَةَ وَ فَصْلَ ٱلْخِطٰابِ هذه نعمة أخرى أعطاه اللّه تعالى فقوله: **وَ شَدَدْنٰا مُلْكَهُ**، يعني قوَّيناه بالجنود و السَّطوة و آتيناه الحكمة أي علّمناه الحكمة و فصل الخطاب أي إصابة الحكم بالحقّ.

أمّا الحكمة فقد مرَّ تفسيرها مراراً و قلنا أنّ الحكمة إصابة الحقّ بالعلم و العقل، فالحكمة من اللّه معرفة الأشياء و إيجادها على غاية الأحكام الإنسان معرفةالموجودات و فعل الخيرات و هذا هو الّذي وصف به لقمان في قوله تعالى:

وَ لَقَدْ آتَيْنٰا لُقْمٰانَ ٱلْحِكْمَةَ(۱).

و وصف به آل إبراهيم حيث قال تعالى:

فَقَدْ آتَيْنٰآ آلَ إِبْرٰاهِيمَ ٱلْكِتٰابَ وَ ٱلْحِكْمَةَ(۲).

و هى من أعزّ الأشياء و أفضل النِّعم و لذلك قال تعالى:

يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَنْ يَشٰآءُ وَ مَنْ يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا(۳).

و أمّا فصل الخطاب فقيل المراد به فصل الدّعاوي و الخصومات، و قيل يعني الفصل في القضاء، و قيل البيان الفاصل بين الحقّ و الباطل و عن عيون الأخبار بأسناده الى أبي الصَّلت الهروّي قال كان الرّضا عليه السلام يتكلّم النّاس بلغاتهم و كان و اللّه أفصح النّاس و أعلمهم بكلّ لسانٍ و لغّة فقلت له يوماً يا بن رسول اللّه أنّي لأعجب من معرفتك بهذه اللُّغات على إختلافها فقال عليه السلام يا أبا صلت أنا حجّة اللّه على خلقه و ما كان اللّه ليتَّخذ حجّة على قوم و هو لا يعرف لغاتهم أو ما بلغك قول أميرالمؤمنين عليه السلام أوتينا فصل الخطّاب فهل فصل الخطاب إلاّ معرفة اللُّغات إنتهى.

۱- لُقمان = ۱۲
۲- النّساء = ۵۴
۳- البقرة = ۲۶۹

وَ هَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و ما بعدها قصّة داود النّبي من الحكم بين الخصمين، فخاطب نبيّه صلّى اللّه عليه و آله و سلّم بصورة الإستفهام و قال هل أتاك نبأ الخصم، يعني خبره، إذ تسَّوروا المحراب، يعني صعدوا اليه.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ وَ ٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَاطِ

إن قلت، قال تعالى أوّلاً: **نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ**، بصيغة المفرد، و في هذه الآية قال: **خَصْمَانِ**، بصيغة التّثنية، و قال في البين، قالوا، بصيغة الجمع فما وجه التّوفيق بين هذه الألفاظ.

قلت الخصم يعبّر به عن الواحد و الأثنين و الجماعة بلفظٍ واحد لأنّ أصله المصدر فيقال رجل خصم، و رجلان خصم، و رجال خصم، و لذلك قال: **إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ**، بصيغة الجمع و لذلك قال: **قَالُوا۟ لَا تَخَفْ** لأنّه أراد المدّعي و المدّعي عليه و من إتبعهما، فلا يمكن أن يستدلّ بالآية في أنّ أقلّ الجمع إثنان لما قال خصمان بغى بعضنا على بعضٍ هكذا قيل.

و أمّا قوله: **تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ** فهو مأخوذ من السُّور، و التّسور الإتيان من جهة السُّور و سور الدّار حيطانها يقال تسَّور فلان الدّار إذا أتاها من قبل سورها أي من أعلى سوره و حيث أنّ الخصمين دخلا من أعلى السُّور قال تعالى: **إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ** ثمّ أنّهم لمّا دخلوا على داود ففزع أي خاف منهم لأنّهم دخلوا على داود من أعلى المحراب فلذلك فزع منهم.

و المراد بالمحراب مجلس الحكم، قالوا، لداود: **لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَ لَا تُشْطِطْ**، أي لا تجاوز الحقّ و لا تجر في حكمك واحدنا الى سواء الصّراط، أي أرشدنا الى طريق المستقيم، و هو طريق الحقّ و وسطه.

إِنَّ هٰذٰآ أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَ تِسْعُونَ نَعْجَةً وَ لِىَ نَعْجَةٌ واٰحِدَةٌ فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِي فِى ٱلْخِطٰابِ

قيل المراد بالأخ الأخ في الدّين، و أكثر المفسّرين على أنّ المراد بالنّعجة المرأة و أنّه كنّي بالنّعاج عن تسع و تسعين إمرأة كانت له و الأخر له نعجةٌ واحدة يعني إمرأة واحدة، و قيل لم يكن له تسع و تسعين إمرأة و أنّما قال ما قال على وجه المثل، المراد بالنّعاج أعيانها من غير كناية و خصمان كانا من أولاد آدم.

أقول ظاهر الآية يقتضي ذلك إلاّ أنّه خلاف الشمهور بين المفسّرين فأنّهم قالوا كنِّي بالنّعاج عن تسع و تسعين إمرأة، و خصمان كانا ملكين **فَقٰالَ أَكْفِلْنِيهٰا وَ عَزَّنِي فِى ٱلْخِطٰابِ** أي إجعلني كفيلاً بها أي ضامناً و بعبارةٍ أخرى إجعلها في كفالتي و عزّني في الخطاب أي غلبني فيه و قيل قهرني أبو عبيدة معناه أنّه صار أعزّ منّي.

قٰالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰالِ نَعْجَتِكَ إِلىٰ نِعٰاجِهِ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْخُلَطٰآءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ وَ قَلِيلٌ مٰا هُمْ وَ ظَنَّ داٰوُودُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راٰكِعًا وَ أَنٰابَ

أي قال داود للخصم لقد ظلمك بسؤال نعجتك، من غير أن يسأل خصمه عن دعوى خصمه فما أجب به حكم به ثمّ أخبر أنّ كثيراً من الشّركاء و الخلطاء يظلم بعضهم على بعض إلاّ الّذين آمنوا و عملوا الصّالحات فأنّ إيمانهم يمنعهم عن التّعدي بحقّ الغير و الظّلم عليه، و قليلٌ ما هم، أي و قليلٌ من كان كذلك، و ظنّ داود، قيل الظّن هنا بمعنى العلم و المعنى و علم داود، فأستغفر ربّه، أي طلب منه المغفرة و السّتر عليه و خرَّ راكعاً، أي صار راكعاً و أناب، الى اللّه أي رجع اليه بالتّوبة.

فَغَفَرْنٰا لَهُ ذٰلِكَ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفٰى وَ حُسْنَ مَآبٍ

أي غفرنا لداود و أجبنا دعاءه وَ **إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَـزُلْفٰى**، أي التّقرب من رحمة اللّه و حسن مآب، المآب المرجع و المصير أي أنّ مقامه عند اللّه حسنٌ، هذا تفسير ألفاظ الآية في قصّة داود و حيث أنّ كلمات المفسّرين حول القصّة مختلفة فلابدّ لنا من التكلّم و البحث فيها على سبيل الإجمال فنقول.

في الآية مسائل:

الأولىٰ: أنّ الّذين دخلوا على داود كما صرَّحت به الآية حيث قال إذ دخلوا على داود هل كانوا من جنس البشر أم لا فالمشهور عند المفسّرين أنّهم كانوا من الملائكة لا من البشر و خالفهم في ذلك أبو مسلم محمّد بن بحر الأصفهاني فأنّه قال كانوا من ولد آدم و لم يكونوا من الملائكة.

الثّانية: فالمراد بالنّعجة في الآية فالمشهور عند المفسّرين أنّه كنِّي بالنّعاج عن تسع و تسعين إمرأة كانت له و أنّ الأخر عنده إمرأة واحدة، و خالفهم في ذلك محمّد بن بحر الأصفهاني أيضاً و قال أراد النّعاج بأعيانها.

الثّالثة: قوله تعالى: **وَ ظَنَّ داٰوُدُ أَنَّمٰا فَتَنّٰاهُ**، ما معناه فالمشهور على أنّ المراد بالظَّن العلم و قيل الظَّن، على معناه المصطلح و هو الطَّرف الرّاجح عند الشكّ و المعنى أنّ ظَّن ظَنّاً قويّاً.

الرّابعة: ما كان موضع الخطيئة في حكمه و قضاءه و ما وجه الإستغفار في قوله تعالى: **فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَ خَرَّ راٰكِعًا وَ أَنٰابَ** و بالجملة من أيّ شئٍ إستغفر داود حتّى غفر اللّه له إذا عرفت هذا فأعلم أنّ المسألة الأولى فالحقّ فيها مع المشهور و هو أنّ الخصمين كانا من الملائكة.

أمّا المسألة الثّانية: فالحقّ فيها أيضاً أنّ النّعجة كناية عن المرأة كما ذهب اليه المشهور.

أمّا المسألة الثّالثة: فالحقّ أنّ الظّن بمعنى العلم.

أمّا المسألة الرّابعة: فهي معركة الأراء بين المفسّرين من العّامة و الخاصّة، فالعّامة منهم من يجوّز الذّنب على الأنبياء و منهم من لا يجوّز، فمن جوَّز الذّنب أثبت له الذّنب و من لم يجوّز فلا.

أمّا الخّاصة و هم أتباع أهل البيت فإتّفقوا على عدم الجواز تبعاً لهم و قالوا أنّ الأنبياء و الأوصياء معصومون من الّذنب مطلقاً صغيراً كان أو كبيراً نعم جوّزوا فيهم ترك الأولى و هو لا يعدّ ذنباً و لذلك يقولون كان موضع الخطيئة في داود أنّه قال للخصم **لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰلِ نَعْجَتِكَ إِلٰى نِعٰاجِهِ** من غير أن يسأل خَصمه من دعواه و في آداب القضاء أن لا يحكم بشيءٍ حتّى يسأل القاضي دعوى الطّرفين أعني المدعي و المدّعى عليه و حيث أنّ داود أجاب المدّعي قبل السؤال عن الخصم فكأنّه حكم به و هذا ترك النّدب في ذلك الحكم بل هو من ترك الأولى و هو ظاهر.

بعبارةٍ أخرى قوله: **لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤٰلِ نَعْجَتِكَ إِلٰى نِعٰاجِهِ**، بمنزلة الحكم و الأولى له عدم التكلّم بهذا الكلام قبل إستماع الدّعوى من الخصمين إذ من المحتمل أن يكون المدّعيو هو الّذي قال ولي نعجة واحدة على الباطل و من كان له تسع و تسعين نعجة على الحقّ، فموضع الخطيئة في الدّعوى هو التّقول بالظّلم قبل السؤال عن خصمه و الأولى له ترك الكلام قبل إستماع الدّعوى من الخصم، و لم يحكم داود بغير ما أنزل اللّه حتّى يعدّ من الذّنب فهو من قبيل ذنب آدم أبو البشر حيث ترك الأولى و هذا الّذي ذكرناه هو المختار عندنا و عند غيرنا من الشّيعة سواء كانت المراد بالنّعجة المرأة أم لم يكن و سواء كان من البشر أم من الملائكة فأنّ موضع الخطيئة ليس إلاّ ترك الأولى.

و أمّا العامة فقد فسّروا الآية بغير ما ذكرناه و حاصله أنّهم أثبتوا لداود ذنباً، عظيماً ثمّ غفر اللّه مع ذنبه و نحن نذكر القصّة بعينها عن تفسير إمامهم الطّبري بألفاظها و عباراتها فأنّ المفسّرين منهم بعده أخذوا ما أخذوا منه تقليداً لهم أيّاه.

قال الطَّبري حدّثنا محمّد بن الحسين قال حدّثنا أحمد بن المفضّل قال حدّثنا أسباط عن السُّدي في قوله تعالى: **وَ هَلْ أَتَـٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ**.

قال كان داوُد قد قسّم الدّهر ثلاثة أيّام يوم يقضي فيه بين النّاس و يوم يخلوا فيه لعبادة ربّه و يوم يخلوا فيه لنساءه و كان له تسع و تسعون إمرأة و كان فيما يقرأ من الكتب أنّه كان يجد فيه فضل إبراهيم و إسحاق و يعقوب فلمّا وجد ذلك فيما يقرأ من الكتب قال يا ربّ أنّ الخير كلّه قد ذهب به آبائي الّذين كانوا قبلي فأعطني مثل ما أعطيتهم و أفعل بي مثل ما فعلت بهم قال فأوحى اللّه اليه أنّ آباءك قد إبتلوا ببلايا لم تبتّل بها إبتلى إبراهيم بذبح إبنه وإبتلى إسحاق بذهاب بصره وإبتلى يعقوب بحزنه على يوسف و أنّك لم تبتل من ذلك بشئ قال يا ربّ إبتلني بمثل ما إبتليتهم به و أعطني مثل ما أعطيتهم قال فأوحى اللّه اليه أنّك مبتلى فإحترس قال فمكث بعد ذلك ما شاء اللّه أن يمكث إذ جاءه الشّيطان قد تمثّل في صورة حمامة من ذهب حتّى وقع عند رجليه و هو قائم يصلّي فمدَّ يده ليأخذه فتبعه فتباعد حتّى وقع في كوّة فذهب ليأخذه فطار من الكوّة فنظر أين يقع فيبعث في أثره قال فأبصر إمرأة تغتسل على سطح لها فرأى إمرأةً من أجمل النّاس خلقاً فحانت منها إلتفاته فأبصرته فألقت شعرها فإستترت به قال فزاد ذلك فيها رغبةً فسأل عنها فأخبرت أنّ لها زوجاً و أنّ زوجها غائب بمسلحة كذا و كذا قال فبعث إلى صاحب مسلحة يأمره أن يبعث أهريا (أوريا) إلى عدوّ و كذا و كذا قال فبعثه ففتح له قال و كتب إليه بذلك قال فكتب إليه أيضاً أن أبعثه إلى عدوّ كذا و كذا أشدَّ منهم بأساً قال فبعثه ففتح له أيضاً قال فكتب إلى داود بذلك قال فكتب إليه أن أبعثه إلى عدوّ كذا و كذا قال فبعثه فقتل في المرّة الثّالثة قال و تزّوج إمرأته قال فلمّا دخلت عليه لم تلبث عنده إلاّ يسيراً حتّى بعث اللّه ملكين في صورة إنسيين فطلبا أن يدخلا عليه فوجداه في يوم عبادته فمنعهما الحرس أن يدخلا عليه فتّسوار

عليه المحراب قال فما شعر و هو يصلّي إذ هو بهما بين يديه جالسين قال ففزع منهما فقالا لا تخف أنّما نحن خصمان بغى بعضنا على بعضٍ فأحكم بيننا بالحقّ و لا تشطط يقول لا تجف (لا تخف) و أهدنا إلى سواء الصّراط، الى عدل القضاء قال فقال لهما قصّا عليّ قصّتكما قال فقال أحدهما أنّ هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجةٌ واحدة فهو يريد أن يأخذ نعجتي فيكمل بها نعاجه مائة فقال للأخر ما تقول فقال أنّ لي تسعاً و تسعين نعجة و لأخي هذا نعجةٌ واحدة فأنا أريد أن أخذه منه فأكمل بها نعاجي مائة، قال و هو كاره قال و هو كاره قال إذاً لا ندعك و ذلك قال ما أنت على ذلك بقادرٍ قال فأن ذهبت تروم ذلك أو تريد ذلك ضربنا منك هذا و هذا و هذا و فسر أسباط طرف الأنف و أصل الأنف و الجبهة قال يا داود أنت أحقّ أن يضرب منك هذا و هذا و هذا حيث لك تسع و تسعون نعجة إمرأة ولم يكن لأهريا (لأوريا) إلاّ إمرأةٌ واحدة فلم تزل به تعرضه للقتل حتّى قتلته و تزوّجت إمرأته، قال فنظر فلم ير شيئاً فعرف ما قد وقع فيه و ما قد إبتلى به قال فخّر ساجداً قال فبكى و مكث يبكي ساجداً أربعين يوماً لا يرفع رأسه إلاّ لحاجةٍ منها ثمّ يقع ساجداً يبكي ثمّ يدعوا حتّى بنت العشب من دموع عينيه قال فأوحى اللّه إليه بعد أربعين يوماً ياداود أرفع رأسك فقد غفرت لك فقال ياربّ كيف أعلم أنّك قد غفرت لي و أنت حكمٌ عدل لا تحيف في القضاء إذا جاءك، أهريا (أوريا) يوم القيامة آخذاً رأسه بيمينه أو بشماله تشخب أوداجه دماً في قبل عرشك يقول ياربّ سل هذا فيم قتلني فأوحى إليه إذا كان ذلك دعوت أهريا (أوريا) فأستوهبك منه فيهبك لي فأثيبه بذلك الجنّة قال ربّ الآن علمت أنّك قد غفرت لي فما إستطاع أن يملأ عينيه من السّماء حياءً من ربّه حتّى قبض إنتهى.

ما ذكره الطّبري في كتابه و ذكر نظير ذلك بطريقٍ أخر و المعنىٰ واحد و الألفاظ مُختلفة أن شئت الإطّلاع على جميع ما نقله في الباب فعليك بكتابه فأنّك لو تأمّلت في هذه القصّة و ما لفّقته اليهود في حقّ نبيٍ من الأنبياء الّذي جمع اللّه له

الملك و النّبوة معاً و سلّطه على الإنس و الجنّ و علّمه منطق الطّير و بالجملة أعطاه جميع النّعم في الدّنيا، لعلمت مهارة اليهود و جهل بعض المسلمين في تخريب الدّين و أنّ النّبي الذّي إصطفاه اللّه تعالى في كلّ عهدٍ و زمانٍ من بين خلقه و أرسله إلى النّاس للإرشاد و الإصلاح و إجراء العدل و مكارم الأخلاق إذا كان كذلك فكيف يقبل قوله في الأحكام و كيف يجوز متابعته عقلاً:

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ**[1].

قال اللّه تعالىٰ: **لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**[2].

و هذا الحكم لا يختصّ برسول الإسلام بل هو جارٍ في جميع الأنبياء، و كيف كان فلابدّ لنا من الإشارة إلىٰ ما في هذه القصّة من الأكاذيب و الموهومات على سبيل الإجمال فنقول:

أوّل: ما في هذا الخَبر و أمثاله أنّه لا سند له فأنّ الطّبري نقله عمّن لا يعرف في كتب الرّجال من العامّة و الخاصّة فضلاً عن توثيقه.

ثانياً: أنّ السُّدي الّذي نقل هذا الحديث من أين علم هذا و ممّن نقله.

ثالثاً: من أين علم أنّ داود قد قسّم الدّهر ثلاثة أيّام و من أخبر السُّدي بذلك.

رابعاً: من أين علم أنّ داود كان له تسع و تسعون إمرأة، و هل يعقل ذلك.

خامساً: كيف يعقل أنّ داود النّبي قال الخير كلّه قد ذهب به أبائي.

و من المعلوم أنّ هذا كذب و ذلك لأنّ اللّه تعالى أعطى داود النّبي الملك و النّبوة و أعطى أباءه النّبوة فقط بل نقول ما أعطى اللّه داود إبنه سليمان لم يعطه أحداً من أباءه إلى أدم فكيف يقول، الخير كلّه قد ذهب به أبائي فأنّ هذا القول يكذّبه و الشّرع فهذا كذب و إفتراء على داود النّبي.

سادساً: كيف يقول اللّه أنّك مبتلى فإحترس ثمّ يسّلط الشّيطان عليه أليس في فعله تعالى تكذيب قوله في القرأن حيث قال مخاطباً له:

١- الحشر = ٧ ٢- الاحزاب = ٢١

إِنَّ عِبادي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغاوِينَ[۱].

و قال تعالىٰ: **إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**[۲].

ألم يكن داود عليه‌السلام من عباد اللّه أليس اللّه يقول: **وَ اذْكُرْ عَبْدَنا داوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوّابٌ**[۳] فإذا ثبت أنّه كان من عباد اللّه بنصّ الكتاب فكيف سلَّط الشّيطان عليه و هو تكذيب قوله من عند نفسه نعوذ باللّه منه، ثمّ أنّ الشّيطان كيف تمَّثل في صورة حمامة من ذهبٍ حتّى وقع عند رجليه و هو قائمٌ يصلّي فمَّد يده ليأخذه، و هذا أيضاً كذبٌ محض فنّ داود النّبي كان له من الأموال و الكنوز ما لايعلم بها إلاّ اللّه هذا كلّه مضافاً إلى أنّ النّبي من أزهد النّاس في زمانه فكيف يعقل أنّه مدَّ يده ليأخذه فتَّنحى فتبعه و هكذا إلى أن وقع نظر داود على إمرأةٍ تغتسل على سطح لها، فرأى إمرأةً من أجمل النّاس خلقاً فحانت منها إلتفاتة، نعوذ باللّه من هذه الأراجيف ولعنة اللّه على من لفَّقها و نسبها الى نبّي من أنبياء اللّه ثمّ أقبح من ذلك كلّه قول القائل أنّه سأل عنها فأخبر أنّ لها زوجاً و أنّ زوجها غائب.

و معنى هذا الكلام ثبوت الفسق لداود عليه‌السلام فأنّ من نظر إلى إمرأةٍ تغتسل ثمّ سألها عن زوجها ثمّ بعث إلى صاحب المسلحة يأمره أن يبعث، أهريا (أوريا) إلى عدّوٌ كذا و يأمره بذلك ثانياً و ثالثاً حتّى قتل ثمّ تزَّوجها، فهو من أفسق الفسّاق و ذلك لأنّه في الحقيقة قتل زوجها للتّزوج بها و قد فعل و هذا الفعل أقبح من الزّنا بذات بعلٍ لأنّ فيه ليس قتل الزّوج و في المقام صار داود النّبي قاتلاً لأنّ من أمر بقتل غيره فهو قاتل و خصوصاً إذا كان الآمر ممّن ينفذ حكمه، و بعد اللّتيا واللّتي حاصل ما يستفاد من هذه الأسطورة المجعولة على أيدي اليهود هو أنّ اللّه تعالى إبتلى عبده بالفسق و الفجور ثمّ غفر له بعد بكاءه على

۱- الحجر = ۴۲ ۲- النّحل = ۱۹
۳- ص = ۱۷

ذنبه أربعين يوماً، ساجداً لا يرفع رأسه إلى أخر ما قال، أنظروا يامعاشر المسلمين إلى ما ذكروه في تفسير كلام اللّه و إثباتهم الفسق لنبّي من أنبياء اللّه الّذين طهَّرهم اللّه من الأرجاس و إصطفاهم للنّبوة و ليس هذا إلاَّ مبلغ عقلهم و إيمانهم و قد نقله القرطبي و غيره من مفّسري العامّة في كتبهم.

و من المعلوم أنّهم أخذوه من الطّبري الذّي هو إمامهم في التّفسير هذا أوّل قارورةٍ كسرت في الإسلام أليس هذا الرّجل ذكر أسطورةً أخرى في تاريخه و سمّاها بعبد اللّه إبن سبا و جعله مرشداً و هادياً لأبي ذرّ الغفاري و أمثاله من أصحاب النّبي و أثبت بذلك أنّ الشّيعة من أتباع عبد اللّه بن سبا.

و نقل القصّة في تاريخه عن رجل مجهول لا يعرف في الرّجال كما أنّ عبد اللّه بن سبا أيضاً لا وجود له في الرّجال و الحقّ أنّ وجوده وهمّيٌ فرضيٌ تخيّليٌ لم يكن منه في العالم عينٌ و لا أثر، إلاّ أنّ اليهود أعطته الوجود على لسان أبي هريرة و أنس بن مالك و سمرة بن جندب و الشُّعبي و أمثالهم و الطَّبري و أمثاله زيَّنوا كتبهم بأساطيرهم و لنعم ما قاله بعض المحدثّين على تفسير القرطبي في هذا المقام.

قال، ما أورده القرطبي هنا في حقّ داود عليه الصّلاة و السّلام من قبيل الإسرائيليّات و لا صحّة لها و هو هراء و إفتراء كما قال البيضاوي و ممّا يقدح في عصمة الأنبياء عليهم السّلام و لقد أحسن أبو حيّان و أجاد حيث يقول، و يعلم قطعاً أنّ الأنبياء عليهم السّلام معصومون من الخطايا لا يمكن و قوعهم في شئ منها ضرورة أنّا لو جوّزنا عليهم شيئاً من ذلك بطلت الشّرائع ولم نثق بشئٍ ممّا يذكرون أنّه أوحى اللّه به عليهم فما حكى اللّه تعالى في كتابه يمّر على ما أراده اللّه تعالى و ممّا حكى القصّاص ممّا فيه غضّ من منصب النّبوة طرحناه و نحن كما قال الشّاعر:

و نؤثر حكم العقل في كلّ شبهةٍ   إذا أثر الأخبار جلاّس قصاص

و الرّقاشي مطروح الرّواية عند التّحقيق إنتهى ما ذكره هذا القائل و نحن لا نعرف إسمه وكيف كان فقد أنصف حقّ الإنصاف[١].

و لا كلام لنا بعد ذلك فأنّ للبحث في هذه الأمور مقام أخر ولنذكر في أخر الكلام ما رواه في عيون الأخبار عن الرّضا عليه السلام تيّمناً و تبركاً به.

في عيون الأخبار في باب مجلس الرّضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات و ما أجاب به علّي بن جهم في عصمة الأنبياء عليهم السّلام حديث طويل، يقول فيه الرّضا عليه السلام و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه فقال علّي بن محمّد إبن الجهم يقولون أنّ داود كان يصلّي في محرابه إذ تصّور له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطّيور فقطع صلاته و قام يأخذ الطّير فخرج الطّير إلى الدّار فخرج في أثره فطار الطّير إلى السَّطح فسقط الطّير في دار أوريا بن حيّان فإطلع داود في أثر الطّير فإذا بإمرأة أوريا تغتسل فلمّا نظر إليها هواها و كان قد خرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريا أمام التّابوت فقدّم فظفر أوريا بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدّمه أمام التّابوت فقدّم فقتل أوريا رحمه اللّه و تزّوج داود بإمرأته، قال فضرب الرّضا عليه السلام يده على جبهته و قال إنّا للّه و إنّا إليه راجعون لقد نسبتم نبيّاً من أنبياء اللّه عليهم السّلام إلى التَّهاون بصلاته حتّى خرج في أثر الطَّير ثمّ بالفاحشة ثمّ بالقتل فقال يابن رسول اللّه فما كانت خطيئته قال عليه السلام ويحك أنّ داود أنّما ظنَّ أنّه ما خلق اللّه خلقاً أعلم منه فبعث اللّه عزّ وجلّ إليه الملكين فسَّورا المحراب فقال خصمان بغي بعضنا على بعضٍ الآية إلى قوله في الخطاب، فعجّل داود على المدّعى عليه فقال لقد ظلمك بسؤال نعجتك في

١- القُرطبي ج ١٥ ص ١٦٦

نعاجه، و لم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك ولم يقبل على المدّعى عليه فيقول له ما تقول فكان هذا خطيئته لا ما ذهبتم إليه ألا تسمع اللّه عزّ وجلّ بقول ياداود أنّا جعلناك خليفةً في الأرض الآية فقال يابن رسول اللّه فما قصّته إلى أوريا قال الرّضا عليه السلام أنّ المرأة في أيّام داود كانت إذا مات بعلها أو قتل لا تتّزوج بعده أبداً فأوّل من أباح اللّه عزّ وجلّ له أن يتزوّج بإمرأةٍ قتل بعلها داود عليه السلام فتزوّج بإمرأة أوريا لمّا قتل و إنقضت عدّتها فذلك الّذي شقّ على النّاس من قبل أوريا إنتهى[1].

و إعلم أنّا لا نقول أنّ هذه الأسطورة التّي ذكرها الطّبري في تفسيره و تبعه غير واحدٍ من المفسّرين بعده على ذلك هو من مجعولات الطّبري و أنّه إخترعها من عند نفسه بل نقول أنّها و أمثالها من أساطير اليهود و مجعولات الأعداء لتخريب الإسلام و هدم قواعد الدّين بل نقول كان على الطّبري و أمثاله من القدماء التّأمل في هذه الخرافات و الموهومات التّي لا أصل لها مضافاً إلى أنّ العقل السليم أيضاً ينكرها و الدّليل على أنّها ليست من مخترعات الطّبري و من بعده هو الرّواية التّي نقلناها أنفاً و أنّ علّي بن جهم، قال بهذه المقالة في عصر الرّضا عليه السلام فلو لم ينتقل الطّبري و أمثاله هذه الإسرائيليّات في كتبهم لما كان منها في كتب المتّأخرين عينٌ و لا أثر فالذّنب ثابتٌ للقدماء حيث لم يتّأملوا في الأخبار الواصلة إليهم و نقلوها في كتبهم ثمّ نقلها من جاء بعدهم و إستند النّقل إليهم و قال نقله فلان و فلان و قد سرىٰ هذا المرض إلى جميع المذاهب في الإسلام حتّى مذهب الشّيعة الأثنى عشرية الّذين أخذوا ما أخذوا من الأخبار عن أهل البيت عليهم السّلام و مع ذلك نرى في كتب أصحابنا الإماميّة من هذه الأساطير التّي لا أصل لها ما لا يمكن إحصائها.

۱- نقلناه عن تفسير نُور الثّقلين ج ۴ ص ۴۴۵

قال علّي بن إبراهيم القمي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه:

حدَّثني أبي عن إبن أبي عمير عن هشام عن الصّادق عليه السلام قال عليه السلام: أنّ داود لمّا جعله اللّه عزّ وجلّ خليفة في الأرض و أنزل عليه الزّبور أوحى اللّه إلى الجبال و الطّير يسبّحن معه و كان سببه أنّه إذا صلّى ببني إسرائيل يقوم وزيره بعد ما يفرغ من الصّلاة فيحمد اللّه و يسبّحه و يكبّره و يهلّله ثمّ يمدح الأنبياء عليهم السّلام نبيّاً نبيّاً و يذكر من فضلهم و أفعالهم و شكرهم و عبادتهم للّه سبحانه و تعالى و الصّبر على بلاءه و لا يذكر داود فنادى داود ربّه فقال يا ربّ قد أنعمت على الأنبياء بما أثنيت عليهم ولم تثن عليهم ولم تثن علّي فأوحى اللّه عزّ وجلّ إليه هؤلاء عباد إبتليتهم فصبروا و أنا أثني عليهم بذلك فقال يا ربّ فأبتلني حتّى أصبر فقال ياداود تختار البلاء على العافية إنّي إبتليت هؤلاء و أنا لم أعلمهم و أنا أبتليك و أعلمك أنّ بلائي في سنة كذا و شهر كذا و في يوم كذا و كان داود يفرغ نفسه لعبادته يوماً و يقعد في محرابه يوماً و يقعد لبني إسرائيل فيحكم بينهم فلمّا كان اليوم الّذي وعده اللّه عزّ وجلّ إشتّدت عبادته و خلافي محربه و حجب النّاس عن نفسه و هو في محرابه يصلّي فإذا طائرٌ قد وقع بين يديه جناحاه من زبرجد أخضر و رجلاه من ياقوت أحمر و رأسه و منقاره من لؤلؤ و زبرجد فأعجبه جدّاً ونسي ما كان فيه فقام ليأحذه فطار الطّائر فوقع على حائط بين داود و بين أوريا بن حنّان و كان داود قد بعث أوريا في بعث فصعد داود الحائط ليأحذ الطّير و اذا إمرأة أوريا جالسة تغتسل فلمّا رأت ظلّ داود نشرت شعرها و غطّت بدنها

فنظر إليها داود فإفتتن بها و رجع إلى محرابه و نسي ما كان فيه و كتب إلى صاحبه في ذلك البعث و ساق الحديث بطوله و ذكر فيه ما هو أشنع و أقبح ممّا ذكره الطّبري في حديثه الّذي نقلناه عن تفسيهر و زاد في حديث علّي بن إبراهيم قصّة حزقيل و نحن أعرضنا عن نقله بتمامه حذراً عن الإطناب مضافاً إلى قبح نقل هذه الأباطيل و أن شئت الإطلاع على ما نقله فعليك بتفسيره[1].

إذا عرفت فاعلم أنّ الصّدوق قدس سره قال بأسناده إلى أبي عبداللّه عليه السلام أنّه قال لعلقمة أنّ رضا النّاس لا يملك و ألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود الى أنّه تبع الطّير حتّى نظر الى إمرأة أوريا فهواها و أنّه قدّم زوجها أمام التّابوت حتّى قتل ثمّ تزوّج بها الحديث[2].

ثمّ أنّه ذكر بعد ذلك في صفحة[3] حديث علّي بن إبراهيم القمّي بطوله و قد نقلنا شطراً منه عن تفسيره، و الغرض من نقل هذه الأحاديث في كتب العّامة و الخّاصة أنّ الأسرائيّليات سرت الى كتب أصحابنا أيضاً ولنختم الكلام في هذا الباب لأنّه خارج عن موضوع الكتاب و أنمّا قلنا ما قلناه بطوله و تفصيله لأنّ المسألة إعتقاديّة و أنّ الأنبياء لمكان عصمتهم منزّهون عمّا ينافي العصمة فيهم و اللّه من وراء القصد.

يٰا داٰوُودُ إِنّٰا جَعَلْنٰاكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنّٰاسِ بِالْحَقِّ وَ لاٰ تَتَّبِعِ ٱلْهَوٰى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ لَهُمْ عَذٰابٌ شَدِيدٌ بِمٰا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسٰابِ

١- ج ٢ ص ٢٢٩
٢- نور الثّقلين ج ٤ ص ٤٤٦
٣- ص ٤٤٧

في الآية مسائل:

الأولىٰ: في الجعل، قيل هو لفظٌ عامّ في الأفعال كلّها و هو أعمّ من فعل و صنع و سائر أخواتها و يتصرّف على خمسة أوجه:

الأوّل: يجري مجرى صار و طفق فلا يتعدّى نحو جعل زيدٌ يقول كذا.

الثّانى: يجري مجرى أوجد فيتعدّىٰ الى مفعولٍ واحد.

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ ٱلظُّلُمٰاتِ وَ ٱلنُّورَ**(۱).

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَ ٱلْأَبْصٰارَ وَ ٱلْأَفْئِدَةَ**(۲).

الثّالث: في إيجاد شيءٍ من شيءٍ و تكوينه منه.

قال اللّه تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوٰاجًا**(۳).

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْجِبٰالِ أَكْنٰانًا**(۴).

الرّابع: في تصيير الشّيئ على حالةٍ دون حالةٍ.

قال اللّه تعالى: **اَلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِراشًا**(۵).

قال اللّه تعالى: **جَعَلَ لَكُمْ مِمّٰا خَلَقَ ظِلاٰلاً**(۶).

الخامس: الحكم بالشّيئ على الشّيئ حقّاً كان أو باطلاً فأمّا الحقّ:

قال اللّه تعالى: **إِنّٰا رٰادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جٰاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلينَ**(۷).

و أمّا الباطل:

قال اللّه تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلّٰهِ مِمّٰا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَ ٱلْأَنْعٰامِ نَصيبًا**(۸).

قال اللّه تعالى: **يَجْعَلُونَ لِلّٰهِ ٱلْبَنٰاتِ**(۹).

قال اللّه تعالى: **اَلَّذينَ جَعَلُوا ٱلْقُرْآنَ عِضينَ**(۱۰).

۱- الانعام = ۱
۲- النحل = ۷۸
۳- النحل = ۷۲
۴- النحل = ۸۱
۵- البقرة = ۲۲
۶- النحل = ۸۱
۷- القصص = ۷
۸- الانعام = ۱۳۶
۹- النحل = ۵۷
۱۰- الحجر = ۹۱

إذا عرفت معنى الجعل و موارد إستعماله فقوله: **إِنَّا جَعَلْنَاكَ** من قبيل الثّاني لأنّه تعدّى الى مفعول واحد و هو الكاف في جعلناك.

و أمّا أنّ الجعل يحتاج الى الجاعل فهو واضح فأنّ الفعل لا يوجد بدون الفاعل كما أنّ الأثر لا يوجد بدون المؤثّر.

الثّانية: ما معنى الخليفة، الخلافة النّيابة عن الغير، إمّا لغيبته المنوب عنه، و إمّا لموته، و إمّا لعجزه، وإمّا لتشريف المستخلف و على هذا الوجه الأخير إستخلف اللّه أولياءه في الأرض فقوله تعالى: **إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ** إشارة الى المعنى الأخير.

الثّالثة: قوله: **فَاحْكُمْ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِالْحَقِّ** الفاء للتّفريع أي أنّ الحكم بين النّاس بالحقّ فرعٌ على كون الخليفة مجعولاً من عند اللّه فمن لم يكن مجعولاً من عند اللّه لم يقدر على الحكم بالحقّ قطعاً لأنّه أي الحكم بالحقّ متفرعٌ على الجعل من عند اللّه و هو واضح.

الرّابعة: **لَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ**، أي النّفس الأمّارة بالسُّوء و مفهوم الكلام متابعة رضى الرّب و أنمّا قلنا ذلك لأنّ المتابعة إمّا للهوى و إمّا للّه تعالى و الحصر عقلّي لأنّ المتابعة لا تخلوا عنهما إذ لا واسطة بين الأمرين فمن خالف الهوى و افق الحقّ و بالعكس بالعكس.

الخامسة: إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّٰهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ ٱلْحِسَابِ، الباء للسّبب أي أنّ العذاب الشّديد مسّببٌ عن نسيان يوم الحساب أعني به القيامة إذا عرفت تفسير ألفاظ الآية فنقول.

يستفاد من الآية أنّ الخليفة مجعولٌ من عند اللّه و لا فرق في ذلك بين خليفة اللّه و خليفة رسوله فأنّ ما ينطق عن الهوى إلاّ وحيٌ يوحى و بعبارةٍ أخرى دلّت الآية على أنّ جاعل الخليفة في الأرض هو اللّه تعالى لا غيره كما قال في قصّة آدم أبو البشر.

وَ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنّى جاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً[١].

الأية المعلوم أنّ المراد بالخلافة عن اللّه هو الخلافة في أمر دينه و بيان أحكامه و هو موقوفٌ على العلم فأنّ الحكم بين النّاس بالحقّ لا يتّحصل إلاّ لمن كان عالماً به و أمّا الجاعل بالحكم فلا يصلح للخلافة للّه و لذلك نقول أنّ خليفة اللّه لابدّ له من أن يكون أعلم أهل الأرض مصوناً عن السَّهو و النسيان و الخطأ في أفعاله و أقواله و هذا هو العصمة فالخليفة يكون معصوماً، فالنّبي معصومٌ ثمّ أنّ هذا الحكم جارٍ بعد الرّسول أيضاً لوجود الملاك فكلّ من يقوم مقام النّبي بعد موته أيضاً معصوم و حيث أنّ المعصوم لا يعرفه إلاّ اللّه فعلى اللّه أن يعرفه بواسطة الرّسول الّذي ما ينطق عن الهوى و يعبّر عنه بالنّص و لأجل هذه الدّقيقة قال اللّه تعالى مخاطباً و منادياً لرسوله.

يآ أَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَل[٢].

و التّبليغ لا يكون إلاّ من الواسطة بين الخالق و المخلوق فجعل الخليفة من اللّه و إبلاغ المجعول الى الخلق من الرّسول ثمّ أنّ اللّه تعالى تفرّع على جعل الخليفة الحكم بين النّاس بالحقّ فالكلام يدلّ بمفهومه على أنّ الحاكم بغير الحقّ، ليس خليفةً له تعالى ثمّ أمر اللّه الخليفة بعدم متابعة الهوى في الحكم إذ في متابعة الهوى السقّوط الى الرّدى و لذلك قال فيضُّلك عن سبيل اللّه و من ضلَّ عن سبيل اللّه فله عذابٌ شديدٌ يوم القيامة و هذه المفاسد كلّها من ثمرات متابعة الهوى و الحكم بالباطل و تفصيل الكلام في القضاء موكول الىٰ علم الفقه فأنّه متكفّلٌ لبيان شرائط القاضي و كيفيّة القضاء و سائر ما يتعلّق بهذا الباب مفصّلاً.

■

١- البقرة = ٣٠
٢- المائدة = ٦٧

وَ مٰا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰآءَ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلًا ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنّٰارِ ﴿۲۷﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا ٱلصّٰالِحٰاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَالْفُجّٰارِ ﴿۲۸﴾ كِتٰابٌ أَنْزَلْنٰاهُ إِلَيْكَ مُبٰارَكٌ لِيَدَّبَّرُوٓا اٰيٰاتِهِ وَ لِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ ﴿۲۹﴾ وَ وَهَبْنٰا لِداٰوُدَ سُلَيْمٰانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوّٰابٌ ﴿۳۰﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصّٰافِنٰاتُ ٱلْجِيٰادُ ﴿۳۱﴾ فَقٰالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتّٰى تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ ﴿۳۲﴾ رُدُّوهٰا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ ٱلْأَعْنٰاقِ ﴿۳۳﴾ وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ وَ أَلْقَيْنٰا عَلٰى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنٰابَ ﴿۳۴﴾ قٰالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لٰا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهّٰابُ ﴿۳۵﴾ فَسَخَّرْنٰا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخٰآءً حَيْثُ أَصٰابَ ﴿۳۶﴾ وَ ٱلشَّيٰاطِينَ كُلَّ بَنّٰآءٍ وَ غَوّٰاصٍ ﴿۳۷﴾ وَ اٰخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفٰادِ ﴿۳۸﴾ هٰذٰا عَطٰآؤُنٰا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ ﴿۳۹﴾ وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفٰى وَ حُسْنَ مَاٰبٍ ﴿۴۰﴾ وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنٰآ أَيُّوبَ إِذْ نٰادٰى رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطٰانُ بِنُصْبٍ وَ عَذٰابٍ ﴿۴۱﴾ اُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذٰا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ ﴿۴۲﴾ وَ وَهَبْنٰا لَهُۥٓ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ

رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرٰى لِأُولِي ٱلْأَلْبٰابِ ﴿۴۳﴾ وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لٰا تَحْنَثْ إِنّٰا وَجَدْنٰاهُ صٰابِرًا نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُ أَوّٰابٌ ﴿۴۴﴾ وَ ٱذْكُرْ عِبٰادَنٰآ إِبْرٰاهِيمَ وَ إِسْحٰاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي ٱلْأَيْدِي وَ ٱلْأَبْصٰارِ ﴿۴۵﴾ إِنّٰآ أَخْلَصْنٰاهُمْ بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدّٰارِ ﴿۴۶﴾ وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنٰا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيٰارِ ﴿۴۷﴾ وَ ٱذْكُرْ إِسْمٰاعِيلَ وَ ٱلْيَسَعَ وَ ذَا ٱلْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ ٱلْأَخْيٰارِ ﴿۴۸﴾ هٰذٰا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ ﴿۴۹﴾ جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوٰابُ ﴿۵۰﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهٰا يَدْعُونَ فِيهٰا بِفٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرٰابٍ ﴿۵۱﴾ وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرٰابٌ ﴿۵۲﴾ هٰذٰا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ ٱلْحِسٰابِ ﴿۵۳﴾ إِنَّ هٰذٰا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ ﴿۵۴﴾ هٰذٰا وَ إِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ ﴿۵۵﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهٰا فَبِئْسَ ٱلْمِهٰادُ ﴿۵۶﴾ هٰذٰا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّٰاقٌ ﴿۵۷﴾ وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوٰاجٌ ﴿۵۸﴾ هٰذٰا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لٰا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صٰالُوا ٱلنّٰارِ ﴿۵۹﴾ قٰالُوا بَلْ أَنْتُمْ لٰا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنٰا فَبِئْسَ ٱلْقَرٰارُ ﴿۶۰﴾ قٰالُوا رَبَّنٰا مَنْ قَدَّمَ لَنٰا هٰذٰا فَزِدْهُ عَذٰابًا ضِعْفًا فِي ٱلنّٰارِ ﴿۶۱﴾ وَ قٰالُوا مٰا لَنٰا لٰا نَرٰى رِجٰالًا كُنّٰا نَعُدُّهُمْ مِنَ ٱلْأَشْرٰارِ ﴿۶۲﴾ أَتَّخَذْنٰاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زٰاغَتْ عَنْهُمُ ٱلْأَبْصٰارُ ﴿۶۳﴾

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾

◀ اللّغة

كَٱلْفُجَّارِ: الفجّار بضّم الجيم جمع فاجر يقال فجر فجوراً فهو فاجر و الفجر في الأصل شقّ الشّئ و الفجور شقّ ستر الدّيانة.

ٱلصَّٰفِنَٰتُ: جمع صافنة يقال صفن الخيل إذا قامت على ثلاث مع رفع رجل واحدة يكون طرف الحافر على الأرض.

ٱلْجِيَادُ: بكسر الجيم السُّراع من الخيل.

فَطَفِقَ: أي شرع.

ٱلْأَعْنَاقِ: جمع عنق.

فَتَنَّا: الفتنة الإختبار.

أَنَابَ: الإنابة الرّجوع.

رُخاء: بضّم الرّاء السُّرعة و قيل ليّنة.

أَصَابَ: أراد.

غوّاص: مبالغة في الغوص يقال غاص في الماء إذا نزل فيه.

ٱلْأَصْفَادِ: جمع صفاد و هو الغُّل.

مَآبٍ: المأب المرجع.

نُصْبٍ: جمع نصب و هو التَّعب و المشّقة.

أُرْكُضْ: الرَّكض الدَّفع و منه ركض الفرس لإسراعه.

ضِغْثًا: الضِّغث ملأ الكَّف من الحشيش.

نَفَادٍ: النِّفاد الإنقطاع.

وَغَسَّاقٌ: بفتح الغين ما يسيل من صديد أهل النّار، و قيل هو القيح.

صَالُوا: أي لازموا.

◀ الإعراب

إِذْ عُرِضَ يجوز أن يكون ظرفاً لأوّاب، و أن يكون العامل فيه، نعم، و أن يكون التّقدير أذكر حُبَّ ٱلْخَيْرِ مفعول أحببت ذِكْرِ رَبِّي مضاف إلى المفعول رُدُّوهٰا الضّمير للجياد مَسْحًا مصدر في موضع الحال جَسَداً مفعول، ألقينا تَجْرِي حال من الرّيح و رُخاء حال من الضّمير في تجري حَيْثُ ظرف له بِغَيْرِ حِسٰابٍ حال من الضّمير في أمنن أو في، أمسك وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنٰا لَزُلْفىٰ إسم، أنّ و الخبر، له، و العامل في، عند، الخبر بِخٰالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدّٰارِ قيل هاهنا من إضافة الشّيئ إلى ما يبنيّه لأنّ الخالصة قد تكون ذكرى و غير ذكرى و ذكرى مصدر و على هذا فتكون خالصة بغير تنوين و قرئ بالتّنوين و عليها المصاحف و على هذا فقوله، ذكرى، بدلٌ منها، أو هو في موضع نصب مفعول خالصة جَنّٰاتِ عَدْنٍ بدل من، حسن مأب ٱلْأَبْوٰابُ فاعل مفتحّةً مُتَّكِئِينَ حال من المجرور في، لهم و العامل مفتّحة و قيل حال من المتّقين مٰا تُوعَدُونَ بالياء على الغيبة مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ الجملة حال من الرّزق.

◀ التّفسير

وَ مٰا خَلَقْنَا ٱلسَّمٰاءَ وَ ٱلْأَرْضَ وَ مٰا بَيْنَهُمٰا بٰاطِلًا ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ ٱلنّٰارِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية أنّه لم يخلق السّماء و الأرض و ما بينهما من أصناف الموجودات باطلاً عاطلاً و فيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى حكيمٌ و الحكيم من يضع الشّيئ في موضعه و لا يخلق موجوداً عبثاً لا نفع في وجوده و لا يتّرتب أثرٌ في خلقه و هذا حكمٌ عقلّي لا خلاف فيه عند العقلاء ألا ترى أنّهم يستدلّون من الأثر على المؤثّر فإذا كان الشّيئ باطلاً فهو كاشف عن بطلان مؤثّره و اللّه تعالى هو الحقّ بقولٍ مطلق فكيف يكون أثره و فعله باطلاً و اذا لم

يكن باطلا فهو حقّ اذ لا واسطة بين الحقّ و الباطل فأنّهما نقيضان لا يجتمعان و لا يرتفعان فكلّ حقٍّ ليس بباطلٍ و بالعكس.

إن قلت ألستم تقولون أنّ كلّ ما سوى اللّه باطلٌ و الحقّ منحصرٌ بذاته كان كذلك فكيف نفي البطلان عن السّموات و الأرض و ما بينهما.

قلت لا منافاة بين أن يكون الموجود بإعتبار ذاته باطلاً بمعنى أنّه لا بقاء له و كلّ ما لا بقاء له فهو باطل في حدّ ذاته، و أن يكون بإعتبار الأثار المترتبة على وجوده حقّاً فقولنا جميع ما سوى اللّه باطل معناه أنّه باطل بذاته إذ كلّ من عليها فان، لا أنّه باطل بإعتبار الأثار ألا ترى أنّ النّبي مثلاً بإعتبار ذاته باطل لأنّه مسبوق بالعدم و ملحوقٌ به أيضاً فلا لقاء له و أمّا بإعتبار الأثار المتّرتبة على البعثة أعني بها إرشاد الخلق فهو حقٌّ بلا شكّ و هكذا غيره من الموجودات إذ لا مخلوق في العالم إلاّ و له أثر و نفعٌ بل أثارٌ كثيرة و قد يحكم على الشّئ بإعتبارين فيختلف الحكم فكلّ مخلوقٍ بإعتبار أنّه مخلوق للّه تعالى و الخالق الحكيم لا يفعل عبثاً فهو حقّ و بإعتبار ذاته باطل إذ لا بقاء له و ما نحن فيه من هذا القبيل فنفي البطلان يرجع إلى نفي الأثار و الغرض من الإيجاد لا إلى ذوات المخلوق و أن شئت قلت كلّ موجودٍ بإعتبار تعلّقه بالرّب حقٌّ إذ لو لم يكن حقّاً لم يخلق و بإعتبار ماهيّته و ذاته باطل.

و أمّا قوله تعالى: **ذٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا** معناه بطلان الأثر و الغرض المتّرتب على الخلق أي أنّهم يظّنون بزعمهم الفاسد عدم ترّتب الغرض من الإيجاد كما قال تعالى: **أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمٰا خَلَقْنٰاكُمْ عَبَثًا وَ أَنَّكُمْ إِلَيْنٰا لا تُرْجَعُونَ**(1) و لذلك هدَّدهم اللّه بالعذاب يوم القيامة لأنّ ظنّهم الفاسد يوجب إنكار الحكمة في فعل الخالق أو أنّهم أنكروا الخالق وكيف كان فهو خروجٌ عن الحقّ وإعراضٌ عن حكم العقل و كيف يكون ذلك و قد قال اللّه تعالى: **وَ مٰا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَ ٱلْاِنْسَ إِلّٰا لِيَعْبُدُونِ**(2) أي ليعرفون الحقّ هذا كلّه مضافاً إلى أنّ القول

١- المؤمنون = ١١٥ ٢- الذاريات = ٥٦

ببطلان الخلق يلزم منه أن لا يكون هناك دينٌ و لا تكليف و لا حساب و لا كتاب و من إعتقد هذا فحقٌّ عليه كلمة العذاب يوم القيامة.

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّالِحَاتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ

لمّا أخبر اللّه تعالى أنّه لم يخلق السّماء و الأرض و ما بينهما باطلاً، قال في هذه الآية على وجه التّوبيخ و التّقريع للكفّار بلفظ الإستفهام، **أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** و أنّما قال ذلك لأنّ لازم قول الكفّار ببطلان الخلق و عدم التكليف و الحساب يوم القيامة، هو أن يكون المؤمن كالمفسد والمتّقي كالفاجر الفاسق إذ المفروض أنّ الخلق باطلٌ عاطلٌ و لا حساب و لا كتاب لا في الدّنيا و لا في الأخرة فلا فرق بين العاصي و المطيع و المؤمن و الكافر و المصلح و المفسد و هكذا و أيُّ ظلمٍ أفحَش و أقبح منه.

كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا ءَايَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ

و التّقدير هذا كتابٌ أنزلناه إليك و المراد به القرأن وصفه بالبركة لأنّه يهدي إلى الحقّ.

و اللاّم فى قوله: **لِيَدَّبَّرُوا، وَلِيَتَذَكَّرَ**، للغاية أو للتعليل فعلى الأوّل معنى الكلام أنّ الهدف والمقصد من إنزال القرأن هو التّدبر و التّذكر بأياته.

علىٰ الثّانى: أنّ التّدبر و التّذكر علّة لنزول القرأن و على التّقديرين فالمعنى واحد ثمّ أنّ في الآية نقاطٌ لا بأس بالإشارة إليها إجمالاً:

الأُولىٰ: أنّ القرأن منزّلٌ من عند اللّه و إليه الإشارة بقوله: **أَنْزَلْنَاهُ** و فيه ردٌّ على من أنكر أنّه وحيٌ منزلٌ أو أنّه ليس من كلام اللّه.

الثّانية: في قوله: **مُبَارَكٌ** إشارة إلى ما فيه من الخير و البركة في الدّنيا و الأخرة لمن عمل بما فيه من الأحكام.

الثّالثة: في قوله: **لِيَدَّبَّرُوٓا** إشارة إلى أنّ القارئ ينبغي له التّدبر و التّفكر في أياته و لا يقنع بقراءة الأيات فقط و لذلك أمرنا اللّه تعالى في كثير من الأيات بالتّدبر فيه:

قال اللّه تعالى: **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ**[۱].

قال اللّه تعالى: **أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ**[۲].

الرّابعة: قوله: **وَ لِيَتَذَكَّرَ**، و أنّما أخرَّ التّذكر عن التّدبر لأنّ التّذكر من ثمرات التّدبر و إن شئت قلت التّدبر و التّفكر بمنزلة الأصل و التّذكر فرعٌ عليه فمن لا يتّدبر كيف يتّذكر و إلى التّذكر أيضاً أشير في كثيرٍ من الأيات:

قال اللّه تعالى: **نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَ مَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ**[۳].

قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ**[۴].

قال اللّه تعالى: **فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ**[۵].

قال اللّه تعالى: **كَلَّآ إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ، فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ**[۶].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَ ذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**[۷].

و غيرها من الآيات.

الخامسة: في قوله: **أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ** إشارة إلى نقطة خفيّة و هى أنّ الألباب جمع لبّ و هو العقل الخالص من شوائب الأوهام، و من المعلوم أنّ التّذكرة الواقعي لا يحصل لكُلّ من إتّصف بالعقل المعلوم عند العرف بل تحصيل للعاقل الّذي لم يخلط عقله بوهمه فأنّ المتّوهم غير المعقول و هذا هو الفرق بين العقل و اللُّب و لذلك ترى في كثير من الآيات مدح اللّه أولي الألباب:

۱- محمّد = ۲۴
۲- المؤمنون = ۶۸
۳- الواقعة = ۷۳
۴- الحاقة = ۴۸
۵- المُدّثر = ۴۹
۶- المُدّثر = ۵۵ / ۵۴
۷- العنكبوت = ۵۱

قال اللّه تعالى: **وَ لَكُمْ فِى ٱلْقِصٰاصِ حَيٰوةٌ يٰآ أُولِى ٱلْأَلْبٰابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**[۱].

قال اللّه تعالى: **وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلّآ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ**[۲].

قال اللّه تعالى: **يَقُولُونَ اٰمَنّٰا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنٰا وَ مٰا يَذَّكَّرُ إِلّآ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ**[۳].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ٱخْتِلٰافِ ٱلَّيْلِ وَ ٱلنَّهٰارِ لَاٰيٰاتٍ لِأُولِى ٱلْأَلْبٰابِ**[۴].

وَ وَهَبْنٰا لِداٰوُدَ سُلَيْمٰانَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوّٰابٌ

الهبة أن تجعل ملكك لغيرك بغير عوض ففي قوله تعالى: **وَ وَهَبْنٰا** إشارة الى أنّ سليمان كان مملوكاً لمالكه الحقيقي و هو اللّه تعالى ثمّ وهبه اللّه تعالى إلى داوود النّبي بغير عوض و هذا لا يخّتص بشخصٍ خاصّ و موردٍ خاصّ بل حكمٌ يشما جميع الخلق فأنّ المخلوق مملوكٌ لخالقه حقيقتاً و لغيره مجازاً و لذالك نقول أنّ اللّه تعالى مالك السّموات و الأرض و لا مالك في عالم الوجود غيره يتّصرف في خلقه كيف يشاء فلا يسأل عمّا يفعل و هم يسألون، ثمّ أنّه تعالى لمّا أشار فيما مضى إلى قصّة داود النّبي على ما مرَّ بيانه أشار في هذه الآية و ما بعدها إلى قصّة سليمان بن داود فقال: **وَ وَهَبْنٰا** أي أعطينا لداود النّبي إبنه سليمان و وصفه بأنّه نعم العبد كما وصف أبيه و قال: **وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنٰا داٰوُدَ**، و أنّما قال في داود، ذا الأيد، ولم يقل في سليمان ذلك لأنّ اللّه تعالى أعطى داود من القوّة ما قدر به على قتل جالوت على ما مرَّ بيانه سابقاً و قلنا هناك أنّ اللّه تعالى أوحى إلى نبيّهم أشموئيل أنّ جالوت لن يقتل إلاّ بيد محاربٍ قوّيٌ جسمه يوافق درع موسى و هو رجلٌ من ولد لاوي بن يعقوب

۱- البقرة = ۱۷۹
۲- البقرة = ۲۶۹
۳- آل عُمران = ۷
۴- آل عُمران = ۱۹۰

من أبناء راعي يدعى (آشي) و أخبر أشموئيل بذلك طالوت إلى أخر القصّة و قد مرّت في موضعها مفصّلاً:

قال اللّه تعالى: **وَ قَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوٓا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَ نَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَ لَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَيٰهُ عَلَيْكُمْ وَ زَادَهُ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَ ٱلْجِسْمِ**(١).

و لا نعني بالأيد، في الأية، إلاّ زيادة القوّة جسماً، و لأجل ذلك وصف داود بالأيد ولم يصف سليمان به و أمّا في مقام العبوديّة و الطّاعة و الإنقياد للرّب فكانا مشتركين و لذلك قال فيهما، أنّه وابه.

إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ ٱلصَّافِنَاتُ ٱلْجِيَادُ

العشّي أخر النّهار و الصّافنات جمع صافنة و قد إختلفوا في معناها فقال إبن زيد، صفن الخيل قيامها على ثلاث مع رفع رجلٍ واحدة يكون طرف الحافر على الأرض.

و قال مجاهد صفون الفرس رفع إحدى يديه حتّى يكون على طرف الحافر صفنت الخيل تصفن صفوناً إذا وقعت كذلك قال الشّاعر:

ألف الصّفون فما يزال كأنّه مـمّا يقوم على الثّلاث كثيراً

و قال الأخر:

تركنا الخيل عاكفةً عليه مقلّدةً أعنّتها صفوناً

و قال الفّراء كلّ قائم على ثلاث صافن.

و **الجياد** بكسر الجيم قيل واحدها جواد، و قيل واحدها جود كما يقال مطر جود إذا كان مدراراً نظيره سوط و سياط و قيل أنّها الطّوال الأعناق مأخوذٌ من الجيد و هو العنق لأنّ طول الأعناق من محاسنها إذا عرفت معنى الألفاظ في الآية فنقول:

١- البقرة = ٢٤٧

إختلفوا في المراد بالعرض في قوله: **إِذْ عُرِضَ** فقال قوم أنّ سليمان غزا أهل دمشق و نصيبين فأصاب ألف فرس، و قيل ورثها من أبيه و أصابها أبوه من العمالقة، و قيل خرجت من البحر لها أجنحة فقعد يوماً بعد ما صلّى الأولى على كرسيّه و إستعرضها فلم تزل تعرض عليه حتّى غربت الشّمس و غفل عن العصر أو عن وردٍ من الذِّكر كان له وقت العشّي و تهيبوه فلم يعلموه فإغتّم لما فاته فإستردها و عقرها تقّرباً للّه و بقي مائة فما بقي في أيدي النّاس من الجياد فمن نسلها و قيل لمّا عقرها أبدله اللّه خيراً منها و هى الرّيح تجري بأمره إنتهى ما ذكره في الكشّاف في معنى العرض و العهدة عليه و اللّه أعلم بمراده.

فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوارَتْ بِالْحِجابِ

قيل المراد بالخير في الآية الخيل و العرب تسمّي الخيل الخير و بذلك سمّي زيد الخيل، أي زيد الخير و معنى الآية أنّه أراد أحببت إتّخاذ الخير، أي الخيل، و المعنى أثرت حبّ الخيل على ذكر ربّي أي أنّ هذا الخيل شغلتني عن صلاة العصر حتّى فات وقتها و قال أصحابنا أنّه فاته الوقت الأوّل.

و قال الجبائي أنّه لم يفته الفرض و أنّما فاته ذكرٌ و وردٌ كان يفعله أخر النّهار ففاته لإشتغاله بالخيل و قوله: **حَتَّىٰ تَوارَتْ بِالْحِجابِ** أي توارت الشّمس بالغيبوبة و بعبارةٍ أخرى حتّى غربت الشّمس، و قيل حتّى توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنّها شغلت فكره إلى تلك الحال.

رُدُّوها عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَ ٱلْأَعْناقِ

أي قال سليمان ردُّوها أي ردُّوا الخيل علّي قال بعضهم أنّ سليمان كان له ميدانٌ مستدير يسابق فيه بين الخيل حتّى توارت الخيل عنه أي تغيب عن عينه في المسابقة لأنّ الشّمس لم يجر لها ذكر و لذلك قال ردّوها علّي، فطفق مسحاً، أي فأقبل سليمان تمسحها مسحاً، و ذكروا في معناه وجهين:

أحدهما: أنّه أقبل يمسح سوقها و أعناقها بيده إكراماً منه لها و ليرى أنّ الجليل لا يقبح مثل هذا بخيله، و قيل المسح هاهنا هو القطع أذن له في قتلها.

قال الحسن و الكلبي و مقاتل صلّى سليمان الصّلاة الأولى و قعد على كرسيّه و الخيل تعرض عليه و كانت ألف فرس فعرض عليه تسع مائة فتنّبه لصلاة العصر فإذا الشّمس قد غربت و قامت الصّلاة فقال ردّوها علّي فردّت فعقروها بالسّيف قربةً للّه و بقي منها مائة في أيدي النّاس من الخيل العتاق اليوم فهي من نسل تلك الخيل.

و قال صاحب الكشّاف في معنى فطفق مسحاً، أي يمسح بالسّيف بسوقها و أعناقها يعني يقطعهما يقال مسح علاوته إذا ضرب عنقه، و مسح المسفر الكتاب إذا قطع أطرافه بسيفه و عن الحسن كسف عراقيبها و ضرب أعناقها أراد بالكسف القطع إنتهى.

أقول هذا ما ذكروه في تفسير الآية و به قال أكثر أصحابنا أيضاً في تفاسيرهم و أنظر تفسير التّبيان و المجمع و تفسير القمّي و غيرها و به قال أبو الفتوح الرّازي أيضاً.

و الحاصل أنّ أكثر المفسّرين بل جلّهم فيما رأيناه في تفاسيرهم على ذلك و لكنّ النّفس لا تطّمئن به لوجهين:

أحدهما: أنّ قولهم: **رُدُّوهٰا عَلَيَّ**، أي ردّوا الخيل علّي و قولهم: **حَتّٰى تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ**، أي حتّى توارت الشّمس بالحجاب، و لا نفهم معناه.

أمّا أوّلاً: فلأنّ قوله تعالى: **رُدُّوهٰا عَلَيَّ**، ذكره بعد قوله: **حَتّٰى تَوٰارَتْ بِالْحِجٰابِ**، و سياق الكلام يقتضي أن يكون الضّمير في توارت، و ردّوها، من حيث المرجع واحداً أي ردُّوا ما توارت بالحجاب علّي، فأن كان المحجوب الشّمس فالهاء في ردُّوها راجع إليها و المعنى رُدُّوا، ما توارت بالحجاب علّي هذا ما يقتضيه سياق الكلام.

ثانياً: ما الدّليل على أنّ قوله حتّى توارت بالحجاب، الشّمس و ليس في الآية و قبلها منها عينٌ و لا أثر ماذا كان مرجع الضّمير في ردُّوها، الخيل كما قالوا به فالمستتر في توارت أيضاً الخيل، أي حتّى تواريت الخيل بالحجاب قال سليمان ردُّوها علَّي أي ردّوا الخيل علَّي و محصلّ الكلام أنّ مرجع الضّميرين واحدٌ.

والوَجه الثّاني: أنّ فوت صلاة العصر أو أيّة صلاة كانت من سليمان بن داود لإشتغاله بعرض الخيل عليه يقتضي أن يكون ذنبه أيضاً عليه و كان يجب على سليمان أن يستغفر ربّه كما إستغفر أبوه داود النّبي، و أمّا قتل الخيل فليس دواء الذّنب الصّادر عن المذنب و بعبارةٍ أخرى إن لم يكن هناك ذنبٌ فلم قال سليمان ردُّوها ثمّ قتل الخيل، و إن كان هناك ذنب صدر عن سليمان فما ذنب الخيل أليس هذا من الظُّلم و قد إستَّقل بقبحه العقل و الشّرع و هو من الأنبياء أقبح و أظلم.

و من المعلوم عند العقل و الشّرع أنّ دواء الذَّنب الإستغفار لا قتل تسع مائة حيوان، قولهم كان القتل لأجل التَّقرب إلى اللّه لا يفيد في المقام إذ لم يأمر اللّه تعالى مذنباً بذلك بل أمره بالإستغفار بعد الذّنب كما فعل ذلك داود و قد غفر اللّه له هذا ما خطر ببالي من الإشكال و اللّه أعلم.

و الذّي يقوّي في نفسي في تفسير الآية هو أحد المعنيين.

أحدهما: أنّ نقول، أنّ الخيل لمّا عرضت على سليمان و إشتغل سليمان بالنّظر إليها حتّى فاتت صلاته أو ذكره و علم بذلك بعد غيبوبة الخيل عن نظره قال: **رُدُّوهٰا**، أي ردُّوا الخيل علَّي فلمّا ردّت طفق يمسحها مسحاً بالسُّوق و الأعناق بيده إكراماً منه لها و ليس في الآية ما يدلّ على قتلها و ليس معنى السُّوق و الأعناق القتل، فما ذكره الزّمخشري في الكشّاف و نحن نقلناه عنه في تفسير الآية حيث قال فجعل يمسح مسحاً، أي يمسح بالسّيف بسوقها و

أعناقها يعني يقطعها، ليس بصحيح إذ لم يقل أحد أنّ المراد بالمسح المسح بالسّيف و هو القطع، و ذلك لأنّ المسح يكون باليد لا بالسّيف و منه المسح في الوضوء فعل يقول صاحب الكشّاف إذا قلنا زيدٌ مسح رجله أو رأسه في الوضوء معناه مسح رجله بالسّيف أي قطعه و لا يقول به إلا الجاهل.

قال الرّاغب في المفردات، المسح إمرار اليد على الشّئ و إزالة الأثر عنه و به قال جمع أهل اللّغة نعم لو قال القائل، مسحته بالسَّيف، قالوا هو كناية عن الضَّرب و أنت ترى أنّ الآية فطفق مسحاً، ولم يقل مسحاً بالسّيف، و لا نعلم من أين إستنبط الزّمخشري من كلمة المسح، القطع، و لا تساعده اللّغة أصلاً.

أمّا **السُّوق** بضّم السّين فهو جمع ساقة نحو لابة و لوب و فارة وفور.

قاله الرّاغب في المفردات ثمّ قال، و رجلٌ أسوق و إمرأةٌ سوقاء بنيّة السُّوق أي عظيمة السّاق إنتهى.

و على هذا فمعنى الكلام أنّ سليمان طفق أي شرع يمسح الخيل مسحاً بالسُّوق و الأعناق أي كان يمسح الخيل و عنقها أي كان يمُر يده على ساقها و عنقها إكراماً لها و هذا هو الحقّ و هو المتعارف عند العرف أيضاً فأنّهم إذا أرادوا التّلطف بالخيل يمسحون أي يمّرون يدهم على السّاق و العنق هذا ما فهمناه من ظاهر الآية و ليس فيها ما دَّل على القتل إلاّ ما إستخرجه الزّمخشري من عند نفسه فحاصل الكلام أنّ سليمان بعد ردّ الخيل جعل يتَّلطف بها إكراماً لها فعلى هذا لم يكن هناك قتل الخيل أصلاً.

الثّاني: من المعنيين، أن يكون مرجع الضّمير في قوله: **رُدُّوهٰا** الشّمس التّي توارت بالحجاب أي غابت عن النَّظر و الخطاب في ردُّوها، إلى الملائكة الموكّلين عليها و المعنى ردُّوا الشّمس علّي فصَّلى العصر في وقتها و قد و ردت به رواية.

قال إبن عبّاس سألت عليّاً عن الآية هذه قال عليه السلام فما بلغك فيها يابن عبّاس.

قلت سمعت كعباً يقول إشتغل سليمان بعرض الأفراس حتّى فاتته الصّلاة فقال ردُّوها علَّي يعني الأفراس كوانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها و أعناقها بالسَّيف فقتلها فسلبه اللّه ملكه أربعة عشر يوماً لأنّه ظلم الخيل بقتلها فقال عليٌّ عليه السلام كذب كعب لكن إشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنّه أراد جهاد العدّو حتّى توارت الشّمس بالحجاب فقال بأمر اللّه للملائكة الموكّلين بالشّمس، ردُّوها علَّي، فردّت فصّلى العصر في وقتها و أنّ أنبياء اللّه لا يظلمون و لا يأمرون بالظُّلم لأنّهم معصومون مطهرون إنتهى.

و في كتاب من لا يحضره الفقيه، روي عن الصّادق عليه السلام أنّه قال أنّ سليمان بن داود عرض عليه ذات يومٍ بالعشّي الخيل فإشتغل بالنّظر إليها حتّى توارت الشّمس بالحجاب فقال للملائكة ردُّوا الشّمس علَّي حتّى أصلي صلاتي في وقتها فردُّوها فمسح ساقيه و عنقه و أمر أصحابه الّذين فاتتهم الصّلاة معه بمثل ذلك و كان ذلك وضوءهم للصّلاة ثمّ قام فصّلى فلمّا فرغ غابت الشّمس و طلعت النّجوم و ذلك قول اللّه عزّ وجلّ و وهبنا لداود سليمان إلى قوله و الأعناق إنتهى.

و قال الصّدوق رحمه الله أنّ الجهّال من أهل الخلاف يزعمون أنّ سليمان عليه السّلام إشتغل ذات يوم بعرض الخيل حتّى توارت الشّمس بالحجاب ثمّ أمر بردّ الخيل و أمر بضرب سوقها و أعناقها و قال أنّها شغلتني عن ذكر ربّي، ليس كما يقولون جلَّ نبّي اللّه سليمان عن مثل هذا الفعل لأنّه لم يكن للخيل ذنبٌ فيضرب سوقها و أعناقها لأنّها لم تعرض نفسها عليه ولم تشغله و أنّما عرضت عليه و هى بهائم غير مكّلفة و الصحيح في ذلك ما روي عن

الصّادق أنّه قال سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم... إلى أخر الحديث و قد نقلناه عن كتابه[۱].

وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ وَ أَلْقَيْنٰا عَلٰى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنٰابَ

قال الشّيخ في التّبيان ما هذا لفظه **وَ لَقَدْ فَتَنّٰا سُلَيْمٰانَ** و معناه إختبرناه و إبتليناه و شددنا المحنة عليه **وَ أَلْقَيْنٰا عَلٰى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا** قال إبن عبّاس ألقى شيطانا إسمه صخر على كرسيّه و قال مجاهد كان إسمه آصف، و قال السُّدي كان إسمه خنيفق و كان ملكه في خاتمه يخدمه الجنّ و الشياطين مادام في يده فلمّا أذنب سليمان نزع اللّه منه الخاتم و جعل مع الجنّي فاجتمعت عليه الجنّ و الشياطين، و قيل أنّه كان ذنبه أنّه وطئ في ليلةٍ عدة كثيرة من جواريه حرصاً على كثرة الولد، و قيل كان ذنبه أنّه وطئ إمرأته في الحيض إنتهى كلامه.

و قال الطّبرسي في المجمع في قوله تعالى: **وَ أَلْقَيْنٰا عَلٰى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا** أي و طرحنا عليه جسداً و الجسد الّذي لا روح فيه (ثمّ أناب) سليمان و إختلف العلماء في زلّته و فتنته و الجسد الذّي ألقي على كرسيّه على أقوال:

منها أنّ سليمان قال يوماً في مجلسه لأطّوفن اللّيلة على سبعين إمرأة تلد كلّ إمرأةٍ منهن غلاماً يضرب بالسّيف في سبيل اللّه ولم يقل إن شاء اللّه فطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ إلاّ إمرأة واحدة جائت بشّق ولد رواه أبو هريرة عن النّبي قال ثمّ قال النّبي فوالّذي نفس محمّدٍ بيده لو قال إن شاء اللّه لجاهدوا في سبيل اللّه فرساناً فالجسد الّذي ألقي على كرسيّه كان هذا ثمّ أناب اللّه و فزع إلى الصّلاة و الدّعاء على وجه الإنقطاع إليه سبحانه.

و منها ما روي أنّ الجنّ و الشياطين لمّا ولد لسليمان إبنٌ قال بعضهم أن عاش له ولدٌ لتلقَّين منه ما لقينا من أبيه من البلاء.

و منها أنّه ولد له ولد ميّت جسد بلا روح فألقي على سريره عن الجبائى.

۱- الأحاديث نقلناها عن تفسير نُور الثّقلين ج ۴ ص ۴۵۴ و ۴۵۵

و منها أنّ الجسد المذكور هو جسد سليمان لمرضٍ إمتحنه اللّه تعالى و تقدير الكلام و ألقينا منه جسداً على كرسيّه لشدة المرض فيكون جسداً، منضوباً على الحال إلى أن قال ثمّ أناب أي رجع إلى حال الصحّة إنتهى ما أردنا ذكره.

ثمّ نقل ما نقله صاحب التّبيان و زاد عليه أقوالاً أعرضنا عن ذكرها مخافة الإطناب.

و أمّا غيرهما من مفسري الشّيعة فعن هذين العلمين أخذوا ما أخذوا و نقلوه في تفاسيرهم.

أمّا العامّة فقال صاحب الكشّاف قيل فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة و ملك بعد الفتنة عشرين سنة و كان من فتنته أنّه ولد له إبنٌ فقالت الشّياطين إن عاش لم تنفك من السّخرة فسبيلنا أن نقتله أو نخبله فعلم ذلك فكان يغدوه في السّحابة فما راعه إلاّ أن ألقي على كرسيّه ميّتاً فتنّبه على خطأه في أن لم يتوكّل فيه على ربّه فإستغفر و أناب و تاب إليه.

ثمّ بعد ذلك روي حديث أبي هريره عن النّبي و قد نقلناه عن مجمع البيان و قال في أخر كلامه و هذا و نحوه ممّا لا بأس به و أمّا ما يروى من حديث الخاتم و الشيطان و عبادة الوثن في بيت سليمان فاللّه أعلم بصحّته ثمّ نقل حديث الخاتم و قال حكوا أنّ سليمان بلغه خبر صيدون و هى مدينته في بعض الجزائر و أنّ بها ملكاً عظيم الشّأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر فخرج اليه تحمله الرّياح حتّى أناخ بها بجنوده من الجنّ و الإنس فقتل ملكها و أهاب بنتاً له إسمها جرادة من أحسن النّاس وجهاً فإصطفاها لنفسه و أسلمت و أحبَّها و كانت لا يرقاء دمعها حزناً على أبيها فأمر الشّياطين فمثلوا لها أبيها فكستها مثل كسوته و كانت تغدوا اليها و تروح مع ولادتها يسجدون له كعادّتهن في ملكه فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر الصّورة و عاقب المرأة ثمّ خرج وحده الى فلاة و فرش له الرّماد فجلس عليه تائباً الى اللّه متضرّعاً و كان

له أمّ ولد يقال أمينة إذا دخل سليمان للطّهارة أو لأصابة إمرأة وضع خاتمه عندها و كان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً و أتاها الشّيطان صاحب البحر و هو الّذي دلّ سليمان على الألماس حين أمر ببناء المقدس و إسمه صخر على صورة سليمان فقال يا أمينة خاتمي فتَّختم به و جلس على كرسّي سليمان و عكفت عليه الطّير و الجنّ و الإنس و غير سليمان عن هيّئته فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته و طردته فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته فكان يدور على البيوت يتكفف فإذا قال أنا سليمان حثّوا عليه التّراب و سبُّوه ثمّ عمد الى السماكين ينتعل لهم السَّمك فيعطفونه كلّ يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن في بيته فأنكر آصف و عظماء بني إسرائيل حكم الشيطان و سأل آصف نساء سليمان فقلنّ ما يدع إمرأة منّا في دمها و لا يغتسل من جنابةٍبل نفذ حكمه في كلّ شيءٍ إلاّ فيهنّ ثمّ طار الشيّطان و قذف الخاتم في البحر فأبتلعته سمكة و وقعت السَّمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختّم به و وقع ساجداً و رجع اليه ملكه.

و قيل لمّا إفتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها فقال له آصف إنّك لمفتون بذنبك و الخاتم لا يقّر في يدك فتب إلى اللّه عزّ وجلّ إنتهى ما حكاه في الكشّاف.

ثمّ قال و لقد أبى العلماء المتقنون قبوله و قالوا هذا من أباطيل اليهود و الشّياطين لا يتَّمكنون من مثل هذه الأفاعيل و تسليط اللّه إيّاهم على عباده حتّى يقعوا في تغيير الأحكام و على نساء الأنبياء حتّى يفجروا بهنّ قبيح إنتهى كلامه.

أقول ما ذكره في أخر كلامه من أنّه من أباطيل اليهود متينٌ جدّاً و أنّما قال ذلك لأنّه من المعتزلة و أمّا الأشاعرة فلا ينكرونه لإنكارهم الحسن و القبح العقلّيين و للبحث فيه مقام أخر.

قال بعض المحقّقين هذه الأقوال لا تصح قطعاً لمنافاتها للعصمة الّتي هي من أخصّ صفات الأنبياء ولو صحّ شئ منها لكان الوحي محلّ الشكّ و الإرتياب.

و قد قال أبو حيّان في تفسيره نقل المفسّرون في هذه الفتنة و إلقاء الجسد أقولاً يجب براءة الأنبياء منها يوقف عليها في كتبهم و هى ممّا لا يحلّ نقلها و هي إمّا من أوضاع اليهود أو الزّنادقة و لم يبيّن اللّه الفتنة ما هي و لا الجسد الّذي ألقاه على كرسّي سليمان إلى أخر ما قال و نحن أيضاً نقول هذه الأباطيل ممّا دسّ به أعداء الدّين في الدّين و العقل يحكم بكذب هذه الأساطير الّتي نقلوها في تفاسيرهم و تلقّوها بالقبول و الّذي نقول في تفسير الآية هو أنّ اللّه إختبر نبيّه سليمان كما إختبر داود و غيرهما من الأنبياء بل جميع النّاس و أخبر اللّه تعالى بإلقائه جسداً على كرسّي سليمان و هذا القدر ممّا لا كلام فيه.

و أمّا أنّ الفتنة ما هي و الجسد ما هو فالآية ساكتة عنهما و قد قال رسول اللّه أسكتوا عمّا سكت اللّه عنه.

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِيٓ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْوَهَّابُ

أي قال سليمان ربّ أغفر لي، طلب من اللّه تعالى المغفرة و هو يدّل على الذّنب إجمالاً:

إلاّ أنّ الذّنب في الأنبياء ترك الأولى كما كان في أدم لمكان عصمتهم و يمكن أن يكون المراد بالذّنب الذّنب الإمكاني الّذي هو موجود في كلّ مخلوقٍ من غير إستثناء و ذلك لأنّ المخلوق لا يقدر على معرفة الخالق بالكنه و الحقيقة قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: **ما عرفناك حقّ معرفتك.**

و من المعلوم أنّ العبادة فرعٌ على المعرفة فالعبادة بقدر المعرفة و اذا كانت المعرفة بالكنه محالاً فالعبادة اللائقة بجنابه تعالى محال و هذا هو الذّنب

الإمكاني النّاشئ من القصور لا عن تقصيرٍ و ذنب الأنبياء من هذا القبيل ألا ترى أنّ رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم يقول إنّي لأستغفر اللّه في كلّ يومٍ سبعين مرّة مع أنّه لم يذنب قطّ و بالجملة العبد كائناً من كان قاصراً و مقصّرٌ في جنب خالقه و ذنب الأنبياء من القصور لا عن التّقصير و هو ثابت في جميع الأنبياء.

و أمّا الذّنب النّاشئ عن التّقصير كفعل الحرام و المكروه أم ترك الواجب و المندوب فلا يعقل في حقّ الأنبياء لأنّه يوجب عدم الإعتماد على أقوالهم و أفعالهم و هو ظاهر فالإستغفار في الآية من هذا القبيل ثمّ بعد طلب المغفرة من ربّه قال هب لي أي أعطني ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من بعدي أنّك أنت الوّهاب، قيل معناه ربّه هب لي ملكاً، لا تسلبه عنّي كما سلبته في الدّفعة الأولى و قيل معنى، لا ينبغي، لا يكون، أي لا يكون فوقها سهل و لا جبل أحسن منها، و معنى (من بعدي) دوني، قاله صاحب الكشّاف.

أقول أصل الإشكال في الآية أنّ طلب الملك من النّبي الّذي يكون أزهد النّاس في زمانه بعيدٌ لا يناسب شأنه.

ثانياً: تقييده الملك بما لا ينبغي لأحدٍ من بعده فيه شائبة الشُّح و الضّمن لأنّه لم يرض بأن سأل الملك حتّى أضاف إلى ذلك أن لا يكون لأحدٍ من بعده مثله، و قد أجاب عنه في التّبيان بعد ما نقله ما نقلناه عنه بما هذا لفظه.

قلنا قد ثبت أنّ الأنبياء لا يجوز أن يسألوا بحضرة قومهم ما لم يأذن اللّه لهم في ذلك فعلى هذا لم لا يجوز أن يكون اللّه أعلم سليمان أنّه إن سأل ملكاً لا يكون لغيره كان لطفاً له في الدّين و أعلمه أنّ غيره لو سأل ذلك لم يجب إليه لأنّه يكون مفسدة لغيره و لا صلاح له فيه ولو أنّ أحدنا صرّح بمسألةٍ بهذا الشّرط بأن يقول اللّهم إجعلني أيسر أهل زماني و أرزقني ما لا يساويني فيه أحد إذا كان المصلحة في ذلك لكان جائزاً حسناً ولم يكن منسوباً إلى بخلٍ فلا يمتنع أن يسأل أيضاً مثل ذلك إنتهى.

ثمّ ذكر جوابين غير ما ذكره:

أحدهما: أنّه لايمتنع أن يسأل النّبي عليه السلام بمثل هذه المسألة من غير إذنٍ إذا لم يكن بمحضرٍ من قومه بعد أن يكون الشّرط فيه مقدّراً.

الثّاني: أنّه أنّما سأل أن يكون ملكه معجزة لنبوّته يبيّن بها من غيره ممّن ليس بنبّيٍ و قوله: **لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي**، ممّن أنا مبعوث إليه و لم يرد من بعدي إلى يوم القيامة من التّبيين، و قيل أنّه لا يمتنع أن يكون المراد أنّه سأل ملك الأخرة و ثواب الجنّة الّذي لا يناله المستّحق إلاّ بعد إنقطاع التّكليف و معنى لا ينبغي لأحدٍ من بعدي، لا يستحقّه بعد وصولي إليه أحد من حيث لا يصحّ أن يعمل ما يستحقّ به الثّواب لإنقطاع التكليف إنتهى ما في التّبيان.

أقول هذه الأجوبة لا تحسم مادّة الإشكال، فأنّ أقوى الوجوه هو الوجه الأوّل و هو الّذي إختاره الشّيخ و إرتضاه و قيّد المطلوب بالمصلحة و فيه، أنّ هذا القيد مستدركٌ لا يحتاج إلى الطّلب فأنّ المطلوب إذا لم يكن فيه مصلحة فهو في حيّز المنع طلب أو لم يطلب مضافاً إلى أنّ التّقدير خلاف الأصل، و أمّا من قال، من بعدي، أي ممّن أنا مبعوث إليه و لم يرد من بعدي إلى يوم القيامة، فهو من قبيل التّصرف في اللّغة فأنّ قوله: **بَعْدِي** مطلق و تقييده بالمبعوث إليه خلاف معناه اللُّغوي، و هكذا قول من قال أنّه سأل ملك الأخرة و ثوب الجنّة فأنّ هذا القول مضافاً إلى أنّه يزيد في الإشكال خلاف ظاهر اللّفظ فأنّ الملك ظاهر في ملك الدّنيا.

و أمّا ملك الأخرة فهو مختصّ باللّه تعالى هذا كلّه مضافاً إلى أنّ اولي العظم من الرُّسل كانوا أفضل من سليمان فكيف يطلب ملكاً في الأخرة لا ينبغي لغيره و الحاصل أنّ هذه الوجوه لا يعبأ بها.

و قال صاحب الكشّاف أنّه أراد أن يطلب من ربّه معجزة فطلب على حسب إلفه ملكاً زائداً على الممالك زيادةً خارقة للعادة بالغة حدَّ الاعجاز

ليكون ذلك دليلاً على نبوّته قاهراً للمبعوث إليهم و أن يكون معجزة حتّى يخرق العادات فذلك معنى قوله: **لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي** إنتهى موضع الحاجة من كلامه.

و الجواب عنه أن عظم الملك في الدّنيا لا يعدّ معجزة أصلاً.

ثانياً: لو كان من المعجزات لم يطلبه غيره من الأنبياء و الإشكال في أصل الطّلب و هو باقٍ بحاله فأنّا لم نسمع إلى الآن أنّ الملك و السّلطنة في الدّنيا من المعجزات فكأنّه لم يتّدبر فيما قال و لم يعرف أصل الإشكال كما هو واضح.

و قال بعض المعاصرين من أصحابنا في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه و يدفعه أنّ فيه بسؤالِ ملكٍ يختصّ به لا سؤال أن يمنع غيره من مثل ما أتاه و يحرمه ففرقٌ بين أن يسأل ملكاً إختصاصيّاً و أن يسأل بملكٍ أوتيه إنتهى.

اقول ما ذكره ﷺ في حلّ الإشكال لا يتّم و ذلك لأنّه لم يسأل ملكاً يختصّ به بل سأل ملكاً يختصّ به مقيّداً بمنع الإعطاء لغيره و بعبارةٍ أخرى المسئول عنه هو الإعطاء مقيّداً بعدم الإعطاء بالغير لا الإعطاء المطلق ولو كان المسئول عنه هو الملك المختصّ به بقولٍ مطلق لقال ربّ هب لي ملكاً مع السكوت عن قوله: **لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدى**، أليس الأحد في الآية فكرة وقعت في سياق النّفي و هى تفيد العموم فمعين الآية ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحدٍ من الخلق كائناً من كان إلى يوم القيامة و هذا هو الإشكال فكأنّ المستدلّ زعم أنّ هذا من قبيل حصر الموصوف على الصّفة لا قصر الصّفة على الموصوف مثلاً إذا قلنا أنّما زيدٌ عالمٌ، فهو من حصر الموصوف على الصّفة و اذا قلنا أنّما زيد عالم بمعنى أنّه لا يوجد أحدٌ أعلم منه فهو من حصر الصّفة على الموصوف بسبب قيده.

و محصلّ الكلام هو الفرق بين قولنا ربّ هب لي ملكاً، و قولنا ملكاً لا ينبغي لأحدٍ بعدي فقول المستدلّ أنّ فيه سؤالٌ بملكٍ يختصّ به لا سؤال أن

يمنع غيهر في حيّز المنع إذ في الكلام سؤالٌ بملك يختصّ به مقيّداً يمنع إختصاصه بالغير فلا يمكن أن يقال أنّ إثبات الشّئ لشئٍ لا ينفي ماعده، فأنّ القاعدة ناظرة إلى الشّئ المطلق لا الشّئ المقيّد ضرورة وجود الفرق بين قولنا زيدٌ عالمٌ لا يوجد أحدٌ أعلم منه، ففي المثال الأوّل لا ينفي ماعده.

في الثّاني: ينفي ببركة القيد و ما نحن فيه من قبيل الثّاني إذا أثبت المتكلّم لنفسه ملكاً لا ينبغي أن يوجد لغيره فالمطلوب المقيّد و القيد معاً لا المقيّد و هو الملك فقط مع قطع النَّظر عن القيد هذا ما فهمناه من كلامه و اللّه أعلم بما أراد فأقض ما أنت قاض.

وإعلم أنّي بعد ما تفحصّت التّفاسير من العامّة و الخاصّة لم أجد تفسيراً مقنعاً لقوله تعالى حكايةً عن سليمان، **رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى** فأنّ ما ذكره في تفسير الكلام لا يكفي لرفع الإبهام كما عرفت و لذلك كنت من المتّوقفين في تعيين المراد حتّى وقفت على روايةٍ رواها في كتاب علل الشّرائع فوجدتها كافية شافية لداء الجهل.

روي بأسناده عن علّي بن يقطين قال قلت لأبي الحسن موسىٰ بن جعفر، أيجوز أن يكون نبّي اللّه عزّ و جّل بخيلاً فقال عليه السلام لا، فقلت له فقول سليمان رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى ما وجهه و معناه فقال عليه السلام الملك ملكان، مأخوذٌ بالغلبة والجور و إجبار النّاس.

و ملكٌ مأخوذ من قبل اللّه تعالىٰ كملك آل إبراهيم و ملك طالوت و ذي القَرنَين، فقال سُليمان: رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِى أنّه مأخوذٌ بالغلبة و الجور وإجبار النّاس فسخّر اللّه عزَّ و جلّ له الرّيح تجري بأمره رخاءً حيث أصاب و جعل غدّوها شهراً و رواحها شهراً و سخَّر اللّه عزّ وجلّ له الشّياطين

كلّ بنّاءٍ و غوّاصٍ و علّم منطق الطّير و مكّن في الأرض فعلم النّاس في وقته و بعده أنّ ملكه لا يشبه ملك الملوك المختارين من قبل النّاس و المالكين بالغلبة و الجور فقلت له فقول رسول اللّه، رحم اللّه أخي سليمان بن داود ما كان أبخله فقال عليه السلام لقوله صلى الله عليه وآله وسلم و جهان:

أحدهما: ما كن أبخله بعرضِه و سوء القول فيه.

الوَجه الأخر: يقول صلى الله عليه وآله وسلم ما كان أبخله أن كان أراد ما يذهب إليه الجهّال ثمّ قال عليه السلام قَد و اللّه أوتينا ما أوتي سليمان و ما لم يؤت سليمان و ما لَم يؤت أحد من الأنبياء قال اللّه عزّ وجلّ في قصّة سليمان هٰذا عَطَآؤُنا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسابٍ و قال عزّ وجلّ في قصّة محمّد: وَ مٰآ اٰتيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ مٰا نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا[١] إنتهىٰ.

أقول ما ذكره عليه السلام في تفسير الكلام حقّ لا مرية فيه وبه يندفع الإشكال و الإبهام عن الآية و ذلك لأنّ مجرّد السُّلطة علىٰ النّاس و تمّلك الشّرق و الغرب في الملك بأيّ نحوٍ إتّفق لم يكن منحصراً بسليمان بن داود فأنّ الملك بهذا المعنى قد حصل لغيره أيضاً من الملوك كنمرود و بخت‌نصر من الكفّار داود و ذوالقرنين من المؤمنين.

أمّا ما أعطاه اللّه سليمان لم يقدر أحد بعده يقول هذا مثل سائر الملوك فلا فرق بين الملكين و هذ هو الفرق بينهما و على هذا فقوله لا ينبغي لأحدٍ بعدي، معناه لا ينبغي لأحدٍ بعدي إلى يوم القيامة أن يقول هو كسائر ملوك الأرض و بذلك صار ملكه من المعجزات والحمد للّه ربّ العالمين.

أمّا سيرة سليمان و مدّة حياته و كيفيّة موته و سائر ما يتعلّق بأحواله فقد مرَّ، عند قوله تعالىٰ: **وَ داٰوُودَ وَ سُلَيْمٰانَ إِذْ يَحْكُمٰانِ فِى ٱلْحَرْثِ**[٢].

١- الحَشر = ٧ ٢- الأنبياء = ٧٧

فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ، وَ ٱلشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَ غَوَّاصٍ، وَ ءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ، هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَ إِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حُسْنَ مَآبٍ

أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الأيات إلىٰ ما أعطي سليمان بعد إحابة دعوته بقوله: **رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَ هَبْ لِي مُلْكًا**، فقال تعالىٰ: **فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ**، أي جعلناه تحت إختياره و أمره رخاء حيث أصاب فقوله رخاء، معناه طيّبة سريعة و قيل مطيعة.

و قال الضّحاك و السّدي و الرّخاء اللّينة و هو رخاوة المرور و سهولته، و أيضاً جعل اللّه الشّياطين تحت أمره أي و سخّرنا له الشّياطين كما سخّرنا له الرّيح ثمّ جعل الشّياطين فسمين:

قسم منهم يغوصون في البحار و الأنهار.

و قسمٌ منهم يبنون له الأبينة العجيبة الّتي يعجز النّاس عن الإتيان بمثلها.

و أمّا الغوّاصون منهم في البحار فيستخرجون منها الحلي و غير ذلك.

وَ ءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ إشارة إلىٰ الأشرار منهم، والأصفاد الأغلال، واحدها صفاد و هو الغلّ بضمّ الغين و قال بعضهم السّلاسل تجمع اليدين إلى العنق والصفد العطاء و قوله: **مُقَرَّنِينَ** معناه قرنهم في سلاسل الحديد و قيود الحديد و قال يحيى بن سلام لم يكن يفعل ذلك إلاّ بكفّارهم فإذا أمنوا أطلقهم.

و حاصل الكلام أنّا سَلَّطنا سليمان علىٰ الرِّيح و الشّياطين و هذا ممّا أعطاه اللّه من النّعم كما قال: **هَٰذَا عَطَآؤُنَا** أي هذا الملك و ما يتّبعه من تسخير الرّياح والشّياطين عطاؤنا إلى سليمان.

فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ خاطب اللّه سليمان و قال له هذا عطاؤنا فأعط ما شئت و أمنع ما شئت.

و قال قتادة معناه لا تحاسب على ما تعطي و تمنع يوم القيامة ليكون أهنأ لك و بعبارةٍ أخرى ليس عليك تبعة و قيل معناه أنّا جعلنا الشّياطين تحت قدرتك و إختيارك فأحبس منهم من شئت و إطلق منهم من شئت، ثمّ قال تعالىٰ: **وَ إِنَّ لَهُ،** أي لسليمان، عندنا زلفى، أي قربٌ و منزلة و حسن مأب يعني حسن مرجع بعد الموت و أنّ سليمان بن داود بلغ ما بلغ من القدر و المنزلة عند اللّه لأنّه كان عبداً شكوراً.

وَ ٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ

لمّا أخبر اللّه تعالى عن قصّة داود و إبنه سليمان أشار إلى قصّة أيوب النّبي الّذي إبتلاه اللّه بما لم يبتل أحداً غيره و هو كانما براً عليه، كان أيُّوب من أحفاد إسحاق بن إبراهيم الخليل و لكن من ذرّية عيص، أخي يعقوب و كان سبط نبّي اللّه لوط أي إبن بنته و كان زوجاً لرحمة بنت يوسف الصّديق و قد منحه اللّه سبحانه الكمال و الجمال و القوّة في الجسم و المال بسط اللّه له في الرّزق الوافر حتّى قيل أنّه كان أغنى أهل زمانه و زاده اللّه فضلاً و قدراً بأن إصطفاه نبيّاً و حجّة على خلقه و كان له عشرة أولاد سبع بنات و ثلاثة بنين و كان بارّاً تقّياً رحيماً بالمساكين يكرم البضّيف و يأوي اليتيم و يحمي إبن السّبيل و كان كثير الشُّكر للّه تعالى على نعمه التّي أنعمها عليه إذا عرفت هذا فنقول:

أنّ اللّه تعالىٰ إختبره كما إختبر داود و سليمان و جميع الأنبياء بل و جميع النّاس و إلى ذلك أشار اللّه بقوله: **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَ عَذَابٍ** إذ نادىٰ أيُّوب ربّه إنّي مسّني أي وسوسني الشّيطان بنصب أي بتعب و مشقّةٍ و عذاب، و أمّا كيفيّة القصّة أنّ إبليس اللّعين لمّا لم يتمكّن من إغواءه من الغنى و الثّراء و القوّة و الإقتدار طلب من ربّه أن يُسلّطه على ذهاب أمواله و أرزاقه و ظنَّ أنّه بذلك يخرج عن طاعة ربّه لأنّ المصائب أشدَّ على المرء من أداء الشّكر فسلّطه اللّه رغماً لأنفه و إختباراً لعبده و ليكون حجّة على

بقيّة خلقه فإستعمل إبليس اللّعين في إتلاف جميع أرزاقه من زروع و أنعام بسبب الحرق و النّار ثمّ جاء لأيّوب متمثّلاً بحد غلمانه فوجده قائماً يصلّ فقال له هل تدري يا أيُّوب مالّذي صنع ربّك الّذي إخترته و عبدته بأموالك و أنعامك و إبلك لقد هلكت بأجمعها و أكلتها النّيران و لم يبق لها أثَر و لا خبر و كان إبليس في ذلك الوقت لا يحجب عن السّماء فأجابه أيُّوب بكلّ هدوء و إطمئنان و سكينةٍ و رزينة، صه، أنّها أمواله و رعاته و أنعامه أعارنيه و هو أولى بها حتّىٰ أن شاء تركها و إن شاء نزعها و قديماً وطنّت نفسي و مالي و ما تحت يدي على الفناء فالحمد للّه حين أعطاني و الحمد للّه حين نزع ذلك منّي، أنا خلقت عرياناً من بطن أمّي و عرياناً أعود في التّراب و عرياناً أحشر إلى ربّي تعالى ليس ينبغي لي أن أفرح حين أعارني اللّه ما أعارني و أجزع حين يقبض ما أعاره منّي فهو أولى و أحقّ بما أعطى و أخذ فرجع إبليس اللّعين خائباً خاسراً لم يقدر على إغواءه فطلب من ربّه أن يسلّطه علىٰ ولده فأنّها الفتنة المضلّة الّتي تبذل في سبيلها الأموال و الأرزاق فأجابه اللّه تعالىٰ لذلك رغماً لأنفه و إعلاء لقدر عبده أيُّوب فجاء إلىٰ أيُّوب و قال له يا أيُّوب أو رأيت بنيك كيف عذّبوا و كيف تشقّقت بطونهم و تناثرت أمعائهم فأجابه أيُّوب قائلاً هم عياله و عبيده يفعل بهم ما يشاء و هو أرأف بهم من أبيهم و أمّهم و هو مالكهم يفعل بهم ما يريد و لا يفعل بهم إلاّ ما يصلح لهم، فوقف اللّعين خائباً خاسراً و سأل ربّه أن يسلّطه على جسمه فإبتلاه فجابه اللّه تعالى إلاّ عقله و لسانه ليرى مزيد صبره فيستحقّ مزيد إكرامه و أجره و ليكنون عبرة العابدين و حجّة على المعاندين فتوجّه اللّعين إلى أيُّوب فوجده ساجداً لربّه فنفخ في منخريه نفخة ألهبت جسده و إرتعشت أعضاءه و ظهرت حكّة في بدنه حتّىٰ أصبح لا يقوى على شئٍ ولم يسلم من بدنه عضوٌ إلاّ أصابه المرض و الشّلل و البلاء و العلل إلاّ لسانه فأعرض عنه النّاس و رفضه القريب و البعيد عدا زوجته رحمة بنت

يوسف و لم يكن قد أمن به إلاّ ثلاثة كهول و شابّ فلمّا أصابه ما أصابه يحمد اللّه و يشكره صابراً محتسباً توّهم أولئك الثّلاثة الّذين أمنوا به أنّ ما أصابه من اللّه لذنبٍ أذنبه فأقبلوا عليه عاتبوه و يؤنّبوه و يقولون له تب إلى اللّه يا أيُّوب من الذّنب الّذي عوقبت علهى و أطالوا لومه و عتابه و كان قد حضر معهم الشّاب المؤمن و هكذا لم يزل أيّوب شاكراً لربّه صابراً على بلاءه و إمتحانه و لمّا يئس اللّعين من إغواء أيُّوب جاء إلى إمرأته رحمة الّتي كانت تعمل عند النّاس و تأتي لأيّوب بغذاءه و حوائجه فقال لها و هو في صفة طبيب يداوي المرضى و المصابين أتريدين يا زوجة أيّوب أن يشفى أيُّوب و يعافى من ساعته فطار قلبها فرحاً و أجابته من شدّة سرورها كيف لا أتّمنى شفاء أيُّوب الذّي نبذته النّاس و أعياني أمره و بلاءه فقال لها اللّعين إذهبي إليه بهذه الشّاة و قولي له أن يذبحها بدون أن يذكر إسم اللّه عند ذبحها و يأكل منها فأنّه يشفى و يعافى من ساعته فأخذت رحمة الوديعة الشّاة فرحة مسرورة متيقّنة بشفاء زوجها و خلاصه من بلواه و أتت أيّوب و أخبرته بما جرى لها مع الطّبيب الماهر و قالت له خذ هذه الشّاة و أذبحها كما أمرك الطّبيب و تخلص من فلمّا سمع نبّي اللّه من زوجته رحمة هذه المقالة قال لها أتاك عدُّو اللّه و نفخ فيك ويلك أرأيت ما كنّا فيه من المال و حسن الحال فمن الّذي أعطانيه قالت هو اللّه ربّنا، قال فكم متّعنا به قالت ثمانين سنة قال منذ كم إبتلانا بهذه البلايا قالت منذ سبع سنين و بضعة أشهر، قال أيُّوب ويلك ما عدلت و لا أنصفت ربّك هلاّ صبرت في البلاء مثل ما تنّعمت في الرّخاء واللّه لئن شفاني اللّه عزّ و جلّ لأجلدَّنك مائة جلدة فشرابك و طعامك علّي حرام أن أذوق منّ شيئاً و لا أراك بعد هذا الوقت، فإنصرفت رحمة حزينة كئيبة و ذهبت إلى البلد تلتمس قوتاً فلم تجد شيئاً و كانت الأبواب قد سدّت بأجمعها، أمّا نبّي اللّه أيُّوب فأنّه صعب عليه ما جرى له مع زوجته و كيف غرّها اللّعين إبليس و خاف عليها

أزيد من ذلك في إغواءه فبعد أن طردها و بقي بلا طعام و لا شراب و لا صديق حميم ضاق صدره و هاجت به أحزانه و هومه فخّر للّه تعالىٰ ساجداً يبكي و يقول: **رَبَّهُ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ**[١] فإستجاب اللّه دعـاءه و نودي أرفع رأسك فقد إستجبنا لك فقال تعالىٰ له.

أُرْكُضْ بِرِجْلِكَ هٰذا مُغْتَسَلٌ بٰارِدٌ وَ شَرٰابٌ

فضرب برجله الأرض فنبعت بقدرة اللّه عين ماء صافية و باردة و أمره اللّه أن يغتسل فيها و يشرب منها فلمّا إغتسل و شرب أذهب اللّـه عـنه كـلّ ألم و سقم و داءٍ و بلاءٍ في داخله و ظاهره و عاد إليه شبابه و جماله أحسن و أفضل ممّا كان عليه.

قوله: **أُرْكُضْ** معناه إدفع برِجلك الأرض فالرّكض الدَّفع بالرجّل على جهة الإسراع و منه ركض الفرس لإسراعه إذا دفعه برجله فقال اللّه هذا مغتسل بـاردٌ و شرابٌ.

وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنّٰا وَ ذِكْرٰى لِأُولِى ٱلْأَلْبٰابِ

أخبر اللّه في هذه الأيات بما منَّ عليه زيـادةً عـلى صـلاح جسـمه و زوال ألمه فقال: **وَ وَهَبْنٰا لَهُ أَهْلَهُ** لأنّه لمّا ردَّ عليه أهله كان ذلك هبة منه مُجّددة.

و قوله: **مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ**، أي و وهبنا له مثل أهله دفعةً أخرى أي ضـاعفنا له ماله و أولاده و أزواجه في الدّنيا و قيل هو إخبار عمّا يهبه اللّه في الأخرة.

و قوله: **رَحْمَةً مِنّٰا**، معناه فعلنا به ذلك لرحمتنا إيّاه و ذكرى لأولي الألباب، فيه إشارة إلى أنّ قصّة أيُّوب عبرةٌ لأولي الألباب أي ذوي العقول المسـتقيمة و موعظة للمبتلين بالمصائب في دار الدّنيا و بشـارة للـصّابرين بأنّ الصَّـبر عـلى الشَّدائد له عاقبة محمودة في الدّنيا و الآخرة روي أنّه لمّا أقبلت زوجته رحمة

١- الانبياء = ٨٣

لم تعرفه و تغيّر حالها و جعلت تبكي و تطوف يميناً و شمالاً و تطلب زوجها إلى أن رآها أيُّوب فناداها و سألها ما شأنك متحيّرة يا أمة اللّه فأزدادت بكاءً و قالت أريد ذلك المبتلى أيُّوب و ما أدري ماذا جرى عليه قال لها ما كان منك فقالت هو بعلي و حبيب قلبي فهل رأيته أو تعرف منه شيئاً قال و هل تعرفينه إذا رأيته قالت هو أشبه خلق اللّه بك حين كان صحيحاً قال، أنا أيُّوب الّذي أمرتني أن أذبح الشّاة بأمر إبليس و لا أذكر اللّه عليها وآكُل منها حراماً بخساً و إنّي أطعت اللّه و عصيت الشّيطان فدعوته فرَّد علّي ما ترىٰ ففرحت و شكرت ربَّها على ما أنعم اللّه عليها و على زوجها و شكر اللّه لها صبرها في خدمة زوجها و حسن تبَّعلها و أرجع عليهما جميع ما فقد منهما و أولادهما كما في الآية.

وَ خُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِبْ بِهِ وَ لَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ

قال في المفردات الضّغث قبضة ريحانٍ أو حشيشٍ أو قبضان، و جمعه أضغاث.

قال بعضهم الضّغث قبضة حشيش مختلطة الرّطب و اليابس أمر اللّه نبيّه داوود أن يأخذ بيده ضغثاً أي قبضة ريحانٍ أو حشيش لضرب زوجته دفعةً واحدة و نهاه عن الحنث و هو مخالفة القسم ففعل ذلك ليبرّ يمينه به و إنّما أمره اللّه تعالى لأنّه، أقسم باللّه لئن شفاه اللّه جلدّها مائة جلدة علىٰ ما مَرّ بيانه ثمّ وصفه اللّه بالصّبر و قال إنا وجدناه صابراً نعم العبد، أيُّوب لصبره علىٰ البلاء أنّه أوّاب أي رجاع الىٰ اللّه منقطع إليه.

وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ

قد مرَّ الكلام فيهم سابقاً و قوله: **أُولِي الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ** أي أنهّم كانوا أولي القوّة والعفّة في الدّين، و قيل معناه أولي الأعمال الصّالحة و قيل أولي النّعم في الدّين.

إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ

الإخلاص إخراج كلّ شائبٍ من الشّئ ليس من شكله فهٰؤلاء الأبرار قد أخلصهم اللّه عن الأرجاس و طهّرهم عن الأدناس و رذائل الأخلاق في دار الدّنيا و خصّهم بنعم الجنان في الآخرة بلطفه و إحسانه و المراد بالدّار دار الآخرة أي إنّا خلصناهم لها.

وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ

كأنّه قيل لم أخلصهم اللّه بخالصة ذكرى الدّار، فقال تعالىٰ: **إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ** أي إختارهم اللّه من عباده و الإصطفاء الإختيار و قيل الإصطفاء إخراج الصّفوة من كلّ شئٍ فهم صفوة و غيرهم كدر، و ذلك لما سبق في علمه أنّه يكون منهم من يقوم بأعباء الخلافة و المسارعة إلى الخير.

وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ

أي وأذكر يا محّمد إسماعيل واليسع و ذالكفل بمثل ذلك و كلٌّ أي كلّهم من الأخيار الّذين يفعلون الأفعال الكثيرة الحسنة، ثمّ أنّ اليسع بفتح الياء و السّين و سكون العَين كان تلميذاً لنبّي اللّه إلياس فحين قاربه الأجل دعىٰ اليَسعَ و جعله خليفة لبقايا بني إسرائيل و كساه ردائه فأفاض اللّه تعالى على اليسع شرف النّبوة و مدَّ في رسالته إلى غير بني إسرائيل فصار نبّياً و رسولاً إلىٰ سائر الأقوام و من معجزاته المشي على الماء و إحياء الموتى و براء الأكمه و الأبرص كما كان يفعل عيسىبن مريم.

أمّا ذا الكفل، فقد إختلفوا في أمره من جهاتٍ شتّىٰ و هذا لا يضُر بنبوّته بعد نصّ القرآن قيل كان إسمه عويد بن أديم و كان يقضي بين داوود و يروى أنّه كان من بلاد حضرموت و كان عبداً صالحاً فمنحه اللّه تعالى نعمة النُّبوة و يروى أنه أرسل إلى أرض الرُّوم فآمنوا به و صدّقوه و أتّبعوه و يروى أنّ سبب

تسميتهم الرُّوم لإنتسابهم إلى جدّهم روم بن عصير بـن إسحاق بـن إبـراهـيم الخليل و قام بالأمر بعده داود النّبي واللّه أعلم.

هٰذٰا ذِكْرٌ وَ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ

أي هذا الّذي ذَكرناه لك من أوصاف الأنبياء عليهم السّلام، ذكر، أي شرفٌ لهم و ذكرٌ جميل و ثناءٌ حسن في الدّنيا و أنّ للمتّقين لحسن مآب يعني حسن المرجع في الآخرة ثمّ بيَّن اللّه تعالىٰ ذلك المآب.

جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ ٱلْأَبْوٰابُ

أي أنّ أبواب الجنَّة لهم مفتَّحة و وضعها بكونها جنّات عـدنٍ لأنّـها مـوضع إقامةٍ و خلودٍ و فـتح الأبـواب كـناية أو إشـارة إلى عـدم المشـّقة والكـلفة فـي دخولهم فيها.

مُتَّكِئِينَ فِيهٰا يَدْعُونَ فِيهٰا بِفٰاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرٰابٍ

الإتّكاء الإستناد إلى المساند أي أنّ المتّقين يتّكئون فـي الجـنَّة و يسـتندون إلى المساند المعَّدة لهم يدعون فيها، أي في الجنَّة بفاكهة كـثيرة و شـراب، أي يستندون للأكل والشُّرب و الإستراحة في الجنَّة.

وَ عِنْدَهُمْ قٰاصِرٰاتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرٰابٌ

أي نساء قد قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ فلا ينظرن إلىٰ غيرهم و قيل معناه محبوسات على أزواجهنّ.

قال إمرؤ القيس:

مـــن القــاصرات الطّـرف لو دبَّ فـحول
مـــــن الذّر فـــوق الأنب مـــنها لأثّـــرا

و الأتراب الأقران على سنٍّ واحد ليس فيهنّ هرمسة و لا عجوز قيل لا يقال

الأتراب إلاّ في الأناث و التّرب اللّذة و هو مأخوذ من اللّعب بالتُّراب أتراب على مقدار سنّ الأزواج من غير زيادة و لا نقصان.

هٰذا مٰا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ اَلْحِسٰابِ، إِنَّ هٰذا لَرِزْقُنٰا مٰا لَهُ مِنْ نَفٰادٍ

أي هذا الّذي ذكرناه من قولنا: **جَنّٰاتِ عَدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ اَلْأَبْوٰابُ** إلىٰ قولنا: **أَتْرٰابٌ**، ما توعدون ليوم الحساب و هو يوم القيامة و بعبارةٍ أُخرىٰ هذه النِّعم المشار إليها في الأيات هي التّي وعدكم اللّه بها بعد الموت ثمّ أخبر الّـه بدوام النِّعمة في الجنّة فقال أنّ هذا لرزقنا ليس له نفادٌ و زوال و هـذا أي عدم الزّوال هو الأصل فأنّ النِّعم الدُّنيوية في معرض الفناء و الدّثور و ما لا بقاء له لا قيمة له.

هٰذا وَ إِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ

لمّا ذكر اللّه تعالى أوصاف المتّقين في الجنّة و ما أعدّ لهم من النِّعم الباقية التّي لا فناء لها، أخبر في هذه الآية و ما بعدها عن أحوال المجرمين و ما أعدّ اللّه لهم من العذاب فقال: **إِنَّ لِلطّٰاغِينَ لَشَرَّ مَآبٍ**، فقوله هذا معناه هـذا ما ذكرناه لأهل الجنَّة ثمّ قال: **وَ إِنَّ لِلطّٰاغِينَ**، فالواو للإستئناف، و الطّاغين هـم الّذين طغوا في معاصي اللّه و بقوا على كفرهم و فسقهم إلى أن ماتوا و قوله لشرّ مأب، أي لشرّ مرجع يرجعون إليه النّار يوم القيامة فأنّ الطّغيان تجاوز الحَدّ في العصيان فمن عصى اللّه خرج عن حدّ العبودية و تجاوز عو وظيفته المقرّة له من عند خالقه:

قال اللّه تعالى: **فَأَمّٰا مَنْ طَغىٰ، وَ آثَرَ اَلْحَيٰوةَ اَلدُّنْيٰا، فَإِنَّ اَلْجَحِيمَ هِيَ اَلْمَأْوىٰ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ لاٰتَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي**[2].

۱- النّازعات = ۳۷ الى ۳۹ ۲- طه = ۸۱

قال اللّه تعالى: **إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلطَّاغِينَ مَآبًا**[۱] والأيات بهذه المضامين كثيرة.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ

هذه الآية في الحقيقة تفسير للمأب، كأنّه قيل ما المراد بالمأب فقال: **جَهَنَّمَ**، أي مأبهم إلى جهنّم و المهاد و المهد المكان الممهّد الموطّأ و المهد في الأصل ما يتّهيأ للصّبي:

قال اللّه تعالى: **كيف نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا**[۲].

قال اللّه تعالى: **ٱلَّذي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا**[۳].

فقوله تعالىٰ: **فَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ** معناه بئس المكان أو بئس المقرّ ثمّ إنّ في قوله: **يَصْلَوْنَهَا**، نقطة خفيّة و هى أنّ أصل الصّلي لإيقاد النّار يقال صلي بالنّار و بكذا أي بلى بها و إصطلى بها، و صليت الشّاة شويتها فقوله تعالى: **يَصْلَوْنَهَا**، معناه يوقدون النّار فيها بسبب أعمالهم في الدُّنيا ففي الكلام إشارة إلى أنّ جهنَّم و ما فيها من النّار و أنواع العذاب معلول الأعمال كما أنّ الجنّة و مقاماتها أيضاً كذلك فالإنقياد و الطّاعة بذر الجنّة و الكفر و الطّغيان بذر جهنّم و ما فيها من العذاب.

قال اللّه تعالى: **لَا يَصْلَيٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى، ٱلَّذي كَذَّبَ وَ تَوَلَّىٰ**[۴].

قال اللّه تعالى: **حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ**[۵].

قال اللّه تعالى: **اِصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ**[۶].

قال اللّه تعالى: **وَ إِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفي جَحِيمٍ، يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ**[۷] و غيرها من الأيات.

۱– النّبأ = ۲۲ / ۲۱
۲– مريم = ۲۹
۳– الزّخرف = ۱۰
۴– اللّيل = ۱۵ / ۱۴
۵– المجادلة = ۸
۶– يٰس = ۶۴
۷– الإنفطار = ۱۵ / ۱۴

هٰذا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَ غَسّاقٌ

أي هذا الّذي ذكرناه عذاب جهنّم ثمّ أمرهم اللّه بذوق الحميم و الغسّاق أصل الذّواق و إبتداء إدراك الطّعم بالفم و لذلك يقال أذقته فلم أجد له طعماً لما فيه من طلب إدراك الطّعم بالفم و من طلب إدراك الشّئ كان أشدَّ إحساساً به هكذا قيل.

و أمّا **الحَميم** بفتح الحاء الحارّ الشّديد الحرارة، و **الغسّاق** بفتح الغين ما يسيل من صديد أهل النّار و قيل هو القيح الّذي يسيل منهم يجمع فيسقونه و قيل الغسّاق عين في جهنّم يسيل إليها سمّ كلّ ذات جمةٍ من عقرب و حيَّة و قيل هو قيحٌ شديد النَّتن و كيف كان فهما أي الحميم و الغسّاق طعام أهل النّار أعاذنا اللّه منه.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى أنواع العذاب غير ما ذكره فقال: **وَ آخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْواجٌ.**

الأزواج الأمثال و المعنى لهم أنواع أخر من شكل العذاب أي نظيره و هو السلاسل و الأغلال و غيرهما.

هٰذا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ مَعَكُمْ لا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صالُوا النّارِ

الفَوج بفتح الفاء الجماعة المارّة المسرعة، و الإقتحام توسّط شدّةٍ مخيفة يقال قحم الفرس فارسيه توّغل به ما يخاف عليه و قحم فلان نفسه في كذا من غير روّية، لا مرحباً بهم، أي لا إتّسعت منازلهم في النّار، و الرَّحب السِّعة.

قال إبن عبّاس أنّ القادة إذا دخلوا النّار ثمّ دخل بعدهم الأتباع قالت الخزنة للقادة هذا يعني الأنباع فوجٌ و جماعة من النّاس مقتحمٌ معكم أي يدخلون النّار من غير روّيةٍ فأنّ الإقتحام الدّخول بغير روّيةٍ، فقالت القادة لا مرحباً بهم أي لا إتّسعت منازلهم في النّار أنّهم صالوا النّار و موقدوها كما صلَّيناها.

قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَا مَرْحَبًا بِكُمْ أَنْتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ الْقَرَارُ

أي يقول الأتباع في جواب القادة لا مرحباً بكم أنتم قدّمتموه لنا، أي دعوتمونا إلى العصيان فبئس القرار، لنا و لكم النّار.

قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ

هذا قول الأتباع يقولون ربّنا من قدّم لنا هذا، أي من سوّغ هذا و سنّه ودعانا إليه، فزده عذاباً ضعفاً أي مثلاً مضاعفاً إلى مثل ما يستحقّه في النّار.

وَ قَالُوا مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ

أي قال المشركون و هم القادة أمثال أبي جهل و الوليد بن المغيرة و أبي سفيان و معاوية و أمثالهم، ما لنا لا نرى عمّاراً و جناباً و بلالاً و أمثالهم الّذين كنّا نعدُّهم في الدّنيا من الأشرار و هذا في الحقيقة حكاية عمّا يقوله أعداء أهل الحقّ فأنّهم لا يرون أهل الحقّ يوم القيامة لكونهم في الجنّة و أعدائهم في النّار و كانوا يعدُّونهم في الدّنيا من الأشرار.

أَتَّخَذْنَاهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ الْأَبْصَارُ

أي إتّخذناهم سخريّاً، حيث كنّا نعدُّهم من الأشرار فأن كان كذلك أخطأنا فيه، أم زاغت عنهم الأبصار فلم نعلم مكانهم، و الحقّ أنّهم قد فعلوا ذلك، إتّخذوهم سخريّاً، و زاغت الأبصار في الدنيا و يحتمل أن يكون المعنى، أهم معنا في النّار فلا نراهم، و قوله: **سِخْرِيًّا**، بضّم السّين و كسرها فمن كسر السّين جعله من الهزء و الإستهزاء و من ضمّها جعله من التّسخير و قد قرئ بهما.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ

أي أنّ ما ذكرناه و نقلناه عن القادة و الأتباع لحقٌّ تخاصم أهل النّار، و مجادلة بعضهم لبعضٍ، و قيل معناه أي كائنٌ لا محالة.

■

قُلْ إِنَّمآ أَنَا مُنْذِرٌ وَ ما مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللّٰهُ ٱلْواحِدُ ٱلْقَهّارُ ﴿۶۵﴾ رَبُّ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُما ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفّارُ ﴿۶۶﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ﴿۶۷﴾ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿۶۸﴾ ما كانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿۶۹﴾ إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمآ أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿۷۰﴾ إِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿۷۱﴾ فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدِينَ ﴿۷۲﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلآئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿۷۳﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَ كانَ مِنَ ٱلْكافِرِينَ ﴿۷۴﴾ قالَ يآ إِبْلِيسُ ما مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِما خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعالِينَ ﴿۷۵﴾ قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿۷۶﴾ قالَ فَاخْرُجْ مِنْها فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿۷۷﴾ وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ إِلىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿۷۸﴾ قالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيَ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿۷۹﴾ قالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنْظَرِينَ ﴿۸۰﴾ إِلىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿۸۱﴾ قالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۸۲﴾ إِلَّا عِبادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿۸۳﴾ قالَ فَالْحَقُّ وَ ٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿۸۴﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿۸۵﴾ قُلْ مآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مآ أَنَا مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿۸۶﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعالَمِينَ ﴿۸۷﴾ وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿۸۸﴾

◀ اللّغة

نَبَؤٌا: النّبأ الخبر.
بِالْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ: هم الملائكة.
بَشَرًا: البشر مأخوذ من البشرة و هى الجلدة الظّاهرة.
مِنَ ٱلْعَالِينَ: الّذين يعلون على الخلق تجّبراً و تكبّراً.
فَأَنْظِرْنِيٓ: الإنظار الإمهال.
لَأُغْوِيَنَّهُمْ: الإغواء الإضلال و الباقي واضح.

◀ الإعراب

رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ خبر مبتدأ محذوف أي هو، و قيل هو صفة و قيل بدل، إنّما في موضع نصب مِنْ طِينٍ نعتٌ لبشر فَالْحَقُّ في نصبه وجهان:

أحدهما: أنّه مفعول لفعلٍ محذوف أي فأذكر الحّق.

الثّاني: على تقدير حذف القسم أي فبالحّق و الباقي لا خفاء فيه.

◀ التّفسير

قُلْ إِنَّمَآ أَنَا مُنْذِرٌ وَ مَا مِنْ إِلٰهٍ إِلَّا ٱللّٰهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

أي قل يا محّمد لهؤلاء الكفّار، إنّما أنا منذر، أي مخّوفٌ من عتابه بسبب المعاصي، و ما، نافية، أي ليس في عالم الوجود إلهٌ و معبود إلاّ اللّه الواحد القهّار، أي إلاّ اللّه الّذي لا شريك له، و القهّار مبالغة فى القهر و الغلبة أي أنّه غالبٌ على كلّ شئ فلا يقدر أحد على الفرار من حكومته و الخلاص من عقوبته.

رَبُّ ٱلسَّمٰوٰتِ وَ ٱلْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ

أي أنّ اللّه الواحد القهّار هو ربّ السّموات و الأرض أو أنّه يوصف به، و ما بينهما من أصناف المخلوقات من الملائكة و الجّن و الإنس و الجماد و

الحيوان و النّبات ثمّ وصف الرّب بالعزيز الغفّار، أمّا أنّه عزيز لأنّه القادر الغالب على جميع ما سواه و أمّا أنّه الغفّار، إذ لا يغفر الذنب إلاّ هو ففي هاتين الآيتين إشارة إلى أنّ الّذي يستحّق أن يعبد هو الموصوف بهذه الصّفات و من المعلوم أنّ هذه الأوصاف مختصّة به تعالى:

قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ

يعني قل يا محّمد لهؤلاء الكفّار هو أي (القرآن نبأٌ عظيم) إذ فيه جميع ما يحتاج إليه البشر في الدّنيا و الآخرة و بالتّمسك به و العمل بأحكامه تحصل سعادة الدّارين و حلاوة النّشأتين، و قيل المراد بالنّبأ هو يوم القيامة فأنّه يوم عظيمٌ على النّاس.

أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ

الواو للحال أي و الحال أنتم عنه أي عن القرآن و يوم القيامة معرضون، منكرون مستهزؤن بهما.

مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ

في آدم إذ قال اللّه تعالى لهم أي للملائكة **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً**[١] قاله إبن عبّاس و قيل إختصام الملائكة ما كان في طريقة الإجتهاد و قيل بل طريقة إستخراج الفائدة ذكر هذه الوجوه في التّبيان.

و قال بعض المفسّرين قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله وسلّم: سألني ربّي فقال يا محمّد تعلم فيم إختصم الملأ الاعلى قلت لا قال في الكفّارات و الدّرجات قلت و ما الكفّارات قال المشي على الأقدام الى الجماعات و إسباغ الوضوء في السّبرات و التّعقيب في المساجد بإنتظار الصّلاة بعد الصّلاة.

١- البقرة = ٣٥

قلت و ما الدّرجات قال إفشاء السّلام بعد السَّلام و إطعام الطّعام والصّلاة باللّيل والنّاس نيّام.

إِنْ يُوحىٰ إِلَيَّ إِلَّآ أَنَّمآ أَنَا نَذيرٌ مُبينٌ

إن، نافية، أي ليس يوحى إلّي من ربّي إلاّ أنمّا نذيرٌ، أي مخوّفهم من المعاصي مظهرٌ للحقّ، و قيل معناه ليس يوحى إلّي إلاّ الإنذار البّين الواضح و كلمة، أنمّا، تفيد الحصر أي حصر الإنذار فيه، صلى الله عليه وآله وسلم فأنّ الإنذار شأن النّبى.

قال اللّه تعالى: **إِنَّمآ أَنْتَ مُنْذِرٌ وَ لِكُلِّ قَوْمٍ هٰادٍ**[1].

و غيرها من الأيات.

إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنّى خٰالِقٌ بَشَرًا مِنْ طينٍ

كأنّه قيل متى إختصموا و ما كان إختصامهم فقال تعالى: **إِذْ قٰالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنّى خٰالِقٌ** الطّين التّراب و الماء المختلّط و قد يسمّى بذلك و أن زالت منه قوّة الماء، و البشر المراد به الإنسان جسمه لا روحه سمّي به لأنّه مأخوذ من البشرة الجادة الظّاهرة و أنمّا قال بشراً و لم يقل إنساناً لأ نّ الإنسان عبارة عن الجسم و الرُّوح، أو الرُّوح فقط و الرُّوح مجرّدة عن المّادة.

و الحاصل أنّ المخلوق من الطِّين هو هذا الجسم قبل تعلّق الرُّوح به.

فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحي فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدينَ

التّسوية إعتدال الجسم من حيث الأعضاء والنَّفخ نفخ الرّيح في الشّئ و السُّجود الخضوع.

و معنى ألفاظ الآية فإذا سوَّيت جسمه و نفخت فيه أي في الجسم من روحي فأسجدوا له أي إخضعوا في جنب عظمته.

١- الرعد = ٧

و أعلم أنّ الإنسان أعني به هذا الهيكل المحسوس مرّكبٌ من الجسم و الرُّوح و هذا ممّا لا كلام فيه و أيضاً لا خلاف عندهم في أنّ الجسم مادّة و الرُّوح مجرّد عنها ذاتاً فالجسم من عالم الملك و الرُّوح من عالم الملكوت و لازم ذلك أن يكون خلق الجسم في عالم المّادة قبل تعلّق الرُّوح به كما هو شأن المّادة بالنّسبة الى الصُّورة و الى ذلك أشار اللّه بقوله: **فَإِذٰا سَوَّيْتُهُ وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي** حيث قدَّم التَّسوية على التَّعلق و أمّا أنّ الرُّوح ما هي فهو مجهول لنا و لغيرنا و لا يعلم حقيقة الرُّوح إلاّ خالقها.

و أمّا الجسم فليس كذلك و أنّما نسب الرُّوح الى نفسه و قال من روحي، للإشارة الى شرف الرُّوح كما قال تعالى بيتي و عبدي و من المعلوم أنّه لا بيت له و لا يحتاج الى البيت، وفي أمره بسجود الملائكة لآدم بعد نفخ الرُّوح في الجسد لا قبله إشارة الى أنّ الخضوع في الحقيقة كان للرُّوح لا للجسد و حيث أنّ الرُّوح منسوبٌ الى اللّه لشرفه و فضله فيرجع السُّجود الى اللّه تعالى فقوله تعالى: **فَقَعُوا لَهُ سٰاجِدِينَ**، معناه فقعوا للّه ساجدين واقعاً و أن كان السُّجود ظاهراً لآدم.

فَسَجَدَ ٱلْمَلآٰئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ، إِلآّٰ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكٰانَ مِنَ ٱلْكٰافِرِينَ

يعني لمّا أمرنا الملائكة بالسُّجود لآدم بعد نفخ الرُّوح في جسده سجد الملائكة كلّهم له و أطاعوا أمر اللّه، إلاّ إبليس فأنّه إستكبر أي تكبَّر على آدم ولم يسجد له و كان بذلك من الكافرين، إختلفوا في الإستثناء هل هو متصّل، أم منقطعٌ، فمن قال بأنّ إبليس كان من الملائكة.

قال بالإتّصال و من قال أنّه لم يكن منهم قال بالإنفصال.

قال الزّمخشري في الكشّاف فأن قلت كيف إستثنى إبليس من الملائكة و هو من الجنّ.

قلت قد أمر بالسُّجود معهم فغلبوا عليه في قوله فسجد الملائكة ثمّ إستثنى كما يستثنى الواحد منهم إستثناءً متصلاً إنتهى.

أقول ما ذكره الزّمخشري لا بأس به على بعض الوجوه إلاّ أنّه في الحقيقة قولٌ ثالث و ذلك لأنّ القائل بالإتّصال في الإستثناء يقول أنّه كان منهم واقعاً و القائل بالإنفصال يقول بخروجه منهم كذلك.

و أمّا قول بأنّه لم يكن منهم و أنمّا إستثنى في الآية لتغليب الملائكة عليه كأنّه كان واحداً منهم فهو قول ثالث في المقام و قد مرّ الكلام في هذا الباب سابقاً في أوائل الكتاب و نحن قد تكلّمنا في هذا الباب في شرحنا على الخطبة الأولى من كتاب نهج البلاغة مفصّلاً عند قول أميرالمؤمنين عليه السلام حيث قال:

وَاَستَأدَى اللهُ سُبْحٰانَهُ الْمَلاٰئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ، وَعَهْدَ وَصِيَّتِهِ اِلَيْهِمْ: فِى الْاَذْعٰانِ بِالسُّجُودِ لَهُ وَالْخُضُوعِ لِتَكْرِمَتِهِ، فَقٰالَ سُبْحٰانَهُ: اُسْجُدُوا الْآدَمَ فَسَجَدُوا اِلاّ اِبْلِيسَ، اَعْتَرَتْهُ الْحَمِيَّةُ، وَ غَلَبَتْ عَلَيْهِ الشِّقْوَةُ، وَتَعَزَّزَ بِخِلْقَةِ النّٰارِ، وَاسْتَوْهَنَ خَلْقَ الصَّلْصٰالِ الىٰ آخر كلامه... .

و لا يخفى على المتأمل في هذا الكلام الّذي صدر من باب علم الرّسول و زوج البتول و صدّيق الأمّة، أنّ إبليس كان من الملائكة و ذلك لقوله عليه السلام: وَاَسْتَأْدَى اللهُ سُبْحٰانَهُ الْمَلاٰئِكَةَ وَدِيعَتَهُ لَدَيْهِمْ الىٰ آخر ما قال ثمّ إستثنىٰ منهم إبليس بقوله إلاّ إبليس إعترته الحمِّية ألخ.

فلو لم يكن منهم لم يذكر معهم و لا يستثنى منهم و من أراد الوقوف على حقيقة الحال فعليه بالمراجعة بشرحنا الموسوم بمفتاح السّعادة في شرح نهج البلاغة فأنّ المراجع يجد فيه ما لا يوجد في غيره من الشُّروح و كيف كان لا شكّ أنّه إستكبر ولم يسجد لآدم سواء كان من الملائكة أم من الجنّ تعالى: وَ كٰانَ مِنَ اَلْكٰافِرِينَ، فيه إحتمالان:

أحدهما: أنّه أي إبليس كان من الكافرين في علم اللّه ثمّ ظهر كفره في ذلك الوقت.

الثّاني: أنّ الكفر وجد منه بتركه السُّجود و أن لم يكن قبله كافراً لأنّ، كـان، مطلقٌ في جنس الأوقات الماضية فهو صالح لأيّها شئت قاله الزّمخشري.

و يمكن أن يقال، أنّه أي (كان) على الإحتمال الأوّل ناقصة إسمه مستترٌ فيه و على الثّاني تامّة بمعنى وجد و كيف كان فالأمر سهلٌ بعد وضوح المعنى و أنّ ما ذكره الزّمخشري لا ينافي ما ذكرناه.

قَالَ يَآ إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ

أي قال اللّه تعالى لأبليس، ما منعك، ما، إستفهاميّة أي، أيُّ شيٍ منعك من السُّجود لآدم الّذي خلقه بيّدي، أي بقدرتي إستكبرت عليه أم كنت أعلى منه.

لما أبى إبليس من السُّجود لآدم من بين الملائكة قال اللّه تعالى: **يَآ إِبْلِيسُ** أيُّ شيٍ منعك من السُّجود و هذا الإستفهام على وجه التّقريع له و التّقبيح و التّهجين لفعله، و قوله بيدَّي، فهو على المشهور بين القرّاء بالتّثنية، و قرئ في الشّواذ، بدي، على الإفراد بإضافة اليد الى الياء على وصل الهمزة في، إستكبرت.

قال القرطبي قرأ محمّد بن صالح عن شبل عن إبن كثير و أهل مكّة **بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ** موصولة الألف على الخبر و تكون، أم، منقطعة بمعنى، بل، مثل قوله: «أم يقولون إفتراه» أي بل يقولون، و من إستفهم، فأم، معادلة الهمزة الإستفهام، و هو تقريرٌ و توبيخ أي إستكبرت بنفسك حين أبيت السُّجود لآدم أم كنت من القوم الّذين يتّكبرون فتكبَّرت لهذا إنتهى.

أقول هذا كلّه في القراءة، و أمّا المعنى المراد منها.

فقال صاحب الكشّاف ما هذا لفظه فأن قلت.

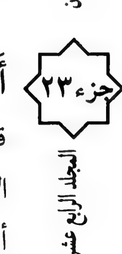

فما معنى قوله: **مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**.

قلت الوجه الّذي إستنكر له إبليس السُّجود لآدم و إستنكف منه أنّه سجود لمخلوق فذهب بنفسه و تكبَّر أن يكون سجوده لغير الخالق و إنضَّم الى ذلك أنّ آدم مخلوق من طينٍ و هو مخلوقٌ من نار و رأى للنّار فضلاً على الطّين فأستعظم أن يسجد لمخلوق مع فضله عليه في المنصب و زلّ عنه أنّ اللّه سبحانه حين أمر به أعزَّ عباده عليه و أقربهم منه زلفى و هم الملائكة و هم أحقّ بأن يذهبوا بأنفسهم عن التّواضع للبشر الضَّئيل و يستنكفوا من السُّجود له من غيرهم ثمّ لم يفعلوا و تبعوا أمر اللّه و جعلوه قدّام أعينهم و لم يلتفتوا الى التّفاوت بين السّاجد و المسجود له تعظيماً لأمر ربّهم و إجلالاً لخطابه كان هو مع إنحطاطه عن مراتبهم حرّيٌ أن يقتدى بهم و يقتفى أثرهم و يعلم أنّهم في السُّجود لمن هو دونهم بأمر اللّه أو ضلّ في عبادته منهم في السُّجود له لما فيه من طرح الكبرياء و خفض الجناح فقيل له: **مٰا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمٰا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** أي ما منعك من السُّجود لشئٍ تقول مخلوق خلقته بيدَّي لا شكّ في كونه مخلوقاً إمتثالاً لأمري و إعظاماً لَخطابي كما فعلت الملائكة فذكر له ما تركه من السُّجود مع ذكر العلّة الّتي تثبت لها في تركه و قيل له لم تركته مع وجود هذه العلّة و قد أمرك اللّه به يعني كان عليك أن تعتبر أمر اللّه و لا تعتبر هذه العلّة و مثاله أن يأمر الملك وزيره أن يزور بعض سقاط الحشم فيمتنع إعتباراً لسقوطه فيقول له ما منعك أن تتواضع لمن لا يخفى علّى سقوطه يريد هلاّ إعتبرت أمري و خطابي و تركت إعتبار سقوطه، و فيه أنّي خلقته بيدَّيَ فأنا أعلم بحاله و مع ذلك أمرت الملائكة بأن يسجدوا له لداعي حكمةٍ دَعاني اليه من أنعامٍ عليه بالتّكرمة السّينة و إبتلاء للملائكة فمن أنت حتّىٰ يصرفك عن السُّجود له ما لم يصرفني عن الأمر بالسُّجود له، و قيل معنى خلقت بيدَّي، خلقت بغير واسطة، و قرئ بيدَّي كما قرئ بمصرّخي، و قرئ بيدي على

التّوحيد **مِنَ ٱلْعَالِينَ** ممّن علوت، فأجاب بأنّه من العالين، حيث قال أنا خير منه، و قيل إستكبرت الأن أم لم تزل منذ كنت من المستكبرين و معنى الهمزة التّقرير و قرئ إستكبرت بحذف حرف الإستفهام أنّ، أم، تدلّ عليه أو بمعنى الإخبار هذا على سبيل الأولى أي لو كان مخلوقاً للنّار لما سجدت له لأنّه مخلوق مثلي فكيف أسجد لمن هو دوني لأنّه من طين و النّار تغلب الطّين و تأكله و قد جرت الجملة الثّانية من الأولى و هي، خلقتني من نارٍ، مجرى المعطوف عطف البيان من المعطوف عليه في البيان و الإيضاح إنتهىٰ كلامه.

و أنمّا نقلناه بطوله لتعلم أنّه كيفَ فسرّ كلام اللّه و هو إمام أهل السُّنة و كتابه عندهم معتمد و تبعه على ذلك من تبعه والّذي إستفدناه من كلامِه ملخّصاً هو أنّه أي صاحب الكشّاف جعل مدار ذنب إبليس على عدم متابعة الملائكة في السُّجود مخالفة الأمر مع أنّ الملائكة كانوا أفضل من آدم فليس خطأ إبليس في إستدلاله بقوله (أنا خيرٌ منه) بل كان خطأه في مخالفة أمر اللّه و لا بدّ لنا من التكلّم و البحث فيما قال و لو على سبيل الإجمال.

أمّا قوله في أوّل كلامه، الوجه الّذي إستنكره إبليس السُّجود لآدم و أستنكف منه أنّه سجود مخلوق فذهب بنفسه و تكَّبر أن يكون سجوده لغير الخالق، ففيه أنّ هذا السُّجود لم يكن سجود عبادة حتّى لا يجوز لغير الخالق بل هو سجود خضوع و خشوع و أن شئت قلت، معناه الإقرار بفضيلة آدم و إبليس كان عارِفاً بأنّ السُّجود بمعنى العِبادة لغير اللّه و لا يأمر اللّه به فكيف ذهب بنفسه أن يكون، سجوده لغير الخالق.

و قوله: «**وأنضّم إلىٰ ذلك أنّ آدَم مخلُوق من طينٍ و هو مخلُوق من نار إلىٰ قوله في المَنصَب**» ففيه أنّ مجرّد كونهما مخلوقين للّه تعالى لا يدلّ على عدم الفضل لأحدهما على الآخر فأنّ نبّي الإسلام كان مخلوقاً للّه تعالى و أبا جهل و أباسفيان و أمثالهما أيضاً أذلك و لا يقاس أبوجهل بالنَّبي أصلاً.

و قوله: «أنّه رآىٰ للنّار فَضلاً علىٰ الطّين يَحتاج إلىٰ الإثبات» و قوله: «وزلَّ عنه أنّ اللّه سُبحانه حينَ أَمَر أعزّ عِباده عليه وهُم الملائكة إلىٰ قوله ثمّ يَفعَلُوا» ففيه أنّ الملائكة لم يكونوا أعزّ عباده على المدَّعي الإثبات بل الأمر بالعكس كما ستعرف في خاتمة البحث و على هذا فلم يكونوا أحَق بأن يذهبوا بأنفسهم عن التّواضع للبشر الضَّئيل.

و قوله: «وتَبَعُوا أَمر اللّه ولَم يَلتفتُوا إلىٰ التّفاوت بين السّاجد والمسجُود» ففيه أنّهم إلتفتوا إلى ذلك بدليل لأنّ، و هو العلم من المعلول إلى العلَّة و ذلك لعلمهم بأنّ اللّه لا يأمر بسجود الفاضل للمفضول لقبحه عقلاً و حيث أنّه أمرهم به علموا أنّ آدم أفضل منهم و إلاّ يلزم تقديم المفضول على الفاضل و هو قبيحٌ و سيأتي الكلام فيه.

و قوله: «كان هُو مَوضَع إنحطاطه عن مَراتِبَهُم حَرَّئ، بأن يُقتَدىٰ بهم ويَقتضي أَثَرهُم» يقال له ما الدّليل على أنّ سجودهم لآدم إنحطاط عن مراتبهم و من أين ثبت ذلك على المستدلّ بل هو أوّل الكلام و نحن نقول سجودهم لآدم كان شرفاً و فضيلة لهم و إرتقاء مقام لهم.

و قوله: «ويَعلَم أنّهم في السُجود لِمَن دُونهم بِأمر اللّه أوَغَل في عِبادته منهم في السُّجود له لِما فيه من طَرح الكِبرياء وخَفض الجِناح» و الجواب عنه قد ظهر ممّا ذكرناه و هو أنّ آدم عليه السلام لم يكن دونهم بل الأمر بالعكس فأيّ طرح للكبرياء و خِفض للجناح و كان سجودهم لآدم من وظائفهم المقرَّرة لهم إذ لو لم يكن ذلك لما أمرهم اللّه به.

و قوله: «فقيل له ما مَنَعك أَن تَسجُد لِما خلقتُ بِيَّدي، أي ما مَنَعك من السُّجود لِشيءٍ هو كما تَقُول مَخلُوق خَلقتُه بِيَدّي لاشّك في كونه مخلوقاً، إمتثالاً لأَمري وإعظاماً لِخطابي كما فَعلت الملائكة إلىٰ قوله لِمَ تَركتَه مع وُجُود هذه العِلَّة» فالجواب عنه أنّ الملائكة علموا بِفضيلة آدم عليهم و لذلك سجدوا و أمّا

إبليس لم يعلم بذلك أو علم و تكّبر و لم يسجد له و كون الأمر علّة أوّل الكلام إذ ليس كلّ أمرٍ يطاع بل الأمر الّذي يجب أن يطاع هو الأمر الواقع على وجهه أعني كونه مطابقاً للعقل و أمّا الأمر بسجود الفاضل للمفضول غير معقولٍ واللّه تعالى لا يأمر به والأمر بالّجود في الآية ليس من هذا القبيل بل الأمر بالسُّجود صدر منه تعالى على وجه المصلحة أعني بها سجود المفضول للفاضل إلاّ أنّ إبليس أبى و أستكبر و زعم أنّه أفضل فعدم إطاعة الأمر كان معلولاً لجهله و تكّبره و أنت تقدر على إستخراج الجواب عن جميع ما ذكره بعد التّأمل فيما ذكرناه و محصّل الكلام أنّ صاحب الكشّاف جعل أساس تفسيره لهذه الآيات الواردة في سجود الملائكة على أصلين فاسدين:

أحدهما: أنّ حمل السُّجود في الآية علىٰ السُّجود المصطلح في الشّريعة أعني به السُّجود للعبادة كالسُّجود في الصّلاة مثلاً مع أنّ الأمر ليس كذلك فأنّ المراد به السُّجود اللّغوي أعني به الخضوع و الخشوع و الإعتراف و الإقرار بشرف المسجود له و أين هذا السُّجود من ذلك.

الثّاني: أنّه زعم أنّ الملائكة أفضل من آدم و مع ذلك أمرهم بالسُّجود لآدم ثمّ بنى تفسير الآية علىٰ هذين الأصلين الافسدين فقال ما قال و وقع فيما وقع، و نحن نشير إلى وجه البطلان فيهما.

فنقول أمّا الأصل الأوّل فلا يحتاج إلى التكلّم فيه لإتّفاق جميع الأديان على تحريم السُّجدة بالمعنى الشّرعي أعني بها السُّجدة للعبادة لغير اللّه تعالى كائناً ما كان و العقل أيضاً يحكم بذلك إذ لا معبود سواه و السُّجدة بهذا المعنى لا تكون إلاّ للمعبود ولبا أظنّ عاقلاً يقول بجوازها لغير اللّه فضلاً عمّن تدّين بدينٍ من أديان اللّه و علىٰ هذا فقول صاحب الكشّاف أنّه أي إبليس إستنكف عن السُّجود لأنّه سجود لمخلوق، لا معنى له فأنّ الشّيطان كان عالماً بأنّ السُّجود بهذا المعنى لا يجوز إلاّ للّه تعالىٰ و كيف يأمر اللّه تعالى ملائكته أن يسجدوا

لآدم سجدَة العبادة أليس هذا من الشِّرك باللّه تعالىٰ و أنّه نهى النّاس عن الشِّرك و توعّدهم عليه بالعذاب الدّائم يوم القيامة فأن أمر الملائكة بالسُّجود لآدم بالمعنى الّذي ذكره صاحب الكشّاف فقد أذن بالشَّرك و أن يعبد غيره و العاقل لا يقول به فضلاً عن ملم والعجب كلّ العجب منه و ممّن تبعه فيه فثبت و تحّقق شرعاً و عقلاً أنّ السُّجوُد المأمور به في الآية لم يكن من سجدة العبادة بل كان المراد به معناه اللُّغوي و هو مجرّد الخضوع في جنب عظمة أدم و الإقرار و الإعتراف بأفضّليتهالمطلوب.

و أمّا الأصل الثّاني و هو أفضَّلية الملائكة فهو أيضاً في حيز المنع و الدّليل عليه من وجوهٍ:

أحدها: ما ذكرناه في معنى السُّجود حيث قلنا أنّ السُّجود كان للخضوع و التَّعظيم للمسجود و لولا كان المسجود أفضل من السّاجد لا يصح السُّجود و لا الأمر به لأنّه أي خضوع الفاضل و تعظيمه للمفضول قبيحٌ عقلاً للزومه تقديم المفضول على الفاضل الّذي يحكم العقل السّليم بقبحه و توضيحه أنّ الأفضلّيه تدور مدارهما فأن كان المسجود أفضل ثبت المطلوب و أن كان السّاجد أفضل يلزم تقديم المفضول على الفاضل و الحكيم لا يأمر بذلك و أنّما قلنا يلزم تقديم المفضول لأنّ مسجوديّته دليل على أفضلّيته على السّاجد و المفروض أنّ السّاجد أفضل و مع ذلك صار مأموراً بالخضوع له و لا نعني بالتّقديم إلاّ هذا.

ثانيهما: أنّ اللّه تعالىٰ حيكمٌ أي يضع كلّ شيئٍ في موضعه و من المعلوم أنّ موضع الفاضل أعلى و أرفع من موضع المفضولَ فلو أمر الفاضل بالخضوع للمفضول وضع الشّئ في غير محلّه و هو خلاف الحكمة.

إن قلت ما الدّليل على كون الفاضل أعلىٰ مقاماً و أرفع شأناً على المفضول.

قُلتُ الدّليل عليه حكم العقل بل هو من المستقلاّت العقليّة الّتي لا يشكّ فيها أحد.

إن قُلت لا نسلّم حكم العقل.

قُلت من لا يسلّم حكم العقل لا بحث لنا معه لخروجه عن مقام الإنسانيّة رأساً.

ثالثها: أنّ الملاك في الأفضّلية عند اللّه هو العبوديّة و الخلوص فيها فأنّ الكافر لا فضل له من هذه الجهة فكلّ من كان أعبد فهو عند اللّه أفضل.

و من المعلوم أنّ العبادة مع وجود الموانع أفضل منها مع عدم المانع و عبادة البشر من قبيل الأوّل و عبادة الملك من قبيل الثّاني و ذلك لأنّ الغضب و الشّهوة و حبّ الأولاد و حبّ الجاه و أمثال ذلك ممّا هو موجود في البشر كلّها من الماونع و في رأس الموانع تسلّط إبليس عليه و الملك بمعزلٍ منها إذ لا شهوة له و لا غَضب و لا أولاد و لا يغرها من الموانع و لا تسَّلط للشّيطان عليه.

و من المعلوم أنّ أفضل الأعمال أحمزها فعبادته للّه تعالى أفضل من عبادة الملك و لا نعني بالأفضل إلاّ هذا هذا كلّه عند اللّه و بحسب الشّرع.

و أمّا عند العرف العوام و الجهّال فالفضيلة تثبت بما لا بحث لنا فيه فعلاً و أنّما الكلام في حكم الشّرع و العقل.

رابعها: أنّ الإنسان مرّكب من الرّوح و الجسم فالجسم بمنزلة المادّة و الرّوح بمنزلة الصُّورة و قد ثبت في العلوم العقليّة أنّ شيئيّة الشّئ بصورته لا بمادّته و على هذا فالإنسان إنسانٌ بروحه لا بجسده و جسمه و نعني بالرُّوح ما نفخ اللّه في جسد أدم و نسبه إلى نفسه و قال، من روحي، و قد يعبّر عنه بالنّفس النّاطقة القدّسية و لا يعلم حقيقتها و ماهيّتها إلاّ اللّه تعالىٰ و هى التّي تكون منشأ لجميع الأثار في الإنسان فإذا فارقت الجسم صار الجسم جماداً لا أثر له أصلاً و جميع القوى تابعٌ لها بل هي في وحدتها كلّ القوىٰ، و هى التّي تكون مظهراً لجميع صفات الجمال من العلم و القدرة و الإرادة و العدالة و التكلّم و الحياة و غيرها و هذه الجامعيّة منحصرة بها بين جميع المخلوق شكّ أنّ أفضل المخلوق أقربه إلى الخالق و أقربه إلى الخالق أجمعه و أكمله لصفاته

تعالى فالإنسان أقرب المخلوقات إليه تعالى و من كان كذلك فهو أفضل ألا ترى أنّ الإنسان في مقام العبودّية يصل إلى مقامٍ يعجز الملك عن الوصول إليه و يقول لو دنوت أنملة لأحترقت، و هذا كلام جبرئيل و هو من الملائكة المقّربين و قد قيل أنّه أفضل الملائكة و اذا كان جبرئيل مع علُّو مقامه بين الملائكة يقول بهذه المقالة، و يقف في مكانه والإنسان يصل إلى مقام أدنى فتدّلى فكان قاب قوسين أو أدنى، فما ظنّك بسائر الملائكة فكيف يقول العاقل العالم بالأخبار و الأثار بأفضّلية الملائكة فالرُّوح التّي نفخ اللّه في جَسَد أدم و صارت سبباً لمزَّيته و شرفه هي هذا و قد ورد في أخبار أئمّتنا أنّ الملائكة خدّامهم و خدّام شعيتهم ولولا مخافة الإطناب و خروجنا عمّا نحن بصدده لقلنا غير ما قلناه فأنّ ما قلناه في الباب كالقطرة في جنب البحر و للبحث فيه مقام أخر مضافاً إلى أنّه ليس كلّ ما يعلم يقال فقد أمر اللّه نبيُّه و قال كلّم النّاس على قدر عقولهم.

و أمّا صاحب الكشّاف فهو من رجال الأدب و اللُّغة و المعني و البيان و أمثال ذلك و ليس من فرسان هذا الميدان، و لذلك لم يعرف الإنسان الّذي أمر اللّه ملائكته بالسُّجود له ولو عرفه لقال سجود الملائكة له شرفٌ لهم لا له هذا كلّه مضافاً إلى أنّ الملائكة كانوا مأمورين بالسُّجود بعد نفخ الرُّوح في جسد أدم فالمسجود في الحقيقة هو الرُّوح المنسوب إلى اللّه و من عظّم المنسوب إلى اللّه فقد عظّم اللّه و من حقّره و أهانه فقد حقَّر اللّه و أهانه و من تكبّر عليه فقد تكبّر علىٰ اللّه فالشّيطان و أن تكبّر ظاهراً على أدم إلاّ أنّه تكبّر علىٰ اللّه واقعاً.

أمّا قوله: **أَمْ كُنْتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ** قال صاحب الكشّاف في قوله: **مِنَ ٱلْعَالِينَ** ممّن علوت وفقت، فأجاب بأنّه من العالين حيث قال أنا خيرٌ منه إنتهىٰ.

و لقائلٍ أن يقول قوله أنا خير يدلّ على تكبّره لا على علُّوه و إلاّ فما الفرق بين التكبّر و العلُّو.

بعبارةٍ أخرى إذ قيل فله لم إستكبرت مثلاً يقول أنا خيرٌ منه و إذا قيل له ممَّن علوت يقول أنا خيرٌ منه و علىٰ هذا فقوله: **مِنَ ٱلْعَالِينَ** زائد في كلامه تعالىٰ مع أنّ ظاهر الكلام أنّ قوله: **مِنَ ٱلْعَالِينَ** بعد كلمة، أم، مقابل قوله: **أَسْتَكْبَرْتَ** بدليل، أم، التّي هي معادلة لهمزة الإستفهام، و يمكن الفرق بين الإستكبار و العلّو بأنّ التكبّر على الخلق غير التكبّر على الحقّ فعن الأوّل يعبّر بالإستكبار.

عن الثّاني بالعلُّو، و يؤيّده قوله تعالى في قصّة فرعون، **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ** و لم يقل إستكبر و يحتمل أن يكون المراد بالعالين، الأنوار التّي خَلَقها اللّه قبل خلق أدم ثمّ جعلها في صلبه و بذلك صار مستحقّاً لأن يكون مسجوداً للملائكة و هى أنوار المعصومين أعيني بهم محمّداً صلّی‌الله‌علیه‌وآله‌وسلّم و أله الطّاهرين و قد وردت الأخبار به واللّه أعلم بما أراد و إلى هذا أشار السّيد الدّاماد قدّس‌سرّه حيث قال في مدح أميرالمؤمنين عليه السّلام بالفارسيّة:

آدم از إقبال تو موجود شد
چون تو خَلف داشت كه مَسجود شد

و من المعلوم عند العقل أنّ خضوع العالي للدّاني لا معنى له فالمعنى إستكبرت علىٰ شخص أدم أم كنت من الّذين يعلون علىٰ أدم في الخلق و كانوا علّة لإيجاده.

قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ

أي قال إبليس في الجواب أنا خيرٌ منه أي من أدم خلقتني من نارٍ مضيئة و خلقته من طينٍ أي التُّراب المختلط بالماء و هذا الكلام من إبليس بمنزلة العلّة لعدم السّجود و توضيح كلامه إجمالاً:

أنّ من خلق من نارٍ مضيئةٍ كيف يسجد لمن خلق من التّراب الذّي لا ضوء له و لا نور و حيث أنّ النُّور أشرف و أفضل من الظُّلمة فكذلك ما خلق من النُّور

أفضل ممّا خلق من الظّلمة و الأفضل لا يسجد أي لا يخضع للمفضول بل الأمر بالعكس هذا محصّل إستدلال إبليس في عدم سجوده لأدم و لم يعلم أنّ التّراب أفضل من النّار لوجوهٍ:

أحدها: أنّ النّار محرقة و التّراب مبقية و الإبقاء خيرٌ من الإحراق كما أنّ الإيجاد خير من الإعدام أمّا إنّ النّار محرقة مفنية فهو ظاهرٌ محسوسٌ.

و أمّا أنّ التُّراب مبقية بل موجدة بأمر اللّه تعالى فلأنّ الحبَّة من الحنطة مثلاً إذا جعلتها تحت التُّراب يحفظها ثمّ ينشئ منها حَبّات كثيرة، و اذا جعلتها في النّار فأنّها تفنيها بالإحراق و لا شكّ أنّ المبّقي بل المكّثر أفضل من المفني فكذا ما خلق منهما و حيث أنّ أدم خلق من ترابا فهو أفضل من إبليس المطلوب.

ثانيها: أنّ النّار خائنة والتُّراب أمينٌ، و الأمانة خير من الخيانة ألا ترى أنّ الكنوز تحت الأرض محفوظة و لذلك كلّ من أراد أن يحفظ ماله يجعله تحت الأرض و لا يجعله في النّار فكلّ مخلوقٍ خلق من النّار خائن و كلّ مخلوقٍ خلق من التّراب أمين، فالتّراب أفضل من النّار و هو المطلوب.

ثالثها: أنّ النّار في طبعها التكبّر و الميل إلى العلُّو، و التّراب في طبعه التَّواضع و لذلك جعل تحت الأقدام و المتواضع خيرٌ من المتكبّر و هكذا المخلوق منهما.

رابعها: أنّ الأنبياء و الأوصياء خلقوا من التّراب و إبليس خلق من النّار و ليس هذا إلاّ لأجل أنّ التّراب أفضل من النّار فأنّ قيمة كلّ شيءٍ بأثارها المترتبة علهيا و لذلك إتّفق العقلاء على أنّ شرف المجود بأثاره و حيث أنّ أثار التّراب خيرٌ من أثار النّار فهو أفضل و هذا أيضاً ظاهر.

خامسها: أنّ اللّه تعالى جعل أرزاق المخلوق المتّصف بالحياة في الأرض، في التّراب فالتُّراب سببٌ لبقاء الإنسان و الحيوان فأنّ المأكولات كلّها من الأرض بل مأكول النّار أيضاً من الأرض و التُّراب و على هذا فالتُّراب خير من

النّار و هكذا المخلوق من التّراب خير من المخلوق من النّار فأنّ الأثر تابع للمؤثّر و الدّلائل الدّالة على المُدّعى كثيرة و فيما ذكرناه كفاية لأولي الألباب فقول إبليس أنا خيرٌ منه خلقتني من نارٍ وخلقته من طين نشأ من جهله وحماقته.

قٰالَ فَاخْرُجْ مِنْهٰا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ، وَ إِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِيَ إِلىٰ يَوْمِ اَلدِّينِ

لمّا أجاب إبليس بما أجاب قال اللّه تعالىٰ: **فَاخْرُجْ مِنْهٰا**، أي من الجنّة.

و قال الحسن من السّماء و المشهور هو قول الأوّل و على هذا فكان إبليس من الملائكة ثمّ أخرج منها لا من الجنّ فأنّ الجنّ لم يكن في الجنّة، و على قول الحسن فهو من الجنّ إذ كونه في السّماء لا إشكال فيه ثمّ أنّ الدّليل على أنّ إبليس كان في الجنّة هو الأيات و الأخبار و لا نحتاج إلى ذكرها، و الرَّجيم المطرود عن الخيرات و عن المنازل الأعلى و الرَّجم الرَّمي فكأنّه رجم برمي الطَّرد و اللّعنم، و أن عليك لعنتي إلى يوم الدّين أي إلى يوم القيامة و هو يوم الجزاء و الحساب.

قٰالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِيَ إِلىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ، قٰالَ فَإِنَّكَ مِنَ اَلْمُنْظَرِينَ، إِلىٰ يَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ

فقال إبليس عند ذلك ربّ فأنظرني، أي أخّرني و أمهلني و الإنظار الإمهال (إلى يوم يُبعثُون) أي يوم يبعثون من القبور و يحشرون للحساب و هو يوم القيامة، فإستجاب اللّه تعالىٰ له. و قال: **فَإِنَّكَ مِنَ اَلْمُنْظَرِينَ، إِلىٰ يَوْمِ اَلْوَقْتِ اَلْمَعْلُومِ** أي إلى يوم البعث المعلوم عندنا، و قيل إلى اليوم الّذي قَدَّر اللّه فيه إماتتك.

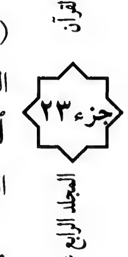

قٰالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلاّٰ عِبٰادَكَ مِنْهُمُ اَلْمُخْلَصِينَ

حكى اللّه تعالى عنه أنّه أقسم و قال فبعزّتك، و قدرتك لأغوينّهم أجمعين، الإغواء الإضلال أي لأضلنّهم إلاّ عبادك منهم المخلصين، إستثنىٰ

إبليس من العباد الّذين أخلصوا عبادتهم للّه تعالىٰ و ذلك لعدم قدرته على إغوائهم كالأنبياء والأوصياء لمكان عصمتهم و أمّا غير هم من النّاس فهو قادرٌ على إغوائهم بلا شكّ و ريبٍ فمن إدّعى غير المعصوم أنّه أمن من شرّه فهو كاذب في قوله و نحن قد تكلّمنا في إبليس و ما يترتّب على وجوده من المصلحة في دار التّكلّيف بما لا مزيد عليه فيما مضى فلا نعيد الكلام فيه حذراً من الإطناب.

قٰالَ فَالْحَقُّ وَ اَلْحَقَّ أَقُولُ، لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ

لمّا قال إبليس فبعزّتك لأغوينّهم أجمعين إلىٰ أخر ما قال أجاب اللّه تعالى له و قال فالحقّ، أي أنا الحقّ و الحق أقول، أي أقول الحقّ لأنّ الحقّ لا يقول إلاّ الحقّ و هو الّذي لا سبيل للبطلان إليه.

لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أي من النّاس أجمعين، و معنى الآية واضح.

قُلْ مٰآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَ مٰآ أَنَا مِنَ اَلْمُتَكَلِّفِينَ، إِنْ هُوَ إِلاّٰ ذِكْرٌ لِلْعٰالَمِينَ، وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ

أي قل يا محمّد لا أسألكم على دعائكم إلى اللّه، أو على تبليغ الوحي من أجرٍ و ما أنا أي لست من المتكلّفين، أي أنّي لا أدعو إلاّ إلى الحقّ الّذي لا تكلّف فيه و لا حرج و كأنّه إشارة إلىٰ قول ﷺ **أنّي بُعثت إلىٰ الشّريعة السّمحة السّهلة**، التّي لا مشقّة فيها، إن هو، إن نافية أي ليس هذا الدّين أو هذا القرأن إلاّ شرفٌ و فضيلة للعالمين **وَ لَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ** أي خبرة بعد حين، أي بعد زمانٍ، قيل عند الموت و قيل يوم القيامة.

و حاصل الكلام أنّ الأنبياء أجر رسالتهم علىٰ اللّه لا على الخلق و لا غرض

لهم في تبليغهم إلاّ إرشاد الخلق إلىٰ ما هو خير لهم في الدّنيا و الأخرة و قد أشار اللّه تعالى به في كثير من الأيات.

قال اللّه تعالى: **قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ**[1].

قال اللّه تعالى: **وَ يَا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللّٰهِ**[2].

قال اللّه تعالى: **يَا قَوْمِ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِيٓ**[3].

قال اللّه تعالى: **قُلْ لَآ أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِي ٱلْقُرْبَىٰ**[4].

و الأيات كثيرة و اذا كان الأمر على هذا المنوال فينبغي للعاقل الإقتداء بالنّبي و الإجتناب عن مخالفته.

■

١- الأنعام = ٩٠
٢- هُود = ٢٩
٣- هُود = ٥١
٤- الشّوریٰ = ٢٣

سُورَةُ الزُّمَرِ

بِسْمِ ٱللّٰهِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنْزِيلُ ٱلْكِتٰابِ مِنَ ٱللّٰهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنّٰآ أَنْزَلْنٰآ إِلَيْكَ ٱلْكِتٰابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللّٰهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلٰا لِلّٰهِ ٱلدِّينُ ٱلْخٰالِصُ وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيٰآءَ مٰا نَعْبُدُهُمْ إِلّٰا لِيُقَرِّبُونٰآ إِلَى ٱللّٰهِ زُلْفىٰ إِنَّ ٱللّٰهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مٰا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللّٰهَ لٰا يَهْدِي مَنْ هُوَ كٰاذِبٌ كَفّٰارٌ ﴿٣﴾ لَوْ أَرٰادَ ٱللّٰهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفىٰ مِمّٰا يَخْلُقُ مٰا يَشٰآءُ سُبْحٰانَهُ هُوَ ٱللّٰهُ ٱلْوٰاحِدُ ٱلْقَهّٰارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمٰوٰاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهٰارِ وَ يُكَوِّرُ ٱلنَّهٰارَ عَلَى ٱللَّيْلِ وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلٰا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفّٰارُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وٰاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهٰا زَوْجَهٰا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعٰامِ ثَمٰانِيَةَ أَزْوٰاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهٰاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلٰاثٍ ذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لٰآ إِلٰهَ إِلّٰا هُوَ فَأَنّٰى

تُصْرَفُونَ ﴿۶﴾ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿۷﴾ وَ إِذَا مَسَّ ٱلْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ ٱلنَّارِ ﴿۸﴾ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ ٱللَّيْلِ سَاجِدًا وَ قَائِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ ﴿۹﴾

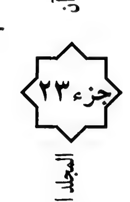

◀ اللّغة

زُلْفَىٰ: أي قربى قال في المفردات الزُّلفة المنزلّة و الخطوة يقال زلفته جَعلتُ له زلفى.

لَاصْطَفَىٰ: الإصطفاء الإختيار.

يُكَوِّرُ: كور الشّيْ إدارته و ضمّ بعضه إلى بعضٍ ككور العمامة.

وَازِرَةٌ: الوزر الثّقل و قد يُعبّر عنه بالاثم.

فَيُنَبِّئُكُمْ: الإنباء الإخبار.

مُنِيبًا: يقال أناب إليه إذا رجع من أبَ يؤب إذا رجع.

خَوَّلَهُ: التّخويل العطيّة العظيمة على جهة الهبة.

أَندَادًا: جمع ندّ بكسر النُّون و هو المثل.

تَمَتَّعْ: أمرٌ من تمتّع و مصدره التَّمتّع و هو الحظّ والنَّصيب.

ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ: ساعاته واحدها آن.

سَاجِدًا: السُّجود الخضوع و الباقي واضح.

◀ الإعراب

تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مبتدأ و مِنَ ٱللَّهِ الخبر و يجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف أي هذا تنزيلٌ و مِن متعلّقة بالمصدر أو حالٌ مِن الكتاب ٱلدِّينَ منصوب بمخلصٍ و مُخْلِصًا حال، و قيل لَهُ ٱلدِّينَ بالرَّفع علىٰ الإستئناف. وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مبتدأ و الخبر محذوف، أي يقولون ما نعبدهم و زُلْفَىٰٓ مصدر أو حال مؤكّدة يُكَوِّرُ حال أو مستأنف رَبُّكُمْ نعت أو بدل و أمّا الخبر فاللّه و لَهُ ٱلْمُلْكُ خبر ثانٍ أو مستأنف مُنِيبًا حال و منه يتعلّق بخوّل أو صفة لنعمة سَاجِدًا وَ قَآئِمًا حالان من الضّمير في، قانت أو من الضّمير في، يحذر.

◀ التّفسير

تَنزِيلُ ٱلْكِتَابِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ

أي هذا تنزيل الكتاب و أجاز الفرّاء و الكسائي، تنزيل الكتاب، بالنَّصب علىٰ أنّه مفعولٌ به أي إتّبعوا تنزيل الكتاب، و الكتاب القرأن و أنّما قال تنزيل الكتاب لأنّ القرأن نزّل من مقام الرُّبوبي على اللّوح المحفوظ، واللّه، علم للذّات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصّفات الكماليّة و لذلك لا يطلق علىٰ غيره تعالى و العزيز الحكيم وصفان لَه لأنّه تعالىٰ عزيزٌ حيكمٌ فيه فعله فأنّه يضع كلّ شيءٍ في موضعه اللائق و الحكيم بقولٍ مطلق لا يطلق على غيره تعالىٰ.

إِنَّآ أَنْزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ

فقوله: **إِنَّآ أَنْزَلْنَآ**، إشارة إلى أنّ القرأن كلام اللّه المنزّل و فيه ردٌّ علىٰ من أنكره و قال أنّه ليس من كلام اللّه و قوله: **بِالْحَقِّ** أي بالصِّدق و ليس بباطلٍ و هزلٍ، أو أنّه لا سبيل للبطلان إليه أبداً فلا يأفل نوره و لا تندرس أحكامه ثمّ أمر نبيّه ظاهراً و جميع أفراد الأمّة واقعاً بالعبادة علىٰ وجه الإخلاص و أنّ الدّين لِلّه خالصاً و ليس لغيره فلا يجوز لأحدٍ تغيير أحكامه و المراد بالخلوص هو خلوص النّية في عبادة اللّه من الشِّرك الخفّي و هو الرّياء فأنّ قيمة العمل بالإخلاص حثَّ اللّه عليه في كثيرٍ من الأيات و لذلك أردف كلامه بقوله:

أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ

و المعنى ألا للّه الدّين الخالِص عن شوب الشّرك جلّيا أو خفّياً، فقوله: **وَ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِٓ أَوْلِيَآءَ**، وهم عبدة الأوثان و الأصنام فأنّهم كانوا يقولون ما نعبدهم أي ما نعبد الأوثان إلاّ ليقرّبونا إلى اللّه زلفىٰ، و قد حكى اللّه عنهم ذلك حيث قال:

وَ يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَ لَا يَنْفَعُهُمْ وَ يَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَآؤُنَا عِنْدَ ٱللَّهِ[1].

و المقصود أنّ من إتّخذ ولّياً أي معبوداً غير اللّه تعالى فقد أشرك في عبادته و دينه و هو ينافي الإخلاص له تعالى و هذا في الشّرك الجلّي واضح لا خفاء فيه إلاّ أنّ الشّرك غير مختصّ به فأنّ الشّرك الخفّي و هو الرّياء في العبادة و العمل فهو أيضاً لا ينافي الإخلاص.

١- يُونس = ١٨

قال بعض السّالكين الإخلاص هو تجريد القصد عن الشّوائب كلّها منزلٌ من منازل الدّين و مقام من مقامات الموقنين و هو الكبريت الأحمر و توفيق الوصول إليه من اللّه الأكبر و لذا ورد في فضيلته ما ورد من الأيات و الأخبار.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ مَآ أُمِرُوٓا إِلَّا لِيَعْبُدُوا ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَ لَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا**[٢].

و في الحديث القدّسي، الإخلاص سرّ من أسراري إستودعته قلب من أحببت من عبادي.

و قال رسول اللّه ﷺ: العمل يجزك منه القليل، و قال ﷺ ما من عبدٍ يخلص العمل للّه تعالى أربعين يوماً إلاّ ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه إنتهىٰ.

و قال ﷺ: ثلاث لا يغلّ عليهنّ وعدَّ منها قلب رجلٍ أخلص العمل للّه.

وقال أميرالمؤمنين عليه السلام: طوبى لمن أخلص للّه العبادة و الدُّعاء و لم يشغل قلبه بما ترى عيناه و لم ينس ذكر اللّه بما تسمع أذناه و لم يحزن صدره بما أعطي غيره إنتهىٰ.

و عن كتاب روضة الواعظين قال أبو عبد اللّه عليه السّلام قال اللّه عزّ وجلّ: أنا خير شريك من أشرك معي في عمل عمله لا أقبله إلاّ ما كان خالصاً إنتهىٰ[٣].

و الحديث الأخير نقلناه عن مشكاة الأنوار[۴].

و أمّا قوله: أنّ اللّه يحكم بينهم يوم القيامة إلىٰ أخر الأية، ففيه إشارة إلى أنّ اللّه تعالى يسأل عباده يوم القيامة ثمّ يحكم بينهم بالعدل.

١- البيّنة = ٥ ٢- الكهف = ١١٠
٣- جامع السّعادات ج ٢ ص ٣٩٧ ۴- ص ١١

و قوله: **إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ**، معناه أنّ الكاذب الكفّار لا يقبل الهداية و الموعظة لخبث ذاته و سريرته لا أنّه لا يرشده إلى الحقّ إتماماً للحجّة عليه و قد تكلّمنا في هذا الباب غير مرّةٍ.

لَوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ

هذه الآية ردٌّ على الكفّار الّذين قالوا أنّ الملائكة بنات اللّه، أو ما يقوله النّصارىٰ من أنّ عيسىٰ إبن اللّه، أو قول اليهود من أنّ عزير إبن اللّه.

فقال تعالىٰ لو أراد اللّه أن يتّخذ ولداً لإصطفى و إختار ممّا يخلق ما يشاء و في قوله: **لَوْ أَرَادَ**، إشارة إلى نقطةٍ خفيّة تستفاد من الشّرط و هي أنّه تعالى لم يرد ذلك لتنزّهه منه ولو أراد ذلك كما يقولون هؤلاء الكفّار لإختار مِن من خلقه ما يشاء فأنّ الخلق بيده لا بيد غيره لا ما إختاره له من الملائكة أو عيسى أو عزير أو غير ذلك فهو كقوله: **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا**[1] و إذ ليس فليس.

و قوله: **هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ**، معناه هو اللّه الواحد الّذي لا شريك له في الملك غالب على كلّ شيءٍ بالقهر و الغلبة.

خَلَقَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَ ٱلْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَ يُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱللَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية و الّتي بعدها عن كمال قدرته و ما أمتنّ به على عباده فبدأ أوّلاً بخلق السّمٰوات والأرض و قال: **خَلَقَ** أي خلق اللّه السّمٰوات بأفلاكها و كواكبها و الأرض بما فيها من الموجودات و أشار إلىٰ

١- الانبياء = ٢٢

تكوير اللّيل على النّهار و بالعكس أي دخول كلّ منهما على صاحبه أي يدخل اللّيل علىٰ النّهار و يدخل النّهار على اللّيل و قيل معنىٰ الكلام أنّه تعالىٰ يلقي هذا على هذا فأنّ التّكوير في الأصل هو طرح الشّئ بعضه علىٰ بعضٍ و منه كوَّر العمامة كما يقال كوَّر المتاع أي ألقى بعضه على بعضٍ و قال إبن عبّاس معناه، ما نقص من اللّيل دَخَل في النّهار و ما نقص من النّهار دخل في اللّيل و هو معنىٰ قوله تعالىٰ: **يُولِجُ ٱللَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَ يُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱللَّيْلِ**[1] و قيل تكويرهما تغشيتهما.

فقوله: **يُكَوِّرُ ٱللَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ** تغشيته إيّاه حتّى يذهب ضوئه و يغشى النّهار على اللّيل فيذهب ظلمته و هو معنى قوله تعالىٰ: **يُغْشِى ٱللَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا**[2].

و أمّا قوله: **وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى** ففيه إشارة إلى عدولهما عمّا قرَّر لهما تكويناً و إلىٰ هذا المعنى أشار اللّه تعالىٰ بقوله:

وَ ٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ، وَ ٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ[3].

و قوله تعالىٰ: **وَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ وَ ٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ**[4].

و قوله تعالىٰ: **وَ سَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَ ٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ**[5].

و أمثالها من الأيات كثيرة و قد مرَّ الكلام فيها فيما مضىٰ و سيأتي الكلام فيما بقىٰ منها.

۱- فاطر = ۱۳
۲- الأعراف = ۵۴
۳- يٰس = ۳۹ / ۳۸
۴- الأعراف = ۵۴
۵- الرَّعد = ۲

و في قوله: **بِالْحَقِّ** إشارة إلى مراعات الحكمة في خلقهما و تسخيرهما تحت قدرة الخالق و أنّ ا لمخلوق مسخّر قطعاً لا يمكن له الفرار من حكومة الخالق و لذلك وصف نفسه، بالعزيز، و هو الغالب على كلّ شيءٍ و الغفّار الّذي يستر الذّنب عن عباده و يغفر لمن رجع إليه بالتّوبة.

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْها زَوْجَها وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعامِ ثَمانِيَةَ أَزْواجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُماتٍ ثَلاثٍ ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لآ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنّىٰ تُصْرَفُونَ

الخلق بفتح خا أصله التّقدير المستقيم و هو يستعمل تارةً في إبداع الشّيء من عير أصلٍ و لا إحتذاء و منه قوله تعالىٰ: **خَلَقَ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضَ** أي أبدعهما بدليل قوله: **بَدِيعُ ٱلسَّمٰواتِ وَ ٱلْأَرْضِ** أي خلق السّموات و الأرض على سبيل الإبداع، و تارةً أخرىٰ يستعمل في إيجاد الشّيء من الشّيء و ما نحن فيه من هذا القبيل كما أنّه قوله خلق السّموات و الأرض في الآية السّابقة من قبيل الأوّل أعني به الخلق الإبداعي ففي الحقيقة أشار اللّه تعالىٰ في هاتين الأيتين إلى أنّ الخلق المطلق له تعالىٰ و أنّما قلنا أنّ ما نحن فيه و هو قوله: **خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ** من قبيل إيجاد الشّيء من الشّيء لأنّ اللّه تعالىٰ خلق آدم و من دونه مِن أولاده و ذرّيته من مادّة و هى التّراب لقوله تعالىٰ:

مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرىٰ (١)

و المراد بقوله تعالىٰ: **مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ** هو آدم على قول جميع المفسّرين، و معنى النَّفس في المقام، الذّات أو الشّخص مثلاً، و ليس المراد بها الرُّوح أو النّفس النّاطقة الإنسانيّة أي خلقكم من شخصٍ واحد و هو آدم و أنّما قلنا ذلك لأنّ البشر لم يخلق من النّفس بل خلق من التّراب بدليل قوله منها خلقناكم.

١- طه = ٥٥

و قوله: **ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا** فالمراد بالزَّوج حوّاء و تأنيث الضّمير في منها، لأنّه راجعة إلى النّفس و المعنى ثمّ خلق اللّه من النّفس الواحدة زوجها و كلمة، ثمّ، تفيد التّأخير في المعطوف و هو كذلك فأنّ حوّاء خلقت بعد أدم و لم يخلقهما اللّه دفعةً واحدة و لذلك عطف خلق حوّاء بضمّ، العاطفة دون الواو و الفاء لدلالة، ثمّ، علىٰ التّأخير كما تقول جائني زيدٌ ثمّ عمروٌ، أي جائني عمرو بعد زمانٍ.

ثمّ أنّ المفسّرين إختلفوا في كيفيّة خَلق حوّاء بعد إتّفاقهم على أنّ أدم خلق من التُّراب فالجمهور منهم على أنّها خلقت من ضلع أدم و هو قول كثيرٍ من أصحابنا أيضاً و قد صرَّح بذلك صاحب الكشّاف و القرطبي و البيضاوي و غيرهم و تبعهم على ذلك غير واحدٍ من الإماميّة و ظاهر الآية يدّل عليه إلاّ أنّ التّأمل في الكلام يتقتضي شيئاً أخر و هو أنّ حوّاء خلقت من فضل طينة أدم لا من ضلعه فأنّ كلمة تفيد التّبعيض أي أنّها خلقت من بعض النّفس أي من بعض مادّة أدم إذ لا معنى لخلقها من ضلع أدم.

فقد روى المجلسي ﷺ في البحار بأسناده عن عمرو أبي المقدام عن أبيه قال سألتُ أبا جعفر عليه السلام من أيّ شيءٍ خلق اللّه حوّاء فقال عليه السلام: أيُّ شيءٍ يقول هذا الخلق قلت يقولون خَلقها من ضلع أدم (من أضلاع أدم) فقال عليه السلام كذبوا يعجزه أن يخلقها من غير ضلعه فقلت جعلت فداك يابن رسول اللّه من أيّ شيءٍ خلقها فقال عليه السلام أخبرني أبي عن أبائه قال قال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم أنّ اللّه تبارك وتعالىٰ قبض قبضته من طينٍ فخلطها بيمينه وكلّتا يديه فخلق منها أدم و فضّلت فضلة من طينٍ فخلق منها حوّاء إنتهىٰ[١].

أقول و على هذا يمكن حمل الأخبار الواردة من أنّها خلقت من ضلع أدم أو

١- ج ٥ ط كمباني ص ٣١

من أضلاعه، على هذا الخبر و هو من حمل المطلق على المقيّد كما هو مقتضى القاعدة و على هذا فالتّقدير فيها، أنّها خلقت من طينةِ ضلعٍ من أضلاعه كما في قولهم في و أسأل القرية أي و إسأل أهل القرية و على هذا فيرتفع و يؤيّده العقل السّليم أيضاً و بعد اللُّتيا و الّتي معنى الكلام خلقكم جميعاً من أدم و هكذا زوجها حوّاء على سبيل التّوالد و التّناسل و هذا ممّا لا كلام فيه.

ثمّ أشار اللّه تعالى إلى خلق الأنعام فقال: **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ** قال الحسن معناه وجعل لكم منها و على هذا فقوله، أنزل، بمعنى، جعل أَو خلق، أي أنزلها بعد أن خلقها في الجنّة و يعني بها، الإبل و البقر و الضّأن والمعز من كلّ صنفٍ أثنين و هما زوجان و به قال قتادة و مجاهد و الضّحاك أيضاً.

و قيل أنزل لكم، أي أعطاكم، و نقل في الإحتجاج عن أميرالمؤمنين عليه‌السلام في قوله تعالىٰ: **وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ ٱلْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ إنزاله ذلك خَلقه إيّاه وهذا هو الحقّ إذ لا معنىٰ لقولهم أنّه تعالىٰ خَلَقها في الجَنّة ثمّ أنزَلها.**

قال في المفردات إنزاله تعالى نعمه و نقمه على الخلق هو إعطاؤهم إيّاها و ذلك إمّا بإنزال الشّئ نفسه كإنزال القرأن و أمّا بإنزال أسبابه كإنزال الحديد و اللّباس و نحو ذلك إنتهىٰ.

أقول و على هذا تكون الأنعام بمنزلة الأسباب لتعيّش البشر كالحديد و اللّباس.

و أنّما قال من الأنعام و لم يقل أنزل لكم الأنعام، لإفادة التّبعيض، و ذلك لأنّ الأنعام تشمل الإبل و البقر و الغنم و غيرها فقال من الأنعام ثمانية أزواج الإبل و البقر و الغنم و الضّأن و المعز لأنّ مدار تعيّش البشر على وجود هذه الأربعة كما هو ظاهر.

وإعلم أنّ الإبل و البقر و الغنم يقال لها النَّعم، و هو أي النِّعم جمع لا واحد له من لفظه و جمع النّعم أنعام يذّكر و يؤنّث و فوائد الإبل و البقر و الغنم ممّا لا يخفى على واحدٍ و لا نحتاج إلى طول الكلام بذكرها و لذلك خصَّها اللّه تعالى بالذِّكر و أنّما قال ثمانية مع أنّها أربعة لأنّ لكلّ واحدٍ منها مؤنّث و هما زوجان فالمجموع ثمانية.

يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ لمّا أشار اللّه في صدر الآية إلى خلق أولاد أدم من نفسٍ واحدة نفس أدم، و أشار ثانياً إلى إعطاء الأنعام أشار إلى كيفيّة خلق أولاد أدم في الأرحام.

فقال: **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ** قال قتادة و السُّدي و غيرهما معناه نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً ثمّ يكسى العظام لحماً ثمّ ينشئ خلقاً أخر و قيل خلقاً من بعد خلقٍ خلقاً في بطون أمهاتكم من بعد خلقكم في ظهر أدم، و قيل معناه، خلقاً في ظهر الأب ثمّ خلقاً في بطن الأمّ، ثمّ خلقاً بعد الوضع.

و قوله: **فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ** يعني ظلمة البطن، و ظلمة الرّحم، و ظلمة المشيمة و قيل صلب الرَّجل و ظلمة الرَّحم هكذا قالوا.

أقول أمّا قوله تعالى: **خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ**، فهو إشارة إلى مراتب التّكون في عالم الرَّحم فأنّه يكون نطفة أربعين يوماً فهذا خلقة الأوّل، ثمّ تصير النُّطفة علقة، و تبقى فيها أربعين يوماً و هذا خلقه بعد الأوّل ثمّ تصير مضغة كذلك ثمّ تكسى العظام لحماً ثمّ تصير حيواناً ثمّ تنفخ الرُّوح فيه فتصير إنساناً و هذه المراتب عبّر عنها بالخلق بعد الخلق و قد أشار اللّه تعالى إلى هذه المراتب حيث قال:

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ

عِظامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْناهُ خَلْقًا اٰخَرَ فَتَبارَكَ ٱللّٰهُ أَحْسَنُ ٱلْخالِقِينَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذٰلِكَ لَمَيِّتُونَ، ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيمَةِ تُبْعَثُونَ[1].

ففي هذه الأيات ذكر مراتب الخلق و القرأن يفسّر بعضه بعضاً، و أمّا قوله تعالى: **فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ** في ظلمة البّطن و ظلمة الرَّحم و ظلمة المشيمة قاله أبو جعفر عليه السلام و إلى هذا المراتب أشار أميرالمؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة حيث قال:

أَمْ هٰذاالَّذِى أَنْشَأَهُ فِى ظُلُمَاتِ الأَرْحَامِ، وَشُغُفِ الأَسْتَارِنُطْفَةً دِهَاقاً، وَعَلَقَةً مِحَاقاً، وَجَنِيناً وَرَاضِعاً، وَوَلِيداً وَيَافِعاً.

ذٰلِكُمُ ٱللّٰهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لآ إِلٰهَ إِلّا هُوَ فَأَنّٰى تُصْرَفُونَ ذلكم، الى جميع ما ذكره اللّه تعالى في الأيتين من خلق السّموات و الأرض الى قوله: **فِي ظُلُمٰاتٍ ثَلاٰثٍ**، أي أنّ الّذي خلق السَّموات و الأرض الى آخر ما ذكره هو اللّه تعالى لا غيره فهو ربّكم و خالقكم له الملك في السَّموات و الأرض و ما فيها من عجائب الخلقة لا إله في الوجود إلاّ هو فأنّى تعرفون، أي فأنّى تؤفكون و كيف تتَّخذون الألهة من الأوثان و الأصنام و تعبدونها و أنتم تعلمون أنّها لا تقدر على إيجاد شئٍ أبداً.

إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَ لا يَرْضٰى لِعِبادِهِ ٱلْكُفْرَ وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَ لا تَزِرُ وٰازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرٰى ثُمَّ إِلٰى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمٰا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذٰاتِ ٱلصُّدُورِ

في هذه الآية مسائل:

الأولى: قوله **إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ ٱللّٰهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ** أي إن تكفروا باللّه و تعبدوا غيره فأنّ اللّه غنّيٌ عن عبادتكم أيّاه و لا يحتاج اليكم و ذلك لأنّ ضدّ الغنى

١- المؤمنون = ١٢ إلى ١٦

الفقر فلو لم يكن غنيّاً فهو فقيرٌ محتاج لعدم الواسطة بين الفقر و الغنى و كلّ فقير محتاج الى غيره و كلّ محتاج ممكن الوجود و كلّ ممكنٍ مخلوق و اللّه تعالى هو الخالق.

ثانياً: الإحتياج الى الغير نقص و كلّ ناقصٍ مخلوق.

ثالثاً: الفقر و الإحتياج الضَّعف و كلّ ضعيفٍ مقهورٌ، و اللّه تعالى غالبٌ على كلّ شيءٍ.

قال اللّه تعالى: **يٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنْتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللّٰهِ وَ ٱللّٰهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ**[١].

الثّانية: **وَ لَا يَرْضٰى لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ** و هذا أيضاً واضحٌ عقلاً لأنّ الكفر من أعظم النّقائص و أقبح العيوب كما أنّ الإيمان من أحسن الكمالات فالكفر منشأ الرّذائل و المفاسد و الإيمان أصل المحاسن و الفضائل و حيث أنّ اللّه تعالى منزّهٌ عن القبائح فلا يرضى لعباده الإتّصاف بها.

قال القرطّبي في تفسيره لهذه الآية ما هذا لفظه، و قيل لا يرضى الكفر و إن أراده، فاللّه يريد الكفر من الكافر و بإرادته كفر و لا يرضاه و لا يحبّه فهو يريد كون ما لا يرضاه و قد أراد اللّه عزّ وجلّ خلق إبليس و هو لا يرضاه فالإرادة غير الرّضا و هذا مذهب أهل السُّنة إنتهى.

أقول أمّا أنّ الإرادة غير الرّضا فلا كلام لأحدٍ من العقلاء فيه لأنّ مرتبة الإرادة بعد الرّضا فالرّضا بالفعل بمنزلة الأصل و الإرادة فرعٌ عليه فبينهما العموم و الخصوص المطلق بمعنى أنّ كلّ مريدٍ فهو راض بما أراده و ليس كلّ راضٍ مريد إذ كثيراً ما يكون الإنسان راضياً بشيءٍ و لا يريده لأجل المصلحة الّتي يراها في تركه، و أمّا أنّ المريد قد لا يكونُ راضياً فهو غير معقول إذ في صورة عدم الرّضا كيف أراد فعله و المفروض أنّه فاعلٌ مختار.

١- فاطر = ١٥

و على هذا فقوله لا يرضى الكفر و أن أراده، و قوله و اللّه يريد الكفر من الكافر و بإرادته كفر و لا يرضاه و لا يحبّه، كلام بلا محصلّ لا يشبه كلام العقلاء و ذلك لأنّ اللّه مختار في فعله و إرادته فكيف لا يرضى الكفر و أراده أو كيف أراد الكفر من الكافر و لا يرضاه أليس للكافر أن يقول لربّه يوم الحساب إذا كنت غير راضٍ عن كفري فلم أردت كفري و خلقتني عليه و لم تعاقبني على الكفر الّذي أردته منّي أليس هذا من الظُّلم القبيح.

و أنا أظّن بل أعلم علماً قطعيّاً أنّ أبا الحسن الأشعري الّذي قلدّه القرطّبي و غيره من الأشاعرة، لم يفهم ما قال فضلاً عن مقلّديه فأنّ العقل السّليم يحكم بأنّ الفاعل القادر المختار لا يريد ما لا يرضى به و الآية حجّة عليه فأنّ اللّه يقول لا يرضى لعباده الكفر و معنى الكلام لا يرضى لعباده الكفر الّذي إتّصف به بعد الخلق بإختياره و هذا ممّا لا إشكال فيه و أمّا أنّه أراد من الكافر الكفر و بإرادته كفر فهذا غير معقول.

الثّالثة: قوله **وَ إِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ** أي و أن تشكروا على ما أنعم اللّه به عليكم يرضه لكم و يثيبكم عليه و الأصل فيه بعد حكم العقل بوجوب شكر المنعم هو قوله تعالى:

وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[١].

و قوله تعالى حكايةً عن سليمان النّبي عليه السلام:

وَ قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ[٢].

وقال رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم: ما فتح اللّه لعبدٍ باب شكر فخزن عنه باب الزّيادة إنتهى.

و عنه صلى الله عليه وآله وسلم: قال أنّ المؤمن ليشبع من الطّعام و الشّراب فيحمد اللّه فيعطيه اللّه من الأجر ما يعطي الصّائم أنّ اللّه شاكرٌ يحبّ أن يحمد إنتهى.

١- إبراهيم = ٧ ٢- النّمل = ١٩

و عن الصّادق عليه السلام قال أيّما عبدٍ أنعم اللّه عليه بنعمةٍ فعرفها بقلبه و حمد اللّه عليها بلسانه لم ينفذ كلامه حتّى يأمر اللّه بالزّيادة قول اللّه عزّ وجلّ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[١] إنتهى[٢].

و من المعلوم أنّ العبد إذا عمل بوظيفته المقرّرة له فأنّ اللّه يحبّه و يرضى عنه.

الرّابعة: قوله **وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ** و هكذا الحُكم أيضاً ممّا يحكم به العقل فأنّ المذنب يؤخذ بذنبه و هذا مطابق للعدل و أمّا المؤاخذة عن غير المذنب بذنبٍ أتى به غيره فهو من أقبح الظُّلم و أفحشه و اللّه تعالى منزّهٌ عنه قيل في ذلك دلالة على بطلان قول المجبّرة في أنّ اللّه تعالى يعذّب أطفال الكفّار بكفر آباءهم، و هو كذلك إذ الطِّفل غير مكلّفٍ و من لا تكليف له لا ذنب له لرفع القلم عنه و من لا ذنب له لا عقاب له.

الخامسة: قوله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ** أمّا الرُّجوع الى الرَّب فالوجه فيه أنّ كلّ شيءٍ يرجع الى أصله.

قال اللّه تعالى: **إِنَّا لِلَّهِ وَ إِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**[٣].

قال اللّه تعالى: **إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ**[٤].

قال اللّه تعالى: **إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ**[٥].

و الأيات كثيرة.

و قوله: **فَيُنَبِّئُكُمْ** فالنبأ الخبر أي يخبركم في الأخرة بما عملتم به في الدُّنيا إن خيراً فخيراً و إن شرّاً فشرّاً فأنّ اللّه عليمٌ بذات الصُّدور لا يخفى عليه شيءٌ.

١- إبراهيم = ٧
٢- مشكاة الأنوار باب الشُّكر ص ٢٧
٣- البقرة = ١٥٦
٤- العَلَق = ٨
٥- المائدة = ١٨

وَ إِذا مَسَّ ٱلْإِنْسانَ ضُرٌّ دَعا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِۦ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ ٱلنّارِ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن تحّول حال الإنسان و تغّيره و تلّونه و أنّه لا يبقى على حالٍ لضعف إيمانه و قلّة يقينه و ذلك أنّه إذا مسّه ضرّ من فقرٍ أو مرضٍ أو قحطٍ أو غير ذلك ممّا لا يوافق طبعه دعا، عند ذلك ربّه و يتضرّع إليه و منيباً أي راجعاً راغباً فيه **ثُمَّ إِذا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ** التّخويل العطّية العظيمة على جهة الهبة و هى المنحة، و المعنى إذا أعطي نعمةً عظيمة من اللّه تعالى.

نَسِيَ ما كانَ يَدْعُوٓا إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ يعني نسي ربّه الّذي كان يدعوه من قبل حين إبتلاءه بالضُّر.

وَ جَعَلَ لِلّٰهِ أَنْدادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِۦ النّد المثل أي و جعل الأوثان و الأصنام شركاء للّه ليضلّ عن طريق الحقّ و يأخذ بالباطل (قل) يا محمّد له تمتّع بكفرك قليلاً، مدّة حياتك فأنّها قليلة جدّاً **إِنَّكَ مِنْ أَصْحابِ ٱلنّارِ** أي مصيرك إلى النّار و بئس القرار.

أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ ٱللَّيْلِ ساجِدًا وَ قائِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَ يَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَ ٱلَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبابِ

و التّقدير أمن هو قانتٌ كمن ليس كذلك لأنّه موضع معادلة، و القانت الدّاعي فأنّ القنوت الدّعاء و قيل القانت الدّائم على الطاعة للّه.

و حاصل معنى الآية أم من هو قانتٌ أناء اللّيل، أي يدعو اللّه في ساعاته في حال السُّجود و القيام و هو في هاتين الحالتين يحذر الأخرة أيضاً و يرجو رحمة ربّه يوم القيامة، كمن خالف ذلك فأنّهما لا يتساويان أبداً، قل يا محمّد

لهم على وجه الإنكار هل يستوي الّذين يـعملون و الّـذين لا يـعملون فأنّـهما أيضاً لا يتساويان و بعبارةٍ أخرى المؤمن المتَّهجد الخائف عن الأخرة الرّاجي لرحمة ربّه لا يساوي من ليس كذلك كما أنّ العالم لا يقاس بالجاهل.

و في قوله: **إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا ٱلْأَلْبَابِ** إشارة إلى أنّ الفرق بينهما ثابت عند العقلاء الّذين عقولهم خالصةً عن شوب الوهم و أمّا الجهّال فلا معرفة لهم بهذه الأمور.

■

قُلْ يٰا عِبٰادِ ٱلَّذِينَ اٰمَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ
أَحْسَنُوا فِي هٰذِهِ ٱلدُّنْيٰا حَسَنَةٌ وَ أَرْضُ ٱللّٰهِ
وٰاسِعَةٌ إِنَّمٰا يُوَفَّى ٱلصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ
حِسٰابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللّٰهَ
مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ
ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّيٓ أَخٰافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى
عَذٰابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللّٰهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ
دِينِي ﴿١٤﴾ فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ
ٱلْخٰاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ
يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلٰا ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾
لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ
ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ يٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ
﴿١٦﴾ وَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطّٰاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهٰا وَ
أَنٰابُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرٰى فَبَشِّرْ عِبٰادِ ﴿١٧﴾
ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ
أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدٰيهُمُ ٱللّٰهُ وَ أُولٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا
ٱلْأَلْبٰابِ ﴿١٨﴾ أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ
أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي ٱلنّٰارِ ﴿١٩﴾ لٰكِنِ ٱلَّذِينَ
ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَعْدَ ٱللّٰهِ لٰا يُخْلِفُ
ٱللّٰهُ ٱلْمِيعٰادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللّٰهَ أَنْزَلَ مِنَ
ٱلسَّمٰآءِ مٰآءً فَسَلَكَهُ يَنٰابِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ

يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرٰيهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرٰى لِأُولِي ٱلْأَلْبابِ ﴿٢١﴾ أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللّٰهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ فَهُوَ عَلٰى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ ﴿٢٢﴾ اَللّٰهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتٰابًا مُتَشٰابِهًا مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلٰى ذِكْرِ ٱللّٰهِ ذٰلِكَ هُدَى ٱللّٰهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذٰابِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَقِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰيهُمُ ٱلْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لٰا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذٰاقَهُمُ ٱللّٰهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيٰا وَلَعَذٰابُ ٱلْاٰخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كٰانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنٰا لِلنّٰاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكٰاءُ مُتَشٰاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لٰا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

◀ اللّغة

ظُلَلٌ: جمع ظلّة و هى السّترة القائمة.

ٱلطَّٰغُوتَ: كلّ مت عبد من دون اللّه فهو طاغوت.

أَنَابُوٓا: الإنابة الرّجوع بالتّوبة.

تُنْقِذُ: الانقاذ الإخراج.

غُرَفٌ: جمع غرفة و هى المنزل الرّفيع في الجنّة.

يَهِيجُ: الهيج شدّة الإشطراب.

حُطَٰمًا: الحطام فتات التبن و الحشيش.

تَقْشَعِرُّ: أي تضطرب.

مُتَشَٰكِسُونَ: التّشاكس التّمانع و التّنازع و في الشُّركاء متشاكس في البيع و الباقي واضح.

◀ الإعراب

ظُلَلٌ مبتدأ و، لهم، الخبر و مِنْ فَوْقِهِمْ حال من ظلل و مَنْ ٱلنَّارِ نعتٌ له أَفَمَن مبتدأ و الخبر محذوف تقدير كمن نجا ثُمَّ يَجْعَلُهُ الجمهور على الرّفع كِتَٰبًا بدل من أحسن تَقْشَعِرُّ نعتٌ ثالث مَثَلًا رَجُلًا رجلاً بدل من مثل.

◀ التّفسير

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ

قل، يامحمّد يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا باللّه و رسله ٱتَّقُوا رَبَّكُمْ أي إجتنبوا معاصيه لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ و الإحسان فعل الخيرات و من كان كذلك فله في هذه الدّنيا حسنة، أي ثناءٌ جميلٌ.

و قال السُّدي صحّة و سلامة و عافية وَ **أَرْضُ ٱللَّهِ وٰاسِعَةٌ** فأن لم تقدروا على أفعال الخير و الإحسان إلى الغير و العمل الصّالح في بلدكم فتهاجروا منها إلى بلدٍ أخر فأنّ أرض اللّه واسعة و الرّزاق هو اللّه تعالى، و قيل المراد المهاجرة من دار الشّرك إلى دار الإيمان و ما ذكرناه أولى و أعمّ فأنّ الحكم عامّ يشمل الجميع سواء كان دار الشّرك أم دار الإيمان و ذلك لأنّ الملاك في المهاجرة من أرضٍ إلى أرضٍ هو وجود الموانع في العمل بالأحكام و خصوص البلد لا إعتبار به و المقصود هو الإتيان بالحسنات و ترك السّيئات أينما وجد.

و قيل أرض اللّه أي أرض الجنّة واسعة، و هذا القول باطل و سياق الآية ينفيه و ذلك أنّ الآية بصدد بيان الخيرات و الحسنات في الدّنيا لا في الأخرة لأنّها ليست بدار العمل هذا أوّلاً.

ثانياً: لا مهاجرة هناك كانت الأرض واسعة أم لم تكن ثمّ قال تعالى: **إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصّٰابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسٰابٍ** يوم القيامة و ذلك أنّهم صبروا على الشّدائد و المكاره في دار الدّنيا و قوله بغير حساب لا ينافي ما ورد و أنّ الثّواب على قدر الطّاعة، و ذلك لأنّ فضل اللّه لا يقدَّر بقدرٍ فقوله: **بِغَيْرِ حِسٰابٍ** أي بفضل اللّه الّذي لا نهاية له.

قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ ٱلدِّينَ

أي قل يامحمّد لهم إنّي أمرت، من جانب اللّه تعالى، أن أعبد اللّه على أساس الإخلاص و الإخلاص في العمل الإتيان به بداعي أمره قربةً إلى اللّه و قد مرَّ الكلام في الإخلاص و أشرنا إلى بعض الأخبار الواردة فيه:

فعن الصّادق عليه السلام: قال اللّه عزّ وجلّ أنا خير شريك من أشرك معي في عملٍ عمله لا أقبله إلاّ ما كان لي خالصاً إنتهى.

و إذا كان الإخلاص محبوباً مطلوباً للشّارع فالنّبي أولى به من غيره.

وَ أُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ

أي المطيعين المنقادين لأوامر اللّه و نواهيه و الوجه فيه ما ذكرناه فأنّ معطي الشّئ لا يكون فاقداً له و الرّسول هو الّذي يأتي بالدّين من قبل اللّه لإرشاد الخلق و هدايتهم و اذا كان كذلك فهو أولى بقبول الأحكام، و العمل بها ضرورة أنّ من يدعوا النّاس إلى طاعة اللّه فهو أطوع و إلاّ يكون كاذباً في دعوته و لذلك أمرنا اللّه بمتابعته و التّأسي به.

قال اللّه تعالى: **وَ مآ اٰتيٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَ ما نَهيٰكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا**[١].

قال اللّه تعالى: **لَقَدْ كانَ لَكُمْ في رَسُولِ ٱللّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**[٢].

قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

والوجه فيه، أنّ العذاب مترتبٌ على المعصية فالعصيان بمنزلة العلّة و العذاب بمنزلة المعلول و إذا وجدت العلّة وجد المعلول فالمعصية من أيّ شخصٍ صدرت يتبعها العقاب و هذا حكمٌ عقلي لا إستثناء فيه لعدم التّخصيص في العقليّات و اذا كان كذلك فلا فرق بين النّبي و غيره في ترتّب العقاب على المعصية بل هو في حقّ النّبي أولى منه في حقّ أمّته كما أنّه في حقّ العالم أولى منه في حقّ الجاهل.

إن قلت النّبي معصوم، و المعصوم لا يذنب فما معنى الآية.

قلت النّبى، معصوم لأنّ اللّه عصمه من الزلّل و الخطأ و أمّا أنّه لا يقدر في ذاته على المعصية فلا دليل عليه و بعبارةٍ أخرىٰ فرقٌ واضح بين القدرة على المعصية و فعلّيتها و العصمة تنفي الفعليّة لا القدرة، كيف لا و هذا هو الأصل في أفضليّة الأنبياء و الأوصياء على الملائكة و قد فصّلنا الكلام فيه سابقاً.

قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي

١- الحَشر = ٧ ٢- الأحزاب = ٢١

و تقدير الكلام قل أعبد اللّه، قدّم المفعول و هو، اللّه، على الفعل، لإفادة الحصر أي حصر المعبود في اللّه ألا ترىٰ أنّك إذا قلت ضربت زيداً، لا يدلّ هذا على عدم الضّرب على عمروٍ مثلاً فأنّ إثبات الشّيْ لا ينفي ماعداه و أمّا إذا قلت زيداً ضربت بتقديم المفعول معناه حصر الضَّرب في زيد و ما نحن فيه من هذا القبيل فالمعنى قل اللّه أعبد علىٰ وجه الإنحصار أي لا أعبد يغره و قوله: **مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**، معناه ديني الّذي إرتضيته لنفسي فهو خالص لربّي لا أشرك بعبادة ربّي أحداً.

فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ ٱلْخٰاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ أَلاٰ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ

قوله: **فَاعْبُدُوا مٰا شِئْتُمْ**، الظّاهر أنّه من قول النّبي حكاه اللّه تعالىٰ أنّه قال لهم فأعبدوا ما شئتم من دونه، إذ لو كان من قول اللّه تعالىٰ فأعبدوا ما شئتم من دوني و على هذا فمعنى الآية أنّ النّبي بعد ما قال لهم إنّي أمرت أن أعبد اللّه مخلصاً و قال أمرت أن أكون أوّل المسلمين إلىٰ قوله: **مُخْلِصًا لَهُ دِينِي**، قال لهم فأعبدوا ما شئتم من دون اللّه ثمّ أمره اللّه أن يقول لهم **إِنَّ ٱلْخٰاسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا أَنْفُسَهُمْ وَ أَهْلِيهِمْ** بتركهم عبادة اللّه و إختيارهم عبادة الأوثان و الأصنام.

أَلاٰ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرٰانُ ٱلْمُبِينُ و أيُّ خسرانٍ أشنع من الكفر ثمّ بيّن اللّه تعالى ذلك الخسران و قال:

لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ ٱلنّٰارِ وَ مِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللّٰهُ بِهِ عِبٰادَهُ يٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ

ظُلَل، بضمّ الظّاء و فتح اللاّم علىٰ وزن، قلل، جمع ظلّة و هي السّترة القائمة من فوقهم، أخبر اللّه تعالىٰ في هذه الآية عن كيْفية العذاب في جهنّم فقال لهم

أي لهؤلاء الكفّار ظللٌ أي أستارٌ من فوقهم أي فوق رؤسهم من النّار و كذلك من تحتهم ظلل من النّار و المقصود أنّ النّار قد أحاطت بهم من فوقهم و من تحتهم أعاذنا اللّه منه، ثمّ قال ذلك يخوّف اللّه به عباده، فأنّ حكم الأمثال واحد ثمّ قال: **يٰا عِبٰادِ فَاتَّقُونِ** و التّقدير يا عبادي فأتّقوني و الكسرة في الدّال و النّون تدّل علىٰ حذف الياء و المعنى يا عبادي فأتّقوني بترك المعاصي و فعل الطّاعات فقوله ظللٌ من فوقهم و من تحتهم، من قبيل:

قوله تعالىٰ: **يَوْمَ يَغْشٰيهُمُ ٱلْعَذٰابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ**[١].

قوله تعالىٰ: **لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهٰادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوٰاشٍ**[٢].

فهذه الأيات وأمثالها كناية عن إحاطة العذاب و لا مخلص منه إلاّ بالطّاعة و الإنقياد و الإجتناب عن الكفر و العناد كما قال:

وَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطّٰاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهٰا وَ أَنٰابُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ فَبَشِّرْ عِبٰادِ، ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ أُولٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدٰيهُمُ ٱللّٰهُ وَ أُولٰٓئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ

لمّا أشار اللّه تعالى الى كيفيّة أحوال الخاسرين يوم القيامة و بيّن ما يترتّب على الخسران من العذاب الموحش أشار في هذه الأيات الى أحوال المطيعين و ما يترتّب علىٰ الطّاعة والإنقياد من أنواع النِّعم يوم القيامة.

فقال: **وَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا ٱلطّٰاغُوتَ** قيل الطّاغوت جماعة الشّياطين، و قيل كلّ ما عبد من دون اللّه فهو طاغوت، و الإجتناب ترك متابعة الطّاغوت قولاً و فعلاً، و الحقّ أنّ الطّاغوت عبارة عن كلّ متّعدٍ و كلّ معبودٍ من دون اللّه و في قولنا متّعدٍ إشارة إلى تجاوز الحدّ في الطُّغيان و مصاديق الطّاغوت كثيرة في كلّ عهدٍ و زمانٍ من صدر الخلقة إلى زماننا هذا.

١- العنكبوت = ٥٥ ٢- الأعراف = ٤١

قال اللّه تعالىٰ: **لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطّٰاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللّٰهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقىٰ لَا ٱنْفِصَامَ لَهٰا وَ ٱللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، ٱللّٰهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ ٱلظُّلُمٰاتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطّٰاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمٰاتِ أُولـٰئِكَ أَصْحٰابُ ٱلنّٰارِ هُمْ فِيهٰا خٰالِدُونَ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحٰاكَمُوٓا إِلَى ٱلطّٰاغُوتِ وَ قَدْ أُمِرُوٓا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ**(٢).

و غيرها من الأيات و الّذي يستفاد من جميعها هو أنّ الطّاغوت لا يختصّ بالأوثان و الأصنام و لا لِعبادتهما بأن يتّخذها الإنسان معبوداً بل يجب ترك الطّاغوت و متابعتها قولاً و فعلاً ولو بغير العبودّية فمن تحاكم إلىٰ الطّاغوت فقد أخذ به و تابعه كما صرَّحت به الآية و لأجل هذه الدّقيقة قال في الآية والّذين إجتنبوا الطّاغوت فأنّ الإجتناب يشمل الجميع.

إن قُلت قوله بعد ذلك أن يعبدوها صريحٌ بأنّ المراد بالإجتناب أن لا يعبدوها.

قُلت من تحاكم إلى الطّاغوت و قبل حكمه فقد عبده و ذلك لأنّ العبادة الخضوع للمعبود و قد فعله ثمّ قال تعالىٰ: **وَ أَنٰابُوٓا إِلَى ٱللّٰهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرىٰ فَبَشِّرْ عِبٰادِ** الإنابة في الأصل الرّجوع يقال أناب إليه إذا رجع و لذلك قال بعضهم الإنابة التّوبة هكذا قيل و الحقّ هو الفرق بينهما و ذلك أنّ التّوبة رجوعٌ عن المخالفة إلى الموافقة فالتّائب يرجع عن مخالفة الرّب إلىٰ موافقته أي عن معصيته إلى طاعته.

و أمّا الإنابة فهي الرّجوع إلى اللّه فهي أعلى و أشرف مِن التّوبة و سيأتي الكلام فيها في موضعه فقوله و أنابوا إلىٰ اللّه هو الإعراض عن كلّ ما سواه و

١- البقرة = ٢٥٦ و ٢٥٧ ٢- النّساء = ٦٠

الإقبال إليه تعالى بالكلّية و هذا من أعلى المقامات و أرفع الدّرجات و أفضل القربات فأنّ العبد إذا أقبل بجميع شئونه إلى ربّه فقد فاز فوزاً عظيماً، قال لهم البشرى.

ثمّ قال: **فَبَشِّرْ عِبَادِ** أي عبادي الّذين يستمعون القَول فيتّبعونه، أي فبشّر عبادي بذلك البشرىٰ يا محمّد ثمّ بيَّن معنى العباد فكأنّه قيل و من العباد الّذين يستحقّون به فقال تعالىٰ: **ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ** من القائل به فيتّبعون أحسنه أي يأخذون بأحسن الأقوال و يعملون به.

في هذا الكلام إشارة إلىٰ أنّ كلّ قولٍ لا يؤخذ به فأن الكلام الصّادر عن المتكلّم على ضربين، حقٌّ و باطلٌ و الحقّ يؤخذ به و الباطل يترك، ثمّ أنّ الحقّ و هو الّذي ليس بباطلٍ، له مراتب، فمنه أحسن، كما أنّ الباطل أيضاً كذلك فمن الكلام باطل و منه أبطل، فالكذب مثلاً باطلٌ في حدّ نفسه من أيّ شخصٍ صدر و مع ذلك هو من العالم أبطل و من الإمام أبطل و من اللّه أبطل أي أقبح و أشنع، و هكذا في الحقّ إذ الحقّ و الباطل متقابلان فإذا قال القائل صلُّوا و صوموا أو حجّوا، ثمّ قال صلُّوا بداعي القربة و صوموا بداعي القربة، و قال صلُّوا متقرّباً إلى اللّه و لا تعصوا اللّه في حال الصّوم و هكذا فجميع هذه الأقوال حقّ إلاّ أنّ أحسنها أجمعها.

و من المعلوم أنّ الصّوم بقصد القربة و ترك المعصية أحقّ بالقبول من الصّوم المقرون بالذّنب إذا عرفت هذا فقوله تعالى في تفسير العباد **ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ** معناه أن يأخذ بأحسن الأقوال الصّادرة عن المتكلّم و هذا حكمٌ عقلّي فأنّ العاقل يختار الأحسن في جميع الموارد فإذا دار الأمر بين الإحسان و الإنفاق إلى البعيد و القريب فالقريب أولى و أحسن عقلاً و شرعاً.

و لذلك جعل اللّه تعالىٰ السَّمع للإستماع و العقل للحكم و حيث أنّ تخشيص الأحسن و تمييزه من الأقوال لا يتيسّر لكلّ مستمع قال: **أُولٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدٰيهُمُ ٱللّٰهُ وَ أُولٰئِكَ هُمْ أُولُوا ٱلْأَلْبٰابِ** أي أنّ الّذين يَستمعُون القول فيتَّبعون أحسَنه، لهم وصفان:

أحدهما: هداية اللّه إيّاهم.

الثّاني: خلُو عقلهم عن الأوهام والوساوس الشّيطانية، فأنّ اللبّ العقل الخالص فالوصف الأوّل إشارة إلىٰ أنّ التّوفيق من اللّه.

الثّاني: إشارة إلىٰ أنّ تخليص العقل عن الأوهام بالرّياضات و المجاهدات النّفسانية كما أنّ تخليطه بها أيضاً تحت قدرته.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذٰابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى ٱلنّٰارِ

و الهَمَزة في المقامين للإنكار أي ليس كذلك، قال اللّه تعالىٰ، أفمن حقّ عليه كلمة العذاب بسبب العصيان كمن وجب له الوعد بالثّواب جزاءً على إيمانه و طاعته، فقوله كمن وجب له الوعد، محذُوف لدلالة الكلام عليه.

و قوله: **أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِى ٱلنّٰارِ**، لا تقدر عليه، أو لا يملك ذلك، محذوف لدلالة الكلام عليه أيضاً، فمعنى الجملة الأولى أنّهما لا يستويان، و معنى الجملة الثّانية أنّ العقاب وجب له بكفره و لازم الشّئ لا ينفكّ عن ملزومه و ليس هذا من الجبر كما زعم بعضهم إذ الآية لا تدلّ على أنّ اللّه خلقه كذلك حتّىٰ يلزم الجبر بل الآية تدلّ على أنّه من أهل النّار في علمه تعالى بأنّه يفعل بإختياره الكفر و إذ تحقّق الملزوم تحقّق اللاّزم و المفروض أنّه كان قادراً على إختيار الإيمان أيضاً إلاّ أنّه لم يختره بسوء سريرته و خبث ذاته و الإمتناع بالإختيار لا ينافي الإختيار.

لٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهٰا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ٱلْأَنْهٰارُ وَعْدَ ٱللّٰهِ لاٰ يُخْلِفُ ٱللّٰهُ ٱلْمِيعٰادَ

غُرَف بضمّ الغين و فتح الرّاء جمع غرفة بسكون الرّاء مثل، قلّة و قلل، والغرفة البناء العالي الرّفيع و بذلك سمّيت منازل الجنَّة بالغرف لأنّها من أحلى المنازل و أرفعها و عد اللّه المتّقين بها في الجنّة فقال لكن الّذين إتّقوا ربّهم، بفعل الطّاعات و إجتناب المعاصي لهم، غرف، أي منازل رفيعة من فوقها أيضاً غرف في الجنّة مبنيّة، بقدرة اللّه تجري من تحتها الأنهار، وعد اللّه، أي ذلك وعد اللّه و اللّه لا يخلف الميعاد.

في تفسير علّي بن إبراهيم **لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ** بأسناده عن أبي جعفر عليه السلام قال:

سَأل علّيٌ رسول اللّه صلى الله عليه وآله وسلم عن تفسير هذه الآية فقال لِماذا بُنيّت هذه الغرف يارسول اللّه فقال يا علّي تلك غرف بناها اللّه لأوليائه بالدُّر و الياقوت والزَّبرجد سقوفها الذَّهب محبوكة بالفّضة لكلّ غرفةٍ منها ألف باب من ذهبٍ على كلّ بابٍ منها ملكٌ موكّل به و فيها فرشٍ مرفوعة بعضها فوق بعضٍ من الحرير و الدّيباج بألوان مختلفة و حشوها المسك و العنبر و الكافور و ذلك قول اللّه عزّ و جلّ، و فرش مرفوعة، و اذا دخل المؤمن إلى منازله في الجنّة وضع على رأسه تاج الملك والكرامة و ألبس حلل الذّهب و الفضّة و الياقوت و الدُّر منظوماً في الأكليل تحت التّاج و ألبس سبعين حلّة، إلىٰ أخر الحديث بطوله.

و أمّا قوله: **وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ**، فمعناه واضح و من أصدق من اللّه قيلاً و خلف الوحد قبيحٌ و اللّه منزّهٌ عنه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ

الخطاب للنّبي و المراد جميع الأمّة على وجه التّنبيه لهم على الأدلّة الدالّة على توحيده و قدرته و إختصاصه بصفاتٍ لا يشركه فيها أحد غيره فقال: **أَلَمْ تَرَ**، يامحمّد، أنّ اللّه أنزل من السّماء ماءً، و هو المطر **فَسَلَكَهُ يَـنَابِيعَ فِـى ٱلْأَرْضِ** و الينابيع جمع ينبوع و هو خروج الماء من العيون، و قيل الينبوع المكان الّذي ينبع فيه الماء.

أقُول الضّمير في سلكه راجع على الماء أي أدخله، و اليانبيع على ما قاله الرّاغب في المفردات، جميع ينبوع و هو العين الّذي يخرج منه الماء و جمعه ينابيع إنتهىٰ كلامه.

و المقصود أنّ الماء الموجود تحت الأرض من الأمطار النّازلة من السّماء و الدّليل عليه أنّ كثرة الماء المذخور تحت الأرض و قلّته تدور مدار كثرة المطر و عدمها و هذا من المحسوسات و لا يحتاج الى دليلٍ يدلّ عليه **ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُۥ** أي بعد نزول المطر يخرج اللّه تعالى به أي بسبب الماء زرعاً مختلفاً ألوانه، من الحنطة و الشّعير و العدس و غير ذلك، و قيل المراد بالزّرع ما ثبت على غير ساق وبغير الزّرع ما ثبت على ساقٍ كالشّجر و النّبات يعمّ الجميع و من المعلوم أنّ النّبات بجميع أقسامه يوجد من الماء و لذلك لا نبات في الأرض الّتي لا ماء فيها.

ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ثمّ بعد الخضرة يهيج الزّرع.

قال الجوهري هاج النّبت هياجاً أي يبس و أرض هائجة يبس بقلها أو إصفَّر، و أهاجت الرّيح النّبت أي أيبسته، و قيل هاجت الأرض إذا أدبر نبتها و ولّى، فتراه مصّفراً، أي يبدّل لونه من الإخضرار إلى الإصفرار، ثمّ بعد ذلك يصير حطاماً أي فتاتاً مكسّراً من تحّطم العود إذا تفتّت من اليبس كلّ ذلك مشاهد محسوسٌ.

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَابِ أي أنّ فيما ذكرناه من إنزال الماء من السّماء و سلوكه في الأرض و خروجه منها لإنبات الزّرع و يبسه بعد ذلك إلى أن يجعل حطاماً، لذكرىٰ، أي ما يتذكّر به و يفكّر فيه لأولي الألباب أي ذوي العقول السَّليمة و لنعم ما قيل فيه:

تفكّر في نبات الأرض وأنظر إلى أثار ما صنع المليك
ففي رأس الزُّبرجد شاهداتٌ بأنّ اللّه ليس له شريكٌ

و هذا هو المراد من هذه الآية فمن تأمَّل فيها و في أمثالها من الأيات الواردة في مراحل الخلقة سواء كانت في النَّبات أم في الجماد و الحيوان و الإنسان و كان له عقل سليم من أفات الوهم لا شكّ في اللّه و أنّه تعالى هو القادر على ذلك فلا يعبد إلاّ هو و لا إله إلاّ هو و لا معبود غيره و لا مؤثّر في الوجود إلاّ هو و بالجملة هو الأوّل و الأخر و الظّاهر و الباطن و هو بكلّ شيءٍ عليم و على كلّ شيءٍ قديرٌ، كما قيل:

وفي كلّ شيءٍ له أيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

أَفَمَنْ شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُولَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ

أصل الشّرح بسط اللَّحم و نحوه يقال شرحت اللّحم و شرحته و منه شرح الصَّدر أي بسطه بنورٍ الّهى و سكينة من جهة اللّه و روح منه.

قال اللّه تعالىٰ: **رَبِّ اشْرَحْ لي صَدْري، وَ يَسِّرْ ليَ أَمْري، وَ احْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسانى**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **فَمَنْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلامِ**[٢].

و قال تعالىٰ في مقام الإمتنان لنبيّه: **أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ**[٣].

١- طٰه = ٢٥ الى ٢٧
٢- الأنعام = ١٢٥
٣- الإنشراح = ١

و إذا شرح اللّه صدر العبد فلا محالة هو على نورٍ من ربّه، و على هذا فيصير معنى الأية، أفمن شرح اللّه صدره للإسلام فهو على نورٍ من ربّه، كمن ليس كذلك و الجواب منّفى فالهَمزة للإنكار و أنّما حذفت لدلالة الكلام عليه و نظائره في القرأن كثيرة ثمّ قال تعالىٰ: **فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ ٱللّٰهِ أُولٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ** الويل العقاب و القسوة غلظ القلب و أصله من حجرٍ قاس و معنى الكلام أنّ العقاب ثابت لمن كان قسي القلب أي كان قلبه متّصفاً بالغلظة و الخشونة بعيداً عن الرَّحم و الشَّفقة و قد ذمّ اللّه تعالى القاسية قلوبهم في كثيرٍ من الأيات.

قال اللّه تعالىٰ: **ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لٰكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**[٢].

قال اللّه تعالىٰ: **فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ**[٣].

قال بعض العُرفاء القساوة ملكة عدم التّأثر عن تألُّم أنباعِ النّوع و لا ريب في كونه ناشئاً من غلبة السَّبعية و أكثر ذمائم الصّفات من الظُّلم و الإيذاء إغاثة المظلومين و عدم مواساة الفقراء وا لمحتاجين و غير ذلك يترتّب عليه و ضدّه الرَّحمة و الرّقة و هو التّأثُر عن مشاهدة ألم أبناء نَوعه.

قال رسول اللّه ﷺ: قال اللّـه أطلبوا الفضل من الرُّحماء تعَّيشوا في أكنافهم فإنّي جعلت فيهم رحمتي و لا تطلبوه من القاسية قلوبهم فأني جعلت فيهم سخطي إنتهىٰ.

و قال الصّادق عليه السلام: إتَّقوا اللّه و كونوا إخوة بررة متّحابين في اللّه متواصلين متراحمين إنتهىٰ.

١– البقرة = ٧٤ ٢– الأنعام = ٤٣

٣– الحديد = ١٦

وقوله عليه السلام: تواصلوا و تبارّوا و تراحموا و كونوا إخوة بررة كما أمركم اللّه إنتهىٰ.

و قد ورد أنّ من ترحّم على العباد يرحمه اللّه و الأخبار كثيرة[١].

و لا يخفىٰ عليك أنّ إزالة القساوة و إكتساب الرّحمة في غاية الإشكال إذ القساوة صفة راسخة في القلب لا يقدر الإنسان على تركها بسهولةٍ فطريق العلاة أن يترك لوازمها و أثارها من الأفعال الظّاهرة و يواظب على ما يترتّب علىٰ الرّحمة من الصّفات الإختياريّة و يكلّف نفسه على ذلك حتّى يرتفع على التّدريج، و قد ظهر بذلك أنّ قساوة القلب يترتّب عليها الظُّلم بأنواعه هدَّد اللّه صاحبها بالويل و العقاب و في قوله: **مِنْ ذِكْرِ ٱللَّهِ** إشارة إلىٰ أنّ القلب الخالي عن ذكره تعالىٰ مشغولٌ بذكر الشّيطان فيفعل بما يرضاه و من كان كذلك فهو في ضلالٍ مبينٍ، أي ظاهر و هو واضح.

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتٰابًا مُتَشٰابِهًا مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ذٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشٰآءُ وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ

لمّا حكم اللّه في الآية السّابقة بالويل للقاسية قلوبهم من ذكر اللّه أشار في هذه الآية إلى أوصاف الكتاب فقال: **ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ** و هو القرأن فأنّ فيه أحسن الحديث من القصص و المواعظ و بيان الأحكام و أوصاف الجنَّة و النّار و غير ذلك.

كِتٰابًا مُتَشٰابِهًا مَثٰانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ نصب كتاباً، على البدل من قوله: **أَحْسَنَ** و المراد به القرأن و قوله: **مُتَشٰابِهًا** إلى أخر الآية وصف للكتاب و إختلفوا في المراد بالتّشابه فقال بعضهم معناه متشابهاً

١- جامع السّعادات ج ١ ص ٣٧٣

في الحكم الّتي فيها من الحجج والمواعظ و الأحكام الّتي يعمل عليها في الدّين و صلاح التّدبير فيشبه بعضه بعضاً، ذكره في التّبيان.

و قيل يشبه بعضه بعضاً في الأي و الحروف و قيل يشبه كتب اللّه المنزلة على أنبيائه لما يتضمّنه من أمرٍ و نهي و ترغيبٍ و ترهيبٍ، و قيل يشبه بعضه بعضاً في الحسن و الحكمة و يصدّق بعضه بعضاً ليس فيه تناقض و إختلاف.

قوله: **مَثَانِيَ** ففيه إشارة إلىٰ تكرار بعض القصص و المواعظ و الأحكام لأجل المصالح الّتي خفيت علىٰ النّاس و قوله: **تَقْشَعِرُّ مِنْهُ،** معناه تضطرب من القرأن، جلود الّذين يخشون ربّهم، من الخوف بما فيه من الوعيد كالأيات الّتي نزلت في أوصاف جهنّم و كيفيّة العذاب فيها و أنّما خصّ ذلك بالّذين يخشون ربّهم، لأنّ من لا يخشى اللّه لا يخاف فأنّ الخوف فرعٌ على معرفة اللّه و أنّ ما قاله فيكتابه صدقٌ و حقٌّ و أمّا من لا معرفة له فلا يخاف و بعبارةٍ أخرى المؤمن يخاف و يرجو دون الكافر و الفاسق و الغافل و هو واضح.

و إلى ذلك المعنى أشار بقوله: **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ** ثمّ بعد الخشوع تلين جلودهم، الإتيان بكلمة، ثمّ، الدّالة على التّراخي مشعرٌ بأنّ لينة الجلود متفرّعةٌ على الخشية و هو كذلك فمن لم يخش اللّه لم يلن جلده من خوف العقاب.

و قال بعض المُفسّرين في قوله: **ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَ قُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ،** أي عند أية الرّحمة تلين قلوبهم و كيف كان لا شكّ في أنّ القرأن و تلاوة أياته و التّأمل فيها يوجب ذلك ففي المؤمن يوجب الإضطراب و الخوف و الدّهشة عند تلاوته أيات الوعيد و يوجب الرّحمة و الإطمئنان عند تلاوته أيات الوعد لخشية قلبه و الرّجاء برحمته و أمّا في المنافق فليس كذلك ثمّ قال اللّه تعالىٰ: (ذلك هُدىٰ اللّه يهدي به من يشاء) يعني ما قلناه من إقشعرارا قلب المؤمن عند أيات الوعيد ولينها عند قراءة أيات الوعد هدى اللّه أي لطفه و عنايته بعبده المؤمن يفعل ذلك لمن يشاء من عباده.

وَ مَنْ يُضْلِلِ ٱللّٰهُ فَمٰا لَهُ مِنْ هٰادٍ قيل معناه من أضلّه اللّه عن طريق الجنّة لا يقدر أحدٌ على هدايته إليها، و قيل مَن خذله اللّه فلا مرشد له.

و نحن نقول معناه من وكّله اللّه إلىٰ نفسه لأجل عناده و عدم قبوله الحقّ و كثرة معاصيه، فلا هادي لَه لعَدم قابليّته للصّلاح والسّداد فيقال لهم: **ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ** «**وَ سَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ**» **إِنّٰا لِلّٰهِ وَ إِنّٰآ إِلَيْهِ رٰاجِعُونَ.**

أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوٓءَ ٱلْعَذٰابِ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ

و تقدير الأية، أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن لا يتّقي، أي لا يتساويان حذف لدلالة الكلام عليه كما مرَّ نظائره تقدير الكلام (أم مَن سَعدَ) و قيل التّقدير، كمن يدخل الجنّة، و المأل في الكلّ واحد و ما ذكرناه أوّلاً فهو أشمل و أوفق بسياق الكلام و معنى الآية أفمن يتّقي أي يجتنب سوء العذاب يوم القيامة كمن ليس كذلك و هو من أهل الجنّة، قيل أنّ الكافر يلقى في النّار مغلولاً و لا يمكنه أن يتّقي و يجتنب النّار إلاّ بوجهه معنى يتّقي يتوّقاها.

وَ قِيلَ لِلظّٰالِمِينَ ذُوقُوا مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ والقائل الملائكة و في قوله: **مٰا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ** إشارة إلى أنّ العذاب بسبب أعمالهم في الدّنيا التّي فعلوها بإختيارهم و ما ربّك بظلاّمٍ للعبيد و قد أشير بهذا المعنى في كثيرٍ من الأيات.

جزء ٢٣

كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتٰيهُمُ ٱلْعَذٰابُ مِنْ حَيْثُ لاٰ يَشْعُرُونَ

أخبر اللّه تعالى في هذه الآية عن الأمم الماضية من الكفّار و فيه إشارة إلىٰ أنّ حكم الأمثال واحد و العذاب لا يختصّ بقوم دون قوم بل هو من ثمرات الكفر و العصيان من أيّ شخص صدر و حيث أنّ الكفّار قبلهم كذّبوا الأنبياء و الشّرائع فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون به فأنّ اللاّزم لا ينفكّ عن ملزومه شعروا به أم لم يشعروا.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْيَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ ٱلْأٓخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

الخزي الذِّلة و الحقارة و المعنى أنّ الماضيين من الكفّار، أذاقهم اللّه الذّلة و النّكبة في الحياة الدّنيا كقوم نوح و عاد و ثمود و غيرهم و ليس عذابهم منحصراً به بل عذاب الأخرة أكبر و أشدَّ و أعظم من عذاب الدُّنيا لو كانوا يعلمون و ذلك لأنّ عذاب الدّنيا لا دوام له بخلاف عذاب الأخرة فأنّه لا ينقطع عنهم هذا بحسب الكيفيّة و أمّا بحسب الكميّة فهو أيضاً أكثر من عذاب الدّنيا.

وَ لَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ

في هذه الآية أشار اللّه تعالىٰ إلىٰ أنّ الغرض من الأمثلة الّتي ذكرها اللّه في القرأن التّذكر و التّنبه و الإتّعاظ بها كما هو فائدة المثل في جميع الموارد.

قال اللّه تعالىٰ: **وَ لَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هٰذَا ٱلْقُرْاٰنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ**(١).

قال اللّه تعالىٰ: **مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا ٱلتَّوْرٰيةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا**(٢).

شَبَّه اللّه في هذه الآية علماء اليهود الّذين علموا و لم يعملوا بعلمهم بالحمار الّذي يحمل أسفاراً، لا يعلم ما يحمل فأنّ العالم إذا لم يعمل بعلمه كذلك و هذا المعنى هو الّذي ينبغي أن يتذّكر به القاريئ و هكذا جميع الأمثلة و لا نحتاج إلى إطالة الكلام في الباب.

قُرْاٰنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

أي أنزلناه قرأناً عرّبياً غير ذّي عِوج.

قال الرّاغب في المفردات العِوج العطف عن حال الإنتصاب و المعنى أنّ القرأن غير ذي قيلٍ عن الحقّ فلا يعدل عنه بل هو مستقيم موصلٌ إلى الحقّ و

١- الكهف = ٥٤
٢- الجمعة = ٥

يقال في الكلام عوج بكسر العين إذا عدل عن جهة الصّواب و قوله: **لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ**، أي لكي يتّقون و لا يقاسوا القرآن بغيره من الكتب الّتي تحتوي على الحقّ و الباطل و اذا كان كذلك فمن عمل بما فيه رشد و أصاب و من أعرض عنه هلك.

قال اللّه تعالىٰ: **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ اَلَّذِيٓ أَنْزَلَ عَلٰى عَبْدِهِ اَلْكِتٰابَ وَ لَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا**[١].

قال اللّه تعالىٰ: **لا تَرٰى فِيهٰا عِوَجًا وَ لآ أَمْتًا**[٢].

ضَرَبَ اَللّٰهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكٰآءُ مُتَشٰاكِسُونَ وَ رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيٰانِ مَثَلًا اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ

قال الفرّاء متشاكسون أي مختلفون و قال المبرّد أي متعاسرون، و قيل التّشاكس التّمانع و التّنازع.

و قوله: **رَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ**، أي مطيعاً و منقاداً لسيّده، و هذا مثل ضربه اللّه للموّحد بعبادته و المنقاد لربّه، و المشرك في عبادته غير موّحدٍ لربّه، هل يستويان مثلاً.

و من المعلوم أنّهما لا يستويان لأنّ الخالص لمالكٍ واحد يستحقّ من معونته ما لا يستحقّه صاحب الشّركاء المختلفين في أمره فالموّحد الخالص في توحيده و عبادته يستحقّ من ربّه ما لا يستحقّه غيره، **اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ**، الحقّ أو لا يعلمون الفرق فيتّبعونه.

إِنَّكَ مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ

أخبر اللّه في هذه الآية أنّ الموت للجميع إستثناء فيه و لذلك قال مخاطباً لنبيّه أنّك ميّت و أنّهم ميّتون و السّر في هذا الحكم أنّ الموجود على ضربين،

١- الكهف = ١
٢- طٰه = ١٠٧

واجب الوجود، و ممكن الوجودثالث في المقام فالحصر عقليّ و ذلك لأنّ الموجود أن كان وجوده عين ذاته فهو الواجب وأن كان عارضاً عليه فهو الممكن و قد ثبت أنّ كلّ عرّضي معلّل أي محتاج إلى العلّة فالممكن في عروض الوجود على ذاته و ماهيّته يحتاج إلى چالعلّة و هی أن كان ممكناً فيتسلسل و أن كان واجباً فهو المطلوب فقد ثبت أنّ الممكن معلولٌ للواجب.

و إذا ثبت هذا فوجوده من غيره و كلّ ما وجد بالغير فهو للغير و اذا كان مالك الوجود في الممكن هو اللّه تعالىٰ فهو له أن شاء أبقاه و إن شاء أفناه و إلى هذا المعنىٰ أشار بقوله:

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ، وَ يَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو اَلْجَلالِ وَ اَلْإِكْرامِ(١).

و قد مرَّ الكلام فيه غير مرّةٍ فيما مضىٰ و سيأتي الكلام فيه أيضاً.

ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ اَلْقِيٰمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ

الإختصام ردّ كلّ واحدٍ من الأثنين ما أتىٰ به الأخر، و المعنى أنكم يوم القيامة تختصمون.

قال إبن عبّاس يعني تخاصم الكافر و المؤمن و الظّالم و المظلوم.

أقول من أظهر مصاديق الآية في هذه الأمّة تخاصم أئمّة الضّلال و أتباعهم الّذين أضلُّوهم عن طريق الحقّ و أوقعوهم في تيه الضّلالة و الغواية.

فأنّ هذه الأمّة قد إفترقت بعد نبيّها، و الدّين واحد والكتاب واحد و الرّسول واحد و المعبود واحد فمن فرَّق بينهم و أوجد الإختلاف فيهم غير أئمّة الضّلال الّذين باعوا أخرتهم بدنياهم و أضلُّوا كثيراً من النّاس لا يعلم عدّتهم إلاّ اللّه تعالىٰ: **أُولٰئِكَ اَلَّذِينَ اَشْتَرَوُا اَلضَّلالَةَ بِالْهُدىٰ فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَ ما كانُوا مُهْتَدِينَ، والحمدُ لِلّه ربّ العالمين.**

١- الرّحمٰن = ٢٧ / ٢٦

هذا تمام الكلام في الجزء الثّالث و العشرين و يتلوه الجزء الرّابع و العشرون و نسأل اللّه أن يوّفقنا لإتمام الأجزاء.

أنا العبد الذّليل محمّد تقّي بن محمّد باقر، في عاصمة طهران ٢٢ شعبان ١٤٢٦ هجري ٦ / ٧ / ١٣٨٤ شمسى.

■

الفهرست

■

■

■

■